AUB Libraries

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

Cat. July 1940

الوقت من ذهب
مكتبة القراءة والثقافة الأدبية

الدكتور أحمد فريد رفاعي
مدير إدارة الصحافة والنشر
والثقافة المصرية

189.3
G41غ
V.1-3
C.1

مطبوعات دار المأمون

سلسلة زعماء الفلسفة والأدب والأخلاق

حلقة

الغزالي

في مجلدين

مضبوطة ومشروحة ومعلقاً عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

المجلد الأول

حقوق الطبع محفوظة

58019

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

BIBLIOTECA CENTRAL

اعتراف بالجميل

تدين هذه السلسلة من سلسلة زعماء الفلسفة والأدب والأخلاق العربية لمكتبة القراءة والثقافة الأدبية إلى حضرة صاحب المعالى الأستاذ الجليل على زكى العرابى باشا وزير المعارف ، ووكيله الأستاذ العالم محمد العشماوى بك ، وحضرات معاونيهما لأمجاد فى تقرير مبدأ مراجعة الوزارة لأصولها النهائية خدمة للثقافة واللغة والأدب .

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين أما بعد

فقد قال العماد الأصفهاني

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

العماد الأصفهاني

الإهداء

إلى ملوك المسلمين

إلى أقيال[1] المسلمين

إلى زعماء الإصلاح الإسلامي

إلى الفكرة الإنسانية المحمدية المتواضعة

إلى روح الغزالي المسلم المتصوف

ثم إلى حضرات أصحاب الدولة والمعالي والسعادة، الذين أحسنوا إليّ في إخراج هذا الكتاب

ثم إلى حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقي باشا إذ مكنني - حفظه الله في فترة محنتي من الانصراف إلى ذلك النوع من الحياة الإسلامية الهادئة، في عزلة وتسامح ومحبة وغفران.

وإلى حضرتي صاحبي الدولة: محمد توفيق نسيم باشا الذي أعادني إلى الخدمة وعلي ماهر باشا الذي حاول إنصافي - واللذين بعثا بذلك في نفسي شيئاً من الأمل في إبراز ما وقفت عليه في تلك الفترة الخالدة من سني حياتي، من قراءات ومطالعات وثقافات[2]

وإلى حضرة صاحب السعادة الاقتصادي الكبير محمد طلعت حرب باشا الذي حباني بعطفه وعونه ومروءته حين قل الإخوان وتنكر[3] الزمان

---

١ اقيال: جمع قيل وهو الرئيس دون الملك

٢ ثقافات: جمع ثقافة بمعنى ما حذقه الانسان وحفظه

٣ تنكر الزمان: تغير عن حال تسر الى حال تكره

إلى حضرة صاحب المعالي الأستاذ النابغة الكبير علي زكي العرابي باشا
وزير المعارف، في وزارة الأمة، الذي بعث في شخصي الضعيف،
بما قرره من مبدأ مراجعة أئمة اللغة في وزارته، ما أعمل على
إحيائه من مؤلفات العرب، وشخصيات الإسلام معنى
الأمل فيما يسفر عنه الجلد والمجالدة، والصبر والمجاهدة،
لخدمة اللغة والثقافة والوطن

ثم أخيرا وأولا

إلى زعيم الوطنية في مصر، ورمز الصلاح والتقوى في الشرق
ومثال المحبة الإنسانية السامية في الإسلام، أستاذي
وزعيمي وويلي نعمتي، حضرة صاحب الدولة: مصطفى النحاس باشا
أهدي هذا الكتاب

الخادم المخلص الأمين

أحمد فريد رفاعي

دار المأمون في ربيع الآخر سنة ١٣٥٥
يولية سنة ١٩٣٦

صدرت هذه المجموعة في فجر العهد الدستوري

لحضرة صاحب الجلالة الملك

فاروق الأول

حفظه الله

كَلِمَةُ فَضِيلَةِ مَوْلَانَا الْأُسْتَاذِ الْأَكْبَرِ
الشَّيْخِ مُحَمَّدِ مُصْطَفَى الْمَرَاغِيِّ شَيْخِ الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ

إِذَا ذُكِرَتْ أَسْمَاءُ الْعُلَمَاءِ ، اتَّجَهَ الْفِكْرُ إِلَى مَا امْتَازُوا بِهِ مِنْ فُرُوعِ الْعِلْمِ ، وَشُعَبِ الْمَعْرِفَةِ : فَإِذَا ذُكِرَ ابْنُ سِينَا ، أَوِ الْفَارَابِيُّ ، خَطَرَ بِالْبَالِ فَيْلَسُوفَانِ عَظِيمَانِ مِنْ فَلَاسِفَةِ الْإِسْلَامِ ؛ وَإِذَا ذُكِرَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ خَطَرَ بِالْبَالِ رَجُلٌ صُوفِيٌّ ، لَهُ فِي التَّصَوُّفِ آرَاءٌ لَهَا خَطَرُهَا ؛ وَإِذَا ذُكِرَ الْبُخَارِيُّ ، وَمُسْلِمٌ ، وَأَحْمَدُ ، خَطَرَ بِالْبَالِ رِجَالٌ لَهُمْ أَقْدَارُهُمْ فِي الْحِفْظِ ، وَالصِّدْقِ ، وَالْأَمَانَةِ ، وَالدِّقَّةِ ، وَمَعْرِفَةِ الرِّجَالِ .

أَمَّا إِذَا ذُكِرَ الْغَزَالِيُّ ، فَقَدْ تَشَعَّبَتِ النَّوَاحِي ، وَلَمْ يَخْطُرْ بِالْبَالِ رَجُلٌ وَاحِدٌ ، بَلْ خَطَرَ بِالْبَالِ رِجَالٌ مُتَعَدِّدُونَ ، لِكُلٍّ وَاحِدٍ قُدْرَتُهُ وَقِيمَتُهُ .

يَخْطُرُ بِالْبَالِ الْغَزَالِيُّ ، الْأُصُولِيُّ ، الْحَاذِقُ ، الْمَاهِرُ ؛ وَالْغَزَالِيُّ الْفَقِيهُ الْحُرُّ ؛ وَالْغَزَالِيُّ الْمُتَكَلِّمُ إِمَامُ السُّنَّةِ ،

وَحَامِي حِمَاهَا؛ وَٱلْغَزَالِيُّ ٱلِاجْتِمَاعِيُّ، ٱلْخَبِيرُ بِأَحْوَالِ ٱلْعَالَمِ، وَخَفِيَّاتِ ٱلضَّمَائِرِ، وَمَكْنُونَاتِ ٱلْقُلُوبِ، وَٱلْغَزَالِيُّ ٱلْفَيْلَسُوفُ، أَوِ ٱلَّذِي نَاهَضَ[1] ٱلْفَلْسَفَةَ، وَكَشَفَ عَمَّا فِيهَا مِنْ زُخْرُفٍ وَزَيْفٍ[2]، وَٱلْغَزَالِيُّ ٱلْمُرَبِّي، وَٱلْغَزَالِيُّ ٱلصُّوفِيُّ ٱلزَّاهِدُ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: إِنَّهُ يَخْطُرُ بِٱلْبَالِ رَجُلٌ هُوَ دَائِرَةُ مَعَارِفِ عَصْرِهِ، رَجُلٌ مُتَعَطِّشٌ إِلَى مَعْرِفَةِ كُلِّ شَيْءٍ، نَهِمٌ[3] إِلَى جَمِيعِ فُرُوعِ ٱلْمَعْرِفَةِ. وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِمَّا قَالَهُ ٱلْغَزَالِيُّ عَنْ نَفْسِهِ فِي كِتَابِ ٱلْمُنْقِذِ مِنَ ٱلضَّلَالِ: «وَلَمْ أَزَلْ فِي عُنْفُوَانِ شَبَابِي مُنْذُ رَاهَقْتُ ٱلْبُلُوغَ، وَقَدْ أَنَافَتِ[4] ٱلسِّنُّ ٱلْآنَ عَلَى ٱلْخَمْسِينَ، أَقْتَحِمُ لُجَّةَ هَذَا ٱلْبَحْرِ ٱلْعَمِيقِ، وَأَخُوضُ غَمْرَتَهُ[5]، خَوْضَ ٱلْجَسُورِ، لَا خَوْضَ ٱلْجَبَانِ ٱلْحَذُورِ، وَأَتَوَغَّلُ فِي كُلِّ مُظْلِمَةٍ، وَأَتَهَجَّمُ عَلَى كُلِّ مُشْكِلَةٍ، وَأَتَقَحَّمُ[6] عَلَى كُلِّ وَرْطَةٍ، وَأَتَفَحَّصُ عَقِيدَةَ كُلِّ فِرْقَةٍ، وَأَكْشِفُ أَسْرَارَ مَذْهَبِ كُلِّ طَائِفَةٍ؛ لِأُمَيِّزَ بَيْنَ

(١) ناهض الفلسفة: قاومها (٢) الزيف: رداءة النقد لما به من غش
(٣) نهم: شره (٤) أنافت السن: زادت (٥) غمرته: كثرته ومعظمه
(٦) أتقحم: أهجم

مُحِقٍّ وَمُبْطِلٍ ، وَمُتَسَنِّنٍ وَمُبْتَدِعٍ ، لَا أُغَادِرُ بَاطِنِيًّا إِلَّا وَأُحِبُّ أَنْ أَطَّلِعَ عَلَى بِطَانَتِهِ ، وَلَا ظَاهِرِيًّا إِلَّا وَأُرِيدُ أَنْ أَعْلَمَ حَاصِلَ ظِهَارَتِهِ ، وَلَا فَلْسَفِيًّا إِلَّا وَأَقْصِدُ الْوُقُوفَ عَلَى كُنْهِ فَلْسَفَتِهِ ، وَلَا مُتَكَلِّمًا إِلَّا وَأَجْتَهِدُ فِي الِاطِّلَاعِ عَلَى غَايَةِ كَلَامِهِ وَمُحَاوَلَتِهِ ، وَلَا صُوفِيًّا إِلَّا وَأَحْرِصُ عَلَى الْعُثُورِ عَلَى سِرِّ صَفْوَتِهِ ، وَلَا مُتَعَبِّدًا إِلَّا وَأَتَرَصَّدُ مَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَاصِلُ عِبَادَتِهِ ، وَلَا زِنْدِيقًا[1] إِلَّا وَأَتَجَسَّسُ وَرَاءَهُ لِلتَّنَبُّهِ إِلَى أَسْبَابِ جُرْأَتِهِ فِي تَعْطِيلِهِ[2] وَزَنْدَقَتِهِ »

وَمَعَ أَنَّ الْفَلْسَفَةَ لَيْسَتْ هِيَ الْفَرْعَ الْبَارِزَ عِنْدَ الْغَزَالِيِّ مِنْ فُرُوعِ الْمَعْرِفَةِ ، فَقَدْ قِيلَ عَنْهُ مِنْ أَسَاطِينِهَا[3] الْغَرْ بِيِّينَ :

« لَمْ تُنْتِجِ الْفَلْسَفَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِكْرًا مُبْتَدِعًا كَالْغَزَالِيِّ » وَقِيلَ عَنْهُ : « إِنَّ أَمْثَالَ الْغَزَالِيِّ مُعْضِلَةٌ فِي نَظَرِ الْفَلْسَفَةِ ، فَأَشْخَاصُهُمْ حَقَائِقُ رُوحِيَّةٌ تَحْتَاجُ إِلَى تَوْضِيحٍ ».

---

(١) الزنديق : من يبطن الكفر ويظهر الايمان (٢) مذهب التعطيل : هو الذى ينكر أصحابه صفات البارى تعالى أولا يثبتونه (٣) الاساطين : جمع اسطوانة ، وهى فى اللغة العمود . والمراد هنا كبار العلماء وثقاتهم

وَيُعَدُّ ٱلْغَزَالِيُّ بِحَقٍّ ، إِمَامَ أَهْلِ ٱلْبَيَانِ ، فِي ٱلْأُسْلُوبِ ٱلْعِلْمِيِّ ، وَٱلْأُسْلُوبِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ ، وَقَدْ حَرَصَ أَشَدَّ ٱلْحِرْصِ عَلَى إِفْهَامِ ٱلْقَارِئِينَ وَإِقْنَاعِهِمْ بِمَا يُرِيدُ إِبْلَاغَهُمْ إِيَّاهُ ، فَجَانَبَ ٱلتَّعْقِيدَ وَٱلِاصْطِلَاحَاتِ ٱلْفَنِّيَّةَ ، وَأَكْثَرَ مِنْ ضَرْبِ ٱلْأَمْثَالِ فِي تَقْرِيبِ ٱلْمَعَانِي ٱلدَّقِيقَةِ ، كَمَا يُعَدُّ بِحَقٍّ ، إِمَامَ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلَّذِينَ حَاوَلُوا تَقْرِيبَ ٱلْفَلْسَفَةِ ، وَمُدْرَكَاتِ ٱلصُّوفِيَّةِ ، إِلَى عَقَائِدِ ٱلدِّينِ وَقَوَاعِدِهِ .

وَقَدْ نَصَبَ[1] ٱلدُّكْتُورُ أَحْمَدُ فَرِيدٍ ٱلرِّفَاعِيُّ نَفْسَهُ لِبَحْثِ هَذِهِ ٱلشَّخْصِيَّةِ ٱلْفَذَّةِ ، وَعَرْضِ آثَارِهَا عَلَى ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْجُمْهُورِ .

وَٱلْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ فَرِيدٍ ٱلرِّفَاعِيُّ — بِمَا هُيِّئَ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ ٱلدَّرْسِ ، وَمَا وُفِّقَ لَهُ مِنْ بَعْثِ مَكْنُونِ ٱلشَّخْصِيَّاتِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ — قَدِ ٱسْتَطَاعَ أَنْ يُبْرِزَهُ لِلنَّاسِ مِرْآةً صَافِيَةً ، تَتَمَثَّلُ فِيهَا شَخْصِيَّةُ ٱلْغَزَالِيِّ ، وَتَظْهَرُ فِيهَا رُوحُهُ ٱلْقَوِيَّةُ ٱلْوَثَّابَةُ ، غَيْرَ نَاسٍ أَنْ يَزِنَ حُجَجَ خُصُومِ ٱلْغَزَالِيِّ ، وَأَنْ

(١) نصب : أقام

يُنَاقِشَهَا فِي رِفْقٍ وَأَنَاةٍ ، لَمْ يُوَفَّقْ لَهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ عَرَضُوا[1] لِدِرَاسَةِ الشَّخْصِيَّاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْفَذَّةِ .

وَهُوَ حِينَ يَكْتُبُ سِيرَةَ الْغَزَالِيِّ ، يُفَصِّلُهَا تَفْصِيلًا مَبْنِيًّا عَلَى خَيْرِ مَا تُكْتَبُ بِهِ سِيَرُ الرِّجَالِ ، وَيَعْرِضُهَا لِلنَّاسِ سِلْسِلَةً وَاضِحَةً ، لِيُمَكِّنَ لَهُمْ مِنَ الِانْتِفَاعِ بِهَذَا السِّفْرِ الْحَافِلِ بِجَلَائِلِ الْأَعْمَالِ فِي شَتَّى مَرَاحِلِهِ ، نَاشِئًا فِي الْعِلْمِ ، وَمُتَدَرِّجًا فِي مَدَارِجِهِ ، وَمُتَشَكِّكًا فِي مَعْلُومَاتِهِ ، وَمُتَعَطِّشًا لِدِرَاسَةِ عُلُومِ عَصْرِهِ ، وَمُتَبَاعِدًا عَنِ الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ ، وَمُعْتَزِلًا فِي دَارِهِ ، وَمُتَصَوِّفًا ، وَمُدَرِّسًا بَاحِثًا ، وَفَيْلَسُوفًا حَكِيمًا ، وَمُرْشِدًا كَبِيرًا .

وَيَذْكُرُ كُتُبَ الْغَزَالِيِّ فَيَدْرُسُهَا دِرَاسَةَ الْمُتَفَهِّمِ لِمَرَامِيهَا ، الْمُوَضِّحِ لِمَقَاصِدِهَا ، وَيَجْلُو لِلنَّاسِ مَا فِيهَا مِمَّا يُهَذِّبُ الْخُلُقَ ، وَيُنِيرُ الطَّرِيقَ لِلْمُسْتَرْشِدِ ، وَيُثَقِّفُ الْعَقْلَ ، وَيُنَمِّي الْمَدَارِكَ ، وَيَصْقُلُ الْإِيمَانَ ، وَيُقَوِّي الْيَقِينَ .

وَيَذْكُرُ مَا اسْتَدْرَكَ خُصُومُ الْغَزَالِيِّ عَلَيْهِ ، مِنْ حِوَارٍ

(١) عرضوا : تعرضوا وتصدوا

وَحِجَاجٍ ، كَفَّرُوهُ بِهِ حِيناً ، وَجَهَّلُوهُ بِهِ آخَرَ ، فَيَتَعَهَّدُ لِتِلْكَ الشُّبَهِ[1] فَيَبْحَثُهَا وَيَكْشِفُ غَامِضَهَا ، وَلَا يُبْقِي عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا .

وَمَا كَانَ الْجَدَلُ بَيْنَ الْغَزَالِيِّ وَخُصُومِهِ نِزَاعًا بَيْنَ أَشْخَاصٍ فَلَا يُقَامُ لَهُ وَزْنٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ نِزَاعٌ بَيْنَ فِكْرَتَيْنِ ، أَوْ كَمَا يُسَمَّى فِي الْعِلْمِ الْحَدِيثِ ، نِزَاعٌ بَيْنَ آرَاءِ مَدْرَسَتَيْنِ .

فَالْغَزَالِيُّ ، مِزَاجٌ[2] مِنْ عُلُومٍ شَتَّى ، أَنْضَجَهَا الْبَحْثُ ، وَصَقَلَهَا التَّفْكِيرُ ، وَأَصْفَتْهَا تَجَارِبُهُ وَشُكُوكُهُ الْقَاسِيَةُ الَّتِي عَانَاهَا فِي نَشْأَتِهِ ، وَالَّتِي وَصَفَهَا وَصْفاً دَقِيقاً فِي كِتَابِهِ « الْمُنْقِذُ مِنَ الضَّلَالِ » ، وَخُصُومُهُ لَا يَسِيرُونَ عَلَى الطَّرِيقِ الَّتِي يَسِيرُ فِيهَا ، وَلَا يَشْعُرُونَ بِلَذَّةِ مَا ذَاقَ الْغَزَالِيُّ مِنْ عُلُومٍ رُوحِيَّةٍ ، وَتَصَوُّفٍ مَزَجَهُ بِالْفَلْسَفَةِ .

فَمُهِمَّةُ الدُّكْتُورِ الرِّفَاعِيِّ فِي إِبَانَةِ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ ، وَوَزْنِهَا جَيِّدًا ، مُهِمَّةٌ لَيْسَتْ بِالسَّهْلَةِ ، وَلَا بِالْيَسِيرَةِ ؛ لِأَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَعْرِضَ لِآرَاءِ الْغَزَالِيِّ وَنَظَرِيَّاتِهِ فِي

(١) الشبه : جمع شبهة ، وهى الالتباس (٢) مزاج : خليط

ٱلْفَلْسَفَةِ ، فَيُؤَكِّدَ لِلنَّاسِ أَنَّ ٱلْغَزَالِيَّ شَأْى فَلَاسِفَةَ ٱلْغَرْبِ وَسَبَقَهُمْ بِأَجْيَالٍ فِي تَقْرِيرِ بَعْضِ ٱلنَّظَرِيَّاتِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ ، عَلَى وَجْهٍ ٱمْتَازَ بِهِ هُوَ ، وَهُوَ صَبْغُهَا بِالتَّصَوُّفِ ٱلَّذِي رَأَى فِي آخِرِ حَيَاتِهِ أَنَّهُ ٱلْعِلْمُ ، وَٱلْعِلْمُ كُلُّهُ . وَأَنْ يُفْهِمَ ٱلْجَاحِدِينَ ٱلْمُكَابِرِينَ أَنَّ فَلَاسِفَةَ ٱلْمُسْلِمِينَ ، وَضَعُوا مِنَ ٱلنَّظَرِيَّاتِ فِي ٱلتَّرْبِيَةِ ، وَتَهْذِيبِ الطفلِ مَا يُوفِي عَلَى ٱلْغَايَةِ فِي هَذَا ٱلشَّأْنِ ، وَفِي نِظَامِ الدَّوْلَةِ ، وَشُؤُونِ ٱلْحَيَاةِ ، مَا يَكْفُلُ لِلنَّاسِ ٱلسَّعَادَةَ وَٱلْهَنَاءَةَ .

وَفِي ٱلْكِتَابِ بُحُوثٌ كَثِيرَةٌ ، تُعْتَبَرُ عَرْضًا عَامًّا لِحَيَاةِ ٱلْغَزَالِيِّ ٱلشَّخْصِيَّةِ وَٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَيَتَمَثَّلُ بِهِ أَحْسَنَ تَمْثِيلٍ .

وَلَوْ نُدِبَ ٱلْمُفَكِّرُونَ لِمِثْلِ مَا نَدَبَ ٱلدُّكْتُورُ ٱلرِّفَاعِيُّ نَفْسَهُ لِلْقِيَامِ بِهِ ، لَكَانَ لَنَا سِلْسِلَةٌ مِنْ دِرَاسَةٍ عَمِيقَةٍ ، لِأَبْطَالِ ٱلْفِكْرِ ٱلْإِسْلَامِيِّ وَقَادَتِهِ ؟

محمد مصطفى

المراغى

٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٥٥
١٧ يونيه سنة ١٩٣٦

مُقَدِّمَة

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ . وَٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلَى رَسُولِهِ ٱلْكَرِيمِ . « وَبَعْدُ » فَهَذَا مُوجَزٌ مِنَ ٱلتَّصْدِيرِ ، بَلْ هُوَ تَعْجِيزٌ مِنَ ٱلْإِعْجَازِ ، وَتَوَاضُعٌ صَغِيرٌ فِي تَوَاضُعٍ كَبِيرٍ ، وَٱعْتِرَافٌ بِقِلَّةِ ٱلْبِضَاعَةِ ، إِزَاءَ إِمَامِ ٱلْعَصْرِ وَٱلسَّاعَةِ ، وَٱبْتِهَالٌ إِلَى ٱلْوَاحِدِ ٱلصَّمَدِ أَنْ يُوَفِّقَنَا إِلَى حُسْنِ ٱلْإِصَابَةِ ، وَهَدَفِ ٱلْإِجَابَةِ ، وَيُمْنِ ٱلْإِفَادَةِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى ٱلنِّيسَابُورِيُّ ، أَحَدُ تَلَامِيذِ حُجَّةِ ٱلْإِسْلَامِ ٱلْغَزَالِيِّ : « لَا يَعْرِفُ ٱلْغَزَالِيَّ وَفَضْلَهُ إِلَّا مَنْ بَلَغَ ـ أَوْ كَادَ يَبْلُغُ ـ ٱلْكَمَالَ فِي عَقْلِهِ » فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَقُولَ ضَعِيفٌ مِثْلِي فِيمَا سَطَّرَ وَحَاوَلَ ؟ وَأَيُّ خَطَرٍ[1] لِصَنِيعِهِ فِيمَا جَمَعَ وَتَنَاوَلَ ؟ وَكَيْفَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلتَّمْهِيدِ لِقَوِيٍّ يَنْزِعُ مِنْ قُوَّتِهِ ، وَقَدِيرٍ بِالرَّأْيِ يُصْدِرُ عَنْ غَزِيرِ شِرْعَتِهِ[2] . إِلَّا أَنَّ

(١) قدر وقيمة (٢) الشرعة: مورد الماء ، والكلام على المجاز

سِفْرَنَا هَذَا ، قَدْ جَمَعَ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ إِمَامَ الْإِسْلَامِ فِي حَاضِرِهِ « الْأُسْتَاذَ الْمَرَاغِيَّ » وَحُجَّةَ الْإِسْلَامِ فِي غَابِرِهِ الْإِمَامَ الْغَزَالِيَّ ، عَلَى تَوَافُقٍ فِي الْفَضْلِ وَتَطَابُقٍ ، وَتَوَاثُبٍ إِلَى الْكَمَالِ وَتَسَابُقٍ ، فَكَأَنَّ التَّمْهِيدَ مَنَارٌ يَكْشِفُ السَّفِينَ ، وَيَتَبَيَّنُ الزَّوْرَقَ ، وَيُلْقِي بِضَوْئِهِ السَّنِيِّ الْمُشْرِقِ ، فَيَغْمُرُ صَفْحَةَ الْمَوْجِ الْمُصْطَفِقِ ، وَيَهْدِي الْمُسَافِرَ وَالسَّائِحَ ، وَالْغَادِيَ وَالرَّائِحَ ، إِلَى شَاطِئِ الْيَقِينِ ، وَسِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . أَوْ كَأَنَّهُ تَعَانُقُ الْأَغْصَانِ وَالْأَشْجَارِ ، وَمُنَاغَاةُ الْبَلَابِلِ وَالْأَطْيَارِ ، وَكَأَنَّكَ مَعَهُ فِي أَعْبَقِ شَمِيمٍ [١] ، وَأَرَقِّ نَسِيمٍ ، بَلْ كَأَنَّكَ فِيهِ فِي تَرْتِيلٍ وَتَرْنِيمٍ ، وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ .

وَإِنِّي لَضَعِيفُ الْبَيَانِ فِي « الْحُجَّتَيْنِ » عَاجِزٌ أَمَامَ نُبُوغِ الْأُمَّتَيْنِ [٢] ، مَاتِحٌ [٣] مِنْ فَيْضِ الْعَلَّامَتَيْنِ ، ضَعِيفٌ إِزَاءَ الْجِهْبِذَيْنِ [٤] ، مُهْتَدٍ بِسَنَى النَّيِّرَيْنِ .

وَعَلِمَ اللهُ أَنِّي قَدْ حَاوَلْتُ أَنْ أُسْهِبَ فِي التَّصْدِيرِ ،

---

(١) أى فى مشموم منتشر الرائحة (٢) الأمة الرجل الجامع للخير والامام (٣) ماتح : مستخرج ومستمد (٤) الجهبذين . مثنى جهبذ . وهو الناقد العارف بتمييز الجيد من الردىء

فَعَجَّزَنِى فِيهِ مَنْطِقُ ٱلْإِعْجَازِ فِى ٱلْحَالَتَيْنِ ، وَأَلْزَمَنِى ٱلتَّوَاضُعُ فِى صِغَرِهِ ٱلْخُشُوعَ أَمَامَ ٱلْعَظَمَتَيْنِ ٱلْمُتَوَاضِعَتَيْنِ فِى جَلَالِ ٱلتَّوَاضُعِ وَكِبَرِهِ ، فَانْثَنَيْتُ[1] وَلَمْ أُحَاوِلْ ، وَوَلَّيْتُ وَلَمْ أُطَاوِلْ ، وَأَدْبَرْتُ وَلَمْ أُصَاوِلْ[2] ، وَقَدْ غُمِرَ تَوَاضُعِى بِهُدًى مِنَ ٱلْجَذَلِ وَٱلسُّرُورِ ، وَسَنًى مِنَ ٱلْغِبْطَةِ وَٱلْحُبُورِ ، لِلظَّفَرِ بِهَذَا ٱلدُّرِّ ٱلْمَنْثُورِ ، وَذَيَّاكَ ٱلتَّصْدِيرِ مِنَ ٱلشُّذُورِ ، وَٱللُّبَابِ دُونَ ٱلْقُشُورِ ، وَٱلْمُتْعَةِ بِمَا حَوَى مِنْ لُطْفِ مَدْخَلٍ ، وَرِفْقِ تَنَاوُلٍ ، وَسَمَاحَةِ مَنْطِقٍ ، وَرَجَاحَةِ تَفْكِيرٍ ، جَاعِلًا مِنْهُ كِتَابِى كَالْهَامِشِ ، وَٱلْأَصْلَ فِيهِ كَالتَّذْيِيلِ ، وَبَرَاعَةَ ٱلِاسْتِهْلَالِ مِنْ هَذِهِ ٱلْفُصُولِ ٱلْبَارِزَةِ فِيمَا طَالَعَنَا بِهِ أُسْتَاذُنَا ٱلْجَلِيلُ ، ٱلْحُجَّةَ ٱلثَّالِثَةَ فِى ذَاتِهَا وَٱلدَّلِيلَ ، لِيَكُونَ ٱلْكِتَابُ كُلُّهُ فِى ٱلتَّجْزِئَةِ وَٱلتَّفْصِيلِ ، حُجَجًا لِلْإِسْلَامِ فِى ٱلْمُتَرْجَمِ لَهُ ، وَٱلْمُعَبَّرِ عَنْهُ ، وَٱلْمُجْتَهَدِ فِيهِ ، وَٱلْمُصَدِّقِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَٱلْمُنْتَفِعِ بِهِ مَعَ ٱلْمُنْتَفِعِينَ ، هُدًى وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ .

احمد فريد رفاعى

دار المأمون { ربيع الآخر سنة ١٣٥٥
يوليه سنة ١٩٣٦

(١) رجعت (٢) صال على قرنه : سطا

الغـــزالى

لمحات تمهيدية

(١) — الْعَصْرُ الْعَبَّاسِىُّ وأَثَرُ الْفَلْسَفَةِ فِيهِ

سلسلة التدرج

يَحْسُنُ بِنَا قَبْلَ أَنْ نُعَالِجَ الْكَلَامَ فِى حَيَاةِ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ أَبِى حَامِدٍ الْغَزَالِىِّ ، أَنْ نُلِمَّ فِى إِيجَازٍ بِسِلْسِلَةِ التَّدَرُّجِ الْفَلْسَفِىِّ ، الَّذِى مَهَّدَ لِظُهُورِ شَخْصِيَّتِهِ الْبَارِزَةِ ، وَأَنْ نَقِفَ فِى اخْتِصَارٍ عَلَى أَدْوَارِ التَّكْوِينِ الَّتِى سَبَقَتْهُ ، حَتَّى نَتَبَيَّنَ عَوَامِلَهَا فِيهِ ، وَنَسْتَخْلِصَ الْأَفَاعِيلَ[1] الَّتِى أَثَّرَتْ فِى ذِهْنِهِ وَنَفْسِهِ ، وَالْمَرَاحِلَ الَّتِى تَقَدَّمَتْ ظُهُورَهُ ....

فَإِنَّ لِذَلِكَ كُلِّهِ بِلَا رَيْبٍ صِلَةً وَثِيقَةً بِنُشُوئِهِ وَتَكْوِينِهِ .

الفلسفة قبل ظهور الغزالى

كَانَ ظُهُورُ الْإِمَامِ الْغَزَالِىِّ فِى النِّصْفِ الثَّانِى مِنَ الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْهِجْرِىِّ ، أَىْ فِى الْعَصْرِ الْعَبَّاسِىِّ الثَّالِثِ مِنْ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ إِلَى أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ هِجْرِيَّةً وَقَدْ سَبَقَ ظُهُورَهُ انْتِشَارُ الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْفَلْسَفَاتِ الْقَدِيمَةِ ، كَفَلْسَفَةِ الْهِنْدِ ،

(١) الأفاعيل : جمع أفعول أو أفعال : صيغة تختص بما يتعجب منه . قال السعد فى حواشى الكشاف : وهو عربى ، وقيل مولد

وَفَلْسَفَةِ ٱلْفُرْسِ كَذٰلِكَ ، — إِذَا نَحْنُ تَرَخَّصْنَا فِى ٱلتَّعْبِيرِ — إِذْ لَمْ تَكُنْ هٰذِهِ ٱلْفَلْسَفَةُ فِى ٱلْوَاقِعِ غَيْرَ مَا نَقَلَهُ ٱلْفُرْسُ مِنَ ٱلْفَلْسَفَاتِ ٱلَّتِى عَيَّنَّاهَا ، وَمَا أَصَابُوهُ مِنْ مَدْرَسَةِ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَتَرْجَمُوهُ عَنِ ٱلسُّرْيَانِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِمَّا نَقَلَهُ ٱلْعَرَبُ فِى نِهَايَةِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ ، وَصَدْرِ ٱلْعَهْدِ ٱلْعَبَّاسِىِّ مِنْ عُلُومِ ٱلْأُمَمِ ٱلَّتِى غَزَوْهَا ، وَٱلْأَقْطَارِ ٱلَّتِى أَخْضَعُوهَا لِسُلْطَانِهِمْ وَأَدْخَلُوهَا فِى دَائِرَةِ إِمْبَرَاطُورِيَّتِهِمْ ، وَكَانَ شَأْنُهُمْ فِيهَا وَمَعَهَا شَأْنَ ٱلِامْتِزَاجِ وَٱلتَّفَاعُلِ وَٱللِّقَاحِ وَٱلتَّوَالُدِ ، وَكَانَ حَالُهُمْ إِزَاءَهَا وَحَالُهَا إِزَاءَهُمْ أَنِ ٱنْقَلَبَ ٱلْغَازِى مَغْزُوًّا ، وَٱلْفَاتِحُ مَفْتُوحًا ، وَٱلْغَالِبُ بِنَفْسِهِ مَغْلُوبًا.

وَكَانَ لِهٰذَا ٱلنَّقْلِ عَنِ ٱلْحَضَارَاتِ ٱلْقَدِيمَةِ أَثَرُهُ بِلَا شَكٍّ فِى صَبْغِ ثَقَافَتِهِمْ بِلَوْنٍ جَدِيدٍ ، فَقَدْ كَانَ كُلُّ دَأْبِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ قَبْلَهُمُ ٱلْبَحْثَ فِى ٱلدِّينِ ، وَكَانَتْ ثَقَافَتُهُمْ فِى جَوْهَرِهَا دِينِيَّةً فِقْهِيَّةً لَا أَثَرَ فِيهَا لِلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ وَٱلْكَوْنِيَّةِ ، إِذْ كَانَ عَصْرُهُمْ فِى جُمْلَتِهِ قَرِيبًا مِنْ عَصْرِ ٱلتَّسْلِيمِ وَٱلْإِيمَانِ ، وَٱلِاقْتِنَاعِ وَٱلْإِذْعَانِ ، وَحُكْمِ ٱلسُّنَّةِ وَٱلْقُرْآنِ : عَصْرِ صَدْرِ ٱلْإِسْلَامِ .

وَلٰكِنَّ الدَّوْلَةَ الْعَبَّاسِيَّةَ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ غَيَّرَتْ وُجُوهَ التَّفْكِيرِ الْعِلْمِيِّ، بِسَبَبِ تَأَثُّرِ ثَقَافَتِهَا بِمَا أَدْخَلَ الْفُرْسُ عَلَيْهَا مِنْ عُلُومِ الْحَضَارَاتِ الْأُخْرَى، لِلتَّخْفِيفِ مِنْ حِدَّةِ الْاِنْدِمَاجَاتِ الدِّينِيَّةِ، وَالتَّيَّارَاتِ اللُّغَوِيَّةِ، وَالْمُنَاظَرَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالتَّفْسِيرِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، الَّتِي يَصِحُّ لَكَ أَنْ تُقَدِّرَهَا فِي أَمْنٍ مِنْ تُهْمَةِ الْغُلُوِّ، وَفِي قُرْبٍ مِنْ إِصَابَةِ الْوَاقِعِ، بِأَنَّهَا كَانَتْ مِلَاكَ[1] ثَقَافَةِ الْأُمَوِيِّينَ وَلُبَابَ مَشْغَلَتِهِمْ، وَقَدْ رَأَيْنَا النَّاسَ فِي عَهْدِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ ثُمَّ فِي عَهْدِ الرَّشِيدِ وَالْمَأْمُونِ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ جِدَّ مُتَأَثِّرِينَ بِهٰذَا الْعُنْصُرِ الطَّارِئِ وَالْوَجْهِ الْجَدِيدِ مِنَ الْعِلْمِ وَالتَّفْكِيرِ، بِسَبَبِ كَثْرَةِ مَا جَاءَ بِهِ النَّقَلَةُ مِنْ مُخْتَلِفِ أَبْوَابِ الثَّقَافَاتِ الْفَارِسِيَّةِ عَامَّةً وَالْإِغْرِيقِيَّةِ خَاصَّةً، فِي الْفَلْسَفَةِ وَالْأَخْلَاقِ إِلَى جَانِبِ عِنَايَتِهِمْ بِالْعُلُومِ الطِّبِّيَّةِ وَالْكِيمِيَائِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الثَّقَافَاتِ الْهِنْدِيَّةِ وَغَيْرِهَا.

وَلَقَدْ نَمَتْ[2] حَرَكَةُ النَّقْلِ، وَذَكَتْ[3] بَهْضَةُ

(١) الملاك: بالكسر والفتح - قوام الشيء ونظامه وما يعتمد عليه فيه
(٢) زادت وتضاعفت (٣) اتقدت وحميت

النَّرْجَمَةِ فِي ٱلْقَرْنَيْنِ ٱلثَّانِي وَٱلثَّالِثِ لِلْهِجْرَةِ ، وَٱنْتَشَرَتْ كُتُبُ « أَفْلَاطُونَ » و « أَرِسْطُو » و « بَطْلَيْمُوسَ » و « جَالِينُوسَ » وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ ٱلْأَغَارِقَةِ ٱلْغَابِرِينَ .

وَكَانَ أَثَرُ هٰذِهِ ٱلْحَرَكَةِ ٱلْعِلْمِيَّةِ ٱلْقَوِيَّةِ ٱلنَّاهِضَةِ بَادِيًا فِي نَاحِيَتَيْنِ : نَاحِيَةِ ٱلتَّوَسُّعِ وَٱلِابْتِكَارِ وَٱلْكَشْفِ ـ وَكَانَ ذٰلِكَ مَقْصُورًا عَلَى ٱلْعُلُومِ ٱلْمَادِّيَّةِ كَالطِّبِّ وَٱلْكِيمِيَاءِ « وَٱلْفُسْيُولُوجِيَا » وَعِلْمِ ٱلْمَعَادِنِ ، فَقَدْ جَاءُوا فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ بِمَا لَمْ يَجِئْ بِهِ ٱلْيُونَانُ مِنْ قَبْلِهِمْ ـ وَنَاحِيَةِ ٱلتَّطَوُّرِ وَٱلْإِذْدِكَارِ[1] وَٱلنَّظَرِ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ نَوَاحِي ٱلْعِلْمِ وَٱلثَّقَافَةِ ، كَٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْمَنْطِقِ وَعِلْمِ ٱلنَّفْسِ وَأَشْبَاهِهَا مِمَّا يَنْدَمِجُ فِي حُدُودِ ٱلْفَلْسَفَةِ .

العناية بالفلسفة اليونانية

وَقَدْ حَفِظُوا مَا نَقَلُوهُ مِنَ ٱلْمَوْرِدِ ٱلْإِغْرِيقِيِّ بِٱلدِّرَاسَةِ ٱلْمُتَعَمِّقَةِ ، وَٱلْبَحْثِ ٱلْمُسْتَقْصَى[2] ، وَٱلْعِنَايَةِ ٱلْبَالِغَةِ بِٱلنَّظَرِ وَٱلتَّنَاوُلِ ٱلدَّقِيقِ ، حَتَّى جَاءَتِ ٱلْحَضَارَةُ ٱلْغَرْبِيَّةُ ، فَأَخَذَتْ عَنْهُمْ مَا ٱسْتَحْدَثُوا ، وَنَقَلَتْ عَنْهُمْ مَا حَفِظُوا مِنَ ٱلْفَلْسَفَةِ

(١) ادكر واذدكر : بمعنى ذكر (٢) المستوعب : الممعن

ٱلْإِغْرِيقِيَّةِ ، وَٱسْتَظْهَرُوهُ[1] وَحَرَصُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلضَّيَاعِ ، سَوَاءٌ أَكَانَ ذٰلِكَ عَنْ طَرِيقِ ٱلْأَنْدَلُسِ ، أَمِ ٱلْحُرُوبِ ٱلصَّلِيبِيَّةِ ؟؟.

وَكَانَ أَشَدُّ مَا تَأَثَّرَ ٱلْعَرَبُ بِهِ فِي ٱلْقَرْنِ ٱلثَّانِي وَٱلثَّالِثِ هُوَ ٱلْفَلْسَفَةَ ٱلْيُونَانِيَّةَ ، وَبِخَاصَّةٍ فَلْسَفَةُ أَفْلَاطُونَ ٱلْحَدِيثَةُ ، وَكَانَ أَكْبَرَ دُعَاتِهَا وَٱلْمُرَوِّجِينَ لَهَا أَفْلَاطُونُ فِي ٱلْقَرْنِ ٱلثَّالِثِ مِنَ ٱلْمِيلَادِ .

وَأَوَّلُ مَنْ تَوَفَّرَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ عَلَى دِرَاسَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ هُوَ ٱلْكِنْدِيُّ ، وَكَانَتِ ٱلْفَلْسَفَةُ ٱلَّتِي تَأَثَّرَ بِهَا هِيَ ٱلْأَفْلَاطُونِيَّةَ ٱلْحَدِيثَةَ ٱلَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا ، وَكَانَتْ مَزِيجًا مِنَ ٱلْفَلْسَفَةِ وَٱلتَّصَوُّفِ ٱلدِّينِيِّ ، وَهٰذَا هُوَ مَا حَبَّبَهَا إِلَى ٱلنَّفْسِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ، وَجَعَلَ ٱلْعَرَبَ يُؤْثِرُونَهَا عَلَى سِوَاهَا مِنْ سَائِرِ فَلْسَفَاتِ ٱلْإِغْرِيقِ .

وَقَدْ نَقَلَ ٱلْكِنْدِيُّ كُتُبًا كَثِيرَةً عَنِ ٱلْيُونَانِ ، كَمَا وَضَعَ عِدَّةَ مُؤَلَّفَاتٍ ، وَتَأَثَّرَ كَذٰلِكَ بِتَعَالِيمِ أَرِسْطُو وَفَلْسَفَتِهِ ،

(١) حفظوه

وَحَضَرَ عَهْدَ ٱلْمَأْمُونِ وَٱلْمُعْتَصِمِ ، وَبَلَغَ عَدَدُ كُتُبِهِ فَوْقَ ٱلْمِائَتَيْنِ وَٱلْخَمْسِينَ ، كَمَا عَدَّدَهَا ٱبْنُ ٱلنَّدِيمِ فِي فِهْرِسْتِهِ ، وَكَمَا بَيَّنَهَا أَيْضًا صَاحِبُ كِتَابِ أَخْبَارِ ٱلْحُكَمَاءِ .

الفارابى

وَلَقَدْ جَاءَ بَعْدَئِذٍ « ٱلْفَارَابِيُّ » وَلَيْسَ مِنْ قَصْدِنَا أَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْهُ ٱلْآنَ ، وَكُلُّ مَا يَجِبُ أَنْ نَقِفَ عَلَيْهِ هُوَ أَنَّ ٱلْفَيْلَسُوفَ أَبَا نَصْرٍ ٱلْفَارَابِيَّ قَدْ حَضَرَ عَهْدَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ ، وَأَنَّ وَفَاتَهُ كَانَتْ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ ، وَأَنَّهُ قَدْ دَرَسَ ٱلْفَلْسَفَةَ ٱلْيُونَانِيَّةَ وَتَوَفَّرَ عَلَيْهَا ، وَأَخْلَدَ إِلَى ٱلْبَحْثِ فِي تَعَالِيمِ أَرِسْطُو وَكُتُبِهِ ، حَتَّى لَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ وُجِدَ كِتَابُ أَرِسْطُو فِي « ٱلنَّفْسِ » وَقَدْ كُتِبَ عَلَيْهِ بِخَطِّ ٱلْفَارَابِيِّ : إِنِّي قَرَأْتُ ٱلْكِتَابَ مِائَةَ مَرَّةٍ .

وَلَقَدْ لُقِّبَ ٱلْفَارَابِيُّ بِٱلْمُعَلِّمِ ٱلثَّانِي ، أَيْ أَنَّهُ يَجِيءُ بَعْدَ أَرِسْطُو فِي ٱلْقِيمَةِ وَٱلتَّقْدِيرِ ٱلْفَلْسَفِيِّ ، لِأَنَّ أَرِسْطُو هُوَ ٱلْمُعَلِّمُ ٱلْأَوَّلُ .

وَكَانَ كُلُّ هَمِّ ٱلْفَارَابِيِّ أَنْ يُثْبِتَ ٱتِّفَاقَ ٱلْفَلْسَفَةِ وَٱلْإِسْلَامِ ، لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا حَقٌّ ، وَٱلْحَقُّ لَا يَتَعَدَّدُ ، كَمَا

كَانَ رَأْيُهُ فِي ذٰلِكَ مُنْصَرِفاً إِلَى إِقْنَاعِ ٱلْمُسْلِمِينَ بِقَبُولِ ٱلِاعْتِقَادِ بِهٰذَا ٱلتَّوْفِيقِ .

إخوان الصفاء

وَلَا يَفُوتَنَّكَ — وَأَنْتَ مَاضٍ فِي عَرْضِ فَلْسَفَةِ ٱلْعَقْلِ ٱلْعَرَبِيِّ ، وَآخِذٌ فِي عَرْضِ قِصَّةِ ٱلْفَلْسَفَةِ — أَنْ تَذْكُرَ ٱلْأَثَرَ ٱلْكَبِيرَ ٱلَّذِي حَدَثَ فِي تَطَوُّرِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ بِسَبَبِ تَعَالِيمِ « إِخْوَانِ ٱلصَّفَاءِ » وَهُمْ جَمَاعَةٌ سِرِّيَّةٌ أَقَامُوا فِي ٱلْبَصْرَةِ مَهْدِ ٱلثَّقَافَاتِ ٱلدَّخِيلَةِ[1] عَلَى ٱلْإِسْلَامِ وَكَانَ مَنْزِلُهَا بِهَا فِي مُنْتَصَفِ ٱلْقَرْنِ ٱلرَّابِعِ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ ، أَوْ حَوَالَيْ ذٰلِكَ ٱلتَّارِيخِ ، وَقَدْ آثَرُوا ٱلتَّجَافِيَ[2] عَنِ ٱلنَّاسِ ، وَٱلْإِنْزِوَاءَ عَنِ ٱلْعَامَّةِ ، لِيُخْلِدُوا[3] إِلَى ٱلتَّفْكِيرِ فِي أُفْقٍ هَادِئٍ مُطْمَئِنٍّ ، وَبِمَنْجَاةٍ[4] مِنْ حُجُبِ ٱلْحَيَاةِ وَضَوْضَائِهَا ، وَبِمَعْزِلٍ عَنْ لَوْثِ[5] أَخْلَاقِهَا وَأَحَابِيلِهَا ، وَكَانَ دُسْتُورُهُمْ : « أَنَّ ٱلشَّرِيعَةَ قَدْ دَنِسَتْ بِٱلْجَهَالَاتِ ، وَٱخْتَلَطَتْ بِٱلضَّلَالَاتِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى غَسْلِهَا وَتَطْهِيرِهَا إِلَّا بِٱلْفَلْسَفَةِ ، لِأَنَّهَا حَاوِيَةٌ لِلْحِكْمَةِ ٱلِاعْتِقَادِيَّةِ ، وَٱلْمَصْلَحَةِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَأَنَّهُ مَتَى

(١) الغريبة (٢) البعد (٣) ليخلدوا : ليميلوا ويركنوا (٤) بمعزل
(٥) اللوث : التبر

ٱنْتَظَمَتْ ٱلْفَلْسَفَةَ ٱلْيُونَانِيَّةُ ، وَٱلشَّرِيعَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ، فَقَدْ حَصَلَ ٱلْكَمَالُ » .

الاسماعيلية

وَقَدْ وَضَعَ « إِخْوَانُ ٱلصَّفَاءِ » كُتُبًا كَثِيرَةً كَانَتْ تَعَالِيمُهُمْ فِيهَا خَلِيطًا مِنَ ٱلْأَفْلَاطُونِيَّةِ ٱلْحَدِيثَةِ ، وَٱلنُّزُوعِ ٱلرُّوحِيِّ « ٱلتَّصَوُّفِ » حَتَّى ذَهَبَ فَرِيقٌ مِنَ ٱلْبَاحِثِينَ إِلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْجَمْعِيَّةَ قَدْ تَكُونُ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِ « ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّةِ » أَوْ فَرِيقًا مِنْ دُعَاةِ ٱلْبَاطِنِيَّةِ ، وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ ٱلرُّوَاةِ إِلَى ٱلْقَوْلِ بِأَنَّ ٱلْمَغُولَ عِنْدَ فَتْحِهِمْ قَلْعَةَ « ٱلْمَوْتِ » - وَكَانَتْ يَوْمَئِذٍ فِي حَوْزَةِ ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّةِ - عَثَرُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ نُسَخِ ٱلْكُتُبِ وَٱلرِّسَالَاتِ ٱلَّتِي وَضَعَهَا « إِخْوَانُ ٱلصَّفَاءِ » فَكَانَ ذٰلِكَ لَدَيْهِمْ بِمَثَابَةِ تَأْيِيدٍ لِشُبْهَتِهِمْ ، وَتَحْقِيقٍ لِظَنِّهِمْ . مِمَّا لَا نَتَعَرَّضُ لَهُ بِخَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، أَوْ تَعْقِيبٍ [1] أَوْ تَفْنِيدٍ ، فِي هٰذَا ٱلتَّمْهِيدِ ٱلتَّارِيخِيِّ ٱلْبَحْتِ [2] .

ابن سينا

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ أَيْضًا بِٱلْفَلْسَفَةِ ، ٱلرَّئِيسُ ٱبْنُ سِينَا

(١) التعقيب : التنديد وتبيين العيوب والاغلاط (٢) البحت : الخالص.

ٱلْبُخَارِيُّ ، وَكَانَ مَوْلِدُهُ عَامَ سَبْعِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ ، وَوَفَاتُهُ عَامَ ثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، فَهُوَ بِجَانِبِ عِلْمِهِ ٱلْوَاسِعِ بِالطِّبِّ ، كَانَ كِتَابُهُ « ٱلْقَانُونُ » هُوَ ٱلْعُمْدَةَ فِي هٰذَا ٱلْعِلْمِ فِي ٱلْقُرُونِ ٱلْوُسْطَى فِي ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ عَلَى ٱلسَّوَاءِ ، وَقَدْ بَحَثَ فِي فَلْسَفَةِ أَرِسْطُو ، وَوَضَعَ كُتُبًا كَثِيرَةً فِي عُلُومِ ٱلْمَنْطِقِ وَٱلْإِلٰهِيَّاتِ .

ابن مسكويه

وَأَشْهَرُ مَنْ تَأَثَّرَ بِالْفَلْسَفَةِ ٱلْيُونَانِيَّةِ فِي ذٰلِكَ ٱلْعَصْرِ ٱبْنُ « مَسْكَوَيْهِ » وَكَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، فَقَدْ بَحَثَ فِي تَعَالِيمِ أَفْلَاطُونَ وَأَرِسْطُو وَجَالِينُوسَ ، وَأَرَادَ أَنْ يَمْزِجَ هٰذِهِ ٱلتَّعَالِيمَ بِتَعَالِيمِ ٱلْإِسْلَامِ ، فَأَلَّفَ كِتَابَهُ ٱلْمَعْرُوفَ « تَهْذِيبُ ٱلْأَخْلَاقِ وَتَطْهِيرُ ٱلْأَعْرَاقِ » وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ مَا تَأَثَّرَ بِهِ ، تَعَالِيمُ أَرِسْطُو حَتَّى لَقَدْ جَاءَ بِفِقَرَاتٍ مِنْ تَعَالِيمِهِ فِي صُلْبِ كِتَابِهِ ، كَمَا ٱقْتَبَسَ فِي « ٱلنَّفْسِ » شَيْئًا كَثِيرًا مِنْ بُحُوثِهِ وَمَنَاحِيهِ .

* * *

علماء الكلام

وَقَامَتْ فِي ٱلْقَرْنَيْنِ : ٱلرَّابِعِ وَٱلْخَامِسِ لِلْهِجْرَةِ حَرَكَةٌ

جَدِيدَةٌ ، أَحْدَثَهَا عُلَمَاءُ الْكَلَامِ[1] وَالْجَدَلِيُّونَ ، وَقَدْ أَرَادُوا بِهَا الْقَضَاءَ عَلَى الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ ، وَمُحَارَبَةَ تَعَالِيمِ أَرِسْطُو وَأَفْلَاطُونَ فِيمَا يَتَّصِلُ بِالْإِلٰهِيَّاتِ ، فَكَانَ مِنْ ذٰلِكَ بُحُوثٌ كَلَامِيَّةٌ ، وَمُنَاقَشَاتٌ جَدَلِيَّةٌ فِي الْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ ، وَالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ، وَالْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ ، وَالْجَوْهَرِ الْفَرْدِ ، وَالدَّوْرِ وَالتَّسَلْسُلِ وَمَا إِلَيْهَا . وَلَمْ تَكُنْ بُحُوثُهُمْ مُعَارِضَةً لِلْفَلَاسِفَةِ وَحْدَهُمْ ، وَلٰكِنَّهُمْ قَصَدُوا بِهَا إِلَى تَسْفِيهِ مَذَاهِبِ الْمُعْتَزِلَةِ وَالزَّنَادِقَةِ ، وَالْحَنَابِلَةِ وَالظَّاهِرِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنْ مَذَاهِبِ الْوَقْتِ وَمُعْتَقَدَاتِ الزَّمَانِ .

الاشعرى

وَقَدِ اشْتَهَرَ فِي هٰذَا الْعَهْدِ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْأَشْعَرِيُّ ، مِنْ سُلَالَةِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، الَّذِي حَكَمَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَعَلِيٍّ ، وَكَانَ أَبُو الْحَسَنِ رَأْسَ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنَ الْأَشَاعِرَةِ ، وَكَانَ عَلَى مَذْهَبِ الْمُعْتَزِلَةِ ، حَتّٰى بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، ثُمَّ هَجَرَهُمْ ، وَقَدْ كَانَ رَبِيبَ[2] أَبِي عَلِيٍّ الْجُبَّائِيِّ مِنْ كِبَارِ أَهْلِهِمْ ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ

(١) المراد بالكلام هنا علم التوحيد (٢) الربيب : ابن الزوجة

وَثلثمِائَةٍ ، أَىْ قَبْلَ مَوْلِدِ الْغَزَالِىِّ بِأَكْثَرَ مِنْ مِائَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً .

الباقلانى

وَكَذَلِكَ اشْتَهَرَ فِى أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الطَّيِّبِ الْبَاقِلَّانِىُّ الْمِصْرِىُّ ، وَكَانَ شَيْخًا مِنْ شُيُوخِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ ، نَقَلَ مَذْهَبَ الْأَشْعَرِيَّةِ ، وَنَاظَرَ بَعْضَ الْمُعْتَزِلَةِ بِحَضْرَةِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ الدَّيْلَمِىِّ بِشِيرَازَ ، ثُمَّ أَوْفَدَهُ عَضُدُ الدَّوْلَةِ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ بِمُهِمَّةٍ مِنْ مَهَامِّ الدَّوْلَةِ ، فَقَامَ بِسِفَارَتِهِ [1] خَيْرَ قِيَامٍ ، وَكَانَ لَهُ هُنَاكَ شَأْنٌ لَفَتَ إِلَيْهِ الْأَنْظَارَ ، وَكَانَ مَوْضِعَ الْحَفَاوَةِ وَالْإِكْبَارِ ، وَلَهُ مُؤَلَّفَاتٌ عِدَّةٌ ، أَشْهَرُهَا وَأَبْقَاهَا كِتَابُهُ « إِعْجَازُ الْقُرْآنِ » وَكَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ .

وَاشْتَهَرَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمَا كَثِيرٌ مِنْ جَهَابِذَةِ الْعُلَمَاءِ ، وَأَصْحَابِ الْعَارِضَةِ [2] وَالْبَرَاعَةِ فِى الْمُنَاظَرَاتِ ، وَمَجَالِسِ الْجَدَلِ وَالْمُنَاطِقَةِ مِنَ الْفُقَهَاءِ .

ظهور الغزالى

وَفِى هٰذَا الدَّوْرِ مِنْ تَطَوُّرِ الْفَلْسَفَةِ ، ظَهَرَ الْإِمَامُ

(١) السفارة : السعى فى الصلح بين القوم (٢) العارضة : البيان واللسن والبديهة .

• الْغَزَالِيُّ مُتَأَثِّرًا بِرُوحِ الْعَصْرِ ، وَهُوَ جُهْدُ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي مُحَارَبَةِ الْفَلْسَفَةِ ، وَالْعَمَلِ عَلَى دَحْضِهَا[1] ، وَتَفْنِيدِ مَزَاعِمِهَا وَبَرَاهِينِهَا ، فَكَانَ أَكْبَرَ مَنْ دَرَسَ الْفَلْسَفَةَ الْيُونَانِيَّةَ وَحَمَلَ عَلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهَا ، وَأَظْهَرَ مُنَافَاتَهَا[2] لِتَعَالِيمِ الدِّينِ ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْإِنَابَةِ[3] لِدِينِهِمُ الصَّحِيحِ ، فَأَحْدَثَ أَثَرًا عَظِيمًا فِي أَهْلِ عَصْرِهِ ، إِذْ رَدَّهُمْ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَحَبَّبَ إِلَيْهِمُ التَّصَوُّفَ ، رَافِعًا نُفُوسَهُمْ إِلَى آفَاقِهِ الرُّوحِيَّةِ حَيْثُ تَصْفُو الْعُقُولُ مِنْ مَادِّيَّةِ الْحَيَاةِ ، وَتَتَطَهَّرُ النُّفُوسُ مِنَ الْأَوْضَارِ وَالْأَدْرَانِ .

• لَقَدْ كَانَ ظُهُورُ الْغَزَالِيِّ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الثَّالِثِ ، وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ سِيَرِ التَّارِيخِ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، أَنَّ عَصْرَهَا الْأَوَّلَ كَانَ دَوْرَ النَّقْلِ وَالتَّوَسُّعِ ، وَالِاسْتِحْدَاثِ وَالتَّجْدِيدِ ، بِنَقْلِ الْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي دِينِ الْعَرَبِ ، فَهُمُ الَّذِينَ اشْتَغَلُوا بِالتَّرْجَمَةِ وَالنَّقْلِ ، وَمَزْجِ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِغَيْرِهَا مِنَ الثَّقَافَاتِ .

---

(١) قهرها وتفنيدها (٢) مخالفتها (٣) الانابة : الرجوع

وَجَاءَ ٱلْعَصْرُ ٱلثَّانِى - فَكَانَ دَوْرَ ٱلتَّطْبِيقِ ، وَمُحَاوَلَةَ ٱلتَّقْرِيبِ بَيْنَ ٱلْفَلْسَفَةِ وَٱلدِّينِ، وَكَانَ أَكْبَرُ أَعْلَامِهِ ٱلْكِنْدِىَّ كَمَا مَرَّ بِكَ .

محاربة الفلسفة

وَلٰكِنْ بِظُهُورِ ٱلْغَزَالِىِّ فِى ٱلْعَصْرِ ٱلثَّالِثِ ، ظَهَرَتْ فَوْرَةٌ[1] جَدِيدَةٌ ، وَهِىَ فَوْرَةُ ٱلْغَضَبِ لِلدِّينِ عَلَى ٱلْفَلْسَفَةِ ، وَقَدْ تَأَثَّرَ ٱلْغَزَالِىُّ فِيهَا بِنَشْأَةٍ صُوفِيَّةٍ رُوحِيَّةٍ هُيِّئَتْ لَهُ مِنَ ٱلْبِيئَةِ ، وَتَأَتَّتْ[2] لَهُ مِنَ ٱلْوِرَاثَةِ وَٱلتَّكْوِينِ ، فَنَزَعَتْ بِهِ إِلَى دِرَاسَةِ كُلِّ مَاسَبَقَهُ مِنَ ٱلْفَلْسَفَةِ ، وَأَقْوَالِ أَصْحَابِهَا ، ثُمَّ عَادَتْ بِهِ رُوحَانِيَّةٌ إِلَى جَوْهَرِ تَعَالِيمِ ٱلْإِسْلَامِ ذَاتِهِ فَٱسْتَحْوَذَتْ هٰذِهِ ٱلتَّعَالِيمُ عَلَيْهِ ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ نَفْسِهِ فَكَانَتْ فِى مُحَارَبَتِهِ لِلْفَلْسَفَةِ عِمَادَ كُتُبِهِ ، وَمُسْتَقَى تَعَالِيمِهِ ، وَمَوَارِدَهُ ٱلْغُزُرَ[3] ٱلْمُتَدَفِّقَةَ .

(١) فورة كثورة وزنا ومعنى (٢) تهيأت (٣) الغزر : جمع غزيرة

٢ — أرسطو ومُوجزُ فلسفتِهِ

صلة فلسفته بالغزالى

مرَّ بكَ فِي هٰذِهِ اللَّمحاتِ الْمُوطِّئةِ لِلْبحْثِ فِي حياةِ الْغزالِيِّ ونواحِي تفكيرِهِ ، أنَّ فلسفةَ أرسطُو هِيَ الَّتِي شاعَتْ فِي الْعصْرِ الْعبَّاسِيِّ عقِبَ نقْلِها إِلَى الْعرَبِيَّةِ ، وأحْدثتْ أكْبرَ الْأثرِ فِي ثقافتِهِ ، وتكْوِينِ أعْلامِ كُتَّابِهِ وفلاسِفتِهِ ، فيحْسُنُ كذٰلِكَ أنْ نُبيِّنَ لكَ معالِمَ هٰذِهِ الْفلْسفةِ ، فِي كثِيرٍ مِنَ الْإِيجازِ ، لِتكُونَ الصُّورةُ الْماثِلةُ لدَيْكَ لِلْعصْرِ الَّذِي تقدَّمَ ظُهُورَ الْغزالِيِّ كامِلةَ الْأنْحاءِ ، بارِزةَ الْأجْزاءِ ، واضِحةَ الدَّقائِقِ[1] .

سيرته

كانَ ظُهُورُ أرسْطُو أوْ أرسطاليسَ فِي الْقرْنِ الرَّابِعِ قبْلَ الْمِيلادِ فِي بعْضِ ثُغُورِ مقْدُونِيا ، وكانَ أبُوهُ نِيقُوماخُوسَ طبِيباً لِلْملِكِ فاتَّصلَ أرسْطُو فِي نشْأتِهِ بِالْقصْرِ واخْتلطَ « بِفِيلِبُّسَ » أبِي الْإِسْكنْدرِ ، وهُما يوْمئِذٍ فتيانِ ناشِئانِ ، ولٰكِنَّهُ ما لبِثَ أنْ ذاقَ أَلَمَ الْيُتْمِ برحِيلِ أبِيهِ

(١) المواقف الغامضة ، والتى تعوزها فى كشفها الدقة

فِي هٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ فَكَفَلَهُ[1] وَلِيُّ أَمْرِهِ « بِرُوفْسَانْسُ » وَبَعَثَ بِهِ إِلَى أَثِينَا لِطَلَبِ ٱلْعِلْمِ ، فَأَخَذَ فِيهَا عَنْ أَفْلَاطُونَ عِشْرِينَ سَنَةً حَتَّى وَافَتِ ٱلْمَنِيَّةُ مُعَلِّمَهُ .

***

تربيته للاسكندر

وَقَدْ عَهِدَ إِلَيْهِ ٱلْمَلِكُ « فِيلِبْسُ » بَعْدَ ذٰلِكَ بِأَعْوَامٍ ، أَمْرَ تَعْلِيمِ ٱبْنِهِ ٱلْإِسْكَنْدَرِ ٱلْأَكْبَرِ وَتَثْقِيفِهِ ، فَفَعَلَ حَتَّى تَقَلَّدَ ٱلْإِسْكَنْدَرُ ٱلْمُلْكَ ، فَرَجَعَ أَرِسْطُو إِلَى أَثِينَا وَأَسَّسَ بِهَا مَدْرَسَةً لَهُ سُمِّيَتْ مِنْ بَعْدُ بِمَدْرَسَةِ « ٱلْمَشَّائِينَ » بِسَبَبِ عَادَةِ أَرِسْطُو وَلَازِمَتِهِ ، وَهِيَ أَنَّهُ كَانَ فِي أَثْنَاءِ ٱلدَّرْسِ يَمْشِي ذُهُوباً[2] وَجِيئَةً[3] أَمَامَ ٱلتَّلَامِذَةِ وَٱلْمُتَعَلِّمِينَ وَقَدْ لَبِثَ يُعَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي مَدْرَسَتِهِ هٰذِهِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً مُتَوَالِيَةً حَتَّى وَفَاتِهِ .

***

وجوه بحثه

وَفِي هٰذَا ٱلدَّوْرِ مِنْ حَيَاتِهِ وَضَعَ كُتُبَهُ ٱلْمَشْهُورَةَ ، وَوَطَّدَ فَلْسَفَتَهُ . وَنَحْسَبُهُ بَدَأَ أَوَّلًا بِٱلْمَنْطِقِ Logic ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ

(١) أى أخذه فى عهادته ورعايته (٢) و (٣) ذهابا ومجيئا

الْعُلُومَ الطَّبِيعِيَّةَ ، وَتَوَفَّرَ بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَى فَلْسَفَتِهِ الْأَخْلَاقِيَّةِ ، وَنَظَرِيَّاتِهِ فِي السِّيَاسَةِ وَمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ .

* * *

تصحيحه لفلسفة أفلاطون

وَأَكْثَرُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ كَانَ تَصْحِيحًا لِفَلْسَفَةِ أُسْتَاذِهِ أَفْلَاطُونَ ، إِذْ لَمْ يَجْعَلْ بَحْثَهُ أَوْ نَظَرَهُ فِي الطَّبِيعَةِ كَمَا فَعَلَ مُعَلِّمُهُ مُجَرَّدَ تَأَمُّلٍ لِعَالَمِ الْمُثُلِ الْمُجَرَّدِ ، وَلٰكِنَّهُ أَحَالَهُ حِسِّيًّا ، وَحَاوَلَ أَنْ تَكُونَ فَلْسَفَتُهُ طَبِيعِيَّةً وَعَقْلِيَّةً مَعًا فَأَنْتَجَتْ مُحَاوَلَتُهُ ابْتِكَارَ عِلْمٍ جَدِيدٍ كَانَ هُوَ السَّبَّاقَ إِلَيْهِ وَهُوَ عِلْمُ الْمَنْطِقِ ، أَوِ السَّبِيلُ الْقَوِيمَةُ الْمُفْضِيَةُ إِلَى الْحَقِيقَةِ الَّتِي يَنْشُدُهَا ، إِذْ يَنْتَقِلُ بِهِ الْفِكْرُ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ إِلَى النَّتَائِجِ الصَّحِيحَةِ .

* * *

وَيُسَمَّى أَرِسْطُو الْمُعَلِّمَ الْأَوَّلَ لِهٰذَا السَّبَبِ ، وَهُوَ أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ عَلَّمَ النَّاسَ الْمَنْطِقَ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ عِلْمًا .

* * *

نظرية المثل
Idealism

وَقَدْ بَحَثَ أَرِسْطُو فِيمَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ ، فَتَنَاوَلَ نَظَرِيَّةَ أَفْلَاطُونَ فِي « الْمُثُلِ » بِالتَّحْلِيلِ وَبَيَّنَ وُجُوهَ الْخَطَإِ فِيهَا وَتَوَلَّى الرَّدَّ عَلَيْهَا وَتَفْنِيدَهَا ، فَقَالَ : إِنَّ هٰذَا الْوُجُودَ مَلِيءٌ بِأَشْيَاءَ لَا عَدَّ لَهَا ، وَمِنْ شَأْنِ الْفَلْسَفَةِ أَنْ تُوَضِّحَ لَنَا كَيْفَ وُجِدَتْ هٰذِهِ الْأَشْيَاءُ ، وَلٰكِنَّ نَظَرِيَّةَ أَفْلَاطُونَ تَقُولُ : إِنَّ وَرَاءَ هٰذَا الْعَالَمِ عَالَمًا آخَرَ هُوَ عَالَمُ « الْمُثُلِ[1] » فَهِيَ عَلَى هٰذَا الْقِيَاسِ تُضَاعِفُ الْمَوْجُودَاتِ ، وَتَزِيدُ الْحَيْرَةَ فِي فَهْمِ مُنْشِئِهَا ، وَمَا أَفْلَاطُونُ فِي ذٰلِكَ إِلَّا أَشْبَهُ بِرَجُلٍ شَقَّ عَلَيْهِ أَنْ يَعُدَّ كَمِّيَّةً مِنَ الْأَشْيَاءِ فَضَاعَفَ عَدَدَهَا ، وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ بِذٰلِكَ قَدْ سَهَّلَ وَذَلَّلَ أَمْرَ عَدِّهَا ؟

***

وَكَانَ أَفْلَاطُونُ مِنْ قَبْلِهِ فِي نَظَرِيَّةِ « الْمُثُلِ » يَأْخُذُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تُدْرَكُ بِالْحِسِّ فَيُعَمِّمُهَا وَيَدْعُوهَا ثَانِيَةً لَا تُحَسُّ ، وَلَا فَارِقَ عِنْدَهُ بَيْنَ الْحِصَانِ فِي الْحَقِيقَةِ وَمِثَالِ الْحِصَانِ إِلَّا

(١) ربما كان معنى رأى أفلاطون على ظاهره أن كل كائن له مثال ، فالشخص شخصان : ذات ومثل

مِنْ حَيْثُ ٱلتَّخْصِيصُ وَٱلتَّعْمِيمُ ، فَجَاءَ أَرِسْطُو - فَقَالَ بِأَنَّ ٱلْأَشْيَاءَ تُدْرَكُ بِالْحِسِّ ، وَأَنَّ ٱلْمُثُلَ هِيَ صُورَةٌ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ، وَلَيْسَتْ ٱلْأَشْيَاءُ صُورَةً مِنَ « ٱلْمُثُلِ » .

***

نقضها والاعتراض عليها

وَقَدْ فَصَلَ أَفْلَاطُونُ ٱلْمُثُلَ عَنِ ٱلْأَشْيَاءِ وَجَعَلَهَا عَالَمًا مُسْتَقِلًّا ، وَجَعَلَ لِكُلِّ مِثَالٍ عَالَمًا مُسْتَقِلًّا ، وَقَالَ أَرِسْطُو فِي ٱعْتِرَاضِهِ : إِنَّ مَاهِيَّةَ ٱلْأَشْيَاءِ[1] يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِيهَا لَا خَارِجَةً عَنْهَا ، وَإِنَّ ٱلْحَقَائِقَ ٱلْكُلِّيَّةَ : كَالْعَدْلِ ، وَٱلْحَرَارَةِ وَٱلْبُرُودَةِ ، وَحَقِيقَةِ ٱلْإِنْسَانِ لَيْسَ لَهَا وُجُودٌ خَارِجِيٌّ[2] ، وَإِنَّمَا ٱلْمَوْجُودُ فِي ٱلْخَارِجِ هُوَ ٱلْمُفْرَدَاتُ ، كَالشَّيْءِ ٱلْحَارِّ ، وَٱلشَّيْءِ ٱلْبَارِدِ ، وَٱلْإِنْسَانِ أَعْنِي أَفْرَادَهُ ، وَأَمَّا ٱلْحَقَائِقُ ٱلْكُلِّيَّةُ ، فَهٰذِهِ لَيْسَ لَهَا مِنْ وُجُودٍ إِلَّا فِي أَذْهَانِنَا . مِثَالُ ذٰلِكَ : أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ هُوَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْقَدْرُ ٱلْمُشْتَرَكُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ جَمِيعًا وَهُوَ مَا نُسَمِّيهِ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ ، وَٱلْإِنْسَانِيَّةُ لَا تُوجَدُ مُسْتَقِلَّةً وَحْدَهَا ، وَإِنَّمَا تُوجَدُ فِي ٱلْأَفْرَادِ ، كَالْحَرَارَةِ تُوجَدُ فِي ٱلْحَارِّ ،

(١) حقيقة الأشياء (٢) أى بل هى أمور معنوية اعتبارية

وَالْبُرُودَةِ فِي الْبَارِدِ وَهٰكَذَا ، وَهٰذِهِ الْإِنْسَانِيَّةُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَتَحَقَّقَ فِي كُلِّ فَرْدٍ لِيَكُونَ إِنْسَانًا ، وَإِذَا سُلِبَتْ مِنْهُ لَمْ يَبْقَ كَذٰلِكَ ، وَلَا ضَرُورَةَ لِمَا ذَهَبَ أَفْلَاطُونُ إِلَيْهِ ، مِنْ أَنَّ كُلَّ مَا نَتَصَوَّرُهُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُ صُورَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا فِي الْخَارِجِ ، فَإِنَّنَا نَتَصَوَّرُ مَا لَيْسَ لَهُ وُجُودٌ خَارِجِيٌّ ، كَجَبَلٍ مِنْ يَاقُوتٍ أَوْ بَحْرٍ مِنْ زِئْبَقٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ .

***

وَقَدِ انْتَقَلَ أَرِسْطُو مِنْ هٰذَا إِلَى أَسَاسِ فَلْسَفَتِهِ وَهُوَ « الْمَادَّةُ وَالصُّورَةُ » فَقَالَ : إِنَّ الْمَادَّةَ وَالصُّورَةَ لَا تَنْفَصِلَانِ فَلَا صُورَةَ مِنْ غَيْرِ مَادَّةٍ ، وَلَا مَادَّةَ مِنْ غَيْرِ صُورَةٍ ، وَكُلُّ مَوْجُودٍ فِي الْخَارِجِ يَتَكَوَّنُ مِنْهُمَا ، وَهُمَا لَيْسَتَا مُنْفَصِلَتَيْنِ إِلَّا فِي الذِّهْنِ ، وَنَحْنُ نُفَكِّرُ فِيهِمَا مُنْفَصِلَتَيْنِ لِكَيْ نَفْهَمَهُمَا فَقَطْ .

المادة والصورة

substance - form
matter

***

وَلَيْسَ يَعْنِي أَرِسْطُو بِالصُّورَةِ الشَّكْلَ ، وَلٰكِنَّهُ

سلسلة الترقي

يَعْنِي بِهَا جَمِيعَ صِفَاتِ الشَّيْءِ ، مِنْ لَوْنٍ وَخِفَّةٍ وَجَمَالٍ وَقُبْحٍ وَمَا إِلَيْهَا ، وَكَذٰلِكَ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ أَجْزَاءِ الشَّيْءِ ، وَعَلَاقَةَ كُلِّ جُزْءٍ بِالْكُلِّ . أَمَّا الْمَادَّةُ فَهِيَ مَا اتَّصَفَ بِهٰذِهِ الصِّفَاتِ وَأَشْبَاهِهَا .

***

وَيَقُولُ أَرِسْطُو إِنَّ الْعَالَمَ سِلْسِلَةُ تَرَقٍّ الْمَادَّةِ ، مِنْ صُورَةٍ إِلَى صُورَةٍ أَرْقَى مِنْهَا ، فَالْعَالَمُ دَرَجَاتٌ ، بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، فَمَا كَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي مَنْزِلَةٍ عَالِيَةٍ ، يَكُونُ قَدْ غَلَبَتْ صُورَتُهُ مَادَّتَهُ ، وَمَا كَانَ مِنْهَا فِي الدَّرَجَةِ الدُّنْيَا (١) يَكُونُ قَدْ غَلَبَتْ مَادَّتُهُ صُورَتَهُ ، حَتَّى إِذَا وَصَلْنَا إِلَى نِهَايَةِ الْحَضِيضِ ، وَصَلْنَا إِلَى مَادَّةٍ لَا صُورَةَ لَهَا ، وَإِذَا بَلَغْنَا الذِّرْوَةَ الْعُلْيَا ، وَجَدْنَا صُورَةً لَا مَادَّةَ لَهَا ، وَالذِّرْوَةُ الْعُلْيَا لِلْمَوْجُودَاتِ ، أَوِ الصُّورَةُ الْمُجَرَّدَةُ هِيَ الَّتِي يُسَمِّيهَا أَرِسْطُو « اللهَ »

***

(١) مؤنث الأدنى

الله أو غاية الغايات

وَكُلَّمَا قَرُبَ الشَّيْءُ مِنْ كَمَالِ الصُّورَةِ ، كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْحَقِيقَةِ ، وَإِذْ كَانَ اللهُ مَثَلًا أَوْ فِكْرَةً أَوْ عَقْلًا ، وَإِذْ كَانَ هُوَ الْعِلَّةَ الْغَائِيَّةَ ، كَانَ هُوَ غَايَةَ الْغَايَاتِ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْعَى إِلَيْهِ وَيَقْصِدُهُ كُلُّ مَوْجُودٍ . وَإِذْ كَانَ هُوَ الْعِلَّةَ الْمُحَرِّكَةَ ، كَانَ هُوَ الْمُحَرِّكَ الْأَوَّلَ لِلْعَالَمِ ، وَمَصْدَرَ كُلِّ حَرَكَةٍ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَحَرِّكًا ، إِذْ لَوْ كَانَ مُتَحَرِّكًا لَتَحَرَّكَ إِلَى غَايَةٍ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ غَايَةُ الْغَايَاتِ .

***

وَلَيْسَ يَعْنِي بِقَوْلِهِ : « إِنَّهُ مُحَرِّكُ الْعَالَمِ » أَنَّهُ يَدْفَعُهُ دَفْعَةً آلِيَّةً مِنْ خَلْفِهِ ، بَلْ يَعْنِي أَنَّهُ يَجْذِبُهُ إِلَى غَايَتِهِ ، وَالْعَالَمُ لَا أَوَّلَ لَهُ فِي الزَّمَنِ ، وَإِنَّمَا سَبَقَهُ اللهُ كَمَا تَسْبِقُ الْمُقَدِّمَةُ النَّتِيجَةَ ، وَكَذَلِكَ لَا نِهَايَةَ لِلْعَالَمِ ، إِذْ لَوْ كَانَتْ لَهُ نِهَايَةٌ ، لَكَانَتْ نِهَايَتُهُ صُورَةً مُجَرَّدَةً ، وَهِيَ لَا وُجُودَ لَهَا فِي الْخَارِجِ .

***

صورة الصورة وفكرة الفكرة

يَقُولُ أَرِسْطُو إِنَّ اللهَ فِكْرَةٌ ، وَلَكِنْ فِكْرَةُ أَيِّ

شَيْءٍ ؟؟ إِنَّهُ لَمَّا كَانَ صُورَةً مُجَرَّدَةً ، لَمْ يَكُنْ صُورَةً لِمَادَّةٍ ، وَلٰكِنَّهُ صُورَةُ الصُّورَةِ . فَهُوَ بِالتَّالِي فِكْرَةُ الْفِكْرَةِ ، وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ ، وَهُوَ الْمُفَكِّرُ وَالْمُفَكَّرُ فِيهِ ، وَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ الْفَانِيَ يُفَكِّرُ فِي شَيْءٍ ، فَإِنَّ اللهَ كَذٰلِكَ يُفَكِّرُ فِي الْفِكْرِ ، وَلَا يُفَكِّرُ فِي شَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ ، وَهُوَ يَحْيَا فِي سَعَادَةٍ أَبَدِيَّةٍ ، وَسَعَادَتُهُ هِيَ تَفْكِيرُهُ الدَّائِمُ فِي سَعَادَتِهِ .

***

الموجود المطلق

وَقَدْ تَسَاءَلَ بَعْضُهُمْ : هَلِ اللهُ فِي فَلْسَفَةِ أَرِسْطُو « مُشَخَّصٌ » ؟ وَهُوَ سُؤَالٌ لَمْ يَتَعَرَّضْ أَرِسْطُو لَهُ ، وَإِنَّمَا أَثَارَهُ الْمُحْدَثُونَ ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَرَجَّحَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ أَنَّهُ عِنْدَ أَرِسْطُو كَذٰلِكَ ، مُسْتَدِلًّا بِمَا وَرَدَ فِي كَلَامِ أَرِسْطُو ذَاتِهِ مِنَ التَّعْبِيرِ عَنِ اللهِ بِالْمَوْجُودِ الْمُطْلَقِ ، وَأَنَّهُ يَحْيَا فِي سَعَادَةٍ أَبَدِيَّةٍ . وَلَا يَصِحُّ أَنْ نَعُدَّ هٰذَا التَّعْبِيرَ « مَجَازِيًّا » ، لِأَنَّ أَرِسْطُو كَانَ يَعِيبُ عَلَى أَفْلَاطُونَ فِي فَلْسَفَتِهِ الْمَجَازَ وَالتَّشْبِيهَ .

***

وَآخَرُونَ يَرَوْنَ أَنَّ ٱللهَ فِي تَقْدِيرِ أَرِسْطُو، لَيْسَ «مُشَخَّصًا» لِأَنَّهُ عَبَّرَ عَنْهُ «بِالصُّورَةِ ٱلْمُجَرَّدَةِ»

***

وَهَذَا ٱلِاضْطِرَابُ فِي تَخْرِيجِ كَلَامِ أَرِسْطُو يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَحْدِيدَ مَعْنَى ٱللهِ فِي فَلْسَفَتِهِ، غَيْرُ وَاضِحٍ وَلَا صَرِيحٍ.

***

الحركة والزمان والمكان

وَٱنْتَقَلَ أَرِسْطُو بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْكَلَامِ عَنِ ٱلْحَرَكَةِ وَٱلزَّمَانِ وَٱلْمَكَانِ، وَهُوَ يَرَى أَنَّ ٱلْحَرَكَةَ هِيَ سَيْرُ ٱلْمَادَّةِ إِلَى ٱلصُّورَةِ، وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ: ٱلْحَرَكَةُ ٱلَّتِي تُؤَثِّرُ فِي عُنْصُرِ ٱلشَّيْءِ إِيجَادًا (formation) وَإِعْدَامًا، وَٱلْحَرَكَةُ ٱلَّتِي تُغَيِّرُ ٱلْكَيْفَ (quality)، وَٱلْحَرَكَةُ ٱلَّتِي تُغَيِّرُ ٱلْكَمَّ (quantity)، وَحَرَكَةُ ٱلِانْتِقَالِ أَوْ تَغْيِيرِ ٱلْمَكَانِ (place) وَهِيَ أَهَمُّهَا.

***

نظرية النشوء والارتقاء

وَيَرَى أَرِسْطُو أَنَّ ٱلْعَالَمَ مُتَدَرِّجٌ فِي ٱلرُّقِيِّ، بَعْضُهُ أَرْقَى مِنْ بَعْضٍ فِي ٱلْوُجُودِ وَفِي ٱلْقِيمَةِ، فَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى هٰذَا

ٱلْعَالَمِ نَظْرَةَ نُشُوءٍ وَٱرْتِقَاءٍ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ مَعْنَى ذٰلِكَ تَحَوُّلَ ٱلنَّوْعِ مِنْ شَيْءٍ إِلَى آخَرَ أَرْقَى مِنْهُ بِمُرُورِ ٱلزَّمَنِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ هُوَ الرَّأْيُ ٱلْحَدِيثُ ، وَإِنَّمَا ٱعْتِقَادُ أَرِسْطُو هُوَ أَنَّ ٱلْأَجْنَاسَ وَٱلْأَنْوَاعَ أَزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ ، فَأَفْرَادُ ٱلنَّاسِ يُولَدُونَ وَيَمُوتُونَ ، وَلٰكِنَّ ٱلنَّوْعَ ٱلْإِنْسَانِيَّ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ ، وَكَذٰلِكَ ٱلشَّأْنُ فِي ٱلنَّبَاتِ وَٱلْحَيَوَانِ ، وَمِنْ ثَمَّ لَا تَحَوُّلَ فِي نَوْعٍ إِلَى نَوْعٍ بِفِعْلِ ٱلزَّمَنِ كَمَا يَقُولُ « دَارُوِينُ » بَلِ ٱلتَّرَقِّي عِنْدَ أَرِسْطُو هُوَ تَرَقٍّ فِي ٱلْفِكْرَةِ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ ٱلْعَالَمُ كُلُّهُ سِلْسِلَةً أَوْ سُلَّمًا ذَا دَرَجَاتٍ ، وَلٰكِنْ لَا تَتَحَوَّلُ فِيهِ ٱلْأَنْوَاعُ إِلَى أُخْرَى أَرْقَى مِنْهَا بِمَرِّ ٱلزَّمَانِ .

***

• تقسيم الأنواع

وَفِي تَقْسِيمِ ٱلْأَنْوَاعِ جَعَلَ أَرِسْطُو ٱلنَّبَاتَ أَحَطَّ دَرَجَاتِ ٱلْجِسْمِ ٱلْعُضْوِيِّ ، لِأَنَّهُ مُقْتَصِرٌ عَلَى ٱلتَّغَذِّي وَٱلنَّسْلِ ، ثُمَّ يَلِي ٱلنَّبَاتَ فِي ٱلرُّقِيِّ ٱلْحَيَوَانُ ، لِأَنَّهُ يَزِيدُ عَلَيْهِ بِٱلْحِسِّ ، وَيَتْبَعُ وُجُودَ ٱلْحِسِّ ، ٱلشُّعُورُ بِٱللَّذَّةِ وَٱلْأَلَمِ ، لِأَنَّ ٱللَّذَّةَ إِحْسَاسٌ سَارٌّ ، وَٱلْأَلَمَ نَقِيضُهُ ، وَيَتْبَعُ هٰذَا وُجُودُ ٱلدَّافِعِ

إِلَى ٱلْبَحْثِ عَنِ ٱللَّذَّةِ وَتَجَنُّبِ ٱلأَلَمِ ، وَهٰذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْقُدْرَةِ عَلَى ٱلْحَرَكَةِ ، وَلِهٰذَا كَانَ أَكْثَرُ ٱلْحَيَوَانِ قَادِرًا عَلَى ٱلتَّنَقُّلِ بِعَكْسِ ٱلنَّبَاتِ .

***

وَيَلِي ٱلْحَيَوَانَ فِي ٱلرُّقِيِّ ٱلْإِنْسَانُ ، وَلَهُ مَا لِلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ مِنْ تَغْذِيَةٍ وَنَسْلٍ وَحِسٍّ ، ثُمَّ يَزِيدُ عَلَيْهَا ٱلْعَقْلَ ، وَهُوَ ٱلْمُمَيِّزُ لَهُ عَنْ سَائِرِ ٱلنَّبَاتِ وَٱلْحَيَوَانِ .

***

وَمِنْ هُنَا تَكَلَّمَ عَنِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْمُخَيِّلَةِ(١) وَٱلْحَافِظَةِ(٢) ، ثُمَّ تَحَدَّثَ عَنِ « ٱلنَّفْسِ » أَوْ مَجْمُوعِ هٰذِهِ ٱلْقُوَى ، فَقَالَ : إِنَّ ٱلنَّفْسَ هِيَ صُورَةُ ٱلْمَادَّةِ ، وَلَمَّا كَانَتِ ٱلصُّورَةُ لَا تَنْفَصِلُ عَنِ ٱلْمَادَّةِ ، فَلَا وُجُودَ لِنَفْسٍ بِلَا بَدَنٍ ، لِأَنَّهَا وَظِيفَةُ ٱلْجِسْمِ ، - وَلِهٰذَا - أَنْكَرَ نَظَرِيَّةَ فِيثَاغُورْسَ وَأَفْلَاطُونَ فِي « ٱلتَّنَاسُخِ » . وَبِخَاصَّةٍ حُلُولُ ٱلْأَرْوَاحِ فِي أَجْسَامِ ٱلْحَيَوَانِ .

---

(١) المخيلة : القوة التى تخيل الأشياء وتصورها وهى مرآة العقل

(٢) الحافظة : قوة تستبقى الصور فى الذهن لتظهر عند مايدعوها داع ، وظهورها يسمى ذكرا

***

ما الخير؟ وَقَدْ تَنَاوَلَ أَرِسْطُو ٱلْأَخْلَاقَ ، فَبَحَثَ أَوَّلًا فِي مَعْنَى « ٱلْخَيْرِ » كَمَا بَحَثَ مُعَلِّمُهُ أَفْلَاطُونُ مِنْ قَبْلُ فِيهِ ، وَلٰكِنْ إِذَا كَانَ هٰذَا قَدِ ٱحْتَقَرَ عَالَمَ ٱلْحِسِّ وَمَا فِيهِ ، وَنَظَرَ إِلَى عَالَمٍ فَوْقَ عَالَمِهِ ، فَإِنَّ أَرِسْطُو كَانَ مُحِبًّا لِلْحَقِيقَةِ ، وَٱلْوَاقِعِ ،

***

فَنَحَا فِي فَلْسَفَتِهِ ٱلْأَخْلَاقِيَّةِ مَنْحًى سَهْلَ ٱلتَّنَاوُلِ عَلَى ٱلْجُمْهَرَةِ[1] وَٱلسَّوَادِ .

***

السعادة يَقُولُ أَرِسْطُو إِنَّ ٱلنَّاسَ يَعْمَلُونَ لِغَايَةٍ ، وَقَدْ تَكُونُ هٰذِهِ ٱلْغَايَةُ وَسِيلَةً لِغَيْرِهَا وَهَلُمَّ . . . ، وَلٰكِنْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ فِي ٱلنِّهَايَةِ غَايَةٌ أَخِيرَةٌ لَيْسَتْ وَسِيلَةً لِشَيْءٍ ، وَهٰذِهِ تُسَمَّى غَايَةَ ٱلْغَايَاتِ ، وَقَدِ ٱتَّفَقَ ٱلنَّاسُ عَلَى أَنَّهَا ٱلسَّعَادَةُ ، وَإِنْ كَانُوا فِي فَهْمِهَا جِدَّ مُخْتَلِفِينَ ، فَقَوْمٌ يَرَوْنَهَا فِي حَيَاةِ ٱللَّذَّةِ وَآخَرُونَ فِي ٱلْفِرَارِ مِنَ ٱللَّذَّةِ ، وَلَمْ يَقْطَعْ أَرِسْطُو فِي ذٰلِكَ

(١) الجمهرة : اجتماع الجمهور ، والسواد : عامتهم

بِقَوْلٍ ، وَلٰكِنَّهُ قَالَ : إِنَّ خَيْرَ ٱلْإِنْسَانِ لَيْسَ فِي لَذَّةِ حَوَاسِّهِ فَحَسْبُ ، لِأَنَّ ٱلْإِحْسَاسَ وَحْدَهُ هُوَ وَظِيفَةُ ٱلْحَيَوَانِ ، لَا الْانْسَانِ ، وَأَمَّا وَظِيفَةُ ٱلْإِنْسَانِ ٱلَّتِي ٱمْتَازَ بِهَا فَهِيَ ٱلْعَقْلُ وَعَمَلُهُ هُوَ ٱلْخَيْرُ لِلْإِنْسَانِ .

***

الفضيلة

وَلَيْسَ ٱلْإِنْسَانُ حَيَوَانًا ذَا عَقْلٍ فَقَطْ، بَلْ لَمَّا كَانَ فِي ٱلنَّوْعِ ٱلرَّاقِي مِنْهُ مَافِي ٱلسَّافِلِ وَيَزِيدُ ، إِذْ فِيهِ ٱلْمَلَكَاتُ ٱلَّتِي فِي النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ ، فَهُوَ يَتَغَذَّى كَالنَّبَاتِ ، وَيُحِسُّ كَالْحَيَوَانِ . وَجَبَ أَنْ تَكُونَ الْفَضِيلَةُ نَوْعَيْنِ : نَوْعًا رَفِيعًا يَتَوَافَرُ فِي حَيَاةِ الْعَقْلِ، وَالتَّفْكِيرِ ، وَالْفَلْسَفَةِ ، وَآخَرَ يَتَعَلَّقُ بِالْغِذَاءِ وَالْحِسِّ ، وَوَجَبَ أَنْ تَخْضَعَ الْفَضِيلَةُ فِي هٰذَا النَّوْعِ الْآخَرِ لِلشَّهَوَاتِ ، كَمَا تَخْضَعُ رَغَبَاتُ الْحِسِّ لِحُكْمِ الْعَقْلِ .

***

وَالنَّوْعُ الْأَوَّلُ أَرْقَى لِسَبَبَيْنِ : لِأَنَّهُ أَوَّلًا فَضِيلَةُ الْعَقْلِ ، وَبِهِ صَارَ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا ، وَلِأَنَّهُ فَضِيلَةٌ فِيهَا تَشَبُّهٌ «بِاللهِ» ، إِذْ حَيَاةُ اللهِ هِيَ حَيَاةُ الْفِكْرِ الْخَالِصِ .

***

وَمِنْ ثَمَّ تَكُونُ السَّعَادَةُ مِنْ هٰذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مَعًا ... وَلَا يُنْكِرُ أَرِسْطُو أَثَرَ الظُّرُوفِ الْخَارِجِيَّةِ فِي السَّعَادَةِ ، فَإِنَّ الْفَقْرَ وَالْمَرَضَ وَسُوءَ الْحَظِّ، تَحُولُ دُونَ بُلُوغِ السَّعَادَةِ كَمَا أَنَّ أَضْدَادَهَا هِيَ وَسَائِلُ لِلسَّعَادَةِ . لَا السَّعَادَةُ ذَاتُهَا . أَيْ أَنَّهَا تُصْبِحُ بِهَا قَرِيبَةَ التَّنَاوُلِ ، وَتُمْسِي بِغَيْرِهَا عَصِيَّةً[1] مُتَأَبِّيَةً .

***

الفضيلة والمعرفة

وَقَدْ عَارَضَ « أَرِسْطُو » الْفَيْلَسُوفَ « سُقْرَاطَ » الَّذِي جَاءَ قَبْلَهُ فِي ذَهَابِهِ إِلَى أَنَّ الْفَضِيلَةَ فِي الْمَعْرِفَةِ ، وَأَنَّ الْمَعْرِفَةَ وَحْدَهَا كَافِيَةٌ لِلسَّيْرِ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا فَكَّرَ تَفْكِيرًا مُسْتَقِيمًا عَمِلَ عَمَلًا مُسْتَقِيمًا ، فَقَالَ : إِنَّ سُقْرَاطَ قَدْ أَغْفَلَ عَامِلَ الشَّهْوَةِ فِي الْإِنْسَانِ ، فَقَدْ يُحْسِنُ التَّفْكِيرَ وَيَهْتَدِي إِلَى الصَّوَابِ بِهِ ، وَلٰكِنْ تَتَغَلَّبُ عَلَيْهِ الشَّهْوَةُ فَتُغْرِيهِ . وَعِنْدَ أَرِسْطُو : أَنَّ وَسِيلَةَ التَّغَلُّبِ

(٢) عصية : صعبة التناول

عَلَى الشَّهْوَةِ بِالْعَقْلِ، هِيَ وَسِيلَةُ الْمَرَانَةِ وَالرِّيَاضَةِ، إِذْ تَتَسَنَّى رِيَاضَةُ الشَّهْوَةِ وَتَذْلِيلُهَا بِضَبْطِ النَّفْسِ وَتَحْكِيمِ الْعَقْلِ وَالِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ، وَكُلَّمَا طَالَ إِخْضَاعُ الشَّهْوَةِ لِسُلْطَانِ الْعَقْلِ اعْتَادَتِ الْخُضُوعَ، وَهُوَ لِهَذَا يَعْرِفُ لِلْعَادَةِ قِيمَتَهَا وَشَأْنَهَا، وَيَقُولُ: إِنَّ تَعْوِيدَ الْإِنْسَانِ طَيِّبَ الْعَادَاتِ هُوَ السَّبِيلُ الْوَحِيدَةُ لِتَكْوِينِ الْإِنْسَانِ الطَّيِّبِ.

***

الشهوة والعقل

وَلَا غِنًى عِنْدَ أَرِسْطُو عَنِ الشَّهْوَةِ وَالْعَقْلِ مَعًا، وَمِنْ هُنَا يَرَى أَنَّ الزَّهَدَةَ[1] الَّذِينَ يُرِيدُونَ اسْتِئْصَالَ[2] الشَّهْوَةِ عَلَى ضَلَالٍ، لِأَنَّهُمْ يَنْسَوْنَ أَنَّ الشَّهْوَةَ عُنْصُرٌ أَسَاسِيٌّ فِي الْإِنْسَانِ، وَاسْتِئْصَالُهَا هَدْمٌ لِأَحَدِ عَنَاصِرِ تَكْوِينِهِ.

***

وَمِنَ الْغُلُوِّ مُحَارَبَةُ الشَّهْوَةِ حَتَّى تَمُوتَ، وَإِطَاعَتُهَا حَتَّى تَتَغَلَّبَ عَلَى الْعَقْلِ، وَالْفَضِيلَةُ إِذَنْ فِي الْأَخْذِ مِنْ

(١) جمع زاهد: وهو من يجانب متع الحياة ويعف عن شهواتها

(٢) أى محوها أصلا.

الْأُمُورِ بِالْوَسَطِ وَهُوَ الِاعْتِدَالُ .

***

نظرية الأوساط

وَقَدْ أَقَامَ أَرِسْطُو مِنْ هٰذَا نَظَرِيَّةَ الْأَوْسَاطِ ، وَهِيَ أَنَّ كُلَّ فَضِيلَةٍ إِنَّمَا هِيَ وَسَطٌ بَيْنَ رَذِيلَتَيْنِ .

***

عَلَى أَنَّ اعْتِدَالَ إِنْسَانٍ قَدْ يَكُونُ إِسْرَافًا بِالنِّسْبَةِ لِسِوَاهُ أَوْ بِالْعَكْسِ ، فَلَا غِنًى إِذَنْ عَنْ تَرْكِ الْأَمْرِ لِلشَّخْصِ لِيَهْتَدِيَ بِنَفْسِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْوَسَطِ الَّذِي يُوَائِمُهُ[1] .

***

وَلَمْ يَفْعَلْ أَرِسْطُو مَا فَعَلَ أَفْلَاطُونُ مِنْ نَاحِيَةِ حَصْرِ الْفَضَائِلِ وَعَدِّهَا ، وَإِنَّمَا قَالَ بِأَنَّ الْفَضِيلَةَ تَخْتَلِفُ تَبَعًا لِظُرُوفِ الْحَيَاةِ .

***

حرية الارادة

وَقَالَ أَرِسْطُو بِحُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ، عَلَى نَقِيضِ مَا ذَهَبَ سُقْرَاط إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ التَّفْكِيرَ الصَّحِيحَ كَمَا قُلْنَا يَسْتَتْبِعُ الْعَمَلَ

(١) أي يناسبه .

الصَّالِحَ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ مَعْنَاهُ أَنْ لَيْسَ لِلْمَرْءِ إِرَادَةٌ فِي اخْتِيَارِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ . فَذَهَبَ أَرِسْطُو إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مُخَيَّرٌ بَيْنَ عَمَلِ الْخَيْرِ وَعَمَلِ الشَّرِّ ، وَقَادِرٌ عَلَى إِتْيَانِ كُلٍّ مِنْهُمَا ، وَلَمْ يَعْرِضْ أَرِسْطُو بَعْدَ هَذَا لِلْمَسَائِلِ الْجَدَلِيَّةِ ، الَّتِي أَثَارَهَا الْفَلَاسِفَةُ الْمُتَأَخِّرُونَ بِسَبِيلِ حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ .

***

سياسة الدولة

وَتَنَاوَلَ أَرِسْطُو سِيَاسَةَ الدَّوْلَةِ ، فَعَيَّنَ أَنْوَاعَ الْحُكُومَاتِ ، وَلَمْ يُعَيِّنِ الْمِثْلَ الْأَعْلَى لِلدَّوْلَةِ ، وَإِنَّمَا فَضَّلَ حُكُومَةَ الْفَرْدِ ، وَإِنْ عَدَّهَا مُتَعَذِّرَةً أَوْ عَسِيرَةً عَلَى الْأَقَلِّ . إِذْ قَلَّ أَنْ يُوجَدَ الْحَكِيمُ الْعَادِلُ الصَّالِحُ لِهٰذَا الْحُكْمِ ، أَوْ بِمَعْنًى آخَرَ الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا النَّوْعَ يُلْفَى فِي الْأُمَمِ الْمُتَبَدِّيَةِ ، إِذْ نَرَى فِي الْجَمَاعَةِ فَرْداً يَفُوقُ الْآخَرِينَ فِي أَخْلَاقِهِ وَصِفَاتِهِ فَيَحْكُمُهُمْ .

***

وَيَلِي هٰذَا النَّوْعَ عِنْدَ أَرِسْطُو الْحُكُومَةُ الْأَرِسْتُقْرَاطِيَّةُ ،

وَدُونَهَا فِي نَظَرِهِ ٱلْحُكُومَةَ ٱلْجُمْهُورِيَّةَ قَائِلاً : إِنَّهَا كَانَتْ أَنْسَبَ أَنْوَاعِ ٱلْحُكُومَاتِ لِلْمُدُنِ ٱلْيُونَانِيَّةِ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهَا، وَمَرَاتِبِ رُقِيِّهَا .

٣ — الْأَفْلَاطُونِيَّةُ الْحَدِيثَةُ

***

نشأتها

أَسْلَفْنَا لَكَ فِي اللَّمْحَةِ الْأُولَى أَنَّ فَلَاسِفَةَ ٱلْعَرَبِ فِي ٱلْعَصْرِ ٱلْعَبَّاسِيِّ ، وَمِنْهُمُ الْإِمَامُ ٱلْغَزَالِيُّ ، تَأَثَّرُوا مِنْ فَلْسَفَةِ ٱلْيُونَانِ ٱلْقَدِيمَةِ بِمَذْهَبِ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ الْحَدِيثَةِ . بِجَانِبِ فَلْسَفَةِ أَرِسْطُو . وَالْآنَ نُحَدِّثُكَ فِي إِيجَازٍ عَنْ هَذِهِ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ ٱلْحَدِيثَةِ ، وَنَشْأَتِهَا وَحُدُودِهَا .

***

ظَهَرَ فِي ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فِي صَدْرِ ٱلْعَصْرِ ٱلْمَسِيحِيِّ مَذْهَبُ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ ٱلْحَدِيثَةِ ، وَقَدْ سُمِّيَ كَذَلِكَ لِأَنَّهُ جَاءَ وَلِيدَ تَعَالِيمِ أَفْلَاطُونَ . وَإِنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ قَوَاعِدِ

ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلْأَفْلَاطُونِيَّةِ ، بَلْ مَزَجَ بِهَا إِلْهَامَ ٱلشَّرْقِ وَأَخْيِلَتَهُ .

***

وَكَانَ مُؤَسِّسُ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ « أُومِنْيُوسْ سَاكَاس » وَهُوَ أَوَّلُ ٱلْمُعَلِّمِينَ ٱلْإِسْكَنْدَرِيِّينَ ٱلَّذِينَ حَاوَلُوا ٱلتَّوْفِيقَ بَيْنَ تَعَالِيمِ أَرِسْطُو وَأَفْلَاطُونَ . وَكَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ مِيلَادِيَّةً .

***

أفلوطين

وَأَشَدُّ أَنْصَارِهِ وَمُؤَيِّدِي مَذْهَبِهِ تِلْمِيذُهُ أَفْلُوطِينُ ، وَهُوَ غَيْرُ أَفْلَاطُونَ ٱلَّذِي مَرَّ بِكَ كَمَا لَا يَخْفَى ، وَيَمِيلُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ إِلَى عَدِّ أَفْلُوطِينَ مُؤَسِّسَ ٱلْمَذْهَبِ وَصَاحِبَهُ ، وَمِنْ ثَمَّ جَاءَتْ تَسْمِيَتُهُ بِٱلْأَفْلَاطُونِيَّةِ ٱلْحَدِيثَةِ

***

وَكَانَ مَوْلِدُ أَفْلُوطِينَ عَامَ خَمْسَةٍ وَمِائَتَيْنِ مِنْ مَوْلِدِ ٱلْمَسِيحِ فِي « لِيكُوبُولِيس » وَهِيَ أُسْيُوطُ ٱلْآنَ . وَتَلَقَّى ٱلْعِلْمَ فِي ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَلَازَمَ أُسْتَاذَهُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ

سِنِينَ ، وَصَحِبَ ٱلْحَمْلَةَ ٱلَّتِي وَجَّهَهَا ٱلْإِمْبَرَاطُورُ جُورْدَانُ لِقِتَالِ ٱلْفُرْسِ . على أَمَلِ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلْفَارِسِيَّةِ ، وَفَلْسَفَاتِ ٱلْهِنْدِ عَنْ مَصَادِرِهَا ٱلصَّحِيحَةِ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْخُذَ .

***

وَلَمَّا عَادَ مِنْ سَفَرِهِ نَزَحَ إِلَى رُومَةَ حَيْثُ أَقَامَ وَأَسَّسَ مَدْرَسَتَهُ إِلَى يَوْمِ وَفَاتِهِ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ بَعْدَ ٱلْمِائَتَيْنِ مِنَ ٱلْمِيلَادِ .

***

وَلَمْ يَعْرِفِ ٱلْعَرَبُ عَنْهُ شَيْئًا كَثِيرًا وَلَكِنَّهُمْ عَرَفُوا مَذْهَبَهُ ، وَسَمَّوْهُ مَذْهَبَ ٱلْإِسْكَنْدَرِيِّينَ . وَكَانَ ٱلشَّهْرَسْتَانِيُّ إِذَا ذَكَرَهُ قَالَ عَنْهُ ٱلشَّيْخُ ٱلْيُونَانِيُّ .

***

وَيُقَالُ إِنَّ ٱلْإِمْبَرَاطُورَ جَالِينُوسَ قَدَّرَهُ أَرْفَعَ ٱلتَّقْدِيرِ ، وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ وَأَحَبَّ أَنْ يُقْطِعَهُ إِقْلِيمًا مِنَ ٱلدَّوْلَةِ لِيُنْشِئَ عَلَيْهِ مَا كَانَ يُرِيدُ أَفْلَاطُونُ أَنْ يُنْشِئَهُ مِمَّا سَمَّاهُ فِي فَلْسَفَتِهِ

بِالْمَدَنِيَّةِ الْفَاضِلَةِ ، أَوِ الدَّوْلَةِ الرَّاغِدَةِ

***

وَقَضَى أَفْلُوطِينُ الْحَيَاةَ فِي تَزَهُّدٍ وَتَقَشُّفٍ وَنُسُكٍ ، فَمَا كَانَ يَنَامُ إِلَّا قَدْرَ حَاجَةِ الْبَدَنِ اضْطِرَاراً وَكَرَاهِيَةً ، وَمَا كَانَ يَأْكُلُ إِلَّا قَدْرَ مَا يُقِيمُ أَوَدَهُ ، وَيُمْسِكُ أَرْمَاقَهُ (١) .

***

وَمَا أَذِنَ يَوْماً لِرَسَّامٍ أَنْ يُصَوِّرَهُ قَائِلاً فِي ذَلِكَ إِنَّهُ لَا يَزِيدُ فِيمَا يَفْعَلُ عَلَى رَسْمِ ظِلٍّ لِظِلٍّ ، وَشَبَحٍ لِشَبَحٍ ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْماً . وَيَدَعُ الصَّوْمَ يَوْماً .

***

مذهبه

أَمَّا مَذْهَبُهُ فَيَنْزِعُ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ هَذَا الْعَالَمَ كَثِيرُ الظَّوَاهِرِ ، دَائِمُ التَّحَوُّلِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يُوجَدْ بِنَفْسِهِ ، بَلْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ عِلَّةٍ سَابِقَةٍ لِوُجُودِهِ ، وَأَنَّ الَّذِي صَدَرَ عَنْهُ وَاحِدٌ لَا تُدْرِكُهُ الْعُقُولُ ، وَلَا تَبْلُغُ كُنْهَ حَقِيقَتِهِ الْأَذْهَانُ ، لَا يَحُدُّهُ حَدٌّ ، وَهُوَ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ ، فَوْقَ الْمَادَّةِ وَفَوْقَ الرُّوحِ ، خَلَقَ الْخَلْقَ وَلَمْ يَحُلَّ فِيمَا خَلَقَ ، وَلَيْسَ

(١) أرماق : جمع رمق ، وهو بقية الحياة .

ذَاتاً وَلَا هُوَ صِفَةً ، وَإِنَّمَا هُوَ ٱلْإِرَادَةُ ٱلْمُطْلَقَةُ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ إِرَادَتِهِ ، وَهُوَ عِلَّةُ ٱلْعِلَلِ وَلَا عِلَّةَ لَهُ ، وَهُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَلَيْسَ لَهُ مَكَانٌ .

***

صفات الوحدانية

وَلَمَّا كَانَ ٱلشَّبَهُ مُنْقَطِعاً بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ ، عَجَزْنَا أَنْ نَصِفَهُ بِغَيْرِ ٱلصِّفَاتِ ٱلسَّالِبَةِ . فَمَاهُوَ مَادَّةٌ وَلَا هُوَ حَرَكَةٌ وَلَا سُكُونٌ . وَلَيْسَ هُوَ فِي زَمَانٍ وَلَا فِي مَكَانٍ ، وَلَيْسَ صِفَةً لِأَنَّهُ سَابِقٌ لِكُلِّ ٱلصِّفَاتِ ، وَلَوْ أُضِيفَتْ إِلَيْهِ صِفَةٌ مَا لَكَانَ ذَلِكَ تَشْبِيهاً لَهُ بِمَخْلُوقَاتِهِ ، أَوْ بِمَعْنًى آخَرَ كَانَ ذَلِكَ تَحْدِيداً لَهُ ، وَهُوَ لَانِهَايَةَ لِحُدُودِهِ ، يُخَالِفُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَيَسْمُو عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَلِأَنَّ ٱللهَ فَوْقَ ٱلْعَالَمِ ، وَلِأَنَّهُ غَيْرُ مَحْدُودٍ ، لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَخْلُقَ ٱلْعَالَمَ مُبَاشَرَةً . وَإِلَّا ٱضْطُرَّ إِلَى ٱلِاتِّصَالِ بِهِ ، مَعَ أَنَّهُ بَعِيدٌ عَنْهُ لَا يَنْزِلُ إِلَى مُسْتَوَاهُ ، وَلِأَنَّهُ وَاحِدٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ ٱلْعَالَمُ ٱلْمُتَعَدِّدُ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُقَ ٱللهُ ٱلْعَالَمَ ، لِأَنَّ ٱلْخَلْقَ عَمَلٌ أَوْ إِنْشَاءُ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ ، وَذَلِكَ يَسْتَدْعِي ٱلتَّغْيِيرَ فِي ذَاتِ ٱللهِ ـ وَٱللهُ لَا يَتَغَيَّرُ

***

علة العالم وفوق العالم

يَقُولُ أَفْلُوطِينُ إِنَّ اللهَ عِلَّةُ ٱلْعَالَمِ ، بَيْنَمَا يَقُولُ فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَى ، إِنَّهُ فَوْقَ ٱلْعَالَمِ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ أَيَّ اتِّصَالٍ ، وَلِلتَّوْفِيقِ بَيْنَ هَذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ ٱلْمُتَنَاقِضَيْنِ وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنْهُمَا وَهُوَ كَيْفَ نَشَأَ ٱلْعَالَمُ إِذَنْ عَنِ اللهِ ؟ يُجِيبُ أَفْلُوطِينُ لَاجِئًا فِي إِجَابَتِهِ إِلَى ٱلشِّعْرِ وَالِاسْتِعَارَةِ وَالتَّمْثِيلِ ، فَيَقُولُ : إِنَّ تَفْكِيرَ اللهِ فِي نَفْسِهِ وَكَمَالِهِ نَشَأَ عَنْهُ فَيْضٌ ، وَهَذَا ٱلْفَيْضُ صَارَ هُوَ ٱلْعَالَمَ ، وَكَمَا يَبْعَثُ ٱللَّهِيبُ ضَوْءًا ، وَٱلثَّلْجُ بَرْدًا ، كَذَلِكَ انْبَعَثَ مِنَ اللهِ شُعَاعٌ كَانَ هُوَ ٱلْعَالَمَ ، وَعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ ٱلْكَوْنُ قَدِ انْبَثَقَ مِنَ ٱللهِ انْبِثَاقًا طَبِيعِيًّا بِحُكْمِ ٱلضَّرُورَةِ ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي هَذِهِ ٱلضَّرُورَةِ أَيُّ مَعْنًى مِنْ مَعَانِي ٱلِاضْطِرَارِ وَالْإِلْزَامِ ، وَلَيْسَ فِي ٱلْخَلْقِ مَعْنَى ٱلْحُدُوثِ . فَلَيْسَ يَقْتَضِي تَغَيُّرًا فِي اللهِ ، وَلَمَّا كَانَ كُلُّ كَائِنٍ قَدْ تَفَرَّعَ هَكَذَا مِنَ ٱلْكَائِنِ ٱلْأَوَّلِ وَهُوَ اللهُ — فَهُوَ يَمِيلُ بِفِطْرَتِهِ الَى ٱلْعَوْدَةِ إِلَى أَصْلِهِ وَمَبْعَثِهِ ٱلَّذِي كَانَ

قَدْ صَدَرَ عَنْهُ وَلَا يَنْفَكُّ يُحَاوِلُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ . أَمَّا ذَلِكَ الْمَصْدَرُ الْأَوَّلُ فَمُسْتَقِرٌّ فِي نَفْسِهِ ، مُكْتَفٍ بِهَا ، لَا يَتَّصِلُ بِمَا تَفَرَّعَ عَنْهُ مِنْ أَشْيَاءَ . وَهَذِهِ الْكَائِنَاتُ الَّتِي صَدَرَتْ عَنِ اللهِ تَكُونُ سُلَّمًا نَازِلًا مِنْ دَرَجَاتِ الْكَمَالِ ، فَكُلُّ شَيْءٍ أَقَلُّ كَمَالًا مِمَّا فَوْقَهُ ، وَيَسْتَمِرُّ التَّنَاقُصُ حَتَّى يَنْعَدِمَ الْكَمَالُ فِي آخِرِ السُّلَّمِ انْعِدَامًا تَامًّا حَيْثُ يَفْنَى النُّورُ فِي الظَّلَامِ

***

العقل

وَأَوَّلُ شَيْءٍ انْبَثَقَ (١) مِنَ الْوَاحِدِ هُوَ الْعَقْلُ ، وَلِهَذَا الْعَقْلِ وَظِيفَتَانِ ، التَّفْكِيرُ فِي اللهِ ، وَالتَّفْكِيرُ فِي نَفْسِهِ ، وَقَدْ خَلَعَ أَفْلُوطِينُ عَلَى هَذَا الْعَقْلِ شَيْئًا مِنْ خَصَائِصِ الْمِثَالِ الَّذِي شَرَحَهُ أَفْلَاطُونُ .

***

النفس

وَمِنْ هَذَا الْعَقْلِ انْبَثَقَتْ نَفْسُ الْعَالَمِ ، وَهِيَ لَيْسَتْ مُجَسَّدَةً ، وَلَا قَابِلَةً لِلْقِسْمَةِ . وَلِهَذِهِ النَّفْسِ مَيْلَانِ ، مَيْلٌ نَحْوَ الْعُلُوِّ إِلَى الْوَاحِدِ ، وَإِلَى أَسْفَلَ نَحْوَ عَالَمِ الطَّبِيعَةِ ،

(١) أى ظهر

وَقَدِ ٱنْبَثَقَتْ مِنْهَا ٱلنُّفُوسُ ٱلْبَشَرِيَّةُ ٱلَّتِي تَسْكُنُ هَذَا ٱلْعَالَمَ ـ فَنَفْسُ ٱلْعَالَمِ ـ كَالْعَقْلِ ـ تَنْتَمِي إِلَى ٱلْعَالَمِ ٱلْإِلٰهِيِّ الرُّوحِيِّ ٱلَّذِي يَقَعُ فَوْقَ الْحِسِّ ، وَهِيَ تَعِيشُ عِيشَةً خَالِدَةً ، لَا تَحُدُّهَا حُدُودُ ٱلزَّمَنِ ، إِلَّا أَنَّهَا دُونَ ٱلْعَقْلِ دَرَجَةً ، فَهِيَ تَقِفُ عَلَى هَامِشِ ٱلْعَالَمِ الرُّوحِيِّ قَرِيبَةً مِنْ حُدُودِ هَذَا ٱلْعَالَمِ ٱلْمَحْسُوسِ ، وَلَوْ أَنَّهَا لَيْسَتْ جُثْمَانِيَّةً فِي ذَاتِهَا ، إِلَّا أَنَّهَا تَمِيلُ إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْجُثْمَانِيَّةِ فَتَنْظُرُ إِلَيْهَا ، وَهِيَ تَقِفُ بَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ مِنْ جِهَةٍ وَٱلْعَقْلِ مِنْ جِهَةٍ وَسِيطًا ، تَنْقُلُ ٱلْعِلَلَ وَٱلْأَسْبَابَ ٱلَّتِي تَبْدَأُ مِنَ ٱلْعَقْلِ فَتُوصِلُهَا إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ .

***

الطبيعة

وَمِنْ هَذِهِ ٱلنَّفْسِ ٱلْأُولَى ـ أَوْ نَفْسِ ٱلْعَالَمِ ـ خَرَجَتْ نَفْسٌ ثَانِيَةٌ دَعَاهَا أَفْلُوطِينُ ٱلطَّبِيعَةَ ، وَهِيَ ٱلَّتِي تَشْتَرِكُ وَحْدَهَا مَعَ ٱلْعَالَمِ ٱلْمَادِّيِّ . كَمَا تَمْتَزِجُ نُفُوسُنَا مَعَ جُسُومِنَا ، وَهَذِهِ ٱلنَّفْسُ ٱلْأَخِيرَةُ ٱلَّتِي هِيَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلنُّفُوسِ ٱلْجُزْئِيَّةِ ٱلْمُوَزَّعَةِ عَلَى ٱلْكَائِنَاتِ ، هِيَ أَدْنَى مَرَاتِبِ ٱلْعَالَمِ الرُّوحِيِّ ،

وَالْخُطْوَةُ الَّتِي تَلِيهَا مُبَاشَرَةً هِيَ الْمَادَّةُ ، وَهِيَ أَبْعَدُ الْكَائِنَاتِ عَنِ الْكَمَالِ .

***

وَيَقُولُ أَفْلُوطِينُ: إِنَّ انْبِثَاقَ النُّفُوسِ الْجُزْئِيَّةِ عَنْ نَفْسِ الْعَالَمِ ، هُوَ كَانْبِثَاقِ الضَّوْءِ مِنْ مَرْكَزِهِ . فَكُلَّمَا بَعُدَ عَنِ الْمَرْكَزِ ضَعُفَ حَتَّى يَصِيرَ ظَلَاماً ، وَهَذَا الظَّلَامُ التَّامُّ الَّذِي انْحَسَرَ عَنْهُ ضَوْءُ النَّفْسِ هُوَ الْمَادَّةُ ، فَالْمَادَّةُ ضَوْءٌ سَلْبِيٌّ ، وَهَكَذَا يَسْبَحُ أَفْلُوطِينُ فِي أَخْيِلَتِهِ وَتَمْثِيلَاتِهِ الشِّعْرِيَّةِ .

***

المادة

وَهُوَ يَقُولُ إِنَّ الْمَادَّةَ هِيَ مَصْدَرُ التَّعَدُّدِ ، وَهِيَ سَبَبُ الشُّرُورِ ، لِأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنِ الْعَدَمِ ، وَالْعَدَمُ أَشَدُّ دَرَجَاتِ النَّقْصِ ، وَالنَّقْصُ هُوَ الشَّرُّ ، فَالْمَادَّةُ إِذَنْ هِيَ مَنْشَأُ الشُّرُورِ جَمِيعاً ، وَغَايَةُ الْحَيَاةِ هِيَ التَّحَرُّرُ[1] مِنْ رِبْقَةِ[2] الْمَادَّةِ ، وَأَوَّلُ خُطْوَةٍ لِذَلِكَ التَّحَرُّرِ ، هِيَ التَّخَلُّصُ مِنْ سُلْطَانِ الْجِسْمِ وَالْحَوَاسِّ .

(١) أى التخلص (٢) الربقة : العروة من الربق « الحبل »

وَمِنْ هَذَا تَنْشَأُ ٱلْفَضَائِلُ الِاعْتِيَادِيَّةُ .

***

وَٱلْخُطْوَةُ ٱلثَّانِيَةُ : هِيَ ٱلْفِكْرُ وَٱلْفَلْسَفَةُ ، وَٱلثَّالِثَةُ : هِيَ أَنْ تَسْمُوَ ٱلنَّفْسُ فَوْقَ ٱلتَّفْكِيرِ إِلَى ٱلْمَعْرِفَةِ أَوِ ٱلْعِلْمِ ٱللَّدُنِّيِّ أَوِ ٱللَّقَانَةِ[1] ، وَتَلِيهَا ٱلْخُطْوَةُ أَوِ ٱلدَّرَجَةُ ٱلْأَخِيرَةُ ، وَهِيَ ٱلْفَنَاءُ فِي ٱللهِ بِالْهُيَامِ وَٱلذُّهُولِ وَٱلْغِيَابِ وَٱلْوَجْدِ ، وَذَلِكَ هُوَ أَوْجُ ٱلتَّصَوُّفِ ، وَتَصِلُ ٱلنُّفُوسُ ٱلْبَشَرِيَّةُ ٱلرَّاقِيَةُ ٱلسَّامِيَةُ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ فِي لَحَظَاتٍ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى حَالَتِهَا ٱلْبَشَرِيَّةِ ٱلْمَأْلُوفَةِ .

أوج التصوف

***

وَقَدْ ذَكَرَ أَفْلُوطِينُ أَنَّهُ سَمَا إِلَى هَذِهِ ٱلدَّرَجَةِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ ذَاقَ فِيهَا نَشْوَةَ الِاتِّحَادِ بِاللهِ أَوِ ٱلْفَنَاءِ فِيهِ ، وَأَدْرَكَ سَاعَاتِ ٱلتَّجَلِّي ٱلَّتِي لَا تُوصَفُ .

***

وَقَدْ جَاءَ مِنْ بَعْدِ أَفْلُوطِينَ فَلَاسِفَةٌ يُتَقَحَّمُونَ فِي هَذَا

اتباع المذهب

(١) اللقانة : من لقن ككرم . وهى هنا بمعنى الايحاء الداخلى

ٱلْمَذْهَبِ وَيُهَذِّبُونَ ، وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ فورفوريوس ويامبليكوس وسريانوس

***

الشك

وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ قِيَامِ ٱلْأَفْلَاطُونِيَّةِ ٱلْحَدِيثَةِ انْتِشَارُ مَذْهَبِ الشَّكِّ قَبْلَهُ ، إِذْ لَمَّا أَيْقَنَ ٱلْعَقْلُ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ ٱلْوُصُولَ إِلَى ٱلْحَقِّ بِتَفْكِيرِهِ وَبَحْثِهِ ، حَاوَلَ مَعْرِفَتَهُ بِالْكَشْفِ وَٱلْإِلْهَامِ ، وَٱلسُّكْرِ الرُّوحِيِّ أَوِ ٱلنَّشْوَةِ ٱلْهِيَامِيَّةِ .

***

وَهَذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْفَلْسَفَةِ يُخَالِفُ ٱلْفَلْسَفَةَ مِنْ أَسَاسِهَا لِأَنَّهُ أَدْنَى إِلَى ٱلنَّوْعِ الدِّينِيِّ ، وَبِهِ أَشْبَهُ ، وَمِنْهُ أَقْرَبُ .

.....

على هامش السيرة

عصر الغزالى

العصور الثلاثة للدولة العباسية

هُوَ ٱلْعَصْرُ ٱلْعَبَّاسِيُّ ٱلثَّالِثُ كَمَا أَسْلَفْنَا لَكَ ، وَهُوَ مِنْ عَهْدِ ٱلْعَبَّاسِيِّينَ يَكَادُ يُعَدُّ ٱلْمَرْحَلَةَ ٱلْأَخِيرَةَ مِنْ مَرَاحِلِهِ ، إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ مِنْ وَجْهِهِ ٱلْعِلْمِيِّ ، وَنَاحِيَتِهِ ٱلثَّقَافِيَّةِ ، إِذْ لَمْ يَكُنِ ٱلْعَصْرُ ٱلْعَبَّاسِيُّ ٱلرَّابِعُ غَيْرَ مَرْحَلَةِ ٱلشَّيْخُوخَةِ وَدَوْرِ ٱلْفَنَاءِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ ٱلْبَارِزِ فِي سِيَاقِ ٱلْحَضَارَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ ، وَثَقَافَةِ ٱلْعَرَبِ :

***

وَقَدْ كَانَ ٱلْعَصْرُ ٱلْأَوَّلُ فِي حُكُومَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ دَوْرَ ٱلْغِرَاسِ وَٱلْحَرْثِ وَٱلتَّعْبِيدِ (١) وَإِطْلَاقِ مَاءِ ٱلرِّيِّ فِي حِيَاضِ ٱلثَّقَافَةِ وَحُقُولِ ٱلْفِكْرِ بِمَا رَاحَ ٱلنَّقَلَةُ يَجِيئُونَ بِهِ مِنَ ٱلثَّقَافَاتِ ٱلْأَجْنَبِيَّةِ عَلَى ٱلْإِسْلَامِ ، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنَ ٱلْفُرْسِ ظَلُّوا عَلَى دِينِهِمْ ، أَوِ ٱنْدَمَجُوا فِي ٱلدِّينِ ٱلْجَدِيدِ وَلُغَتِهِ

***

(١) أى التذليل والتسهيل

وَكَانَ الدَّوْرُ الثَّانِي ، دَوْرَ الْحَصَادِ وَجَنْيِ الثَّمَرِ ، وَكَانَ أَعْلَامُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ اسْتَغَلُّوا الثَّقَافَاتِ الْمَنْقُولَةَ ، وَانْتَفَعُوا بِالدَّمِ الْجَدِيدِ الَّذِي خَفِقَتْ بِهِ آدَابُ الدِّينِ وَثَقَافَتُهُ .

***

انتشار الثقافة

وَمَا لَبِثَتِ الْعِنَايَةُ بِالْحَرَكَةِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي ابْتَدَأَتْ مِنْ أَعْلَى ، وَظَهَرَتْ مِنْ جَانِبِ الْخُلَفَاءِ وَالْأُمَرَاءِ ، وَبِخَاصَّةٍ فِي عَهْدِ الْمَأْمُونِ ، أَنِ امْتَدَّتْ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ إِلَى الشَّعْبِ نَفْسِهِ ، وَالرَّعِيَّةِ ذَاتِهَا ، بِمَا تَبِعَ الِاشْتِغَالَ بِالْآدَابِ وَالثَّقَافَاتِ مِنَ النُّبُوغِ فِيهِ ، وَالْوُلُوعِ بِهِ ، وَإِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْهِ ، وَاسْتِرْوَاحِ النُّفُوسِ إِلَى النَّهَلِ مِنْهُ .

***

الرغبة فى التحرر الفكرى

وَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يُحْدِثَ هَذَا نَوْعًا مِنَ التَّبَرُّمِ [١] بِالْقَيْدِ وَالتَّحَلُّلِ [٢] مِنَ الصَّفَدِ [٣] ، وَالْخُرُوجِ مِنْ غُلِّ التَّقْلِيدِ ، وَلَكِنْ لِلْحُرِّيَّةِ كَمَا لَا يَخْفَى مَضَارُّهَا ، كَمَا أَنَّ لَهَا مَنَافِعَهَا ،

(١) أى التشاؤم منه والتمرد عليه (٢) أى التخلص (٣) هو القيد والغل

فَإِنَّ الْإِسْرَافَ فِيهَا مَتْلَفَةٌ لِحَسَنَاتِهَا ، وَمُسْتَغَلٌّ [١] سَيِّئٌ لِمَزَايَاهَا وَأَنْعُمِهَا ، وَأَذًى بَالِغٌ مِنْ سَرَاحِهَا الْمُطْلَقِ وَإِبَاحَتِهَا ، فَلَئِنْ أُطْلِقَ الْفِكْرُ يَوْمَئِذٍ مِنْ قُيُودِهِ ، وَخُلِّيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُودِ عَلَى تَقْلِيدِهِ ، لَقَدْ كَانَتْ سَوْأَةً [٢] ذَلِكَ وَضَرَّهُ تَنَوُّعَ الْبِدَعِ ، وَتَفَرُّقَ الشِّيَعِ ، وَزَحْمَةَ الطَّرَائِقِ ، وَتَصَادُمَ الْمَذَاهِبِ ، وَتَعَدُّدَ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ ، وَذَهَابَ النَّاسِ مَعَ التَّسَامُحِ إِلَى مَالَا سَمَاحَةَ فِيهِ ، وَإِغْرَاقَهُمْ فِيمَا يُخْشَى الْغَرَقُ وَالتَّهْلُكَةُ بِهِ ، وَإِمْعَانَهُمْ فِي مُتَعِ الْحَيَاةِ الْفِكْرِيَّةِ إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الِاسْتِقْلَالِ فَارِقٌ عَظِيمٌ

***

ظهور المذاهب والنحل

وَقَدِ انْقَلَبَتِ السَّمَاحَةُ الْفِكْرِيَّةُ ، الَّتِي بَرَزَتْ بِجَلَالِهَا فِي عَهْدِ الْمَأْمُونِ ، حَتَّى لَقَدِ انْتَصَرَ لِلْمُعْتَزِلَةِ فِي الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، إِلَى إِبَاحَةٍ مُسْرِفَةٍ مُطْلَقَةٍ مِنَ الْأَعِنَّةِ [٣] فِيمَا تَرَادَفَ مِنَ الْعُهُودِ بَعْدَهُ ، وَتَكَاثَرَ مِنَ النِّحَلِ وَالْمَذَاهِبِ

(١) مصدر ميمى للاستغلال (٢) أى عورة وصغار (٣) جمع عنان وهو المقود .

ٱلْفِكْرِيَّةِ عِقَبَ عَهْدِهِ ، إِذْ ضَعُفَ ٱلنُّزُوعُ ٱلْعَاطِفِيُّ ، وَقَوِىَ ٱلنُّزُوعُ ٱلذِّهْنِيُّ ، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ ٱلدِّينُ مُتَمَكِّنًا مِنَ ٱلرُّوحِ وَٱلْقَلْبِ وَٱلْخَاطِرِ ، جَاءَتِ ٱلْفَلْسَفَةُ فَٱسْتَحْوَذَتْ عَلَى ٱلذِّهْنِ وَٱلتَّصَوُّرِ وَٱلْفِكْرِ ، فَٱخْتَلَفَتْ وُجُوهُ ٱلنَّظَرِ ، وَتَرَامَتْ (١) أَقْطَارُ ٱلرَّأْيِ ، وَٱتَّسَعَتْ حُدُودُ ٱلتَّأْوِيلِ ، فِى غَيْرِ تَقَيُّدٍ أَوْ خَوْفٍ مِنْ سُلْطَانٍ رَقِيبٍ ، أَوْ خَشْيَةٍ مِنْ زَاجِرٍ أَوْ عِقَابٍ

***

وَقَدْ مَرَّ بِكَ فِى ٱللَّمْحَةِ ٱلْأُولَى مِنْ لَمَحَاتِ ٱلتَّمْهِيدِ ، أَنْ آرَاءَ ٱلْفَلَاسِفَةِ كَانَتْ قَدِ ٱنْتَشَرَتْ قَبْلَ ظُهُورِ ٱلْغَزَالِيِّ ، إِذْ عَمَدَ إِلَيْهَا أَمْثَالُ ٱلرَّئِيسِ ٱبْنِ سِينَا ، وَٱلْفَارَابِيِّ وَأَشْبَاهِهِمَا ، فَحَبَّبُوهَا إِلَى أَهْلِ ذَلِكَ ٱلْجِيلِ وَشَبَابِهِ ، وَبَثُّوهَا فِى ٱلنُّفُوسِ بِأَدَاةِ ٱلْفِكْرِ رُوحِيِّهِ وَكِتَابِهِ ، وَكَانَ هَذَا هُوَ ٱلْجُنُوحَ إِلَى ٱلتَّجْدِيدِ . وَٱبْتِدَاءَ ٱلْحَرْبِ ٱلْمَشْبُوبَةِ عَلَى ٱلتَّقْلِيدِ .

***

(١) أى اتسعت

أهل التقليد

وَلَـكِنَّ أَهْلَ ٱلتَّقْلِيدِ وَهُمْ فُقَهَاءُ ٱلدِّينِ وَٱلْعُلَمَاءُ فِيهِ ، وَٱلْمُتَوَفِّرُونَ عَلَيْهِ ، وَٱلْمُلِحُّونَ فِيهِ ، خَشُوا أَنْ يَزُولَ فِي ٱلدَّوْلَةِ سُلْطَانُهُمْ إِذَا هُمْ تَرَكُوا ٱلْمَدَى يَنْفَسِحُ لِلرُّوحِ ٱلطَّارِئِ ، وَٱلنُّزُوعِ ٱلْجَدِيدِ ، كَمَا أَشْفَقُوا مِنْ سَرَيَانِهِ إِلَى ٱلْعَامَّةِ ، وَٱنْتِقَالِهِ إِلَى ٱلسَّوَادِ وَٱلْجُمْهَرَةِ ، فَيُفْسِدُ عَلَيْهِمْ عَقَائِدَهُمْ ، وَيَذْهَبُ بِمَبَادِئِ إِيمَانِهِمْ ، وَيُغَيِّرُ عَلَى مَكَانِهِمْ ٱلسِّيَاسِيِّ فِي ٱلْمُجْتَمَعِ وَعِنْدَ حَاكِمِيهِ ، فَرَأَوْا أَنْ يُقَاوِمُوهُ وَمَضَوْا يُحَارِبُونَهُ لِيَغْلِبُوهُ ، وَيَحْشِدُونَ كُلَّ قُوَاهُمْ لِيَسْتَأْصِلُوهُ ، وَلَـكِنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَذَلِكَ فِي فِرَقٍ ، وَفِي طَبِيعَتِهِمْ خُصُومَةٌ وَلَدَدٌ ، وَكَانَ لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ عَصَبِيَّتُهُ ، وَلِكُلِّ مَذْهَبٍ حَمَاسَتُهُ لِذَاتِهِ ، وَغَضْبَتُهُ لِفِكْرَتِهِ ، وَنَفْحُهُ عَنْ طَرِيقَتِهِ ، فَٱلْحَنَفِيَّةُ أَوْ أَصْحَابُ مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ ٱلنُّعْمَانِ ، يُنَاضِلُونَ وَيُنَاهِضُونَ ٱلشَّافِعِيَّةَ ، وَهَذِهِ لَا تُطِيقُ وُجُودَ مَذْهَبٍ آخَرَ مَعَهَا ، حَتَّى دَفَعَ هَذَا ٱلتَّنَاحُرُ[1] ٱلْمَذْهَبِيُّ يَوْمَئِذٍ إِلَى فِتَنٍ ، وَأَثَارَ هَزَاهِزَ[2]

(١) أى التخاصم والبغضاء (٢) أى قلاقل

وَجَعَلَ الْعِرَاقَ أَتُونَ [1] نِزَاعٍ مَحْتَدِمٍ ، وَاشْتِجَارٍ مُتَفَاقِمٍ ، وَتَخَاصُمٍ لَا يَنْطَفِىءُ لَهُ سَعِيرٌ .

***

وَكَانَتِ الْمَالِكِيَّةُ — مَذْهَبُ مَالِكٍ — فِى نَاحِيَةٍ وَحْدَهَا مِنَ الشَّرْقِ الْإِسْلَامِىِّ فِى الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ ، لَا تَشْتَرِكُ فِى هَذَا النِّزَاعِ وَلَكِنْ تَخْشَاهُ ، وَلَا تُقَاسِمُ فِيهِ لِبُعْدِ النَّوَى وَنَأْىِ الْمَسَافَةِ ، وَلَكِنْ تَخَافُ عَدْوَاهُ .

***

وَهَاجَ هَائِجُ الْجَدَلِ ، وَثَارَتْ ثَائِرَةُ الْحِوَارِ الْمُشْتَدِّ الْمُسْتَعِرِ بَيْنَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ ، ثُمَّ بَيْنَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَفِرَقِهَا ، وَبَيْنَ بَعْضِ الْمُعْتَزِلَةِ وَبَعْضِهَا ، وَبَيْنَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ فِى بَغْدَادَ وَنَوَاحِيهَا .

***

ظهور الفلسفة

وَفِى وَسَطِ هَذِهِ الْفُرْقَةِ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ ، وَالْجَدَلِ الْقَائِمِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَأَسَاطِينِ الدِّينِ ، ذَرَّ [2] قَرْنُ الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ

(١) وقد تشدد التاء : أخدود الجيار والجصاص ونحوه

(٢) ذر قرن الشمس : ظهر .

وَمَا صَحِبَهَا مِنَ ٱلْمَنْقُولِ عَنْ فَلْسَفَةِ ٱلْفُرْسِ وَفَلْسَفَةِ ٱلْهِنْدِ، فَكَانَتْ عَدُوًّا مُشْتَرَكًا قَدْ بَرَزَ لِهٰؤُلَاءِ، وَلٰكِنَّهُمْ كَانُوا مُتَنَابِذِينَ وَٱلْعَدُوُّ عَلَى ٱلْأَبْوَابِ، مُمَزِّقِي ٱلْوَشَائِجِ (١) وَٱلْخَطَرُ مُحْدِقٌ بِهِمْ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَلَمْ يَكُونُوا قَدْ دَرَسُوا نَوَاحِيَهُ أَوْ تَغَلْغَلُوا مِنْهُ فِي ٱلسِّرِّ وَٱلْجَوْهَرِ وَٱللُّبَابِ.

***

وَفِي هٰذَا ٱلْمُحِيطِ ٱلْغَرِيبِ، مُحِيطِ ٱلْفِتَنِ وَٱلتَّنَاحُرِ ٱلْفِكْرِيِّ، نَشَأَ ٱلْغَزَالِيُّ وَدَرَجَ، فَكَانَتْ نَشْأَتُهُ بَيْنَ مَرْجٍ وَرَجٍ (٢)، وَخِلَافٍ مُشْتَعِلٍ مُسْتَعِرٍ، كَانَتْ بَغْدَادُ مِنْهُ عَلَى خَطَرٍ، وَقَدْ نَهَلَ هُوَ مِنْ ذَاتِ ٱلْمَوْرِدِ وَٱلْمَصْدَرِ، فَدَرَسَ عُلُومَ ٱلدِّينِ حَتَّى ٱسْتَمْكَنَ مِنْهَا، وَتَفَقَّهَ فِيهَا، كَمَا دَرَسَ ٱلْفَلْسَفَةَ وَمُخْتَلِفَ نَوَاحِيهَا، وَلٰكِنَّهُ عِنْدَ ٱلتَّطْبِيقِ خَالَفَ ٱلْجِيلَ وَٱلْعَصْرَ، وَٱخْتَطَّ لِنَفْسِهِ طَرِيقًا آخَرَ، فَكَانَ جَدِيدًا عَلَى زَمَانِهِ كَكُلِّ مُصْلِحٍ، غَرِيبًا فِي جِيلِهِ كَكُلِّ هَادٍ وَمُفَكِّرٍ، فَإِنَّ ٱلظَّاهِرَةَ ٱلثَّابِتَةَ فِي حَيَاةِ ٱلنَّوَابِغِ، وَبُرُوزِ

نشأة الغزالى

(١) العلاقات (٢) يقال بينهم هرج ومرج : أى فتنة واضطراب .

الأَفْذَاذِ النَّادِرِينَ ، أَنَّهُمْ يَجِيئُونَ عَلَى غَيْرِ[1] غِرَارٍ وَيَظْهَرُونَ أَغْرَبَ مَظْهَرٍ .

***

وَقَدْ صَوَّرْنَا لَكَ عَصْرَ ٱلْغَزَالِيِّ مِنْ إِحْدَى نَوَاحِيهِ ، وَهِيَ النَّاحِيَةُ ٱلدِّينِيَّةُ ، وَلَمْ نُصَوِّرْهُ لَكَ مِنْ نَاحِيَتِهِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ ، وَنَحْنُ مُتَنَاوِلُو تَصْوِيرِهَا ٱلآنَ فِي إِيجَازٍ مُخْتَصَرٍ

***

الناحية السياسية لعصر الغزالى

كَانَ عَصْرُ ٱلْغَزَالِيِّ فِي ٱلْوَاقِعِ هُوَ دَوْرَ الِانْحِلَالِ الْعَبَّاسِيِّ وَبِدَايَةَ نِهَايَتِهِمْ ، وَأَوَائِلَ خَوَاتِيمِهِمْ ، فَقَدْ أَخَذَ الْعُنْصُرُ التُّرْكِيُّ يَتَغَلَّبُ يَوْمَئِذٍ وَيَنْمُو أَثَرُهُ ، وَتَقْوَى شَوْكَتُهُ ، وَيَتَمَكَّنُ سُلْطَانُهُ ، حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلَى بَغْدَادَ ، وَبَسَطُوا ظِلَالَ حُكْمِهِمْ عَلَى ٱلْعِرَاقِ ، قَبْلَ مَوْلِدِ ٱلْغَزَالِيِّ بِثَلَاثِ سِنِينَ .

***

السلاجقة

وَكَانَ أَصْحَابُ السُّلْطَانِ ٱلْجَدِيدِ هُمُ السَّلَاجِقَةَ ، وَقَدْ كَانَتْ عَشِيرَتُهُمْ خَمْسَةَ بُيُوتٍ ، وَهِيَ السَّلَاجِقَةُ ٱلْكُبْرَى ،

(١) على غير غرار : على غير مثال وطريقة شأن المبرزين فى كل الامم.

وَهَؤُلَاءِ مَلَكُوا خُرَاسَانَ ، وَالرَّيَّ وَالْجِبَالَ وَالْعِرَاقَ ، وَالْجَزِيرَةَ ، وَفَارِسَ ، وَالْأَهْوَازَ ، وَسَلَاجِقَةُ كَرْمَانَ ثُمَّ سَلَاجِقَةُ الْعِرَاقِ وَسَلَاجِقَةُ سُورِيَةَ وَسَلَاجِقَةُ الرُّومِ .

***

وَقَدْ أَسَّسَ هٰذِهِ الدَّوْلَةَ رُكْنُ الدِّينِ أَبُو طَالِبٍ الْمَعْرُوفُ « بطغرل بك » عَامَ تِسْعَةٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمائَةٍ هِجْرِيَّةً ، وَظَلَّتْ قَائِمَةَ السُّلْطَانِ (١) زُهَاءَ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ حَتَّى انْقَرَضَتْ سَنَةَ سَبْعِمائَةٍ عَلَى أَيْدِي آلِ عُثْمَانَ وَالْمُغُولِ (٢) .

***

مولد الغزالى

وَكَانَ مَوْلِدُ الْغَزَالِيِّ عَقِبَ ظُهُورِ « طغرل بك » فَاتِحِ بَغْدَادَ بِإِحْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً ، فَلَمْ يَتَّصِلْ بِهِ ، إِذْ كَانَ يَوْمَئِذٍ فِي عَهْدِ الطَّلَبِ وَالتَّحْصِيلِ . وَلٰكِنَّهُ حَضَرَ عَهْدَ عَضُدِ الدِّينِ أَبِي شُجَاعٍ إِلْب أَرْسِلَانَ ، وَعَهْدَ جَلَالِ الدِّينِ أَبِي الْفَتْحِ مَلِك شَاه ، وَنَاصِرِ الدِّينِ مَحْمُودٍ ، وَرُكْنِ الدِّينِ

(١) زهاء : قدر (٢) المغول : جيل من الناس . من نسل مغول بن النجه خان بن ترك بن يافث بن نوح عليه السلام - جمع مغل

أبى الْمُظَفَّر بِرْكِيَا رُوقٍ ، وَرُكْنِ الدِّينِ مَلِكْ شَاهْ الثَّانِي ، وَمُحَمَّدِ بْنِ مَلِكْ شَاهْ .

***

المدارس النظامية

وَكَانَ الِب أَرسلان وَاسِطَةَ عِقْدِ الدَّوْلَةِ السُّلْجُوقِيَّةِ ، وَكَبِيرَ عُمُدِهَا ، وَزَعِيمَ سَادَاتِهَا ، وَفِى عَهْدِهِ أُسِّسَتِ الْمَدَارِسُ النِّظَامِيَّةُ الَّتِى كَانَ الْغَزَالِىُّ مُعَلِّماً فِيهَا كَبِيرَ الشَّأْنِ ، مَسْمُوعَ الرأْىِ ، رَفِيعَ الْمَكَانَةِ .

***

الفقهاء

وَلَمْ يَكُنْ لِلسَّلَاجِقَةِ — وَهُمُ الطَّارِئُونَ عَلَى الدِّينِ — عِلْمٌ بِأَسْرَارِهِ ، أَوْ خُبْرٌ بِمَسَائِلِهِ ، أَوْ مَعْرِفَةٌ بِعُلُومِهِ ، فَكَانَ ذٰلِكَ بِلَا رَيْبٍ مَدْعَاةً إِلَى حَاجَتِهِمْ إِلَى تَقْرِيبِ الْفُقَهَاءِ ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِالْعُلَمَاءِ ، فَانْفَسَحَ بِذٰلِكَ الْمَجَالُ لِهٰؤُلَاءِ ، وَتَرَامَتْ الْمَنَادَحُ[1] أَمَامَهُمْ ، لِيَبْلُغُوا مَكَاناً مِنَ السُّلْطَانِ ، وَيُصِيبُوا حَظّاً مِنَ النُّفُوذِ ، وَيَجِدُوا عِنْدَ وُلَاةِ الْأَمْرِ دَالَّةً وَشَأْناً عَظِيماً .

(١) المنادح : جمع مندوحة وهى ما اتسع من الارض

***

فورة الخصومات والمنافسات

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذٰلِكَ، فَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ فَتَحَ أَبْوَاباً مِنَ اللَّدَدِ وَالْخُصُومَةِ، وَأَثَارَ تَيَّارَاتٍ مِنَ الدَّسَائِسِ وَالْكَيْدِ، فَغَلَبَ رُوحُ الْحِقْدِ وَالْحَسَدِ وَالتَّنَافُسِ الْأَثِيمِ بَيْنَ الَّذِينَ حَاوَلُوا الِاسْتِبَاقَ إِلَى السُّلْطَانِ، وَتَرَاكَضُوا[1] يَطْلُبُونَ الزُّلْفَى عِنْدَ أَهْلِ النُّفُوذِ.

***

فترة التحصيل

فِي هٰذَا الْعَصْرِ الَّذِي اشْتَدَّتْ فِيهِ هٰذِهِ الزَّوَابِعُ النَّفْسِيَّةُ وَمَا تَبِعَهَا مِنَ الْعَاصِفِ الْجَدَلِيِّ، وَالْحَرْبِ الْكَلَامِيَّةِ، وَالْحِزْبِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ، كَانَ ظُهُورُ الْغَزَالِي، بَعْدَ أَنِ اسْتَقَى مِنَ الْمَعِينِ ذَاتِهِ، وَوَرَدَ الْعَيْنَ نَفْسَهَا، فِي دَوْرِ الِاسْتِعْدَادِ، وَفَتْرَةِ التَّعَلُّمِ وَالتَّحْصِيلِ، وَقَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ الْمَوْرِدِ الْمُضْطَرِبِ، وَيَدُورَ بِعَيْنِهِ مُلْتَمِساً مَنْهَلًا غَيْرَ ذٰلِكَ الْمَنْهَلِ الْكَدِرِ، وَالْمَعِينِ الْهَائِجِ الْمَشُوبِ، وَقَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَى الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ، فَيَتَوَفَّرَ عَلَى دِرَاسَتِهَا فِيمَا نَقَلَ التَّرَاجِمَةُ

(١) تراكضوا: تدافعوا وتسابقوا

عَنْهَا فِي صَدْرِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَأَزْهَرِ أَدْوَارِهَا ، وَفِي لُغَةِ الْفُرْسِ بِالذَّاتِ ، وَكَانَ يَعْرِفُهَا وَيَحْذِقُهَا ، وَقَدْ وَضَعَ فِيمَا بَعْدُ بَعْضَ كُتُبِهِ فِيهَا ، فَكَانَ ظُهُورُهُ يَوْمَئِذٍ فِي بِدَايَةِ الْمُحَاوَلَاتِ الَّتِي جَرَتْ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ فِي سَبِيلِ التَّوْفِيقِ بَيْنَ الدِّينِ وَالْفَلْسَفَةِ .

***

المعتزلة

وَكَانَ الْمُعْتَزِلَةُ بَيْنَ الْكَشَّافِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ أَحْرَارِ الْفِكْرِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ وَجَدَتْ آرَاؤُهُمْ مَنْزِلَةً عَظِيمَةً فِي الْعَهْدِ الْعَبَّاسِيِّ ، وَأَصَابَتْ شَأْنًا كَبِيرًا ، وَأَحْدَثَتْ أَثَرًا جَلِيلًا ، فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ وَنَهْضَتِهِمُ الْعَقْلِيَّةِ ، وَقَدْ سُمِّيَ أَصْحَابُهَا بِالْمُعْتَزِلَةِ ، فِيمَا رَوَى الرُّوَاةُ عَنْ نَشْأَتِهَا ، لِأَنَّ وَاصِلَ بْنَ عَطَاءٍ كَانَ يَجْلِسُ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، وَكَانَ بَيْنَ مَا اخْتَلَفَ الْخَوَارِجُ عَلَيْهِ مَعَ الْجُمْهُرَةِ وَالْإِجْمَاعِ ، أَنَّ الْأَوَّلِينَ كَانُوا يَقُولُونَ بِتَكْفِيرِ مُرْتَكِبِ الْكَبَائِرِ ، وَكَانَ الْآخَرُونَ يَقُولُونَ بِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ وَلَكِنَّهُ فَاسِقٌ ، وَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَشْتَرِكَ وَاصِلٌ فِي حِوَارِهِمْ ، غَيْرَ أَنَّهُ

خَرَجَ عَلَيْهِمَا مَعًا ، فَقَالَ : إِنَّ ٱلْفَاسِقَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ لَا مُؤْمِنٌ وَلَا كَافِرٌ ، وَلٰكِنَّهُ مَنْزِلَةٌ بَيْنَ ٱلْمَنْزِلَتَيْنِ ، فَطَرَدَهُ ٱلْحَسَنُ مِنْ مَجْلِسِهِ فَاعْتَزَلَ عَنْهُ ، وَجَلَسَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ فَقِيلَ لَهُمَا وَلِأَتْبَاعِهِمَا « مُعْتَزِلَة » وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ رِوَايَاتٌ أُخْرَى فِي أَسْبَابِ ٱلتَّسْمِيَةِ وَعِلَلِهَا ، كَمَا أَنَّ حُرِّيَّةَ تَفْكِيرِهِمْ لَمْ تَقِفْ عِنْدَ حَدِّ ٱلدِّينِ فِي ذَاتِهِ وَمَبَادِئِهِ ، وَلٰكِنَّهَا تَجَاوَزَتْهُ إِلَى ٱحْتِرَامِ ٱلْحُرِّيَّةِ ٱلْفِكْرِيَّةِ ، وَتَعْلِيبِهَا عَلَى ٱلْأَشْخَاصِ ، حَتَّى أَبَاحُوا لِأَنْفُسِهِمْ نَقْدَ صَحَابَةِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَٱلْحُكْمَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، وَبَحْثَ سِيَرِهِمْ وَآرَائِهِمْ ، فِي غَيْرِ ٱحْتِجَازٍ أَوْ مُرَاعَاةِ تَقَالِيدَ .

***

صلتهم بالفلسفة اليونانية

وَكَانَ ٱلْمُعْتَزِلَةُ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ إِفَادَةً مِنَ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلْيُونَانِيَّةِ ، وَهُمُ ٱلَّذِينَ صَبَغُوهَا بِلَوْنٍ مِنَ ٱلدِّينِ ، وَٱسْتَعَانُوهَا عَلَى جَدَلِهِمْ وَنَظَرِيَّاتِهِمْ ، وَهُمُ ٱلَّذِينَ أَوْجَدُوا عِلْمَ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْإِسْلَامِ .

***

اخوان الصفاء

وَقَدْ حَدَّثْنَاكَ فِي اللَّمحَاتِ عَنْ رَسَائِلِ «إِخْوَانِ الصَّفَاءِ» وَنَحْنُ قَائِلُونَ هُنَا بِسَبِيلِ الْحَدِيثِ عَنْ عَصْرِ الْغَزَالِيِّ: إِنَّ هؤُلَاءِ رَاحُوا يُحَاوِلُونَ فِي رَسَائِلِهِمْ تِلْكَ، نَشْرَ مَبَادِئِ الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ، وَإِذَاعَتَهَا فِي النَّاسِ. وَجَذْبَ الْعَامَّةِ إِلَى فَهْمِهَا وَالتَّأَثُّرِ بِهَا، مُحَاوِلِينَ بِذَلِكَ نَقْدَ الدِّينِ وَالدَّسَّ عَلَيْهِ وَالْكَيْدَ لِتَعَالِيمِهِ بِجَانِبِ الطَّعْنِ فِي النِّظَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ السَّائِدِ يَوْمَئِذٍ، وَمُقَاوَمَةِ الْحُكْمِ الْقَائِمِ، وَالْحَضِّ عَلَى مُعَارَضَتِهِ، وَالْخُرُوجِ عَلَيْهِ.

***

النظريات العلمية

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ انْتِمَاءَ الْإِمَامِ الْأَشْعَرِيِّ إِلَى مَذْهَبِ «الْمُعْتَزِلَةِ» وَتَوَفُّرَهُ عَلَى الْمَسَائِلِ الْفَلْسَفِيَّةِ قَبْلَ نُهُوضِهِ لِلدِّفَاعِ عَنْ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ، قَدْ أَحْدَثَ أَثَرًا لَا يُسْتَهَانُ بِهِ فِي إِدْخَالِ شَيْءٍ كَثِيرٍ مِنَ النَّظَرِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ عَلَى عُلُومِ الْكَلَامِ كَنَظَرِيَّةِ «الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ» وَهِيَ بَعْضُ فَلْسَفَةِ الْيُونَانِ عِنْدَ الطَّبِيعِيِّينَ.

***

وَقَدْ تبِعَ هٰذَا اسْتِحَالَةُ الدِّفَاعِ عَنِ الْعَقَائِدِ الْإِسْلَامِيَّةِ دُونَ الرُّجُوعِ إِلَى الشَّوَاهِدِ وَالْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَلٰكِنَّ ذٰلِكَ أَيْضاً اقْتَضَى تَغْيِيراً يَسِيراً فِي النَّظَرِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ لِكَيْ تَأْتَلِفَ هِيَ وَمَقَاصِدُ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَمِنْ ثَمَّ سَعَى هٰؤُلَاءِ فِي إِخْضَاعِ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ لِتِلْكَ النَّظَرِيَّاتِ ، كَمَا سَعَوْا فِي تَغْيِيرِ هٰذِهِ حَتَّى تَتَّفِقَ مَعَ تَعَالِيمِ الدِّينِ.

***

بَيْدَ[1] أَنَّ فَرِيقاً مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ ، رَأَوْا هٰذَا التَّطَوُّرَ الْجَدِيدَ ، فَلَمْ يَسْكُنُوا إِلَيهِ وَلَمْ يَطْمَئِنُّوا إِلَى نَتَائِجِهِ ، فَنَهَضُوا إِلَى الْمُنَادَاةِ بِالْعِبَادَةِ الْعِلْمِيَّةِ ، أَوْ بِالْكَشْفِ الْبَاطِنِيِّ وَالْمُشَاهَدَةِ الْمَحْضَةِ ، فَنَشَأَتْ طَرِيقَةُ « الصُّوفِيَّةِ » وَهِيَ نَهْجٌ مِنَ الْعِبَادَةِ قَدِ اخْتَلَطَ بِعَنَاصِرَ مِنْ مَذَاهِبِ الْفُرْسِ وَالْهِنْدِ .

***

العبادة العلمية أو التصوف

وَقَدْ تَأَثَّرَ الْغَزَالِيُّ بِهٰذَا الرُّوحِ الصُّوفِيِّ فِي بِدَايَةِ أَمْرِهِ

(١) بيد : غير .

بَلْ كَانَ هٰذَا ٱلْوَجْهُ مِنْ ثَقَافَةِ ٱلْعَصْرِ ، هُوَ ٱلَّذِى ٱنْطَبَعَ عَلَى صَفْحَةِ نَفْسِهِ ، وَتَمَكَّنَ مِنْ خَاطِرِهِ مُنْذُ نَشْأَتِهِ ، بَلْ هُوَ ٱلَّذِى نَزَعَ بِهِ عَنْ سُلُوكِ مَنْهَجِ فُقَهَاءِ عَصْرِهِ ، وَعُلَمَاءِ ٱلْكَلَامِ إِلَى مُحَارَبَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ لِتَغْلِيبِ ٱلدِّينِ ، إِلَى مَسْلَكٍ خَاصٍّ لَمْ يُشَارِكُوهُ فِيهِ ، وَهُوَ مُقَاوَمَةُ ٱلْفَلْسَفَةِ بِالرُّوحِ ، وَمُحَارَبَتُهَا بِالْعَقِيدَةِ ٱلْخَالِصَةِ ، وَٱلْكِفَاحُ دُونَهَا بِتَفْكِيرِهِ ٱلْمُبْتَكَرِ ، وَأُسْلُوبِهِ ٱلْفَذِّ ، وَمَسْلَكِهِ ٱلنَّادِرِ ٱلْأَوْحَدِ ، حَتَّى شَهِدَ لَهُ ٱلْفَيْلَسُوفُ ٱلْفَرَنْسِىُّ « أَرْنِسْت رِينَان » بِأَنَّهُ ٱلْوَحِيدُ بَيْنَ ٱلْفَلَاسِفَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ ، ٱلَّذِى ٱنْتَهَجَ لِنَفْسِهِ طَرِيقًا خَاصًّا فِى ٱلتَّفْكِيرِ .

***

المصلح غريب فى قومه

لَقَدْ كَانَ ٱلْغَزَالِىُّ غَرِيبًا فِى عَصْرِهِ كَكُلِّ مُصْلِحٍ ، وَكَانَ حَكِيمًا دِينِيًّا أَكْثَرَ مِنْهُ فَيْلَسُوفًا . وَمِنْ وُجُوهِ غَرَابَتِهِ عَلَى عَصْرِهِ ، بِجَانِبِ مَا تَقَدَّمَ لَكَ فِى هٰذَا ٱلْبَابِ ، أَنَّهُ بَيْنَمَا كَانَ ٱلْفُقَهَاءُ قَدْ أَصْبَحُوا « لَاهُوتًا » يَعِيشُونَ .

وَسَطَ ٱلْمُعَمَّيَاتِ[1] وَالْاسْرَارِ ، وَيَأْبَوْنَ أَنْ يُقَرِّبُوا ٱلدِّينَ لِأَذْهَانِ ٱلنَّاسِ جَمِيعاً ، مَخَافَةً عَلَى سُلْطَانِهِمْ أَنْ تَنْكَشِفَ ٱلسُّدُولُ عَنْهُ ، وَخَشْيَةً مِنْ نُفُوذِهِمْ أَنْ تَتَمَزَّقَ ٱلْحُجُبُ ٱلَّتِي يَسْتَتِرُ خَلْفَهَا ، كَانَ هُوَ مُنْصَرِفاً بِكُلِّ قُوَاهُ وَلُطْفِ حِيلَتِهِ إِلَى تَقْرِيبِ ٱلدِّينِ مِنَ ٱلْعَقْلِ ٱلِاعْتِيَادِيِّ ، وَكَشْفِ دَقَائِقِهِ أَمَامَ أَذْهَانِ ٱلْعَامَّةِ ، لِيَكُونَ لِلنَّاسِ نُوراً وَفُرْقَاناً ، وَمَوْرِداً عَامّاً ، وَمَنْهَلاً لِلْجَمِيعِ ، عَذْبَ ٱلْمُسْتَقَى ، صَافِيَ ٱلْمَعِينِ .

***

وَلَعَلَّ هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي نَظَرَ إِلَيْهِ ٱلْعَلَّامَةُ ٱلْمُسْتَشْرِقُ ٱلْكَبِيرُ « دنكان ماكدولاند » أُسْتَاذُ ٱلْعُلُومِ ٱلدِّينِيَّةِ فِي جَامِعَةِ « هَارْتفُورْد » ، إِذْ قَالَ فِي رِسَالَتِهِ ٱلضَّافِيَةِ عَنْ حَيَاةِ ٱلْغَزَالِيِّ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ « كَشَّافاً » وَلَا أَوَّلَ مَنْ رَكِبَ ٱلطَّرِيقَ ، وَٱهْتَدَى إِلَى ٱلنَّجْدِ[2] ، وَلٰكِنَّهُ كَانَ رَجُلاً كَبِيرَ ٱلشَّخْصِيَّةِ ، شَدِيدَ ٱلتَّأْثِيرِ ٱلنَّفْسِيِّ ، نَهَجَ سَبِيلاً مَطْرُوقَةً فَجَعَلَهَا مَشْرَعاً عَامّاً وَمَحَجَّةً وَاضِحَةً ، وَهٰذَا مِنْ فَضْلِ

لم يكن كشافاً

(١) المعميات : الاسرار، سئل الاصمعى فقال : هو شىء لا يحاضر به العلماء . (٢) النجد : أى الطريق الواضح المرتفع

شَخْصِيَّته ، وَقُوَّةِ خَلِيقَتِهِ ، وَقَدْ يَكُونُ ثَمَّ مَنْ هُمْ أَبْرَعُ مِنْهُ ، وأَدَقُّ مَنْطِقاً ، وَأَفْقَهُ مِنْهُ عِلْماً ، وَأَكْثَرُ مِنْهُ مَوَاهِبَ ، مِنْ قِدِّيسِينَ (١) وَمُتَدَيِّنِينَ

***

الغزالى يفتتح عصراً جديداً

وَلٰكِنَّهُ بِفَضْلِ تَجَارِبِهِ الْخَاصَّةِ ، وَخِبْرَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ ، قَدْ أُوتِيَ شُعُوراً شَامِلاً فِي قُوَّتِهِ عَظِيماً فِي حُدُودِهِ ، وَتَرَامِي آفَاقِهِ ، شُعُوراً بِالْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ حَتَّى إِنَّ قُوَّةَ شَخْصِيَّتِهِ الَّتِي كَانَتْ يَوْمًا مُجَاهِدَةً مُحَارِبَةً مُنَاضِلَةً لَا تَسْتَقِرُّ عَلَى حَالٍ مِنَ الْقَلَقِ ، ثُمَّ ضَاقَتْ وَتَضَامَّتْ وَاشْتَدَّتْ سُلْطَانًا وَأَثَرًا ، لَمْ تَلْبَثْ أَنِ اكْتَسَحَتْ كُلَّ شَيْءٍ أَمَامَهَا ، فَإِذَا الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ يَسْتَقْبِلُ بِظُهُورِهِ عَصْراً جَدِيداً ، وَحَيَاةً مُنْتَعِشَةً زَاهِرَةً .

***

(١) جمع قديس، أى كثير القداسة والطهارة

« حَيَاتُهُ وَسِيرَتُهُ »

مولده وأصله

وُلِدَ الْإِمَامُ أَبُو حَامِدٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ الْغَزَالِيُّ سَنَةَ خَمْسِينَ وَأَرْبَعُمَائَةٍ لِلْهِجْرَةِ وَتِسْعٍ وَخَمْسِينَ وَأَلْفٍ مِيلَادِيَّةً ، فِي مَدِينَةِ « طُوسٍ [1] » بِوِلَايَةِ خُرَاسَانَ ، وَهُوَ مِنْ أَصْلٍ فَارِسِيٍّ ، وَإِنْ لَمْ يُحَدِّثْنَا التَّارِيخُ عَنْ مَوْطِنِهِ الْأَوَّلِ وَمُنْحَدَرِهِ [2] ، وَكَانَ أَبُوهُ رَجُلًا صَالِحًا ، لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ كَسْبِ يَدِهِ فِي عَمَلِ غَزْلِ الصُّوفِ . وَكَانَ لَهُ دُكَّانٌ يَبِيعُ فِيهِ الصُّوفَ بِسُوقِ الصَّوَّافِينَ بِطُوسٍ عَلَى مَا جَاءَ فِي الْمُقَفَّى لِلْمَقْرِيزِيِّ وَمِنْ ثَمَّ لُقِّبَ بِالْغَزَّالِيِّ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ نِسْبَةً إِلَى صِنَاعَتِهِ وَمُتَجَرِهِ ، وَإِنِ اشْتَهَرَ هٰذَا اللَّقَبُ بِتَخْفِيفِ الزَّايِ إِلَى الْيَوْمِ وَلَعَلَّ هٰذِهِ كَانَتْ نِسْبَةً إِلَى بَلَدٍ يُسَمَّى « غَزَالَةَ » وَرُبَّمَا كَانَتْ قَرْيَةً صَغِيرَةً مِنْ قُرَى طُوسٍ . وَكَانَتْ طُوسُ تَتَأَلَّفُ كَمَا يَقُولُ يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ فِي مُعْجَمِ الْبُلْدَانِ - مِنْ أَلْفِ قَرْيَةٍ ، وَنَحْسَبُ هٰذِهِ النِّسْبَةَ أَصَحَّ مِنَ

---

(١) هي اليوم خرائب بضاحية مدينة « مشهد » الحديثة المعروفة

(٢) منحدره : مكان انحداره .

الْأُولَى، لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي غَلَبَتْ وَشَاعَتْ وَخَمَلَتْ[1] النِّسْبَةُ الْمَأْخُوذَةُ مِنَ الْحِرْفَةِ وَالصِّنَاعَةِ .

***

والده

وَجَعَلَ أَبُوهُ يَغْشَى مَجَالِسَ الْمُتَفَقِّهَةِ ، وَيَخْتَلِفُ إِلَى مَجَامِعِهِمْ ، وَيَتَوَفَّرُ عَلَى خِدْمَتِهِمْ ، وَيَتَلَبَّبُ[2] فِي قَضَاءِ حَاجَاتِهِمْ ، وَيُبَادِرُ إِلَى التَّفَقُّهِ عَلَيْهِمْ بِمَا يُمْكِنُهُ ، وَكَانَ إِذَا سَمِعَ كَلَامَهُمْ بَكَى وَتَضَرَّعَ ، وَسَأَلَ اللهَ أَنْ يَرْزُقَهُ وَلَداً وَيَجْعَلَهُ فَقِيهًا ، وَكَانَ يَحْضُرُ كَذَلِكَ مَجَالِسَ الْوَعْظِ ، فَإِذَا أَصْغَى إِلَى الْوُعَّاظِ نَدِيَتْ عَيْنَاهُ وَاسْتَهَلَّ دَمْعُهُ ، وَسَأَلَ اللهَ أَنْ يَرْزُقَهُ ابْنًا وَاعِظًا .

***

الاخوان أبو حامد وأحمد

وَكَأَنَّمَا سَمِعَ اللهُ لَهُ ، فَاسْتَجَابَ ، إِذْ رُزِقَ بِوَلَدَيْنِ : أَبِي حَامِدٍ هٰذَا وَأَخِيهِ أَحْمَدَ . وَفَعَلَ نَامُوسُ الْوِرَاثَةِ أَثَرَهُ ، وَأَحْدَثَ سُلْطَانَهُ وَأَفَاعِيلَهُ ، فَانْطَبَعَتِ النَّفْسُ الْقَوِيَّةُ فِي ثَمَرَتِهَا ، وَاسْتَقَامَ الْفَرْعَانِ عَلَى جِذْعِهِمَا ، وَتَوَزَّعَتْ خَوَاصُّ

(١) خملت : خفيت (٢) يتلبب : يتحزم ويتشمر . والمراد يبالغ .

الشَّجَرَةِ عَلَى غُصْنَيْهَا ، فَقَدْ نَشَأَ الصَّغِيرَانِ عَلَى مَا كَانَ أَبُوهُمَا يُرِيدُ لَهُمَا ، وَيَتَمَنَّى عَلَى اللهِ أَنْ يَكُونَا ، فَإِنَّ أَحْمَدَ أَخَا الْغَزَالِيِّ — فِيمَا ذُكِرَ عَنْهُ — لَمْ يَلْبَثْ بَعْدَ النَّشْأَةِ أَنْ طَافَ الْبِلَادَ وَاتَّصَلَ بِالصُّوفِيَّةِ مِنْ مَيْعَةِ[1] الشَّبَابِ ، وَصَحِبَ الْمَشَايِخَ ، وَآثَرَ الْخَلْوَةَ ، وَسَكَنَ إِلَى الْعُزْلَةِ ، حَتَّى انْفَتَحَ لَهُ الْكَلَامُ عَلَى أَسَالِيبِ الْمُتَصَوِّفَةِ . وَأَنَّهُ خَرَجَ إِلَى الْعِرَاقِ ، وَمَالَتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ ، وَأَقْبَلَتِ النُّفُوسُ عَلَيْهِ ، وَدَخَلَ بَغْدَادَ ، فَعَقَدَ مَجْلِسَ الْوَعْظِ وَظَهَرَ لَهُ الْقَبُولُ ، وَازْدَحَمَ النَّاسُ عَلَى حُضُورِ مَجْلِسِهِ ، وَأَنَّ صَاعِدَ بْنَ فَارِسٍ ، دَوَّنَ مَجَالِسَهُ بِبَغْدَادَ فَكَانَتْ ثَلَاثَةً وَثَمَانِينَ .

***

أحمد الغزالى وشىء من أخباره

وَذَكَرَ ابْنُ خِلِّكَانَ فِي وَفَيَاتِهِ : أَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ كَرَامَاتٍ وَإِشَارَاتٍ ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ ، غَيْرَ أَنَّهُ مَالَ إِلَى الْوَعْظِ فَغَلَبَ عَلَيْهِ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ قَارِئًا قَرَأَ يَوْمًا بَيْنَ يَدَيْهِ «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ

(١) ميعة الشباب : أوله .

رَحْمَةِ ٱللهِ» فَقَالَ: شَرَّفَهُمْ بِيَاءِ ٱلْإِضَافَةِ إِلَى نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: يَاعِبَادِيَ ثُمَّ أَنْشَدَ:

وَهَانَ عَلَيَّ ٱللَّوْمُ فِي جَنْبِ حُبِّهَا
وَقَوْلُ ٱلْأَعَادِي إِنَّهُ لَخَلِيعُ

أُصَمُّ إِذَا نُودِيتُ بِٱسْمِي وَإِنَّنِي
إِذَا قِيلَ لِي يَاعَبْدَهَا لَسَمِيعُ

***

وَيَرْوُونَ أَنَّهُ حَكَى يَوْمًا فِي مَجْلِسٍ وَعْظِهِ أَنَّ بَعْضَ ٱلْعُشَّاقِ كَانَ مُشْغُولًا بِحُسْنِ صُورَةِ مَعْشُوقِهِ، وَكَانَ هٰذَا مُوَافِقًا لَهُ، فَجَاءَهُ يَوْمًا بُكْرَةً وَقَالَ لَهُ: أُنْظُرْ إِلَى وَجْهِي، فَأَنَا ٱلْيَوْمَ أَحْسَنُ مِنِّي فِي كُلِّ يَوْمٍ، فَقَالَ وَكَيْفَ ذٰلِكَ؟ قَالَ نَظَرْتُ فِي ٱلْمِرْآةِ فَٱسْتَحْسَنْتُ وَجْهِي، فَأَرَدْتُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيَّ، فَقَالَ: بَعْدَ أَنْ نَظَرْتَ إِلَى وَجْهِكَ قَبْلِي لَا تَصْلُحُ لِي.

***

وَلَعَلَّ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَةَ تُمَثِّلُ نِهَايَةَ ٱلْفَنَاءِ فِي ٱلْحُبِّ، وَغَايَةَ ٱلْمَيْلِ إِلَى ٱلِٱسْتِئْثَارِ بِهِ.

***

وَكَانَ يَنْصَحُ أَخَاهُ أَبَا حَامِدٍ بِقَوْلِهِ :

إِذَا صَحِبْتَ ٱلْمُلُوكَ فَالْبَسْ

مِنَ ٱلتَّوَقِّي أَعَزَّ مَلْبَسْ

وَٱدْخُلْ إِذَا مَا دَخَلْتَ أَعْمَى

وَٱخْرُجْ إِذَا مَا خَرَجْتَ أَخْرَسْ

***

وَلٰكِنَّ أَبَاهُمَا لَمْ يُمَتَّعْ بِفُسْحَةٍ فِي ٱلْأَجَلِ حَتَّى يَشْهَدَهُمَا وَقَدْ بَلَغَا مَا يَتَمَنَّاهُ لَهُمَا ، وَيَرْجُو إِلَى ٱللهِ فِيهِمَا ، إِذْ قَضَى نَحْبَهُ وَهُمَا صَغِيرَانِ .

***

أثر الوراثة

وَمِمَّا هُوَ أَدَلُّ عَلَى فِعْلِ ٱلْوِرَاثَةِ فِي تَكْوِينِ ٱلْغَزَالِيِّ وَأَخِيهِ، فَضْلًا عَنْ أَثَرِهَا ٱلظَّاهِرِ فِيمَا شَابَهَا فِيهِ أَبَاهُمَا : أَنَّ ٱلْعِلْمَ فِي ٱلْأُسْرَةِ وَٱلتَّفَقُّهَ فِي ٱلدِّينِ لَمْ يَبْتَدِئَا بِهِ ، وَلَمْ يَسْتَفْتِحَا بِأَخِيهِ ، وَلٰكِنَّهُمَا ظَهَرَا فِي ٱلْأُسْرَةِ قَبْلَ ذٰلِكَ ، فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ٱلْمُسْتَشْرِقُ مَا كْدُونَلْدُ ، وَنَقَلَهُ عَنِ ٱلْعَالِمِ ٱلْأَلْمَانِيِّ

« وَسْتَنْفِيلْدَ » فِي كِتَابِهِ عَنِ الشَّافِعِيَّةِ ، فَقَدْ حَدَّثَنَا هٰذَا أَنَّهُ كَانَ فِي الْأُسْرَةِ عَمٌّ لِلْغَزَالِيِّ أَخْلَدَ إِلَى الْعِلْمِ ، وَسَكَنَ إِلَى التَّفَقُّهِ فِيهِ ، وَكَانَ لِعَمِّهِ هٰذَا ابْنٌ - وَرِثَ هٰذَا النُّزُوعَ عَنْهُ ، وَقَدْ سَمَّى الْأُسْتَاذُ « وُسْتَنْفِيلْدُ » الْعَمَّ بِالْغَزَالِيِّ الْكَبِيرِ ، وَقَالَ : إِنَّ وَفَاتَهُ كَانَتْ عَامَ خَمْسَةٍ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَلٰكِنَّ مَاكْدُولَانْدَ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَكُنْ عَمّاً لِلْغَزَالِيِّ ، وَإِنَّمَا كَانَ عَمّاً لِأَبِيهِ ، وَأَنَّ شُهْرَةَ الطَّبَقَةِ التَّالِيَةِ مِنَ الْأُسْرَةِ الْغَزَالِيَّةِ أَيْ أَبِي حَامِدٍ وَأَخِيهِ - أَخْمَلَتِ[1] الْأُولَى وَحَجَبَتْهَا ، وَغَلَبَتْ فِي الْمَجْدِ عَلَيْهَا ، حَتَّى إِنَّ السُّبْكِيَّ وَابْنَ الذَّهَبِيِّ وَغَيْرَهُمَا أَنْكَرُوا وُجُودَ تِلْكَ الطَّبَقَةِ إِطْلَاقاً ، وَلَمْ يَعْتَقِدُوا أَنَّ شَيْئاً مِنْ هٰذَا وَقَعَ فِي الْأُسْرَةِ قَبْلَ ظُهُورِ الْغَزَالِيِّ وَأَخِيهِ

***

بعد وفاة أبيه

وَلَمَّا حَضَرَ الْمَوْتُ أَبَا الْغَزَالِيِّ ، دَفَعَ بِوَلَدَيْهِ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ ، وَوَصَّاهُ بِتَرْبِيَتِهِمَا وَتَنْشِئَتِهِمَا ، وَالْعِنَايَةِ

(١) أخملت : أسقطت نباهتها .

بِتَعْلِيمِهِمَا ، بِمَا عَسَاهُ أَنْ يُخَلِّفَهُ لَهُمَا، فَقَدْ كَانَ الْعِلْمُ طَلِبَةَ[1] نَفْسِهِ مِنْ مَطْلَعِ الْحَيَاةِ ، وَبُغْيَةَ خَاطِرِهِ مِنَ الصِّبَا ، وَلٰكِنَّهَا لَمْ تُتَحْ لَهُ ، وَلَمْ يَتَهَيَّأْ سَبِيلُهَا أَمَامَهُ ، فَهُوَ يَطْلُبُهُ لِوَلَدَيْهِ ، وَيَرْجُو مِنَ اللهِ أَلَّا يَعِزَّ[2] عَلَيْهِمَا مَا عَزَّ مِنْ قَبْلُ عَلَيْهِ .

***

وصية أبي الغزالي لصديقه

وَقَدْ رَأَيْنَا فِي الْمُقَفَّى لِلمَقْرِيزِي نَصَّ وَصِيَّةِ أَبِي الْغَزَالِيِّ إِلَى صَدِيقِهِ وَهِيَ قَوْلُهُ : « مَا كُنْتُ لِأَتَأَسَّفَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا كَأَسَفِي عَلَى الْخَطِّ ، وَكَيْفَ لَمْ يَكُنْ لِي مِنْ مُعَلِّمِينَ ، وَقَدِ اسْتَدْرَكْتُ بَعْضَ مَا فَاتَنِي فِي نَفْسِي مِنْ ذٰلِكَ ، وَأُحِبُّ مِنْكَ أَنْ تُتَمِّمَ لَهُمَا مَا عَلَيْهِمَا ، وَلَا عَلَيْكَ أَلَّا يَقَعَ لَهُمَا شَيْءٌ بَعْدَ تَعَلُّمِهِمَا » .

***

فَلَمَّا قَضَى نَحْبَهُ[3] أَقْبَلَ الْمُتَصَوِّفُ عَلَى تَعْلِيمِهِمَا ، إِلَى أَنْ

---

(١) الطلبة : ما يتطلبه الأنسان (٢) ألا يعز : ألا يشق .

(٣) قضى نحبه : مات

كَمُلَ مِنَ ٱلْكِتَابَةِ نَصِيبُهُمَا فَفَنِيَ مَا كَانَ خَلَّفَ أَبُوهُمَا بِحَيْثُ تَعَذَّرَ عَلَيْهِمَا ثَمَنُ قُوتِهِمَا .

***

بَيْدَ أَنَّ ٱلْعَلَّامَةَ « لِيُو افْرِيقَانْسَ » يَقُولُ: إِنَّ أَبَا ٱلْغَزَالِيِّ كَانَ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَلَكِنَّا لَمْ نَقِفْ عَلَى شَيْءٍ يُثْبِتُ هٰذَا الرَّأْيَ، وَإِنَّمَا نَفَادُهُ وَشِيكاً[1] دَلِيلٌ عَلَى قِلَّتِهِ ، وَقَدْ رَأَيْنَا فِي كِتَابِ ٱلسَّيِّدِ مُرْتَضَى « إِتْحَافِ ٱلسَّادَةِ ٱلْمُتَّقِينَ » أَنَّهُ كَانَ نَزْراً يَسِيراً .

***

وَكَانَ ٱلصَّدِيقُ رَجُلًا كَرِيمَ ٱلنَّفْسِ أَمِيناً عَلَى ٱلْوَدِيعَةِ ، فَمَا زَالَ يَرْعَى ٱلْأَخَوَيْنِ وَيَكْفُلُهُمَا حَتَّى نَفِدَ ٱلْمَالُ كُلُّهُ ، فَنَصَحَ لَهُمَا بِدُخُولِ مَدْرَسَةٍ لِطَلَبِ ٱلْعِلْمِ وَٱلْتِمَاسِ ٱلْقُوتِ .

***

وَفِي ٱلْمُقَفَّى أَنَّهُ قَالَ لَهُمَا : « اِعْلَمَا أَنِّي قَدْ أَنْفَقْتُ عَلَيْكُمَا مَا كَانَ لَكُمَا ، وَأَمَّا أَنَا فَرَجُلٌ مِنَ ٱلْفُقَرَ

(١) وشيكا : سريعا .

وَالتَّجْرِيدِ بِحَيْثُ لَيْسَ لِي مَالٌ فَإِوَاسِيكُمَا وَأُصْلِحُ حَالَكُمَا ، فَمَا لَكُمَا أَلَّا تَلْجَآ إِلَى مَدْرَسَةٍ ، فَأَنْتُمَا طَالِبَانِ لِلْفِقْهِ ، عَسَاهُ يَحْصُلُ لَكُمَا مِقْدَارُ قُوتِكُمَا » ، فَفَعَلَا فَكَانَ ذٰلِكَ سَبَبَ سَعَادَتِهِمَا

***

نظام المدارس

وَنَحْسَبُ أَنَّ نِظَامَ ٱلْمَدَارِسِ يَوْمَئِذٍ كَانَ يَقْضِي بِأَنْ يَكْفُلَ لِلطَّالِبِ وَٱلْمُجَاوِرِ سَدَّ رَمَقِهِ وَبَعْضَ قُوتِهِ ، كَشَأْنِ الْأَزْهَرِ فِيمَا نَعْرِفُ ، أَوْ تُجْرَى عَلَيْهِمْ بَعْضُ ٱلْأَغْذِيَةِ كَمَا كَانَ ٱلْأَمْرُ فِي أَسْبَانِيَا لِعَهْدِ « سِرْفَنِيتِسَ » . وَمِمَّا يُؤَيِّدُ هٰذَا ٱلرَّأْيَ مَا رَوَاهُ السُّيُوطِيُّ عَنِ ٱبْنِ ٱلسُّبْكِيِّ مِنْ أَنَّ نِظَامَ ٱلْمُلْكِ لَمْ يَكُنْ هُوَ أَوَّلَ مَنْ أَنْشَأَ ٱلْمَدَارِسَ ، وَلٰكِنَّهُ كَانَ عَلَى ٱلْأَرْجَحِ أَوَّلَ مَنْ قَرَّرَ عِلَاوَةً[1] لِلطُّلَّابِ .

***

دراسة الفقه

وَقَدْ حَدَّثَنَا ٱلْغَزَالِيُّ فِيمَا بَعْدُ ، أَيْ بَعْدَ أَنْ قَطَعَ عَهْدَ ٱلطَّلَبِ ، وَغَادَرَ حُدُودَ ٱلشَّبَابِ ، كَيْفَ تَوَفَّرَ مِنَ ٱلنَّشْأَةِ ٱلْأُولَى

(١) علاوة : زيادة .

هُوَ وأَخُوهُ أَحْمَدُ عَلَى دِراسَةِ ٱلْفِقْهِ ؟ قَائِلًا لَهُ : كُلَّمَا عَاوَدَتْه ذِكْرَى هٰذا ٱلشَّطْرِ مِنْ حَيَاتِهِ : طَلَبْنَا ٱلْعِلْمَ لِغَيْرِ ٱللهِ فَأَبَى أَنْ يَكُونَ إِلَّا لِلهِ .

***

الفكاك من التقليد

وَوَصَفَ لَنَا ٱلْغَزَالِيُّ كَذٰلِكَ فِي ٱعْتِرَافَاتِهِ ٱلَّتِي ضَمَّنَهَا كِتَابَهُ « ٱلْمُنْقِذَ مِنَ ٱلضَّلَالِ » : كَيْفَ ذَهَبَ مِنَ ٱلشَّبَابِ يَلْتَمِسُ ٱلْفَكَاكَ مِنَ ٱلتَّقْلِيدِ ، وَيَطْلُبُ ٱلْعِلْمَ عَنْ يَقِينٍ ؟ وَكَيْفَ بَدَأَ ٱلطَّلَبَ مِنْ عُنْفُوَانِ ٱلشَّبَابِ مُنْذُ رَاهَقَ (١) قَبْلَ ٱلْعِشْرِينَ وَلَمَّا يَزَلْ غَضَّ ٱلْإِهَابِ .

***

وَقَدْ قَرَأَ طَرَفًا مِنَ ٱلْفِقْهِ فِي طُوسٍ عَلَى أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الرَّاذْكَانِيِّ ، ثُمَّ نَزَحَ إِلَى جُرْجَانَ إِلَى ٱلْإِمَامِ أَبِي نَاصِرٍ ٱلْإِسْمَاعِيلِيِّ ، وَكَانَ يُدَوِّنُ مَا يَتَلَقَّاهُ مِنْهُ فِي مُذَكِّرَاتِهِ وَكُتُبِهِ ، وَكَانَتْ تُسَمَّى ٱلتَّعْلِيقَةَ ، دُونَ أَنْ يُودِعَهُ الذَّاكِرَةَ ، أَوْ يُعْنَى بِاسْتِظْهَارِهِ وَٱسْتِذْكَارِهِ :

(١) راهق : من المراهقة ، قارب الحلم « البلوغ »

***

إهمال الاستذكار

وَنَحْسَبُ هٰذَا الْإِهْمَالَ مِنَ النَّشْأَةِ : اسْتَمْكَنَ مِنْهُ حَتَّى كَانَ بَعْضَ خَوَاصِّهِ ، إِذْ ظَهَرَتْ آثَارُهُ فِي كُلِّ تَوَالِيفِهِ وَمُدَوَّنَاتِهِ ، حَتَّى لَقَدْ أُتُّهِمَ مِنْ خُصُومِهِ وَحَسَدَتِهِ (١) وَالنَّافِسِينَ (٢) عَلَيْهِ : أَنَّهُ كَانَ يُزَيِّفُ مَا يَرْوِيهِ ، وَيَصْطَنِعُ مَا يَحْكِيهِ عَنْ غَيْرِهِ ، وَإِنْ كَانَ فِي هٰذِهِ التُّهَمَةِ (٣) غُلُوٌّ ، وَعَلَيْهَا مَسْحَةُ (٤) إِسْرَافٍ .

***

واقعة مع بعض اللصوص

وَقَدْ أَعْطَتْهُ الْحَيَاةُ دَرْساً مِنْ هٰذِهِ النَّاحِيَةِ أَثْمَرَ وَأَجْدَى عَلَيْهِ طِيلَةَ عُمُرِهِ ، وَذٰلِكَ أَنَّهُ فِيمَا كَانَ عَائِداً إِلَى طُوسٍ مِنْ جُرْجَانَ إِذْ بَاغَتَهُ عَلَى الطَّرِيقِ جَمَاعَةٌ مِنَ اللُّصُوصِ جَرَّدُوهُ مِمَّا كَانَ مَعَهُ ، وَانْتَزَعُوا مِنْهُ الْمِخْلَاةَ الَّتِي كَانَتْ تَحْوِي كُتُبَهُ وَأَوْرَاقَهُ وَمُذَكِّرَاتِهِ وَمُدَوَّنَاتِهِ ، وَقَدْ حَكَى هُوَ بِنَفْسِهِ الْقِصَّةَ فِي تَأَثُّرٍ شَدِيدٍ بِهَا وَبَيَانٍ بَلِيغٍ ، فِي سَذَاجَةٍ

(١) حسدته : جمع حاسد (٢) النافسين : الحاقدين ، جمع نافس .

(٣) التهمة : ما يتهم به الانسان وينسب إليه . (٣) المسحة : بفتح الميم الاثر الظاهر .

سَاذَجٍ فِي بَلَاغَتِهِ . وَهُوَ إِذْ يَقُولُ . قُطِعَ عَلَيْنَا الطَّرِيقُ ، وَأَخَذَ الْعَيَّارُونَ[1] جَمِيعَ مَا مَعِي وَمَضَوْا فَتَبِعْتُهُمْ ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ مُقَدَّمُهُمْ وَقَالَ : ارْجِعْ وَيْحَكَ وَإِلَّا هَلَكْتَ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَسْأَلُكَ بِالَّذِي تَرْجُو السَّلَامَةَ مِنْهُ أَنْ تَرُدَّ عَلَيَّ تَعْلِيقَتِي فَقَطْ ، فَمَا هِيَ بِشَيْءٍ تَنْتَفِعُونَ بِهِ ، فَقَالَ لِي : وَمَا هِيَ تَعْلِيقَتُكَ ؟ فَقُلْتُ كُتُبٌ فِي تِلْكَ الْمِخْلَاةِ هَاجَرْتُ لِسَمَاعِهَا وَكِتَابَتِهَا وَمَعْرِفَةِ عِلْمِهَا ، فَضَحِكَ وَقَالَ : كَيْفَ تَدَّعِي أَنَّكَ عَرَفْتَ عِلْمَهَا وَقَدْ أَخَذْنَاهَا مِنْكَ ، فَتَجَرَّدْتَ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ، وَبَقِيتَ بِلَا عِلْمٍ ؟ — ثُمَّ أَمَرَ بَعْضَ أَصْحَابِهِ فَسَلَّمَ إِلَيَّ الْمِخْلَاةَ . وَهٰذَا مَنْطِقٌ أَنْطَقَهُ اللهُ لِيُرْشِدَنِي فِي أَمْرِي ، فَلَمَّا وَافَيْتُ[2] طُوسَ أَقْبَلْتُ عَلَى الِاشْتِغَالِ ثَلَاثَ سِنِينَ حَتَّى حَفِظْتُ جَمِيعَ مَا عَلَّقْتُهُ ، وَصِرْتُ بِحَيْثُ لَوْ قُطِعَ عَلَيَّ الطَّرِيقُ لَمْ أَتَجَرَّدْ مِنْ عِلْمِي .

***

(١) العيارون : جمع عيار : الكثير التطواف والحركة

(٢) وافيت : أتيت .

صورة بديعة

وَهٰذِهِ سَذَاجَةٌ فِي ٱلتَّصْوِيرِ بَدِيعَةٌ فِي ٱلْحَقِّ وَرَائِعَةٌ ، وَلَسْتُ آخُذُهَا مَأْخَذَ ٱلْأُسْتَاذِ مَاكْدُولَانْد ، أَوْ أَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظَرَ ٱلَّذِي يَحْسَبُهَا مَنْقَصَةً فِي رُجُلٍ كَالْغَزَالِيِّ ، وَمَعَابًا مِنْ نَاحِيَةِ ٱلاعْتِمَادِ فِي ٱلْعِلْمِ عَلَى الِاسْتِظْهَارِ وَهُوَ آفَتُهُ ، وَعَلَى ٱلْكُتُبِ يُعَاوِدُهَا لِأَنَّهَا مَشْغَلَةٌ عَنِ ٱلنَّظَرِ وَٱلتَّفْكِيرِ وَإِعْمَالِ ٱلرَّأْيِ ، وَلٰكِنِّي أَنْزِعُ (١) فِي فَهْمِهَا إِلَى نَاحِيَةِ ٱلْقِيمَةِ الرُّوحِيَّةِ لِلْكُتُبِ عِنْدَ ٱلْمُتَوَفِّرِينَ عَلَيْهَا ، وَٱلْمُولَعِينَ بِهَا ، وَٱلْمُؤْثِرِينَ لَهَا عَلَى مُتَعٍ كَثِيرَةٍ ، وَلَذَاذَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، فَإِنَّ الْحِرْصَ عَلَى ٱلْكِتَابِ عِنْدَ عَارِفِ قَدْرِهِ يَكَادُ يَبْلُغُ حَدَّ الْإِيثَارِ وَلَوْ خُيِّرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَيْءٍ أَنْفَسَ مِنْهُ مَادَّةً لَضَنَّ بِهِ ، وَلَمْ تُسَوِّلْ لَهُ ٱلنَّفْسُ عَنْهُ غَنَاءً .

مغادرة طوس

وَأَقَامَ ٱلْغَزَالِيُّ فِي طُوسٍ ثَلَاثَ سِنِينَ ، يُعَاوِدُ قِرَاءَةَ مُذَكَّرَاتِهِ وَمُطَالَعَةَ أَوْرَاقِهِ وَمُذَاكَرَةَ مَا فِي كُنَّاشَتِهِ « تَعْلِيقَتِهِ » وَقَدْ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱنْتَصَرُوا لَهُ وَدَافَعُوا عَنْهُ ، إِزَاءَ

(١) انزع : من باب ضرب : أميل .

تُهمَةِ خُصُومِهِ: إنَّهُ كَانَ يَحفَظُ ٱلْمَعْنَى ، وَلَا يَسْتَظْهِرُ ٱللَّفْظَ فَكَانَ إِذَا مَا عَادَ يَسْتَشْهِدُ بِشَيْءٍ مِمَّا وَعَاهُ لَمْ يَجِئْ بِهِ عَلَى وَجْهِهِ ، وَلٰكِنَّهُ كَانَ يُؤَدِّيهِ بِعِبَارَةٍ مِنْ عِنْدِهِ وَيَصُوغَ لَهُ ٱللَّفْظَ ٱلَّذِي يُوَفِّي غَايَتَهُ ، وَيَأْتِي بِمُرَادِهِ .

***

نيسابور والاتصال بامام الحرمين

وَخَرَجَ مِنْ طُوسٍ فِي صُحْبَةِ شَبَابٍ مِنْ رُفَقَاءِ ٱلطَّلَبِ ، وَصُحْبَتِهِ فِي ٱلْمُذَاكَرَةِ وَٱلتَّحْصِيلِ يُرِيدُونَ نَيْسَابُورَ ، وَفِي تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ ٱتَّصَلَ بِإِمَامِ ٱلْحَرَمَيْنِ أَبِي ٱلْمَعَالِي ٱلْجُوَيْنِيِّ ، وَهُوَ ٱلَّذِي عَهِدَ نِظَامُ ٱلْمُلْكِ إِلَيْهِ بِالْإِشْرَافِ عَلَى ٱلْمَدْرَسَةِ ٱلنِّظَامِيَّةِ ، فَقَرَّبَهُ ٱلْإِمَامُ إِلَيْهِ ، وَوَطَّأَ لَهُ فِي طَلَبِهِ ، وَمَكَّنَ لَهُ فِي مَحَبَّتِهِ وَحَنَانِهِ ، وَلَبِثَ يُجَاوِرُ ٱلْإِمَامَ حَتَّى وَفَاتِهِ فِي ٱلْحَادِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ ٱلْآخِرِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ .

***

وَنَجِدُ مِنْ وَاجِبِنَا أَنْ نُحَدِّثَكَ هُنَا عَنْ نِظَامِ ٱلْمُلْكِ لِمَا لَهُ مِنْ وَثِيقِ صِلَةٍ بِنَشْأَةِ ٱلْغَزَالِيِّ وَٱلْأَدْوَارِ ٱلْأُولَى مِنْ حَيَاتِهِ

مُعْتَمِدِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى ابْنِ خِلِّكَانَ .

***

وَهُوَ أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ الْعَبَّاسِ الْمُلَقَّبُ نِظَامَ الْمُلْكِ قِوَامُ الدِّينِ الطُّوسِيُّ .

***

نظام الملك

ذَكَرَ السَّمْعَانِيُّ فِي كِتَابِ الْأَنْسَابِ فِي تَرْجَمَةِ الرَّاذْكَانِ أَنَّهَا بُلَيْدَةٌ صَغِيرَةٌ بِنَوَاحِي طُوسٍ ، قِيلَ إِنَّ نِظَامَ الْمُلْكِ كَانَ مِنْ نَوَاحِيهَا ، وَكَانَ مِنْ أَوْلَادِ الدَّهَاقِينِ(١) وَاشْتَغَلَ بِالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ ، ثُمَّ اتَّصَلَ بِخِدْمَةِ عَلِيِّ بْنِ شَاذَانَ الْمُعْتَمِدِ عَلَيْهِ بِمَدِينَةِ بَلْخٍ ، وَكَانَ يَكْتُبُ لَهُ فَكَانَ يُصَادِرُهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ فَهَرَبَ مِنْهُ ، وَقَصَدَ دَاوُدَ بْنَ مِيكَائِيلَ السَّلْجُوقِيَّ ، وَالِدَ السُّلْطَانِ أَلْبِ أَرْسِلَانَ ، فَظَهَرَ لَهُ مِنْهُ النُّصْحُ وَالْمَحَبَّةُ ، فَسَلَّمَهُ إِلَى وَلَدِهِ أَلْبِ أَرْسِلَانَ وَقَالَ لَهُ : اتَّخِذْهُ وَالِداً ، وَلَا تُخَالِفْهُ فِيمَا يُشِيرُ بِهِ ، فَلَمَّا مَلَكَ أَلْبُ أَرْسِلَانَ ، دَبَّرَ أَمْرَهُ فَأَحْسَنَ التَّدْبِيرَ ، وَبَقِيَ فِي خِدْمَتِهِ

(١) الدهاقين : جمع دهقان ، رئيس الاقليم .

عَشْرَ سِنِينَ ، فَلَمَّا مَاتَ أَلْبُ أَرْسِلَانَ ، وَازْدَحَمَ أَوْلَادُهُ عَلَى الْمُلْكِ وَطَّدَ الْمَمْلَكَةَ لِوَلَدِهِ مَلِكْ شَاهْ ، فَصَارَ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِنِظَامِ الْمُلْكِ ، وَلَيْسَ لِلسُّلْطَانِ إِلَّا التَّخْتُ[1] وَالصَّيْدُ ، وَأَقَامَ عَلَى هَذَا عِشْرِينَ سَنَةً ، وَدَخَلَ عَلَى الْإِمَامِ الْمُقْتَدِي بِاللهِ ، فَأَذِنَ لَهُ فِي الْجُلُوسِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ لَهُ يَا حَسَنُ ، رَضِيَ اللهُ عَنْكَ ، بِرِضَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ ، وَكَانَ مَجْلِسُهُ عَامِراً بِالْفُقَهَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ ، وَكَانَ كَثِيرَ الْإِنْعَامِ عَلَى الصُّوفِيَةِ ، وَسُئِلَ عَنْ سَبَبِ ذٰلِكَ فَقَالَ : أَتَانَا صُوفِيٌّ وَأَنَا فِي خِدْمَةِ بَعْضِ الْأُمَرَاءِ فَوَعَظَنِي وَقَالَ :

***

أُخْدُمْ مَنْ تَنْفَعُكَ خِدْمَتُهُ ، وَلَا تَشْتَغِلْ بِمَنْ تَأْكُلُهُ الْكِلَابُ غَداً ، فَلَمْ أَعْلَمْ مَعْنَى قَوْلِهِ ، فَشَرِبَ ذٰلِكَ الْأَمِيرُ مِنَ الْغَدِ إِلَى اللَّيْلِ ، وَكَانَتْ لَهُ كِلَابٌ كَالسِّبَاعِ تَفْتَرِسُ الْغُرَبَاءَ بِاللَّيْلِ . فَغَلَبَهُ السُّكْرُ فَخَرَجَ وَحْدَهُ فَلَمْ تَعْرِفْهُ الْكِلَابُ فَمَزَّقَتْهُ ، فَعَلِمْتُ أَنَّ الرَّجُلَ كُوشِفَ بِذٰلِكَ ،

(١) التخت : سرير الملك وعرشه .

فَأَنَا أَخْدُمُ الصُّوفِيَّةَ لَعَلِّى أَظْفَرُ بِمِثْلِ ذٰلِكَ .

***

وَكَانَ إِذَا سَمِعَ الْاذَانَ أَمْسَكَ عَنْ جَمِيعِ مَا هُوَ فِيهِ . وَكَانَ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ ، أَبُو الْمَعَالِى وَأَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِىُّ ، صَاحِبُ الرِّسَالَةِ ، بَالَغَ فِى إِكْرَامِهِمَا ، وَأَجْلَسَهُمَا فِى مَسْنَدِهِ (١) ، وَبَنَى الْمَدَارِسَ وَالرُّبُطَ (٢) ، وَالْمَسَاجِدَ فِى الْبِلَادِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَنْشَأَ الْمَدَارِسَ ، فَاقْتَدَى بِهِ النَّاسُ ، وَشَرَعَ فِى عِمَارَةِ مَدْرَسَتِهِ فِى بَغْدَادَ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَتَوَجَّهَ صُحْبَةَ مَلِكْ شَاهْ إِلَى أَصْبَهَانَ حَيْثُ قُتِلَ غِيلَةً (٣) ، وَقِيلَ إِنَّ السُّلْطَانَ دَسَّ عَلَيْهِ مَنْ قَتَلَهُ ، فَإِنَّهُ سَمَّ طُولَ حَيَاتِهِ ، وَاسْتَكْثَرَ مَا بِيَدِهِ مِنَ الْإِقْطَاعَاتِ ، وَلَمْ يَعِشِ السُّلْطَانُ بَعْدَهُ سِوَى خَمْسَةً وَثَلَاثِينَ يَوْمًا « وَرَثَاهُ » شِبْلُ الدَّوْلَةِ أَبُو الْهَيْجَاءِ مُقَاتِلُ بْنُ عَطِيَّةَ ابْنِ مُقَاتِلٍ الْبَكْرِىُّ فَقَالَ :

---

(١) مسنده : متكئه أى مجلسه الخاص . (٢) الربط : جمع رباط : الثكنة . (٣) قتل غيلة : خدعة وغدرا .

كَانَ ٱلْوَزِيرُ نِظَامُ ٱلْمُلْكِ لُؤْلُؤَةً
نَفِيسَةً صَانَهَا ٱلرَّحْمَنُ مِنْ شَرَفِ
عَزَّتْ فَلَمْ تَعْرِفِ ٱلْأَيَّامُ قِيمَتَهَا
فَرَدَّهَا غَيْرَةً مِنْهُ إِلَى ٱلصَّدَفِ

***

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهُ قُتِلَ بِسَبَبِ تَاجِ ٱلْمُلْكِ أَبِي ٱلْغَنَائِمِ ٱلْمَرْزُبَانِ بْنِ خُسْرُو فَيْرُوزَ ٱلْمَعْرُوفِ بِابْنِ دَارِسْتَ ، فَإِنَّهُ كَانَ عَدُوَّ نِظَامِ ٱلْمُلْكِ ، وَكَانَ كَبِيرَ ٱلْمَنْزِلَةِ عِنْدَ مَخْدُومِهِ مَلِكْ شَاهْ ، فَلَمَّا قُتِلَ رَتَّبَهُ مَوْضِعَهُ[1] فِي ٱلْوِزَارَةِ ، ثُمَّ إِنَّ غِلْمَانَ نِظَامِ ٱلْمُلْكِ وَثَبُوا عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ وَقَطَّعُوهُ إِرْبًا إِرْبًا .[2]

***

وَٱلْآنَ نَعُودُ بِكَ إِلَى حَيَاةِ ٱلْغَزَالِيِّ ، وَنَذْهَبُ بِكَ إِلَى مَدِينَةِ نَيْسَابُورَ حَيْثُ ٱتَّسَعَتْ فِيهَا آفَاقُ ٱلطَّلَبِ أَمَامَ

(١) رتبه موضعه : جعله مكانه . (٢) إربا إربا : بسكون الراء : عضوا عضوا .

ٱلْغَزَالِيِّ ٱلشَّابِّ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلثَّامِنَةِ وَٱلْعِشْرِينَ ، وَتَعَدَّدَتْ نَوَاحِي ٱلتَّحْصِيلِ ، فَقَدْ دَرَسَ ٱلْمَذَاهِبَ وَاخْتِلَافَاتِهَا ، وَتَعَلَّمَ ٱلْجَدَلَ وَأَسَالِيبَهُ ، وَٱلْمَنْطِقَ وَأُصُولَهُ ، وَقَرَأَ ٱلْفَلْسَفَةَ وَنَظَرِيَّاتِهَا . وَلَعَلَّهُ بَدَأَ فِي هٰذَا ٱلدَّوْرِ مِنَ ٱلْحَيَاةِ يُجَرِّبُ ٱلْكِتَابَةَ ، وَيَتَهَيَّأُ لِلتَّأْلِيفِ .

***

تفوق الغزالى

وَقَدْ بَرَّزَ ٱلْغَزَالِيُّ فِي ٱلْحَلْقَةِ مِنْ رُفَقَائِهِ وَصَحْبِهِ فِي ٱلدِّرَاسَةِ ، مُتَفَوِّقاً غَلَّاباً عَلَيْهِمْ ، بَادِيَ ٱلْمَقْدِرَةِ مِنْ فَوْقِهِمْ ، يَرْقَى سُلَّمَ ٱلشُّهْرَةِ صُعُداً[1] وَيَجُوزُ ٱلطَّرِيقَ قُدُماً[2] مُغِذّاً[3] ٱلسَّيْرَ .

***

مرضه

وَيَلُوحُ لَنَا أَنَّهُ ٱشْتَغَلَ بَعْدَ ذٰلِكَ صَبِيّاً لِلْإِمَامِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ أَوْ مُسَاعِداً ، يَقْرَأُ عَلَى إِخْوَانِهِ ، وَيُعَلِّمُهُمْ فِي غَيْبَةِ ٱلْأُسْتَاذِ أَوْ فِي مَحْضَرِهِ ، حَتَّى مَرِضَ وَأَنْضَاهُ[4] ٱلسَّقَامُ ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا

(١) صعدا : صعودا بعد صعود (٢) قدما : أمام أمام (٣) مغذا : مسرعا
(٤) انضاه : هزله .

أَشْبَاهَ ذَلِكَ مِنْ أَبْنَاءِ الرِّيفِ كَثِيراً ، وَكَمْ شَهِدْنَا مِنْ شَبَابٍ مِنْ فِتْيَةِ الْقُرَى يَنْحَدِرُونَ إِلَى الْحَضَرِ. أَقْوِيَاءَ أَشِدَّاءَ الْأَسْرِ[1]، مُكْتَمِلِي الْعَافِيَةِ ، فَلَا يَلْبَثُونَ مِنْ فَرْطِ إِنْهِمَاكِهِمْ فِي الدَّرْسِ ، وَإِكْبَابِهِمْ عَلَى الْمُذَاكَرَةِ وَالتَّحْصِيلِ ، وَأَنْزِوَائِهِمْ إِلَى الْعِلْمِ وَالْاسْتِظْهَارِ ، أَنْ يَذْبُلُوا وَتَهِنَ قُوَاهُمْ ، وَتَشْحُبَ أَلْوَانُهُمْ ، وَتَضْعُفَ مُنَّتُهُمْ[2]، فَلَا يَسْتَرِدُّوهَا طِيلَةَ الْحَيَاةِ .

وَنَحْسَبُ أَنَّا قَدْ وَجَدْنَا فِي هَذَا الْمَرَضِ الْبَاكِرِ وَالْعِلَّةِ الَّتِي عَاجَلَتْهُ مِنَ الشَّبِيبَةِ تَفْسِيراً لِوَفَاتِهِ ، وَلَمَّا يُجَاوِزِ الْخَامِسَةَ وَالْخَمْسِينَ .

***

تقدير إستاذه لمواهبه

وَقَدْ قَالَ مُعَلِّمُهُ الْأَوَّلُ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ فِي تَصْوِيرِهِ بِالنِّسْبَةِ لِرَفِيقَيْنِ مِنْ رُفَقَاءِ حَلْقَتِهِ : إِنَّ الْغَزَالِيَّ بَحْرٌ مُغْرِقٌ ، وَالْكِيَا أَسَدٌ مُحْدِقٌ ، وَالْخَوَافِيَّ نَارٌ تَحْرِقُ

***

(١) الأسر بسكون السكون : القوة

(٢) المنة بضم الميم : القوة

وَيُرْوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ أَيْضاً مُوَازِناً بَيْنَهُمْ: «إِذَا تَنَاظَرُوا» - التَّحْقِيقُ لِلْخَوَافِي ، وَالْجُزْئِيَّاتُ لِلْغَزَالِيِّ ، وَالْبَيَانُ لِلْكِيَا .

***

بعض مصنفاته

وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ صَنَّفَ فِي حَيَاةِ أُسْتَاذِهِ إِمَامِ الْحَرَمَيْنِ أَبِي الْمَعَالِي الْجُوَيْنِي . بَعْضَ كُتُبِهِ : وَأَحْسَبُ الرِّوَايَةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْمَقْرِيزِيُّ فِي «مُقَفَّاهُ» قَدْ أَخْطَأَتِ الْحَقَّ ، إِذِ اسْتَهَارَتْ (١) إِلَى أَنَّهُ وَضَعَ كِتَابَ «الْمَنْخُولِ» ، فَإِنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَمْ يَكُنْ قَدْ وُضِعَ بَعْدُ ، وَلَهُ قِصَّةٌ سَنَأْتِي عَلَيْهَا فِي الْفَصْلِ الَّذِي نُفْرِدُهُ لِكُتُبِهِ وَتَوَالِيفِهِ .

***

وَيَقُولُ الْمَقْرِيزِيُّ بِسَبِيلِ هَذَا : إِنَّ الْجُوَيْنِيَّ قَالَ لَهُ لَمَّا رَأَى الْكِتَابَ « دَفَنْتَنِي وَأَنَا حَيٌّ » ، هَلَّا صَبَرْتَ حَتَّى أَمُوتَ ، لِأَنَّ كِتَابَكَ غَطَّى عَلَى كِتَابِي .

(١) استهارت : ضعفت وتكسرت .

***

الغزالى بنيسابور

وَلَمْ نَرَ لِأَبِي ٱلْمَعَالِي كِتَابًا مَعْرُوفًا حَتَّى تَصِحَّ ٱلرِّوَايَةُ فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا ، وَبَدَأَ ٱلْغَزَالِيُّ وَهُوَ بِنَيْسَابُورَ يُحِسُّ دَبِيبَ ٱلشَّكِّ ، كَمَا تَحَدَّثَ بِذَلِكَ فِي ٱعْتِرَافَاتِهِ ٱلَّتِي ضَمَّنَهَا كِتَابَهُ « ٱلْمُنْقِذَ مِنَ ٱلضَّلَالِ » — حَيْثُ يَقُولُ فِي مُسْتَهَلِّهَا : وَقَدْ كَانَ ٱلتَّعَطُّشُ إِلَى دَرْكِ حَقَائِقِ ٱلْأُمُورِ دَأْبِي وَدَيْدَنِي مِنْ أَوَّلِ أَمْرِي ، وَرَيْعَانِ عُمْرِي ، غَرِيزَةً وَفِطْرَةً مِنَ ٱللهِ وُضِعَتْ فِي جِبِلَّتِي ، لَا بِاخْتِيَارِي وَحِيلَتِي ، ثُمَّ هُوَ يَجْرِي عَلَى هَذَا ٱلسِّيَاقِ ، فَيَتَحَدَّثُ عَنِ ٱلْعِلْمِ ٱلْيَقِينِيِّ فَيَقُولُ : ثُمَّ عَلِمْتُ أَنَّ كُلَّ مَا لَا أَعْلَمُهُ عَلَى هَذَا ٱلْوَجْهِ ، وَلَا أَتَيَقَّنُهُ هَذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْيَقِينِ ، فَهُوَ عِلْمٌ لَا ثِقَةَ بِهِ ، وَلَا أَمَانَ مَعَهُ ، وَكُلُّ عِلْمٍ لَا أَمَانَ لَهُ فَلَيْسَ بِعِلْمٍ يَقِينِيٍّ .

***

متى ابتدأ شكه ؟

بَيْدَ أَنَّ ٱلْعَلَّامَةَ « مَاكْدُولَانْدَ » يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ

ٱلْغَزَالِيَّ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ وَصَلَ إِلَى مَرْحَلَةِ ٱلشَّكِّ قَبْلَ عَامِ أَرْبَعَةٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، أَىْ قَبْلَ مُنَاهَزَتِهِ ٱلرَّابِعَةَ وَٱلْعِشْرِينَ ، وَأَنَّ هَذَا ٱلشَّكَّ ٱلَّذِى ٱنْتَابَهُ جَاءَ إِثْرَ تَطَوُّرٍ شَدِيدٍ عَلَى نَفْسِهِ ، وَتَفَاعُلٍ طَوِيلِ ٱلْمَدَى ، وَلَكِنَّ « مَاكْدُولَانْدَ » يُرَجِّحُ أَنَّ ٱلْغَزَالِيَّ ظَلَّ طِبْلَةَ بَقَائِهِ فِى أَكْنَافِ إِمَامِ ٱلْحَرَمَيْنِ صُوفِيًّا مُؤْمِنًا ، مُتَمَسِّكًا بِعَقِيدَتِهِ وَيَقِينِهِ .

***

وفاة معلمه

وَٱلظَّاهِرُ أَنَّ وَفَاةَ مُعَلِّمِهِ هَيَّأَتْ لَهُ سَبِيلًا إِلَى ٱلظُّهُورِ ، وَٱكْتِسَابِ ٱلشُّهْرَةِ فِى ٱلْمُجْتَمَعِ ، لِأَنَّهَا أَطْلَقَتْهُ مِنْ إِسَارِهِ ، وَفَكَّتْهُ مِنْ قُيُودِهِ ، وَأَخْرَجَتْهُ مِنْ نَيْسَابُورَ مَهْدِ نُبُوغِهِ . يَلْتَمِسُ تَجْرِبَةَ ٱلْحَظِّ ، وَيَبْحَثُ عَنْ طَرِيقِ ٱلشُّهْرَةِ وَٱلْمَجْدِ ، وَهَدَاهُ ٱلْقَدَرُ إِلَى مُعَسْكَرِ ٱلْوَزِيرِ نِظَامِ ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِى حَدَّثْنَاكَ عَنْهُ ، وَٱلَّذِى حَمَلَ أَعْبَاءَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلسَّلْجُوقِيَّةِ ، وَٱضْطَلَعَ بِهَا أَكْثَرَ مِنْ

عِشْرِينَ سَنَةً ، فَقَدْ وَزَرَ مِنْ قَبْلُ لِأَلْبَ أَرْسْلَانَ بَعْدَ وَفَاةِ طُغْرُلْ بِكْ مُؤَسِّسِهَا الْأَوَّلِ .

***

اتساع سلطان السلاجقة

وَكَانَتْ مَرْوُ وَنَيْسَابُورُ قَدْ سَقَطَتَا فِي أَيْدِي السَّلَاجِقَةِ سَنَةَ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ . وَقَدْ دَخَلَ طُغْرُلُ بَغْدَادَ سَنَةَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ ، أَيْ قَبْلَ مَوْلِدِ الْغَزَالِيِّ بِثَلَاثِ سِنِينَ ، وَنُودِيَ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَطْلَقَ الْخَلِيفَةُ مِنْ تَأْثِيرِ الشِّيعَةِ وَسُلْطَانِهَا عَلَيْهِ . فَلَمْ تَحُلْ سَنَةُ سَبْعِينَ بَعْدَ الْأَرْبَعِمِائَةِ ، حَتَّى كَانَ السَّلَاجِقَةُ قَدْ بَسَطُوا سُلْطَانَهُمْ عَلَى غَرْبِيِّ آسْيَا كُلِّهِ ، مِنْ أَفْغَانِسْتَانَ حَيْثُ كَانَتِ الْغَزْنَوِيَّةُ ، سَائِدَةَ النُّفُوذِ إِلَى حُدُودِ مِصْرَ فِي ظِلِّ الْفَاطِمِيِّينَ .

***

ملك شاه

وَكَانَ أَلْبُ أَرْسْلَانَ عِنْدَ وَفَاتِهِ قَدْ ضَمِنَ الْمُلْكَ لِإِبْنِهِ مَلِكْ شَاهْ ، فَبَقِيَ نِظَامُ الْمُلْكِ وَزِيرًا لَهُ ، وَلَبِثَ

نِظَامُ ٱلْمُلْكِ إِلَى مَقْتَلِهِ فِي ٱلْعَاشِرِ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ٱلْحَاكِمَ ٱلْآمِرَ ، وَٱلسَّيِّدَ ٱلْمُطْلَقَ ، وَٱلْمُتَصَرِّفَ لَا مَرَدَّ لِمَشِيئَتِهِ . وَيَوْمَ مَصْرَعِهِ سَقَطَتْ ٱلدَّوْلَةُ كُلُّهَا مُتَدَاعِيَةً ، وَقَامَتِ ٱلْفِتَنُ ، وَحَلَّ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلِانْقِسَامُ .

***

وفاة نظام الملك

وَقَدْ فَقَدَ ٱلْعِلْمُ بِمَوْتِ نِظَامِ ٱلْمُلْكِ نَصِيراً عَظِيماً ، وَمِعْوَاناً حَدِباً حَانِياً ، لِأَنَّهُ هُوَ ٱلَّذِي أَسَّسَ ٱلْمَدَارِسَ ٱلنِّظَامِيَّةَ لِتَأْيِيدِ مَذْهَبِ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ ، كَمَا بَنَى ٱلْفَاطِمِيُّونَ ٱلْجَامِعَ ٱلْأَزْهَرَ ، فِي أَوَاسِطِ ٱلْقَرْنِ ٱلرَّابِعِ ، أَيْ قَبْلَ ذَلِكَ بِمِائَةِ سَنَةٍ ، لِتَأْيِيدِ مَذْهَبِ ٱلشِّيعَةِ ، وَكَانَ غَرَضُ نِظَامِ ٱلْمُلْكِ فِي إِنْشَاءِ ٱلْمَدَارِسِ وَٱلرُّبُطِ (١) سِيَاسِيًّا بِجَانِبِ ٱلْغَايَةِ ٱلدِّينِيَّةِ مِنْهُ ، فَقَدْ ذَهَبَ يَغْمُرُ

(١) الربط : جمع رباط : وهى ثكنات الجيش المرابط تجاه العدو ، والخيل الخمسة فمافوقها .

ٱلْعُلَمَاءَ وَٱلزُّهَّادَ بِفَضْلِهِ ، لِيَنْشُرُوا ٱلدَّعْوَةَ لَهُ فِي ٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ .

***

قصته مع الخيام

وَلَسْنَا بِحَاجَةٍ هُنَا فِي هَذَا ٱلْمُضْطَرَبِ ٱلضَّيِّقِ إِلَى ذِكْرِ قِصَّتِهِ مَعَ عُمَرَ ٱلْخَيَّامِ ، وَٱلْحَسَنِ بْنِ ٱلصَّبَّاحِ ، وَكَيْفَ لَقِيَهُمَا فِي نَشْأَتِهِ بِنَيْسَابُورَ ، وَكَانَ قَدِ ٱنْحَدَرَ إِلَيْهَا لِطَلَبِ ٱلْعِلْمِ عَلَى ٱلْإِمَامِ ٱلنَّيْسَابُورِيِّ وَكَانَ مِنْ جِلَّةِ (١) عُلَمَاءِ خُرَاسَانَ ، فَتَوَثَّقَتْ بَيْنَهُمُ ٱلْمَوَدَّةُ ، وَكَانَ ٱلْخَيَّامُ مِنْ أَهْلِ نَيْسَابُورَ ، وَكَانَ ٱلْحَسَنُ مِنْ أَبٍ نَاسِكٍ مُتَقَشِّفٍ ، فَأَقْبَلَ ٱلْحَسَنُ يَوْمًا عَلَى عُمَرَ ٱلْخَيَّامِ وَصَاحِبِهِ يُحَدِّثُهُمَا عَنِ ٱلْمُسْتَقْبَلِ وَٱلْمَصِيرِ ، فَاتَّفَقَ ٱلثَّلَاثَةُ عَلَى أَنَّ مَنْ يَسْبِقُ صَاحِبَيْهِ إِلَى ٱلْعِزِّ (٢) وَٱلسُّلْطَانِ (٣) وَٱلْجَاهِ (٤) فَعَلَيْهِ أَنْ يَقْسِمَهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى ٱلسَّوَاءِ .

---

(١) جلة : جمع جليل، وهو العظيم ويجمع كذلك على أجلة وأجلاء . وقيل إن الجلال يكون فى المعانى ، والعظم يكون فى الأجسام، ومع هذا إذا قيل رجل جليل : كان المراد منه رفيع الشأن : (٢) العز . القوة والغلبة (٣) السلطان : قوة الملك (٤) الجاه : القدر والمنزلة

***

فوز نظام الملك

وَقَدْ قَيَّضَ ٱللهُ ذٰلِكَ لِنِظَامِ ٱلْمُلْكِ، وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبَاهُ مِنْهُ شَيْئًا، فَأَتَيَاهُ يُذَكِّرَانِهِ بِالْوَعْدِ، وَيَرْجُوَانِ إِلَيْهِ ٱلْوَفَاءَ.

***

رأى المؤلف

نَقُولُ إِنَّا بِغَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى ٱلتَّوَسُّعِ فِي هٰذِهِ ٱلْقِصَّةِ وَٱلْمَجِيءِ بِهَا عَلَى وَجْهِهَا كَامِلًا، فَقَدْ رَأَيْنَا بَعْضَ أَهْلِ ٱلرَّأْيِ وَٱلْبَحْثِ يَقْطَعُ بِأَنَّ ٱلْقِصَّةَ غَيْرُ صَحِيحَةٍ فِي مَجْمُوعِهَا، وَإِنْ صَحَّ أَنَّ عُمَرَ تَفَيَّأَ [1] حِينًا مِنَ ٱلدَّهْرِ فِي ظِلَالِهِ، وَٱسْتَعَانَهُ فِي بَعْضِ ٱلشُّؤُونِ ٱلْعِلْمِيَّةِ، وَفِي نَظَرِيَّتِهِ فِي عِلْمِ ٱلْجَبْرِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَطْلَعَهُ عَلَى رُبَاعِيَّاتِهِ، إِذْ كَانَ فِي خِيفَةٍ مِنْ إِظْهَارِهَا بِسَبَبِ رُوحِ ٱلْعَصْرِ وَنُزُوعِهِ.

***

عيشة الغزالي

٨ فِي ظِلِّ هٰذَا ٱلْوَزِيرِ ٱلْعَظِيمِ تَفَيَّأَ ٱلْغَزَالِيُّ،

(١) تفيأ: تقلب وتتبع الظلال متمتعا فيها

وَتَحْتَ جَنَاحِهِ ٱلْقَوِيِّ عَاشَ ، وَإِلَى أَكْنَافِهِ [١] ٱلْحَانِيَةِ [٢] أَوَى ، وَقَدْ رَأَيْنَا فِي كِتَابِ «ٱلْمُقَفَّى» ٱلَّذِي تَقَدَّمَ ٱلاقْتِبَاسُ مِنْهُ «وَصْفًا حَسَنًا» لِمَقْدَمِ ٱلْغَزَالِيِّ عَلَى نِظَامِ ٱلْمُلْكِ ، فَنَحْنُ هُنَا نَاقِلُوهُ .

***

التدريس في المدرسة النظامية

فَلَمَّا مَاتَ أَبُو ٱلْمَعَالِي ، خَرَجَ ٱلْغَزَالِيُّ إِلَى ٱلْعَسْكَرِ — لَعَلَّهُ يُرِيدُ ٱلْمُعَسْكَرَ — قَاصِدًا ٱلْوَزِيرَ نِظَامَ ٱلْمُلْكِ ، وَنَاظَرَ ٱلأَئِمَّةَ وَٱلْكِبَارَ فِي مَجْلِسِهِ ، وَقَهَرَ [٣] ٱلْخُصُومَ ، وَظَهَرَ كَلَامُهُ عَلَى ٱلْكُلِّ ، وَٱعْتَرَفَ بِفَضْلِهِ ٱلْخَاصُّ [٤] وَٱلْعَامُّ [٥] ، وَتَلَقَّاهُ نِظَامُ ٱلْمُلْكِ بِٱلْقَبُولِ ، وَأَحَلَّهُ مَحَلَّ ٱلنُّفُوسِ ، وَأَجَلَّهُ إِجْلَالَ ٱلرُّؤُوسِ ، ثُمَّ وَلَّاهُ ٱلتَّدْرِيسَ بِمَدْرَسَتِهِ ٱلنِّظَامِيَّةِ بِبَغْدَادَ ، وَأَمَرَهُ بِٱلتَّوَجُّهِ إِلَيْهَا ، فَقَدِمَ بَغْدَادَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ — لَعَلَّهُ خَطَأٌ فِي ٱلنَّسْخِ —

---

(١) الأكناف : جمع كنف : وهو الجانب والظل والناحية . (٢) الحانية : الرحيمة المشفقة من الحنو بمعنى الشفقة (٣) قهر : غلب . (٤) الخاص : الوجيه والكبير ، وخواص القوم كبراؤهم ووجهاؤهم (٥) العام مضاد للخاص ومقابل له

وَالصَّحِيحُ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، ودَرَّسَ بِالنِّظَامِيَّةِ — فَأَعْجَبَ الْكُلَّ بِحُسْنِ كَلَامِهِ ، وَكَمَالِ فَضْلِهِ ، وَعِبَارَتِهِ الرَّشِيقَةِ ، وَمَعَانِيهِ الدَّقِيقَةِ ، وَإِشَارَاتِهِ اللَّطِيفَةِ ، وَنُكَتِهِ الطَّرِيفَةِ .

***

حكاية له مع الفقهاء

فَلَمَّا اجْتَمَعَ الْفُقَهَاءُ إِلَيْهِ ، وَفَرَغُوا مِنْ تَهْنِئَتِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، قَالُوا لَهُ لَقَدْ عَلِمَ سَيِّدُنَا أَنَّ الْعَادَةَ لِكُلِّ مَنْ وَلِيَ التَّدْرِيسَ فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ ، أَنْ يَعْمَلَ لِلْفُقَهَاءِ دَعْوَةً ، وَيُحْضِرَهُمْ سِمَاطًا (١) جَرْيًا عَلَى رَسْمِ مَنْ سَبَقَ مِنَ الْأَئِمَّةِ ، وَأَنْتَ مِنْ أَفْضَلِ مَنْ يَنْزِلُهَا ، وَنُرِيدُ أَنْ تَكُونَ دَعْوَتُكَ فِي كَمَالِ النِّعْمَةِ ، كَرُتْبَتِكَ فِي رُتَبِ مَنْ سَبَقَ مِنَ الْأَئِمَّةِ ، فَقَالَ لَهُمْ سَمْعًا وَطَاعَةً ، وَلَكِنْ عَلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ إِلَيْكُمْ وَالتَّعْيِينُ لِي ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ التَّعْيِينُ إِلَيْكُمْ ، وَالتَّقْدِيرُ لِي ،

(١) السماط : الشيء المصطف : وسماط الطعام ما يبسط ليوضع عليه

فقالوا : بَلِ ٱلتَّقْدِيرُ لَكَ ، وَٱلتَّعْيِينُ لَنَا ، فَنُرِيدُ ٱلدَّعْوَةَ ٱلْيَوْمَ ، فَقَالَ لَهُمْ وَٱلتَّقْدِيرُ مِنِّى حِينَئِذٍ — عَلَى حَسَبِ ٱلْمُكْنَةِ[1] — أَنْ أُحْضِرَ لَكُمْ خُبْزًا وَخَلًّا وَبَقْلًا ، فَقَالَ ٱلْفُقَهَاءُ لَا وَٱللهِ — بَلْ ٱلتَّعْيِينُ لَكَ وَٱلتَّقْدِيرُ لَنَا ، وَنُرِيدُ أَنْ يَكُونَ فِى هَذِهِ ٱلدَّعْوَةِ مِنَ ٱلْحِمْلَانِ[2] كَذَا ، وَمِنَ ٱلدَّجَاجِ كَذَا ، وَمِنَ ٱلْحَلْوَى كَذَا ، فَقَالَ : سَمْعًا لَكُمْ وَطَاعَةً ، وَٱلتَّعْيِينُ بَعْدَ سَنَتَيْنِ ، فَقَالُوا عَجَزْنَا ، وَقَدْ سَلَّمْنَا ٱلْكُلَّ إِلَيْكَ ، لِعِلْمِنَا أَنَّنَا إِنْ جَرَيْنَا مَعَكَ عَلَى قَاعِدَةِ ٱلنَّظَرِ ، حُلْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلظَّفَرِ[3] مِنْ هَذِهِ ٱلدَّعْوَةِ . بِقَضَاءِ ٱلْوَطَرِ

***

شهرة الغزالى

وَأَقْبَلَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ يَأْخُذُونَ ٱلْعِلْمَ عَنْهُ ، وَٱتَّسَعَتْ حَلَقَاتُ دَرْسِهِ ، وَٱشْتَهَرَ بِفَتَاوَاهُ ٱلشَّرْعِيَّةِ ، ٱلَّتِى أَحْكَمَ فُتْيَاهَا ، وَتَقَصَّى تَعَالِيمَ ٱلشَّرْعِ فِى إِصْدَارِهَا ، وَٱنْكَمَشَ[4]

(١) المكنة : القوة والطاقة (٢) الحملان جمع حمل بالتحريك : ولد الشاة (٣) الظفر : الفوز (٤) انكمش الخ : جد وأكب

فِي ٱلتَّوْلِيفِ ، وَأَخْلَدَ (١) إِلَى ٱلتَّصْنِيفِ ، وَكَانَتْ حَيَاتُهُ يَوْمَئِذٍ حَيَاةَ طُمَانِينَةٍ وَدَعَةٍ ، وَعَيْشُهُ عَيْشَ بُلْهِنِيَةٍ (٢) وَسَكِينَةٍ (٣)

***

مرضه الفجائى

وَإِنَّهُ لَكَذَلِكَ إِذْ أُصِيبَ فَجْأَةً بِمَرَضٍ طَارِئٍ ، وَحَلَّتْ بِهِ عِلَّةٌ مَجْهُولَةٌ غَرِيبَةٌ ، حَتَّى ٱعْتُقِلَ (٤) مَنْطِقُهُ ، وَجَافَى ٱلطَّعَامَ فَلَا يَسْتَمْرِئُهُ ، وَبَطَلَتْ مَعَهُ قُوَّةُ هَضْمِهِ ، وَحَتَّى أَيْأَسَ مِنْ شِفَائِهِ أَطِبَّاءُهُ وَأُسَاتَهُ (٥) : فَقَالُوا هَذَا أَمْرٌ يَنْزِلُ فِي ٱلْقَلْبِ ، وَأَلَّا رَجَاءَ فِي حَيَاتِهِ ، إِذَا لَمْ يَتَغَلَّبْ عَلَى مَشَاغِلِ نَفْسِهِ ، وَلَمْ يُخَفِّفْ مِنْ وَطْأَةِ إِجْهَادِ ذِهْنِهِ ، أَوْ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِهِ فِي ٱعْتِرَافَاتِهِ ، إِذَا لَمْ يَتَرَوَّحِ ٱلسِّرُّ عَنِ ٱلْهَمِّ (٦) ٱلْمُلِمِّ (٧) .

---

(١) أخلد : سكن (٢) البلهنية : نعومة العيش (٣) السكينة : الطمأنينة (٤) اعتقل منطقه : عجز لسانه عن النطق (٥) الاساة : جمع آس وهو الطبيب (٦) الهم : الحزن (٧) الملم . النازل

***

خروجه من بغداد

وَقَدْ رَأَيْنَاهُ فِي هَذِهِ ٱلْمَرْحَلَةِ مِنْ حَيَاتِهِ ، يُغَادِرُ بَغْدَادَ فَجْأَةً قَاصِدًا ٱلْحَجَّ ، وَقَدْ أَنَابَ أَخَاهُ أَحْمَدَ عَلَى مَوْضِعِهِ ، مِنَ ٱلْمَدْرَسَةِ ٱلنِّظَامِيَّةِ ، وَتَرَكَ كُلَّ مَا كَانَ يَمْلِكُهُ ، فَلَمْ يَحْمِلْ مَعَهُ إِلاَّ مَا يَكْفِي لِقُوتِهِ ، وَيَسُدُّ مَفَاقِرَهُ ، وَيُقِيمُ أَوَدَ[1] بَنَاتِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ رُزِقَ بَنِينَ ، وَكَتَبَ بِمَا تَرَكَهُ فِي بَغْدَادَ وَقْفِيَّةً ، يَتَقَاضَى فِيهَا ٱلرَّيْعَ ، أَوْ يَتَقَاضَاهُ وَرَثَتُهُ إِذَا تَرَكَ وَارِثًا ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ وَارِثٌ ، فَلِلْمُسَبِّحَةِ أَوْ ٱلْمَدْرَسَةِ فِي بَغْدَادَ .

***

عزلة الغزالي

وَعَجِبَ أَهْلُ عَصْرِهِ وَٱلْفُقَهَاءُ فِي ٱلْعِرَاقِ لِهَذِهِ ٱلْعُزْلَةِ ٱلْفُجَائِيَّةِ ، ٱلَّتِي آثَرَهَا وَلَمْ يَفْقَهُوا سِرَّهَا ، وَقَدْ بَلَغَ مَنْصِبًا دِينِيًّا رَفِيعًا ، وَأَوْفَى فِي مَكَانِهِ مِنَ ٱلشُّهْرَةِ

(١) الأود : الاعوجاج ، والمراد ما يقيم حياتهن

وَالصِّيتِ عَلَى ٱلْقِمَّةِ [١] وَٱلْأَوْجِ [٢] ، فَرَاحَ ٱلْقَوْمُ يَتَأَوَّلُونَ ٱلسَّبَبَ ، وَيُكْثِرُونَ مِنَ ٱلتَّخَبُّطِ وَٱلاسْتِنْبَاطِ ، وَكَانَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَوْضِعَهُ مِنَ ٱلْوُلَاةِ ، وَيُشَاهِدُونَ إِلْحَاحَ هَؤُلَاءِ فِي ٱلتَّعَلُّقِ بِهِ ، وَٱلِانْكِبَابِ عَلَيْهِ ، يَقُولُونَ : هَذَا أَمْرٌ سَمَاوِيٌّ ، وَلَيْسَ لَهُ سَبَبٌ إِلَّا عَيْنٌ أَصَابَتِ ٱلْإِسْلَامَ فِيهِ .

***

زهده في الحياة

وَقَدْ عَرَضَ ٱلْغَزَالِيُّ لِهَذَا فِي ٱعْتِرَافَاتِهِ ٱلَّتِي كَتَبَهَا بَعْدَ أَنْ جَاوَزَ ٱلْخَمْسِينَ مِنَ ٱلْعُمُرِ ، وَهِيَ فِي كِتَابِهِ « ٱلْمُنْقِذِ مِنَ ٱلضَّلَالِ » ، فَنَفَى كُلَّ هَذَا ٱلتَّأْوِيلِ ، وَسَخِرَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ ٱلِاسْتِنْبَاطِ ، وَٱلتَّفْسِيرِ وَٱلتَّعْلِيلِ ، وَرَدَّ [٣] رَغْبَتَهُ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعُزْلَةِ إِلَى تَطَوُّرٍ نَفْسِيٍّ شَدِيدِ ٱلسُّلْطَانِ عَلَيْهِ ، حَتَّى حَمَلَهُ عَلَى ٱعْتِقَادِ أَنْ لَا مَطْمَعَ لَهُ فِي سَعَادَةِ ٱلْآخِرَةِ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، وَكَفِّ ٱلنَّفْسِ

(١) القمة : أعلى كل شيء (٢) الأوج : العلو والارتفاع (٣) رد : أرجع

عَنِ ٱلْهَوَى ، وَأَنَّ رَأْسَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، قَطْعُ عَلاَقَةِ ٱلْقَلْبِ عَنِ ٱلدُّنْيَا ، وَأَنَّ ذَلِكَ لاَ يَتِمُّ إِلاَّ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ ٱلْجَاهِ وَٱلْمَالِ ، وَٱلْهَرَبِ مِنَ ٱلشَّوَاغِلِ وَٱلْعَلاَئِقِ .

***

وَهُوَ فِي بَيَانِ أَحَاسِيسِهِ [1] فِي تِلْكَ ٱلْفِتْرَةِ ، وَعَوَامِلِ نَفْسِهِ يَقُولُ :

اعترافه بأسباب عزلته

ثُمَّ تَفَكَّرْتُ فِي نِيَّتِي فِي التَّدْرِيسِ ، فَإِذَا هِيَ غَيْرُ خَالِصَةٍ لِوَجْهِ ٱللهِ تَعَالَى ، بَلْ بَاعِثُهَا وَمُحَرِّكُهَا طَلَبُ ٱلْجَاهِ ، وَٱنْتِشَارُ ٱلصِّيتِ ، فَتَيَقَّنْتُ أَنِّي عَلَى « شَفَا جُرُفٍ هَارٍ » وَأَنِّي قَدْ أَشْفَيْتُ [2] عَلَى ٱلنَّارِ ، إِنْ لَمْ أَشْتَغِلْ بِتَلاَفِي ٱلْأَحْوَالِ ، فَلَمْ أَزَلْ أَتَفَكَّرُ فِيهِ مُدَّةً وَأَنَا بَعْدُ عَلَى مُقَامِ ٱلِاخْتِيَارِ ، أُصَمِّمُ ٱلْعَزْمَ عَلَى ٱلْخُرُوجِ مِنْ بَغْدَادَ ، وَمُفَارَقَةِ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ يَوْمًا ؛ وَأَهْلِ ٱلْعَزْمِ

(١) أحاسيسه : أى انخفاض صوته (٢) شفى على النار : أشرف عليها : ومنه قولهم فلان شفى على الموت : أى أشرف عليه

يَوْماً ، وَأُقَدِّمُ[1] فِيهِ رِجْلاً ، وَأُؤَخِّرُ عَنْهُ أُخْرَى ، لاَ تَصْدُقُ لِى رَغْبَةٌ فِى طَلَبِ ٱلْآخِرَةِ بُكْرَةً[2] ، إِلاَّ وَيَحْمِلُ عَلَيْهَا جُنْدُ ٱلشَّهْوَةِ حَمْلَةً ، فَتُفَتِّرُهَا عَشِيَّةً[3] فَصَارَتْ شَهَوَاتُ ٱلدُّنْيَا تَجَاذُبُنِى بِسَلاَسِلِهَا إِلَى ٱلْمُقَامِ ، وَمُنَادِى ٱلْإِيمَانِ يُنَادِى : ٱلرَّحِيلَ ، ٱلرَّحِيلَ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنَ ٱلْعُمُرِ إِلاَّ قَلِيلٌ ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ ٱلسَّفَرُ ٱلطَّوِيلُ ، وَجَمِيعُ مَاأَنْتَ فِيهِ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعَمَلِ رِيَاءٌ وَتَخْيِيلٌ[4] . فَإِنْ لَمْ تَسْتَعِدَّ ٱلْآنَ لِلْآخِرَةِ ، فَمَتَى تَسْتَعِدُّ ؟ وَإِنْ لَمْ تَقْطَعِ ٱلْآنَ هَذِهِ ٱلْعَلاَئِقَ ، فَمَتَى تَقْطَعُ ؟ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَنْبَعِثُ ٱلدَّاعِيَةُ ، وَيَنْجَزِمُ ٱلْعَزْمُ عَلَى ٱلْهَرَبِ وَٱلْفِرَارِ .

***

ثُمَّ يَعُودُ ٱلشَّيْطَانُ وَيَقُولُ : هَذِهِ حَالَةٌ عَارِضَةٌ ، وساوسه

(١) أصل المثل : أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى وتقديره : تقدمها تارة وتؤخرها أخرى يضرب للمتردد بين أمرين (٢) البكره : أول النهار . (٣) العشية : آخر النهار . (٤) الرياء والتخييل : النفاق والكبر :

إِيَّاكَ أَنْ تُطَاوِعَهَا ، فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ ٱلزَّوَالِ ، فَإِنْ أَذْعَنْتَ لَهَا ، وَتَرَكْتَ هَذَا ٱلْجَاهَ ٱلْعَرِيضَ ، وَٱلشَّأْنَ ٱلْمَنْظُومَ ٱلْخَالِيَ عَنِ ٱلتَّكْدِيرِ وَٱلتَّنْغِيصِ ، وَٱلْأَمْنَ ٱلسِّلْمَ ٱلصَّافِيَ عَنْ مُنَازَعَةِ ٱلْخُصُومِ ، رُبَّمَا ٱلْتَفَتَتْ إِلَيْهِ نَفْسُكَ ، وَلَا يَتَيَسَّرُ لَكَ ٱلْمُعَاوَدَةُ .

فَلَمْ أَزَلْ أَتَرَدَّدُ بَيْنَ تَجَاذُبِ شَهَوَاتِ ٱلدُّنْيَا ، وَدَوَاعِي ٱلْآخِرَةِ ، قَرِيباً مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، أَوَّلُهَا رَجَبُ سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَفِي هَذَا ٱلشَّهْرِ جَاوَزَ ٱلْأَمْرُ حَدَّ ٱلِاخْتِيَارِ إِلَى ٱلِاضْطِرَارِ .

***

الالتجاء إلى الله

وَبَعْدَ أَنْ وَصَفَ ٱلْغَزَالِيُّ عِلَّتَهُ ٱلَّتِي كَانَ يَشْكُو مِنْهَا ، وَهِيَ - كَمَا أَسْلَفْنَا عَلَيْكَ - ٱلْعُقْلَةُ فِي ٱللِّسَانِ ، وَكَرَاهِيَةُ ٱلطَّعَامِ ، وَٱلِاسْتِسْلَامُ لِلْحُزْنِ وَٱلْهَمِّ ، ٱسْتَطْرَدَ قَائِلاً : ثُمَّ لَمَّا أَحْسَسْتُ بِعَجْزِي ، وَسَقَطَ بِٱلْكُلِّيَّةِ ٱخْتِيَارِي ، ٱلْتَجَأْتُ إِلَى ٱللهِ ٱلْتِجَاءَ ٱلْمُضْطَرِّ

ٱلَّذِى لاَ حِيلَةَ لَهُ ، فَأَجَابَنِى ٱلَّذِى يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ، وَسَهَّلَ عَلَىَّ ٱلْإِعْرَاضَ عَنِ ٱلْجَاهِ ، وَٱلْمَالِ وَٱلْأَوْلَادِ وَٱلْأَصْحَابِ ، وَأَظْهَرْتُ عَزْمَ ٱلْخُرُوجِ إِلَى مَكَّةَ ، وَأَنَا أُدِيرُ[1] فِى نَفْسِى سَفَرَ ٱلشَّامِ ، حَذَراً أَنْ يَطَّلِعَ ٱلْخَلِيفَةُ وَجُمْلَةُ ٱلْأَصْحَابِ عَلَى عَزْمِى فِى ٱلْمُقَامِ بِالشَّامِ ، فَتَلَطَّفْتُ بِلَطَائِفِ ٱلْحِيَلِ فِى ٱلْخُرُوجِ مِنْ بَغْدَادَ عَلَى عَزْمِ أَلاَّ أُعَاوِدَهَا أَبَدًا .

ذَلِكَ هُوَ بَيَانُ ٱلْغَزَالِىِّ نَفْسِهِ لِأَسْبَابِ خَرْجَتِهِ مِنْ بَغْدَادَ ، وَهُوَ كَمَا تَرَى يَجْعَلُهَا لِثَوْرَةٍ نَفْسِيَّةٍ ٱسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهِ ، وَنَزْعَةٍ جَدِيدَةٍ تَمَكَّنَتْ مِنْهُ ، وَقَدْ ذَهَبَ فِى تِلْكَ الاعْتِرَافَاتِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى ٱلتَّلْمِيحِ لِمَا كَانَ ٱلْبَعِيدُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ يَظُنُّونَهُ يَوْمَئِذٍ فِى أَمْرِ سَفَرِهِ ٱلْغَرِيبِ ، وَهُوَ أَنَّهُ كَانَ لِاسْتِشْعَارِهِ ٱلْإِعْرَاضَ مِنْ جِهَةِ ٱلْوُلاَةِ ، فَيَنْفِيهِ بِإِثْبَاتِ مَا كَانَ ٱلْقَرِيبُونَ يَشْهَدُونَهُ

(١) أدير : أحاول

مِنْ مَحَبَّةِ ٱلْوُلَاةِ لَهُ ، وَإِلْحَاحِهِمْ عَلَيْهِ فِي ٱلْبَقَاءِ ، وَإِنْ لَمْ يَتَعَرَّضْ هُوَ لِنَفْيِهِ .

***

سبب سياسى لخروجه من بغداد

عَلَى أَنَّ ٱلْعَلَّامَةَ مَاكْدُولَانْدَ قَدْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ كَانَ لِهَذَا ٱلسَّفَرِ سَبَبٌ سِيَاسِيٌّ ، أَوْ كَانَ مِنْ خَوْفٍ وَٱسْتِشْعَارٍ ، وَخَشْيَةِ ٱلْأَذَى ، فَقَدْ كَانَ ٱلْمَوْقِفُ ٱلسِّيَاسِيُّ يَوْمَئِذٍ حَرِجاً جِدَّ خَطِيرٍ ، وَكَانَتِ ٱلْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةً قَلِقَةً لَا تَبْعَثُ عَلَى ٱلِاطْمِئْنَانِ ، عَقِبَ وَفَاةِ نِظَامِ ٱلْمُلْكِ ٱلْوَزِيرِ ٱلسَّلْجُوقِيِّ ٱلْقَوِيِّ ٱلْمَبْسُوطِ ٱلسُّلْطَانِ ، وَمَمَاتِ ٱلسُّلْطَانِ « مَلِكْ شَاهْ » عَلَى إِثْرِهِ ، وَتَقَلُّدِ بَرْكِيَارُوقَ ٱلْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ ٱلْمَعْرُوفُ بِرُكْنِ ٱلدِّينِ أَبِي ٱلْمُظَفَّرِ ، وَفِي ٱلْعَامِ ذَاتِهِ تَوَلَّى ٱلْخِلَافَةَ ٱلْخَلِيفَةُ ٱلْمُسْتَظْهِرُ ، فَوَقَعَتِ ٱلْخُصُومَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَرْكِيَارُوقَ ، فَلَمَّا تَنَازَعَ هَذَا وَعَمُّهُ تُتُشُ ، ٱنْتَصَرَ ٱلْمُسْتَظْهِرُ لِعَمِّهِ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ لَمْ تَلْبَثِ ٱلدَّائِرَةُ أَنْ دَارَتْ عَلَى تُتُشٍ ، فَٱنْهَزَمَ وَقُتِلَ .

وَفِي ظُرُوفٍ كَهٰذِهِ ، يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَلِيفَةُ قَدْ طَوَى ٱلْجَوَانِحَ [١] عَلَى مَوْجِدَةٍ [٢]، وَيَسْتَتْبِعُ ذٰلِكَ أَنْ يَخْشَى أَئِمَّةُ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلْعُلَمَاءِ ٱلْكِبَارُ فِي ٱلدَّوْلَةِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ـ ٱلِاسْتِهْدَافَ [٣] لِنَقْمَتِهِ ، وَيَدْفَعُهُمُ ٱلْخَوْفُ إِلَى ٱلْحَذَرِ مِنْ هٰذَا ٱلظَّرْفِ وَشِدَّتِهِ .

وَجَرَتْ فِي ذٰلِكَ ٱلْحِينِ كَذٰلِكَ أَحْدَاثٌ سِيَاسِيَّةٌ أَدَّتْ إِلَى مُجَاذَبَاتٍ وَٱشْتِبَاكَاتٍ ، كَانَ ٱلْغَزَالِيُّ مُتَّصِلاً بِبَعْضِ شُؤُونِهَا ، فَقَدْ حَدَثَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ أَنِ ٱنْهَزَمَ ٱلْفُونْسُو مَلِكُ قَشْتَالَةَ أَوْ كَاسْتِيلَ ، ٱلَّذِي كَانَ يُعْرَفُ فِي أَسْبَانِيَا بِلَقَبِ ٱلسَّيِّدِ « كَامْبِيدُور » وَٱلَّذِي كَانَتْ وَفَاتُهُ عَامَ ثَلَاثَةٍ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ وَأَلْفٍ مِنَ ٱلْمِيلَادِ ، وَكَانَتْ هَزِيمَتُهُ فِي مَوْقِعَةِ ٱلزَّلَّقَةِ ، وَأَلْجَأَهُ أُمَرَاءُ ٱلْأَنْدَلُسِ ، أَوْ

---

(١) الجوانح : جمع جانحة : وهى الأضلاع تحت الترائب مما يلى الصدر .

(٢) على موجدة : أى على غضب (٣) الاستهداف : التعرض

رُؤَسَاءُ الطَّوَائِفِ ، إِلَى التَّقَهْقُرِ وَالْإِدْبَارِ ، وَقَدْ أَعَانَهُمْ عَلَيْهِ سُلْطَانُ الْمَغْرِبِ الْمُرَابِطُ يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينَ .

وَلَمَّا خَمَدَتْ وَقْدَةُ الْحَرْبِ ، رَجَعَ يُوسُفُ بْنُ تَاشِفِينَ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّهُ عَادَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ : فَأَلْحَقَ الْأَنْدَلُسَ بِسُلْطَانِهِ ، وَطَمِعَ فِي أَنْ يُلَقَّبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَيَرْوِي ابْنُ الْأَثِيرِ فِي تَارِيخِهِ الْكَامِلِ بِسَبِيلِ هَذَا الْحَادِثِ : أَنَّ عُلَمَاءَ عَصْرِهِ ، نَصَحُوا يَوْمَئِذٍ لَهُ ، أَنْ يَلْتَمِسَ الْإِذْنَ لَهُ بِاللَّقَبِ ، مِنَ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ ، حَتَّى يَصِحَّ وَيَثْبُتَ لَهُ ، فَفَعَلَ وَأَجَازَ لَهُ الْخَلِيفَةُ مَا أَرَادَ ، وَقَلَّدَهُ اللَّقَبَ الَّذِي طَلَبَ .

***

عمل سياسي يؤديه الغزالي

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ إِذَا صَحَّ أَنَّ ذَلِكَ قَدْ حَدَثَ بَعْدَ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ . وَهُوَ التَّارِيخُ الَّذِي عُيِّنَ فِيهِ الْغَزَالِيُّ لِلتَّدْرِيسِ فِي الْمَدْرَسَةِ النِّظَامِيَّةِ بِبَغْدَادَ ، وَكَانَ فِيهِ

ٱلْإِمَامَ ٱلْبَارِزَ فِي ٱلدَّوْلَةِ ، وَٱلْمُفْتِيَ ٱلْعَلَمَ فِي مُسْنَدِ ٱلْإِفْتَاءِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ طَلَبُ ٱبْنِ تَاشِفِينَ قَدْ عُرِضَ عَلَيْهِ ، لِيُصْدِرَ فِيهِ فَتْوَاهُ ، إِذْ لَا يُفْتِي أَحَدٌ فِي طَلَبٍ كَهَذَا مُتَعَلِّقٍ بِلَقَبِ سِيَادَةٍ شَرْعِيَّةٍ فِي بَعْضِ نَوَاحِي ٱلْمَمْلَكَةِ غَيْرَ ٱلْأَئِمَّةِ وَٱلْعُلَمَاءِ .

وَقَدْ ذَكَرَ ٱبْنُ خَلْدُونَ فِي هَذَا ٱلْمَعْرِضِ ، أَنَّ ٱبْنَ تَاشِفِينَ ٱسْتَفْتَى عُلَمَاءَ مِنْ غَيْرِ ٱلْمَغْرِبِ ، وَكَانَ مِنْهُمُ ٱلْغَزَالِيُّ وَٱلطُّرْطُوشِيُّ ، فَأَفْتَوْهُ بِحَقِّهِ فِي طَلَبِهِ ، وَخَلْعِ رُؤَسَاءِ ٱلطَّوَائِفِ ، وَبَعَثَ ٱلْخَلِيفَةُ إِلَيْهِ بِأَمْرِ ٱلتَّقْلِيدِ .

***

عمل آخر يتصل بالسياسة

وَهَذَا هُوَ عَلَى ٱلْأَقَلِّ عَمَلٌ سِيَاسِيٌّ ، رَأَيْنَا ٱلْغَزَالِيَّ مُشَارِكًا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِيهِ . وَلَكِنْ كَانَ هُنَاكَ حَادِثٌ آخَرُ ، ظَهَرَ فِيهِ ٱشْتِرَاكُهُ فِي ٱلدِّعَايَةِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ ، نُزُولًا عَلَى إِرَادَةِ ٱلدَّوْلَةِ ، وَحُكْمِ ٱلْوِلَايَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْخَلِيفَةَ ٱلْمُسْتَظْهِرَ ، عَهِدَ إِلَيْهِ عَقِبَ وِلَايَتِهِ ٱلْحُكْمَ بِأَنْ يَضَعَ ٥

كِتاباً يَرُدُّ بِهِ عَلَى مَذْهَبِ ٱلتَّعْلِيمِيَّةِ ، كَمَا كَانَ ٱلْبَاطِنِيَّةُ أَوِ ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّةُ يُسَمَّوْنَ فِي خُرَاسَانَ ، وَكَانَ شَأْنُ هَذِهِ ٱلْفِرْقَةِ قَدْ بَدَأَ يَأْخُذُ صِبْغَةً (١) سِيَاسِيَّةً ، بَعْدَ أَنْ كَانَ بَدْءُ ظُهُورِ هَذَا ٱلْمَذْهَبِ دِينِيًّا خَالِصاً ، يَقُولُ : إِنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً ، وَلِكُلِّ شَرْعٍ تَأْوِيلاً ، وَلَكِنَّ أَصْحَابَهُ رَاحُوا بَعْدَ ذَلِكَ يَتَحَدَّوْنَ ٱلْخَلْقَ « بِالْإِمَامِ ٱلْمَعْصُومِ » وَكَانَ هَذَا يَتَهَدَّدُ مَرْكَزَ ٱلْخِلَافَةِ ، لِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ ٱلتَّعَالِيمِ ، وَبِخَاصَّةٍ فِكْرَةُ ٱلْإِمَامَةِ .

وَقَدْ شَهِدَ ٱلْغَزَالِيُّ فِي ٱعْتِرَافَاتِهِ بِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُمْ ، إِلَّا لِأَنَّهُ وَرَدَ عَلَيْهِ أَمْرٌ جَازِمٌ مِنْ حَضْرَةِ ٱلْخَلِيفَةِ ، بِتَصْنِيفِ كِتَابٍ يَكْشِفُ حَقِيقَةَ مَذْهَبِهِمْ ، فَلَمْ يَسَعْهُ مُدَافَعَتُهُ .

***

تصوفه

وَخَرَجَ ٱلْغَزَالِيُّ مِنْ بَغْدَادَ وَهُوَ مُتَأَثِّرٌ بِنَزْعَتِهِ

(١) صبغة سياسية : لونا سياسيا.

ٱلْجَدِيدَةِ ، فَكَانَ ٱعْتِزَالُهُ ٱلْحَيَاةَ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةَ ، وَإِقْبَالُهُ عَلَى ٱلْخَلْوَةِ وَٱلْوَحْدَةِ وَٱلتَّفْكِيرِ فِى ٱللهِ ، وَٱحْتِقَارُهُ لِلدُّنْيَا ، وَتَوْدِيعُهُ ٱلْعَيْشَ ٱلنَّاضِرَ ٱلرَّخِىَّ ٱلرَّغِيدَ ، وَٱنْطِلَاقُهُ مِنَ ٱلْمَنْصِبِ ٱلرَّفِيعِ ٱلْمَجِيدِ ، كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ دَوْرًا خَطِيرًا فِى حَيَاتِهِ ، بَلْ ٱنْقِلَابًا عَظِيمَ ٱلْأَثَرِ ، وَتَحَوُّلًا بَعِيدَ ٱلْمَدَى .

وَقَدْ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِهِ ٱلْإِمَامُ ٱلْأَشْعَرِىُّ ، إِذْ عَادَ فِى سَنَةِ ثَلَثْمِائَةٍ إِلَى ٱلدِّينِ وَحُدُودِهِ ، لَاعِنًا ٱلْمُعْتَزِلَةَ ، مُتَسَخِّطًا عَلَيْهَا ، نَافِضًا يَدَهُ مِنْهَا ، وَلَكِنَّ ٱنْقِلَابَ ٱلْأَشْعَرِىِّ لَمْ يَكُنْ فِى مِثْلِ خَطَرِ ٱنْقِلَابِ ٱلْغَزَالِىِّ ، فَإِنَّ هَذِهِ ٱلدَّوْرَةَ ٱلْفُجَائِيَّةَ فِى حَيَاةِ أَبِى حَامِدٍ ، قَدْ فَتَحَتْ عَهْدًا جَدِيدًا فِى حَيَاةِ ٱلْإِسْلَامِ ، وَسَنُفْرِدُ لِعُزْلَةِ ٱلْغَزَالِىِّ ، وَتَطَوُّرَاتِ نَفْسِهِ وَعَقْلِيَّتِهِ فِى هَذِهِ ٱلْفَتْرَةِ فَصْلًا خَاصًّا فِيمَا يُسْتَأْخَرُ مِنْ فُصُولِ هَذَا ٱلْكِتَابِ .

***

تجواله فى المدائن

غَادَرَ أَبُو حَامِدٍ بَغْدَادَ وَقَصَدَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ [١] وَأَدَّى فَرِيضَةَ ٱلْحَجِّ .

وَدَخَلَ دِمَشْقَ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ ، وَهُوَ خِلَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، يَعِيشُ عَيْشَ ٱلتَّقَشُّفِ ، وَيَحْيَا حَيَاةَ ٱلزُّهْدِ وَٱلْوَرَعِ ، وَيَقُولُ ٱلْمَقْرِيزِيُّ فِي «ٱلْمُقَفَّى» : إِنَّهُ جَعَلَ - وَهُوَ فِي دِمَشْقَ - يَعْكُفُ فِي زَاوِيَةٍ فِي مَنَارَةِ ٱلْجَامِعِ ٱلْأُمَوِيِّ ، وَيَلْبَسُ ٱلثِّيَابَ ٱلْخَشِنَةَ ، « وَيَتَقَلَّلُ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ » وَٱعْتَزَلَ ٱلنَّاسَ ، وَأَخَذَ فِي تَصْنِيفِ كِتَابِهِ « إِحْيَاءِ ٱلْعُلُومِ » وَذَهَبَ يَطُوفُ ٱلْمَشَاهِدَ ، وَيَزُورُ ٱلتُّرَبَ وَٱلْمَسَاجِدَ ، وَيَرُوضُ [٢] نَفْسَهُ عَلَى ٱلْمُجَاهَدَاتِ ، وَيُكَلِّفُهَا مَشَاقَّ ٱلْعِبَادَاتِ ، إِلَى أَنْ لَانَ لَهُ صَعْبُهَا ، وَسَهُلَ لَهُ بَعْدُ ضِيقُ رَحْبِهَا ، وَكَانَ يُكْثِرُ ٱلْجُلُوسَ بِزَاوِيَةِ ٱلشَّيْخِ نَصْرٍ ٱلْمَقْدِسِيِّ بِالْجَامِعِ

---

(١) هذا ما رأينا إجماع المراجع عليه . ولكن ما كدولاند يخالفها - ويذكر أن الغزالى لم يحج بعد رحيله عن بغداد مباشرة . وإنما قصد إلى الحج بعد زيارة بيت المقدس (٢) يروض : يعود

ٱلْأَمَوِيِّ ، فَعُرِفَتْ بِالْغَزَالِيَّةِ مِنْ ذَلِكَ ٱلْوَقْتِ ، وَكَانَتْ مِنْ قَبْلُ تُدْعَى ٱلنَّاصِرِيَّةَ ، وَهِيَ بِقُرْبِ بَابِ ٱلرَّحْمَةِ ، وَأَقَامَ نَحْوًا مِنْ عَشْرِ سِنِينَ .

***

ابتداء تأليفه

وَخِلَالَ هَذِهِ ٱلْفَتْرَةِ ، وَضَعَ أُمَّهَاتِ كُتُبِهِ وَتَوَالِيفِهِ ، وَمِنْهَا إِحْيَاءُ عُلُومِ ٱلدِّينِ » وَهَـذَا مَا ٱجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ ٱلَّذِينَ تَحَدَّثُوا عَنِ ٱلْغَزَالِيِّ مِنْ مُتَقَدِّمِي ٱلْمُؤَرِّخِينَ ، كَابْنِ ٱلْأَثِيرِ ، وَٱبْنِ ٱلذَّهَبِيِّ ، وَأَبِي ٱلْقَاسِمِ بْنِ عَسَاكِرَ مُؤَلِّفِ تَارِيخِ دِمَشْقَ ، ٱلَّذِي تُوُفِّيَ سَنَةَ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ ، وَعَبْدِ ٱلْغَافِرِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ ٱلْفَارِسِيِّ خَطِيبِ نَيْسَابُورَ ، وَكَانَ صَاحِباً لَهُ ، وَأَحَدَ مُعَاصِرِيهِ .

***

العودة الى الوطن

وَعَادَ ٱلْغَزَالِيُّ إِلَى وَطَنِهِ خُرَاسَانَ ، فَعَاشَ حِيناً مِنَ ٱلدَّهْرِ فِي عُزْلَةٍ ، مُنْتَبِذاً ٱلنَّاسَ ، مُنْهَمِكاً فِي ٱلتَّأَمُّلِ وَٱلْمُجَاهَدَةِ وَٱلتَّفْكِيرِ ، وَلَكِنَّهُ كُلَّمَا حَاوَلَ مِنَ ٱلنَّاسِ فِرَاراً ٱلْتَمَسُوهُ

لِيَأْخُذُوا عَنْهُ ، وَيَطْلُبُوا ٱلْعِلْمَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ فَخْرُ ٱلْمُلْكِ عَلِيُّ ٱبْنُ نِظَامِ ٱلْمُلْكِ جَمَالُ ٱلشُّهَدَاءِ ، قَدْ صَارَ وَزِيرًا لِسِنْجَرَ بْنِ «مَلِكْشَاهْ» فِي نَيْسَابُورَ ، بَعْدَأَنْ وَزَرَ مِنْ قَبْلِهِ لِبَرْكِيَارُوقَ ، فَعَهِدَ فَخْرُ ٱلْمُلْكِ إِلَى أَبِي حَامِدٍ بِالتَّدْرِيسِ فِي ٱلْمَدْرَسَةِ ٱلنِّظَامِيَّةِ ، وَقَدْ مَاتَ ٱلْوَزِيرُ فَخْرُ ٱلْمُلْكِ قَتِيلاً مِنْ يَدِ أَحَدِ ٱلْبَاطِنِيَّةِ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ سَنَةَ خَمْسِمِائَةٍ هِجْرِيَّةً ، فَلَعَلَّ أَقْرَبَ تَارِيخٍ مِنَ ٱلصَّحِيحِ لِمُعَاوَدَةِ ٱلْغَزَالِيِّ ٱلتَّدْرِيسَ فِي ٱلْمَدْرَسَةِ ٱلنِّظَامِيَّةِ ، هُوَ ذُو ٱلْقَعْدَةِ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ .

وَقَدْ قِيلَ أَيْضاً إِنَّهُ فِي ٱلسَّنَوَاتِ ٱلْعَشْرِ ٱلَّتِي قَضَاهَا فِي ٱلْعُزْلَةِ وَٱلنُّسُكِ وَٱلطَّوَافِ وَٱلتَّجْوَابِ ، ذَهَبَ إِلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ حَيْثُ أَقَامَ فَتْرَةً مِنَ ٱلدَّهْرِ ، وَكَانَ يَنْتَوِي ٱلرَّحِيلَ مِنْهَا إِلَى ٱلسُّلْطَانِ يُوسُفَ بْنِ تَاشِفِينَ لِمَا بَلَغَهُ مِنْ عَدْلِهِ ، وَلِأَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ ٱلْفَتْوَى فِي تَقْلِيدِهِ لَقَبَ ٱلسَّلْطَنَةِ ٱلَّذِي أَرَادَهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا سَمِعَ بِوَفَاتِهِ ، عَادَ إِلَى

ٱلتَّجْوالِ فِي ٱلْآفَاقِ، وَٱلضَّرْبِ[1] فِي ٱلْأَمْصَارِ.

***

رفيقه في سفره

وَذَكَرَ مَاكْدُولاَنْدُ أَيْضاً: أَنَّ أَبَا حَامِدٍ كَانَ مُسْتَصْحِباً مَعَهُ فِي سَفَرِهِ وَتَجْوَالِهِ، مُنْذُ خَرَجَ مِنْ نَيْسَابُورَ وَرَحَلَ عَنْ بَغْدَادَ رَفِيقاً لَهُ، كَانَ يَأْخُذُ ٱلْعِلْمَ عَنْ إِمَامِ ٱلْحَرَمَيْنِ مَعَهُ، وَهُوَ أَبُو طَاهِرٍ إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْمُطَهَّرِ ٱلشَّبِينِيُّ، وَحَضَرَ مَعَهُ ٱلْعِرَاقَ وَٱلشَّامَ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَوْطِنِهِ فِي جُرْجَانَ، حَيْثُ رَاحَ يُعَلِّمُ وَيَعِظُ ٱلنَّاسَ، إِلَى أَنِ ٱسْتُشْهِدَ عَامَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

***

تلميذه في دمشق

وَقَدْ ذَكَرَ ٱلسَّيِّدُ مُرْتَضَى فِي كِتَابِهِ «ٱتْحَافِ ٱلسَّادَةِ ٱلْمُتَّقِينَ، فِي شَرْحِ إِحْيَاءِ عُلُومِ ٱلدِّينِ» تِلْمِيذاً آخَرَ لِلْغَزَالِيِّ، أَخَذَ عَلَيْهِ فِي دِمَشْقَ، وَلَازَمَهُ طِيلَةَ مُقَامِهِ، وَهُوَ أَبُو ٱلْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ٱلسَّلَمِيُّ، ٱلْمُلَقَّبُ بِجَمَالِ ٱلْإِسْلَامِ، وَقَدْ أَيَّدَ هَذِهِ ٱلرِّوَايَةَ ٱلْعَلَّامَةُ ٱلْمُسْتَشْرِقُ

(١) من ضرب فى الأرض: خرج ذاهبا

ٱلْأَلْمَانِيُّ « مِهْرِنْ » فِي بَحْثِهِ عَنِ ٱلْغَزَالِيِّ ، وَرَوَى أَنَّ ٱلْغَزَالِيَّ حِينَمَا غَادَرَ ٱلشَّامَ قَالَ : « خَلَّفْتُ بِالشَّامِ شَابًّا إِنْ عَاشَ كَانَ لَهُ شَأْنٌ » يُرِيدُ جَمَالَ ٱلْإِسْلَامِ .

***

فى بغداد

وَذَكَرَ ٱلْمَقْرِيزِيُّ فِي « ٱلْمُقَفَّى » أَنَّ أَبَا حَامِدٍ رَجَعَ إِلَى بَغْدَادَ وَعَقَدَ بِهَا مَجَالِسَ لِلْوَعْظِ ، وَتَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِ أَهْلِ ٱلْحَقِيقَةِ بِكَلَامٍ أَطْرَبَ ٱلْأَنَامَ ، وَأَعْجَبَ ٱلْخَاصَّ وَٱلْعَامَّ ، وَحَدَّثَ بِكِتَابِ ٱلْإِحْيَاءِ وَغَيْرِهِ مِنْ مُصَنَّفَاتِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ إِسْنَادٌ ، وَلَا طَلَبَ شَيْئًا مِنَ ٱلْحَدِيثِ .

***

فى خراسان

وَعَادَ ٱلْغَزَالِيُّ إِلَى خُرَاسَانَ ، وَدَرَّسَ بِالْمَدْرَسَةِ ٱلنِّظَامِيَّةِ بِنَيْسَابُورَ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى طُوسٍ ، وَكَانَ شَدِيدَ ٱلْحَنِينِ إِلَيْهَا بَعْدَ طُولِ غِيَابٍ ، وَقَدْ كَانَتْ رُجْعَاهُ إِلَيْهَا - بَعْدَ تِلْكَ ٱلْعُزْلَةِ ٱلْمُسْتَطِيلَةِ ، وَٱلتَّطْوَافِ ٱلدَّائِبِ ، وَٱلتَّنَقُّلِ فِي أَدْوَارٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ ٱلتَّفْكِيرِ بَيْنَ ٱلْحَيْرَةِ وَٱلتَّرَدُّدِ ، وَٱلْإِرْتِبَاكِ وَٱلتَّشَكُّكِ ،

ثُمَّ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ - رَجْعَةَ رَجُلٍ جَدِيدٍ ، جَرَّبَ كَثِيرًا ، وَامْتَحَنَ الْعَقْلَ فِي أَكْثَرِ نَوَاحِي تَفْكِيرِهِ ، وَأَغْلَبِ اتِّجَاهَاتِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَسْتَقِرَّ ، وَلَمَّا يَحْمَدِ السُّرَى[1] عِنْدَ الصَّبَاحِ .

***

محاربته للفلسفة

كَانَ الْغَزَالِيُّ فِي تَطْوَافِهِ فِي مُخْتَلِفِ أَقْطَارِ الْفِكْرِ ، وَآفَاقِ الْعِلْمِ ، قَدْ جَرَّبَ الْفَلْسَفَةَ فَلَمْ تَرُقْهُ إِذْ وَجَدَهَا نَاقِصَةً لَا تُوفِي إِلَى غَايَةٍ ، وَلَا تَهْدِي إِلَى يَقِينٍ ، وَلَا تَنْقَعُ[2] غُلَّةَ الصَّدْيَانِ ، وَلَا تَشْفِي عَطَشَ الظَّمْآنِ ، فَمَا زَالَ يُقَارِعُ[3] مَذَاهِبَ الْفَلْسَفَةِ حَتَّى صَرَعَهَا ، وَانْثَنَى عَنْهَا مُعْرِضًا ، وَمَا وَنَى فِي مُحَارَبَتِهَا بِأَسْلِحَتِهَا ، حَتَّى تَرَكَهَا جَرْحَى دَامِيَةً ،

***

وَلَقَدْ بَلَغَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي تَوَلَّى فِيهِ الرَّدَّ عَلَى الْفَلَاسِفَةِ ، دافيد هيوم

---

(١) السرى : سير عامة الليل . وابن السرى : المسافر ليلا

(٢) تنقع : تشفى وغلة الصديان : شدة العطش وحرارته .

(٣) يقارع : يقاوم بالأدلة .

وَهُوَ « ٱلتَّهَافُتُ » أَقْصَى حُدُودِ ٱلشَّكِّ ، فَسَبَقَ زَعِيمَ ٱلْفَلَاسِفَةِ ٱلشَّكِّيِّينَ ، وَهُوَ « دَافِيدْ هِيُومْ » بِسَبْعِمِائَةِ سَنَةٍ ، فِي ٱلرَّدِّ عَلَى نَظَرِيَّةِ ٱلْعِلَّةِ وَٱلْمَعْلُولِ ، وَقَدْ وَعَى مِنْ قَبْلُ عُلُومَ ٱلدِّينِ ، فَلَمْ يَرْتَضِ عَقْلُهُ ٱلِانْصِيَاعَ لِلتَّقْلِيدِ ، وَلَمْ يَقْبَلْ أَخْذَ ٱلْقَضَايَا مَأْخَذَ ٱلتَّسْلِيمِ .

***

دراسة الحديث

وَقَدْ عَادَ أَبُو حَامِدٍ إِلَى طُوسٍ ، مُزْمِعًا سَفَرًا فِكْرِيًّا جَدِيدًا ، مُعْتَزِمًا سِيَاحَةً فِي ٱلدِّينِ طَرِيفَةً [1] فَرِيدَةً ، وَذَلِكَ أَنْ يَتَوَفَّرَ عَلَى دِرَاسَةِ ٱلْحَدِيثِ ، وَٱلنَّظَرِ فِي ٱلسِّيرَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ . وَمَا نَحْسَبُهُ قَدْ عَالَجَ دِرَاسَتَهَا مِنْ قَبْلُ ، وَلَا أَطَالَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا خِلَالَ شَبِيبَتِهِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ إِمَامُ ٱلْحَرَمَيْنِ أَبُو ٱلْمَعَالِي ٱلْجُوَيْنِيُّ أُسْتَاذُهُ ٱلْأَوَّلَ ، قَدْ ٱخْتَصَّ بِهَذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلدِّرَاسَةِ ، وَلَمْ يَتَبَحَّرْ فِي هَذَا ٱلضَّرْبِ مِنَ ٱلْبُحُوثِ .

---

(١) الطريفة مؤنث الطريف : والطريف : الحديث المكتسب الغريب أى حديثة جديدة

***

الاخلاد الى الصوفية

وَقَدْ ذَكَرَ ٱلسُّبْكِيُّ فِي كِتَابِ « ٱلطَّبَقَاتِ » ، كَمَا أَشَارَ ٱلْمَقْرِيزِيُّ فِي « ٱلْمُقَفَّى » أَنَّ ٱلْغَزَالِيَّ عِنْدَ مَآبِهِ إِلَى طُوسٍ ، ٱتَّخَذَ إِلَى جَانِبِ دَارِهِ مَدْرَسَةً لِلْفُقَهَاءِ ، وَخَانْقَاهْ[1] لِلصُّوفِيَّةِ ، وَوَزَّعَ أَوْقَاتَهُ عَلَى وَظَائِفَ ، مِنْ خَتْمِ ٱلْقُرْآنِ ، وَمُجَالَسَةِ أَرْبَابِ ٱلْقُلُوبِ ، وَٱلتَّدْرِيسِ لِطَلَبَةِ ٱلْعِلْمِ ، وَإِدَامَةِ ٱلصِّيَامِ وَٱلصَّلَاةِ وَٱلْعِبَادَةِ ، وَٱسْتَدْعَى أَبَا ٱلْفَتْيَانِ عُمَرَ بْنَ أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱلرُّوسَانِيَّ ٱلدِّهِسْتَانِيَّ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى طُوسٍ ، فَأَكْرَمَهُ وَقَرَأَ عَلَيْهِ صَحِيحَ ٱلْبُخَارِيِّ ، وَصَحِيحَ مُسْلِمٍ .

***

ضعف صحته

وَكَانَتْ حِدَّةُ ذَكَائِهِ ، وَطُولُ إِكْبَابِهِ عَلَى ٱلْعِلْمِ وَٱلدَّرْسِ ، وَشِدَّةُ حِرْمَانِهِ ٱلنَّفْسَ مُتَعَ ٱلْحَيَاةِ ، وَحَمْلُهُ عَلَيْهَا بِأَقْسَى ضُرُوبِ ٱلتَّجْرِبَةِ وَٱلِامْتِحَانِ ، وَإِمْعَانُهُ فِي ٱلضَّرْبِ فِي ٱلْأَرْضِ ، وَٱلْإِلْحَاحِ فِي ٱلطَّوَافِ وَٱلتَّجْوَالِ

(١) الخانقاه : التى نقول عنها بالعامى «الخانكة» أى ملجأ أوتكية.

قَدْ نَهَكَتْ قُوَاهُ وَأَضْنَتْ بَدَنَهُ ، وَأَتْلَفَتْ صِحَّتَهُ ، وَاسْتَنْفَدَتْ مُنَّتَهُ[١] ، ثُمَّ لَمْ تَكُنْ حَيَاتُهُ فِي طُوسٍ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ حَيَاةَ سَكِينَةٍ وَسَلَامٍ ، فَقَدْ حَدَّثَنَا تِلْمِيذُهُ وَصَاحِبُهُ الْوَفِيُّ الصَّادِقُ عَبْدُ الْغَافِرِ كَيْفَ أَنَّ عَيْشَهُ يَوْمَئِذٍ كَانَ غَائِمَ الْأُفُقِ ، مُكْفَهِرَّ الصَّفْحَةِ ، كَدِرًا مُرَنَّقًا غَشِيَهُ الْجَدَلُ وَالْخِصَامُ ، وَالْحَسَدُ وَالنَّمِيمَةُ وَالْوَقِيعَةُ[٢] وَالدَّسُّ وَالْكَيْدُ ، وَنَحْسَبُ ذَلِكَ قَدْ بَدَأَ يَصْطَلِحُ عَلَيْهِ مِنْ نَاحِيَةِ حُسَّادِهِ ، وَالنَّافِسِينَ عَلَيْهِ مُنْذُ نَزَلَ بِنَيْسَابُورَ . بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنْ عُزْلَتِهِ ، وَنُرَجِّحُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ أَيْضًا هُوَ سَبَبَ نُقْلَتِهِ مِنْهَا إِلَى طُوسٍ .

***

نفوره من البيئة

وَقَدْ رَوَى السَّمْعَانِيُّ : فِي كِتَابِهِ « الْأَنْسَابِ » قِصَّةً تَلُوحُ لَنَا أَنَّهَا مِصْدَاقٌ لِمَا تَحَدَّثَ بِهِ تِلْمِيذُ أَبِي حَامِدٍ وَصَاحِبُهُ وَخَلِيطُهُ الْأَمِينُ عَبْدُ الْغَافِرِ .

يَقُولُ السَّمْعَانِيُّ سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ الْفَضْلَ بْنَ الْحَسَنِ

(١) منته : أى قوته . (٢) الوقيعة . اغتياب الناس

ٱبْنِ عَلِيٍّ ٱلْمُقْرِى مُذَاكَرَةً - بِمَرْوٍ يَقُولُ: دَخَلْتُ عَلَى ٱلْإِمَامِ أَبِى حَامِدٍ مُوَدِّعاً ، فَقَالَ لِى: ٱحْمِلْ هَذَا ٱلْكِتَابَ إِلَى ٱلْمُعِينِ أَبِى ٱلْقَاسِمِ ٱلْبَيْهَقِيِّ ، ثُمَّ قَالَ: وَفِيهِ شِكَايَةٌ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْمُتَوَلِّى لِلْأَوْقَافِ بِطُوسٍ . وَكَانَ ٱبْنَ أَخِى ٱلْمُعِينِ ، فَقُلْتُ لَهُ: كُنْتُ بِهَرَاةَ عِنْدَ عَمِّهِ ٱلْمُعِينِ، وَكَانَ ٱلْعَمَّانُ ٱلطُّوسِىُّ جَاءَ بِمَحْضَرٍ فِى ٱلثَّنَاءِ عَلَى ٱلْعَزِيزِ وَعَلَيْهِ خَطُّكَ ،وَكَانَ عَمُّهُ قَدْ طَرَدَهُ وَهَجَرَهُ،فَلَمَّا رَأَى خَطَّكَ وَثَنَاءَكَ عَلَيْهِ ، قَرَّبَهُ وَرَضِىَ عَنْهُ ، فَقَالَ ٱلْإِمَامُ ٱلْغَزَالِىُّ: سَلِّمِ ٱلْكِتَابَ إِلَى ٱلْمُعِينِ وَٱقْرَأْ عَلَيْهِ هَذَا ٱلْبَيْتَ:

وَلَمْ أَرَ ظُلْماً مِثْلَ ظُلْمٍ يَنَالُنَا
يُسَاءُ إِلَيْنَا ثُمَّ نُؤْمَرُ بِالشُّكْرِ

***

وفاته

وَكَانَتْ وَفَاةُ ٱلْإِمَامِ أَبِى حَامِدٍ ٱلْغَزَالِىِّ بِطُوسٍ يَوْمَ ٱلِاثْنَيْنِ رَابِعَ عَشَرَ جُمَادَى ٱلْآخِرَةِ سَنَةَ خَمْسٍ وَخَمْسِمِائَةٍ ٱلْمُوَافِقَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِنْ دِيسَمْبَرْ سَنَةَ أَلْفٍ وَمِائَةٍ وَإِحْدَى

عَشْرَةَ مِيلادِيَّةً ، وَقَدْ وَصَفَ أَخُوهُ أَحْمَدُ ، كَيْفَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ ؟ وَنَقَلَ هَذِهِ الرِّوَايَةَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي كِتَابِهِ « الثَّبَاتِ عِنْدَ الْمُمَاتِ »

***

وصف منيته

وَنَحْنُ نَاقِلُونَ هُنَا هَذَا الْوَصْفَ الرَّائِعَ لِوَفَاةِ رَجُلٍ عَظِيمٍ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ الاثْنَيْنِ وَقْتَ الصُّبْحِ ، تَوَضَّأَ أَخِي أَبُو حَامِدٍ وَصَلَّى وَقَالَ : عَلَيَّ بِالْكَفَنِ فَأَخَذَهُ وَقَبَّلَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى عَيْنَيْهِ وَقَالَ : سَمْعًا وَطَاعَةً لِلدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ ، ثُمَّ مَدَّ رِجْلَيْهِ ، وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ، وَمَاتَ قَبْلَ الإِسْفَارِ ، وَسُبْحَانَ مَنْ لَهُ الْبَقَاءُ .

وَدُفِنَ الإِمَامُ فِي ظَاهِرِ الطَّابَرَانِ وَهِيَ قَلْعَةٌ فِي خَارِجِ الْمَدِينَةِ ، وَقَدْ رَوَى السَّمْعَانِيُّ أَنَّهُ زَارَ قَبْرَهُ بِهَا .

وَيَرَى الْعَلاَّمَةُ مَاكْدُولاَنْدُ أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ الرَّائِعَةَ ، عَلَى بَسَاطَتِهَا لِمَشْهَدِ مَنِيَّتِهِ وَمَحْضَرِ آخِرَتِهِ ، وَوَدَاعِ دُنْيَاهُ ، لَمْ تُرْضِ خَيَالَ الْمُتَخَيِّلِينَ ، وَلَمْ تَرُقْ تَصَوُّرَاتِ

ٱلْمُتَصَوِّرِينَ ، فَاخْتُرِعَتْ لِذَلِكَ اخْتِرَاعَاتٌ ، وَرُسِمَتْ صُوَرٌ لَهَا وَتَخَيُّلَاتٌ ، إِرْضَاءً لِلْعَاطِفَةِ ، وَمُبَالَغَةً فِي إِظْهَارِ ٱلْكَرَامَةِ وَسَذَاجَةِ رُوحِ ٱلْإِجْلَالِ .

***

دفنه وما قيل فيه

مِنْ ذَلِكَ مَارَوَى ٱلزَّبِيدِيُّ قَالَ : وَجَدْتُ فِي كِتَابِ بَهْجَةِ ٱلنَّاظِرِينَ وَأُنْسِ ٱلْعَارِفِينَ ، لِلْعَارِفِ بِاللهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَظِيمِ ٱلزَّمُورِيِّ مَانَصُّهُ : وَمِمَّا حَدَّثَنَا بِهِ مَنْ أَدْرَكْنَا مِنَ ٱلْمَشْيَخَةِ أَنَّ ٱلْإِمَامَ أَبَا حَامِدٍ ٱلْغَزَالِيَّ لَمَّا حَضَرَتْهُ ٱلْوَفَاةُ أَوْصَى رَجُلًا مِنْ أَهْلِ ٱلْفَضْلِ وَٱلدِّينِ كَانَ يَخْدُمُهُ ، أَنْ يَحْفِرَ قَبْرَهُ فِي مَوْضِعِ بَيْتِهِ ، وَيَسْتَوْصِيَ أَهْلَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي كَانَتْ قَرِيبَةً إِلَى مَوْضِعِهِ ذَلِكَ ، بِحُضُورِ جَنَازَتِهِ ، وَأَلَّا يُبَاشِرَهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقْبِلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِنَ ٱلْفَلَاةِ بِبِلَادِ ٱلْعِرَاقِ ، يُغَسِّلُهُ ٱثْنَانِ مِنْهُمَا ، وَيَتَقَدَّمُ ٱلثَّالِثُ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ بِغَيْرِ أَمْرٍ وَلَا مَشُورَةٍ ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ فَعَلَ ٱلْخَادِمُ كُلَّ مَا أَمَرَهُ بِهِ ، وَحَضَرَ ٱلنَّاسُ ، فَلَمَّا ٱجْتَمَعُوا لِحُضُورِ

جنازته رأوا ثلاثة رجال خرجوا من الفلاة . فعمد اثنان منهم إلى غسله ، واختفى الثالث ولم يظهر ، فلما غسل وأدرج في أكفانه ، وحملت جنازته على شفير قبره ، ظهر الثالث ملتفًا في كسائه ، وفي جانبه علم أسود ، معممًا بعمامة صوف ، وصلى عليه ، وصلى الناس بصلاته ، ثم سلم وانصرف ، وتوارى عن الناس . وكان بعض الفضلاء من أهل العراق ممن حضر الجنازة ميزه بصفاته ولم يعرفه إلى أن سمع بعضهم بالليل هاتفًا ينادي ، إن ذلك الرجل الذي صلى بالناس هو الشيخ أبو عبد الله محمد ابن إسحاق الشريف ، الذي جاء من المغرب الأقصى من عين القطر ، وأن اللذين غسلاه هما صاحباه ، أبو شعيب أيوب بن سعيد بن الزمور ، وأبو عيسى وصيه .

وقد راجت بعد وفاته روايات وأقاصيص عن كراماته ، لم نشأ أن نتعرض لها في هذا الباب .

***

مجدد القرن الخامس

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ حُجَّةَ الْإِسْلَامِ أَبَا حَامِدٍ الْغَزَالِيَّ قَدْ أَحْدَثَ دَوِيًّا فِي عَصْرِهِ ، وَتَرَكَ أَثَرًا بَاقِيًا مِنْ بَعْدِهِ حَتَّى عُدَّ عِنْدَ كَثِيرٍ «مُجَدِّدَ الْقَرْنِ الْخَامِسِ» أَخَذُوا ذَلِكَ مِنْ حَدِيثٍ أُسْنِدَ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا أَمْرَ دِينِهَا - قَالَ الْعِرَاقِيُّ وَغَيْرُهُ : إِنَّ سَنَدَهُ صَحِيحٌ - أَيْ يُقَيِّضُ لَهَا عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ مِنَ الْهِجْرَةِ أَوْ غَيْرِهَا رَجُلًا كَانَ أَوْ أَكْثَرَ يُبَيِّنُ السُّنَّةَ مِنَ الْبِدْعَةِ ، وَيُكْثِرُ الْعِلْمَ ، وَيَنْصُرُ أَهْلَهُ ، وَيُذِلُّ أَهْلَ الْبِدْعَةِ ، قَالُوا وَلَا يَكُونُ إِلَّا عَالِمًا بِالْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ ، الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، فَكَانَ فِي الْمِائَةِ الْأُولَى عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَفِي الثَّانِيَةِ الشَّافِعِيُّ ، وَفِي الثَّالِثَةِ الْأَشْعَرِيُّ أَوِ ابْنُ سُرَيْجٍ ، وَفِي الرَّابِعَةِ الْإِسْفَرَايِينِيُّ أَوِ الصُّعْلُوكِيُّ أَوِ الْبَاقِلَانِيُّ. وَفِي الْخَامِسَةِ حُجَّةُ الْإِسْلَامِ الْغَزَالِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (١) .

(١) هكذا فى الاتحاف .

عُزْلَتُهُ وَاعْتِرَافَاتُهُ

فترة روحية

تَقَدَّمَ لَكَ فِي حَدِيثِنَا بِسَبِيلِ حَيَاةِ الْإِمَامِ أَبِي حَامِدٍ وَسِيرَتِهِ ، أَنَّهُ بَعْدَ مَرَضٍ فَجَأَهُ فَحَبَسَ لِسَانَهُ ، وَعَقَلَ بَيَانَهُ ، وَبَغَّضَ إِلَيْهِ الطَّعَامَ ، اعْتَمَلَتْ[1] فِي نَفْسِهِ ثَوْرَةٌ مُتَمَرِّدَةٌ طَاغِيَةٌ ، مَلَكَتْ عَلَيْهِ وُجْدَانَهُ ، وَحَفَزَتْهُ إِلَى تَرْكِ الِاشْتِغَالِ بِأَمْرِ الدُّنْيَا إِلَى الِانْقِطَاعِ وَالِاشْتِغَالِ بِالْآخِرَةِ ، فَكَانَتْ تِلْكَ الْعُزْلَةُ الطَّوِيلَةُ الْأَمَدِ ، الَّتِي طَافَ فِيهَا الْبِلَادَ وَالْأَمْصَارَ ، تَطْوَافَ الشَّارِدِ الْهَائِمِ لَا يَرِيمُ[2] وَلَا يَجْلُدُ[3] فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ عَلَى الْبَقَاءِ .

وَنَحْنُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنَ الْكِتَابِ ، نُحِبُّ أَنْ نَقِفَ قَلِيلاً عِنْدَ هَذَا الدَّوْرِ الْخَطِيرِ مِنْ حَيَاتِهِ ، لِنَعْرِضَ لَكَ أَثَرَ هَذِهِ الْعُزْلَةِ فِي نَفْسِهِ وَمَبْلَغَ سُلْطَانِهَا عَلَى خَاطِرِهِ ، وَالثَّمَرَ الَّذِي أَثْمَرَتْهُ ، فَانْتَفَعَ النَّاسُ بِهَا ، وَلَا يَزَالُونَ مُنْتَفِعِينَ .

---

(١) اعتملت اضطربت (٢) لا يريم : لا يفارق ولا يترك (٣) لا يجلد : لا يصبر

لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ ٱلْفَتْرَةُ مِنْ حَيَاتِهِ هِيَ فَتْرَةً رُوحِيَّةً صَافِيَةً مِنْ أَكْدَارِ ٱلدُّنْيَا ، نَقِيَّةً مِنْ شَوَائِبِ ٱلْمَادَّةِ ، فَقَدْ أَقْبَلَ فِيهَا عَلَى مَذْهَبِ ٱلصُّوفِيَّةِ يَعُبُّ[1] مِنْهُ عَبًّا ، وَيَنْدَمِجُ فِيهِ ٱنْدِمَاجًا ، وَلَمْ تَقْتَصِرْ صُوفِيَّتُهُ عَلَى ٱلنَّظَرِ ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ صُوفِيَّةً عَمَلِيَّةً ، تَجَرَّدَ لَهَا وَأَكَبَّ عَلَيْهَا وَأَلَحَّ فِيهَا أَشَدَّ ٱلْإِلْحَاحِ .

***

فذلكة صوفية

وَلَمْ تَكُنْ ٱلصُّوفِيَّةُ مَذْهَبًا جَدِيدًا يَوْمَئِذٍ ، وَلَا طَرِيقَةً فِي ٱلْعِبَادَةِ طَارِئَةً ، وَلَكِنَّهَا جَاءَتْ فِي ٱلْوَاقِعِ مَزِيجًا مِنْ عِبَارَاتٍ كَثِيرَةٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، مِنْهَا مَا يَمُتُّ إِلَى ٱلْهِنْدِ ، وَمَا وُجِدَ أَصْلُهُ فِي فَارِسَ ، وَمِنْهَا مَا يَنْتَسِبُ إِلَى ٱلْإِغْرِيقِ ، حَتَّى لَقَدْ رَدَّ فَرِيقٌ مِنَ ٱلْبَاحِثِينَ فِي تَارِيخِهَا لَفْظَةَ ٱلصُّوفِيَّةِ ، إِلَى تَرْكِيبٍ مَزْجِيٍّ مِنْ كَلِمَتَيْنِ يُونَانِيَّتَيْنِ وَهُمَا « نِتُو صُوفِي » أَيِ ٱلْحِكْمَةُ ٱلدِّينِيَّةُ ، أَوِ ٱلْفَلْسَفَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ ، وَإِنْ كَانَ قَوْمٌ آخَرُونَ رَدُّوهَا

(١) يعب الماء : يشربه بدون مص - والمراد أنه ينهمك فى درسه .

إِلَى مَا أَلِفَ أَصْحَابُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي عَيْشِهِمْ وَتَقَشُّفِهِمْ .
مِنْ إِيلَافِ لُبْسِ الصُّوفِ أَوْ بَيْعِهِ لِلنَّاسِ .

***

منزلته الصوفية

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ الصُّوفِيَّةَ هِيَ أَرْقَى مَدَارِجِ الْعِبَادَاتِ ، وَأَسْمَى مَرَاتِبِ الْفَنَاءِ فِي اللهِ ، وَالَّذِينَ يَعْتَرِضُونَ عَلَيْهَا قَائِلِينَ إِنَّهَا لَا تَتَّفِقُ هِيَ وَتَعَالِيمُ الدِّينِ ، وَلَا تُسَايِرُ رُوحَ الْإِسْلَامِ ، بِدَعْوَى تَزْهِيدِهَا فِي الْحَيَاةِ وَإِعْرَاضِهَا عَنْ شُئُونِهَا ، يُخْطِئُونَ فَهْمَ حَقِيقَتِهَا ، وَيَوْهَمُونَ(١) فِي إِدْرَاكِ رُوحِهَا وَلُبَابِهَا ، فَإِنَّ الصُّوفِيَّةَ لَا تُحَرِّمُ الْأَخْذَ مِنَ الدُّنْيَا بِنَصِيبٍ ، وَلَكِنْ إِذَا مَا تَجَرَّدَ أَحَدٌ مِنْ هَذَا النَّصِيبِ رَاضِيًا مُخْتَارًا ، وَأَقْبَلَ بِكُلِّيَّةِ نَفْسِهِ عَلَى الْتِمَاسِ الْآخِرَةِ ، فَذَلِكَ هُوَ السُّمُوُّ النَّفْسِيُّ ، الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ إِلَّا الْأَصْفِيَاءُ ، وَالَّذِينَ رُكِّبَتْ مَعَادِنُهُمْ مِنَ الْجَوْهَرِ الْخَالِي مِنَ الزَّيْفِ ، وَتَطَهَّرَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِنْ كَافَّةِ شَوَائِبِ الْأَرْضِ ، وَعَالَمِ الْفَنَاءِ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْكَرَ فَضْلُ

(١) يغلطون

ٱلصُّوفِيَّةِ، مِنْ أَجْلِ بُعْدِ قِمَّةِ مَدَارِجِهَا (١) وَسُمُوقِ (٢) مَرَاتِبِهَا فَإِنَّ ذَلِكَ مَنْطِقٌ لَا يَسْتَقِيمُ ، وَحُجَّةٌ لَاجِئٌ إِلَيْهَا ٱلْمَادِّيُونَ ، لِيَسْتَوِيَ عِنْدَهُمُ ٱلنَّاسُ فِي أَقْذَارِ ٱلْحَيَاةِ وَشَوَائِبِهَا ٱلْكَدِرَةِ ، وَمَعِينِهَا ٱلْمُرَنَّقِ (٣) ٱلْمُلَوَّثِ ، ٱلْبَعِيدِ مِنَ ٱلطُّهْرِ وَٱلصَّفَاءِ .

***

طلب الحقيقة

لَقَدْ كَانَ ٱلْغَزَالِيُّ مِنَ ٱلنَّشْأَةِ ، بِفَضْلِ قُوَّةِ خَاطِرِهِ ، وَشُفُوفِ نَفْسِهِ ، وَرِقَّةِ وُجْدَانِهِ ، طَالِبَ حَقِيقَةٍ ، وَمُلْتَمِسَ مَعْرِفَةٍ ، فَلَمَّا دَرَسَ ٱلْفِقْهَ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ سَكِينَةَ نَفْسِهِ ، عَادَ يُكِبُّ عَلَى ٱلْفَلْسَفَةِ بَاحِثًا نَاظِرًا مُنَقِّبًا (٤) مُسْتَقْصِيًا (٥) وَلَكِنَّهَا لَمْ تُرْسِلْ قَبَسًا مِنَ ٱلضِّيَاءِ يَهْدِيهِ ٱلنَّجْدَيْنِ ، وَيَكْشِفُ لَهُ أَسْرَارَ ٱلْكَوْنِ ، وَيُمِيطُ عَنْ مُسْتَدَقِّ شُئُونِ ٱلْحَيَاةِ .

---

(١) مدارج : جمع مدرجة وهى المسلك والمذهب ، يقال هذا الأمر مدرجة لهذا : أى يتوصل به إليه . (٢) السموق : العلو . (٣) المرنق : الكدر . (٤) المنقب : الباحث عن الشىء المدقق . (٥) المستقصى : البالغ فى الأمر غايته .

وَمَا نَحْسَبُ رَجُلاً كَالْغَزَالِيِّ فِي طَبِيعَةِ مِزَاجِهِ ، وَشُفُوفِ حِسِّهِ ، كَانَ مُسْتَطِيعاً أَنْ يُقْنِعَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ وَاجِدٌ سَلَامَتَهَا وَسَكِينَتَهَا فِي مُجَرَّدِ التَّفْكِيرِ وَبَحْتِ التَّأَمُّلِ إِذْ لَمْ تَكَدْ غَرِيزَتُهُ الدِّينِيَّةُ تَهْتَاجُ[1] فِيهِ ، وَتَنْبَعِثُ فِي أَعْمَاقِهِ ، حَتَّى لَمْ يَعُدْ شَيْءٌ يُقْنِعُهُ أَوْ يُرْضِيهِ ، إِلَّا مَا كَانَ مُقْنِعاً لِعَقْلِهِ ، مُرْضِياً لِشُعُورِهِ نَافِذاً فِي خَاطِرِهِ .

وَمِنَ الْخَطَإِ أَنْ نَعُدَّهُ مَعَ ذَلِكَ خَارِجاً عَلَى الْفَلْسَفَةِ ، أَوْ رَجُلاً رَأَى النُّورَ فَوَلَّاهُ ظَهْرَهُ ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ سَارَ فِيهِ شَوْطاً ، وَقَطَعَ إِلَيْهِ مَرَاحِلَ ، لِيَعُودَ إِلَى الظُّلْمَةِ الَّتِي كَانَتْ مُحِيطَةً بِهِ ، وَيَرْجِعَ إِلَى الْحُلْكَةِ[2] الطَّخْيَاءِ[3] الَّتِي اكْتَنَفَتْهُ مِنْ قَبْلُ . فَلَمْ يَكُنِ الْغَزَالِيُّ يَوْمًا عَالِمًا بَارِدَ الْخَاطِرِ ، هَادِئَ الْمِزَاجِ ، كَالْفَارَابِيِّ أَوِ ابْنِ سِينَا أَوِ ابْنِ رُشْدٍ ، وَمَا خَضَعَ يَوْمًا أَوْ دَانَ بِالطَّاعَةِ لِلتَّفْكِيرِ الْمُطْلَقِ ، لِأَنَّهُ مَا دَرَسَ الْفَلْسَفَةَ دِرَاسَةَ مُؤْمِنٍ

(١) تهتاج : تثور (٢) الحلكة : الظلمة . (٣) شدة الظلمة .

بِهَا ، وَلَـكِنَّهُ ٱلْتَمَسَ فِيهَا ٱلنَّجَاةَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ ، وَٱلْخُرُوجَ مِنَ ٱلْحَلَكِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَلَـكِنَّهُ لَمَّا أَحَسَّ يَقَظَةَ قَلْبِهِ ، وَٱنْتِبَاهَ نَفْسِهِ ، صَاحَ وَدَارَ بِعَيْنِهِ يَطْلُبُ ٱلْهُدَى ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَلْفَى (١) نَفْسَهُ قَائِمًا وَحْدَهُ وَسَطَ ٱلْكَوْنِ ٱلْمُتَرَامِى مِنْ حَوْلِهِ ، وَمَا كَانَ فِى وُسْعِ مِثْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَمْضِىَ فِى ٱلطَّرِيقِ ٱلَّذِى سَارَ فِيهِ مِنَ ٱلْبَادِرَةِ (٢) .

***

التهم المنسوبة اليه

بَلْ مِنَ ٱلْخَطَإِ كَذَلِكَ أَنْ يُعَدَّ ٱلْغَزَالِىُّ عَالِمًا خَائِنًا مُنَافِقًا ، كَمَا حَلَا لِبَعْضِ ٱلنَّاسِ أَنْ يَتَّهِمُوهُ ، ذَاهِبِينَ إِلَى أَنَّهُ كَانَ يَكْتُمُ غَيْرَ مَا يُعْلِنُ ، وَيُبْطِنُ غَيْرَ مَا يُظْهِرُ ، وَأَنَّ لَهُ عَقِيدَةً سِرِّيَّةً لَا يُفْضِى بِهَا إِلَى ٱلنَّاسِ ، فَإِنَّ قِصَّتَهُ تَرِنُّ رَنِينَ ٱلصِّدْقِ ، فِى غَيْرِ خَرَسٍ (٣) ٱلزَّيْفِ مِنَ ٱلْأَوَّلِ إِلَى ٱلْآخِرِ ، كَمَا أَنَّ تَطَوُّرَهُ ٱلنَّفْسِىَّ ظَلَّ وَاضِحًا جَلِيًّا لَا خَفَاءَ بِهِ .

---

(١) ألفى : وجد (٢) البادرة : هى ما يبدر من الانسان حالة الغضب والمراد أول عمره (٣) الخرس : عدم القدرة على الكلام والمراد عدم الصوت

***

الاتصال الشخصي بالله

△ وَقَدْ رَامَ ٱلْوُقُوعَ عَلَى هَادٍ فِي أَيَّةِ نَاحِيَةٍ مِنَ ٱلْفِكْرِ لِيَهْدِيَهُ إِلَى ٱلْحَقِّ فَلَمْ يَجِدْ ، فَلَا عَجَبَ إِذَا هُوَ غَادَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى ٱلْتِمَاسِ مَعْرِفَةِ ٱللهِ ، وَٱلاتِّصَالِ ٱلشَّخْصِيِّ بِهِ فِي غَيْرِ وَسَاطَةٍ وَلَا طَرِيقٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ ، بَلْ عَنِ ٱلصُّوفِيَّةِ أَوِ ٱلتَّجَرُّدِ ٱلرُّوحِيِّ ، وَٱلانبِعَاثِ بِالنَّفْسِ إِلَى سَبْرِ غَوْرِ ٱلْكَوْنِ ، وَٱلاجْتِهَادِ فِي كَشْفِ ٱلْحُجُبِ عَنْ حَقِيقَتِهِ ٱلصَّمَدِيَّةِ ، وَصِفَاتِهِ ٱلشَّامِلَةِ .

***

حياة جديدة

هُنَالِكَ ٱنْفَسَحَ ٱلطَّرِيقُ أَمَامَ عَيْنِهِ ، وَتَقَاذَفَتِ ٱلشُّقَّةُ ٱلْمُسْتَطِيلَةُ عَلَى بَصَرِهِ ، وَهُنَالِكَ بَدَأَتْ حَيَاتُهُ ٱلْجَدِيدَةُ فِي ظِلَالِ ٱلْعُزْلَةِ ، وَٱلتَّقَشُّفِ وَٱلنُّسْكِ ، وَهُوَ يُحَدِّثُنَا فِي كِتَابِ ٱعْتِرَافَاتِهِ ، وَهُوَ « ٱلْمُنْقِذُ مِنَ ٱلضَّلَالِ » كَيْفَ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ مِنْ أَمْرِ مَذْهَبِ ٱلتَّعْلِيمِيَّةِ أَوِ ٱلْبَاطِنِيَّةِ ، أَقْبَلَ عَلَى طُرُقِ ٱلصُّوفِيَّةِ بِكُلِّ هِمَّتِهِ ، وَقُوَى خَاطِرِهِ وَتَفْكِيرِهِ .

***

بواعث نزوعه إلى التصوف

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ عَوَامِلَ كَثِيرَةً اصْطَلَحَتْ عَلَى نَفْسِهِ ، فَنَزَعَتْ بِهِ إِلَى سُلُوكِ هَذَا الطَّرِيقِ ، فَقَدْ كَانَ مَوْطِنُهُ الْأَصْلِيُّ فَارِسَ ، مُنْغَمِسًا فِي الصُّوفِيَّةِ ، مُتَأَثِّرًا بِهَا كُلَّ التَّأَثُّرِ ، جَانِحًا إِلَيْهَا أَشَدَّ الْجُنُوحِ ، كَمَا كَانَ أُسْتَاذُهُ الْقَدِيمُ أَبُو الْمَعَالِي الْجُوَيْنِيُّ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ صُوفِيًّا ، وَقَدْ رَأَيْنَا صَدِيقَ أَبِيهِ الَّذِي كَفَلَهُ وَقَامَ عَلَى تَنْشِئَتِهِ[1] مِنَ الْحَدَاثَةِ مَعَ أَخِيهِ أَحْمَدَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ .

***

نفسيته قبل العزلة

وَقَدْ رَوَى السَّيِّدُ مُرْتَضَى شَيْئًا كَثِيرًا عَنْ دِرَاسَةِ أَبِي حَامِدٍ فِي الصُّوفِيَّةِ ، كَمَا تَحَدَّثَ صَدِيقُهُ عَبْدُ الْغَافِرِ ابْنُ إِسْمَاعِيلَ الْفَارِسِيُّ ، طَوِيلًا عَنْ أَسَاتِذَتِهِ فِيهَا ، فَذَكَرَ أَنَّ مُعَلِّمَهُ الْأَكْبَرَ ، كَانَ الْإِمَامَ الزَّاهِدَ أَبَا عَلِيٍّ الْفَضْلَ ابْنَ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْفَارْمَذِيَّ بِطُوسٍ ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ يَاقُوتٌ فِي مُعْجَمِهِ ، عِنْدَ الْإِشَارَةِ إِلَى بَلَدِهِ فَارْمَذَ .

(١) تنشئته : تربيته .

وَيُرْوَى أَنَّ ٱلْفَارْمَذِىَّ هَذَا كَانَ مِنْ أَشْهَرِ تَلَامِيذِ ٱلْقُشَيْرِىِّ ، صَاحِبِ ٱلرِّسَالَةِ ٱلْمَشْهُورَةِ بِاسْمِهِ « ٱلرِّسَالَةِ ٱلْقُشَيْرِيَّةِ » وَقَدْ تُوُفِّىَ ٱلْفَارْمَذِىُّ سَنَةَ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ بِطُوسٍ ، عَلَى مَا رَوَى ٱلسَّمْعَانِىُّ فِى كِتَابِ « ٱلْأَنْسَابِ » .

وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ ٱلْغَافِرِ كَيْفَ أَنَّ أَبَا حَامِدٍ بَعْدَ أَنْ أَمْعَنَ وَأَوْغَلَ فِى دِرَاسَةِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّبَحُّرِ فِيهِ عَافَهُ وَتَبَرَّمَ بِهِ ، وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ أَيَّةَ جَدْوَى لَهُ ، فَدَارَ بِعَيْنِهِ يَتَلَمَّسُ مَا يُجْدِى عَلَى نَفْسِهِ ، وَيُعِدُّهُ لِزَادِ ٱلْآخِرَةِ ، فَاهْتَدَى بِهَدْىِ ٱلْفَارْمَذِىِّ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ ، وَٱشْتَرَكَ فِى حَلَقَاتِ ٱلْأَذْكَارِ مَعَهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ مِنْ كُلِّ مَا سَلَكَ شَيْئًا تَطْمَئِنُّ بِهِ نَفْسُهُ ، وَٱلظَّاهِرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ ٱلْوَقْتَ لَمْ يَكُنْ حَانَ بَعْدُ لِهَذَا ٱلدَّوْرِ ٱلْمُنْتَظَرِ فِى حَيَاتِهِ ، وَأَنَّ عَقْلَهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَأَهَّبَ وَٱسْتَعَدَّ لِلتَّفَتُّحِ لِضِيَاءِ ٱلرُّوحِ وَلَا نَضِجَ لِلْقَبُولِ ، فَمَا عَتَّمَ (١) أَنْ عَادَ إِلَى سَابِقِ دِرَاسَتِهِ ،

(١) فما عتم : فما لبث .

يَزِنُ ٱلْحُجَجَ وَيَقِيسُ ٱلْأَدِلَّةَ ، وَيَحُلُّ مُعْضِلَاتِ ٱلْمَشَاكِلِ ٱلْفِقْهِيَّةِ ، وَيَنْظُرُ فِي مَذَاهِبِ ٱلْفَلَاسِفَةِ .

وَلَكِنَّهُ أَخِيرًا — أَوْ عِنْدَ مَا حَانَتِ ٱلسَّاعَةُ ، كَمَا يُحَدِّثُنَا عَبْدُ ٱلْغَافِرِ بْنُ إِسْمَاعِيلَ خَطِيبُ نَيْسَابُورَ — ٱنْفَتَحَ أَمَامَهُ بَابُ ٱلْخَوْفِ ، وَٱسْتَشْعَرَ ٱلْوَجَلَ [1] ، وَأَذِنَ تَطَوُّرُ نَفْسِهِ بِدُخُولِهِ فِي رِحَابِ ٱلصُّوفِيَّةِ ، وَسُلُوكِ طَرِيقِهَا ، غَيْرَ مُتَرَاجِعٍ وَلَا مُسْتَأْخِرٍ .

***

شيخه النساج

وَكَانَ لِأَبِي حَامِدٍ شَيْخٌ يُدْعَى يُوسُفَ ٱلنَّسَّاجَ ، وَمِمَّا وُجِدَ بِخَطِّ قُطْبِ ٱلدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ ٱلْأَرْدَبِيلِيِّ — كَمَا وَرَدَ فِي إِتْحَافِ ٱلسَّادَةِ ٱلْمُتَّقِينَ لِلسَّيِّدِ مُرْتَضَى — أَنَّهُ قَالَ ، قَالَ حُجَّةُ ٱلْإِسْلَامِ : كُنْتُ فِي بِدَايَةِ أَمْرِي مُنْكِرًا لِأَحْوَالِ ٱلصَّالِحِينَ ، وَمَقَامَاتِ ٱلْعَارِفِينَ ، حَتَّى

(١) الوجل : الخوف

صَحِبْتُ شَيْخِي يُوسُفَ ٱلنَّسَّاجَ ، فَلَمْ يَزَلْ يَصْقُلُنِي بِالْمُجَاهَدَةِ حَتَّى حَظِيتُ بِالْوَارِدَاتِ ، فَرَأَيْتُ ٱللهَ فِي ٱلْمَنَامِ ، فَقَالَ لِي يَا أَبَا حَامِدٍ : فَقُلْتُ أَوِ ٱلشَّيْطَانُ يُكَلِّمُنِي ؟ قَالَ لاَ ، بَلْ أَنَا ٱللهُ ٱلْمُحِيطُ بِجِهَاتِكَ ٱلسِّتِّ ، ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا حَامِدٍ : ذَرْ مَسَاطِرَكَ ، وَٱصْحَبْ أَقْوَاماً جَعَلْتُهُمْ فِي أَرْضِي مَحَلَّ نَظَرِي ، وَهُمُ ٱلَّذِينَ بَاعُوا ٱلدَّارَيْنِ بِحُبِّي قُلْتُ : بِعِزَّتِكَ إِلاَّ أَذَقْتَنِي بَرْدَ حُسْنِ ٱلظَّنِّ بِهِمْ ، قَالَ قَدْ فَعَلْتُ : وَٱلْقَاطِعُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ تَشَاغُلُكَ بِحُبِّ ٱلدُّنْيَا فَاخْرُجْ مِنْهَا مُخْتَارًا ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا صَاغِرًا ، فَقَدْ أَفَضْتُ عَلَيْكَ أَنْوَارًا مِنْ جِوَارِ قُدْسِي ، فَٱسْتَيْقَظْتُ فَرِحاً مَسْرُورًا ، وَجِئْتُ إِلَى شَيْخِي يُوسُفَ ٱلنَّسَّاجِ ، فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ ٱلْمَنَامَ فَتَبَسَّمَ وَقَالَ يَا أَبَا حَامِدٍ : هَذِهِ أَلْوَاحُنَا مَسَحْنَاهَا فِي ٱلْبِدَايَةِ بِأَرْجُلِنَا ، بَلْ إِنْ صَحِبْتَنِي سَيُكْحَلُ بَصَرُ بَصِيرَتِكَ بِإِثْمِدِ ٱلتَّأْبِيدِ حَتَّى تَرَى ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ، ثُمَّ لاَ تَرْضَى بِذَلِكَ حَتَّى تُشَاهِدَ مَالاَ تُدْرِكُهُ

ٱلْأَبْصَارُ ، فَتَصْفُوَ مِنَ ٱلْأَكْدَارِ طَبِيعَتُكَ ، وَتَرْقَى عَلَى طَوْرِ عَقْلِكَ ، وَتَسْمَعَ ٱلْخِطَابَ مِنَ ٱللهِ تَعَالَى كَمُوسَى إِنِّى أَنَا ٱللهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ .

***

الخلوة والمجاهدة

وَنَقَلَ ٱلشَّعْرَانِىُّ فِى كِتَابِهِ ٱلْأَجْوِبَةِ ٱلْمَرْضِيَّةِ ، عَنِ ٱلْحَسَنِ ٱلْأَكْبَرِ مَا نَصُّهُ : وَكَانَ ٱلْغَزَالِىُّ يَقُولُ : لَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَنْخَرِطَ فِى سِلْكِ ٱلْقَوْمِ ، وَأَشْرَبَ مِنْ شَرَابِهِمْ نَظَرْتُ إِلَى نَفْسِى فَرَأَيْتُ كَثْرَةَ حُجُبِهَا ، — وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْخٌ إِذْ ذَاكَ — ، فَدَخَلْتُ ٱلْخَلْوَةَ ، وَٱشْتَغَلْتُ بِالرِّيَاضَةِ وَٱلْمُجَاهَدَةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، فَانْقَدَحَ لِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَالَمْ يَكُنْ عِنْدِى أَصْفَى وَأَرَقُّ مِنْهُ مِمَّا كُنْتُ أَعْرِفُهُ فَنَظَرْتُ فِيهِ ، فَإِذَا فِيهِ قُوَّةٌ فِقْهِيَّةٌ ، فَرَجَعْتُ إِلَى ٱلْخَلْوَةِ ، وَٱشْتَغَلْتُ بِالْمُجَاهَدَةِ وَٱلرِّيَاضَةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، فَانْقَدَحَ لِى عِلْمٌ آخَرُ ، أَرَقُّ وَأَصْفَى مِمَّا حَصَلَ عِنْدِى أَوَّلًا ، فَفَرِحْتُ بِهِ ، ثُمَّ نَظَرْتُ فِيهِ ، فَإِذَا فِيهِ قُوَّةٌ

نَظَرِيَّةٌ ، فَرَجَعْتُ إِلَى ٱلْخَلْوَةِ ثَالِثاً أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، فَٱنْقَدَحَ لِي عِلْمٌ آخَرُ ، هُوَ أَرَقُّ وَأَصْفَى ، فَنَظَرْتُ فِيهِ فَإِذَا فِيهِ قُوَّةٌ مَمْزُوجَةٌ بِعِلْمٍ ، وَلَمْ أُلْحَقْ بِأَهْلِ ٱلْعُلُومِ ٱللَّدُنِّيَّةِ ، فَقُلْتُ : إِنَّ ٱلْكِتَابَةَ عَلَى ٱلْمَحْوِ لَيْسَتْ كَٱلْكِتَابَةِ عَلَى ٱلصَّفَاءِ ٱلْأَوَّلِ ، وَٱلطَّهَارَةِ ٱلْأُولَى ، وَلَمْ أَتَمَيَّزْ عَنِ ٱلنُّظَارِ إِلَّا بِبَعْضِ أُمُورٍ .

ثُمَّ قَالَ ٱلشَّيْخُ ٱلْأَكْبَرُ : « رَحِمَ ٱللهُ أَبَا حَامِدٍ ، مَا كَانَ أَكْثَرَ إِنْصَافَهُ وَتَحَرُّزَهُ مِنَ ٱلدَّعْوَى »

وَمِنْ هَذِهِ ٱلْقِصَّةِ ٱلْأَخِيرَةِ ، يَتَبَيَّنُ لَكَ مَبْلَغُ مُجَاهَدَتِهِ لِلْخَلَاصِ مِنْ دِرَاسَاتِهِ ٱلدِّينِيَّةِ وَٱلْفِقْهِيَّةِ ، وَمُحَاوَلَةُ ٱلتَّجَرُّدِ ٱلنَّفْسِيِّ ، ٱسْتِعْدَادًا لِمَا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ .

***

كيف وصف رياضته النفسية

وَقَدْ وَصَفَ هَذِهِ ٱلْمُجَاهَدَاتِ وَٱلْمُحَاوَلَاتِ فِي ٱعْتِرَافَاتِهِ فِي كِتَابِ « ٱلْمُنْقِذِ مِنَ ٱلضَّلَالِ » فَقَالَ : إِنَّهُ قَدْ وَجَدَ أَنَّ ٱلْعِلْمَ بِطَرِيقَةِ ٱلصُّوفِيَّةِ ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنَ

ٱلْعَمَلِ بِهَا ، فَابْتَدَأَ بِتَحْصِيلِ عِلْمِهِمْ مِنْ مُطَالَعَةِ كُتُبِهِمْ ، فَقَرَأَ كِتَابَ « قُوتِ ٱلْقُلُوبِ » لِأَبِي طَالِبٍ ٱلْمَكِّيِّ ، وَكُتُبَ ٱلْحَارِثِ ٱلْمُحَاسِبِيِّ ، وَٱلْمُتَفَرِّقَاتِ ٱلْمَأْثُورَةَ عَنِ ٱلْجُنَيْدِ ، وَٱلشِّبْلِيِّ ، وَأَبِي يَزِيدَ ٱلْبِسْطَامِيِّ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كُتُبِ مَشَايِخِهِمْ ، كَمَا حَصَّلَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُحَصَّلَ مِنْ طَرِيقِهِمْ بِالسَّمَاعِ ، فَكَانَتْ نَتِيجَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ ، إِدْرَاكَهُ أَنَّ أَخَصَّ خَوَاصِّهِمْ ، لَا يُمْكِنُهُ ٱلْوُصُولُ إِلَيْهِ بِالتَّعَلُّمِ ٱلْمُجَرَّدِ ، بَلْ بِالذَّوْقِ ، وَهُوَ فِي ٱصْطِلَاحِهِمْ « نُورٌ عِرْفَانِيٌّ » يَقْذِفُهُ ٱلْحَقُّ بِتَجَلِّيهِ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ فَيُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ ، بِغَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى ٱلْاعْتِمَادِ عَلَى كِتَابٍ أَوْ نَحْوِهِ ، كَمَا يُدْرِكُ بِالْحَالِ ، وَهِيَ عِنْدَ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ ، مَعْنًى يَرِدُ عَلَى ٱلْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ تَصَنُّعٍ وَلَا ٱجْتِلَابٍ وَلَا ٱكْتِسَابٍ ، مِنْ طَرَبٍ أَوْ حُزْنٍ ، أَوْ قَبْضٍ أَوْ بَسْطٍ ، وَيَزُولُ ٱلْحَالُ بِظُهُورِ صِفَاتِ ٱلنَّفْسِ ، فَإِذَا دَامَ وَصَارَ مَلَكَةً سُمِّيَ مَقَامًا ، فَالْأَحْوَالُ مَوَاهِبُ ،

وَالْمَقَامَاتُ مَكَاسِبُ ، وَالْأُولَى تَأْتِي مِنْ عَيْنِ الْجُودِ ، وَالثَّانِيَةُ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ ، وَأَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى بُلُوغِ هَذِهِ الْخَوَاصِّ بِغَيْرِ الْعَمَلِ الْمُقْتَرِنِ بِالْعِلْمِ ، فَإِنَّ ثَمَّ فَارِقًا بَيْنَ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الزُّهْدِ وَشُرُوطِهَا وَأَسْبَابِهَا ، وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ حَالُكَ هِيَ الزُّهْدَ وَالْعُزُوفَ [1] وَالْإِعْرَاضَ عَنِ الدُّنْيَا ، وَمَا فِيهَا مِنْ لَذَّاتٍ وَمُتَعٍ كَثِيرَةٍ .

وَفِي هَذَا يَقُولُ الْغَزَالِيُّ فِي اعْتِرَافَاتِهِ : فَعَلِمْتُ يَقِينًا أَنَّهُمْ أَرْبَابُ الْأَحْوَالِ ، لَا أَصْحَابُ الْأَقْوَالِ ، وَأَنَّ مَا يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ بِطَرِيقِ الْعِلْمِ قَدْ حَصَّلْتُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ بِالسَّمَاعِ وَالتَّعَلُّمِ ، « بَلْ بِالذَّوْقِ وَالسُّلُوكِ » ، وَكَانَ قَدْ حَصَلَ مَعِي مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي مَارَسْتُهَا ، وَالْمَسَالِكِ الَّتِي سَلَكْتُهَا فِي التَّفْتِيشِ عَنْ صِنْفَيِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ ، « إِيمَانٌ يَقِينِيٌّ بِاللهِ تَعَالَى » وَبِالنُّبُوَّةِ ، وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَهَذِهِ الْأَحْوَالُ

(١) العزوف : الانصراف عن الشيء

الثَّلاثَةُ مِنَ الْإِيمَانِ ، كَانَتْ قَدْ رَسَخَتْ فِي نَفْسِي ، لَا بِدَلِيلٍ مُعَيَّنٍ مُجَرَّدٍ ، بَلْ بِأَسْبَابٍ وَقَرَائِنَ وَتَجَارِبَ ، لَا تَدْخُلُ تَحْتَ الْحَصْرِ تَفَاصِيلُهَا .

وَكَانَ قَدْ ظَهَرَ عِنْدِي أَنْ لَا طَمَعَ لِي فِي سَعَادَةِ الْآخِرَةِ ، إِلَّا بِالتَّقْوَى ، وَكَفِّ النَّفْسِ عَنِ الْهَوَى ، وَأَنَّ رَأْسَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، قَطْعُ عَلَاقَةِ الْقَلْبِ عَنِ الدُّنْيَا ، بِالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ . وَالْإِنَابَةِ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالْإِقْبَالِ بِكُنْهِ الْهِمَّةِ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِ وَالْمَالِ ، وَالْهَرَبِ مِنَ الشَّوَاغِلِ وَالْعَوَائِقِ ، ثُمَّ لَاحَظْتُ أَحْوَالِي ، فَإِذَا أَنَا مُنْغَمِسٌ فِي الْعَلَائِقِ ، وَقَدْ أَحْدَقَتْ بِي مِنَ الْجَوَانِبِ ، وَلَاحَظْتُ أَعْمَالِي وَأَحْسَنُهَا التَّدْرِيسُ وَالتَّعْلِيمُ ، فَإِذَا أَنَا فِيهَا مُقْبِلٌ عَلَى عُلُومٍ غَيْرِ مُهِمَّةٍ ، وَلَا نَافِعَةٍ فِي طَرِيقِ الْآخِرَةِ .

وَقَدْ مَرَّ بِكَ فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ كَيْفَ أَجْمَعَ أَمْرَهُ عَلَى الرَّحِيلِ مِنْ بَغْدَادَ الْتِمَاسًا لِلْعُزْلَةِ ، وَبَدَأَ حَيَاةَ

ٱلتَّطْوَافِ وَٱلتَّجْوَابِ ، مُنْقَطِعاً إِلَى ٱلْعِبَادَةِ ، وَٱلتَّقَرُّبِ إِلَى ٱللهِ بِالتَّجَرُّدِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلرَّغَبَاتِ ، وَٱلطَّمَعِ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَعُرُوضِهَا ٱلْفَانِيَةِ ، وَكَيْفَ لَبِثَ عَلَى ذَلِكَ عَشْرَ سَنَوَاتٍ كَامِلَةٍ فِي عَيْشٍ خَشِنٍ ، وَطُولِ تَنَقُّلٍ وَتَجْوَالٍ .

وَفِي هَذِهِ ٱلْفَتْرَةِ ٱلْخَطِيرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ ، ٱنْكَشَفَتْ لَهُ فِي خِلَالِ نَجْوَاهُ وَخَلَوَاتِهِ لِلْعِبَادَةِ ، وَٱلْعُكُوفِ عَلَى ذِكْرِ ٱللهِ ، أُمُورٌ وَصَفَهَا فِي ٱعْتِرَافَاتِهِ بِقَوْلِهِ : إِنَّهَا لَا يُمْكِنُ إِحْصَاؤُهَا وَٱسْتِقْصَاؤُهَا ، وَلَكِنَّهُ يَذْكُرُ يَسِيرًا مِنْهَا لِيَنْتَفِعَ ٱلنَّاسُ بِهِ .

***

الصوفية فى تقديره

وَهَذَا مَا ذَكَرَهُ فِي ٱعْتِرَافَاتِهِ : إِنِّي عَلِمْتُ يَقِيناً أَنَّ ٱلصُّوفِيَّةَ هُمُ ٱلسَّالِكُونَ لِطَرِيقِ ٱللهِ تَعَالَى خَاصَّةً ، وَأَنَّ سِيرَتَهُمْ أَحْسَنُ ٱلسِّيَرِ ، وَطَرِيقَهُمْ أَصْوَبُ ٱلطُّرُقِ ، وَأَخْلَاقَهُمْ أَزْكَى ٱلْأَخْلَاقِ ، بَلْ لَوْ جُمِعَ عَقْلُ ٱلْعُقَلَاءِ ،

وَحِكْمَةُ ٱلْحُكَمَاءِ ، وَعِلْمُ ٱلْوَاقِفِينَ على أَسْرَارِ ٱلشَّرْعِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ ، لِيُغَيِّرُوا شَيْئًا مِنْ سِيَرِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ ، وَيُبَدِّلُوهُ بِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ، لَمْ يَجِدُوا إِلَيْهِ سَبِيلاً ، فَإِنَّ جَمِيعَ حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ ، فِي ظَاهِرِهِمْ وَبَاطِنِهِمْ ، مُقْتَبَسَةٌ مِنْ نُورِ مِشْكَاةِ (١) ٱلنُّبُوَّةِ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ نُورِ ٱلنُّبُوَّةِ عَلَى وَجْهِ ٱلْأَرْضِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ، وَبِالْجُمْلَةِ فَمَاذَا يَقُولُ ٱلْقَائِلُونَ فِي طَرِيقَةٍ طَهَارَتُهَا — وَهِيَ أَوَّلُ شُرُوطِهَا — تَطْهِيرُ ٱلْقَلْبِ بِالْكُلِّيَّةِ عَمَّا سِوَى ٱللهِ تَعَالَى ، وَمِفْتَاحُهَا ٱلْجَارِي مِنْهَا مَجْرَى ٱلتَّحْرِيمِ مِنَ ٱلصَّلَاةِ (٢) ٱسْتِغْرَاقُ ٱلْقَلْبِ بِالْكُلِّيَّةِ بِذِكْرِ ٱللهِ ، وَآخِرُهَا ٱلْفَنَاءُ بِالْكُلِّيَّةِ فِي ٱللهِ ، وَهَذَا آخِرُهَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا يَكَادُ

---

(١) المشكاة : الكوة غير النافذة فى الحائط يوضع فيها المصباح . والعمود الذى يكون المصباح على رأسه . والحديدة التى توضع فيها فتيلة

(٢) يعنى أن مفتاح هذه الطريقة هو استغراق القلب بذكر الله كلية كما أن مفتاح الصلاة هو تكبيرة التحريم التى تبدأ الصلاة بها .

يَدْخُلُ تَحْتَ ٱلاخْتِيَارِ وَٱلْكَسَبِ فِي أَوَائِلِهَا ، وَهِيَ عَلَى ٱلتَّحْقِيقِ أَوَّلُ ٱلطَّرِيقَةِ ، وَمَا قَبْلَ ذَلِكَ كَالدِّهْلِيزِ لِلسَّالِكِ إِلَيْهِ .

وَمِنْ أَوَّلِ هَذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ تَبْتَدِىءُ ٱلْمُكَاشَفَاتُ ، حَتَّى إِنَّهُمْ فِي يَقَظَتِهِمْ يُشَاهِدُونَ ٱلْمَلَائِكَةَ وَأَرْوَاحَ ٱلْأَنْبِيَاءِ ، وَيَسْمَعُونَ مِنْهُمْ أَصْوَاتًا وَيَقْتَبِسُونَ مِنْهُمْ فَوَائِدَ ، ثُمَّ يَتَرَقَّى ٱلْحَالُ ، مِنْ مُشَاهَدَةِ ٱلصُّوَرِ وَٱلْأَمْثَالِ ، إِلَى دَرَجَاتٍ يَضِيقُ عَنْهَا نِطَاقُ ٱلنُّطْقِ ، فَلَا يُحَاوِلُ مُعَبِّرٌ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهَا إِلَّا إِذَا ٱشْتَمَلَ لَفْظُهُ عَلَى خَطَإٍ صَرِيحٍ لَا يُمْكِنُهُ ٱلاحْتِرَازُ عَنْهُ .

وَعَلَى ٱلْجُمْلَةِ يَنْتَهِي ٱلْأَمْرُ إِلَى قُرْبٍ يَكَادُ يَتَخَيَّلُ مِنْهُ طَائِفَةٌ ٱلْحُلُولَ ، وَطَائِفَةٌ ٱلاتِّحَادَ ، وَطَائِفَةٌ ٱلْوُصُولَ وَكُلُّ ذَلِكَ خَطَأٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّا وَجْهَ ٱلْخَطَإِ فِيهِ فِي كِتَابِ « ٱلْمَقْصِدِ ٱلْأَسْنَى » بَلِ ٱلَّذِي لَابَسَتْهُ تِلْكَ ٱلْحَالَةُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَزِيدَ عَلَى أَنْ يَقُولَ :

وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ

فَظُنَّ خَيْرًا وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ (١)

***

إدراك الصوفية بالذوق

« وَبِالْجُمْلَةِ فَمَنْ لَمْ يُرْزَقْ مِنْهُ شَيْئًا بِالذَّوْقِ ، فَلَيْسَ يُدْرِكُ مِنْ حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الاسْمَ ، وَكَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ هِيَ عَلَى التَّحْقِيقِ بِدَايَاتُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ حَالِ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، حِينَ أَقْبَلَ عَلَى غَارِ حِرَاءٍ ، حِينَ كَانَ يَخْلُو فِيهِ بِرَبِّهِ ، وَيَتَعَبَّدُ حَتَّى قَالَتِ الْعَرَبُ : « إِنَّ مُحَمَّدًا عَشِقَ رَبَّهُ » ؟

« وَهَذِهِ حَالَةٌ يَتَحَقَّقُهَا بِالذَّوْقِ ، مَنْ سَلَكَ سَبِيلَهَا ، فَمَنْ لَمْ يُرْزَقِ الذَّوْقَ فَيَتَيَقَّنُهَا بِالتَّجْرِبَةِ وَالتَّسَامُعِ ، إِنْ أَكْثَرَ مَعَهُمُ الصُّحْبَةَ ، حَتَّى يَفْهَمَ ذَلِكَ بِقَرَائِنِ الْاحْوَالِ يَقِينًا ، وَمَنْ جَالَسَهُمُ اسْتَفَادَ مِنْهُمْ هَذَا الْإِيمَانَ ، فَهُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ ، وَمَنْ لَمْ يُرْزَقْ صُحْبَتَهُمْ

(١) البيت لابن المعتز

فَلْيَعْلَمْ إِمْكَانَ ذَلِكَ يَقِيناً بِشَوَاهِدِ ٱلْبُرْهَانِ ، عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِ « عَجَائِبِ ٱلْقَلْبِ ، مِنْ كُتُبِ إِحْيَاءِ عُلُومِ ٱلدِّينِ » .

وَٱلتَّحْقِيقُ بِالبُرْهَانِ عِلْمٌ ، وَمُلَابَسَةُ عَيْنِ تِلْكَ ٱلْحَالَةِ ذَوْقٌ ، وَٱلْقَبُولُ مِنَ ٱلتَّسَامُعِ وَٱلتَّجْرِبَةِ بِحُسْنِ ٱلظَّنِّ إِيمَانٌ .

« فَهَذِهِ ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ » « يَرْفَعِ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ »

وَوَرَاءَ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ جُهَّالٌ ، هُمُ ٱلْمُنْكِرُونَ لِأَصْلِ ذَلِكَ ، ٱلْمُتَعَجِّبُونَ مِنْ هَذَا ٱلْكَلَامِ ، يَسْتَمِعُونَ وَيَسْخَرُونَ ، وَيَقُولُونَ ٱلْعَجَبَ ؟ إِنَّهُمْ كَيْفَ يَهْذُونَ (١) ؟ وَفِيهِمْ قَالَ ٱللهُ تَعَالَى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً ، أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » .

(١) يهذون : يتكلمون كلاما لا أصل له

وَنَحْسَبُ هَذَا الَّذِى نَقَلْنَاهُ لَكَ مِنَ اعْتِرَافَاتِهِ بِسَبِيلِ مَا تَأَتَّى [١] لَهُ مِنْ سُلُوكِ الطَّرِيقَةِ الصُّوفِيَّةِ ، يَدُلُّكَ عَلَى حَقِيقَةِ حَالِهِ النَّفْسِيَّةِ فِى عُزْلَتِهِ ، وَيُبْدِى لَكَ جَانِباً مِنْ صُورَةِ حَيَاتِهِ ، فِى تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ مِنْ شَأْنِهِ وَأَدْوَارِ عُمْرِهِ ، وَهِىَ صُورَةٌ صَوَّرَهَا هُوَ فِى اعْتِرَافَاتِهِ - كَمَا رَأَيْتَ - فِى أَدَقِّ الْبَرَاعَةِ ، وَأَعْجَبِ الافْتِنَانِ ، وَأَسْحَرِ الْبَيَانِ ، كَأَنَّكَ تَلْمِسُ شُعُورَهُ لَمْسًا فِى ثَنَايَا وَصْفِهِ ، وَخِلَالِ رِقَّةِ تَعْبِيرِهِ .

لَقَدْ ذَاقَ الْغَزَالِىُّ الصُّوفِيَّةَ عَنْ تَجْرِبَةٍ وَمُلَابَسَةٍ ، وَتَجَرَّدَ لَهَا مِنْ كُلِّ مُتَعِ الْمَادَّةِ ، وَلَذَاذَاتِ الْجَسَدِ ، حَتَّى ارْتَقَى بِهَا إِلَى دَرَجَةِ الْمُكَاشَفَاتِ وَالْمُشَاهَدَاتِ ، وَإِنْ كُنَّا نَحْسَبُهُ لَمْ يَرْقَ بِهَا إِلَى دَرَجَاتِ السُّلُوكِ وَالْوُصُولِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَصِفْهَا وَلَمْ يُبَيِّنْ حَالَاتِهَا ، كَمَا فَعَلَ ابْنُ سِينَا فِى كِتَابِ « الْإِشَارَاتِ » ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ مِنْ دَرَجَاتِ الاتِّحَادِ وَالْفَنَاءِ مَبْلَغَ « الْحَلَّاجِ » .

---

(١) تأتى : تهيأ

وَقَدْ رَأَيْنَا ٱلْغَزَالِيَّ بَعْدَ عَشْرِ سِنِينَ يَنْثَنِي عَنْ عُزْلَتِهِ وَيُعَاوِدُ النَّاسَ ، وَيَسْتَأْنِفُ ٱلتَّدْرِيسَ بَعْدَ طِيلَةِ ٱنْقِطَاعٍ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلرُّوحَانِيَّةِ ٱلَّتِي أُوتِيهَا فِي ٱلْعُزْلَةِ ، فَظَلَّ صُوفِيًّا إِلَى آخِرِ حَيَاتِهِ

***

لماذا ترك العزلة

وَقَدْ تَحَدَّثَ عَنِ ٱلدَّوَافِعِ ٱلَّتِي دَفَعَتْهُ إِلَى تَرْكِ ٱلْعُزْلَةِ ، وَٱلْبَوَاعِثِ ٱلَّتِي حَفَزَتْهُ إِلَى ٱسْتِئْنَافِ حَيَاةِ ٱلْعِلْمِ فِي ٱلْحَقِّ ، فَقَالَ فِي ٱعْتِرَافَاتِهِ : ثُمَّ إِنِّي لَمَّا وَاظَبْتُ عَلَى ٱلْعُزْلَةِ وَٱلْخَلْوَةِ قَرِيباً مِنْ عَشْرِ سِنِينَ ، بَانَ لِي فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ ـ عَلَى ٱلضَّرُورَةِ مِنْ أَسْبَابٍ لَا أُحْصِيهَا ، مَرَّةً بِالذَّوْقِ ، وَمَرَّةً بِالْعِلْمِ ٱلْبُرْهَانِيِّ ، وَمَرَّةً بِالْقَبُولِ ٱلْإِيمَانِيِّ ـ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ خُلِقَ مِنْ بَدَنٍ وَقَلْبٍ ، وَأَعْنِي بِالْقَلْبِ حَقِيقَةَ رُوحِهِ ٱلَّتِي هِيَ مَحَلُّ مَعْرِفَةِ ٱللهِ ، دُونَ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ ٱلَّذِي يُشَارِكُ فِيهِ ٱلْمَيِّتَ وَٱلْبَهِيمَةَ ، وَأَنَّ ٱلْبَدَنَ لَهُ صِحَّةٌ بِهَا سَعَادَتُهُ ، وَمَرَضٌ فِيهِ هَلَاكُهُ ، وَأَنَّ ٱلْقَلْبَ

كَذَلِكَ لَهُ صِحَّةٌ وَسَلَامَةٌ ، وَلَا يَنْجُو إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ، وَلَهُ مَرَضٌ فِيهِ هَلَاكُهُ الْأَبَدِيُّ وَالْأُخْرَوِيُّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : « فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » وَأَنَّ الْجَهْلَ بِاللهِ سُمٌّ مُهْلِكٌ ، وَأَنَّ مَعْصِيَةَ اللهِ بِمُتَابَعَةِ الْهَوَى دَاؤُهُ الْمُمْرِضُ ، وَأَنَّ مَعْرِفَةَ اللهِ تَعَالَى تِرْيَاقُهُ (١) الْمُحْيِي ، وَطَاعَتَهُ بِمُخَالَفَةِ الْهَوَى دَوَاؤُهُ الشَّافِي ، وَأَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى مُعَالَجَتِهِ بِإِزَالَةِ مَرَضِهِ وَكَسْبِ صِحَّتِهِ إِلَّا بِأَدْوِيَةٍ ، كَمَا لَا سَبِيلَ إِلَى مُعَالَجَةِ الْبَدَنِ إِلَّا بِذَلِكَ ، وَكَمَا أَنَّ أَدْوِيَةَ الْبَدَنِ تُؤَثِّرُ فِي كَسْبِ الصِّحَّةِ بِخَاصِّيَّةٍ فِيهَا ، لَا يُدْرِكُهَا الْعُقَلَاءُ بِبِضَاعَةِ الْعَقْلِ ، بَلْ يَجِبُ فِيهَا تَقْلِيدُ الْأَطِبَّاءِ الَّذِينَ أَخَذُوهَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ اطَّلَعُوا بِخَاصِّيَّةِ النُّبُوَّةِ عَلَى خَوَاصِّ الْأَشْيَاءِ ، فَكَذَلِكَ بَانَ لِي عَلَى الضَّرُورَةِ أَنَّ أَدْوِيَةَ الْعِبَادَاتِ بِحُدُودِهَا وَمَقَادِيرِهَا الْمَحْدُودَةِ الْمُقَدَّرَةِ مِنْ جِهَةِ الْأَنْبِيَاءِ لَا يُدْرَكُ وَجْهُ تَأْثِيرِهَا بِبِضَاعَةِ عَقْلِ الْعُقَلَاءِ ، بَلْ يَجِبُ فِيمَا نَقَلَهُ الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ

(١) ترياق : دواء

أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل..

وعلى الجملة فالأنبياء أطباء أمراض القلوب، وإنما فائدة العقل وتصرفه، أنه عرف ذلك، وشهد للنبوة بالتصديق، ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك معين النبوة، وأخذ بأيدينا فسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين. وإلى هنا مجرى العقل ومخطاه، وهو معزول عن ما بعد ذلك، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه.

***

أسباب ضعف الايمان

فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة. في مدة الخلوة والعزلة، ثم رأينا فتور الاعتقادات في أصل النبوة، ثم في حقيقة النبوة، ثم بالعمل بما شرحته النبوة، وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق، فنظرت إلى أسباب فتور الخلق وضعف إيمانهم، فإذا هي أربعة:

(١) الخوض في علم الفلسفة (٢) الخوض في طريق التصوف (٣) الانتساب إلى دعوى التعليم (٤) معاملة الموسومين[1] بالعلم فيما بين الناس .

فإني تتبعت مدة آحاد الخلق ، أسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع ، وأسأل عن شبهته ، وأبحث عن عقيدته وسره ، وقلت له : مالك تقصر فيها ؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ، ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ، فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة ؟ وإن كنت لا تؤمن فأنت كافر ، فدبر نفسك في طلب الإيمان ، وانظر ما سبب كفرك الخفي ؟ الذي هو مذهبك باطناً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وإن كنت لا لا تصرح به تجملاً بالإيمان ، وتشرفاً بذكر الشرع . فقائل يقول : هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه ، لكان

(١) الموسومين : المتصفين

ٱلْعُلَمَاءِ أَجْدَرَ بِذَلِكَ ، وَفُلَانٌ مِنَ ٱلْمُشَاهِيرِ بَيْنَ ٱلْفُضَلَاءِ لَا يُصَلِّي ، وَفُلَانٌ يَشْرَبُ ٱلْخَمْرَ ، وَفُلَانٌ يَأْكُلُ أَمْوَالَ ٱلْأَوْقَافِ ، وَأَمْوَالَ ٱلْيَتَامَى ، وَفُلَانٌ يَأْكُلُ إِدْرَارَ (١) ٱلسُّلْطَانِ ، وَلَا يَحْتَرِزُ عَنِ ٱلْحَرَامِ ، وَفُلَانٌ يَأْخُذُ ٱلرِّشْوَةَ عَلَى ٱلْقَضَاءِ وَٱلشَّهَادَةِ ، وَهَلُمَّ جَرًّا إِلَى أَمْثَالِهِ .

وَقَائِلٌ ثَانٍ يَدَّعِي عِلْمَ ٱلتَّصَوُّفِ ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ مَبْلَغًا تَرَقَّى عَنِ ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْعِبَادَةِ .

وَقَائِلٌ ثَالِثٌ يَتَعَلَّلُ بِشُبْهَةٍ أُخْرَى مِنْ شُبُهَاتِ أَهْلِ ٱلْإِبَاحَةِ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ ٱلَّذِينَ ضَلُّوا عَنِ ٱلتَّصَوُّفِ .

وَقَائِلٌ رَابِعٌ لَقِيَ أَهْلَ ٱلتَّعْلِيمِ فَيَقُولُ: ٱلْحَقُّ مُشْكِلٌ ، وَٱلطَّرِيقُ إِلَيْهِ مُتَعَسِّرٌ ، وَٱلِاخْتِلَافُ فِيهِ كَثِيرٌ ، وَلَيْسَ بَعْضُ ٱلْمَذَاهِبِ أَوْلَى مِنْ بَعْضٍ ، وَأَدِلَّةُ ٱلْعُقُولِ مُتَعَارِضَةٌ ، فَلَا ثِقَةَ بِرَأْيِ أَهْلِ ٱلرَّأْيِ ، وَٱلدَّاعِي إِلَى

(١) إدرار السلطان : الخيرات الكثيرة

ٱلتَّعْلِيمِ مُتَحَكِّمٌ لَا حُجَّةَ لَهُ ، فَكَيْفَ أَدَعُ ٱلْيَقِينَ بِالشَّكِّ ؟

وَقَائِلٌ خَامِسٌ يَقُولُ : لَسْتُ أَفْعَلُ هَذَا تَقْلِيدًا ، وَلَكِنْ قَرَأْتُ عِلْمَ ٱلْفَلْسَفَةِ ، وَأَدْرَكْتُ حَقِيقَةَ ٱلنُّبُوَّةِ ، وَأَنَّ حَاصِلَهَا يَرْجِعُ إِلَى ٱلْحِكْمَةِ وَالْمَصْلَحَةِ ، وَأَنَّ ٱلْمَقْصُودَ مِنْ تَعَبُّدَاتِهَا ، ضَبْطُ عَوَامِّ ٱلْخَلْقِ وَتَقْيِيدُهُمْ عَنِ ٱلتَّقَاتُلِ وَٱلتَّنَازُعِ ، وَالاسْتِرْسَالِ فِي ٱلشَّهَوَاتِ ، فَمَا أَنَا مِنَ ٱلْعَوَامِّ ٱلْجُهَّالِ حَتَّى أَدْخُلَ فِي حَجْرِ (١) ٱلتَّكْلِيفِ ، وَإِنَّمَا أَنَا مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ ، أَتَّبِعُ ٱلْحِكْمَةَ وَأَنَا بَصِيرٌ بِهَا ، مُسْتَغْنٍ فِيهَا عَنِ ٱلتَّقْلِيدِ .

هَذَا مُنْتَهَى إِيمَانِ مَنْ قَرَأَ مَذْهَبَ فَلْسَفَةِ ٱلْإِلٰهِيِّينَ مِنْهُمْ ، وَتَعَلَّمَ ذَلِكَ مِنْ كُتُبِ ٱبْنِ سِينَا ، وَأَبِي نَصْرٍ ٱلْفَارَابِيِّ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ ٱلْمُتَجَمِّلُونَ بِالْإِسْلَامِ ، وَرُبَّمَا تَرَى ٱلْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَقْرَأُ ٱلْقُرْآنَ وَيَحْضُرُ ٱلْجَمَاعَاتِ ،

(١) الحجر : المنع

وَيُقِيمُ ٱلصَّلَوَاتِ ، وَيُعَظِّمُ ٱلشَّرِيعَةَ بِلِسَانِهِ ، وَلَـٰكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لاَ يَتْرُكُ شُرْبَ ٱلْخَمْرِ ، وَأَنْوَاعًا مِنَ ٱلْفِسْقِ وَٱلْفُجُورِ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ : إِنْ كَانَتِ ٱلنُّبُوَّةُ غَيْرَ صَحِيحَةٍ فَلِمَ تُصَلِّي ؟ فَرُبَّمَا أَجَابَكَ قَائِلاً : لِرِيَاضَةِ ٱلْجَسَدِ ، وَلِعَادَةِ أَهْلِ ٱلْبَلَدِ ، وَحِفْظِ ٱلْمَالِ وَٱلْوَلَدِ ، وَرُبَّمَا قَالَ : ٱلشَّرِيعَةُ صَحِيحَةٌ ، وَٱلنُّبُوَّةُ حَقٌّ ، فَيُقَالُ فَلِمَ تَشْرَبُ ٱلْخَمْرَ ؟ فَيَقُولُ : إِنَّمَا نُهِيَ عَنِ ٱلْخَمْرِ ، لِأَنَّهَا تُورِثُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ ، وَأَنَا بِحِكْمَتِي مُحْتَرِزٌ[1] عَنْ ذَلِكَ ، وَإِنِّي أَقْصِدُ بِهِ تَشْحِيذَ خَاطِرِي ، حَتَّى إِنَّ ٱبْنَ سِينَا ذَكَرَ فِي وَصِيَّةٍ لَهُ كَتَبَ فِيهَا : أَنَّهُ عَاهَدَ ٱللَّهَ عَلَى كَذَا وَكَذَا ، وَأَنْ يُعَظِّمَ ٱلْأَوْضَاعَ ٱلشَّرْعِيَّةَ ، وَلاَ يُقَصِّرَ فِي ٱلْعِبَادَاتِ ٱلدِّينِيَّةِ ، وَلاَ يَشْرَبَ تَلَهِّيًا ، بَلْ تَدَاوِيًا وَتَشَافِيًا ، فَكَانَ مُنْتَهَى حَالَتِهِ ، فِي صَفَاءِ ٱلْإِيمَانِ ، وَٱلْتِزَامِ ٱلْعِبَادَاتِ ، أَنِ ٱسْتَثْنَى شُرْبَ ٱلْخَمْرِ لِغَرَضِ ٱلتَّشَافِي ، فَهَذَا إِيمَانُ مَنْ يَدَّعِي ٱلْإِيمَانَ

(١) محترز : متحصن متحفظ

مِنْهُمْ ، وَقَدِ ٱنْخَدَعَ بِهِمْ جَمَاعَةٌ ، زَادَهُمُ ٱنْخِدَاعًا ضَعْفُ ٱعْتِرَاضِ ٱلْمُعْتَرِضِينَ عَلَيْهِمْ ، إِذِ ٱعْتَرَضُوا بِمُجَاحَدَةِ عِلْمِ ٱلْهَنْدَسَةِ وَٱلْمَنْطِقِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ بِمَا هُوَ ضَرُورِيٌّ لَهُمْ ، عَلَى مَا بَيَّنَّا عِلَّتَهُ مِنْ قَبْلُ .

فَلَمَّا رَأَيْتُ مِنْ أَصْنَافِ ٱلْخَلْقِ ، مَنْ ضَعُفَ إِيمَانُهُمْ إِلَى هَذَا ٱلْحَدِّ بِهَذِهِ ٱلْأَسْبَابِ ، وَرَأَيْتُ نَفْسِي مُلِبَّةً [1] بِكَشْفِ هَذِهِ ٱلشُّبْهَةِ ، حَتَّى كَانَ إِفْضَاحُ [2] هَؤُلَاءِ أَيْسَرَ عِنْدِي مِنْ شَرْبَةِ مَاءٍ ، لِكَثْرَةِ خَوْضِي فِي عُلُومِهِمْ وَطُرُقِهِمْ ، أَعْنِي طُرُقَ ٱلصُّوفِيَّةِ وَٱلْفَلَاسِفَةِ ، وَٱلتَّعْلِيمِيَّةِ وَٱلْمُتَوَسِّمِينَ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ ، ٱنْقَدَحَ فِي نَفْسِي أَنَّ ذَلِكَ مُتَعَيِّنٌ فِي هَذَا ٱلْوَقْتِ مَحْتُومٌ ، فَمَاذَا تُغْنِيكَ ٱلْخَلْوَةُ وَٱلْعُزْلَةُ ، وَقَدْ عَمَّ ٱلدَّاءُ ، وَمَرِضَ ٱلْأَطِبَّاءُ ، وَأَشْرَفَ ٱلْخَلْقُ عَلَى ٱلْهَلَاكِ .

ثُمَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي : مَتَى تَشْتَغِلُ أَنْتَ بِكَشْفِ هَذِهِ ٱلْغُمَّةِ ؟ وَمُصَادَمَةِ هَذِهِ ٱلظُّلْمَةِ ، وَٱلزَّمَانُ زَمَانُ ٱلْفَتْرَةِ ، وَٱلدَّوْرُ دَوْرُ ٱلْبَاطِلِ ، وَلَوْ ٱشْتَغَلْتَ بِدَعْوَةِ ٱلْخَلْقِ ،

(١) ملبة : متجهة (٢) المصدر المعروف فى اللغة « فضح »

عَنْ طُرُقِهِمْ إِلَى الْحَقِّ لَعَادَاكَ أَهْلُ الزَّمَانِ بِأَجْمَعِهِمْ ، وَأَنَّى تُقَاوِمُهُمْ ؟ وَكَيْفَ تُعَايِشُهُمْ ؟ وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِزَمَانٍ مُسَاعِدٍ ، وَسُلْطَانٍ مُتَدَيِّنٍ قَاهِرٍ ، فَتَرَخَّصْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى بِالْاِسْتِمْرَارِ عَلَى الْعُزْلَةِ ، تَعَلُّلًا بِالْعَجْزِ عَنْ إِظْهَارِ الْحَقِّ بِالْحُجَّةِ ، فَقَدَّرَ اللهُ تَعَالَى أَنْ حَرَّكَ دَاعِيَةَ سُلْطَانِ الْوَقْتِ مِنْ نَفْسِهِ ، لَا بِتَحْرِيكٍ مِنْ خَارِجٍ ، فَأَمَرَ أَمْرَ إِلْزَامٍ بِالنُّهُوضِ إِلَى نَيْسَابُورَ ، لِتَدَارُكِ هَذِهِ الْفَتْرَةِ ، وَبَلَغَ الْإِلْزَامُ حَدًّا كَانَ يَنْتَهِي - لَوْ أَصْرَرْتُ عَلَى الْخِلَافِ - إِلَى حَدِّ الْوَحْشَةِ ، فَخَطَرَ لِي أَنَّ سَبَبَ الرُّخْصَةِ قَدْ ضَعُفَ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَاعِثُكَ عَلَى مُلَازَمَةِ الْعُزْلَةِ الْكَسَلُ وَالْاِسْتِرَاحَةُ ، وَطَلَبُ عِزَّةِ النَّفْسِ ، وَصَوْنُهَا عَنْ أَذَى الْخَلْقِ ، وَلَمْ تُرَخِّصْ لِنَفْسِكَ إِلَّا لِعُسْرِ مُعَانَاةِ الْخَلْقِ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ ، « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » الْآيَةَ ، وَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ وَهُوَ أَعَزُّ خَلْقِهِ : « وَلَقَدْ

كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا ، حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا، وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ » وَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، يس ، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » إِلَى قَوْلِهِ: « إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ» . فَشَاوَرْتُ فِي ذَلِكَ جَمَاعَةً مِنْ أَرْبَابِ الْقُلُوبِ وَالْمُشَاهَدَاتِ ، فَاتَّفَقُوا عَلَى الْإِشَارَةِ بِتَرْكِ الْعُزْلَةِ ، وَالْخُرُوجِ مِنَ الزَّاوِيَةِ ، وَانْضَافَ إِلَى ذَلِكَ مَنَامَاتٌ مِنَ الصَّالِحِينَ كَثِيرَةٌ مُتَوَاتِرَةٌ ، تَشْهَدُ بِأَنَّ هَذِهِ الْحَرَكَةَ مَبْدَأُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، قَدَّرَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْمِائَةِ ، وَقَدْ وَعَدَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِإِحْيَاءِ دِينِهِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ (١) ، فَاسْتَحْكَمَ الرَّجَاءُ ، وَغَلَبَ حُسْنُ الظَّنِّ بِسَبَبِ هَذِهِ الشَّهَادَاتِ ، وَيَسَّرَ اللهُ تَعَالَى الْحَرَكَةَ إِلَى نَيْسَابُورَ ، لِلْقِيَامِ بِهَذَا الْأَمْرِ الْمُهِمِّ فِي

(١) يشير إلى الحديث النبوى الشريف القائل «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » رواه أبو داود والحاكم والبيهقى فى المعرفة .

ذِى ٱلْقَعْدَةِ ، سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَبَلَغَتْ مُدَّةُ ٱلْعُزْلَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً ، وَهَذِهِ حَرَكَةٌ قَدَّرَهَا ٱللهُ تَعَالَى ، وَهِىَ مِنْ عَجَائِبِ تَقْدِيرَاتِهِ ٱلَّتِى لَمْ يَكُنْ لَهَا ٱنْقِدَاحٌ فِى ٱلْقَلْبِ فِى هَذِهِ ٱلْعُزْلَةِ ، كَمَا لَمْ يَكُنِ ٱلْخُرُوجُ مِنْ بَغْدَادَ ، وَٱلنُّزُوعُ عَنْ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ مِمَّا خَطَرَ إِمْكَانُهُ أَصْلاً بِالْبَالِ ، وَٱللهُ تَعَالَى مُقَلِّبُ ٱلْقُلُوبِ وَٱلْأَحْوَالِ ، وَقَلْبُ ٱلْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ ٱلرَّحْمَنِ (١) ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنِّى وَإِنْ رَجَعْتُ إِلَى نَشْرِ ٱلْعِلْمِ فَمَا رَجَعْتُ ، فَإِنَّ ٱلرُّجُوعَ عَوْدٌ إِلَى مَا كَانَ ، وَكُنْتُ فِى ذَلِكَ ٱلزَّمَانِ أَنْشُرُ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِى بِهِ يُكْسَبُ ٱلْجَاهُ ، وَأَدْعُو إِلَيْهِ بِقَوْلِى وَعَمَلِى ، وَكَانَ ذَلِكَ قَصْدِى وَنِيَّتِى ، وَأَمَّا ٱلْآنَ فَأَدْعُو إِلَى ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِى بِهِ يُتْرَكُ ٱلْجَاهُ ، وَيُعْرَفُ بِهِ سُقُوطُ رُتْبَةِ ٱلْجَاهِ ، هَذَا هُوَ ٱلْآنَ

(١) جاء فى صحيح مسلم فى الجزء الثانى بالصفحة ٣٠١ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف شاء » . « عن ابن عمرو »

نِيَّتِي وَقَصْدِي وَأُمْنِيَّتِي ، يَعْلَمُ اللهُ ذَلِكَ مِنِّي ، وَأَنَا أَبْغِي أَنْ أُصْلِحَ نَفْسِي وَغَيْرِي، وَلَسْتُ أَدْرِي، أَأَصِلُ إِلَى مُرَادِي أَمْ أُخْتَرَمُ[1] دُونَ غَرَضِي ، وَلَكِنِّي أُومِنُ إِيمَانَ يَقِينٍ وَمُشَاهَدَةٍ أَنَّهُ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، وَأَنِّي لَمْ أَتَحَرَّكْ وَلَكِنَّهُ حَرَّكَنِي، وَأَنِّي لَمْ أَعْمَلْ لَكِنَّهُ اسْتَعْمَلَنِي ، فَأَسْأَلُهُ أَنْ يُصْلِحَنِي أَوَّلاً ، ثُمَّ يُصْلِحَ بِي وَيَهْدِيَنِي ثُمَّ يَهْدِيَ بِي ، وَأَنْ يُرِيَنِي الْحَقَّ حَقًّا ، وَيَرْزُقَنِي اتِّبَاعَهُ ، وَيُرِيَنِي الْبَاطِلَ بَاطِلاً ، وَيَرْزُقَنِي اجْتِنَابَهُ .

هَذَا مَاحَدَّثَ بِهِ الْغَزَالِيُّ ، فِي كِتَابِ « الْمُنْقِذِ مِنَ الضَّلاَلِ » بِسَبِيلِ دَوَافِعِهِ إِلَى مُعَاوَدَةِ الْحَيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ بَعْدَ الْعُزْلَةِ الْمُسْتَطِيلَةِ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ لاَ يُرِيدُ أَنْ يُفْهِمَ النَّاسَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ عَادَ إِلَى النَّاسِ ، فَقَدْ رَجَعَ إِلَيْهِمْ كَمَا كَانَ أَمْرُهُ مِنْ قَبْلُ وَشَأْنُهُ ، وَلَكِنَّهُ عَادَ بِنَفْسٍ جَدِيدَةٍ ، تَأَثَّرَتْ بِالْعُزْلَةِ ، فَلَنْ تَتَحَوَّلَ عَمَّا تَأَثَّرَتْ بِهِ ،

(١) أختترم : أهلك

وَلَنْ تَتَبَدَّلَ بِالْمُرَاجَعَةِ خَلْقًا جَدِيدًا ، وَقَدْ رَأَيْتَ فِيمَا سَلَفَ مِنْ فُصُولِ هَذَا الْكِتَابِ ، أَنَّهُ فِيمَا قَضَى مِنَ الدَّهْرِ عَقِبَ رُجْعَاهُ مِنْ تَطْوَافِهِ ، قَدْ ظَلَّ صُوفِيًّا أَكْثَرَ مِنْهُ عَالِمًا بَحَّاثَةً ، وَمُتَعَبِّدًا أَكْثَرَ مِنْهُ دَارِسًا مُتَفَقِّهًا ، فَقَدْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْأَنْفَاسُ الصُّوفِيَّةُ وَأَرْوَاحُهَا ، وَعَوَامِلُهَا وَمُؤَثِّرَاتُهَا حَتَّى آخِرِ أَيَّامِهِ

***

فضل العزلة في حياة الغزالى

وَيَكْفِي فِي بَيَانِ فَضْلِ هَذِهِ الْعُزْلَةِ الَّتِي آثَرَهَا ، وَالنَّزْعَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي تَابَعَهَا ، أَنَّهُ وَضَعَ خِلَالَهَا أَكْبَرَ تَوَالِيفِهِ ، وَهُوَ كِتَابُ « إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ » ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ أَجَلُّ مَا خَرَجَ مِنْ قَلَمِ الْغَزَالِيِّ ، وَأَرْوَعُ مَا كَانَ مِنْ عِلْمِهِ وَبَحْثِهِ وَدِرَاسَتِهِ .

وَفِي هَذِهِ الطَّوْفَةِ الْمُسْتَطِيلَةِ ، وَضَعَ أَبُو حَامِدٍ كَذَلِكَ وَهُوَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ كِتَابَهُ « الرِّسَالَةَ الْقُدْسِيَّةَ » وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ وَضَعَ كِتَابَ الْإِحْيَاءِ وَهَذِهِ

الرِّسَالَةَ ، قَبْلَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، لِأَنَّ الصَّلِيبِيِّينَ اسْتَوْلَوْا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي شَعْبَانَ مِنْ تِلْكَ السَّنَةِ ، بَعْدَ أَنْ وَقَعَتْ لِلْفَاطِمِيِّينَ فِي نِزَاعِهِمْ مَعَ السَّلَاجِقَةِ .

***

المجالس الغزالية

وَقَدْ عَادَ الْغَزَالِيُّ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ عُزْلَتِهِ بِرُوحِ الْعُزْلَةِ ذَاتِهَا ، فَجَلَسَ فِي بَغْدَادَ يُعَلِّمُ النَّاسَ « الْإِحْيَاءَ » وَيَجْلِسُ مَجَالِسَ الْوَعْظِ ، وَلَهُ تَصْنِيفٌ يُسَمَّى « الْمَجَالِسَ الْغَزَالِيَّةَ » رَوَى السُّبْكِيُّ فِي طَبَقَاتِهِ : أَنَّ النَّاسَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ ، وَأَنَّ سَعِيدَ بْنَ فَارِسٍ الْمَعْرُوفَ بِابْنِ اللَّبَّانِ ، كَانَ يَجْلِسُ فِي نَاحِيَةٍ يُدَوِّنُ مَوَاعِظَهُ ، حَتَّى عَدَّ مِنْهَا ثَلَاثًا وَثَمَانِينَ وَمِائَةً ، ثُمَّ قَرَأَهَا عَلَيْهِ فَصَحَّحَهَا لَهُ ، وَأَجَازَ لَهُ تَعْلِيمَهَا .

***

قلب يخفق

وَهَكَذَا رَأَيْنَا الْغَزَالِيَّ بِعُزْلَتِهِ قَدْ غَيَّرَ مَجْرَى حَيَاتِهِ ،

وَجعَلَ تطوُّرَهُ ٱلفِكْرِيَّ مُتَّصِلاً أَدَقَّ ٱلصِّلَةِ بِتطوُّرِهِ ٱلرُّوحِيِّ، مُوَجِّهًا لِعَقْلِهِ فِي طَرِيقِ قَلْبِهِ ، وَذِهْنِهِ فِي نَاحِيَةِ حِسِّهِ ، وَإِيمَانِهِ صَوْبَ وِجْدَانِهِ ، حَتَّى لَيَشْعُرُ ٱلنَّاسُ - إِذَا مَا ٱلتَمَسُوا فَهْمَهُ ، وَعَالَجُوا إِدْرَاكَ ٱعْتِقَادِهِ فِي كُتُبِهِ وَتَوَالِيفِهِ - بِأَنَّهُمْ أَمَامَ قَلْبٍ يَخْفِقُ ، وَعَاطِفَةٍ تَتَدَفَّقُ ، وَوِجْدَانٍ زَاخِرِ ٱلْمَوْجِ مُصْطَفِقِ (١) ، وَإِقْنَاعٍ يَدْخُلُ ٱللُّبَّ (٢) بِكُلِّ لُطْفٍ وَرِفْقٍ ، وَإِيمَانٍ فَيَّاضٍ ثَجَّاجٍ (٣) مُتَعَمِّقٍ ، يَحْمِلُ ٱلنُّفُوسَ مَعَ ٱلنَّفَحَاتِ ٱلْعُلْوِيَّةِ إِلَى سَاحِلِ ٱلْإِيمَانِ ، وَشَاطِئِ ٱلْيَقِينِ .

***

وصف كتاب المنقذ من الضلال

وَقَدْ نَقَلْنَا لَكَ شُذُورًا مِنَ ٱعْتِرَافَاتِهِ ٱلَّتِي أَوْدَعَهَا كِتَابَ « ٱلْمُنْقِذِ مِنَ ٱلضَّلَالِ » ، وَهُوَ كِتَابٌ نَحْسَبُهُ إِلَى عَهْدِهِ ، كَانَ فَرِيدًا فِي ٱلثَّقَافَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ ، أَوْحَدَ نَوْعِهِ فِي ٱلْأَدَبِ ٱلْعِلْمِيِّ ، مُنْقَطِعَ ٱلشَّبِيهِ فِي مُؤَلَّفَاتِ ٱلدِّينِ ،

(١) مصطفق : متلاطم (٢) اللب : العقل (٣) ثجاج : شديد الانصباب

وَهُوَ قِصَّةُ حَيَاةٍ فِكْرِيَّةٍ ، وَصُورَةُ نَفْسٍ فِي نِزَاعٍ مُسْتَمِرٍّ ، وَبَحْثٍ دَائِبٍ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَالْتِمَاسٍ مُسْتَطِيلٍ لِلْمَعْرِفَةِ ، بَلْ هُوَ قِصَّةُ الشُّكُوكِ ، وَالْهَوَاجِسِ النَّفْسِيَّةِ الْمُضْطَرِمَةِ الْمُتَدَافِعَةِ ، وَنَفَحَاتِ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ الْخَاطِرَةِ الْمُنْعِشَةِ الْمُشَجِّعَةِ ، قِصَّةُ الضِّيَاءِ وَكَيْفَ انْطَفَأَ ثُمَّ عَادَتْ أَشِعَّتُهُ خَاطِفَةً لَامِعَةً ، وَصُورَةُ النَّفْسِ الْعَائِدَةِ إِلَى الْإِيمَانِ الرَّاجِعَةِ ، بَعْدَ دَرَجَاتٍ مُتَلَاحِقَةٍ مُنَوَّعَةٍ ، بَيْنَ شَكٍّ وَيَقِينٍ ، وَيَقِينٍ وَشَكٍّ ، إِلَى أَنِ اسْتَقَرَّتِ النَّفْسُ مِنْهَا أَخِيرًا عِنْدَ إِيمَانٍ ثَابِتٍ مَكِينٍ .

***

اعتذار وبيان

وَقَدْ رَأَيْتُ الْعَلَّامَةَ « مَكْدُولَانْدَ » يَقُولُ فِي تَقْدِيرِهَا : إِنَّهَا أَشْبَهُ الْأَشْيَاءِ بِمَا يُسَمِّيهِ الْفِرَنْجَةُ « أَبُولُوجْيَا » أَيْ أَنَّهَا اعْتِذَارٌ وَبَيَانٌ ، وَاسْتِغْفَارٌ وَاطْمِئْنَانٌ ، وَأَنَّهَا مِنْ حَيْثُ النَّوْعُ وَالِاسْتِطْرَادُ ، وَالنَّسِيجُ وَالْمَنْحَى وَالْأُسْلُوبُ ، تَقَعُ فِي مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ مَعَ تَرْجَمَةِ « نيومان » لِحَيَاتِهِ ،

وَصُورَتِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَذَاتِهِ ، وَأَنَّ ٱلْكِتَابَ دِفَاعٌ عَنْ حَيَاةِ ٱلْكَاتِبِ صُوفِيًّا إِزَاءَ خُصُومِهِ وَمُحَاجِّيهِ [1] ، وَأَعْدَائِهِ وَمُخَاصِمِيهِ ، « مِنْ فَلَاسِفَةٍ وَفُقَهَاءَ ، وَدِينِيِّينَ وَعُلَمَاءَ » | وَلَكِنَّهُ أَيْضاً دِفَاعٌ عَنِ ٱلدِّينِ فِي جَوْهَرِهِ وَذَاتِهِ ، فِي وَقْتِ تَشَكُّكٍ فَاشٍ وَفُتُورٍ عَامٍّ ، وَرِيبٍ مُخْتَلِفَةٍ وَظُنُونٍ . وَبَيَانٌ لِلطَّرِيقِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَسْلُكَهُ ٱلْمُؤْمِنُ ، وَٱلْحُجَجِ ٱلَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَّخِذَهَا ٱلْمُطْمَئِنُّ ٱلْمُعْتَقِدُ ، إِزَاءَ ٱلْجَحَدَةِ وَٱلْمُتَشَكِّكِينَ وَٱلْمُتَظَنِّينَ .

لَقَدْ وَصَفَ ٱلْغَزَالِيُّ فِي ٱعْتِرَافَاتِهِ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي أُسْلُوبٍ سَهْلٍ ، عَلَيْهِ طَابَعُ ٱلصِّدْقِ ، وَتَهُبُّ مِنْ خِلَالِهِ أَرْوَاحُ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْأَمَانَةِ ، وَٱلْبَسَاطَةِ وَٱلنَّقَاءِ ، فَهِيَ قِصَّةُ أَلَمٍ نَفْسِيٍّ ، وَسِجَالٍ [2] طَوِيلٍ بَيْنَ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعَاطِفَةِ ، وَٱلذِّهْنِ وَٱلْإِلْهَامِ ، إِذْ بَدَأَ بِالشَّكِّ فِي غَيْرِ إِصْرَارٍ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ فِي لَهْفَةٍ عَلَى ٱلنَّجَاةِ مِنْهُ ، وَٱنْتَهَى بِالْإِيمَانِ فِي رِضْوَانٍ بِهِ ، وَفَرَحٍ لَهُ ، وَيَقِينٍ بِهِ .

(١) المحاجة : المجادلة (٢) السجال : المعارضة والمباراة والمفاخرة

***

كتاب شيخ

وَقَدْ وَضَعَ ٱلْغَزَالِيُّ هٰذِهِ ٱلاعْتِرَافَاتِ ، بَعْدَ رِحْلَةٍ عَقْلِيَّةٍ قَلْبِيَّةٍ ، فِي آفَاقِ ٱلْفِكْرِ وَٱلدِّينِ ، وَقُبَيْلَ نِهَايَةِ ٱلأَجَلِ ، وَخِتَامِ ٱلْعُمُرِ ، وَمُنْطَفَإِ نُورِ ٱلْحَيَاةِ ، وَهُوَ لِذَلِكَ كِتَابُ شَيْخٍ ، وَلَيْسَ بِكِتَابِ شَابٍّ ، وَٱعْتِرَافُ نَضِيجٍ (١) لاَ ٱسْتِرْسَالَةُ عَقْلٍ فِجٍّ (٢) . وَقَدْ أَكْسَبَتْهُ ٱلرَّزَانَةُ وَقَارَ ٱلْمُفَكِّرِ ، وَوُضُوحَ ٱلْمُتَّزِنِ (٣) ، وَٱئْتِلاَفُ ٱلسِّيَاقِ ، وَٱنْسِجَامَ ٱلأَجْزَاءِ وَٱلطِّبَاقِ ، وَوَحْدَةَ ٱلْغَرَضِ ، وَٱسْتِقَامَةَ ٱلنَّهْجِ ، وَسَلاَمَةَ ٱلطَّرِيقِ .

***

قبل ديكارت وكنت

لَقَدْ رَأَى صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلاعْتِرَافَاتِ ، ٱخْتِلاَفَ ٱلْمَذَاهِبِ فِي عَصْرِهِ ، وَتَبَايُنَ وُجُوهِ ٱلْفَلْسَفَةِ وَٱلنَّظَرِ فِي زَمَانِهِ ، فَخُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ ، أَمَامَ بَحْرٍ مُتَلاَطِمِ ٱللُّجِّ ، مُتَقَاذِفِ ٱلْمَوْجِ ، أَكْثَرُ مَنْ خَاضَهُ

(١) يقال فلان نضيج الرأى أى محكمه (٢) الفج : الناقص الذى لم يتم نضجه (٣) المتزن : أصيل الرأى

غَرِقَ فِيهِ ، فَلَمْ يَجْبُنْ وَلَمْ يَنْزِوِ عَنْ مَخَاضِهِ ، وَلَمْ يَخْشَ الْاِنْدِفَاعَ نَحْوَهُ ، وَاحْتِمَالَ غَمَرَاتِهِ ، وَالْإِدْلَاجَ فِي ظُلُمَاتِهِ ، إِذْ أَحَسَّ دَافِعاً خَفِيًّا يَدْفَعُهُ إِلَيْهِ ، وَبَاعِثاً قَوِيًّا يَبْعَثُهُ عَلَيْهِ ، وَشَعَرَ[1] مِنَ النَّشْأَةِ الْعِلْمِيَّةِ بِخَلِيطٍ مِنَ الشَّكِّ فِي نَفْسِهِ يَلْتَقِي بِخَلِيطٍ مِنَ الْإِيمَانِ ، فَكَانَتْ بَوَادِرُ الشَّكِّ عِنْدَهُ التَّحَلُّلَ مِنْ رَوَابِطِ التَّقْلِيدِ ، وَأَخْذَ الْمَذَاهِبِ وَالْآرَاءِ قَضَايَا مُسَلَّماً بِهَا ، وَقَبُولَ الدِّينِ تُرَاثاً مُنْحَدِرًا مِنَ الْآبَاءِ إِلَى الْبَنِينَ ، وَالذَّهَابَ إِلَى أَنَّ الْيَقِينَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِانْكِشَافِهِ لِلْعَقْلِ ، وَانْحِسَارِ اللَّثْمِ عَنْ وَجْهِهِ لِلْبَدَاهَةِ وَالتَّفْكِيرِ ، فَهُوَ فِي ذَلِكَ سَابِقٌ عَلَى مَذْهَبِ « دِيكَارْتَ » الْفَيْلَسُوفِ الْمُحْدَثِ مُتَقَدِّمٌ « كَنْتَ » فِي تَحْدِيدِ الْعَقْلِ ، وَصِلَتِهِ بِالْحَقَائِقِ وَالْيَقِينِ .

***

وَلَكِنَّ الْغَزَالِيَّ فِي اعْتِرَافَاتِهِ هَذِهِ ، لَا يَسْتَعِينُ الْعَقْلَ وَحْدَهُ عَلَى الْمَحْسُوسِ ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَعِينُ الْعَقْلَ

على غرار هيوم

(١) شعر : فطن

وَٱلْحَدْسَ مَعاً ، وَلَوْلاَ ذٰلِكَ لَظَلَّ عَلَى سَفْسَطَتِهِ (١) مجرَّدَ رَجُلٍ مُرْتَابٍ مُتَشَكِّكٍ ، عَلَى غِرَارِ (٢) « دَافِيدْ هِيُومَ » ، لاَ أَكْثَرَ وَلاَ أَقَلَّ ، وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ « ٱلْمُنْقِذِ مِنَ ٱلضَّلاَلِ » :

***

النور الخفى

وَعَادَتِ ٱلنَّفْسُ إِلَى ٱلصِّحَّةِ وَٱلاِعْتِدَالِ ، وَرَجَعَتِ ٱلضَّرُورِيَّاتُ ٱلْعَقْلِيَّةُ مَوْثُوقاً بِهَا عَلَى أَمْنٍ وَيَقِينٍ ، وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ بِنَظْمِ دَلِيلٍ ، وَتَرْتِيبِ كَلاَمٍ ، بَلْ بِنُورٍ يَقْذِفُهُ ٱللهُ تَعَالَى فِي ٱلصَّدْرِ ، وَذٰلِكَ ٱلنُّورُ هُوَ مِفْتَاحُ أَكْثَرِ ٱلْمَعَارِفِ ، فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ ٱلْكَشْفَ مَوْقُوفٌ عَلَى ٱلْأَدِلَّةِ ٱلْمُجَرَّدَةِ ، فَقَدْ ضَيَّقَ رَحْمَةَ ٱللهِ ٱلْوَاسِعَةَ ، وَلَمَّا سُئِلَ رَسُولُ ٱللهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلاَةُ وَٱلسَّلاَمُ عَنِ ٱلشَّرْحِ وَمَعْنَاهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « فَمَنْ يُرِدِ ٱللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ

(١) السفسطة : قياس مركب من الوهميات ، والغرض منه إفحام الخصم وإسكاته . « يونانية » . (٢) غرار : أى مثال وطريقة .

صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ » سُورَةَ الْأَنْعَامِ . قَالَ : هُوَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ تَعَالَى فِي الْقَلْبِ ، فَقِيلَ : وَمَا عَلَامَتُهُ ؟ فَقَالَ : «التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ (١) » ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيهِ : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ (٢) » ، فَمَنْ ذَلِكَ النُّورِ يَنْبَغِي أَنْ يُطْلَبَ الْكَشْفُ ، وَذَلِكَ النُّورُ يَنْبَجِسُ (٣) مِنَ النُّورِ الْإِلٰهِيِّ فِي بَعْضِ الْأَحَايِينِ ، وَيَجِبُ التَّرَصُّدُ (٤) لَهُ ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ « إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ ، أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا (٥) . »

---

(١) أخرج هذا الحديث ابن جرير ، وعبد الرازق ، وابن حاتم ، وساقه الامام ابن كثير بأسانيده فى تفسيره ، ثم قال : فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة ، يشد بعضها بعضا . (٢) ورد هذا الحديث فى مسند الامام أحمد هكذا « إن الله تعالى خلق خلقه فى ظلمة ، فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضل » (٣) ينبجس : يخرج بكثرة (٤) الارصاد والترصد : الترقب (٥) ورد فى الفتح الكبير للسيوطى هكذا ! « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها ، لعله أن يصيبكم نفحة منها فلا تشقون بعدها أبدا » ورواه الطبرانى عن محمد بن مسلمة .

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ ، أَنْ يُعْلَمَ كَمَالُ الْجِدِّ فِي الطَّلَبِ ، حَتَّى يُنْتَهَى[1] إِلَى طَلَبِ مَا لَا يُطْلَبُ ، فَإِنَّ الْأَوَّلِيَّاتِ لَيْسَتْ مَطْلُوبَةً ، فَإِنَّهَا حَاضِرَةٌ ، وَالْحَاضِرُ إِذَا طُلِبَ فُقِدَ وَاخْتَفَى ، وَمَنْ طَلَبَ مَا لَا يُطْلَبُ ، فَلَا يُتَّهَمُ بِالتَّقْصِيرِ فِي طَلَبِ مَا يُطْلَبُ .

وَهَكَذَا اعْتَمَدَ الْغَزَالِيُّ عَلَى « الْكَشْفِ الْبَاطِنِيِّ » فِي الِانْتِقَالِ مِنْ مَرْحَلَةِ الشَّكِّ إِلَى مَرْحَلَةِ الْيَقِينِ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يُشْبِهُ الْفَيْلَسُوفَ الْفَرَنْسِيَّ « دِيكَارْت » فِي طَرِيقَتِهِ ، وَاتِّجَاهِ تَفْكِيرِهِ ، كَمَا تَرَى فِي كِتَابِ « التَّأَمُّلَاتِ » .

***

الْحَدْسُ[2] الْفِكْرِيُّ هُوَ عِنْدَ الْغَزَالِيِّ : مِفْتَاحُ الْمَعْرِفَةِ ، وَلَكِنْ قَدْ يُكَذِّبُ حَاكِمُ الْعَقْلِ حَاكِمَ الْحَدْسِ ، وَقَدْ يَكُونُ وَرَاءَ حَاكِمِ الْعَقْلِ حَاكِمٌ آخَرُ يُكَذِّبُهُ

مفتاح المعرفة

(١) حتى ينتهى : حتى يتوصل . (٢) الحدس : الظن المؤكد

كَذَلِكَ ! ، وَقَدْ يَتَسَلْسَلُ ٱلْأَمْرُ هَكَذَا إِلَى مَالَا نِهَايَةَ لَهُ ، فَمِنَ ٱلْمُحَتَّمِ إِذَنْ أَنْ نَثِقَ بِالضَّرُورَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ، وَنُسَلِّمَ بِالْأَوَّلِيَّاتِ .

***

الكشف الباطنى

وَلِأَنَّ نِطَاقَ ٱلْعَقْلِ مَحْدُودٌ ، وَلِعَجْزِهِ عَنْ حَلِّ سَائِرِ ٱلْمُعْضِلَاتِ ، جَعَلَ ٱلْغَزَالِيُّ ٱلْإِيمَانَ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْكَشْفِ ٱلْبَاطِنِيِّ ، عَلَى حَدِّ مَذْهَبِ ٱلصُّوفِيَّةِ وَٱعْتِقَادِهِمْ .

وَلَكِنَّ ٱلْغَزَالِيَّ بِجَعْلِهِ طَرِيقَةَ ٱلْكَشْفِ ٱلْبَاطِنِيِّ مَصْدَرَ ٱلْعَقِيدَةِ ٱلدِّينِيَّةِ ، ذَهَبَ فِي حُرِّيَّةِ ٱلتَّفْكِيرِ إِلَى ٱلتَّحْذِيرِ مِنَ ٱلتَّعَجُّلِ بِتَكْفِيرِ كُلِّ مَنْ يُخَالِفُ مَذْهَبَهُ ، وَلَيْسَ أَبْلَغَ فِي ٱلتَّسَامُحِ ٱلْفِكْرِيِّ ، وَٱلتَّرَفُّعِ عَنِ ٱلْأَخْذِ بِالتَّقْلِيدِ ، وَٱحْتِرَامِ ٱلْحَقِّ فِي ذَاتِهِ ، بِغَضِّ ٱلنَّظَرِ عَنْ مَصْدَرِهِ ، مِمَّا قَالَهُ ٱلْغَزَالِيُّ فِي ٱعْتِرَافَاتِهِ ، وَهُوَ « أَنَّ طَائِفَةً مِنَ ٱلضُّعَفَاءِ ظَنَّتْ أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَ مُدَوَّنًا

فِي كُتُبِ ٱلْمُخَالِفِينَ لَهُمْ فِي ٱلرَّأْيِ ، وَجَبَ أَنْ يُجْبَرَ وَلاَ يُذْكَرَ ، بَلْ يُنْكَرَ عَلَى كُلِّ مَنْ يَذْكُرُهُ ، إِذْ لَمْ يَسْمَعُوهُ أَوَّلاً إِلاَّ مِنْهُمْ ، فَسَبَقَ إِلَى عُقُولِهِمْ ٱلضَّعِيفَةِ أَنَّهُ بَاطِلٌ ، لِأَنَّ قَائِلَهُ مُبْطِلٌ ، كَٱلَّذِي يَسْمَعُ مِنَ ٱلنَّصْرَانِيِّ قَوْلَ « لاَ إِلٰهَ إِلاَّ ٱللهُ عِيسَى رَسُولُ ٱللهِ » فَيُنْكِرُهُ وَيَقُولُ : « هٰذَا كَلاَمُ ٱلنَّصْرَانِيِّ » وَلاَ يَتَوَقَّفُ رَيْثَمَا يَتَأَمَّلُ أَنَّ ٱلنَّصْرَانِيَّ كَافِرٌ بِاعْتِبَارِ هٰذَا ٱلْقَوْلِ ، أَوْ بِاعْتِبَارِ إِنْكَارِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا إِلاَّ بِاعْتِبَارِ إِنْكَارِهِ ، فَلاَ يَنْبَغِي أَنْ يُخَالَفَ فِي غَيْرِ مَا هُوَ بِهِ كَافِرٌ ، مِمَّا هُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِهِ ، وَإِنْ كَانَ أَيْضًا حَقًّا عِنْدَهُ ، وَهٰذِهِ عَادَةُ ضُعَفَاءِ ٱلْعُقُولِ ، يَعْرِفُونَ ٱلْحَقَّ بِالرِّجَالِ ، لاَ ٱلرِّجَالَ بِالْحَقِّ . وَٱلْعَاقِلُ يَقْتَدِي بِقَوْلِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ، وَكَرَّمَ ٱللهُ وَجْهَهُ - حَيْثُ قَالَ « لاَ تَعْرِفِ ٱلْحَقَّ بِالرِّجَالِ ، بَلِ ٱعْرِفِ ٱلْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ » وَٱلْعَارِفُ

ٱلْعَاقِلُ يَعْرِفُ ٱلْحَقَّ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِي نَفْسِ ٱلْقَوْلِ، فَإِنْ كَانَ حَقًّا قَبِلَهُ، سَوَاءٌ كَانَ قَائِلُهُ مُبْطِلاً أَوْ مُحِقًّا، بَلْ رُبَّمَا يَحْرِصُ عَلَى ٱنْتِزَاعِ ٱلْحَقِّ مِنْ أَقَاوِيلِ أَهْلِ ٱلضَّلَالِ، عِلْماً بِأَنَّ مَعْدِنَ ٱلذَّهَبِ ٱلرَّغَامُ (١)، وَلَا بَأْسَ عَلَى ٱلصَّرَّافِ إِنْ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي كِيسِ «ٱلْقِلَابِ (٢)» وَٱنْتَزَعَ ٱلْإِبْرِيزَ ٱلْخَالِصَ مِنَ ٱلزَّيْفِ وَٱلْبَهْرَجِ، إِذْ كَانَ وَاثِقاً بِبَصِيرَتِهِ، وَإِنَّمَا يُزْجَرُ عَنْ مُعَامَلَةِ ٱلْقِلَابِ ٱلْقَرَوِيُّ، دُونَ ٱلصَّيْرَفِيِّ ٱلْبَصِيرِ، وَيُمْنَعُ مِنْ سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ، ٱلْأَخْرَقُ (٣) دُونَ ٱلسَّبَّاحِ ٱلْمَاهِرِ، وَيُصَدُّ (٤) عَنْ مَسِّ ٱلْحَيَّةِ ٱلصَّبِيُّ، دُونَ ٱلْمُعَزِّمِ (٥) ٱلْبَارِعِ.

وَلَعَمْرِي لَمَّا غَلَبَ عَلَى أَكْثَرِ ٱلْخَلْقِ ظَنُّهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ ٱلْحَذَاقَةَ وَٱلْبَرَاعَةَ وَكَمَالَ ٱلْعَقْلِ، وَتَمَامَ ٱلْآلَةِ، فِي تَمْيِيزِ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلْبَاطِلِ، وَٱلْهُدَى مِنَ ٱلضَّلَالَةِ، وَجَبَ حَسْمُ

(١) الرغام : التراب (٢) القلب : سوار للمرأة غير ملوى، مستعار من قلب النخلة لبياضه (٣) الأخرق : الأحمق (٤) ويصد : ويمنع.
(٥) المعزم : الذى يقرأ العزائم « الرقى »

ٱلْبَابِ بِزَجْرِ ٱلْكَافَّةِ عَنْ مُطَالَعَةِ كُتُبِ أَهْلِ ٱلضَّلَالَةِ مَا أَمْكَنَ .

***

الأوليات العقلية

وَمِنْ هَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ ، أَنَّ ٱلْغَزَالِيَّ يَطْلُبُ ٱلْعِلْمَ عَنْ طَرِيقِ ٱلْأَوَّلِيَّاتِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ، وَيُنَزِّهُهُ مِنَ ٱلتَّقَيُّدِ بِسُلْطَانِ ٱلتَّقْلِيدِ ، ثُمَّ يَعُودُ فَيُقَيِّدُهُ بِسُلْطَانِ ٱلدِّينِ ، فَيُكَفِّرُ ٱلْفَلَاسِفَةَ فِي عُلُومِهِمْ ، مَخَافَةَ مَا قَدْ يَنْجُمُ[1] عَنِ ٱلْإِيمَانِ بِهَا مِنَ ٱلزَّيْغِ[2] وَٱلضَّلَالِ ، حَتَّى لَقَدْ قَالَ بِزَجْرِ ٱلْعَامَّةِ عَنِ ٱلرِّيَاضِيَّاتِ ، لِأَنَّهَا وَإِنْ لَمْ تَتَّصِلْ بِالدِّينِ ، لَا تَزَالُ مِنْ مَبَادِئِ عُلُومِ ٱلْفَلَاسِفَةِ ، وَقَدْ يَسْرِي إِلَى ٱلدِّينِ شَرُّهُمْ وَشُؤْمُهُمْ ، فَقَلَّ مَنْ يَخُوضُ فِيهَا ، إِلَّا وَيَنْخَلِعُ[3] مِنَ ٱلدِّينِ ، وَيَنْحَلُّ عَنْ رَأْسِهِ لِجَامُ ٱلتَّقْوَى .

***

مناقشة الفلاسفة

وَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْفَلَاسِفَةِ فَانْتَقَدَ فِرَقَهُمْ ، وَنَاقَشَ

(١) ينجم : ينشأ (٢) الزيغ : الشك والميل عن الحق . (٣) ينخلع : يتحول ويحيد عنه .

مَذَاهِبَهُمْ وَنَظَرِيَّاتِهِمْ ، كَمَا قَسَّمَهَا فِي اعْتِرَافَاتِهِ « كِتَابِ الْمُنْقِذِ » وَجَعَلَ مُنَاقَشَتَهُ لَهَا تَحْتَ ضِيَاءِ الدِّينِ ، وَفِي حُدُودِ اعْتِقَادِهِ صِحَّةَ الْكَشْفِ الْبَاطِنِيِّ ، وَلَمْ يَتَنَاوَلْهَا بِالْبَحْثِ الْمُجَرَّدِ وَالْحَقِيقَةِ الْخَالِصَةِ ، لِأَنَّ الْحَقِيقَةَ عِنْدَهُ تَتْبَعُ الْعَقَائِدَ الدِّينِيَّةَ ، أَمَّا الثِّقَةُ بِالْعَقْلِ الْمَحْضِ فَتَكَادُ تَنْعَدِمُ لَدَيْهِ .

وَلَئِنْ لَمْ يَكُنِ الْغَزَالِيُّ أَوَّلَ مَنْ رَدَّ عَلَى الْفِرَقِ وَالْفَلَاسِفَةِ ، لَقَدْ كَانَ أَقْوَى مَنْ تَنَاوَلَ ذَلِكَ وَاضْطَلَعَ[1] بِهِ ، فَأَفْلَقَتْ[2] حُجَّتُهُ ، وَقَوِيَ جَانِبُهُ ، بَيْنَمَا ضَعُفَ جَانِبُ الْمُنْكِرِينَ ، وَأَبْدَى مِنْ قُوَّةِ الْعَارِضَةِ ، وَشِدَّةِ النَّقْدِ ، وَصَلَابَةِ الْعُودِ ، وَجَبَرُوتِ الْفِكْرِ ، وَمَتَانَةِ الْحُجَّةِ ، مَا حَطَّمَ بِهِ الْفَلْسَفَةَ ، وَأَقَامَ بِهِ صَرْحَ الدِّينِ[3] .

***

استمساكه بصوفيته

وَلَمْ يَهْجُرِ الْغَزَالِيُّ صُوفِيَّتَهُ إِلَى آخِرِ حَيَاتِهِ ،

(١) اضطلع به : نهض به (٢) أفلقت : أفلق الرجل فى الامر كان حاذقا وماهرا والحجة : قويت. (٣) الصرح : البناء العالى

وَإِنَّمَا لَزِمَهَا لُزُومَ إِيمَانٍ صَحِيحٍ بِهَا ، وَإِنْ كَانَ خُصُومُهُ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ قَدْ ذَهَبُوا إِلَى ٱلنَّقِيضِ مِنْ هَذَا ٱلرَّأْيِ فِيهِ ، فَقَالُوا : إِنَّهُ هَجَرَهَا وَنَبَذَهَا فِي أُخْرِيَاتِ أَيَّامِهِ ، وَلَعَلَّ ٱبْنَ تَيْمِيَةَ - وَهُوَ أَحَدُ خُصُومِهِ ، ٱلَّذِينَ أَلَحُّوا[1] فِي خُصُومَتِهِ ، وَكَتَبُوا ٱلْفُصُولَ ٱلطِّوَالَ فِي نَقْدِهِ ، وَتَعَقُّبِ ٱلْمَآخِذِ عَلَيْهِ - كَانَ ٱلسَّابِقَ إِلَى ٱلْقَوْلِ بِأَنَّهُ قَدْ تَرَكَ ٱلصُّوفِيَّةَ فِي ٱلسِّنِينَ ٱلْأَوَاخِرِ مِنْ حَيَاتِهِ ، وَأَنَّهُ تَبَيَّنَ أَنَّ طَرِيقَتَهَا لَا تُحَصِّلُ مَقْصُودَهُ ، فَطَلَبَ ٱلْهُدَى مِنْ طَرِيقِ ٱلْآثَارِ ٱلنَّبَوِيَّةِ ، وَأَخَذَ يَشْتَغِلُ بِٱلْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ ، وَكَانَ كَارِهًا مَا وَقَعَ فِي كُتُبِهِ ، مِنْ نَحْوِ هَذِهِ ٱلْأُمُورِ ، مِمَّا أَنْكَرَهُ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ .

***

وَأَحْسَبُ فِي هَذَا رُوحًا مِنَ ٱلتَّجَنِّي[2] وَمَسًّا مِنَ ٱلِاتِّهَامِ بِغَيْرِ حَقِيقَةٍ ، فَإِنَّ ٱلْغَزَالِيَّ فِي ٱلْوَاقِعِ لَمْ يَهْجُرِ

اتهامه ظلما

(١) ألحوا فى خصومته : أقبلوا على تعقبها ونقدها (٢) التجنى : ادعاء الذنب على من لم يفعله

الصُّوفِيَّةَ كَمَا قُلْتُ ، وَلَمْ يَشْتَغِلْ بِتَحْقِيقِ مَسْأَلَةِ النُّبُوَّةِ دُونَهَا ، وَلَكِنَّهُ قَرَّرَ أَنَّ أَكْثَرَ خَوَاصِّ النُّبُوَّةِ ، إِنَّمَا يُدْرَكُ بِالذَّوْقِ ، مِنْ سُلُوكِ طَرِيقِ التَّصَوُّفِ ، وَمَضَى يُدَلِّلُ عَلَى صِحَّةِ النُّبُوَّةِ مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ وَغَيْرِهِ فَقَالَ :

إِنَّ الْإِنْسَانَ عَلَى الْفِطْرَةِ يَجْهَلُ مَا يُحِيطُ بِهِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ ، ثُمَّ لَا تَلْبَثُ إِدْرَاكَاتُهُ أَنْ تَتَنَوَّعَ بِتَنَوُّعِ أَجْنَاسِ الْمَوْجُودَاتِ ، فَقُوَّةُ الْحِسِّ ، تُدْرِكُ عَالَمَ الْمَحْسُوسَاتِ ، وَقُوَّةُ التَّمْيِيزِ تُدْرِكُ أُمُورًا زَائِدَةً عَلَى الْحِسِّ ، وَيُدْرِكُ الْعَقْلُ الْوَاجِبَ وَالْجَائِزَ وَالْمُحَالَ ، وَلَكِنْ وَرَاءَ طَوْرِ (١) الْعَقْلِ قُوَّةٌ أُخْرَى ، لِإِدْرَاكِ الْغَيْبِ وَمَا سَيَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، فَثَمَّ إِذَنْ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ لِلْإِدْرَاكِ ، أَدْنَاهَا مُدْرَكَاتُ الْحِسِّ ، وَأَعْلَاهَا مُدْرَكَاتُ النُّبُوَّةِ .

***

(١) الطور : الحد بين الشيئين .

التدليل على صحة النبوة

وَالْبُرْهَانُ عَلَى وُجُودِ مُدْرَكَاتِ النُّبُوَّةِ وُجُودُ مَعَارِفَ ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتِمَّ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بِهَذَا النَّوْعِ مِنَ الْإِدْرَاكِ ، كَالطِّبِّ وَالنُّجُومِ ، فَإِنَّ مَنْ يَبْحَثُ عَنْهُمَا ، يَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ ، أَنَّهُمَا لَا يُدْرَكَانِ إِلَّا بِإِلْهَامٍ إِلٰهِيٍّ .

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْإِنْسَانِ وَجَدْنَا فِيهِ نَمُوذَجاً مِنْ هَذَا الْإِدْرَاكِ ، وَهُوَ « النَّوْمُ » فَإِنَّ النَّائِمَ يُدْرِكُ مَا سَيَكُونُ مِنَ الْغَيْبِ ، وَيَرَى وَيَسْمَعُ ، مَعَ أَنَّ بَصَرَهُ وَسَمْعَهُ فِي حَالَةِ غَفْلَةٍ ، فَكَمَا أَنَّ الْعَقْلَ طَوْرٌ تُدْرِكُ بِهِ أَنْوَاعاً مِنَ الْمَعْقُولَاتِ ، بَعِيدَةً عَنِ الْحِسِّ ، كَذَلِكَ النُّبُوَّةُ طَوْرٌ آخَرُ يَظْهَرُ فِيهِ نُورُ الْغَيْبِ ، وَلَا يُدْرِكُهُ الْعَقْلُ ، فَالرُّؤْيَا كَعِلْمِ الطِّبِّ وَالنُّجُومِ ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي الْإِنْسَانِ شَيْئاً مِنْ خَوَاصِّ النُّبُوَّةِ ، وَهِيَ تُقَرِّبُ هَذَا الْإِدْرَاكَ مِنَ الْعَقْلِ .

وَكَذَلِكَ رَأَيْنَا الْغَزَالِيَّ ابْتَدَأَ بِالشَّكِّ وَالتَّعَطُّشِ[1] إِلَى

(١) التعطش : الاشتياق .

مَعْرِفَةِ ٱلْحَقِيقَةِ ، وَحَلَّ عَقْلَهُ وَحِسَّهِ وَتَفْكِيرَهُ مِنْ رَوَابِطِ ٱلتَّقْلِيدِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ ثَمَّ عِلْماً يَقِينِيّاً[1] ، وَلَا وَسِيلَةً ، لِيُمَيِّزَ ٱلْحَقَّ مِنْ عَكْسِهِ ، فَذَهَبَ يَبْحَثُ عَنْ هَذَا ٱلْعِلْمِ وَيَتَلَمَّسُهُ[2] ، لِأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ لَا ثِقَةَ بِهِ ، وَلَا أَمَانَ مَعَهُ ، ثُمَّ ٱنْتَهَى بَعْدَ تَطْوَافٍ مُسْتَطِيلٍ ، فِي أُفُقِ ٱلْفِكْرِ ، إِلَى ٱلْإِيمَانِ ٱلْعَمِيقِ بِالدِّينِ وَٱلنُّبُوَّةِ ، فَانْكَمَشَ[3] فِي بَحْثِ خَوَاصِّهَا ، وَدِرَاسَةِ أَحَادِيثِهَا ٱلشَّرِيفَةِ .

***

وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ فِي ٱلْمَسِيحِيَّةِ ، فَقَدْ رَأَيْنَا فَيْلَسُوفاً إِيطَالِيّاً كَبِيراً ، بَدَأَ حَيَاتَهُ ٱلْفِكْرِيَّةَ بِالشَّكِّ وَٱلتَّجَرُّدِ مِنَ ٱلتَّقْلِيدِ ، ثُمَّ ٱنْتَهَى بِهِ مَطَافُ ٱلْفِكْرِ إِلَى ٱلْإِيمَانِ ٱلْمُطْلَقِ ٱلْعَمِيقِ ، فَوَضَعَ كِتَاباً خَالِداً فِي حَيَاةِ ٱلْمَسِيحِ كَانَ لَهُ عَقِبَ ظُهُورِهِ أَكْبَرُ ٱلْأَثَرِ عِنْدَ ٱلْمَسِيحِيِّينَ ،

كتاب الفرنجة الذين كتبوا عن المسيح

***

وَقَدْ كَانَ «رِينَانُ» مِنْ قَبْلِهِ ، قَدْ تَنَاوَلَ هَذِهِ ٱلنَّاحِيَةَ مِنَ

رينان

(١) يقينيا : ثابتا عن طريق الجزم . (٢) يتلمسه : يتطلبه مرة بعد أخرى . (٣) انكمش : أسرع ولم يأل جهدا .

ٱلتَّارِيخِ ٱلدِّينِيِّ. فَتَرْجَمَ حَيَاةَ ٱلْمَسِيحِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَمْزُجُ التَّرْجَمَةَ بِرُوحِ ٱلْمُلْحِدِ[1] السَّاخِرِ، وَٱلْمُتَهَكِّمِ[2] اللَّاذِعِ بِتَهَكُّمِهِ، فَلَمْ يَكُنْ تَارِيخُهُ كِتَابَ مُؤْمِنٍ، وَلَكِنَّهُ جَاءَ كِتَابَ تَحْلِيلٍ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ٱلْحَدِيثَةِ، فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلشَّكِّ، وَبُعْدٍ مِنَ ٱلْيَقِينِ.

وَلَكِنَّ هَذَا ٱلْفَيْلَسُوفَ ٱلَّذِي عَنَيْنَاهُ، لَمْ يَأْتِ بِتَارِيخِ حَيَاةِ ٱلْمَسِيحِ عَلَى هَذَا ٱلْوَجْهِ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِهِ ثَمَرَةَ إِيمَانٍ قَوِيٍّ، وَنِتَاجَ[3] ٱعْتِقَادٍ مَكِينٍ.

***

بابيني

وَهَذَا ٱلْفَيْلَسُوفُ ٱلَّذِي نُحَدِّثُكَ عَنْهُ، هُوَ ٱلْإِيطَالِيُّ «جُيُوفَانِي بَابِينِي» وَكِتَابُهُ ٱلْخَالِدُ هُوَ ٱلَّذِي ظَهَرَ فِي ٱلْعَالَمِ ٱلْمَسِيحِيِّ سَنَةَ أَلْفٍ وَتِسْعِمِائَةٍ وَإِحْدَى وَعِشْرِينَ مِيلَادِيَّةً فَبَهَرَهُ[4] وَأَحْدَثَ دَوِيًّا فِيهِ، وَعَجَبًا عَاجِبًا، حَتَّى لَقَدْ

---

(١) الملحد: الجاحد. المنكر. (٢) المتهكم: المستهزىء (٣) نتاج: بكسر النون اسم يشمل وضع البهائم من الغنم وغيرها. والمراد الفائدة والثمرة المترتبة. (٤) بهره: فتنه وأخذ بلبه

قِيلَ فِيهِ : مَنْ شَاءَ فَلْيَسْمَعِ ٱلرَّعْدَ قَاصِفاً [١] ، وَٱلصَّرَاحَةَ مَاثِلَةً ، وَٱلْبَلَاغَةَ بَادِيَةً ، وَٱلْإِيمَانَ وَٱلْأَمَلَ وَٱلْحُبَّ قَائِمَاتٍ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَمَنْ كَانَ ظَمْآنَ إِلَى ٱلْمَعْرِفَةِ جَائِعاً ، فَلْيَقْرَأْ كِتَابَ « بَابِينِي » فِي تَارِيخِ حَيَاةِ ٱلْمَسِيحِ ، سَوَاءٌ أَكَانَ ٱلْقَارِئُ مَسِيحِيًّا أَمْ غَيْرَ مَسِيحِيٍّ ، فَإِنَّ ٱلْجَوَاهِرَ لَيْسَتْ وَقْفاً عَلَى أَحَدٍ دُونَ أَحَدٍ .

***

تماثل بينه وبين الغزالى

وَمِنْ عَجِيبِ ٱلتَّمَاثُلِ وَٱلتَّوَافُقِ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ ، أَنَّ « جُيُوفَاتِي بَابِينِي » ٱلَّذِي آمَنَ بِالْمَسِيحِ بَعْدَ ٱلشَّكِّ فِيهِ ، قَدْ وَضَعَ ٱعْتِرَافَاتٍ يَكْشِفُ خِلَالَهَا سَبِيلَ إِنْقَاذِهِ مِنَ ٱلضَّلَالِ ، عَلَى غِرَارِ مَا فَعَلَ ٱلْغَزَالِيُّ وَجَرَى ، وَهِيَ ٱعْتِرَافَاتٌ بَلِيغَةٌ سَاحِرَةُ ٱلْبَيَانِ ، يَتَجَلَّى عَلَيْهَا طَابَعُ ٱلصِّدْقِ وَرُوحُ ٱلْإِيمَانِ .

***

(١) الرعد القاصف : الشديد الذى يكاد يصم الآذان

اعترافات بابيني

وَلَعَلَّ أَبْلَغَ مَا حَوَتْ هَذِهِ الاعْتِرَافَاتُ ، وَصْفُ الْمُؤَلِّفِ لِحَيْرَتِهِ فِي نَشْأَتِهِ بَيْنَ الْكُتُبِ ، وَتَنَقُّلِهِ فِي أَدْوَارِ الْقِرَاءَةِ ، وَتَرْدَادِهِ عَلَى فُرُوعِ الْعِلْمِ وَالْفَلْسَفَةِ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ضَالٌّ شَارِدٌ هَائِمٌ[1] ، يُحَاوِلُ الاسْتِقْرَارَ فِي مَطَافِهِ الْمُسْتَطِيلِ ، فَلَا يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلاً .

وَمَنْ يَقْرَإِ اعْتِرَافَاتِهِ ، يَجِدْ خِلَالَهَا رُوحاً صَادِقاً يَغْمُرُهَا ، وَقُوَّةَ مُصَارَحَةٍ بَلِيغَةٍ مُتَّقِدَةٍ تَسْرِي فِيهَا ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الْكَاتِبَ الْجَدِيدَ إِنَّمَا خَاضَ ثَوْرَةً نَفْسِيَّةً رَهِيبَةً ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى سَاحِلِ السَّكِينَةِ الرُّوحِيَّةِ الشَّامِلَةِ . الَّتِي غَيَّرَتْ شَأْنَهُ ، وَجَاءَتْ بِهِ خَلْقاً جَدِيداً .

وَنَحْنُ مُورِدُونَ هُنَا فِقَرًا مِنْ تِلْكَ الاعْتِرَافَاتِ ، لِتَكُونَ بِجَانِبِ اعْتِرَافَاتِ الْغَزَالِيِّ فَيْصَلاً[2] بَيْنَ أَدَبِ الْمَشَارِقَةِ وَأَدَبِ الْمَغَارِبَةِ ، فِي النَّاحِيَةِ الدِّينِيَّةِ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالنَّفْسِ الثَّائِرَةِ .

(١) هائم : متحير (٢) فيصلا : قضاء فاصلا بينهما

فِي يَوْمِ أَحَدٍ مِنْ شَهْرِ أُغُسْطُسَ الصَّائِفِ[١] الْمُسْتَعِرِ الْوَقْدَةِ ، كُنْتُ قُبَيْلَ الْأَصِيلِ أَتَنَزَّهُ وَحْدِي كَعَادَتِي ، حَزِيناً كَئِيباً فِي أَكْبَرِ شَوَارِعِ فُلُورَنْسَا ، وَأَنَا أَسِيرُ مُطْرِقًا مَجْهُودًا ، بَرِماً[٢] نَاقِمًا مِنَ الْحَرِّ ، وَمِنَ الْبَشَرِ ، وَتِلْكَ سَاعَةٌ نَهَضَ النَّاسُ فِيهَا مِنْ نَوْمَةِ الظَّهِيرَةِ ، مُتَبَلِّدِينَ[٣] لِيَخْرُجُوا مِنْ دُورِهِمْ مَعَ خُدَعِ الْأَمَلِ فِي أَنْ يَجِدُوا نَسَمَةَ هَوَاءٍ أَوْ طَرَاوَةَ مَسَاءٍ . . . وَمَا كُنْتُ أَعْرِفُ أَحَدًا ، بَلْ كُنْتُ أُبْغِضُ كُلَّ أَحَدٍ ، وَكُنْتُ قَبِيحَ الثَّوْبِ ، دَمِيمَ الصُّورَةِ ، أَصْفَرَ اللَّوْنِ ، شَاحِبَ الْأَدِيمِ ، تَرْتَسِمُ أَدِلَّةُ السُّخْطِ وَالنُّفُورِ وَالتَّبَرُّمِ وَالْمَلَالِ عَلَى وَجْهِي ، وَفِي ثَنَايَا مَلَامِحِي ، وَكَانَ النَّاظِرُ إِلَى شَكْلِي يَحْتَقِرُنِي ، وَالْمَارُّ بِي يَقْتَحِمُنِي[٤] ، وَيَنْبُو[٥] نَاظِرُهُ عَنِّي . كُنْتُ أَشْعُرُ بِأَنْ لَا أَحَدَ يُحِبُّنِي ، وَلَا أَحَدَ فِي وُسْعِهِ أَنْ يُحِبَّنِي ،

---

(١) الصائف : الحار . (٢) برما : ضجرا ذا سآمة وملل .
(٣) متبلدين : متحيرين متلهفين . (٤) يقتحمني : يحتقرني . (٥) ينبو ناظره : يتجافى ويتباعد .

وَكَانَ ٱلنَّاسُ يَتَزَاوَرُونَ[١] عَنِّى ، وَلَا سِيَّمَا ٱلْفَتَيَاتُ ٱلصِّبَاحُ ٱلْمِلَاحُ ، فِى ثِيَابِهِنَّ ٱلْحُمْرِ ، وَأَرْدِيَتِهِنَّ[٢] ٱلْبِيضِ ، وَصَفَحَاتِهِنَّ[٣] ٱلسُّمْرِ ، وَأَسْنَانِهِنَّ ٱلْمُلْتَمِعَةِ .. لَقَدْ كُنَّ قَاسِيَاتٍ فِى ضِحْكَاتِهِنَّ ٱلسَّاخِرَةِ مِنِّى ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ رَنِينَهَا مُدَوِّيًا فِى أُذُنِى ، وَكُنْتُ أَتَأَلَّمُ وَٱلنَّاسُ جَمِيعًا فِى جَذَلٍ[٤] وَهَنَاءٍ ، وَقَدْ جَعَلْتُ أَثُورُ وَأُحِسُّ دَمِى يَغْلِى فِى أَعْرَاقِى ، فَأَصِيحُ مِنْ أَعْمَاقِى ، - كَلَّا - لَنْ يَكُونَ هَذَا ، إِنَّنِى أَنَا أَيْضًا إِنْسَانٌ ، وَأَنَا أَيْضًا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ عَظِيمًا وَسَعِيدًا ، وَمَنْ تَظُنُّونَ فِى أَنْفُسِكُمْ أَيُّهَا ٱلْحَمْقَى ، ٱلَّذِينَ تَمُرُّونَ بِى ، مُزْدَهِينَ[٥] خُيَلَاءَ ؟ سَتَرَوْنَ مَاذَا أَنَا غَدًا صَانِعٌ ؟ أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ أَعْظَمَ مِنْكُمْ وَأَسْمَى مِنْكُمْ وَفَوْقَكُمْ جَمِيعًا .

---

(١) يتزاورون عنى : يعدلون عنى و ينحرفون . (٢) أرديتهن البيض : جمع رداء ، وهو اسم لما يلبس فوق الثياب كالجبة والعباءة ونحوهما .
(٣) صفحاتهن : جمع صفحة وهى الوجه . (٤) جذل : فرح وسرور .
(٥) مزدهين : معجبين مستخفين طربا .

« أَنَا صَغِيرٌ ، وَأَنَا دَمِيمٌ ، وَأَنَا فَقِيرٌ ، وَلَكِنَّ لِي نَفْسًا . . . وَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ سَتَجْعَلُكُمْ غَدًا تَلْتَفِتُونَ إِلَيْهَا ؟ وَتُرْهِفُونَ السَّمْعَ ، يَوْمَ أُصْبِحُ شَيْئًا مَذْكُورًا وَتَظَلُّونَ أَنْتُمْ لَا شَيْءَ ، وَسَأَعْمَلُ أَنَا ، وَأُنْشِئُ ، وَأُصْبِحُ أَكْبَرَ مِنْ كِبَارِكُمْ ، وَتَظَلُّونَ أَنْتُمْ تَأْكُلُونَ وَتَشْرَبُونَ ، وَتَتَنَزَّهُونَ كَمَا أَنْتُمُ الْيَوْمَ فَاعِلُونَ . . . . وَمَتَى مَرَرْتُ غَدًا بِكُمْ سَيَنْظُرُ الْجَمِيعُ صَوْبِي (١) ، وَتَضْحَكُ الْفَتَيَاتُ لِي ، وَيَقِفُ الرِّجَالُ خُشَّعًا رَافِعِي قُبَّعَاتِهِمْ حَاسِرِينَ ، إِذَا أَنَا اجْتَزْتُهُمْ (٢) أَنَا ، أَنَا نَفْسِي . أَنَا الرَّجُلُ الْعَظِيمُ ، أَنَا النَّابِغَةُ ، أَنَا « الْبَطَلُ »

***

نفس عطشى إلى مورد الحقيقة

تِلْكَ زَفْرَةٌ مِنْ زَفَرَاتِ النَّفْسِ الطَّمُوحِ (٣) الْمُتَوَثِّبَةِ (٤) إِلَى الْمَجْدِ ، أَطْلَقَهَا « بَابِينِي » ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى رَأْسِ

(١) صوبى : جهتى ، أى إلى (٢) اجتزتهم : مررت بهم . (٣) النفس الطموح : الشرهة فى طلب المعالى . (٤) المتوثبة : المسارعة المبادرة .

ٱلْحَلْقَةِ ٱلرَّابِعَةِ مِنْ عُمُرِهِ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ مَطَالِعِ (١) ٱلصِّبَا كَانَ مُولَعًا بِالْقِرَاءَةِ ، وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَى عَادَةِ ٱلصِّبْيَانِ مِنَ ٱلْتِمَاسِ ٱللَّهْوِ فِي ٱلْكُتُبِ ، وَٱلْإِكْبَابِ عَلَى ٱلْقَصَصِ وَٱلتَّهَاوِيلِ (٢) بَلِ ٱرْتِيَادًا (٣) لِنُجْعَةِ ٱلْعِلْمِ ، وَبَحْثًا وَرَاءَ ٱلْمَعْرِفَةِ ، بَلْ كَانَ يَحْلُمُ وَيُفَكِّرُ ، وَيَتَأَمَّلُ وَيُطِيلُ ٱلتَّفْكِيرَ ، وَكَانَ أَبُوهُ كَافِرًا ، فَكَبِرَ وَلَمْ يَسْمَعْ مَوْعِظَةً ، وَلَمْ يَحْضُرْ يَوْمًا صَلَاةً ، وَلَكِنَّ تِلْكَ ٱلْكُتُبَ ٱلْقَلِيلَةَ ، ٱلَّتِي ٱهْتَدَى إِلَيْهَا مِنَ ٱلْحَدَاثَةِ ، لَمْ تَكُنْ تُنْقِعُ (٤) غُلَّةَ نَفْسِهِ ، أَوْ تُطْفِئُ أُوَارَ (٥) قَلْبِهِ ، وَإِذَا هُوَ بَعْدَ طُولِ ٱصْطِبَارٍ (٦) يَدْخُلُ فِي ٱلرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مَكْتَبَةَ « فُلُورَنْسَا » ٱلْعَامَّةَ ، وَهِيَ تَحْوِي مِلْيُونًا مِنَ

---

(١) مطالع الصبا : أوائله ، جمع مطلع . (٢) التهاويل : الألوان المختلفة ، وزينة التصاوير والنقوش والحلى . (٤) الارتياد : طلب الشيء والنجعة : طلب الكلإ في موضعه ـ اسم من النجوع ـ وتستعمل فيما يرحل إليه . (٤) تنقع غلة نفسه : أى تروى عطشها وحرارتها ـ والمراد أنه لم يعجب بها ولم تشف غليله . (٥) الأوار : بالضم ، العطش الشديد (٦) الاصطبار : تكلف الصبر .

ٱلْكُتُبِ ، فَكَانَ ذٰلِكَ يَوْمَ ٱنْتِصَارٍ عَظِيمٍ لَهُ ، وَيَوْمَ سُرُورٍ بَالِغٍ . دَخَلَ تِلْكَ ٱلْمَكْتَبَةَ ، وَفِي نَفْسِهِ مِنَ ٱلِاحْتِرَامِ لَهَا مَا لَمْ يَشْعُرْ بِهِ عِنْدَ مَا كَانَ صَغِيرًا ، حَتَّى لَقَدْ جَلَسَ عِنْدَ أَوَّلِ مَقْعَدٍ خَالٍ وَجَدَهُ ، وَقَرَأَ سَاعَةً وَلَمْ يَفْقَهْ مِمَّا قَرَأَ شَيْئًا ، مِنْ فَرْطِ ذَهْلَتِهِ [1] ، وَبَالِغِ فَرَحِهِ ، وَعَجَبِهِ وَسُرُورِهِ .

***

ابتداء الشك

وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ فِي ٱلْكُتُبِ مَا كَانَ يَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ ، كَمَا لَمْ يَجِدْ ٱلْغَزَالِيُّ مِنْ قَبْلِهِ فِي كَلَامِ ٱلْفُقَهَاءِ وَٱلْعِلْمِ ٱلتَّقْلِيدِيِّ هَدْيَ نَفْسِهِ ٱلشَّاكَّةِ ٱلْمُسْتَرِيبَةِ ٱلْمُتَمَرِّدَةِ ، فَكَانَتْ تِلْكَ خَيْبَةً هَدَّتْ مِنْ عَزِيمَتِهِ ، وَهُوَ فِي أَوَّلِ مَدَارِجِ ٱلْحَيَاةِ ، رَمَتْهُ فِي أَوْدِيَةِ ٱلْخَيَالِ ، وَحَيْرَةً فَاجِعَةً مُلِحَّةً [2] ، أَوْلَدَتْ تَشَاؤُمًا وَسُخْطًا وَيَأْسًا أَلِيمًا فِي نَفْسِهِ ٱلْحَائِرَةِ ٱلضَّالَّةِ ٱلشَّارِدَةِ .

---

(١) من فرط ذهلته : أى من كثرة تدلهه وغيابه عن رشده .

(٢) ملحة : دائمة مضايقة .

وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَقُولُ ، بَعْدَ أَنْ ثَابَ [١] ٱلْعَقْلُ قَلِيلاً إِلَيْهِ ، وَتَسَاءَلَ عَنِ ٱلْحَيَاةِ وَأَسْبَابِهَا وَأَغْرَاضِهَا ، وَلَمْ يَسْمَعْ جَوَابًا ، بَلْ سَمِعَ هَذَا ٱلسُّؤَالَ ٱلَّذِي لَا يُحْدِي ، ٱلْمُتَرَدِّدَ عَلَى لِسَانِ كُلِّ مُتَشَائِمٍ مُتَشَكِّكٍ ضَجِرٍ مُتَبَرِّمٍ : هَلْ تَسْتَحِقُّ هَذِهِ ٱلْحَيَاةُ أَنْ يُحْيَا بِهَا ؟ وَهَلْ هَذِهِ ٱلْعِيشَةُ جَدِيرَةٌ بِأَنْ يُعَاشَ فِيهَا ؟ لَقَدْ كَانَتِ ٱلْحَيَاةُ تَعِدُنِي قَلِيلاً وَلَا تَهَبُنِي شَيْئًا . فَارْتَمَيْتُ فِي حِضْنِ هَذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلتَّعِسَةِ ٱلشَّقِيَّةِ ، فَمَا لَبِثْتُ أَنِ ٱنْكَشَفَتْ لِي عَنِ ٱلْفَرَاغِ وَٱلْأَلَمِ ٱلْكَمِينِ .

***

وَقَدْ قَرَأَ فَلْسَفَةَ « شُوبَنْهَوَرَ » فَلْيَسُوفِ ٱلتَّشَاؤُمِ ، وَكَبِيرِ ٱلْمُتَشَائِمِينَ ، فَتَأَثَّرَ بِهَا ، ثُمَّ عَادَ فَطَرَحَهَا عَنْهُ ظِهْرِيًّا وَٱحْتَقَرَهَا ، وَوَضَعَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَتِسْعِمِائَةٍ وَأَلْفٍ كِتَابَهُ « غَسَقَ ٱلْفَلَاسِفَةِ » فَكَانَ كِتَابًا كَافِرًا مُلْحِدًا ، يُعَطِّلُ ٱلْأَدْيَانَ جَمِيعًا .

شو بنهور

(١) ثاب العقل : أى رجع

وَلَـكِنَّهُ ٱنْتَقَلَ بَعْدُ إِلَى دَوْرِ ٱلْيَقَظَةِ مِنَ ٱلْحُلْمِ ٱلْمُسْتَطِيلِ ، فَقَالَ : لَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي كَأَنِّي قُطْبُ (١) ٱلْعَالَمِ ، وَٱلْيَوْمَ تَبَيَّنَ لِي أَنَّنِي كُنْتُ ضَحِيَّةَ خُرَافَةٍ (٢) لِـكَلَامٍ عَقِيمٍ ، وَجَدَلٍ سَخِيفٍ ، وَسَفْسَطَةٍ (٣) فَارِغَةٍ جَوْفَاءَ .

وَلَعَلَّهُ قَدْ أَغْنَانَا عَنْ وَصْفِهِ ، بِمَا وَصَفَ هُوَ بِهِ نَفْسَهُ ، عَلَى طَرِيقَتِهِ ٱلْفَذَّةِ ، وَفِي صَرَاحَتِهِ ٱلْعَجِيبَةِ ، وَبِاعْتِرَافَاتِهِ ٱلنَّادِرَةِ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، قَرِيعَ (٤) دَهْرِهِ ، وَنَسِيجَ وَحْدِهِ (٥)

***

صعلوك الفلسفة

قَالَ : وَلَمَّا كَانَ ٱلْوَجْهُ مِرْآةَ ٱلنَّفْسِ ، كَمَا قَالَتْ حِكْمَةُ ٱلْأُمَمِ ، فَمَا أَحْسَبُ أَحَدًا يَعْجَبُ مِنْ أَنَّ « بَابِينِي »

---

(١) قطب العالم : أى سيدهم الذى يدور عليه أمرهم . (٢) خرافة أى حديث باطل . (٣) السفسطة : قياس مؤلف من الوهميات — والغرض منه إلحام الخصم وإسكاته وهى كلمة يونانية . (٤) قريع دهره : مختار من أهل عصره . (٥) نسيج وحده : أى منفرد بخصال محمودة لا يشركه فيها غيره

سَفَّاحَ (١) ٱلْفَصَاحَةِ ، وَرَبِيبَ ٱلصَّحَافَةِ ، وَوَلِيدَ ٱلْفَنِّ ، وَصُعْلُوكَ (٢) ٱلْفَلْسَفَةِ ، وَعِرْبِيدَ (٣) ٱلسِّيَاسَةِ ، وَوَبْشَ (٤) ٱلثَّقَافَةِ ، لَا يَدَعُ فُرْصَةً تَمُرُّ إِلَّا ٱقْتَحَمَهَا ، وَلَا سَبِيلاً إِلَى ٱلْفِكْرِ إِلَّا أَوْغَلَ (٥) فِيهِ إِلَى ٱلْحَمْأَةِ (٦) وَلَا يَغْرُبَنَّ (٧) عَنْ أَحَدٍ أَنَّ هَذَا « ٱلْبَهِيمَ » هُوَ أَغْلَظُ جَمِيعِ ٱلْأَوْبَاشِ وَٱلْأَعْلَاجِ (٨) ٱلَّذِينَ يَقْتَاتُونَ مِنْ أَرْضِ إِيطَالِيَا ، بَلْ فِي ٱلْحَقِّ أَنَّ هَذَا ٱلْعَيْرَ (٩) ، بَلْ هَذَا ٱلْكَلِبَ ٱلْمَنْهُومَ (١٠) فِي كِتَابَةِ كُلِّ مَا يُفَكِّرُ فِيهِ ، وَقَوْلِ كُلِّ مَا يَتَصَوَّرُهُ ، لَا يَكْفِيهِ شَيْءٌ فِي أُفُقِ ٱلتَّفْكِيرِ وَٱلْبَحْثِ وَٱلنَّظَرِ .

---

(١) سفاح الفصاحة : أى مقتدر على الكلام . (٢) صعلوك الفلسفة : فقيرها . (٣) عربيد السياسة : العربيد ، الكثير العربدة ، ومؤذى نديمه فى سكره — أى أنه يعربد فى السياسة عربدة السكران ويؤذى أذاه . (٤) وبش الثقافة : الوبش واحد الأوباش ، أى الأخلاط والسفلة كالأوشاب . (٥) أوغل فيه : ذهب وأمعن . (٦) الحمأة : الطين الأسود المنتن يكون فى البئر فيكدر ماءها فينزع . كناية عن الامعان والبحث والتنقيب . (٧) لا يغربن : لا يبعدن . (٨) الأعلاج : جمع علج ، وهو الرجل الضخم من كفار العجم . (٩) العير : الحمار الوحشى والأهلى — قيل : وغلب على الوحشى (١٠) الكلب : الحريص حرص الكلب وفيه طمع . والمنهوم : المولع بالشىء .

***

حياة المسيح

وَفِي عَامِ وَاحِدٍ وَعِشْرِينَ وَتِسْعِمِائَةٍ بَعْدَ ٱلْأَلْفِ مِيلَادِيَّةً ، ظَهَرَ كِتَابُهُ « حَيَاةُ ٱلْمَسِيحِ » مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِ ٱلدَّهْرِ فِي عُمْقِ ٱلْإِيمَانِ ، وَسَلَاسَةِ ٱلْبَيَانِ ، وَغَوْرِ (١) ٱلْوِجْدَانِ ، وَكَانَ « بَابِينِي » قَدْ أَلَّفَ كِتَابًا آخَرَ قَبْلَهُ مُنْذُ سِنِينَ ، لِيَحْكِيَ حَيَاةَ رَجُلٍ مُتَمَرِّدٍ ، وَنَفْسٍ ثَائِرَةٍ ، أَحَبَّتْ أَنْ تَرْتَفِعَ إِلَى مَقَامِ ٱلْأُلُوهِيَّةِ ، فَإِذَا هُوَ يَضَعُ كِتَابًا جَدِيدًا ، يَنْزِلُ بِنَفْسِهِ فِيهِ إِلَى أَشَدِّ تَوَاضُعِ ٱلْبَشَرِيَّةِ .

لَقَدِ ٱسْتَحَالَتِ ٱلْكِبْرِيَاءُ ٱلْمُتَغَالِيَةُ ، وَٱلْخُيَلَاءُ ٱلْمُتَمَادِيَةُ ، تَوَاضُعًا وَدِيعًا ، وَرِضْوَانًا ذَلِيلًا وَقُنُوعًا (٢) .

وَهَذَا بِذَاتِهِ مَا عَرَا (٣) ٱلْغَزَالِيَّ فِي حَيَاتِهِ ، فَلَمَّا وَجَدَ سُلْطَانَهُ ٱلدِّينِيَّ قَدْ عَلَا وَشَمِلَ ٱلنَّاسَ وَأَحَسَّتْهُ ٱلدَّوْلَةُ ، فَرَّ هَارِبًا مِنْهَا ، وَٱنْزَوَى عَنِ ٱلْمُجْتَمَعِ ، وَرَاحَ

---

(١) غور الوجدان : غور الشيء نهاية عمقه . (٢) قنوعا : تذللا وسؤالا . (٣) ما عرا الغزالى : أى الذى عرض له وأصابه .

يَطْلبُ ٱلْعُزْلَةَ ، رَاضِياً بِالْخُمُولِ ، جَانِحًا إِلَى الضَّعَةِ وَالْقُنُوعِ ، مُتَجَرِّدًا مِنْ لَذَاذَاتِ ٱلنَّفْسِ ، وَمُتَعِ ٱلْحَيَاةِ .

***

وَمِنَ ٱلْعَجِيبِ أَنَّ « بَايِنِى » هَذَا جَاءَ فِى أَوَّلِ ٱلْقَرْنِ ٱلْحَاضِرِ ، لِيَكُونَ تَقَابُلًا غَرِيباً لِرَجُلٍ غَيْرِهِ ، كَانَ عَلَى ٱلنَّقِيضِ مِنْهُ نَشْأَةً وَبِدَايَةً وَٱنْتِهَاءً ، وَذَلِكَ الرَّجُلُ هُوَ ٱلْفَيْلَسُوفُ ٱلْأَلْمَانِىُّ « فِرِدْرِيك نِيتْشَهْ » فَإِنَّ هَذَا ٱلْفَيْلَسُوفَ هَجَمَ عَلَى تَعَالِيمِ ٱلْمَسِيحِ فِى نِهَايَةِ أَمْرِهِ ، وَحَارَبَ ٱلْمَسِيحِيَّةَ حَرْبًا نَكْرَاءَ (١) ، مُسْتَطِيلَةَ ٱلْأَمَدِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ بَدَأَ مُتَدَيِّنًا فِى نَشْءٍ (٢) قَوْمٍ مُتَدَيِّنِينَ صَالِحِينَ ، فَقَدْ كَانَ أَبُوهُ قِسِّيسًا ، وَتَعَلَّمَ هُوَ فِى دُورِ ٱلْقَسَاوِسَةِ ، وَلَكِنَّهُ مَالَبِثَ أَنْ هَبَطَ مِنْ جِبَالِ ٱلْأَلْبِ ، حَيْثُ كَانَ يَتَلَقَّى ٱلْعِلْمَ فِى سِوِيسْرَةَ ، حَتَّى أَخَذَ يَتَرَنَّمُ فِى أَشِعَّةِ ٱلشَّمْسِ

نيتشه

(١) حربا نكراء : شديدة . (٢) نشأ : جمع ناشىء الصغير إذا جاوز حد الصغر وشب .

بِأُنْشُودَتِهِ ، مُنَادِيًا فِيهَا بِأَنَّ ٱلْمَسِيحَ هُوَ ٱلَّذِى طَعَنَ ٱلْحَيَاةَ فِى صَمِيمِهَا ، وَأَنَّ تَعَالِيمَهُ لَا تَصْلُحُ لَهَا ، بَلْ تَهْدِمُهَا مِنْ أَسَاسِهَا ، وَظَلَّ يُحَارِبُ ٱلْفِكْرَةَ ٱلْمَسِيحِيَّةَ طِيلَةَ حَيَاتِهِ ٱلْفِكْرِيَّةِ ، حَتَّى ذَهَبَ لُبُّهُ (١) ، وَقَضَى أَخِيرًا نَحْبَهُ (٢) فِى أَحَدِ مُسْتَشْفَيَاتِ ٱلْمَجَانِينِ .

***

المسيحية والصوفية

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِى أَنَّ تَعَالِيمَ ٱلْمَسِيحِيَّةِ ، قَدِ ٱنْطَوَتْ عَلَى رُوحٍ عَالٍ رَفِيعٍ مِنَ ٱلصُّوفِيَّةِ ، وَأَنَّ ٱلْإِمَامَ ٱلْغَزَالِىَّ قَدْ تَأَثَّرَ بِهَا فِيمَا تَأَثَّرَ مِنَ ٱلْعَوَامِلِ وَٱلْأَفَاعِيلِ ، ٱلَّتِى رَدَّتْهُ مِنَ ٱلتَّشَكُّكِ ٱلْمُطْلَقِ إِلَى ٱلْإِيمَانِ ٱلْمُطْلَقِ ، ثُمَّ نَزَعَتْ بِهِ حَاسَّةُ ٱلْإِيمَانِ إِلَى ٱلصُّوفِيَّةِ ٱلْمُتَجَرِّدَةِ (٣) ٱلْمُتْفَانِيَةِ فِى ٱللهِ . وَقَدْ رَأَيْنَاهُ فِى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ ، يَذْكُرُ عِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، وَيَتَحَدَّثُ عَنِ ٱلْمَسِيحِ كَأَحَدِ ٱلْمُعَلِّمِينَ ٱلصُّوفِيِّينَ ٱلْكِبَارِ فِى هَذَا ٱلْعَالَمِ ،

(١) لبه : عقله . (٢) قضى نحبه : مات . (٣) الصوفية المتجردة : الخالية من الشوائب .

وَيَسْتَشْهِدُ بِأَدَبِهِ الصُّوفِيِّ ، وَتَعَالِيمِهِ السَّامِيَةِ ، فِي الْخُلُقِ وَالْمُعَامَلَاتِ ، حَتَّى لَقَدْ رَأَيْنَاهُ فِي كِتَابِ الدُّرَّةِ الْفَاخِرَةِ يَقُولُ « اعْتَبِرُوا بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ إِلَّا ثَوْبًا وَاحِدًا لَبِسَهُ عِشْرِينَ سَنَةً ، وَلَمْ يَأْخُذْ مَعَهُ فِي كُلِّ سِيَاحَاتِهِ إِلَّا كُوزًا وَسُبْحَةً (١) وَمُشْطًا ، وَرَأَى ذَاتَ يَوْمٍ رَجُلًا يَشْرَبُ مِنْ نَهْرٍ بِحَفْنَتَيْهِ ، فَطَرَحَ الْكُوزَ وَلَمْ يَسْتَعْمِلْهُ ثَانِيًا ، ثُمَّ رَأَى رَجُلًا يُمَشِّطُ لِحْيَتَهُ بِأَصَابِعِهِ ، فَطَرَحَ الْمُشْطَ وَلَمْ يَسْتَعْمِلْهُ ثَانِيًا ، وَكَانَ يَقُولُ دَائِمًا : حِصَانِي قَدَمَايَ ، وَبُيُوتِي مَغَاوِرُ (٢) الْأَرْضِ ، وَطَعَامِي خُضْرَتُهَا ، وَشَرَابِي مِنْ مَاءِ أَنْهَارِهَا ، وَمَقَرِّي (٣) بَيْنَ بَنِي آدَمَ .

***

الغزالى وتعاليم المسيح

وَكَانَ الْغَزَالِيُّ يَسْتَشْهِدُ بِقَوْلِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ ،

(١) الكوز : إناء صغير مستدير مجتمع له عروة . والسبحة : خرزات منظومة فى سلك للتسبيح . والمشط - مثلث الميم - : آلة من خشب أو غيره ذات أسنان يمشط به . (٢) مغاور الارض : جمع مغار ومغارة : الكهف . (٣) مقرى . موضع استقرارى وسكنى .

لَا يَسْتَقِيمُ حُبُّ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ ، كَمَا لَا يَسْتَقِيمُ ٱلْمَاءُ وَٱلنَّارُ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ ، وَقَوْلِهِ : ٱنْظُرُوا إِلَى ٱلطَّيْرِ لَا تَزْرَعُ وَلَا تَحْصُدُ وَلَا تَدَّخِرُ ، وَٱللهُ تَعَالَى يَرْزُقُهَا يَوْمًا بِيَوْمٍ ، فَإِنْ قُلْتُمْ نَحْنُ أَكْبَرُ بُطُونًا فَٱنْظُرُوا إِلَى ٱلْأَنْعَامِ ، كَيْفَ قَيَّضَ ٱللهُ لَهَا هَذَا ٱلْخَلْقَ لِلرِّزْقِ .

***

المسيحية والحياة

وَنَحْسَبُ ٱلَّذِينَ يَرَوْنَ فِي ٱلْأَدَبِ ٱلْمَسِيحِيِّ ٱسْتِحَالَةً عَمَلِيَّةً ، وَتَنَاقُضًا لِلْحَيَاةِ ، وَغُلُوًّا فِي تَعَالِيمِ ٱلزُّهْدِ وَٱلنُّسُكِ ، أَخْرَجَهَا مَخْرَجَ ٱلْخَيَالِ ، وَجَعَلَهَا عَصِيَّةً عَلَى ٱلتَّنْفِيذِ ، قَدْ غَلَوْا هُمْ أَيْضًا فِي ٱلتَّجَنِّي [١] عَلَيْهَا ، وَأَسْرَفُوا فِي وَصْفِهَا دُونَ أَنْ يَنْتَبِهُوا إِلَى ٱلْحِكْمَةِ ٱلْأَوَّلِيَّةِ مِنْهَا ، وَهِيَ أَنَّ هَذِهِ ٱلْآدَابَ هِيَ ٱلْأَوْجُ [٢] وَٱلْقِمَّةُ فِي ٱلرِّفْعَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ ، وَأَنَّ بُلُوغَ أَسْمَى مَرَاتِبِهَا ، لَا يَتَأَتَّى [٣] إِلَّا لِلْقَلِيلِ مِمَّنْ

(١) التجنى : الادعاء . (٢) الأوج : العلو والارتفاع . (٣) لا يتأتى لا يتهيأ .

أجْتَبَى اللهُ وَهَدَى ، وَمَكَّنَهُمْ مِنْ نُفُوسِهِمْ ، وَغَلَبَهُمْ عَلَى هَوَاهُمْ ، فَرَاضُوهُ وَأَذَلُّوهُ ، وَتَقَدَّمُوا يَسْلُكُونَ الطَّرِيقَ إِلَى اللهِ ، غَيْرَ وَاجِدِينَ مِنْ سُلُوكِهِ نَصَباً (١) وَلاَ رَهَقاً (٢) ، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَمْنَعُ أَنْ يُعَالِجَ النَّاسُ فِي جُمْهَرَتِهِمْ وَكَافَّتِهِمْ أَخْلَاقَهُمْ عَلَى نَحْوٍ مِنْ هَذَا الْعِلَاجِ، وَيَرُوضُوا (٣) نُفُوسَهُمْ عَلَى جِهَةٍ مِنْ هَذَا الْأَدَبِ الرَّفِيعِ. وَلَيْسَ مُمْكِناً أَنْ تَكُونَ الْإِنْسَانِيَّةُ كُلُّهَا نَاسِكَةً زَاهِدَةً ، مُنْصَرِفَةً إِلَى الْعِبَادَةِ كُلِّيَّةً ، كَمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَرُوحَ كُلُّهَا مُسْرِفَةً فِي الْهَوَى ، نَزَّاعَةً إِلَيْهِ ، شِرِّيرَةً فَاسِدَةً . وَكُلُّ مَنْ يَقْتَرِبُ مِنَ الْأَوْجِ يَجِدُ لَهُ مَحَلاً ، وَكُلُّ مَنْ يَأْخُذُ بِهَذِهِ التَّعَالِيمِ الْفَاضِلَةِ هَوْناً مَا ، يُصِيبُ مِنْ فَضْلِهَا مَوْضِعَا ، وَحَسْبُ الْأَدْيَانِ أَنْ تَضَعَ الْمُثُلَ الْعُلْيَا فِي الْعِبَادَةِ وَالْأَخْلَاقِ ، لِأَنَّهَا بِهَذَا اخْتَصَّتْ ، وَمِنْ أَجْلِهِ وُضِعَتْ ، وَإِلَيْهِ يُنَادِي الْمُسْلِمُونَ وَالْأَئِمَّةُ وَالْأَنْبِيَاءُ .

(١) النصب : التعب (٢) الرهق : اسم من الارهاق : وهو حمل الانسان على مالا يطيقه (٣) يذللون نفوسهم

« آرَاؤُهُ وَفَلْسَفَتُهُ »

تقدمة

لَيْسَ فِي مُكْنَتِنَا [١] ، وَلَا فِي مَيْسُورِنَا ، وَنَحْنُ نُخْرِجُ لِلنَّاسِ كِتَابًا مَحْدُوداً ، فِي حَيَاةِ هَذَا الْإِمَامِ الْعَظِيمِ وَأَثَرِهِ الْخَالِدِ ، الَّذِي أَحْدَثَهُ فِي الْعَالَمِ ، وَتَرَكَهُ قَائِماً بَارِزاً خَالِداً مِثْلَهُ ، مَجِيداً كَاسْمِهِ صَالِحًا ، يُؤْتِي كُلَّ يَوْمٍ ثَمَرًا وَلَا يَنْفَدُ مِنْهُ الثَّمَرُ ، وَيُؤَثِّرُ فِي النُّفُوسِ بِتَعَالِيمِهِ دَائِبَ [٢] الْأَثَرِ - لَيْسَ فِي مَقْدُورِنَا أَنْ نَأْتِيَ فِي هَذَا الْبَابِ بِخُلَاصَةٍ وَافِيَةٍ لِلْفَلْسَفَةِ الْغَزَالِيَّةِ فِي سَائِرِ دَقَائِقِهَا وَجُمْلَةِ نَوَاحِيهَا ، وَعَدِيدِ جِهَاتِهَا ، بَلْ نَحْنُ مِنْهَا كَالنَّاظِرِ فِي بَلُّورَةٍ سَنِيَّةٍ [٣] الضِّيَاءِ ، كُلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْهَا بِبَصَرِهِ ، وَجَدَ أَلْوَانًا مُخْتَلِفَةً مَزِيجَةً ، وَأَشِعَّةً مُنْكَسِرَةً مُنْعَكِسَةً ، كَأَنَّهُ فِي عَالَمٍ مُخْتَلِطٍ زَاخِرٍ [٤] بِالْأَنْوَارِ وَالْأَضْوَاءِ .

---

(١) مكنتنا : استطاعتنا ومقدورنا (٢) دائب : مستمر (٣) سنية : مؤنث السنى . وهو الرفيع (٤) زاخر : مملوء

وَقَدْ وَضَعَ ٱلْغَزَالِيُّ ٱلْخَصِيبُ (١) الذِّهْنِ ، ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَقْلِ ، ٱلْجَبَّارُ ٱلتَّفْكِيرِ ، عَشَرَاتٍ مِنَ ٱلْكُتُبِ فِي حَيَاتِهِ ، وَلِكُلِّ كِتَابٍ مِنْهَا فِكْرَتُهُ ، وَفِي كُلٍّ مِنْهَا بَعْضُ تَعَالِيمِهِ وَنَظَرَاتِهِ ، فَلَيْسَ فِي وُسْعِنَا أَنْ نُلِمَّ (٢) بِجَمِيعِ حُدُودِهِ ، وَلَكِنَّا مُحَاوِلُونَ عِلَاجًا ، مُعَالِجُونَ تَنَاوُلاً ، مُتَلَطِّفُونَ فِي ٱلْإِجْمَالِ ، مُتَرَفِّقُونَ فِي ٱلشَّرْحِ وَٱلتَّصْوِيرِ .

***

قيمة الغزالى

وَقَدْ نُظِرَ قَبْلَنَا مِثْلُ نَظَرِنَا ، إِلَى فَضْلِ ٱلْغَزَالِيِّ وَقِيمَتِهِ فِي عَالَمِ ٱلتَّفْكِيرِ ، وَأُفُقِ ٱلْعِلْمِ وَٱلْمَعْرِفَةِ ، فَقَالُوا شَيْئًا كَثِيرًا فِي هَذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ ، حَتَّى لَقَدْ قَالَ ٱبْنُ ٱلسُّبْكِيِّ ، رَاوِيًا عَنِ ٱلشَّيْخِ ٱلْعَارِفِ أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱلشَّاذِلِيِّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ، وَكَانَ سَيِّدَ عَصْرِهِ ، وَلِسَانَ وَقْتِهِ ، وَبَرَكَةَ رِفَاقِهِ : إِنَّهُ رَأَى ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) الخصيب : الكثير الانتاج (٢) نلم : نحيط

فِي ٱلنَّوْمِ ، وَقَدْ بَاهَى [١] عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ بِٱلْإِمَامِ ٱلْغَزَالِيِّ وَقَالَ : أَفِي أُمَّتِكُمَا حَبْرٌ [٢] مِثْلُ هَذَا ؟ قَالَا: لَا . وَسُئِلَ ٱلْعَارِفُ بِاللهِ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلْمُرْسِيُّ ، عَنِ ٱلْغَزَالِيِّ فَقَالَ : أَنَا أَشْهَدُ لَهُ بِالصِّدِّيقِيَّةِ [٣] ٱلْعُظْمَى .

وَنَقَلَ ٱلْمَنَاوِيُّ عَنِ ٱلْقُطْبِ ٱلْيَافِعِيِّ ، عَنْ بَعْضِ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْجَامِعِينَ بَيْنَ عِلْمِ ٱلظَّاهِرِ وَٱلْبَاطِنِ . أَنَّهُ قَالَ : لَوْ كَانَ نَبِيٌّ بَعْدَ ٱلنَّبِيِّ لَكَانَ ٱلْغَزَالِيَّ .

***

ابن العربى وشهادته للغزالى

وَشَهِدَ لَهُ ٱلْقُطْبُ [٤] مُحْيِي ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْعَرَبِيِّ ، وَنَاهِيكَ بِهِ أَنَّهُ مِنْ رُؤَسَاءِ ٱلطَّرِيقَةِ وَسَادَتِهِمْ ، وَنَقَلَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَرَى ٱلْمُنَاسَبَةَ وَيَقُولُ بِهَا ، فَرَأَى فِي بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ

---

(١) باهى : فاخر (٢) الحبر : العالم الصالح (٣) الصديقية : نسبة إلى الصديق . والصديق الكامل فى الصدق ، والذى يصدق قوله بالعمل . (٤) القطب : نجم بين الجدى والفرقدين تبين عليه القبلة والمراد أنه فذ لا يضارع

حَمَامَةً وَغُرَاباً لَصِقَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، وَأَنِسَ بِهِ، وَلَمْ يَسْتَوْحِشْ مِنْهُ، فَقَالَ: اجْتِمَاعُهُمَا لِمُنَاسَبَةٍ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمَا بِيَدِهِ فَدَرَجَا[1]، فَإِذَا بِكُلٍّ مِنْهُمَا عَرَجٌ، قَالَ: وَالْمُنَاسَبَةُ[2] فِي مَسَاقِ الْأَنْبِيَاءِ صَحِيحَةٌ، وَمَعْرِفَتُهَا مِنْ مَقَامَاتِ خَوَاصِّ أَهْلِ الطَّرِيقَةِ، وَهِيَ غَامِضَةٌ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى بَيْنَ الْاسْمِ وَالْمُسَمَّى، قَالَ: وَالْقَائِلُونَ بِهَا مِنْ طَرِيقَتِنَا عُظَمَاءُ أَهْلِ الْمُرَاقَبَةِ وَالْأَدَبِ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ كَشْفٍ عِلْمِيٍّ، وَمَشْهَدٍ مَلَكُوتِيٍّ.

***

الأقطاب الثلاثة

وَيُرْوَى عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ: الْاقْطَابُ ثَلَاثَةٌ، قُطْبُ الْعُلُومِ كَحُجَّةِ الْإِسْلَامِ الْغَزَالِيِّ، وَقُطْبُ الْأَحْوَالِ كَأَبِي يَزِيدَ الْبِسْطَامِيِّ، وَقُطْبُ الْمَقَامَاتِ كَعَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ.

وَقَالَ السُّبْكِيُّ فِي جَوَابِ كِتَابِ أَبِي الْعَفِيفِ

(١) درجا: مشيا (٢) المناسبة من النسبة، وهي إيقاع التعلق بين الشيئين

ٱلْمَطَرِىِّ ، وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ ٱلْغَزَالِىِّ مَانَصُّهُ : « وَمَاذَا يَقُولُ ٱلْإِنْسَانُ وَفَضْلُهُ وَٱسْمُهُ قَدْ طَبَّقَ [1] ٱلْأَرْضَ ؟ وَمَنْ خَبَرَ كَلَامَهُ عَرَفَ أَنَّهُ فَوْقَ ٱسْمِهِ » .

***

معرفة الغزالى

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى ٱلنَّيْسَابُورِىُّ تِلْمِيذُ ٱلْغَزَالِىِّ : لَا يَعْرِفُ ٱلْغَزَالِىَّ وَفَضْلَهُ ، إِلَّا مَنْ بَلَغَ أَوْ كَادَ أَنْ يَبْلُغَ ٱلْكَمَالَ فِى عَقْلِهِ ، قَالَ ٱبْنُ ٱلسُّبْكِىِّ : يُعْجِبُنِى هَذَا ٱلْكَلَامُ ، فَإِنَّ ٱلَّذِى يُحِبُّ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى مَنْزِلَةِ مَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْهُ فِى ٱلْعَقْلِ ، يَحْتَاجُ إِلَى ٱلْعَقْلِ وَٱلْفَهْمِ ، فَبِٱلْعَقْلِ يُمَيِّزُ ، وَبِٱلْفَهْمِ يَقْضِى ، وَلَمَّا كَانَ عِلْمُ ٱلْغَزَالِىِّ فِى ٱلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى ، ٱحْتَاجَ مَنْ يُرِيدُ ٱلِاطِّلَاعَ عَلَى مِقْدَارِهِ ، أَنْ يَكُونَ هُوَ تَامَّ ٱلْعَقْلِ ، وَأَقُولُ لَا بُدَّ مَعَ تَمَامِ ٱلْعَقْلِ مِنْ مُدَانَاةِ مَرْتَبَتِهِ فِى ٱلْعِلْمِ لِمَرْتَبَةِ ٱلْآخَرِ ، وَحِينَئِذٍ فَلَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَ ٱلْغَزَالِىِّ قَدْرَ ٱلْغَزَالِىِّ

(١) طبق : ملأ

إِذْ لَمْ يَجِئْ بَعْدَهُ مِثْلُهُ ، ثُمَّ الْمُدَانِى لَهُ إِنَّمَا يَعْرِفُ قَدْرَهُ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ ، لَا بِقَدْرِ الْغَزَالِىِّ نَفْسِهِ . سَمِعْتُ الشَّيْخَ الْإِمَامَ الْوَالِدَ يَقُولُ : لَا يَعْرِفُ قَدْرَ الشَّخْصِ فِى الْعِلْمِ إِلَّا مَنْ سَاوَاهُ فِى رُتْبَتِهِ ، وَخَالَطَهُ مَعَ ذَلِكَ ، قَالَ : وَإِنَّمَا يَعْرِفُ بِمِقْدَارِ مَا أُوتِيهِ هُوَ . وَكَانَ يَقُولُ لَنَا : لَا أَحَدَ مِنَ الْأَصْحَابِ يَعْرِفُ قَدْرَ الشَّافِعِىِّ كَمَا يَعْرِفُهُ الْمُزَنِىُّ ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ الْمُزَنِىُّ مِنْ قَدْرِ الشَّافِعِىِّ بِمِقْدَارِ قُوَى الْمُزَنِىِّ ، وَالزَّائِدُ عَلَيْهَا مِنْ قُوَى الشَّافِعِىِّ ، لَمْ يُدْرِكْهُ الْمُزَنِىُّ . وَكَانَ يَقُولُ أَيْضًا ، لَا يَقْدُرُ (١) أَحَدٌ النَّبِىَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقَّ قَدْرِهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ مِقْدَارِهِ بِمِقْدَارِ مَا عِنْدَهُ هُوَ ، قَالَ : فَأَعْرَفُ الْأُمَّةِ بِقَدْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ ، لِأَنَّهُ أَفْضَلُ الْأُمَّةِ قَالَ : وَإِنَّمَا يَعْرِفُ أَبُو بَكْرٍ مِنْ مِقْدَارِ الْمُصْطَفَى صَلَّى

(١) لا يقدر : لا يعرف قدره

ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مَا تَصِلُ إِلَيْهِ قُوَى أَبِي بَكْرٍ ، وَثَمَّ أُمُورٌ[1] تَقْصُرُ عَنْهَا قُوَاهُ ، لَمْ يُحِطْ بِهَا عِلْمُهُ ، وَمُحِيطٌ بِهَا عِلْمُ ٱللهِ .

***

هادم الفلسفة

وَأَكْبَرُ فَضْلِ ٱلْغَزَالِيِّ فِيمَا نَعْرِفُ ، عَلَى ضِيَاءٍ ، مَا ٱسْتَشْهَدْنَا بِهِ فِيمَا أَسْلَفْنَاهُ لَكَ ، أَنَّهُ ٱلْعَالِمُ ٱلْمُسْلِمُ ٱلْكَبِيرُ ، وَٱلْإِمَامُ ٱلْحُجَّةُ ٱلثَّبَتُ[2] ٱلْعَظِيمُ ، وَٱلْمُفَكِّرُ ٱلْجَبَّارُ ٱلذِّهْنِ ٱلنَّابِغَةُ ، ٱلَّذِي هَدَمَ[3] ٱلْفَلْسَفَةَ ٱلْقَدِيمَةَ لِيُقِيمَ ٱلدِّينَ وَيُعْلِيَ بِنَاءَهُ ، وَيُقَوِّيَ أَرْكَانَهُ ، وَأَنَّهُ خَالَفَ سِوَاهُ مِنَ ٱلْفَلَاسِفَةِ فِي أَنَّهُ لَمْ يُحَاوِلِ ٱلتَّقْرِيبَ بَيْنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلدِّينِ ، وَفَضَّ ٱلنِّزَاعَ بَيْنَ ٱلْفِكْرِ وَٱلْعَاطِفَةِ ، وَلَكِنَّهُ ٱنْقَضَّ[4] عَلَى ٱلْفَلْسَفَةِ فَهَدَمَهَا بِمَعَاوِلِهِ ، وَٱسْتَأْثَرَ[5] بِالدِّينِ فَجَعَلَهُ وَحْدَهُ هُوَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَأَقَامَهُ

(١) تقصر : تعجز . (٢) الثبت : بالتحريك ، الحجة فى العلم ، يقال هو ثبت من الاثبات . (٣) هدم : أتى عليها من أساسها (٤) انقض : وثب (٥) استأثره و به : فضله على سواه

مُنْتَصِرًا [١] دَاحِرًا كُلَّ مُحَاوَلَاتِ ٱلْعَقْلِ وَشُكُوكِهِ .

***

رأى ماكدولاند فى الغزالى

وَقَدْ لَخَّصَ ٱلْعَلَّامَةُ « مَاكْدُولَانْدُ » جُهُودَ ٱلْغَزَالِيِّ وَحَصَرَهَا فِي أَرْبَعَةِ أُمُورٍ ، فَقَالَ : إِنَّهُ أَوَّلًا عَادَ بِالنَّاسِ مِنَ ٱلْجَرْيِ فِي إِثْرِ ٱلنَّظَرِيَّاتِ ، وَٱلْجَدَلِ وَٱلْفِقْهِ ، وَٱلْمَنْطِقِ وَٱلْعُلُومِ ٱلدِّينِيَّةِ ، وَٱخْتِلَافِ ٱلْمَذَاهِبِ وَٱلطُّرُقِ ، إِلَى ٱلْحَيَاةِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ ، وَٱلِاتِّصَالِ ٱلْمُبَاشِرِ لِلدِّينِ وَٱلسُّنَّةِ وَٱلْكِتَابِ ، بَلْ إِلَى رُوحِ ٱلدِّينِ ذَاتِهِ وَجَوْهَرِهِ وَلُبَابِهِ [٢] ، دُونَ ٱلْقُشُورِ وَٱلسُّطُوحِ وَٱلْأَغْشِيَةِ ، وَٱلْمَسَائِلِ ٱلنَّظَرِيَّةِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلْعُقَدِ ، وَإِنَّ مَا وَقَعَ فِي أُورُبَّا عِنْدَ تَحْطِيمِ نِيرِ [٣] ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلْمَذْهَبِيَّةِ فِي ٱلْقُرُونِ ٱلْوُسْطَى ، بَلْ إِنَّ مَا هُوَ ٱلْيَوْمَ بِالذَّاتِ وَاقِعٌ بِسَبِيلِ هَذَا وَنَحْوِهِ ، قَدْ وَقَعَ بِالْفِعْلِ فِي ٱلْإِسْلَامِ لِعَهْدِ إِمَامَةِ ٱلْغَزَالِيِّ وَزَعَامَتِهِ

---

(١) داحرا : طاردا ومبعدا (٢) لبابه : خلاصته (٣) النير : بكسر النون ، الخشبة توضع على عنق الثور بأداتها ، والكلام على التشبيه

ٱلْفِكْرِيَّةِ ، وَقِيَامِهِ بِدَعْوَتِهِ ، وَأَدَاءِ رِسَالَتِهِ ، وَقَدْ كَانَ فِي وُسْعِهِ أَنْ يَكُونَ فَقِيهاً مَعَ ٱلْفُقَهَاءِ ، وَمَذْهَبِيًّا مَعَ ٱلْمُتَمَذْهِبِينَ ، وَلَكِنَّ طَرِيقَتَهُ فِي ٱلْحَقِّ وَفَضْلَهُ ، مُنْحَصِرَانِ فِي تَوَفُّرِهِ عَلَى إِبْرَازِ تَعَالِيمِ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ ، وَجَعْلِهَا أَسَاساً عِلْمِيًّا ، لَا تَحَوُّلَ عَنْهُ وَلَا تَبْدِيلَ لَهُ ، وَقَدْ ظَهَرَ دَائِماً أَنَّ ٱلِانْطِلَاقَ مِنَ ٱلْبَحْثِ ٱلنَّظَرِيِّ عَنِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْجَدَلِ فِيهَا ، وَٱلْحِوَارِ ٱلْمُقِيمِ عَلَيْهَا ، إِلَى ٱلْأَخْذِ بِهَذِهِ ٱلْحَقَائِقِ ٱلْأَسَاسِيَّةِ ، فِي غَيْرِ جَدَلٍ عَقِيمٍ ، وَبَحْثٍ غَيْرِ مُجْدٍ[1] ، هُوَ فِي ٱلْوَاقِعِ ٱلْفِرَارُ مِنَ ٱلنَّزْعَةِ ٱلْمَذْهَبِيَّةِ ، وَٱلتَّخَلُّصُ مِنْ نِيرِهَا[2] ٱلْمُسْتَبِدِّ ٱلْأَلِيمِ .

وَقَدْ حَاوَلَ ٱلْإِمَامُ أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْأَشْعَرِيُّ ذَلِكَ بِالذَّاتِ قَبْلَ ٱلْغَزَالِيِّ بِمِائَتَيْ سَنَةٍ ، كَمَا حَاوَلَهُ ٱبْنُ رُشْدٍ كَذَلِكَ بَعْدَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ رَحِيلِهِ ، وَكَمَا فَعَلَ فِي عَهْدِنَا هَذَا « أُسْبِرَنْجِرُ » إِذْ أَرَادَ أَنْ يُدْخِلَ حَيَاةً جَدِيدَةً عَلَى

(١) غير مجد : غير نافع ولا مفيد (٢) النير : الخشبة المعترضة فى عنق بأداتها

ٱلْإِسْلَامِ فِي ٱلْهِنْدِ فَلَمْ يُوَفَّقْ وَعَادَ فَاشِلا ، وَنَحْسَبُهُ لَمْ يَنْجَحْ لِأَنَّ ٱلْمُهِمَّةَ كَانَتْ شَاقَّةً عَصِيبَةً[1] عَلَيْهِ ، أَوْ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ ٱلْإِيمَانِ وَٱلشَّخْصِيَّةِ ، مَا كَانَ لِلْغَزَالِيِّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ .

***

أثر الخوف من عقاب الله

وَثَانِيًا : أَنَّ ٱلْغَزَالِيَّ فِي وَعْظِهِ وَأَخْلَاقِيَّاتِهِ ، وَتَعَالِيمِهِ ٱلنَّفْسِيَّةِ عَادَ فَأَدْخَلَ عُنْصُرَ ٱلْخَوْفِ ، فَقَدْ جَعَلَ فِي كِتَابِهِ « ٱلْمُنْقِذِ مِنَ ٱلضَّلَالِ » وَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْكُتُبِ ، يُؤَكِّدُ وُجُوبَ إِلْقَاءِ ٱلرُّعْبِ[2] وَٱلْوَجَلِ[3] فِي نُفُوسِ ٱلْعَامَّةِ ، مُنَادِيًا بِأَنَّ ٱلْأَمْرَ لَمْ يَعُدْ يَسْتَوْجِبُ ٱلْمُلَايَنَةَ وَٱلْمُصَانَعَةَ وَٱلرِّفْقَ وَٱلتَّأْمِيلَ[4] وَٱلتَّفَاؤُلَ ، بَلْ لَقَدْ وَجَبَ أَنْ تُبَيِّنَ لِلنَّاسِ حَقِيقَةُ ٱلْجَحِيمِ ، وَعَذَابِهَا ٱلْأَلِيمَ ، فَقَدْ أَحَسَّهَا هُوَ فِي نَفْسِهِ ، وَشَعَرَ بِهَا فِي أَعْمَاقِهِ ، وَقَدْ رَأَيْنَاهُ كَيْفَ

---

(١) العصيب : الصعب الشديد : ومنه قوله تعالى : هذا يوم عصيب : أى صعب شديد (٢) الرعب : شدة الخوف . (٣) الوجل : الخوف والرعب وجمعه أوجال (٤) التأميل : الرجاء

تَجَرَّدَ مِنَ ٱلْمُتَعِ [1] ، وَأَخْضَعَ ٱلنَّفْسَ لِلزُّهْدِ وَٱلنُّسْكِ ، وَٱلْحِرْمَانِ ، وَجَعَلَ ٱلْخَوْفَ مِنَ ٱلنَّارِ ٱلْبَاعِثَ ٱلْأَكْبَرَ عَلَى هِدَايَتِهِ ، وَٱجْتِنَابِهِ ٱلضَّلَالَ وَٱلْهَوَى .

***

إعلاء مكانة الصوفية

وَثَالِثًا : أَنَّ ٱلصُّوفِيَّةَ بَلَغَتْ بِفَضْلِهِ وَنُفُوذِهِ وَتَأْثِيرِهِ مَكَانًا ثَابِتًا وَطِيدًا [2] فِي ٱلْإِسْلَامِ .

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَوَّلَ مَنْ أَدْخَلَهَا فِي ٱلْإِسْلَامِ ، فَقَدْ كَانَتْ قَائِمَةً قَبْلَ ظُهُورِهِ ، وَقَدْ حَدَّثْنَاكَ عَنْ أَبِي ٱلْمَعَالِي ٱلْجُوَيْنِيِّ ٱلْمُلَقَّبِ بِإِمَامِ ٱلْحَرَمَيْنِ كَيْفَ كَانَ صُوفِيًّا ، كَمَا كَانَ ٱلْقُشَيْرِيُّ كَذَلِكَ مِنَ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ ، وَهُوَ صَاحِبُ ٱلرِّسَالَةِ ٱلْمَعْرُوفَةِ بِٱسْمِهِ ، وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلَّذِينَ تَعَلَّمَ ٱلْغَزَالِيُّ عَلَيْهِمْ ، وَأَخَذَ عَنْهُمْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ ٱلتَّصَوُّفِ .

***

الأشعرى والغزالى

وَلَكِنْ كَمَا أَدْخَلَ ٱلْإِمَامُ ٱلْأَشْعَرِيُّ عِلْمَ ٱلْكَلَامِ

(١) المتع : ملاذ الحياة (٢) وطيدا : ثابتا مقوى .

فَكَانَ ذَلِكَ مِنْهُ الْمَرْحَلَةَ الْأَخِيرَةَ ، مِنْ شَوْطٍ بَعِيدِ الْمَدَى ، وَتَطَوُّرٍ مُسْتَطِيلِ السَّعَةِ ، انْتَهَى بِقِيَامِهِ هُوَ وَتَبْرِيزِهِ ، وَتَقْرِيرِهِ هُوَ وَتَعْزِيزِهِ ، كَذَلِكَ قَيَّضَ (١) اللهُ لِلتَّصَوُّفِ إِمَامَنَا الْغَزَالِيَّ ، لِيَجْعَلَ لِلطَّرِيقَةِ مَكَانًا ثَابِتًا مُعْتَرَفًا بِهِ ، مُقَرَّرًا فِي طُرُقِ الْإِسْلَامِ ، وَمَنَاهِجِ عِبَادَاتِهِ وَمَذَاهِبِهِ .

وَإِلَى هَذَيْنِ الْإِمَامَيْنِ الْأَشْعَرِيِّ وَالْغَزَالِيِّ ، أَصْبَحَ يُنْسَبُ أَخْطَرُ نُقْطَتَيْ دَوَرَانٍ فِي تَارِيخِ الدِّيَانَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَقَدْ كَانَ كِلَاهُمَا حُجَّةً (٢) وَكَانَ كِلَاهُمَا عَظِيمًا ، وَإِمَامًا هَادِيًا ، وَكَانَ كِلَاهُمَا ذَا شَخْصِيَّةٍ كَبِيرَةِ الْخَطَرِ ، جَلِيلَةِ السُّلْطَانِ ، وَإِنْ كَانَ الْعَجَبُ الْعَاجِبُ (٣) فِي أَمْرِهِمَا أَنَّهُمَا كَانَا مَعَ ذَلِكَ طِفْلَيْنِ مِنْ أَطْفَالِ الْعَصْرِ ، وَصَغِيرَيْنِ مِنْ صِغَارِ الْجِيلِ .

***

(١) قيض : هيأ (٢) حجة : أى يوثق بعلمه وإليه يرجع فى المعضلات
(٣) العاجب : المدهش

ديمقراطية العلم

وَالْوَجْهُ الرَّابِعُ مِنْ أَثَرِ الْغَزَالِيِّ وَقِيمَةِ عَمَلِهِ : أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَدْنَى الْفَلْسَفَةَ ، وَقَرَّبَ بُحُوثَهَا الدِّينِيَّةَ أَوِ الْإِلٰهِيَّاتِ ، مِنْ مُتَنَاوَلِ الذِّهْنِ الْعَادِيِّ ، وَتَعَاطِي النَّاسِ عَامَّةً لَهَا ، وَكَانَتْ مِنْ قَبْلِهِ مَحْفُوفَةً بِالْأَسْرَارِ ، مُكْتَنَفَةً بِالْغُمُوضِ وَالرَّهْبَةِ ، كَأَنَّهَا عِلْمٌ « لَاهُوتِيٌّ[1] » لَا يُدْرِكُهُ غَيْرُ أَصْحَابِهِ وَالرَّاسِخِينَ[2] فِيهِ ، لِمَا كَانَ لِاصْطِلَاحَاتِهَا مِنَ الْغَرَابَةِ عَلَى الْأَذْهَانِ ، حَتَّى لَتَقْتَضِيَ مَعْرِفَتُهَا الدَّرْسَ الْمُجْهِدَ ، وَالِاسْتِظْهَارَ الشَّاقَّ ، وَكَانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى الطَّالِبِ وَالنَّاشِئِ وَالْمُبْتَدِئِ ، وَالْقَارِئِ الِاعْتِيَادِيِّ أَنْ يَفْهَمَ أَوَّلَ وَهْلَةٍ[3] رِسَالَةً فِي الْفَلْسَفَةِ أَوْ بَحْثًا فِي أَيَّةِ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِيهَا الْمُتَعَدِّدَةِ ، فَقَدْ انْتَقَلَتِ النَّظَرِيَّاتُ وَالْمَذَاهِبُ ، وَالْأَفْكَارُ الْيُونَانِيَّةُ بِأَكْثَرِ

---

(١) علم اللاهوت : علم يبحث فيه عن ذات الله وصفاته وشرائعه وأعمال عنايته والتعاليم التى يجب الاعتقاد بها والواجبات التى يلزمنا تتميمها .

(٢) الراسخين : أى الذين أوتو علما فضلوا به غيرهم وأمسوا أعلاما يقتدى بهم (٣) أى أول كل شىء

مُصْطَلَحَاتِهَا ، وَتَعْبِيرَاتِهَا إِلَى السُّرْيَانِيَّةِ أَوَّلاً ، وَمِنْ هَذَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، وَأَوْجَبَ هَذَا الانْتِقَالُ كَثِيرًا مِنَ التَّصْحِيفِ وَالتَّعْرِيبِ ، وَفِي ذَلِكَ مَجْهَدَةٌ وَمَشَقَّةٌ وَعَنَتٌ شَدِيدٌ ، وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ طُولِ دِرَاسَةٍ ، وَتَقَصٍّ مُتَوَاصِلٍ ، قَبْلَ مَعْرِفَةِ مُصْطَلَحَاتِ الْجَدَلِ ، وَالْإِلْمَامِ بِعِلْمِ الْمُنَاظَرَةِ .

***

تهافت الفلاسفة

فَلَمَّا جَاءَ الْغَزَالِيُّ ، غَيَّرَ ذَلِكَ كُلَّهُ ، أَوْ حَاوَلَ تَغْيِيرَهُ ، فَإِنَّ كِتَابَهُ « تَهَافُتَ الْفَلَاسِفَةِ » ، لَمْ يُوضَعْ لِطُلَّابِ الْفَلْسَفَةِ وَحْدَهُمْ ، وَلَمْ يُؤَلَّفْ لِلْبَاحِثِينَ خَاصَّةً . وَلَكِنَّهُ كُتِبَ لِلْعُمُومِ ، وَقُرِّبَتْ مَوَارِدُهُ وَمَنَاهِلُهُ لِسَائِرِ الْوُرَّادِ وَالْقَاصِدِينَ ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ فِي مُقَدَّمَةِ الْكِتَابِ بِالذَّاتِ ، وَهَذَا هُوَ مَا أَغْضَبَ الْفَلْيَسُوفَ ابْنَ رُشْدٍ وَأَحْفَظَهُ (١) عَلَى الْغَزَالِيِّ ، وَدَفَعَ

(١) أحفظه : أغضبه .

إن في هذا ابن رشد فهماً وعلماً وعبقرية وفلسفة ما لا يوجد في مئة من أمثال الغزالي

بِهِ إِلَى نَقْدِهِ ، وَالتَّحَامُلِ عَلَيْهِ . وَجَعَلَهُ يُحَبِّذُ إِحْرَاقَ كُتُبِهِ ، وَإِعْدَامَ تَوَالِيفِهِ ، وَمِنْ هُنَا يَنْمَازُ (١) الْغَزَالِيُّ عَنِ ابْنِ رُشْدٍ ، فِي أَنَّهُ الْفَيْلَسُوفُ الْحُرُّ السَّمْحُ (٢) الْفِكْرِ .

***

أرستقراطية العلم

بَيْنَمَا كَانَ ابْنُ رُشْدٍ مِنَ الْمُحَافِظِينَ الَّذِينَ يَأْبَوْنَ إِلَّا أَنْ يَخْلُقُوا « أَرِسْتُقْرَاطِيَّةً » لِلْعِلْمِ ، وَهُوَ أَمْرٌ غَرِيبٌ فِي الْحَقِّ مِنْ فَيْلَسُوفٍ مِثْلِهِ ، أَخَذَ عَنْ أَرِسْطُو ، وَهُوَ الْمُنَادِي بِحُرِّيَّةِ الْعِلْمِ وَشَعْبِيَّتِهِ ، وَدِيمُقْرَاطِيَّةِ أَصْحَابِهِ . وَقَدْ كَانَ ابْنُ رُشْدٍ يُرِيدُ مِنَ الدَّوْلَةِ أَنْ تَتَدَخَّلَ بِسُلْطَانِهَا ، لِتَمْنَعَ تَنَاوُلَ مَوْضُوعَاتِ الْفَلْسَفَةِ فِي الْكُتُبِ الْمُؤَلَّفَةِ لِلْعَامَّةِ ، كَمَا تُصَادِرُ انْتِشَارَ التَّوَالِيفِ الْفَلْسَفِيَّةِ ، وَتَعْمَلُ عَلَى وَقْفِ ذُيُوعِهَا وَتَدَاوُلِهَا ، وَقَدْ عَرَضَ ابْنُ رُشْدٍ لِهَذَا كُلِّهِ فِي كِتَابِهِ « فَصْلِ الْمَقَالِ » ، وَغَيْرِهِ مِنْ

(١) ينماز عنه : يفضله ويفوقه (٢) السمح الفكر : المتسع التفكير من غير تعنت .

رَسَائِلِهِ ، وَنَحْسَبُ هَـذَا هُوَ ٱلسَّبَبَ ٱلَّذِى جعَلَ ٱبْنَ رُشْدٍ ، ضَعِيفَ ٱلْأَثَرِ فِى عَصْرِهِ ، فَلَمْ يَشْتَهِرْ مِنْ كُتُبِهِ غَيْرُ رَدِّهِ عَلَى كِتَابِ « ٱلتَّهَافُتِ لِلْغَزَالِىِّ » ، وَمَا تَعَرَّضَ فِيهِ لِٱبْنِ سِينَا وَٱلْفَارَابِىِّ ، إِذْ كَانَ أَبُو حَامِدٍ يَرَاهُمَا مِنَ ٱلْكُفَّارِ ، وَكَانَتْ مَسْأَلَةُ « قِدَمِ ٱلْعَالَمِ » هِىَ مَثَارَ[1] ٱلْخِلَافِ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُ .

***

ظاهر الشرع

وَلَسْنَا نُنْكِرُ أَنَّ ٱلْغَزَالِىَّ قَدْ نَصَحَ فِى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ تَوَالِيفِهِ بِٱلْحَذَرِ وَٱلِاحْتِرَاسِ وَٱلْحَيْطَةِ فِى شَرْحِ ٱلْفَلْسَفَةِ ، وَٱلْمَذَاهِبِ وَٱلتَّعَالِيمِ ، وَٱلْأَدِلَّةِ وَٱلْبَرَاهِينِ ٱلْجَدَلِيَّةِ لِلْعَامَّةِ ، وَٱلَّذِينَ لَمْ يُؤْتَوْا ٱلِاسْتِعْدَادَ لِتَلَقُّنِهَا وَإِدْرَاكِهَا وَفَهْمِهَا ، وَلَكِنَّ ٱلثَّابِتَ ٱلصَّحِيحَ ، أَنَّ ٱلْغَزَالِىَّ لَمْ يَبْلُغْ فِى ذَلِكَ مَبْلَغَ ٱبْنِ رُشْدٍ مِنْهُ ، فَقَدْ كَانَ هَذَا يَقُولُ بِأَنَّهُ لَا يَنْبَغِى لِلْعَامَّةِ ، أَنْ يَشْتَرِكُوا فِى عِلْمِ ٱلْجَدَلِ وَٱلْبَحْثِ فِى ٱلْمَسَائِلِ ٱلدِّينِيَّةِ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ

(١) مثار الخلاف : منشؤه .

أَنْ يَكُونَ فَهْمُهُمْ مَقْصُورًا عَلَى ٱلْقُرْآنِ حَتَّى بِحَرْفِيَّتِهِ وَنُصُوصِهِ ، عَلَى حِينَ كَانَ ٱلْغَزَالِيُّ يَقُولُ : إِنَّهُ قَدْ مَضَى ٱلزَّمَنُ ٱلَّذِي كَانَتْ تَحْتَجِبُ فِيهِ آرَاءُ ٱلْفَلَاسِفَةِ ، وَحَانَ أَنْ تَخْرُجَ ٱلْفَلْسَفَةُ إِلَى ٱلْفَضَاءِ ، وَتَنْكَشِفَ لِلنَّاسِ عَامَّةً ، إِذَا كُنَّا نُرِيدُ حَقًّا لِلدِّينِ ٱلنَّجَاةَ مِنْ كُفْرِ ٱلْكَافِرِينَ وَإِلْحَادِ (١) ٱلْمَلَاحِدَةِ .

وَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْغَزَالِيُّ مُتَشَكِّكًا ؟ ثُمَّ كَيْفَ ٱنْتَهَى مِنَ ٱلشَّكِّ إِلَى ٱلْيَقِينِ ، وَنَحْنُ عَارِضُونَ (٢) ٱلْآنَ لِمَا أَحْدَثَهُ بَيْنَ هَذَيْنِ ٱلْحَدَّيْنِ ٱلْمُتَنَاقِضَيْنِ ٱبْتِدَاءً وَٱنْتِهَاءً .

***

أخلاقيات الغزالى

لَقَدْ أَنْشَأَ ٱلْغَزَالِيُّ مَسْرَحًا دِينِيًّا خُلُقِيًّا شَاهِقَ ٱلْبُنْيَانِ سَامِقَ ٱلْجُدُرِ ، كَانَ لَهُ أَبْرَزُ مَحَلٍّ فِي حَضَارَةِ ٱلْإِسْلَامِ ، وَتَطَوُّرِهِ ٱلْفِكْرِيِّ ، إِذْ تَنَاوَلَ فِيهِ جَمِيعَ نَوَاحِي ٱلْحَيَاةِ ،

(١) إلحاد الملاحدة : أى ميلهم عن الطريق السوى (٢) عارضون : متصدون

فَوَضَعَ لَهَا أَخْلَاقًا وَتَعَالِيمَ ، وَسَنَّ لَهَا آدَابًا وَمَعَالِمَ ، وَحَلَّلَهَا أَعْمَقَ تَحْلِيلٍ ، وَنَزَعَ[1] فِي تَحْلِيلِهَا إِلَى النَّاحِيَةِ النَّفْسِيَّةِ دُونَ نَاحِيَةِ الْفَلْسَفَةِ .

***

النزاع بين الفلسفة والدين

وَقَدْ عَالَجَ الْغَزَالِيُّ مَوْضُوعَ الْخِلَافِ بَيْنَ الْفَلْسَفَةِ وَالدِّينِ ، وَكَانَ هَذَا الْمَوْضُوعُ مَشْغَلَةَ الْعُصُورِ ، وَمَدَارَ الْبَحْثِ ، وَمِحْوَرَ النِّزَاعِ ، فَجَاءَ هُوَ فَتَوَفَّقَ إِلَى حَلٍّ مَقْبُولٍ دَلَّ عَلَى قُوَّةِ الْحُجَّةِ ، وَشِدَّةِ الْعَارِضَةِ[2] ، وَاتِّسَاعِ مَدَى التَّفْكِيرِ ، فَقَدْ ظَلَّ طَوِيلًا حَائِرًا بَيْنَ الدِّينِ وَالْفَلْسَفَةِ ، وَإِذَا كَانَتْ نَاحِيَةُ الدِّينِ عِنْدَهُ غَالِبَةً عَلَى النَّاحِيَةِ الْفَلْسَفِيَّةِ ، فَإِنَّ عَقْلَهُ الْخَصِيبَ ، وَبَصَرَهُ النَّافِذَ ، وَعَاطِفَتَهُ النَّقِيَّةَ ، لَمْ تَطْمَئِنَّ إِلَى مَذَاهِبِ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَتَكَلُّفِهِمُ الْأَدِلَّةَ الْجَدَلِيَّةَ عَلَى حَقِيقَةِ الدِّينِ ، وَإِنَّمَا

(١) نزع : مال (٢) العارضة : البيان واللسن ، والقدرة على الكلام

تَشَكَّكَ فِيهَا جَمِيعاً تَشَكُّكًا يَدُلُّ عَلَى عُمْقِ نَظَرِهِ فِي نِظَامِ الْكَوْنِ وَأَسْرَارِهِ ، وَيَتَّصِلُ بِمَسَائِلَ أَسَاسِيَّةٍ فِي الْفَلْسَفَةِ ، لَمْ يَفْطَنْ إِلَيْهَا الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ قَبْلِهِ ، فَقَدْ بَحَثَ الْغَزَالِيُّ فِي نَظَرِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ وَمِعْيَارِ الْيَقِينِ ، وَتَوَصَّلَ بَعْدَ التَّشَكُّكِ إِلَى بَيَانِ حَقِيقَةِ الْعَالَمِ عَنْ طَرِيقِ الْحَدْسِ (١) الْبَاطِنِيِّ بِأُسْلُوبٍ يُشْبِهُ أَسَالِيبَ الْفَلَاسِفَةِ الْمُعَلِّمِينَ وَالْأَسَاطِينِ (٢) .

وَقَدِ انْمَازَ الْغَزَالِيُّ عَنْهُمْ جَمِيعاً ، بِأَنَّهُ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَقَّهُ ، فَلَمْ يَذْهَبْ مَذْهَبَ الْمُتَكَلِّمِينَ ، أَوْ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ ، فِي إِخْضَاعِ الْعَقْلِ وَمُدْرَكَاتِهِ لِعَقَائِدِ الدِّينِ ، وَلَمْ يَنْحُ (٣) نَحْوَ الْفَلَاسِفَةِ فِي حَصْرِ الْإِيمَانِ الدِّينِيِّ فِي ضِمْنِ قَوَانِينِ الْعَقْلِ وَأَحْكَامِهِ ، وَلَمْ يَنْصَرِفِ انْصِرَافَ الصُّوفِيِّينَ إِلَى نَاحِيَةِ الْكَشْفِ الْبَاطِنِيِّ وَحْدَهُ ، دُونَ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَالْعِبَادَاتِ الدِّينِيَّةِ .

---

(١) الحدس : الظن المؤكد (٢) الأساطين : جمع أسطوانة والمراد كبار العلماء (٣) لم ينح : أى لم يسلك ما سلكوه .

***

الحقائق العلمية

وَلَمْ يُنْكِرِ الْغَزَالِيُّ الْحَقَائِقَ الْعِلْمِيَّةَ ، سَوَاءٌ الرِّيَاضِيَّةُ مِنْهَا وَالطَّبِيعِيَّةُ ، بَلْ يَقُولُ إِنَّ : الْحِسَابَ وَالْهَنْدَسَةَ وَالْفَلَكَ وَالطَّبِيعِيَّاتِ ، هِيَ عُلُومٌ حَقِيقِيَّةٌ لَا شَكَّ فِي صِحَّةِ بَرَاهِينِهَا ، وَفَضْلِ اسْتِنْتَاجَاتِهَا ، وَلَكِنْ مِنَ الْخَطَلِ (١) إِقَامَةُ الْعِلْمِ عَلَى الاعْتِقَادِ ، كَمَا لَا يَجُوزُ حَصْرُ الدِّينِ فِي ضِمْنِ أَحْكَامِ الْعَقْلِ وَبَرَاهِينِ الْمَنْطِقِ ، إِذْ لِكُلٍّ مِنَ النَّاحِيَتَيْنِ مَصْدَرٌ خَاصٌّ ، فَأَمَّا الْعِلْمُ فَيَسْتَنِدُ إِلَى الْعَقْلِ ، وَأَمَّا الدِّينُ فَيَنْبَعِثُ (٢) مِنَ الْقَلْبِ .

***

اخضاع الدين للعقل

وَلِلتَّدْلِيلِ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الرَّأْيِ ، الْتَجَأَ الْغَزَالِيُّ إِلَى مُنَاقَشَةِ الْفَلَاسِفَةِ فِي مُحَاوَلَتِهِمْ إِخْضَاعَ الدِّينِ لِلْعَقْلِ ، فَاعْتَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي عِشْرِينَ مَسْأَلَةً ، أَوْرَدَهَا فِي كِتَابِهِ « تَهَافُتِ الْفَلَاسِفَةِ » ، مُخَالِفَةً لِلدِّينِ ، وَرَأَى ثَلَاثًا مِنْهَا

(١) الخطل : فساد الرأى (٢) فينبعث : فيندفع

يَجِبُ تَكْفِيرُهُمْ فِيهَا ، وَأَمَّا ٱلْبَاقِيَاتُ فَهِيَ عِنْدَهُ فِي حُكْمِ ٱلْبِدَعِ (١) .

***

موجبات التفكير

وَهَذِهِ ٱلْمَسَائِلُ ٱلثَّلَاثُ ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱلتَّفْكِيرَ ، هِيَ قِدَمُ ٱلْعَالَمِ وَأَزَلِيَّتُهُ ، وَٱقْتِصَارُ عِلْمِ ٱللهِ عَلَى ٱلْكُلِّيَاتِ دُونَ ٱلْجُزْئِيَّاتِ ، وَإِنْكَارُ حَشْرِ ٱلْأَجْسَادِ ، وَهَذِهِ ٱلْمَسْأَلَةُ ٱلْأَخِيرَةُ لَيْسَتْ كَبِيرَةَ شَأْنٍ مِنْ وِجْهَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ .

***

مسألة الزمان والمكان

وَقَدْ تَعَرَّضَ ٱلْغَزَالِيُّ لِمُنَاقَشَةِ ٱلْمَسْأَلَتَيْنِ ٱلْأُولَيَيْنِ مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ ، فَتَنَاوَلَ مَسْأَلَةَ ٱلزَّمَانِ وَٱلْمَكَانِ فَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَهُمَا فَرْقًا كَمَا جَعَلَ ٱلْفَلَاسِفَةُ ، إِذْ يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ لِلْعَالَمِ نِهَايَةً ، وَأَنَّ ٱلْمَكَانَ مَحْدُودٌ ، عَلَى حِينِ يَقُولُونَ : إِنَّ ٱلزَّمَانَ لَا ٱبْتِدَاءَ لَهُ وَلَا ٱنْتِهَاءَ ، وَفِي ذَلِكَ

(١) البدع : جمع بدعة وهى الاحداث فى الدين

يَقُولُ ٱلْإِمَامُ أَبُو حَامِدٍ فِي تَهَافُتِ ٱلْفَلَاسِفَةِ ، كَمَا أَنَّ ٱلْبُعْدَ ٱلْمَكَانِيَّ تَابِعٌ لِلْجِسْمِ ، فَٱلْبُعْدُ ٱلزَّمَانِيُّ تَابِعٌ لِلْحَرَكَةِ ، وَهُوَ ٱمْتِدَادُ ٱلْحَرَكَةِ ، كَمَا أَنَّ ذَاكَ ٱمْتِدَادُ أَقْطَارِ ٱلْجِسْمِ .. فَلَا فَرْقَ بَيْنَ ٱلْبُعْدِ ٱلزَّمَانِيِّ ٱلَّذِي تَنْقَسِمُ ٱلْعِبَارَةُ عَنْهُ ، عَنِ ٱلْإِضَافَةِ إِلَى « قَبْلُ » وَ « بَعْدُ » ، وَبَيْنَ ٱلْبُعْدِ ٱلْمَكَانِيِّ ٱلَّذِي تَنْقَسِمُ ٱلْعِبَارَةُ عَنْهُ ، عَنِ ٱلْإِضَافَةِ إِلَى « فَوْقُ » وَ « تَحْتُ » .

وَمَعْنَى هَذَا — أَنَّ ٱلزَّمَانَ وَٱلْمَكَانَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْعَلَاقَةِ بَيْنَ ٱلْأَجْسَامِ ، أَوْ هُمَا عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْعَلَاقَاتِ بَيْنَ تَصَوُّرَاتِنَا ، وَلِهَذَا قَالَ فَرِيقٌ مِنَ ٱلْبَاحِثِينَ : إِنَّ رَأْيَ ٱلْغَزَالِيِّ فِي هَذَا يَدْنُو (١) كَثِيرًا مِنْ نَظَرِيَّةِ ٱلْفَيْلَسُوفِ « كَانْتْ » ٱلَّتِي تَقُولُ : إِنَّ ٱلزَّمَانَ وَٱلْمَكَانَ لَيْسَا مِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْكُلِّيَّةِ ، بَلْ صُوَرٌ سَابِقَةٌ لِلتَّجْرِبَةِ ، نَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى إِدْرَاكِ ٱلْعَالَمِ ٱلْخَارِجِيِّ .

---

(١) يدنو : يقرب

نظرية السببية والمعجزات والرد على الفلاسفة

عَلَى أَنَّ أَهَمَّ مَسْأَلَةٍ فَلْسَفِيَّةٍ تَعَرَّضَ ٱلْغَزَالِيُّ لَهَا ، هِيَ ٱلسَّبَبِيَّةُ ، وَفِيهَا يَقُولُ فِي « ٱلتَّهَافُتِ » : إِنَّ ٱلاقْتِرَانَ بَيْنَ مَا يُعْتَقَدُ فِي ٱلْعَادَةِ سَبَبًا ، وَمَا يُعْتَقَدُ مُسَبَّبًا ، لَيْسَ ضَرُورِيًّا عِنْدَنَا ، بَلْ كُلُّ شَيْئَيْنِ لَيْسَ هَذَا ذَاكَ ، وَلَا ذَاكَ هَذَا ، وَلَا إِثْبَاتُ أَحَدِهِمَا مُتَضَمِّنٌ لِإِثْبَاتِ ٱلْآخَرِ ، وَلَا نَفْيُهُ مُتَضَمِّنٌ لِنَفْيِ ٱلْآخَرِ ، فَلَيْسَ مِنْ ضَرُورَةِ وُجُودِ أَحَدِهِمَا وُجُودُ ٱلْآخَرِ ، وَلَا مِنْ ضَرُورَةِ عَدَمِ أَحَدِهِمَا عَدَمُ ٱلْآخَرِ ، مِثْلُ ٱلرِّيِّ وَٱلشُّرْبِ ، وَٱلشِّبَعِ وَٱلْأَكْلِ ، وَٱلشِّفَاءِ وَشُرْبِ ٱلدَّوَاءِ . . . وَهَلُمَّ جَرًّا ، إِلَى كُلِّ ٱلْمُشَاهَدَاتِ مِنَ ٱلْمُقْتَرِنَاتِ فِي ٱلطِّبِّ وَٱلنُّجُومِ وَٱلصِّنَاعَاتِ وَٱلْحِرَفِ ، وَإِنَّ اقْتِرَانَهَا لِمَا سَبَقَ مِنْ تَقْدِيرِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِخَلْقِهَا عَلَى ٱلتَّسَاوُقِ (١) لَا لِكَوْنِهَا ضَرُورِيًّا فِي نَفْسِهِ غَيْرَ قَابِلٍ لِلتَّخَلُّفِ .

(١) التساوق : النظام والترتيب . ومنها كلمة السياق

وَعَلَى سَبِيلِ زِيَادَةِ الشَّرْحِ يَقُولُ : وَلَيْسَ لَهُمْ دَلِيلٌ إِلَّا مُشَاهَدَةُ حُصُولِ الِاحْتِرَاقِ عِنْدَ مُلَاقَاةِ النَّارِ ، وَالْمُشَاهَدَةُ تَدُلُّ عَلَى الْحُصُولِ عِنْدَهُ ، وَلَا تَدُلُّ عَلَى الْحُصُولِ بِهِ ، وَأَنَّهُ لَا عِلَّةَ سِوَاهُ .

وَخُلَاصَةُ رَأْيِ الْغَزَالِيِّ فِي هَذَا ، أَنَّهُ حِينَمَا نُشَاهِدُ تَعَاقُبَ حَادِثَةٍ بَعْدَ أُخْرَى ، نُسَمِّي أُولَاهُمَا سَبَبًا ، وَالْأُخْرَى مُسَبَّبًا ، عَلَى أَنَّ مُجَرَّدَ اعْتِيَادِنَا لِمُشَاهَدَةِ هَذَا التَّعَاقُبِ ، لَا يَسْمَحُ لَنَا بِأَنْ نَجْعَلَ الْحَادِثَةَ الْأُولَى عِلَّةً لِوُجُودِ الثَّانِيَةِ ، كَمَا يَقُولُ بِذَلِكَ قَانُونُ السَّبَبِيَّةِ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَدِلَّ مِنْ تَعَاقُبِ شَيْئَيْنِ بِانْتِظَامٍ فِي مُشَاهَدَتِنَا ، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا لَا يُتَصَوَّرُ تَغَيُّرُهُ دَائِمًا .

وَمَعْنَى هَذَا إِنْكَارُ السَّبَبِيَّةِ فِي حَوَادِثِ الطَّبِيعَةِ ، وَلَيْسَ الْغَزَالِيُّ بِالْمُفَكِّرِ الْوَحِيدِ الَّذِي أَرَادَ إِنْكَارَ ضَرُورَةِ وُجُودِ هَذَا الْقَانُونِ الَّذِي تَسْتَنِدُ إِلَيْهِ جَمِيعُ

ٱلْعُلُومِ ، فَقَدْ جَاءَ بَعْدَهُ فِي ٱلْقَرْنِ ٱلثَّامِنَ عَشَرَ ٱلْفَيْلَسُوفُ « دَافِيدُ هِيُومُ » ، فَحَذَا [1] حَذْوَ ٱلْغَزَالِيِّ فِي إِنْكَارِ قَانُونِ ٱلسَّبَبِيَّةِ ، ذَاهِباً إِلَى أَنْ لَيْسَ ثَمَّةَ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ لَدَيْنَا عَلَى ضَرُورَةِ وُجُودِ عَلَاقَةٍ بَيْنَ ٱلسَّبَبِ وَٱلْمُسَبَّبِ ، وَإِنَّمَا ٱعْتِيَادُنَا رُؤْيَةَ ٱلْمُسَبَّبِ مُعَقِّباً لِلسَّبَبِ بِانْتِظَامٍ فِي جَمِيعِ مُشَاهَدَاتِنَا ، هُوَ ٱلَّذِي يَذْهَبُ بِنَا إِلَى ٱلظَّنِّ بِأَنَّ ٱلْأَوَّلَ عِلَّةُ وُجُودِ ٱلْآخَرِ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ ٱلْمُشَاهَدَاتِ ، لَا تَكْفِي لِإِثْبَاتِ صِحَّةِ وُجُودِ هَذِهِ ٱلْعَلَاقَةِ بَيْنَهُمَا ، كَمَا يَنُصُّ قَانُونُ ٱلسَّبَبِيَّةِ ٱلْعَامُّ .

***

مذهب هيوم فى قانون السببية

عَلَى أَنَّ « دَافِيدَ هِيُومَ » مَعَ هَذَا ٱلِاعْتِرَاضِ عَلَى ٱلْقَانُونِ ، ظَلَّ مُتَمَسِّكاً بِهِ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَقُولُ : إِنَّ ٱعْتِمَادَنَا عَلَى صِحَّةِ قَانُونِ ٱلسَّبَبِيَّةِ إِنَّمَا نَشَأَ عَنْ غَرِيزَةٍ وَعَادَةٍ طَبِيعِيَّةٍ فِي ٱلْبَشَرِ ، تَجْعَلُنَا نَتَيَقَّنُ تَيَقُّناً بَاطِنِياً بِأَنَّ

(١) حذا حذوه : سار سيرته واتبع خطته

كُلَّ حَوَادِثِ ٱلْعَالَمِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُخَالِفَ ٱلنِّظَامَ ٱلدَّائِمَ ٱلثَّابِتَ .

***

إنكار الضرورة العقلية

وَقَدْ فَطَنَ ٱلْغَزَالِيُّ كَذَلِكَ إِلَى أَنَّ إِنْكَارَ قَانُونِ ٱلسَّبَبِيَّةِ يُؤَدِّي أَخِيرًا إِلَى ٱرْتِكَابِ مُحَالَاتٍ (١) شَنِيعَةٍ ، حَتَّى يَجُوزَ عِنْدَنَا ٱنْقِلَابُ ٱلْكِتَابِ حَيَوَانًا ، وَجَرَّةِ ٱلْمَاءِ شَجَرَةَ تُفَّاحٍ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ ، فَأَجَابَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : فِي كِتَابِ « ٱلتَّهَافُتِ » إِنَّ ٱللهَ خَلَقَ لَنَا عِلْمًا بِأَنَّ هَذِهِ ٱلْمُمْكِنَاتِ لَمْ يَفْعَلْهَا ، وَلَمْ نَدَّعِ أَنَّ هَذِهِ ٱلْأُمُورَ وَاجِبَةٌ ، بَلْ هِيَ مُمْكِنَةٌ ، يَجُوزُ أَنْ تَقَعَ ، وَيَجُوزُ أَلَّا تَقَعَ ، وَٱسْتِمْرَارُ ٱلْعَادَةِ بِهَا مُدَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، تُرَسِّخُ (٢) فِي أَذْهَانِنَا جَرَيَانَهَا عَلَى وَفْقِ ٱلْعَادَةِ ٱلْمَاضِيَةِ ، تَرَسُّخًا لَا تَنْفَكُّ عَنْهُ . . . إِنَّهُ لَمْ يَنْبُتْ مِنَ ٱلشَّعِيرِ حِنْطَةٌ ،

(١) محالات : أى أشياء لا تقرها قضايا العقول السليمة (٢) ترسخ : تثبت .

وَلَا مِنْ بَذْرِ ٱلْكُمَّثْرَى تُفَّاحٌ . . . وَلَـٰكِنْ مَنِ ٱسْتَقْرَأَ[1] عَجَائِبَ ٱلْعُلُومِ لَمْ يَسْتَبْقِ مِنْ قُدْرَةِ ٱللهِ مَا يُحْكَى مِنْ مُعْجِزَاتِ ٱلْأَنْبِيَاءِ .

***

المعجزات النبوية

وَلَعَلَّكَ تُدْرِكُ مِنْ هٰذَا ، أَنَّ ٱلدَّافِعَ ٱلَّذِي بَعَثَ ٱلْغَزَالِيَّ عَلَى إِنْكَارِ ٱلضَّرُورَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فِي قَانُونِ ٱلسَّبَبِيَّةِ هُوَ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَتْرُكَ مَجَالًا لِلْمُعْجِزَاتِ ٱلنَّبَوِيَّةِ ، فَلَمْ يَرَ بَأْسًا لِهٰذَا مِنْ إِخْضَاعِ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعَقْلِ لِعَقِيدَتِهِ ٱلدِّينِيَّةِ .

***

نطاق العقل ونطاق الدين

لَقَدْ كَانَ ٱلدِّينُ هُوَ ٱلْمُسَيْطِرَ[2] ٱلْأَوَّلَ ، عَلَى عَقْلِ ٱلْغَزَالِيِّ وَتَفْكِيرِهِ ، وَمَا قَامَتْ شُكُوكُهُ ٱلْأُولَى فِي أَحْكَامِ ٱلْعَقْلِ إِلَّا مِنْ أَجْلِ ٱلدِّفَاعِ عَنِ ٱلدِّينِ وَحَقِيقَتِهِ ، وَقَدِ ٱسْتَطَاعَ رَدَّ أَصْلِ ٱلدِّينِ إِلَى ٱلْكَشْفِ ٱلْبَاطِنِيِّ وَٱلْإِيمَانِ ٱلْقَلْبِيِّ ، وَلَـٰكِنَّهُ عَجَزَ عَنْ تَحْدِيدِ نِطَاقِ كُلٍّ

(١) استقرأ : تتبع (٢) المسيطر : المهيمن

مِنَ ٱلدِّينِ وَٱلْعَقْلِ وَٱلْوُقُوفِ بِهِمَا عِنْدَ ٱلْحَدِّ ٱللَّازِمِ ، إِنَّهُ لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي إِخْضَاعِ ٱلْعَقْلِ لِلدِّينِ عِنْدَ مَا ٱضْطُرَّ إِلَى إِثْبَاتِ مُعْجِزَاتِ ٱلْأَنْبِيَاءِ ، عَلَى نَقِيضِ مَا فَعَلَ ٱلْفَلَاسِفَةُ ، إِذْ كَانُوا يُخْضِعُونَ ٱلدِّينَ لِلْعَقْلِ ، إِذَا وَجَدُوا بَيْنَهُمَا تَبَايُنًا .

***

رد ابن رشد على الغزالى

وَقَدْ تَصَدَّى ٱبْنُ رُشْدٍ لِلرَّدِّ عَلَى ٱلْغَزَالِيِّ بِالنِّسْبَةِ لِهَذِهِ ٱلْمُعْجِزَاتِ ، فَقَالَ فِي كِتَابِهِ « تَهَافُتِ ٱلتَّهَافُتِ » : فَيَكُونُ تَصْدِيقُ ٱلنَّبِيِّ أَنْ يَأْتِيَ بِالْخَارِقِ ، وَهُوَ مُمْتَنِعٌ عَنِ ٱلْإِنْسَانِ ، مُمْكِنٌ فِي نَفْسِهِ ، وَلَيْسَ يُحْتَاجُ فِي ذَلِكَ أَنْ نَضَعَ أَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلْمُمْتَنِعَةَ فِي ٱلْعَقْلِ مُمْكِنَةٌ فِي حَقِّ ٱلْأَنْبِيَاءِ ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ ٱلْمُعْجِزَاتِ ٱلَّتِي صَحَّ وُجُودُهَا ، وَجَدْتَهَا مِنْ هَذَا ٱلْجِنْسِ ، وَأَبْيَنُهَا [1] فِي ذَلِكَ كِتَابُ ٱللهِ ٱلْعَزِيزِ ، ٱلَّذِي لَمْ يَكُنْ كَوْنُهُ خَارِقًا مِنْ طَرِيقِ

(١) أبينها : أكثرها بيانا

ٱلسَّمَاعِ ، كَٱنْقِلَابِ ٱلْعَصَا حَيَّةً ، وَإِنَّمَا ثَبَتَ كَوْنُهُ مُعْجِزًا بِطَرِيقِ ٱلْحِسِّ وَٱلِاعْتِبَارِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ وُجِدَ ، وَيُوجَدُ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ، وَبِهَذَا فَاقَتْ هَذِهِ ٱلْمُعْجِزَةُ سَائِرَ ٱلْمُعْجِزَاتِ ، فَلْيَكْتَفِ بِهَذَا مَنْ لَمْ يَقْتَنِعْ بِالسُّكُوتِ عَنْ هَذِهِ ٱلْمَسْأَلَةِ . وَلْيَعْرِفْ أَنَّ طَرِيقَ ٱلْخَوَاصِّ فِي تَصْدِيقِ ٱلْأَنْبِيَاءِ طَرِيقٌ آخَرُ ، قَدْ نَبَّهَ عَلَيْهِ « أَبُو حَامِدٍ » فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ ، وَهُوَ ٱلْفِعْلُ ٱلصَّادِرُ مِنَ ٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي سُمِّيَ فِيهَا ٱلنَّبِيُّ نَبِيًّا ، ٱلَّذِي هُوَ ٱلْإِعْلَامُ بِالْغُيُوبِ ، وَوَضْعُ ٱلشَّرَائِعِ ٱلْمُوَافِقَةِ لِلْحَقِّ ، وَٱلْمُفِيدَةِ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ مَا فِيهِ سَعَادَةُ جَمِيعِ ٱلْخَلْقِ .

***

تعليل المعجزات

وَقَدْ حَاوَلَ (١) ٱلْغَزَالِيُّ تَعْلِيلَ ٱلْمُعْجِزَاتِ تَعْلِيلًا طَبِيعِيًّا ، فَقَالَ فِي « ٱلتَّهَافُتِ » ، وَكَذَلِكَ إِحْيَاءُ ٱلْمَيِّتِ وَقَلْبُ ٱلْعَصَا ثُعْبَانًا مُمْكِنٌ بِهَذَا ٱلطَّرِيقِ ، وَهُوَ أَنَّ

(١) حاول : أى طلب الشىء بحيلة

ٱلْمَادَّةَ قَابِلَةٌ لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَالتُّرَابُ وَسَائِرُ ٱلْعَنَاصِرِ تَسْتَحِيلُ نَبَاتًا ، ثُمَّ ٱلنَّبَاتُ يَسْتَحِيلُ عِنْدَ أَكْلِ ٱلْحَيَوَانِ لَهُ دَمًا ، ثُمَّ ٱلدَّمُ يَسْتَحِيلُ مَنِيًّا ، ثُمَّ يَنْصَبُّ ٱلْمَنِيُّ فِي ٱلرَّحِمِ فَيُخْلَقُ حَيَوَانًا ، وَهَذَا بِحُكْمِ ٱلْعَادَةِ وَاقِعٌ فِي زَمَنٍ مُتَطَاوِلٍ ، فَلِمَ يُحِيلُ ٱلْخَصْمُ أَنْ يَكُونَ فِي مَقْدُورَاتِ ٱللهِ تَعَالَى أَنْ يُدَبِّرَ ٱلْمَادَّةَ فِي هَذِهِ ٱلْأَطْوَارِ ، فِي وَقْتٍ أَقْرَبَ مِمَّا عُهِدَ فِيهَا ؟

وَقَدْ أَجَابَ ٱلْغَزَالِيُّ عَنْ هَذَا ٱلسُّؤَالِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِقَوْلِهِ : « إِنَّ ٱلطَّبِيعَةَ لَا تَتْرُكُ أَقْرَبَ ٱلطُّرُقِ فِي أَفْعَالِهَا ، وَتَرْتَكِبُ ٱلْأَعْوَصَ[1] وَٱلْأَبْعَدَ » كَمَا قَالَ أَيْضًا : وَهَكَذَا كَانَ حَالُ ٱلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى ٱللهِ بِالْعَشَائِرِ وَالْعَصَائِبِ ، وَهُمُ ٱلْمُؤَيَّدُونَ مِنَ ٱللهِ بِالْكَوْنِ كُلِّهِ لَوْ شَاءَ ، وَلَكِنَّهُ أَجْرَى ٱلْأُمُورَ عَلَى مُسْتَقَرِّ ٱلْعَادَةِ .

(١) الأعوص : الأصعب والأشد .

***

إثبات حقيقة الله

وَقَدْ عَرَضَ ٱلْغَزَالِيُّ فِي «ٱلتَّهَافُتِ»، لِإِثْبَاتِ حَقِيقَةِ ٱلْإِلٰهِ، وَهِيَ ٱلسَّبَبِيَّةُ ٱلْوَحِيدَةُ ٱلَّتِي ٱعْتَرَفَ بِهَا، وَهِيَ تَرْجِعُ إِلَى إِرَادَةٍ حُرَّةٍ، وَٱخْتِيَارٍ تَامٍّ وَمَعْرِفَةٍ شَامِلَةٍ، فَإِنَّ «ٱلْمَبْدَأَ ٱلْأَوَّلَ»، أَيِ ٱللهَ هُوَ عَالِمٌ قَادِرٌ مُرِيدٌ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ بِمَا يُرِيدُ.

وَهُوَ يَقُولُ فِي «ٱلتَّهَافُتِ»، رَدًّا عَلَى مَنْ يَطْلُبُ ٱلْحُجَّةَ عَلَى وُجُودِ ٱللهِ: إِنَّ هَذَا فُضُولٌ وَطَمَعٌ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ، لِأَنَّ هَذِهِ ٱلْأُمُورَ مِمَّا لَا تَتَّسِعُ لَهُ ٱلْقُوَى ٱلْبَشَرِيَّةُ، وَفِي ٱلنَّاسِ مَنْ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ حَقَائِقَ ٱلْأُمُورِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ لَا تُنَالُ بِنَظَرِ ٱلْعَقْلِ، بَلْ لَيْسَ فِي قُوَّةِ ٱلْبَشَرِ ٱلِاطِّلَاعُ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا يَعْتَقِدُ ٱلْغَزَالِيُّ أَنَّ ٱلْكَشْفَ ٱلْبَاطِنِيَّ، وَٱلْيَقِينَ ٱلشَّخْصِيَّ، مِمَّا يُثْبِتُ لَنَا وُجُودَ ٱللهِ، لِأَنَّ نَفْسَ ٱلْإِنْسَانِ هِيَ قَبَسٌ[1] مِنْ نُورِ ٱللهِ. وَقَدِ

(١) قبس: أي نور

اكتفى الغزالي باقتباس هذا النوع من المعرفة الوجدانية عن الصوفية ، ولم يوافق على مذاهبهم المختلفة في الحلول والاتحاد والوصول ، كما ذكر في كتابه « المنقذ من الضلال » ، ولم يعترف بنظرية وحدة الوجود ، التي تجعل الطبيعة أيضاً جزءاً من القوة الإلهية .

***

علم الجزئيات

وقد خالف الغزالي أيضا فلاسفة الإسلام في قولهم : إن الله لا يعلم إلا نفسه ، وإنه لا يعلم الجزئيات المنقسمة بانقسام الزمن إلى الآن ، وإلى ما كان ، وما سيكون ، وإنه لا يمكن أن يكون خلق العالم من لا شيء ، فإنهم يتصورون حوادث العالم عبارة عن تحول دائم في أعراض الجوهر وصوره أي المادة نفسها ، ثم عن انتقال من ممكن إلى ممكن سواه .

ولكن الغزالي يتساءل : ألا يحدث شيء جديد

فِي ٱلْعَالَمِ ؟ أَلَا تُكَوِّنُ ٱلْعُقُولُ ٱلَّتِي يُقَسِّمُهَا ٱبْنُ سِينَا إِلَى دَرَجَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، شَيْئًا جَدِيدًا مُطْلَقًا ؟

حَقًّا إِنَّ ٱلْأَسْبَابَ وَٱلْمُسَبَّبَاتِ لَا نِهَايَةَ لَهَا ، وَلَا يَسْتَطِيعُ ٱلْفِكْرُ ٱلْإِحَاطَةَ بِهَا .

وَيَجِبُ ٱلاعْتِرَافُ بِأَنَّ نِظَامَ ٱلصُّوَرِ وَٱلْعُقُولِ ٱلَّذِي فَضَّلَهُ ٱبْنُ سِينَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقِفَ إِزَاءَ ٱنْتِقَادَاتِ ٱلْغَزَالِيِّ وَصَائِبِ ٱعْتِرَاضَاتِهِ .

لَقَدْ قَالَ فَلَاسِفَةُ ٱلْإِسْلَامِ : إِنَّ حَقِيقَةَ ٱللهِ هِيَ ٱلْعَقْلُ وَٱلْعِلْمُ ، أَمَّا ٱلْإِرَادَةُ فَإِنَّهَا تَنْشَأُ عَنِ ٱلْحَاجَةِ ، وَلِذَلِكَ هِيَ نَقْصٌ ، وَلَكِنَّ ٱلْغَزَالِيَّ يَرَى أَنَّ وَحْدَةَ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ ، إِنَّمَا تَتَمَثَّلُ فِي ٱلْإِرَادَةِ قَبْلَ غَيْرِهَا ، وَهُوَ يَقُولُ مُعَارِضًا هَؤُلَاءِ ٱلْفَلَاسِفَةَ : إِنَّ ٱللهَ يُصَرِّفُ ٱلْعَالَمَ ، لِأَنَّ إِرَادَتَهُ هِيَ ٱلَّتِي ٱقْتَضَتْ وُجُودَهُ .

***

كتاب المقاصد

وَقَدْ شَرَحَ ٱلْغَزَالِيُّ هَذَا كُلَّهُ فِي كِتَابِهِ « تَهَافُتِ

ٱلْفَلَاسِفَةِ » كَمَا قَدَّمْنَا لَكَ ، وَلَكِنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَتَصَدَّى (١) لِنَقْدِ تَعَالِيمِهِمْ ، ٱبْتَدَأَ بِتَأْلِيفِ كِتَابِ « ٱلْمَقَاصِدِ » فَأَوْضَحَ فِيهِ حُجَجَهُمْ وَعُلُومَهُمْ ، وَقَدْ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي ٱلتَّصَدِّي لِطَرِيقَةِ ٱلتَّعْلِيمِيَّةِ أَوْ عُلَمَاءِ ٱلْكَلَامِ وَنَقْدِهَا

***

إِذْ أَلَّفَ كُتُبًا عِدَّةً فِي ٱلرَّدِّ عَلَى هَذِهِ ٱلْفِرْقَةِ ، مِنْهَا : كِتَابُ ٱلْمُسْتَظْهِرِينَ ، وَكِتَابُ ٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ، وَكِتَابُ حُجَّةِ ٱلْحَقِّ ، حَتَّى لَقَدِ ٱعْتَرَضَ بَعْضُهُمْ عَلَيْهِ مُبَالَغَتَهُ فِي إِيضَاحِ حُجَجِهِمْ ، وَٱتَّهَمَهُ (٢) بِأَنَّهُ بِذَلِكَ قَدْ عَمِلَ عَلَى نَشْرِ آرَائِهِمْ وَإِذَاعَتِهَا فِي ٱلنَّاسِ ، فَرَدَّ عَلَى ٱلْمُعْتَرِضِينَ قَائِلًا ، هَذَا صَحِيحٌ وَلَكِنْ فِي شُبْهَةٍ لَمْ تَنْتَشِرْ وَلَمْ تَشْتَهِرْ ، أَمَّا إِذَا ٱنْتَشَرَتْ فَٱلْجَوَابُ عَنْهَا وَاجِبٌ .

وَلَمْ يَلْجَإِ ٱلْغَزَالِيُّ إِلَى تَسْفِيهِ عُلَمَاءِ ٱلْكَلَامِ ، إِلَّا

(١) يتصدى : يتعرض (٢) اتهمه : رماه

لِأَنَّهُمُ اتَّهَمُوا كُلَّ مَنْ يَتَوَلَّى الرَّدَّ عَلَيْهِمْ بِالْجَهْلِ ، فَأَرَادَ هُوَ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ فَهْمَهُ لِحُجَّتِهِمْ ، فَقَرَّرَهَا وَبَسَطَهَا أَوَّلاً ثُمَّ فَنَّدَهَا [1] وَرَدَّ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ .

***

الرد على التعليمية

وَقَدْ عَرَضَ الْغَزَالِيُّ لِبَعْضِ مَسَائِلَ لِهَذِهِ الْفِرْقَةِ فِي كِتَابِهِ « الْمُنْقِذِ مِنَ الضَّلَالِ » ، كَدَعْوَاهُمُ الْحَاجَةَ إِلَى التَّعْلِيمِ وَإِلَى الْمُعَلِّمِ ، وَكَلَامِهِمْ فِي الْحُكْمِ بِالنَّصِّ أَوْ بِالِاجْتِهَادِ فَنَاقَشَهُمْ فِيهِ ، وَبَيَّنَ أَنَّ الْبِدْعَةَ لَمْ تَبْلُغْ هَذَا الْحَدَّ إِلَّا بِسُوءِ نُصْرَةِ الصَّدِيقِ الْجَاهِلِ ، فَقَدْ بَعَثَتْ شِدَّةُ التَّعَصُّبِ أَنْصَارَ الدِّينِ إِلَى مُجَاحَدَةِ التَّعْلِيمِيَّةِ فِي كُلِّ مُقَدِّمَاتِ كَلَامِهِمْ ، فَجَاحَدُوهُمْ فِي دَعْوَاهُمُ الْحَاجَةَ إِلَى التَّعْلِيمِ وَالْمُعَلِّمِ ، وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ كُلُّ مُعَلِّمٍ ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مُعَلِّمٍ مَعْصُومٍ ، وَظَهَرَتْ حُجَّتُهُمْ فِي إِظْهَارِ الْحَاجَةِ إِلَى التَّعْلِيمِ وَالْمُعَلِّمِ ، وَضَعُفَ قَوْلُ الْمُنْكِرِينَ

(١) فندها : كذبها وخطأها

فِي مُقَابَلَتِهِ ، فَاغْتَرَّ قَوْمٌ بِذَلِكَ ، وَظَنُّوا أَنَّهُ مِنْ قُوَّةِ مَذْهَبِهِمْ ، وَلَمْ يَفْهَمُوا أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا جَاءَ عَنْ ضَعْفِ نَاصِرِ الْحَقِّ ، وَجَهْلِهِ بِطَرِيقِهِ ، بَلِ الصَّوَابُ الِاعْتِرَافُ بِالْحَاجَةِ إِلَى الْمُعَلِّمِ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْمُعَلِّمُ مَعْصُومًا ، وَمُعَلِّمُنَا الْمَعْصُومُ هُوَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَإِذَا قَالُوا هُوَ كَيْتَ ، فَنَقُولُ : مُعَلِّمُكُمْ غَائِبٌ ، فَإِذَا قَالُوا مُعَلِّمُنَا قَدْ عَلَّمَ الدُّعَاةَ[1] وَبَثَّهُمْ[2] فِي الْبِلَادِ ، وَهُوَ يَنْتَظِرُ مُرَاجَعَتَهُمْ إِنِ اخْتَلَفُوا ، أَوْ أَشْكَلَ[3] عَلَيْهِمْ مُشْكِلٌ ، فَنَقُولُ : وَمُعَلِّمُنَا قَدْ عَلَّمَ الدُّعَاةَ ، وَبَثَّهُمْ فِي الْبِلَادِ ، وَأَكْمَلَ التَّعْلِيمَ ، إِذْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » - سُورَةَ الْمَائِدَةِ - وَبَعْدَ كَمَالِ التَّعْلِيمِ لَا يَضُرُّ مَوْتُ الْمُعَلِّمِ ، كَمَا لَا تَضُرُّ غَيْبَتُهُ .

***

الحكم أيكون بالنص أم بالاجماع

أَمَّا مَسْأَلَةُ الْحُكْمِ وَهِيَ أَنْ يَكُونَ بِالنَّصِّ أَوْ بِالِاجْتِهَادِ ،

(١) الدعاة : جمع داع : وهو من يدعو الناس إلى دينه أو مذهبه .
(٢) وبثهم : ونشرهم وفرقهم (٣) أشكل : التبس .

وَالنَّصُّ لَمْ يُسْمَعْ ، وَالاِجْتِهَادُ مَظِنَّةُ[1] الْخِلَافِ ، فَقَدْ أَجَابَ الْغَزَالِيُّ عَنْهَا بِقَوْلِهِ : نَفْعَلُ مَا فَعَلَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، إِذْ بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْيَمَنِ ، فَنَحْكُمُ بِالنَّصِّ عِنْدَ وُجُودِ النَّصِّ ، وَبِالاِجْتِهَادِ إِذَا لَمْ نَجِدْ نَصًّا . فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَاضِيًا سَأَلَهُ ، بِمَ تَقْضِي يَا مُعَاذُ ؟ فَقَالَ : بِمَا فِي كِتَابِ اللهِ ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؟ قَالَ : بِمَا فِي سُنَّةِ[2] رَسُولِ اللهِ ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؟ قَالَ : أَجْتَهِدُ بِرَأْيِي[3] ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يُحِبُّ رَسُولُ اللهِ .

بَلْ نَفْعَلُ مَا يَفْعَلُهُ دُعَاتُهُمْ إِذَا بَعُدُوا عَنِ الْإِمَامِ إِلَى أَقْصَى الْبِلَادِ ، إِذْ لَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَحْكُمُوا بِالنَّصِّ ،

---

(١) المظنة : موضع الشيء ومألفه الذى يظن فيه وجوده. (٢) سنته : أى طريقته وهى أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته وصفاته

(٣) رأيي : أى قياسى

فَإِنَّ النُّصُوصَ الْمُتَنَاهِيَةَ ، لَا تَسْتَوْعِبُ[1] الْوَقَائِعَ غَيْرَ الْمُتَنَاهِيَةِ ، وَلَا يُمْكِنُهُ الرُّجُوعُ فِي كُلِّ وَاقِعَةٍ إِلَى بَلْدَةِ الْإِمَامِ ، وَإِلَى أَنْ يَقْطَعَ الْمَسَافَةَ وَيَرْجِعَ ، فَيَكُونُ الْمُسْتَفْتِي قَدْ مَاتَ ، وَفَاتَ الِانْتِفَاعُ بِالرُّجُوعِ ، فَمَنْ أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ الْقِبْلَةُ ، فَلَيْسَ لَهُ طَرِيقٌ إِلَّا أَنْ يُصَلِّيَ بِالِاجْتِهَادِ ، إِذْ لَوْ سَافَرَ إِلَى بَلْدَةِ الْإِمَامِ لِمَعْرِفَةِ الْقِبْلَةِ ، لَفَاتَ وَقْتُ الصَّلَاةِ ، فَإِذَنْ جَازَتِ الصَّلَاةُ إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ بِنَاءً عَلَى الظَّنِّ ، وَيُقَالُ : إِنَّ الْمُخْطِيءَ فِي الِاجْتِهَادِ لَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ ، وَلِلْمُصِيبِ أَجْرَانِ ، فَكَذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْمُجْتَهَدَاتِ ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ صَرْفِ الزَّكَاةِ إِلَى الْفَقِيرِ ، وَرُبَّمَا يَظُنُّهُ فَقِيرًا بِاجْتِهَادِهِ ، وَهُوَ غَنِيٌّ بَاطِنًا بِإِخْفَائِهِ مَالَهُ ، وَلَا يَكُونُ هُوَ مُؤَاخَذًا بِهِ وَإِنْ أَخْطَأَ ، لِأَنَّهُ لَمْ يُؤَاخَذْ إِلَّا بِمُوجِبِ[2] ظَنِّهِ ، فَإِنْ قَالَ : ظَنٌّ مُخَالِفُهُ كَظَنِّهِ ، فَنَقُولُ : هُوَ مَأْمُورٌ بِاتِّبَاعِ ظَنِّ نَفْسِهِ ، كَالْمُجْتَهِدِ

(١) لا تستوعب : لا تشمل (٢) الموجب : الباعث والداعى .

فِي ٱلْقِبْلَةِ ، يَتَّبِعُ ظَنَّ نَفْسِهِ وَإِنْ خَالَفَهُ غَيْرُهُ ، وَإِنْ قَالَ : فَٱلْمُقَلِّدُ يَتَّبِعُ أَبَا حَنِيفَةَ وَٱلشَّافِعِيَّ - رَحِمَهُمَا ٱللهُ - أَمْ غَيْرَهُمَا؟ فَأَقُولُ : فَٱلْمُقَلِّدُ فِي ٱلْقِبْلَةِ عِنْدَ ٱلاشْتِبَاهِ ، إِذَا ٱخْتَلَفَ عَلَيْهِ ٱلْمُجْتَهِدُونَ مَاذَا يَصْنَعُ ؟

فَسَيَقُولُ : لَهُ مَعَ نَفْسِهِ ٱجْتِهَادٌ فِي مَعْرِفَةِ ٱلْأَفْضَلِ ٱلْأَعْلَمِ بِدَلَائِلِ ٱلْقِبْلَةِ ، فَيَتَّبِعُ ذَلِكَ ٱلاجْتِهَادَ ، فَكَذَلِكَ فِي ٱلْمَذَاهِبِ .

فَرَدُّ ٱلْخَلْقِ إِلَى ٱجْتِهَادِ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَٱلْأَئِمَّةِ ضَرُورَةٌ ، مَعَ ٱلْعِلْمِ بِأَنَّهُمْ قَدْ يُخْطِئُونَ ، بَلْ قَالَ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أَنَا أَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ ، وَٱللهُ يَتَوَلَّى ٱلسَّرَائِرَ » أَيْ أَنَا أَحْكُمُ بِغَالِبِ ٱلظَّنِّ ٱلْحَاصِلِ مِنْ قَوْلِ ٱلشُّهُودِ ، وَرُبَّمَا أَخْطَئُوا فِيهِ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ٱلْأَمْنِ مِنَ ٱلْخَطَإِ لِلْأَنْبِيَاءِ فِي مِثْلِ هَذِهِ ٱلْمُجْتَهَدَاتِ ، فَكَيْفَ نَطْمَعُ فِي ذَلِكَ ؟

وَلَهُمْ هَاهُنَا سُؤَالَانِ : أَحَدُهُمَا قَوْلُهُمْ : هَذَا وَإِنْ

صَحَّ فِي ٱلْمُجْتَهَدَاتِ ، فَلَا يَصِحُّ فِي قَوَاعِدِ ٱلْعَقَائِدِ ، إِذِ ٱلْمُخْطِئُ فِيهِ غَيْرُ مَعْذُورٍ ، فَكَيْفَ ٱلسَّبِيلُ إِلَيْهِ ؟ فَأَقُولُ : قَوَاعِدُ ٱلْعَقَائِدِ يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا ٱلْكِتَابُ وَٱلسُّنَّةُ ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ ٱلتَّفْصِيلِ ، وَٱلْمُتَنَازَعُ فِيهِ يُعْرَفُ ٱلْحَقُّ فِيهِ بِالْوَزْنِ بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ، وَهِيَ ٱلْمَوَازِينُ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا ٱللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ ، وَهِيَ خَمْسَةٌ ذَكَرْتُهَا فِي كِتَابِ «ٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ» . فَإِن قَالَ : خُصُومُكَ يُخَالِفُونَكَ فِي ذَلِكَ ٱلْمِيزَانِ ، فَأَقُولُ : لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُفْهَمَ ذَلِكَ ٱلْمِيزَانُ ، ثُمَّ يُخَالِفَ فِيهِ أَهْلُ ٱلتَّعْلِيمِ ، لِأَنِّي ٱسْتَخْرَجْتُهُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ ، وَتَعَلَّمْتُهُ مِنْهُ ، وَلَا يُخَالِفُ فِيهِ أَهْلُ ٱلْمَنْطِقِ ، وَلَا يُخَالِفُ فِيهِ ٱلْمُتَكَلِّمُ ، لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا يَذْكُرُهُ فِي أَدِلَّةِ ٱلنَّظَرِيَّاتِ ، وَبِهِ يُعْرَفُ ٱلْحَقُّ فِي ٱلْكَلَامِيَّاتِ[1] . فَإِنْ قَالَ : فَإِنْ كَانَ فِي يَدِكَ مِثْلُ هَذَا ٱلْمِيزَانِ ، فَلِمَ لَا تَرْفَعُ ٱلْخِلَافَ بَيْنَ ٱلْخَلْقِ ؟ فَأَقُولُ : لَوْ أَصْغَوْا إِلَيَّ لَرَفَعْتُ ٱلْخِلَافَ بَيْنَهُمْ ، وَقَدْ ذَكَرْتُ طَرِيقَةَ رَفْعِ

(١) الكلاميات : مسائل علم الكلام « التوحيد »

ٱلْخِلَافِ فِي كِتَابِ «ٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ» ، فَتَأَمَّلْهُ لِتَعْرِفَ أَنَّهُ حَقٌّ ، وَأَنَّهُ يَرْفَعُ ٱلْخِلَافَ قَطْعًا لَوْ أَصْغَوْا ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُصْغُونَ إِلَيْهِ بِأَجْمَعِهِمْ ، بَلْ لَقَدْ أَصْغَى إِلَيَّ طَائِفَةٌ فَرَفَعْتُ ٱلْخِلَافَ بَيْنَهُمْ ، وَإِمَامُكَ يُرِيدُ رَفْعَ ٱلْخِلَافِ بَيْنَهُمْ ، مَعَ عَدَمِ إِصْغَائِهِمْ ، فَلِمَ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى ٱلْآنَ ؟ وَلِمَ لَمْ يَرْفَعْ عَلِيٌّ - رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ - وَهُوَ رَأْسُ ٱلْأَئِمَّةِ ؟ أَوْ يَدَّعِي أَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى حَمْلِ كَافَّتِهِمْ عَلَى ٱلْإِصْغَاءِ قَهْرًا ، فَلِمَ لَمْ يَحْمِلْهُمْ إِلَى ٱلْآنِ ؟ وَلِأَيِّ يَوْمٍ أَجَّلَهُ ؟ وَهَلْ حَصَلَ بَيْنَ ٱلْخَلْقِ بِسَبَبِ دَعْوَتِهِ إِلَّا زِيَادَةُ خِلَافٍ أَوْ زِيَادَةُ مُخَالِفٍ ؟ نَعَمْ ، كَانَ يُخْشَى مِنَ ٱلْخِلَافِ نَوْعٌ مِنَ ٱلضَّرَرِ ، لَا يَنْتَهِي إِلَى سَفْكِ ٱلدِّمَاءِ وَتَخْرِيبِ ٱلْبِلَادِ ، وَإِيتَامِ ٱلْأَوْلَادِ ، وَقَطْعِ ٱلطُّرُقِ ، وَٱلْإِغَارَةِ (١) عَلَى ٱلْأَمْوَالِ ، وَقَدْ حَدَثَ فِي ٱلْعَالَمِ مِنْ بَرَكَاتِ رَفْعِكُمُ ٱلْخِلَافَ مَا لَمْ يَكُنْ بِمِثْلِهِ عَهْدٌ . فَإِنْ قَالَ : ٱدَّعَيْتَ أَنَّكَ تَرْفَعُ ٱلْخِلَافَ بَيْنَ

(١) الاغارة : الهجوم

ٱلْخَلْقِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُتَحَيِّرَ بَيْنَ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْمُتَعَارِضَةِ ، وَٱلاخْتِلَافَاتِ ٱلْمُتَقَابِلَةِ ، لَمْ يَلْزَمْهُ ٱلْإِصْغَاءُ إِلَيْكَ دُونَ خَصْمِكَ ، وَأَكْثَرُ ٱلْخُصُومِ يُخَالِفُونَكَ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، وَهَذَا هُوَ سُؤَالُهُمُ ٱلثَّانِي . فَأَقُولُ : هَذَا أَوَّلًا يَنْقَلِبُ عَلَيْكَ ، فَإِنَّكَ إِذَا دَعَوْتَ هَـٰذَا ٱلْمُتَحَيِّرَ إِلَى نَفْسِكَ ، فَيَقُولُ ٱلْمُتَحَيِّرُ : بِمَ صِرْتَ أَوْلَى مِنْ مُخَالِفِيكَ، وَأَكْثَرُ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ يُخَالِفُونَكَ ؟ فَلَيْتَ شِعْرِي ، بِمَاذَا تُجِيبُ ؟ أَتُجِيبُ بِأَنْ تَقُولَ : إِمَامِي مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ ؟ فَمَنْ يُصَدِّقُكَ فِي دَعْوَى ٱلنَّصِّ ؟ فَإِنْ كَانَ مُتَحَيِّرًا فِي أَصْلِ ٱلنُّبُوَّةِ فَقَالَ : هَبْ أَنَّ إِمَامَكَ يُدْلِي[1] بِمُعْجِزَةِ عِيسَى ، فَيَقُولُ : ٱلدَّلِيلُ عَلَى صِدْقِي أَنِّي أُحْيِي أَبَاكَ فَأَحْيَاهُ ، فَنَاطَقَنِي[2] بِأَنَّهُ مُحِقٌّ ، فَبِمَاذَا أَعْلَمُ صِدْقَهُ ؟ وَلَمْ يَعْرِفْ كَافَّةُ ٱلْخَلْقِ صِدْقَ عِيسَى بِهَذِهِ ٱلْمُعْجِزَةِ ، بَلْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْأَسْئِلَةِ ٱلْمُشْكِلَةِ مَالَمْ يُدْفَعْ إِلَّا بِدَقِيقِ ٱلنَّظَرِ ٱلْعَقْلِيِّ ، وَٱلنَّظَرُ ٱلْعَقْلِيُّ لَا يُوثَقُ بِهِ عِنْدَكَ ، وَلَا يُعْرَفُ دِلَالَةُ

(١) يدلى : يحتج : (٢) ناطقنى : كلمنى وقاولنى .

ٱلْمُعْجِزَةِ عَلَى ٱلصِّدْقِ مَالَمْ يُعْرَفِ ٱلسِّحْرُ (١) ، وَٱلتَّمْيِيزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُعْجِزَةِ ، وَمَا لَمْ يُعْرَفْ أَنَّ ٱللهَ لَا يُضِلُّ عِبَادَهُ ، وَسُؤَالُ ٱلْإِضْلَالِ وَٱلْجَوَابُ عَنْهُ مَشْهُورٌ ، فَبِمَاذَا تَدْفَعُ جَمِيعَ ذَلِكَ ؟ وَلَمْ يَكُنْ إِمَامُكَ أَوْلَى بِٱلْمُتَابَعَةِ مِنْ مُخَالِفِهِ ؟ فَيَرْجِعُ إِلَى ٱلْأَدِلَّةِ ٱلنَّظَرِيَّةِ ٱلَّتِي يُنْكِرُهَا ، وَخَصْمُهُ يُدْلِي بِمِثْلِ تِلْكَ ٱلْأَدِلَّةِ وَأَوْضَحَ مِنْهَا ، وَهَذَا ٱلسُّؤَالُ قَدِ ٱنْقَلَبَ عَلَيْهِمُ ٱنْقِلَابًا عَظِيمًا ، لَوِ ٱجْتَمَعَ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ عَلَى أَنْ يُجِيبُوا عَنْهُ جَوَابًا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ .

وَإِنَّمَا نَشَأَ ٱلْفَسَادُ مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلضَّعَفَةِ ، نَاظَرُوهُمْ (٢) فَلَمْ يَشْتَغِلُوا بِٱلْقَلْبِ ، بَلْ بِٱلْجَوَابِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ فِيهِ ٱلْكَلَامُ ، وَلَا يَسْبِقُ سَرِيعًا إِلَى ٱلْأَفْهَامِ ، فَلَا يَصْلُحُ لِلْإِفْحَامِ (٣) فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَهَذَا هُوَ ٱلْقَلْبُ ،

---

(١) السحر : الباطل فى صورة الحق (٢) ناظروهم : جادلوهم

(٣) للافحام : أفحمه أسكته بالحجة فى خصومة أو غيرها

فَهَلْ عَنْهُ جَوَابٌ ؟ فَأَقُولُ : نَعَمْ ، جَوَابُهُ أَنَّ ٱلْمُتَحَيِّرَ لَوْ قَالَ : أَنَا مُتَحَيِّرٌ وَلَمْ يُعَيِّنِ ٱلْمَسْأَلَةَ ٱلَّتِي هُوَ مُتَحَيِّرٌ فِيهَا ، يُقَالُ لَهُ أَنْتَ كَمَرِيضٍ ، يَقُولُ : أَنَا مَرِيضٌ ، وَلَا يَذْكُرُ عَيْنَ مَرَضِهِ وَيَطْلُبُ عِلَاجَهُ ، فَيُقَالُ لَهُ : لَيْسَ فِي ٱلْوُجُودِ عِلَاجٌ لِلْمَرَضِ ٱلْمُطْلَقِ ، بَلْ لِمَرَضٍ مُعَيَّنٍ ، مِنْ صُدَاعٍ أَوْ إِسْهَالٍ أَوْ غَيْرِهِمَا ، فَكَذَلِكَ ٱلْمُتَحَيِّرُ ، يَنْبَغِي أَنْ يُعَيِّنَ مَا هُوَ مُتَحَيِّرٌ فِيهِ ، فَإِنْ عَيَّنَ ٱلْمَسْأَلَةَ ، عَرَّفْتُهُ ٱلْحَقَّ بِالْوَزْنِ بِالْمَوَازِينِ ٱلْخَمْسَةِ ، ٱلَّتِي لَا يَفْهَمُهَا أَحَدٌ إِلَّا وَيَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ ٱلْمِيزَانُ ٱلْحَقُّ ، ٱلَّذِي يُوثَقُ بِكُلِّ مَا يُوزَنُ بِهِ ، فَيَفْهَمُ ٱلْمِيزَانَ ، وَيَفْهَمُ أَيْضًا مِنْ صِحَّةِ ٱلْوَزْنِ ، كَمَا يَفْهَمُ مُتَعَلِّمُ ٱلْحِسَابِ نَفْسَ ٱلْحِسَابِ ، وَكَوْنَ ٱلْمُحَاسِبِ ٱلْمُعَلِّمِ عَالِمًا بِالْحِسَابِ وَصَادِقًا فِيهِ ، وَقَدْ أَوْضَحْتُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ « ٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ » فِي مِقْدَارِ عِشْرِينَ وَرَقَةً ، فَلْيُتَأَمَّلْ (١) .

(١) فليتأمل : فلينظر فيه بعين الفكر والروية

***

مفصل الخلاف

وَلَيْسَ ٱلْمَقْصُودُ ٱلْآنَ بَيَانَ فَسَادِ مَذْهَبِهِمْ ، فَقَدْ ذَكَرْتُ ذٰلِكَ فِي كِتَابِ « ٱلْمُسْتَظْهِرِينَ » أَوَّلًا ، وَفِي كِتَابِ « حُجَّةِ ٱلْحَقِّ » ثَانِياً : وَهُوَ جَوَابُ كَلَامٍ لَهُمْ عُرِضَ عَلَيَّ فِي بَغْدَادَ ، وَفِي كِتَابِ « مُفَصِّلِ ٱلْخِلَافِ » ، ٱلَّذِي هُوَ ٱثْنَا عَشَرَ فَصْلًا ، ثَالِثاً : وَهُوَ جَوَابُ كَلَامٍ عُرِضَ عَلَيَّ بِهَمَذَانَ . وَفِي كِتَابِ « ٱلدَّرْجِ » ٱلْمَرْقُومِ بِٱلْجَدَاوِلِ ، رَابِعاً : وَهُوَ مِنْ رَكِيكِ كَلَامِهِمُ ٱلَّذِي عُرِضَ عَلَيَّ بِطُوسٍ ، وَفِي كِتَابِ « ٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ » . خَامِساً : وَهُوَ كِتَابٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ ، مَقْصُودُهُ بَيَانُ مِيزَانِ ٱلْعُلُومِ ، وَإِظْهَارُ ٱلِاسْتِغْنَاءِ عَنِ ٱلْإِمَامِ ٱلْمَعْصُومِ لِمَنْ أَحَاطَ بِهِ .

***

الامام المعصوم

بَلِ ٱلْمَقْصُودُ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ مِنَ ٱلشِّفَاءِ ٱلْمُنْجِي مِنْ ظُلُمَاتِ ٱلْمِرَاءِ ، بَلْ هُمْ مَعَ عَجْزِهِمْ عَنْ إِقَامَةِ ٱلْبُرْهَانِ عَلَى تَعْيِينِ ٱلْإِمَامِ ، طَالَمَا جَارَيْنَاهُمْ (١)

(١) جاريناهم : وافقناهم وانفقنا معهم

فَصَدَّقْنَاهُمْ فِي ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلتَّعْلِيمِ ، وَإِلَى ٱلْمُعَلِّمِ ٱلْمَعْصُومِ وَأَنَّهُ ٱلَّذِي عَيَّنُوهُ ، ثُمَّ سَأَلْنَاهُمْ عَنِ ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِي تَعَلَّمُوهُ مِنْ هٰذَا ٱلْمَعْصُومِ ، وَعَرَضْنَا عَلَيْهِمْ إِشْكَالَاتٍ (١) فَلَمْ يَفْهَمُوهَا ، فَضْلًا عَنِ ٱلْقِيَامِ بِحَلِّهَا ، فَلَمَّا عَجَزُوا أَحَالُوا عَلَى ٱلْإِمَامِ ٱلْغَائِبِ ، وَقَالُوا : إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ ٱلسَّفَرِ إِلَيْهِ .

وَٱلْعَجَبُ أَنَّهُمْ ضَيَّعُوا عُمُرَهُمْ فِي طَلَبِ ٱلْعِلْمِ ، وَفِي ٱلتَّبَجُّحِ (٢) بِالظَّفَرِ بِهِ ، وَلَمْ يَتَعَلَّمُوا عَنْهُ شَيْئًا أَصْلًا ، كَٱلْمُتَضَمِّخِ (٣) بِالنَّجَاسَةِ ، يَتْعَبُ فِي طَلَبِ ٱلْمَاءِ ، حَتَّى إِذَا وَجَدَهُ لَمْ يَسْتَعْمِلْهُ ، وَبَقِيَ مُتَضَمِّخًا بِالْخَبَائِثِ .

وَمِنْهُمْ مَنِ ٱدَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِهِمْ ، فَكَانَ حَاصِلُ مَا ذَكَرَهُ مِنْ رَكِيكِ فَلْسَفَةِ « فِيثَاغُورِسَ » وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ قُدَمَاءِ ٱلْأَوَائِلِ ، وَمَذْهَبُهُ أَرَكُّ (٤) مَذَاهِبِ ٱلْفَلَاسِفَةِ وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِ « أَرِسْطَاطَالِيسُ » بَلِ ٱسْتَرَكَّ كَلَامَهُ

---

(١) إشكالات : اعتراضات . (٢) التبجح : الافتخار والتباهي .
(٣) المتضمخ : المتلطخ . (٤) أرك : أضعف .

وَاسْتَرْذَلَهُ ، وَهُوَ الْمَحْكِيُّ فِي كِتَابِ « إِخْوَانِ الصَّفَا » وَهُوَ عَلَى التَّحْقِيقِ حَشْوُ الْفَلْسَفَةِ .

فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَتْعَبُ طُولَ الْعُمُرِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ، ثُمَّ يَقْنَعُ بِمِثْلِ ذَلِكَ الرَّكِيكِ[1] الْمُسْتَغَثِّ ، وَيَظُنُّ بِأَنَّهُ ظَفِرَ بِأَقْصَى مَقَاصِدِ الْعُلُومِ ، فَهَؤُلَاءِ أَيْضًا جَرَّبْنَاهُمْ وَسَبَرْنَا[2] ظَاهِرَهُمْ وَبَاطِنَهُمْ ، فَرَجَعَ حَاصِلُهُمْ إِلَى اسْتِدْرَاجِ[3] الْعَوَامِّ ، وَضُعَفَاءِ الْعُقُولِ ، بِبَيَانِ الْحَاجَةِ إِلَى الْمُعَلِّمِ ، وَمُجَادَلَتِهِمْ فِي إِنْكَارِ الْحَاجَةِ إِلَى التَّعْلِيمِ بِكَلَامٍ قَوِيٍّ مُفْحِمٍ ، حَتَّى إِذَا سَاعَدَهُمْ عَلَى الْحَاجَةِ إِلَى الْمُعَلِّمِ سَاعَةً ، وَقَالَ : هَاتِ عِلْمَهُ ، وَأَفِدْنَا مِنْ تَعْلِيمِهِ ، وَقَفَ وَقَالَ : « الْآنَ إِذَا سَلَّمْتَ لِي هَذَا فَاطْلُبْهُ ، فَإِنَّمَا غَرَضِي هَذَا الْقَدْرُ فَقَطْ » إِذْ عَلِمَ أَنَّهُ لَوْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ لَافْتَضَحَ[4] وَلَعَجَزَ عَنْ حَلِّ أَدْنَى الْإِشْكَالَاتِ ، بَلْ عَجَزَ عَنْ فَهْمِهِ فَضْلًا عَنْ جَوَابِهِ .

---

(١) المستغث : الردىء (٢) سبره : خبره . (٣) استدراج العوام : خداعهم (٤) افتضح : انكشفت مساويه

فَهَـذِهِ حَقِيقَةُ حَالِهِمْ ، فَاخْـبُرْهُمْ تَقْلُهُمْ (١) فَلَمَّا خَبَرْنَاهُمْ نَفَضْنَا ٱلْيَدَ عَنْهُمْ .

***

وَكَذَلِكَ رَدَّ ٱلْغَزَالِيُّ عَلَى مَذَاهِبِ ٱلْفَلَاسِفَةِ ، وَآرَاءِ ٱلْفِرَقِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فِي ٱلْإِسْلَامِ ، حَتَّى ظَهَرَتْ حُجَّتُهُ ، وَضَعُفَتْ حُجَجُ خُصُومِهِ ، وَمَا نَحْسَبُ أَحَـدًا قَامَ مِنْ بَعْدِهِ فِي ٱلشَّرْقِ فَاسْتَطَاعَ أَنْ يُحْيِيَ عُلُومَ ٱلْفَلْسَفَةِ كَمَا أَحْيَا هُوَ عُلُومَ ٱلدِّينِ .

***

نزاهة الحوار

وَقَـدْ جَرَى فِي مُنَاقَشَتِهِمْ عَلَى أُسْلُوبٍ مِنَ ٱلْحِوَارِ نَزِيهٍ . وَطَرِيقَةٍ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ عِفَّـةٍ (٢) ، وَأَدَبٍ فِيهَا مَحْمُودٍ جَلِيلٍ ، وَعَرَضَ أَوَّلًا لِلْفِتَنِ ٱلَّتِي كَانَتْ مُسْتَقِرَّةً بَيْنَ ٱلْفُقَهَاءِ، فَهَجَّنَهَا (٣) جَمِيعاً وَقَالَ : إِنَّهَا لَيْسَ مِمَّا يُوَصِّلُ

(١) تقلهم أى تبغضهم . من القلى وهو البغض . وهـذه الكلمة مقتبسة من الحديث الشريف « أخبره تقله » (٢) عفـة : خالية من الشبهات (٣) هجنها . عابها وقبحها

إِلَى اللهِ ، وَيُطَهِّرُ الْقَلْبَ ، وَيَجْعَلُ الْإِنْسَانَ كَامِلًا ، وَإِنَّ مَا يُفِيدُ الْإِنْسَانَ هُوَ الْكَلَامُ فِي جِهَادِ النَّفْسِ ، وَتَحْلِيَتِهَا بِجَمِيلِ الْأَخْلَاقِ ، وَتَخْلِيَتِهَا عَنْ دَنَسِهَا ، فَالْعِلْمُ بِحُدُودِ هَذِهِ الْأُمُورِ وَحَقَائِقِهَا وَأَسْبَابِهَا وَثَمَرَاتِهَا وَعِلَاجِهَا هُوَ الْعِلْمُ الْحَقُّ ، وَهُوَ فَرْضُ عَيْنٍ فِي فَتْوَى عُلَمَاءِ الْآخِرَةِ

***

أدب الفقهاء

وَلَوْ سُئِلَ فَقِيهٌ عَنْ مَعْنًى مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي ، حَتَّى عَنِ الْإِخْلَاصِ ، أَوْ عَنِ التَّوَكُّلِ [1] ، أَوْ وَجْهِ الِاحْتِرَازِ مِنَ الرِّيَاءِ [2] لَتَوَقَّفَ فِيهِ ، وَلَوْ سَأَلْتَهُ عَنِ اللِّعَانِ وَالظِّهَارِ لَسَرَدَ عَلَيْكَ مُجَلَّدَاتٍ مِنَ التَّفْرِيعَاتِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي تَنْقَضِي الدُّهُورُ وَلَا يُحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا ، وَهُوَ لَا يَزَالُ يَتْعَبُ لَيْلًا وَنَهَارًا فِي حِفْظِهَا وَدَرْسِهَا ، وَيَغْفُلُ عَمَّا هُوَ مُهِمٌّ فِي نَفْسِهِ فِي الدِّينِ ، وَإِذَا رُوجِعَ فِيهِ قَالَ : اشْتَغَلْتُ بِهِ لِأَنَّهُ عِلْمُ الدِّينِ وَفَرْضُ الْكِفَايَةِ ،

(١) التوكل : تفويض الأمور إلى الله (٢) الرياء : اظهار خلاف ما بالباطن كالنفاق

وَيلبِسُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ فِى تَعلُّمِهِ ، وَالْفطِنُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ غَرَضُهُ أَدَاءَ حَقِّ الْأَمْرِ فِى فَرْضِ الْكِفَايَةِ ، لَقَدَّمَ عَلَيْهِ فَرْضَ الْعَيْنِ ، بَلْ قَدَّمَ عَلَيْهِ كَثِيرًا مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ ، فَكَمْ مِنْ بَلَدٍ لَيْسَ فِيهِ طَبِيبٌ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، ثُمَّ لَا تَرَى أَحَدًا يَشْتَغِلُ بِهِ ، وَيَتَهَاتَرُونَ (١) عَلَى عِلْمِ الْفِقْهِ ، لَا سِيَّمَا الْخِلَافِيَّاتُ وَالْجَدَلِيَّاتُ ، وَالْبَلَدُ مَشْحُونٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ . . . فَلَيْتَ شِعْرِى، كَيْفَ يُرَخِّصُ فُقَهَاءُ الدِّينِ فِى الاشْتِغَالِ بِفَرْضِ كِفَايَةٍ قَدْ قَامَ بِهِ جَمَاعَةٌ وَإِهْمَالِ مَا لَا قَائِمَ بِهِ ؟ هَلْ لِهَذَا سَبَبٌ إِلَّا أَنَّ الطِّبَّ لَيْسَ يَتَيَسَّرُ بِهِ الْوُصُولُ إِلَى تَوَلِّى الْأَوْقَافِ وَالْوَصَايَا ، وَحِيَازَةِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ، وَتَقَلُّدِ الْقَضَاءِ وَالْحُكُومَةِ ، وَالتَّقَدُّمِ بِهِ عَلَى الْأَقْرَانِ ، وَالتَّسَلُّطِ بِهِ عَلَى الْأَعْدَاءِ .

---

(١) يتهاترون : يكذب بعضهم بعضا

***

البدع

وَأَنحى [١] ٱلْغَزَالِيُّ أَيْضًا عَلَى عُلَمَاءِ ٱلْكَلَامِ فَقَالَ : إِنَّ حَاصِلَ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ مِنَ ٱلْأَدِلَّةِ ٱلَّتِي يُنْتَفَعُ بِهَا ، يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا ٱلْقُرْآنُ وَٱلْأَخْبَارُ ، وَمَا خَرَجَ عَنْهُمَا فَهُوَ : إِمَّا مُحَاوَلَةٌ مَذْمُومَةٌ وَهِيَ مِنَ ٱلْبِدَعِ ، وَإِمَّا مُشَاغَبَةٌ بِالتَّعَلُّقِ بِمُنَاقَضَاتِ ٱلْفِرَقِ لَهَا ، وَتَطْوِيلٌ بِنَقْلِ ٱلْمَقَالَاتِ ٱلَّتِي أَكْثَرُهَا تُرَّهَاتٌ [٣] ، وَهَذَيَانَاتٌ [٤] ، تَزْدَرِيهَا [٥] ٱلطِّبَاعُ ، وَتَمُجُّهَا [٦] ٱلْأَسْمَاعُ ، وَبَعْضُهَا خَوْضٌ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالدِّينِ . وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْهُ مَأْلُوفًا فِي ٱلْعَصْرِ ٱلْأَوَّلِ ، وَكَانَ ٱلْخَوْضُ فِيهِ بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ ٱلْبِدَعْ وَلَكِنْ تَغَيَّرَ ٱلْآنَ حُكْمُهُ ، إِذْ حَدَثَتِ ٱلْبِدَعُ ٱلصَّارِفَةُ عَنْ مُقْتَضَى ٱلْقُرْآنِ وَٱلسُّنَّةِ ، وَنَبَغَتْ جَمَاعَةٌ

---

(١) أنحى الخ : أقبل عليهم . (٢) المشاغبة : المخاصمة والمشارة .
(٣) ترهات : جمع ترهة : وهى الباطل . (٤) هذيانات : كلام غير معقول . (٥) تزدريها : تحتقرها . (٦) تمجها : تطرحها وتعرض عنها

لَفَّقُوا (١) لَهَا شُبَهًا ، وَرَتَّبُوا فِيهَا كَلَامًا مُؤَلَّفًا ، فَصَارَ ذَلِكَ الْمَحْظُورُ بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ مَأْذُونًا فِيهِ ، بَلْ صَارَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ ، وَهُوَ الْقَدْرُ الَّذِي يُقَابَلُ بِهِ الْمُبْتَدِعُ إِذَا قَصَدَ الدَّعْوَةَ عَلَى الْبِدْعَةِ، وَذَلِكَ إِلَى حَدٍّ مَحْدُودٍ.

***

معرفة الحق

وَقَالَ فِي ذَلِكَ أَيْضًا : إِنَّ مَعْرِفَةَ اللهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ لَا تَحْصُلُ مِنْ عِلْمِ الْكَلَامِ ، بَلْ يَكَادُ يَكُونُ الْكَلَامُ حِجَابًا عَلَيْهِ ، وَمَانِعًا مِنْهُ ، وَإِنَّمَا الْوُصُولُ إِلَيْهِ بِالْمُجَاهَدَةِ (٢) . . . ثُمَّ أَوْرَدَ اعْتِرَاضًا عَلَى نَفْسِهِ ، وَهُوَ : كَيْفَ تَنْزِلُ بِهَذَيْنِ الْعِلْمَيْنِ ، الْفِقْهِ وَالتَّوْحِيدِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ ؟ مَعَ أَنَّ عُلَمَاءَ الْأُمَّةِ الْمَشْهُورِينَ بِالْفَضْلِ ، هُمُ الْفُقَهَاءُ وَالْمُتَكَلِّمُونَ ، وَهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ ، فَكَيْفَ تَنْزِلُ دَرَجَاتُهُمْ إِلَى هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ السَّافِلَةِ

(١) لفقوا : صنعوا حديثا من عند انفسهم وزخرفوه بالباطل

(٢) المجاهدة : يريد مجاهدة النفس : أى بذل النفس فى رضى الحق

بِالْإِضَافَةِ إِلَى عِلْمِ الدِّينِ ؟ وَأَجَابَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

إِعْلَمْ أَنَّ مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ بِالرِّجَالِ ، حَارَ فِي مَتَاهَاتِ (١) الضَّلَالِ . فَاعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ إِنْ كُنْتَ سَالِكًا طَرِيقَ الْحَقِّ ، وَإِنْ قَنِعْتَ بِالتَّقْلِيدِ بِالنَّظَرِ إِلَى مَا اشْتَهَرَ مِنْ دَرَجَاتِ الْفَضْلِ بَيْنَ النَّاسِ ، فَلَا تَغْفُلْ عَنِ الصَّحَابَةِ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِمْ ، فَقَدْ أَجْمَعَ الَّذِينَ عَرَّضَتَ (٢) بِذِكْرِهِمْ عَلَى تَقَدُّمِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ لَا يُدْرَكُ فِي الدِّينِ شَأْوُهُمْ (٣) ، وَلَا يُشَقُّ (٤) غُبَارُهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ تَقَدُّمُهُمْ بِالْكَلَامِ ، وَالْفِقْهِ ، بَلْ بِعِلْمِ الْآخِرَةِ وَسُلُوكِ طَرِيقِهَا .

***

الفقهاء

وَقَدْ بَحَثَ الْغَزَالِيُّ عَنِ الْأَسْبَابِ الَّتِي دَعَتْ إِلَى شُيُوعِ الْمُنَاظَرَةِ وَالْجَدَلِ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ ، لِأَنَّ

---

(١) المتاهات : جمع متاهة : أى مضلة يضل فيها السالك (٢) عرضت بذكرهم : أى لم تصرح ولكن عنيتهم بكلامك . (٣) الشأو : المنزلة والدرجة (٤) لا يشق غبارهم : مثل يضرب لمن لا قرن له يجاريه

ٱلْأَشْيَاءِ إِذَا ظَهَرَتْ لِلنَّاسِ أَسْبَابُهَا ، وَكَانَتْ أَسْبَابًا مُزْرِيَةً (١) ، سَهُلَ رُجُوعُ ٱلنَّاسِ عَنْهَا ، فَقَالَ :

***

علم الكلام والفتاوى

لَمَّا ٱنْتَقَلَ أَمْرُ ٱلْخِلَافَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يَكُونُوا فِي أَنْفُسِهِمْ فُقَهَاءَ ، ٱحْتَاجُوا إِلَى مَنْ يُعِينُهُمْ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ لِيُوَلُّوهُمُ ٱلْقَضَاءَ وَٱلْحُكُومَاتِ ، فَرَأَى أَهْلُ تِلْكَ ٱلْأَعْصَارِ عِزَّ ٱلْعُلَمَاءِ ، وَإِقْبَالَ ٱلْأَئِمَّةِ وَٱلْوُلَاةِ عَلَيْهِمْ ، فَاشْرَأَبُّوا (٢) لِطَلَبِ ٱلْعِلْمِ ، تَوَصُّلًا إِلَى دَرْكِ (٣) ٱلْعِزِّ ، وَنَيْلِ ٱلْجَاهِ ، مِنْ قِبَلِ ٱلْوُلَاةِ ، فَأَكَبُّوا (٤) عَلَى ٱلْفَتَاوَى وَعَرَضُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى ٱلْوُلَاةِ ، وَتَعَرَّفُوا إِلَيْهِمْ ، وَطَلَبُوا ٱلْوِلَايَاتِ ، وَٱلصِّلَاتِ (٥) ، وَكَانَ أَكْثَرُ ٱلْإِقْبَالِ فِي تِلْكَ ٱلْأَعْصَارِ ، عَلَى ٱلْفَتَاوَى وَٱلْأَقْضِيَةِ ، لِشِدَّةِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِمَا فِي ٱلْوِلَايَاتِ وَٱلْحُكُومَاتِ ، ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَهُمْ

(١) مزرية : معيبة (٢) اشرأبوا : مدوا أعناقهم « اتجهوا بشغف » (٣) درك العز : أى لحاقه (٤) أكبوا : أقبلوا مجتهدين (٥) الصلات : جمع صلة ، وهى العطية .

مِنَ الصُّدُورِ [١] وَالْأُمَرَاءِ مَنْ يَسْمَعُ مَقَالَاتِ النَّاسِ فِي قَوَاعِدِ الْعَقَائِدِ . وَمَالَتْ نَفْسُهُ إِلَى سَمَاعِ الْحُجَجِ فِيهَا، فَعُلِمَتْ رَغْبَتُهُ إِلَى الْمُنَاظَرَةِ وَالْمُجَادَلَةِ فِي الْكَلَامِ ، فَأَكَبَّ النَّاسُ عَلَى عِلْمِ الْكَلَامِ ، وَأَكْثَرُوا فِيهِ التَّصَانِيفَ [٢] ، وَرَتَّبُوا فِيهِ طُرُقَ الْمُجَادَلَاتِ ، وَزَعَمُوا أَنَّ غَرَضَهُمُ الذَّبُّ [٣] عَنِ الدِّينِ ، وَالنِّضَالُ عَنِ السُّنَّةِ ، وَقَمْعُ الْمُبْتَدِعَةِ ، كَمَا زَعَمَ مَنْ قَبْلَهُمْ أَنَّ قَصْدَهُمْ مِنَ الِاشْتِغَالِ بِالْفَتَاوَى الدِّينُ ، وَتَقَلُّدُ أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ ، إِشْفَاقًا عَلَى خَلْقِ اللهِ وَنَصِيحَةً لَهُمْ ، ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الصُّدُورِ مَنْ لَمْ يَسْتَصْوِبِ الْخَوْضَ فِي الْكَلَامِ، وَفَتْحَ بَابِ الْمُنَاظَرَةِ فِيهِ ، لِمَا كَانَ قَدْ تَوَلَّدَ [٤] مِنْ فَتْحِ بَابِهَا مِنَ التَّعَصُّبَاتِ الْفَاحِشَةِ ، وَالْخُصُومَاتِ الْفَاشِيَةِ ، وَالْمُفْضِيَةِ [٥] إِلَى إِهْرَاقِ [٦] الدِّمَاءِ ، وَتَخْرِيبِ

(١) الصدور : جمع صدر وهو الرجل العظيم (٢) التصانيف : التواليف «المؤلفات» (٣) الذب عن كذا : الدفاع عنه (٤) تولد : نشأ (٥) المفضية : المؤدية ، المسببة . (٦) اهراق الدماء : إسالتها بسبب النزاع

ٱلْبِلَادِ ، وَمَالَتْ نَفْسُهُ إِلَى ٱلْمُنَاظَرَةِ فِى ٱلْفِقْهِ ، وَبَيَانِ ٱلْأَوْلَى مِنْ مَذْهَبِ ٱلشَّافِعِىِّ ، وَأَبِى حَنِيفَةَ عَلَى ٱلْخُصُوصِ ، وَتَسَاهَلُوا فِى ٱلْخِلَافِ مَعَ مَالِكٍ وَسُفْيَانَ وَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِمْ ، وَزَعَمُوا أَنَّ غَرَضَهُمُ ٱسْتِنْبَاطُ دَقَائِقِ ٱلشَّرْعِ ، وَتَقْرِيرُ عِلَلِ ٱلْمَذَاهِبِ ، وَتَمْهِيدُ أُصُولِ ٱلْفَتَاوَى ، وَهُمْ مُسْتَمِرُّونَ عَلَيْهِ إِلَى ٱلْيَوْمِ .

وَلَسْنَا نَدْرِى مَا ٱلَّذِى يُحْدِثُ ٱللهُ فِيمَا بَعْدَنَا مِنَ ٱلْأَعْصَارِ ، فَهَذَا هُوَ ٱلْبَاعِثُ عَلَى ٱلْإِكْبَابِ عَلَى ٱلْخِلَافِ وَٱلْمُنَاظَرَاتِ لَا غَيْرُ ، وَلَوْ مَالَتْ نُفُوسُ أَرْبَابِ ٱلدُّنْيَا إِلَى ٱلْخِلَافِ مَعَ إِمَامٍ آخَرَ مِنَ ٱلْأَئِمَّةِ ، أَوْ إِلَى عِلْمٍ آخَرَ مِنَ ٱلْعُلُومِ ، مَالُوا أَيْضًا مَعَهُمْ ، وَلَمْ يَسْكُتُوا عَنِ ٱلتَّعَلُّلِ [1] بِأَنَّ مَا ٱشْتَغَلُوا بِهِ هُمْ ، عِلْمُ ٱلدِّينِ وَأَنْ لَا مَطْلَبَ لَهُمْ سِوَى ٱلتَّقَرُّبِ إِلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ .

وَقَدْ رَأَى ٱلْغَزَالِىُّ أَنَّ ٱلْمُنَاظِرِينَ قَدْ يَلْبِسُونَ [2]

---

(١) التعلل : إبداء العلة والسبب. (٢) يلبسون على الناس : يخلطون عليهم ويوقعونهم فى الاشتباه .

عَلَى النَّاسِ ، لِلرَّفْعِ مِنْ قِيمَةِ مُنَاظَرَاتِهِمْ ، وَيَسْتَنِدُونَ فِي تَسْوِيغِهَا إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهَا كَانَ يَفْعَلُهَا السَّلَفُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَالْكِبَارُ مِنَ الْفُقَهَاءِ ، لِإِحْقَاقِ الْحَقِّ ، فَقَالَ : إِنَّ الْوُصُولَ إِلَى الْحَقِّ مَحْمُودٌ ، وَالْمُنَاظَرَةَ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ مَحْمُودَةٌ ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ لِذَلِكَ شُرُوطًا ، وَوَضَعَ لِلْمُنَاظَرَةِ مَبَادِئَ وَآدَابًا ، وَهِيَ آدَابٌ سَامِيَةٌ وَدُسْتُورٌ (١) فِكْرِيٌّ رَفِيعٌ ، وَنَحْنُ نَاقِلُونَ هُنَا تِلْكَ الشُّرُوطَ :

***

آداب المناظرة

أَوَّلًا — أَلَّا يَشْتَغِلَ بِهَا ، « وَهِيَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ (٢) » مَنْ لَمْ يَتَفَرَّغْ مِنْ فُرُوضِ الْأَعْيَانِ (٣) ، فَإِنَّ مَنْ عَلَيْهِ فَرْضُ عَيْنٍ فَاشْتَغَلَ بِفَرْضِ كِفَايَةٍ ، وَزَعَمَ أَنَّ مَقْصِدَهُ الْحَقُّ ، فَهُوَ كَذَّابٌ ، وَمَثَلُهُ مَنْ يَتْرُكُ الصَّلَاةَ فِي نَفْسِهِ ، وَيَتَجَرَّدُ فِي تَحْصِيلِ الثِّيَابِ وَنَسْجِهَا ، وَيَقُولُ :

(١) الدستور : القانون يجرى العمل بموجبه . (٢) فرض الكفاية : هوالذى إذا قام به البعض سقط عن الباقين. (٣) فرض العين : الذى يتعين على كل مكلف أداؤه .

غَرَضِى أَنْ أَسْتُرَ مَنْ يُصَلِّى عُرْيَانًا وَلَا يَجِدُ ثَوْبًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ رُبَّمَا يَتَّفِقُ ، وَوُقُوعُهُ مُمْكِنٌ ، كَمَا يَزْعُمُ ٱلْفَقِيهُ أَنَّ وُقُوعَ ٱلنَّوَادِرِ ٱلَّتِى يَنْشَأُ عَنْهَا ٱلْبَحْثُ فِى ٱلْخِلَافِ مُمْكِنٌ . وَٱلْمُشْتَغِلُونَ بِٱلْمُنَاظَرَةِ مُهْمِلُونَ لِأُمُورٍ هِىَ فَرْضُ عَيْنٍ بِٱلِاتِّفَاقِ .

ثَانِيًا — أَلَا يَرَى فَرْضَ كِفَايَةٍ أَهَمَّ مِنَ ٱلْمُنَاظَرَةِ فَإِنْ رَأَى مَا هُوَ أَهَمُّ وَفَعَلَ غَيْرَهُ ، عَصَى بِفِعْلِهِ ، وَكَانَ مَثَلُهُ مَثَلَ مَنْ يَرَى جَمَاعَةً مِنَ ٱلْعِطَاشِ أَشْرَفُوا عَلَى ٱلْهَلَاكِ ، وَقَدْ أَهْمَلَهُمُ ٱلنَّاسُ . وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَائِهِمْ بِأَنْ يَسْقِيَهُمُ ٱلْمَاءَ ، وَٱشْتَغَلَ بِتَعَلُّمِ ٱلْحِجَامَةِ (١) ، وَزَعَمَ أَنَّهُ مِنْ فُرُوضِ ٱلْكِفَايَةِ ، وَأَنَّهُ لَوْ خَلَا ٱلْبَلَدُ عَنْهَا لَهَلَكَ ٱلنَّاسُ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ : إِنَّ فِى ٱلْبَلَدِ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْحَجَّامِينَ ، وَفِيهِمْ غُنْيَةٌ (٢) ، فَيَقُولُ : هَذَا لَا يُخْرِجُ ٱلْفِعْلَ عَنْ كَوْنِهِ فَرْضَ كِفَايَةٍ ، فَحَالُ مَنْ يَفْعَلُ هَذَا ، وَيُهْمِلُ ٱلِاشْتِغَالَ

(١) الحجامة : المعالجة بالمحجم وأخذ الدم. (٢) غنية : كفاية

بِالْوَاقِعَةِ الْمُلِمَّةِ [١] بِجَمَاعَةِ الْعِطَاشِ ، كَحَالِ الْمُشْتَغِلِ بِالْمُنَاظَرَةِ وَفِي الْبَلَدِ فُرُوضُ كِفَايَةٍ لَا قَائِمَ بِهَا .

ثَالِثًا — أَنْ يَكُونَ الْمُنَاظِرُ مُجْتَهِدًا يُفْتِي بِرَأْيِهِ ، لَا بِمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ ، حَتَّى إِذَا ظَهَرَ لَهُ الْحَقُّ فِي مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ تَرَكَ مَا يُوَافِقُ رَأْيَ الشَّافِعِيِّ ، وَأَفْتَى بِمَا ظَهَرَ لَهُ ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ الصَّحَابَةُ وَالْأَئِمَّةُ ، فَأَمَّا مَنْ لَيْسَ لَهُ رُتْبَةُ الِاجْتِهَادِ ، وَهُوَ حُكْمُ [٢] كُلِّ أَهْلِ الْعَصْرِ ، وَإِنَّمَا يُفْتِي فِيمَا يُسْأَلُ عَنْهُ ، نَاقِلًا عَنْ مَذْهَبِ صَاحِبِهِ ، فَلَوْ ظَهَرَ لَهُ ضَعْفُ مَذْهَبِهِ لَمْ يَجُزْ لَهُ أَنْ يَتْرُكَهُ ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ لَهُ فِي الْمُنَاظَرَةِ ؟ وَمَذْهَبُهُ مَعْلُومٌ ، وَلَيْسَ لَهُ الْفَتْوَى بِغَيْرِهِ ، وَمَا يُشْكِلُ [٣] عَلَيْهِ يَلْزَمُهُ أَنْ يَقُولَ فِيهِ : لَعَلَّ عِنْدَ صَاحِبِ مَذْهَبِي جَوَابًا عَنْ هَذَا ، فَإِنِّي لَسْتُ مُسْتَقِلًّا بِالِاجْتِهَادِ فِي أَصْلِ الشَّرْعِ .

رَابِعًا — أَلَّا يُنَاظِرَ إِلَّا فِي مَسْأَلَةٍ وَاقِعَةٍ أَوْ قَرِيبَةٍ

---

(١) الملمة : النازلة بهم . (٢) الحكم : هنا الحال . (٣) يشكل عليه : يلتبس ويختلط .

مِنَ ٱلْوُقُوعِ غَالِباً ، وَلاَ نَرَى ٱلْمُتَنَاظِرِينَ يَهْتَمُّونَ بِالْمَسَائِلِ ٱلَّتِي تَعُمُّ ٱلْبَلْوَى بِالْفَتْوَى فِيهَا ، بَلْ يَطْلُبُونَ ٱلطُّبُولِيَّاتِ (١) ٱلَّتِي تُسْمَعُ ، فَيَتَّسِعُ مَجَالُ ٱلْجَدَلِ فِيهَا كَيْفَ كَانَ ٱلْأَمْرُ ؟ وَرُبَّمَا يَتْرُكُونَ مَا يَكْثُرُ وُقُوعُهُ ، وَيَقُولُونَ : هَذِهِ مَسْأَلَةٌ جُزْئِيَّةٌ أَوْ هِيَ مِنَ ٱلزَّوَايَا (٢) وَلَيْسَتْ مِنَ ٱلطُّبُولِيَّاتِ ، فَمِنَ ٱلْعَجَبِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَطْلَبُ هُوَ ٱلْحَقَّ ، ثُمَّ يَتْرُكُونَ ٱلْمَسْأَلَةَ لِمَا ذَكَرُوا. وَٱلْمَقْصُودُ فِي ٱلْحَقِّ أَنْ يَقْصُرَ ٱلْكَلَامُ ، وَيَبْلُغَ ٱلْغَايَةَ عَلَى ٱلْقُرْبِ ، لَا أَنْ يَطُولَ.

خَامِسًا — أَنْ تَكُونَ ٱلْمُنَاظَرَةُ فِي ٱلْخَلْوَةِ أَحَبَّ إِلَيْهِ وَأَهَمَّ مِنَ ٱلْمَحَافِلِ ، وَبَيْنَ أَظْهُرِ ٱلْأَكَابِرِ وَٱلسَّلَاطِينِ فَإِنَّ ٱلْخَلْوَةَ أَجْمَعُ لِلْفَهْمِ ، وَأَحْرَى بِصَفَاءِ ٱلذِّهْنِ وَٱلْفِكْرِ وَدَرْكِ ٱلْحَقِّ ، وَفِي حُضُورِ ٱلْجَمْعِ مَا يُحَرِّكُ دَوَاعِيَ

(١) الطبوليات : المراد منها صخب الجدل الذى يشبه صوت الطبل .

(٢) الزوايا : الأركان — والمراد : المسائل القليلة الظهور .

الرِّيَاءِ [١]، وَيُوجِبُ الْحِرْصَ عَلَى نُصْرَةِ كُلِّ وَاحِدٍ نَفْسَهُ، مُحِقًّا كَانَ أَوْ مُبْطِلاً، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ حِرْصَهُمْ عَلَى الْمَجَامِعِ وَالْمَحَافِلِ لَيْسَ لِلَّهِ، وَأَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَخْلُو بِصَاحِبِهِ مُدَّةً طَوِيلَةً فَلَا يُكَلِّمُهُ، وَرُبَّمَا يَقْتَرِحُ عَلَيْهِ فَلَا يُجِيبُ، وَإِذَا ظَهَرَ مُقَدَّمٌ [٢] أَوِ انْتَظَمَ مَجْمَعٌ، لَمْ يُغَادِرْ فِي قَوْسِ الِاحْتِيَالِ مَنْزَعًا [٣] حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُتَخَصِّصَ بِالْكَلَامِ.

سَادِسًا — أَنْ يَكُونَ فِي طَلَبِ الْحَقِّ كَنَاشِدِ ضَالَّةٍ [٤] لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَنْ تَظْهَرَ الضَّالَّةُ عَلَى يَدِهِ أَوْ عَلَى يَدِ مَنْ يُعَاوِنُهُ، وَيَرَى رَفِيقَهُ مُعِينًا لَا خَصْمًا، وَيَشْكُرُهُ إِذَا عَرَّفَهُ الْخَطَأَ، وَأَظْهَرَ لَهُ الْحَقَّ، كَمَا لَوْ أَخَذَ طَرِيقًا فِي طَلَبِ ضَالَّتِهِ، فَنَبَّهَهُ صَاحِبُهُ إِلَى ضَالَّتِهِ فِي طَرِيقٍ آخَرَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَشْكُرُهُ وَلَا يَذُمُّهُ،

---

(١) الرياء : النفاق (٢) المقدم : السابق لاخوانه . (٣) المنزع : مكان النزع (٤) ناشد ضالة : الباحث عما فقد منه

وَيُكْرِمُهُ وَيَفْرَحُ بِهِ - أَمَّا ٱلْمُنَاظِرُونَ ٱلْيَوْمَ ، فَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ يَسْوَدُّ وَجْهُ أَحَدِهِمْ إِذَا ٱتَّضَحَ ٱلْحَقُّ عَلَى لِسَانِ خَصْمِهِ ؟ وَكَيْفَ يَخْجَلُ بِهِ ؟ وَكَيْفَ يَجْتَهِدُ فِي مُجَاحَدَتِهِ (١) بِأَقْصَى قُدْرَتِهِ ؟ وَكَيْفَ يَذُمُّ مَنْ أَفْحَمَهُ (٢) طُولَ عُمُرِهِ .

سَابِعاً — أَلَّا يَمْنَعَ مُعِينَهُ فِي ٱلنَّظَرِ مِنَ ٱلِانْتِقَالِ مِنْ دَلِيلٍ إِلَى دَلِيلٍ ، وَمِنْ إِشْكَالٍ إِلَى إِشْكَالٍ ، وَيُخْرِجَ مِنْ كَلَامِهِ جَمِيعَ دَقَائِقِ ٱلْجَدَلِ ٱلْمُبْتَدَعَةِ (٣) ، فِيمَا لَهُ وَعَلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ : هَذَا لَا يَلْزَمُنِي ذِكْرُهُ ، وَهَذَا يُنَاقِضُهُ كَلَامُكَ ٱلْأَوَّلُ ، فَلَا يُقْبَلُ مِنْكَ ، فَإِنَّ ٱلرُّجُوعَ إِلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُنَاقِضِ لِلْبَاطِلِ يَجِبُ قَبُولُهُ - وَأَنْتَ تَرَى جَمِيعَ ٱلْمَجَالِسِ تَنْقَضِي فِي ٱلْمُدَافَعَاتِ وَٱلْمُجَادَلَاتِ، حَتَّى يَقِيسَ ٱلْمُسْتَدِلُّ بِعِلَّةٍ يَظُنُّهَا ، فَيُقَالُ لَهُ : مَا ٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ ٱلْحُكْمَ فِي ٱلْأَصْلِ مُعَلَّلٌ بِهَذِهِ ٱلْعِلَّةِ ؟ فَيَقُولُ :

(١) المجاحدة : شدة إنكار الشيء (٢) أفحمه : أسكته (٣) المبتدعة : المنشأة المخترعة .

هَذَا مَا ظَهَرَ لِي ، فإِنْ ظَهَرَ لَكَ مَا هُوَ أَوْضَحُ مِنْهُ وَأَوْلَى فَاذْكُرْهُ ، حَتَّى أَنْظُرَ فِيهِ ، فَيُصِرُّ الْمُعْتَرِضُ . وَيَقُولُ : فِيهِ مَعَانٍ سِوَي مَا ذَكَرْتَهُ ، وَقَدْ عَرَفْتُهَا وَلَا أَذْكُرُهَا ، إِذْ لَا يَلْزَمُنِي ذِكْرُهَا ، وَيَقُولُ الْمُسْتَدِلُّ : عَلَيْكَ [1] إِيرَادَ مَا تَدَّعِيهِ وَرَاءَ هَذَا ، وَيُصِرُّ الْمُعْتَرِضُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ ، وَيَتَوَخَّى [2] مَجَالِسَ الْمُنَاظَرَةِ بِهَذَا الْجِنْسِ مِنَ السُّؤَالِ وَأَمْثَالِهِ ، وَلَا يَدْرِي الْمِسْكِينُ أَنَّ قَوْلَهُ : أَعْرِفُهُ وَلَا أَذْكُرُهُ ، « إِذْ لَا يَلْزَمُنِي ذِكْرُهُ » كَذِبٌ عَلَى الشَّرْعِ ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ ، وَإِنَّمَا يَدَّعِيهِ لِعَجْزِ خَصْمِهِ فِيهِ فَهُوَ فَاسِقٌ كَذَّابٌ ، عَصَى اللهَ وَتَعَرَّضَ لِسُخْطِهِ ، بِدَعْوَاهُ مَعْرِفَةً هُوَ خَالٍ عَنْهَا ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ فَسَقَ بِإِخْفَائِهِ مَا عَرَفَ مِنْ أَمْرِ الشَّرْعِ ، بَعْدَ أَنْ سُئِلَ عَنْهُ ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ لَا يَلْزَمُنِي ، أَيْ فِي شَرْعِ الْجَدَلِ ، الَّذِي ابْتَدَعْنَاهُ بِحُكْمِ التَّشَهِّي وَالرَّغْبَةِ

(١) عليك : اسم فعل أمر بمعنى إلزم (٢) يتوخى : يتحرى و يقصد.

فِي طَرِيقِ ٱلاِحْتِيَالِ ، وَٱلْمُصَارَعَةُ بِالْكَلَامِ لَا يَلْزَمُنِي.

ثَامِنًا — أَنْ يُنَاظِرَ مَنْ يَتَوَقَّعُ مِنْهُ ٱلاِسْتِفَادَةَ ، مِمَّنْ هُوَ مُشْتَغِلٌ بِالْعِلْمِ ، وَٱلْغَالِبُ أَنَّهُمْ يَحْتَرِزُونَ (١) مِنْ مُنَاظَرَةِ ٱلْفُحُولِ وَٱلْأَكَابِرِ ، خَوْفًا مِنْ ظُهُورِ ٱلْحَقِّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، فَيَرْغَبُونَ (٢) فِيمَنْ دُونَهُمْ ، طَمَعًا فِي تَرْوِيجِ (٣) ٱلْبَاطِلِ عَلَيْهِمْ .

***

أدب رفيع

هَذِهِ هِيَ ٱلْمَبَادِئُ ٱلْجَلِيلَةُ ٱلَّتِي وَضَعَهَا ٱلْإِمَامُ ٱلْغَزَالِيُّ — ٱلْحُجَّةُ ٱلْعَظِيمُ — وَهَذَا هُوَ ٱلْأَدَبُ ٱلرَّفِيعُ ٱلَّذِي سَنَّهُ ، وَدُسْتُورُ ٱلسُّلُوكِ ٱلْعَالِي ٱلَّذِي أَقَامَهُ لِلْمُنَاقَشَاتِ وَٱلْمُنَاظَرَاتِ ، وَمَجَالِسِ ٱلْجَدَلِ وَٱلْبَحْثِ ، وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْمُنَاظِرُونَ هَذِهِ ٱلْمَبَادِئَ ٱلسَّامِيَةَ لَكَانَ خَيْرًا ، وَلَخَرَجَتِ ٱلْمُنَاظَرَاتُ مُجْدِيَةً (٤) صَالِحَةً طَيِّبَةَ ٱلثَّمَرَةِ ،

---

(١) يحترزون : يتحفظون . ويتوقون (٢) يرغبون : رغب فى فى الشىء: أحبه. ورغب عن الشىء: كرهه (٣) ترويج الباطل : تكثيره وشيوعه (٤) مجدية : نافعة مفيدة

عَظِيمَةَ ٱلْفَائِدَةِ ، وَلَـٰكِنَّا لِلْأَسَفِ ٱلشَّدِيدِ قَدْ جَرَيْنَا فِي مُنَاظَرَاتِنَا وَمُسَاجَلَاتِنَا (١) عَلَى ٱلنَّحْوِ (٢) ٱلَّذِي صَوَّرَهُ ٱلْغَزَالِيُّ أَدَقَّ تَصْوِيرٍ ، فَشَاعَتْ فِينَا ٱلْخُصُومَاتُ ، وَفَشَا ٱللَّدَدُ (٣) ، حَتَّى فِيمَا لَا خَيْرَ فِيهِ ، أَوْ لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى جَدَلٍ وَخِلَافٍ ، إِذْ جَعَلَ كُلٌّ مِنَّا هَمَّهُ ، وَقُصَارَى جُهْدِهِ ، فِي ٱلْحِوَارِ وَٱلنِّزَاعِ ، ٱلتَّغَلُّبَ عَلَى خَصْمِهِ ، وَٱلتَّفَوُّقَ عَلَى مُنَاظِرِهِ ، بِمَا يَلْبِسُهُ (٤) عَلَيْهِ ، أَوْ يَحْتَالُ بِهِ عَلَى إِضَاعَةِ ٱلْحَقِّ بَيْنَهُمَا ، لِيَظَلَّا عَلَيْهِ مُخْتَصِمَيْنِ آخِرَ ٱلْحَيَاةِ .

***

المعلم والمتعلم

وَقَدْ وَضَعَ ٱلْإِمَامُ ٱلْغَزَالِيُّ فِي كِتَابِ « ٱلْإِحْيَاءِ » أَسَاسًا قَوِيًّا لِلْمُعَلِّمِ وَٱلْمُتَعَلِّمِ ، وَقَوَاعِدَ عَالِيَةً ، يَبْنِيَانِ عَلَيْهَا مَا يُرِيدَانِ أَنْ يَشْتَغِلَا بِهِ ، فَجَاءَتْ هَذِهِ ٱلتَّعَالِيمُ سَامِيَةً ، لَا تَقِلُّ عَنْ نَظَرِيَّاتِ ٱلْمُؤَدِّبِينَ ، وَعُلَمَاءِ ٱلتَّرْبِيَةِ

(١) المساجلات : المباراة والمفاخرة (٢) النحو : النظام أو الطريقة .
(٣) اللدد : شدة الخصومة والعداء (٤) مايلبسه : مايخلط عليه و يضلله به

وَالْبِدَاجُوجْيَا [١] ، كَمَا حَوَتْ تَحْلِيلًا نَفْسِيًّا دَقِيقًا ، لَا يَأْتِي مِثْلُهُ إِلَّا مِنْ مِثْلِ الْغَزَالِيِّ ، الَّذِي اشْتَغَلَ بِأَرْفَعِ مَرَاتِبِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ أَكْثَرَ دَهْرِهِ .

فَقَالَ فِي أَدَبِ الْمُتَعَلِّمِ وَوَاجِبِهِ :

أَوَّلًا — أَنْ يُقَدِّمَ طَهَارَةَ نَفْسِهِ عَنْ رَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ، فَإِنْ كَانَ الطَّالِبُ رَدِيءَ الْخُلُقِ ، فَمَا أَبْعَدَهُ عَنِ الْعِلْمِ الْحَقِيقِيِّ النَّافِعِ ، وَمَهْمَا كَانَ الْخُلُقُ رَدِيئًا ، فَإِنَّ التَّعَالِيمَ الْفَنِّيَّةَ لَا تَزِيدُ صَاحِبَهُ إِلَّا رَدَاءَةً وَخُبْثًا [٢]

ثَانِيًا — أَلَّا يَتَكَبَّرَ عَلَى الْعِلْمِ ، أَوْ يَتَأَمَّرَ [٣] عَلَى الْمُعَلِّمِ ، بَلْ يُلْقِيَ زِمَامَ [٤] أَمْرِهِ بِالْكُلِّيَّةِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ تَفْصِيلٍ ، وَيُذْعِنَ [٥] لِنُصْحِهِ إِذْعَانَ الْمَرِيضِ الْجَاهِلِ لِلطَّبِيبِ الْعَالِمِ الْحَاذِقِ [٦] ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَوَاضَعَ لِمُعَلِّمِهِ ، وَيَطْلُبَ الثَّوَابَ وَالشَّرَفَ بِخِدْمَتِهِ ، وَلَا يَنْبَغِي

---

(١) البداجوجيا : علم التربية الحديثة (٢) الخبث : الرداءة والمكر .
(٣) يتأمر : يتسلط ويتحكم (٤) الزمام : مقود الدابة — والمراد : قياده والاشراف عليه (٥) يذعن : ينقاد (٦) الحاذق : الماهر المتقن لصناعته.

أَنْ يَسْأَلَهُ إِلَّا إِذَا أَذِنَ لَهُ ، فَإِنَّ سُؤَالَ الطَّالِبِ عَمَّا لَمْ تَبْلُغْ مَرْتَبَتُهُ إِلَيْهِ مَذْمُومٌ .

ثَالِثًا — أَنْ يَحْتَرِزَ الْخَائِضُ (١) فِي الْعِلْمِ فِي مَبْدَإِ الْأَمْرِ عَنِ الْإِصْغَاءِ إِلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ ، سَوَاءٌ كَانَ مَاخَاضَ فِيهِ مِنْ عُلُومِ الدُّنْيَا ، أَمْ مِنْ عُلُومِ الْآخِرَةِ ؟ وَذَلِكَ يُدْهِشُ عَقْلَهُ ، وَيُحَيِّرُ (٢) ذِهْنَهُ وَيُغَيِّرُ رَأْيَهُ ، وَيُوئِسُهُ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَالِاطِّلَاعِ ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُتْقِنَ أَوَّلًا الطَّرِيقَةَ الْوَاحِدَةَ الْمَرْضِيَّةَ عِنْدَ أُسْتَاذِهِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُصْغِي (٣) إِلَى الْمَذَاهِبِ وَالشُّبَهِ (٤) ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أُسْتَاذُهُ مُسْتَقِلًّا بِاخْتِيَارِ رَأْيٍ وَاحِدٍ ، وَإِنَّمَا عَادَتُهُ نَقْلُ الْمَذَاهِبِ وَمَا قِيلَ فِيهَا ، فَلْيَحْذَرْ مِنْهُ ، فَإِنَّ إِضْلَالَهُ أَكْثَرُ مِنْ إِرْشَادِهِ ، إِذْ لَا يَصْلُحُ الْأَعْمَى لِقَوْدِ الْعُمْيَانِ وَإِرْشَادِهِمْ ، وَمَنْ هَذَا حَالُهُ يُعَدُّ فِي عَمَى الْحَيْرَةِ وَتِيهِ (٥) الْجَهْلِ .

---

(١) الخائض : الداخل والمقتحم (٢) يحير : يفسد (٣) يصغى : يستمع
(٤) الشبه : جمع شبهة . وهو ما التبس عليك من الامر (٥) التيه : الضلال والكبر

رَابِعاً — أَلَّا يَدَعَ الطَّالِبُ فَنًّا مِنَ الْفُنُونِ الْمَحْمُودَةِ، وَلَا نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِهِ، إِلَّا وَيَنْظُرَ فِيهِ نَظَرًا يَطَّلِعُ بِهِ عَلَى مَقَاصِدِهِ وَغَايَتِهِ، ثُمَّ إِنْ سَاعَدَهُ الْعُمُرُ، طَلَبَ التَّبَحُّرَ[1] فِيهِ وَاسْتَوْفَاهُ، وَتَطَرَّفَ[2] مِنَ الْبَقِيَّةِ، فَإِنَّ الْعُلُومَ مُتَعَاوِنَةٌ، وَبَعْضُهَا مُرْتَبِطٌ بِبَعْضٍ، وَيَسْتَفِيدُ مِنْهُ فِي الْحَالِ الِانْفِكَاكَ عَنْ عَدَاوَةِ ذَلِكَ الْعِلْمِ بِسَبَبِ جَهْلِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ أَعْدَاءٌ لِمَا جَهِلُوا

خَامِساً — أَلَّا يَخُوضَ فِي فَنٍّ مِنَ الْفُنُونِ دَفْعَةً، بَلْ يُرَاعِيَ التَّرْتِيبَ، وَيَبْتَدِئَ بِالْأَهَمِّ، فَإِنَّ الْعُمُرَ إِذَا لَمْ يَتَّسِعْ لِجَمِيعِ الْعُلُومِ، فَالْحَزْمُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ.

سَادِساً — أَلَّا يَخُوضَ فِي فَنٍّ حَتَّى يَسْتَوْفِيَ الْفَنَّ الَّذِي قَبْلَهُ، فَإِنَّ الْعُلُومَ مُرَتَّبَةٌ تَرْتِيبًا ضَرُورِيًّا، وَبَعْضُهَا

---

(١) التبحر: التوسع (٢) تطرف: الأصل فى التطرف أن ترعى الناقة أطراف المرعى ولا تختلط بالنوق، والمراد بالتطرف هنا الأخذ بنصيب قليل

طَرِيقٌ إِلَى بَعْضٍ ، وَالْمُوَفَّقُ مَنْ رَاعَى ذَلِكَ التَّرْتِيبَ وَالتَّدْرِيجَ .

سَابِعًا — أَنْ يَكُونَ قَصْدُ الْمُعَلِّمِ فِي الْحَالِ تَحْلِيَةَ بَاطِنِهِ وَتَجْمِيلَهُ بِالْفَضِيلَةِ ، وَفِي الْمَآلِ الْقُرْبَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ وَلَا يَقْصِدُ بِهِ الرِّيَاسَةَ وَالْمَالَ وَالْجَاهَ ، وَمُمَارَاةَ (١) السُّفَهَاءِ ، وَمُبَارَاةَ الْأَقْرَانِ (٢) .

أَمَّا مَا يَنْبَغِي لِلْمُعَلِّمِ أَوِ الْمُرْشِدِ الْأَخْذُ بِهِ فَهُوَ :

أَوَّلًا — الشَّفَقَةُ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ وَأَنْ يُجْرِيَهُمْ مُجْرَى بَنِيهِ .

ثَانِيًا — أَلَّا يَطْلُبَ عَلَى إِفَادَةِ الْعِلْمِ أَجْرًا ، وَلَا يَقْصِدَ بِهِ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ، بَلْ يُعَلِّمَ لِوَجْهِ اللهِ خَالِصًا ، وَأَلَّا يَرَى لِنَفْسِهِ مِنَّةً عَلَى طَلَبَتِهِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْمِنَّةُ لَازِمَةً عَلَيْهِمْ ، بَلْ يَرَى الْفَضْلَ لَهُمْ إِذْ هَذَّبُوا (٣) قُلُوبَهُمْ لِأَنْ تَتَقَرَّبَ إِلَى اللهِ بِزَرْعِ الْعُلُومِ فِيهَا .

---

(١) المماراة : المجادلة والطعن فى القول (٢) الأقران : جمع قرن وهو الصاحب (٣) هذبوا قلوبهم : أخلصوها من الشوائب

ثالثًا — أَلَّا يَدَعَ مِنْ نُصْحِ الْمُتَعَلِّمِ شَيْئًا ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَمْنَعَهُ مِنَ التَّصَدِّي لِرُتْبَةٍ قَبْلَ اسْتِحْقَاقِهَا ، وَالتَّشَاغُلِ بِعِلْمٍ خَفِيٍّ قَبْلَ الْفَرَاغِ مِنَ الْجَلِيِّ

رَابِعًا — وَهِيَ مِنْ دَقَائِقِ صِنَاعَةِ التَّعْلِيمِ ، أَنْ يَزْجُرَ الْمُتَعَلِّمُ عَنْ سُوءِ الْأَخْلَاقِ بِطَرِيقِ التَّعْرِيضِ مَا أَمْكَنَ وَلَا يُصَرِّحَ ، وَبِطَرِيقِ الرَّحْمَةِ لَا بِطَرِيقِ التَّوْبِيخِ ، فَإِنَّ التَّصْرِيحَ يَهْتِكُ (١) حِجَابَ الْهَيْبَةِ ، وَيُورِثُ الْجُرْأَةَ عَلَى الْهُجُومِ بِالْخِلَافِ ، وَيُهَيِّجُ الْحِرْصَ عَلَى الْإِصْرَارِ

خَامِسًا — أَنَّ الْمُتَكَفِّلَ بِبَعْضِ الْعُلُومِ ، يَنْبَغِي لَهُ أَلَّا يُقَبِّحَ فِي نَفْسِ الْمُتَعَلِّمِ الْعُلُومَ الَّتِي وَرَاءَهُ ، كَمُعَلِّمِ اللُّغَةِ إِذْ عَادَتُهُ تَقْبِيحُ الْفِقْهِ ، وَمُعَلِّمُ الْفِقْهِ عَادَتُهُ تَقْبِيحُ عِلْمِ الْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ ، وَمُعَلِّمُ الْكَلَامِ يُنَفِّرُ عَنِ الْفِقْهِ ، فَهَذِهِ أَخْلَاقٌ مَذْمُومَةٌ لِلْمُعَلِّمِينَ يَنْبَغِي أَنْ تُجْتَنَبَ ، وَالْمُتَكَفِّلُ بِعِلْمٍ وَاحِدٍ يَنْبَغِي أَنْ يُوَسِّعَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ طَرِيقَ التَّعَلُّمِ فِي غَيْرِهِ .

---

(١) يهتك : يفضح

سَادِسًا — أَنْ يَقْتَصِرَ بِالْمُتَعَلِّمِ عَلَى قَدْرِ فَهْمِهِ ، فَلَا يُلْقِي إِلَيْهِ مَا لَا يَبْلُغُهُ عَقْلُهُ فَيُنَفِّرَهُ ، أَوْ يَتَخَبَّطَ[1] عَقْلَهُ .

سَابِعًا — أَنَّ الْمُتَعَلِّمَ الْقَاصِرَ يَنْبَغِي أَنْ يُلْقَى إِلَيْهِ الْجَلِيُّ اللَّائِقُ بِهِ ، وَلَا يُذْكَرَ لَهُ أَنَّ وَرَاءَ هَذَا تَدْقِيقًا ، وَهُوَ يَدَّخِرُهُ عَنْهُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُفَتِّرُ[2] رَغْبَتَهُ فِي الْجَلِيِّ وَيُشَوِّشُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ ، وَيُوهِمُ إِلَيْهِ الْبُخْلَ بِهِ عَنْهُ ، إِذْ يَظُنُّ كُلُّ أَحَدٍ ، أَنَّهُ أَهْلٌ لِكُلِّ عِلْمٍ دَقِيقٍ ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ رَاضٍ عَنِ اللهِ - سُبْحَانَهُ - فِي كَمَالِ عَقْلِهِ ، وَأَشَدُّهُمْ حَمَاقَةً وَأَضْعَفُهُمْ عَقْلًا هُوَ أَفْرَحُهُمْ بِكَمَالِ عَقْلِهِ .

ثَامِنًا — أَنْ يَكُونَ الْمُعَلِّمُ عَامِلًا بِعِلْمِهِ ، فَلَا يُكَذِّبُ قَوْلَهُ فِعْلُهُ ، وَكُلُّ مَنْ تَنَاوَلَ شَيْئًا وَقَالَ لِلنَّاسِ لَا تَتَنَاوَلُوهُ فَإِنَّهُ سُمٌّ زُعَافٌ[3] ، سَخِرَ النَّاسُ

(١) تخبطه : أفسده (٢) يفتر : يضعف (٣) سم زعاف : قاتل سريعا

مِنْهُ وَاتَّهَمُوهُ ، وَزَادَ حِرْصُهُمْ عَلَى مَا نُهُوا عَنْهُ

***

فلسفة التربية

وَهَذِهِ مَبَادِئُ فِي التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ عَلَى سُهُولَتِهَا وَإِيجَازِهَا تَكَادُ تُلِمُّ بِفَلْسَفَةِ التَّأْدِيبِ وَالتَّهْذِيبِ كُلِّهَا ، وَتَلْحَقُ آرَاءَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِيهَا ، وَقَدْ دَلَّ بِهَا الْغَزَالِيُّ عَلَى مَعْرِفَةٍ وَثِيقَةٍ بِنَفْسِيَّةِ الْمُعَلِّمِ وَالْمُتَعَلِّمِ ، وَاسْتَقْصَى (١) فِيهَا جَمِيعَ أَسَالِيبِ الْإِغْرَاءِ وَالتَّرْغِيبِ ، وَعَوَامِلَ التَّنْفِيرِ وَالتَّرْهِيبِ كَافَّةً ، وَقَدْ كَتَبَ فُصُولًا طِوَالًا فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ لَمْ نَشَأْ أَنْ نَعْرِضَهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً ، مَخَافَةَ الْإِطَالَةِ فَاجْتَزَأْنَا (٢) بِهَذِهِ لِأَنَّهَا تُغْنِي فِي هَذَا الْبَابِ .

***

تعريف النفس

وَلِلْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ آرَاءٌ فِي النَّفْسِ ، نَضَحَتْ (٣) مِنْ قِبَلِ (٤) التَّصَوُّفِ الْمَصْحُوبِ بِالنَّقْلِ عَنِ الدِّينِ ، وَقَدْ رَأَيْنَاهُ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ يَنْحُو (٥) نَحْوَ التَّحْلِيلِ الْفَلْسَفِيِّ ، وَهُوَ

---

(١) استقصى الأمر : بلغ غايته (٢) فاجتزأنا : فاكتفينا (٣) نضحت : خرجت وظهرت (٤) من قبل : من جهة وناحية . (٥) ينحو : يقصد والمراد هنا : ينسج على منواله

مَا اهْتَمَّ بِهِ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ، وَقَلِيلٌ مِنْ مُتَأَخِّرِيهِمْ، وَلَكِنَّهُ بَعِيدٌ مِنَ التَّشْرِيحِ (١) الْعَمَلِيِّ، وَهُوَ مَا اهْتَمَّ بِهِ كَثِيرٌ مِنْ فَلَاسِفَةِ الْفَرَنْجَةِ لِعَهْدِنَا هَذَا.

قَالَ الْغَزَالِيُّ: إِنَّ هُنَاكَ أَرْبَعَةً مِنَ الْأَسَامِي تَخْتَلِفُ مُسَمَّيَاتُهَا، وَهِيَ: الْقَلْبُ، وَالنَّفْسُ، وَالرُّوحُ، وَالْعَقْلُ

أَمَّا الْقَلْبُ: فَحَقِيقَتُهُ الْجِسْمِيَّةُ مَعْلُومَةٌ، وَتَسْتَوِي فِيهِ الْحَيَوَانَاتُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ» فَهُوَ لَطِيفَةٌ (٢) رَبَّانِيَّةٌ رُوحِيَّةٌ لَهَا بِهَذَا الْقَلْبِ الْجُسْمَانِيِّ تَعَلُّقٌ، وَتِلْكَ اللَّطِيفَةُ هِيَ حَقِيقَةُ الْإِنْسَانِ، وَأَمَّا عَلَاقَتُهَا بِالْقَلْبِ الْجُسْمَانِيِّ فَمِمَّا حَارَ فِيهِ (٣) الْغَزَالِيُّ أَوْ لَمْ يَشَأْ إِظْهَارَهُ.

---

(١) التشريح: تقطيع الشيء وفصل بعضه عن بعض (٢) اللطيفة الانسانية: هي النفس الناطقة المسماة عند الصوفية بالقلب. (٣) فمما حار فيه: أي تحير وتردد فيه.

***

الروح

وَالرُّوحُ يُرَادُ بِهَا مَعْنَيَانِ : أَحَدُهُمَا جِسْمٌ لَطِيفٌ مَنْبَعُهُ تَجْوِيفُ الْقَلْبِ ، فَيَنْتَشِرُ بِالْعُرُوقِ الضَّوَارِبِ إِلَى سَائِرِ أَجْزَاءِ الْبَدَنِ ، وَجَرَيَانِهِ فِي الْبَدَنِ . وَفَيَضَانُ أَنْوَارِ الْحَيَاةِ وَالْحِسُّ [1] مِنْهَا عَلَى الْأَعْضَاءِ يُشْبِهُ فَيَضَانَ النُّورِ مِنَ السِّرَاجِ الَّذِي يُدَارُ فِي زَوَايَا الْبَيْتِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْتَهِي إِلَى جُزْءٍ مِنَ الْبَيْتِ إِلَّا وَيَسْتَنِيرُ بِهِ ، وَالْحَيَاةُ مِثَالُهَا النُّورُ الْحَاصِلُ فِي الْحِيطَانِ ، وَالرُّوحُ مِثَالُهَا السِّرَاجُ ، وَسَرَيَانُ الرُّوحِ وَحَرَكَتُهَا فِي الْبَاطِنِ مِثْلُ حَرَكَةِ السِّرَاجِ فِي جَوَانِبِ الْبَيْتِ بِتَحْرِيكِ مُحَرِّكِهِ. وَالثَّانِي وَهُوَ اللَّطِيفَةُ الْعَالِمَةُ الْمُدْرِكَةُ مِنَ الْإِنْسَانِ وَهُوَ الْمَعْنَى الثَّانِي مِنْ مَعَانِي الْقَلْبِ .

وَالنَّفْسُ يُرَادُ بِهَا مَعْنَيَانِ : أَحَدُهُمَا الْمَعْنَى الْجَامِعُ لِقُوَّةِ الْغَضَبِ وَالشَّهْوَةِ فِي الْإِنْسَانِ . وَالثَّانِي تِلْكَ

(١) الحس : الادراك

اللَّطِيفَةُ الَّتِي هِيَ الْإِنْسَانُ بِالْحَقِيقَةِ وَلَهَا أَوْصَافٌ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا ، فَهِيَ الْمُطْمَئِنَّةُ (١) ، وَهِيَ اللَّوَّامَةُ (٢)

***

العقل

وَلِلْعَقْلِ أَرْبَعَةُ مَعَانٍ - أَوَّلُهَا - ذَلِكَ الْوَصْفُ الَّذِي اسْتَعَدَّ بِهِ الْإِنْسَانُ لِقَبُولِ الْعُلُومِ النَّظَرِيَّةِ ، وَتَدْبِيرِ الصِّنَاعَاتِ الْخَفِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ ، وَهُوَ الْغَرِيزَةُ أَوْ هُوَ الِاسْتِعْدَادُ ، وَلَا نَظُنُّ أَحَدًا يُنْكِرُ هَذَا الْمَعْنَى حَتَّى الْمَادِّيِّينَ أَنْفُسَهُمْ ، قَالَ : وَنِسْبَةُ هَذِهِ الْغَرِيزَةِ إِلَى الْعُلُومِ كَنِسْبَةِ الْعَيْنِ إِلَى الرُّؤْيَةِ . وَالثَّانِي : الْعُلُومُ الْأَوَّلِيَّةُ الَّتِي تَخْرُجُ إِلَى الْوُجُودِ فِي ذَاتِ الطِّفْلِ الْمُمَيِّزِ . وَقَدْ صَحَّحَ الْغَزَالِيُّ هَذَا الْإِطْلَاقَ ، وَنَفَى أَنْ يَكُونَ الْعَقْلُ هُوَ هَذِهِ الْعُلُومَ لَيْسَ غَيْرُ . وَالثَّالِثُ : الْعُلُومُ الْمُسْتَفَادَةُ مِنَ التَّجَارُبِ . وَالرَّابِعُ : أَنْ تَنْتَهِيَ تِلْكَ

---

(١) المطمئنة : الآمنة التى لا يستفزها خوف ولا حزن ، وهى النفس المؤمنة . (٢) اللوامة : المتقية التى تلوم على التقصير فى التقوى .

ٱلْغَرِيزَةُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَ ٱلْمَرْءُ عَوَاقِبَ ٱلْأُمُورِ وَيَقْمَعَ[1] ٱلشَّهْوَةَ .

وَلَمْ يَتَعَرَّضِ ٱلْغَزَالِيُّ لِتَعْرِيفِ ٱلْمُخِّ وَوَظَائِفِهِ ، وَلَا لِتَلَافِيفِهِ[2] ، فَلَمْ يَتَحَدَّثْ عَنْهَا مُطْلَقًا ، وَنَحْسَبُهُ عَدَّهَا مُجَرَّدَ آلَةٍ لِلْإِدْرَاكِ ، كَبَقِيَّةِ ٱلْآلَاتِ ٱلَّتِي تَعْمَلُ فِي ٱلْجِسْمِ بِتَدْبِيرِ ٱلرُّوحِ .

***

الأخلاق

وَلَعَلَّ أَكْبَرَ مَا خَلَّدَ ٱلْغَزَالِيَّ ، وَرَفَعَ شَأْنَهُ فِي ٱلْعَالَمِ ، وَأَبْقَى عَلَى أَثَرِهِ ٱلْأَدَبِيِّ فِي ٱلنَّاسِ إِلَى ٱلْيَوْمِ ، تَوَفُّرُهُ عَلَى بَحْثِ ٱلْأَخْلَاقِ ، فَقَدِ ٱنْقَطَعَ لِدِرَاسَةِ ٱلْأَخْلَاقِ عِدَّةَ سِنِينَ ، فِي فِتْرَةِ ٱلْعُزْلَةِ ، وَأَخْرَجَ لِلنَّاسِ فِيهَا كِتَابًا قَيِّمًا خَالِدًا ، بَاقِيًا عَلَى ٱلزَّمَنِ ٱلْبَاقِي مِنَ ٱلزَّمَنِ ، وَهُوَ كِتَابُ « إِحْيَاءِ عُلُومِ ٱلدِّينِ » فَإِنَّ هَذَا ٱلْكِتَابَ هُوَ فِي ٱلْحَقِّ أَجْمَعُ كِتَابٍ لِمَعَانِي ٱلْأَخْلَاقِ ، وَأَجَلُّ تَصْوِيرٍ نَفْسِيٍّ

(١) يقمع الشهوة : يقهرها ويذللها . (٢) تلافيف المخ : ما التوى فيه بعضه على بعض .

لَهَا ، وَتَحْلِيلٍ دَقِيقٍ لِدَقَائِقِهَا ، وَشَرْحٌ وَافٍ لِمُخْتَلَفِ نَوَاحِيهَا ، وَقَدْ انْتَحَى الْغَزَالِيُّ فِي فَلْسَفَةِ الْأَخْلَاقِ النَّاحِيَةَ الدِّينِيَّةَ مِنْ حَيْثُ النَّظَرُ وَالتَّقْدِيرُ ، وَالنَّاحِيَةَ التَّحْلِيلِيَّةَ النَّفْسِيَّةَ مِنْ حَيْثُ التَّنَاوُلُ وَالْوَصْفُ وَالتَّفْسِيرُ. وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا مِنْ حَيْثُ الْفَلْسَفَةُ الْمُجَرَّدَةُ ، وَلَا مِنْ حَيْثُ الِاجْتِمَاعُ وَأَقْيِسَةُ (١) الْحَضَارَةِ ، كَمَا رَأَيْنَاهُ قَدْ مَزَجَ الْبَحْثَ فِي كَثِيرٍ مِنْ ضُرُوبِهَا وَآدَابِهَا بِرُوحٍ صُوفِيَّةٍ مُتَأَثِّرَةٍ فِي ذَلِكَ بِمَسْلَكِهِ يَوْمَئِذٍ وَطَرِيقِ تَفْكِيرِهِ .

وَنَحْسَبُ الَّذِينَ تَعَرَّضُوا لِأَخْلَاقِيَّاتِهِ بِالتَّخْطِئَةِ أَوِ التَّعْيِيبِ ، وَقَالُوا بِأَنَّهَا لَا تَجْرِي مَجْرَى الْبُحُوثِ الْعِلْمِيَّةِ الْجَدِيدَةِ ، قَدْ وَهِمُوا فِي الْغَزَالِيِّ ، وَأَخْطَئُوا تَقْدِيرَهُ ، وَنَظَرُوا إِلَى الْمَبَادِئِ الَّتِي وَصَفَهَا بِعَيْنِ عَصْرِهِمْ ، وَعُلُومِ جِيلِهِمُ الْمُتَأَخِّرِ ، وَمَبَادِئِهِمُ الْحَدِيثَةِ ، وَلَمْ يُرَاعُوا الزَّمَنَ

(١) الأقيسة : جمع قياس وهو تقدير الشيء بآخر

ٱلَّذِى عَاشَ ٱلْغَزَالِىُّ فِيهِ ، وَلَا ٱلْبِيئَةَ ٱلَّتِى ٱحْتَوَتْهُ ، وَلَا ٱلطَّابَعَ [١] ٱلَّذِى ٱنْطَبَعَ بِهِ تَفْكِيرُهُ ، وَٱلتَّيَّارَ ٱلَّذِى سَارَتْ فِيهِ نَفْسُهُ .

***

الغزالى ومطالب الحياة

وَقَدْ شَهِدْنَا قَوْماً يَعِيبُونَ عَلَى أَخْلَاقِيَّاتِ ٱلْغَزَالِىِّ أَنَّهَا لَا تَتَّفِقُ مَعَ مُقْتَضَيَاتِ ٱلْحَيَاةِ ، فَأَحْسَسْنَا أَنَّ هَؤُلَاءِ أَيْضاً قَدْ غَلَوْا فِى تَحْلِيلِ أَخْلَاقِهِ ، وَجَاوَزُوا ٱلْقَصْدَ وَٱلِاعْتِدَالَ ، فَلَوْ أَنَّ ٱلْأَخْلَاقَ وُصِفَتْ عَلَى مُقْتَضَى مَطَالِبِ ٱلْحَيَاةِ فِى عَصْرِنَا هَذَا ، لَكَانَتْ مُوحِشَةً [٢] عَنِيفَةً بَعِيدَةً مِنَ ٱلْفَضِيلَةِ عَلَى مَا يَصِحُّ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ مَعَانِيهَا ٱلْعَامَّةِ .

***

مبادىء نيتشية

وَٱلْأَخْلَاقُ فِى تَقْدِيرِ هَؤُلَاءِ ٱلْغَيُورِينَ عَلَى ٱلْحَيَاةِ تُصْبِحُ

---

(١) الطابع : الميسم والعلامة (٢) الموحشة : الكثيرة الوحشة والمراد أنها غير مألوفة

« نِيتْشِيَّةً » طَاغِيَةً تَمْحُو مِنْ قَوَائِمِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْمُتَوَاضَعِ [1] عَلَيْهَا شَيْئًا كَثِيرًا، وَتُثْبِتُ فِي مَكَانِهَا مِنَ ٱلرَّذِيلَةِ كَثِيرًا. فَقَدْ ذَهَبَ « نِيتْشَه » فِي فَلْسَفَتِهِ ٱلْأَخْلَاقِيَّةِ، وَبَحْثِهِ فِيمَا وَرَاءَ ٱلْخَيْرِ وَٱلشَّرِّ مَذْهَبًا عَجَبًا فِي تَبْوِيبِ ٱلْفَضَائِلِ، فَمَحَا فِيهَا وَأَثْبَتَ، وَعَدَّلَ وَأَلْغَى، وَتَحَدَّثَ عَنْهَا بِتَقْسِيمٍ جَدِيدٍ، فَقَالَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ: إِنَّهَا مِنْ آدَابِ ٱلسَّادَةِ، وَحَكَمَ عَلَى أُخْرَى بِأَنَّهَا آدَابُ ٱلصِّبْيَةِ، وَلَوْ أَنَّ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ جَرَتْ عَلَى هَذَا ٱلْخُلُقِ « ٱلنِّيتْشِيِّ » فِي سَبِيلِ إِنْشَاءِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْأَعْلَى أَوْ مَا سَمَّاهُ هُوَ « ٱلسُّوبِرْمَانَ » مَا صَلُحَ ٱلْعَالَمُ ٱلْإِنْسَانِيُّ، وَمَا ٱسْتَقَامَ شَأْنُهُ، فَإِنَّ نِيتْشَه لَمْ يَضَعْ فِي تَصْمِيمِهِ حِسَابًا « لِلضَّعْفِ ٱلْبَشَرِيِّ » وَلَمْ يَتْرُكْ لَهُ فُسْحَةً أَوْ تَسَامُحًا فِي فَلْسَفَتِهِ، وَلَكِنَّهُ رَأَى ٱلْحَيَاةَ قَدْ عَنُفَتْ [2] وَقَسَتْ وَطَغَتْ، فَذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ قَدْ حَانَ أَنْ تَكُونَ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ عَنِيفَةً هِيَ كَذَلِكَ قَاسِيَةً

(١) المتواضع عليها : المتفق عليها (٢) عنفت : لم ترفق أى تشددت

طَاغِيَةً - وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِإِصْلَاحِ الْأَخْلَاقِ وَفْقَ مُقْتَضَيَاتِهَا ، وَبِالرُّجُوعِ إِلَى تَعَارِيفِهَا الْأَوَّلِيَّةِ ، وَقَوَائِمِهَا الْمُصْطَلَحِ عَلَيْهَا ، بِالتَّعْدِيلِ وَالْمَحْوِ وَالْإِضَافَةِ وَالْإِثْبَاتِ

وَقَدْ قُلْنَا إِنَّ الْغَزَالِيَّ تَأَثَّرَ فِي تَحْدِيدِ آرَائِهِ فِي الْأَخْلَاقِ بِالدِّينِ ، وَاسْتَتْبَعَ نَزَعَاتِهِ [1] الصُّوفِيَّةَ ، وَهَذَا هُوَ السِّرُّ فِي أَنَّ مَعَانِيَهُ وَنَظَرَاتِهِ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ جَاءَتْ مُقَيَّدَةً بِتَعَالِيمِ الدِّينِ ، وَلَمْ تَتَقَيَّدْ بِتَعَالِيمِ الْفَلْسَفَةِ .

وَنَقُولُ الْآنَ : إِنَّ تَحْلِيلَهُ لِلْفَضَائِلِ جَاءَ عَمِيقًا مِنَ الْوِجْهَةِ النَّفْسِيَّةِ ، وَيَكَادُ يَكُونُ سَطْحِيًا مِنْ حَيْثُ التَّشْرِيحُ الْفَلْسَفِيُّ ، وَقَدْ ضَمَّنَ كِتَابَهُ « الْإِحْيَاءِ » أَكْثَرَ نَظَرَاتِهِ فِي الْأَخْلَاقِ وَتَعَالِيمِهِ ، وَلَمْ يَجْرِ فِيهِ مَجْرَى « ابْنِ مَسْكَوَيْهِ » فِي أَخْلَاقِيَّاتِهِ ، فَإِذَا كَانَ هَذَا قَدْ رَجَعَ إِلَى أَخْلَاقِ « أَرِسْطُو » وَنَظَرِيَّاتِ « جَالِينُوسَ » وَفَلْسَفَةِ الرِّوَاقِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ

(١) نزعاته : ميوله

ٱلْفَلْسَفِيَّةِ فِي ٱلْيُونَانِ ، فَإِنَّ ٱلْغَزَالِيَّ جَعَلَ مَرَاجِعَهُ مَا أُثِرَ (١) مِنْ كَلَامِ ٱلصُّوفِيَّةِ « كَابْنِ أَدْهَمَ » وَ « ٱلتَّسْتُرِيِّ » وَ « ٱلْمُحَاسِبِيِّ » ، وَمَا عُرِفَ مِنْ كَلَامِ ٱلْأَنْبِيَاءِ مِثْلِ « عِيسَى » « وَمُوسَى » « وَدَاوُدَ »

***

مفردات الفضائل

وَيُلَاحِظُ ٱلْبَاحِثُ فِي كُتُبِ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلَّتِي وَضَعَهَا ٱلْغَزَالِيُّ وَرِسَالَاتِهِ ، أَنَّهُ إِنَّمَا قَصَرَ ٱلْبَحْثَ عَلَى مُفْرَدَاتِ ٱلْفَضَائِلِ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ كَثِيرًا لِلْبَحْثِ فِي مَبْدَإِ ٱلْأَخْلَاقِ وَأَسَاسِ ٱلْفَضَائِلِ وَغَايَاتِهَا ، فَهُوَ قَدْ تَحَدَّثَ عَنِ ٱلْفَضِيلَةِ مِنَ ٱلْوِجْهَةِ ٱلنَّوْعِيَّةِ ، وَلَمْ يَبْحَثْ فِيهَا مِنْ نَاحِيَةِ ٱلتَّكْوِينِ وَٱلْأُصُولِ .

وَيَكْفِي أَنْ نَسْرُدَ هُنَا ٱلْأَبْوَابَ ٱلَّتِي عَالَجَ ٱلْحَدِيثَ عَنْهَا فِي كِتَابِهِ ٱلْأَكْبَرِ « ٱلْإِحْيَاءِ » لِلتَّدْلِيلِ عَلَى ٱلْمَنْحَى ٱلَّذِي ٱتَّجَهَ إِلَيْهِ فِي بَابِ ٱلْأَخْلَاقِ .

---

(١) ما أثر : ما نقل

***

محتويات الاحياء

قَسَّمَ ٱلْغَزَالِيُّ كِتَابَهُ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ : فَجَعَلَ ٱلْقِسْمَ ٱلْأَوَّلَ مِنْهَا لِلعِبَادَاتِ ، وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى كِتَابِ ٱلْعِلْمِ ، وَكِتَابِ قَوَاعِدِ ٱلْعَقَائِدِ ، وَكِتَابِ أَسْرَارِ ٱلطَّهَارَةِ ، وَكِتَابِ أَسْرَارِ ٱلصَّلَاةِ ، وَكِتَابِ أَسْرَارِ ٱلزَّكَاةِ ، وَكِتَابِ أَسْرَارِ ٱلصِّيَامِ ، وَكِتَابِ أَسْرَارِ ٱلْحَجِّ ، وَكِتَابِ آدَابِ تِلَاوَةِ ٱلْقُرْآنِ ، وَكِتَابِ ٱلْأَذْكَارِ وَٱلدَّعَوَاتِ ، وَتَرْتِيبِ ٱلْأَوْرَادِ فِي ٱلْأَوْقَاتِ .

وَجَعَلَ قِسْماً لِلْعَادَاتِ : وَيَشْتَمِلُ عَلَى كُتُبٍ فِي ٱلْأَكْلِ ، وَآدَابِ ٱلزَّوَاجِ ، وَأَحْكَامِ ٱلْكَسْبِ ، وَٱلْحَلَالِ وَٱلْحَرَامِ ، وَآدَابِ ٱلصُّحْبَةِ وَٱلْمُعَاشَرَةِ مَعَ أَصْنَافِ ٱلْخَلْقِ وَٱلْعُزْلَةِ ، وَآدَابِ ٱلسَّفَرِ ، وَٱلسَّمَاعِ وَٱلْوَجْدِ وَٱلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ، وَآدَابِ ٱلْمَعِيشَةِ ، وَأَخْلَاقِ ٱلنُّبُوَّةِ .

وَقِسْماً لِلْمُهْلِكَاتِ : وَيَشْتَمِلُ عَلَى كُتُبٍ فِي شَرْحِ عَجَائِبِ ٱلْقَلْبِ ، وَرِيَاضَةِ ٱلنَّفْسِ ، وَآفَاتِ ٱلشَّهْوَتَيْنِ ، شَهْوَةِ ٱلْبَطْنِ ، وَشَهْوَةِ ٱلْفَرْجِ ، وَآفَاتِ ٱللِّسَانِ ، وَآفَاتِ ٱلْغَضَبِ ، وَٱلْحِقْدِ وَٱلْحَسَدِ ، وَذَمِّ ٱلدُّنْيَا ، وَذَمِّ ٱلْمَالِ وَٱلْبُخْلِ ، وَذَمِّ ٱلْجَاهِ وَٱلرِّيَاءِ ، وَذَمِّ ٱلْكِبْرِ وَٱلْعُجْبِ ، وَذَمِّ ٱلْغُرُورِ .

وَقِسْماً لِلْمُنْجِيَاتِ : وَيَشْتَمِلُ عَلَى كُتُبٍ فِي ٱلتَّوْبَةِ وَٱلصَّبْرِ وَٱلشُّكْرِ ، وَٱلْخَوْفِ وَٱلرَّجَاءِ ، وَٱلْفَقْرِ وَٱلزُّهْدِ وَٱلتَّوْحِيدِ وَٱلتَّوَكُّلِ ، وَٱلْمَحَبَّةِ وَٱلشَّوْقِ ، وَٱلْأُنْسِ وَٱلرِّضَا ، وَٱلنِّيَّةِ وَٱلصِّدْقِ ، وَٱلْإِخْلَاصِ ، وَٱلْمُرَاقَبَةِ وَٱلْمُحَاسَبَةِ ، وَٱلتَّفَكُّرِ وَذِكْرِ ٱلْمَوْتِ .

***

غرضه من الاحياء

وَقَدْ وَصَفَ ٱلْغَزَالِيُّ نَفْسُهُ كِتَابَهُ ، وَبَيَّنَ أَغْرَاضَهُ فِيهِ ، وأَشَارَ إِلَى ٱتِّجَاهِهِ مِنْهُ فَقَالَ : إِنَّ ٱلنَّاسَ مِنْ قَبْلِهِ وَضَعُوا كُتُباً فِي مِثْلِ كِتَابِهِ هَذَا ، وَلَكِنَّهُ إِنْمَازَ[1] عَنْهُمْ

(١) انماز : امتاز

بِأُمُورٍ خَمْسَةٍ : وَهِيَ : أَوَّلًا - أَنَّهُ حَلَّ مَا عَقَّدُوهُ ، وَكَشَفَ مَا أَجْمَلُوهُ ، وَثَانِيًا - أَنَّهُ رَتَّبَ مَا بَدَّدُوهُ ، وَنَظَمَ مَا فَرَّقُوهُ وَثَالِثًا - أَنَّهُ أَجَازَ (١) مَا طَوَّلُوهُ وَضَبَطَ مَا قَرَّرُوهُ ، وَالرَّابِعُ - حَذْفُ مَا كَرَّرُوهُ ، وَإِثْبَاتُ مَا حَرَّرُوهُ ، وَالْخَامِسُ - تَحْقِيقُ أُمُورٍ غَامِضَةٍ ، اعْتَاصَتْ (٢) عَلَى الْإِفْهَامِ ، وَلَمْ يُتَعَرَّضْ لَهَا فِي الْكُتُبِ مُطْلَقًا ، إِذِ الْكُلُّ وَإِنْ تَوَارَدُوا عَلَى مَنْهَجٍ وَاحِدٍ ، فَلَا مُسْتَنْكَرَ أَنْ يَنْفَرِدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ السَّالِكِينَ بِالتَّنْبِيهِ إِلَى أَمْرٍ يَخُصُّهُ وَيَغْفُلُ عَنْهُ رَفِيقُهُ .

***

الافراط والتفريط

وَلَوْ عُدْنَا إِلَى تَحْلِيلِ هَذِهِ الْفَضَائِلِ الَّتِي تَحَدَّثَ الْغَزَالِيُّ عَنْهَا ، فِي هَذَا الْبَرْنَامَجِ الْخُلُقِيِّ الْوَاسِعِ النِّطَاقِ ، وَتَابَعْنَا رَأْيَهُ فِيهَا ، لَعَرَفْنَا أَنَّهُ يَرَى أَنَّ الْفَضَائِلَ إِنَّمَا تَخْضَعُ لِحَاكِمِ الْعَقْلِ ، وَهِيَ مُقَيَّدَةٌ بِالشَّرْعِ ، وَأَنَّ الرَّذَائِلَ . هِيَ : إِمَّا إِفْرَاطٌ فِي الْفَضَائِلِ أَوْ تَفْرِيطٌ

(١) أجاز : اختصر (٢) اعتاصت : صعبت

فَالشَّجَاعَةُ عِنْدَ ٱلْغَزَالِيِّ مَثَلًا ، هِيَ فَضِيلَةٌ لِلْقُوَّةِ ٱلْغَضَبِيَّةِ لِكَوْنِهَا قَوِيَّةً ، وَهِيَ مَعَ قُوَّةِ ٱلْحَمِيَّةِ مُنْقَادَةٌ لِلْعَقْلِ ٱلْمُتَأَدِّبِ بِالشَّرْعِ فِي إِقْدَامِهَا وَإِحْجَامِهَا ، وَهِيَ وَسَطٌ بَيْنَ رَذِيلَتَيْهَا ٱلْمُطْبِقَتَيْنِ (١) بِهَا ، وَهُمَا : ٱلتَّهَوُّرُ (٢) وَٱلْجُبْنُ ، كَمَا أَنَّ ٱلْعِفَّةَ فَضِيلَةُ ٱلْقُوَّةِ ٱلشَّهَوَانِيَّةِ ، وَهِيَ وَسَطٌ بَيْنَ ٱلشِّدَّةِ وَٱلْخُمُودِ ، وَقَدْ ٱسْتَثْنَى ٱلْغَزَالِيُّ مِنْ نَظَرِيَّتِهِ هَذِهِ فِي تَعْرِيفِ ٱلْفَضِيلَةِ ، ٱلْعَدْلَ فَلَا تَكْتَنِفُهُ (٣) إِلَّا رَذِيلَةُ ٱلْجَوْرِ ٱلْمُجَاوِرَةُ لَهُ ، فَٱلْفَضِيلَةُ بِالْجُمْلَةِ وَسَطٌ بَيْنَ ٱلْإِفْرَاطِ وَٱلتَّفْرِيطِ ، وَٱلْكَمَالُ فِي ٱلِاعْتِدَالِ ، وَمِعْيَارُ (٤) ٱلِاعْتِدَالِ ٱلْعَقْلُ وَٱلشَّرْعُ .

وَكُلُّ مَنْ قَرَأَ تَحْلِيلَ أَرِسْطُو لِلْفَضِيلَةِ وَتَحْدِيدَهُ لَهَا بِالِاعْتِدَالِ ، تَبَيَّنَ هُنَا ٱلصِّلَةَ ٱلَّتِي بَيْنَ أَرِسْطُو وَٱلْغَزَالِيِّ مِنْ هَذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ ، فَإِنَّ ٱلْغَزَالِيَّ لَمْ يَقْتَصِرْ فِي

(١) المطبقتين : المحيطتين (٢) التهور : الوقوع فى الأمر بقلة مبالاة

(٣) تكتنفه : تحيط به (٤) معيار : ميزان

تَحْلِيلِ ٱلْفَضَائِلِ عَلَى ٱلشَّرْعِ ، بَلِ ٱسْتَقَى بَعْضَ ٱلِاسْتِقَاءِ مِنْ كِتَابِ أَرِسْطُو إِلَى نِيقُومَانُوسَ .

***

العقل والشرع

وَهُوَ كَمَا رَأَيْتَ ، يَرَى أَنَّ ٱلْخَيْرَ لَيْسَ هُوَ مَا قَرَّرَهُ ٱلْعَقْلُ وَحْدَهُ ، بَلْ مَا قَرَّرَهُ ٱلْعَقْلُ ٱلْمُتَأَدِّبُ بِالشَّرْعِ ، وَهَذَا مَا يَجْعَلُ ٱلشَّرْعَ فَوْقَ ٱلْعَقْلِ ، وَهُوَ مَا يُشْبِهُ مَذْهَبَ ٱللَّاهُوتِيِّينَ (١) فِي ٱلْمَسِيحِيَّةِ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْخَيْرَ تَابِعاً لِإِرَادَةِ ٱلْخَالِقِ ، فَلَيْسَ ٱلْخَيْرُ خَيْرًا لِأَنَّهُ خَيْرٌ فِي ذَاتِهِ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ بِإِرَادَةِ ٱللهِ لَهُ .

***

الفرق

وَقَدْ قَسَّمَ ٱلْغَزَالِيُّ ٱلْفِرَقَ فِي كِتَابِهِ « مِيزَانِ ٱلْعَقْلِ » إِلَى أَرْبَعٍ وَهِيَ :

(١) فِرْقَةُ ٱلْمُتَّبِعِينَ لِلْأَنْبِيَاءِ (٢) فِرْقَةُ ٱلْإِلٰهِيِّينَ ٱلْإِسْلَامِيِّينَ مِنَ ٱلْفَلَاسِفَةِ (٣) فِرْقَةُ ٱلصُّوفِيَّةِ (٤) فِرْقَةُ

(١) اللاهوتيين : المنسوبين إلى اللاهوت ، وعلم اللاهوت : علم يبحث عن ذات الله وصفاته وشرائعه وأعمال عنايته والتعاليم التى يجب الاعتقاد بها والواجبات التى يلزم القيام بها

ٱلْجَمَاهِيرِ ٱلْحَمْقَى « ٱلدَّهْمَاءَ » ٱلَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ ٱلْمَوْتَ عَدَمٌ مَحْضٌ ، ثُمَّ قَرَّرَ أَنَّ ٱلْفِرَقَ ٱلثَّلَاثَ ٱلْأُولَى مُتَّفِقَاتٌ فِي ٱلْقَوْلِ بِأَنَّ ٱلْحَمَاقَةَ كُلَّ ٱلْحَمَاقَةِ فِي فُتُورِ[1] ٱلْإِيمَانِ ، وَأَنَّ ٱلْمُمْعِنَ فِي ٱتِّبَاعِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمُعْرِضَ عَنِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَعْقُولَاتِ ، شَقِيٌّ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَشَقِيٌّ فِي ٱلْآخِرَةِ ، وَأَنَّهُ عَلَى ٱلْعَاقِلِ أَنْ يَسْلُكَ سَبِيلَ ٱلسَّعَادَةِ ، وَلَيْسَتِ ٱلسَّعَادَةُ مَقْصُورَةً عَلَى ٱلدُّنْيَا ، بَلْ هِيَ مِمَّا وَصَفَهُ ٱلشَّرْعُ ، وَوَعَدَ بِهِ ٱلنُّفُوسَ ٱلصَّالِحَةَ فِي ٱلْآخِرَةِ

***

العلم والعمل

وَعَلَيْهِ لَا تُنَالُ ٱلسَّعَادَةُ فِي رَأْيِ ٱلْغَزَالِيِّ إِلَّا بِٱلْعِلْمِ وَٱلْعَمَلِ ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا مِقْيَاسٌ ، فَأَمَّا مِعْيَارُ ٱلْعِلْمِ ، فَإِنَّهُ يُمَيِّزُ بَيْنَ ٱلصَّحِيحِ وَٱلْفَاسِدِ ، وَمِيزَانُ ٱلْعَمَلِ ، يُفَرِّقُ بَيْنَ ٱلْعَمَلِ ٱلْمُسْعِدِ وَٱلْعَمَلِ ٱلْمُشْقِي ، وَطَرِيقُ ٱلْعَمَلِ ٱلْمُسْعِدِ ، هُوَ ٱلتَّجَرُّدُ عَنْ عَلَائِقِ ٱلدُّنْيَا ، وَٱلتَّرَفُّعُ

(١) الفتور : الضعف

عَنِ ٱلشَّهَوَاتِ ، وَمُخَالَفَةُ ٱلْهَوَى ، وَٱلتَّفْكِيرُ فِى ٱللهِ .

***

وَهُوَ فِى ذٰلِكَ يَقُولُ : فِى رِسَالَةِ « كِيمِيَاءِ ٱلسَّعَادَةِ » كيمياء السعادة

إِعْلَمْ أَنَّ سَعَادَةَ كُلِّ شَىْءٍ لَذَّتُهُ وَرَاحَتُهُ ، وَلَذَّةُ كُلِّ شَىْءٍ تَكُونُ بِمُقْتَضَى طَبْعِهِ ، وَطَبْعُ كُلِّ شَىْءٍ مَا خُلِقَ لَهُ ، فَلَذَّةُ ٱلْعَيْنِ ، فِى ٱلصُّوَرِ ٱلْحَسَنَةِ ، وَلَذَّةُ ٱلْأُذُنِ فِى ٱلْأَصْوَاتِ ٱلطَّيِّبَةِ ، وَكَذٰلِكَ سَائِرُ ٱلْجَوَارِحِ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ ، وَلَذَّةُ ٱلْقَلْبِ ٱلْخَاصَّةُ بِمَعْرِفَةِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ لَهَا ، وَكُلُّ مَالَمْ يَعْرِفْهُ ٱبْنُ آدَمَ إِذَا عَرَفَهُ فَرِحَ بِهِ ، مِثْلُ ٱلشِّطْرَنْجِ إِذَا عَرَفَهَا فَرِحَ بِهَا ، وَلَوْ يُنْهَى عَنْهَا لَمْ يَتْرُكْهَا ، وَلَا يَبْقَى عَنْهَا صَبْرٌ ، وَكَذٰلِكَ إِذَا وَقَعَ فِى مَعْرِفَةِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَرِحَ بِهَا وَلَمْ يَصْبِرْ عَنِ ٱلْمُشَاهَدَةِ ، لِأَنَّ لَذَةَ ٱلْقَلْبِ ٱلْمَعْرِفَةُ ، وَكُلَّمَا كَانَتِ ٱلْمَعْرِفَةُ أَكْبَرَ كَانَتِ ٱللَّذَّةُ أَكْبَرَ ، وَلِذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا عَرَفَ ٱلْوَزِيرَ

فَرِحَ ، وَلَوْ عَرَفَ الْمَلِيكَ لَكَانَ أَعْظَمْ فَرَحًا ، وَلَيْسَ مَوْجُودٌ أَشْرَفَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، لِأَنَّ شَرَفَ كُلِّ مَوْجُودٍ بِهِ وَمِنْهُ ، وَكُلُّ عَجَائِبِ الْعَالَمِ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ صَنْعَتِهِ ، فَلَا مَعْرِفَةَ أَعَزُّ مِنْ مَعْرِفَتِهِ ، وَلَا لَذَّةَ أَعْظَمُ مِنْ لَذَّةِ مَعْرِفَتِهِ ، وَلَيْسَ مَنْظَرٌ أَحْسَنَ مِنْ مَنْظَرِ حَضْرَتِهِ ، وَكُلُّ لَذَّاتِ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا مُتَعَلِّقَةٌ بِالنَّفْسِ، وَهِيَ تَبْطُلُ بِالْمَوْتِ وَلَذَّةُ مَعْرِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْقَلْبِ ، فَلَا تَبْطُلُ بِالْمَوْتِ ، لِأَنَّ الْقَلْبَ لَا يَهْلِكُ بِالْمَوْتِ ، بَلْ تَكُونُ لَذَّتُهُ أَكْثَرَ ، وَضَوْءُهُ أَكْبَرَ ، لِأَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى الضَّوْءِ .

***

إمكان تغيير الخلق

وَيَقُولُ الْغَزَالِيُّ بِإِمْكَانِ تَغْيِيرِ الْخُلُقِ ، لِقَوْلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، « حَسِّنُوا أَخْلَاقَكُمْ » إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا ، لَمَا أَمَرَ بِهِ ، وَهُوَ يَرَى أَنَّ الْفِطْرَةَ (١) الْإِنْسَانِيَّةَ قَابِلَةٌ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ

(١) الفطرة : الصفة التى يتصف بها كل موجود فى أول زمان خلقته

قَبْلَ ٱلتَّرْبِيَةِ أَىُّ لَوْنٍ ، فَٱلْخَيْرُ إِنَّمَا يُكْتَسَبُ بِالتَّرْبِيَةِ وَٱلشَّرُّ كَذَلِكَ يُكْتَسَبُ بِالتَّرْبِيَةِ ، وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ بِالْفِطْرَةِ مَيْلٌ خَاصٌّ لَا إِلَى ٱلشَّرِّ وَلَا إِلَى ٱلْخَيْرِ ، وَإِنَّمَا يَسْعَدُ أَوْ يَشْقَى بِمَا يُقَدِّمُهُ إِلَيْهِ أَبَوَاهُ .

***

إنكار أثر الوراثة

وَبِهَذَا يَنْفِى ٱلْغَزَالِىُّ أَثَرَ ٱلْوِرَاثَةِ وَعَوَامِلَهَا ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى مَا قَدَّمْنَا إِلَيْكَ مِنْ نُزُوعِهِ إِلَى ٱلتَّأَثُّرِ بِتَعَالِيمِ ٱلدِّينِ ، وَسَطْحِيَّةِ (١) نَظَرِهِ إِلَى ٱلْأَخْلَاقِ مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ .

***

براءة الفطرة

عَلَى أَنَّ نَظَرِيَّتَهُ فِى بَرَاءَةِ ٱلْفِطْرَةِ مِنَ ٱلْوَلَدِ تَدُلُّ عَلَى حُسْنِ إِيمَانِهِ بِالْبَشَرِيَّةِ ، وَصَفَاءِ نَظَرِهِ إِلَى ٱلْخَلِيقَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ، فَقَدْ نَفَى ٱلشَّرَّ وَٱلْقَوْلَ بِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ فِى ٱلطِّبَاعِ ، وَجَعَلَ ٱعْتِقَادَهُ خَيْرًا فِى ٱلنَّشْأَةِ ، قَائِمًا عَلَى

(١) سطحية نظره : أى نظره نظرا ظاهرا من غير تعمق ولا تدقيق

ٱلْبَرَاءَةِ وَنَقَاءِ ٱلْخَلِيقَةِ

***

الحكومة

وَلَيْسَ لِلْغَزَالِيِّ رَأْيٌ خَاصٌّ فِي ٱلْحُكُومَةِ ، وَلَا نَظَرِيَّةٌ مُعَيَّنَةٌ فِي ٱلسُّلْطَانِ ، وَلَكِنَّهُ قَدْ وَضَعَ آدَابًا بَسِيطَةً ، وَنَصَّ عَلَى جُمْلَةٍ مِنَ ٱلشَّرَائِطِ تَكَادُ فِي جَوْهَرِهَا تَمِيلُ إِلَى « ٱلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ » أَوِ ٱلصِّلَةِ ٱلْوَثِيقَةِ ٱلَّتِي تُدْنِي مَا بَيْنَ ٱلرَّاعِي وَٱلرَّعِيَّةِ ، وَصَاحِبِ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلَّذِينَ يَلِي أَمْرَهُمْ .

***

آداب الملوك

وَقَدْ وَضَعَ لِلْمُلُوكِ وَوَاجِبَاتِهِمْ كِتَابًا خَاصًّا دَعَاهُ « ٱلتِّبْرَ ٱلْمَسْبُوكَ فِي نَصِيحَةِ ٱلْمُلُوكِ »

وَيَرَى ٱلْغَزَالِيُّ أَنْ يُقَسِّمَ ٱلْمَلِكُ سَاعَ (١) نَهَارِهِ أَرْبَعَةَ أَشْطُرٍ ، شَطْرًا (٢) لِعِبَادَةِ ٱللهِ وَطَاعَتِهِ ، وَشَطْرًا لِلنَّظَرِ فِي أُمُورِ ٱلسَّلْطَنَةِ وَإِنْصَافِ ٱلْمَظْلُومِينَ ، وَٱلْجُلُوسِ

(١) ساع : جمع ساعة . (٢) شطر الشيء : نصفه والمراد هنا الجزء

إِلَى ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْعُقَلَاءِ لِتَدْبِيرِ ٱلْأُمُورِ ، وَسِيَاسَةِ ٱلْجُمْهُورِ وَتَنْفِيذِ ٱلْأَوَامِرِ وَٱلْمَرَاسِيمِ [1] وَٱلْكِتَابَةِ وَإِنْفَاذِ ٱلرُّسُلِ وَٱلْبُعُوثِ [2] وَشَطْرًا لِلْأَكْلِ وَٱلنَّوْمِ وَٱلتَّزَوُّدِ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَخْذِ ٱلْحُظُوظِ مِنَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ ، وَشَطْرًا لِلصَّيْدِ وَلَعِبِ ٱلْكُرَةِ وَٱلصَّوْلَجَانِ [3] وَمَا إِلَيْهَا .

وَيَجِبُ عَلَى ٱلْمَلِكِ فِي رَأْيِ ٱلْغَزَالِيِّ ، أَنْ يُرَاعِيَ ٱلْأُمُورَ ٱلتَّالِيَةَ :

ا — أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ ٱلْوِلَايَةِ وَخَطَرَهَا ، وَمَا يَكُونُ مِنْ سَعَادَتِهِ إِذَا أَحْسَنَ ، وَمِنْ شَقَائِهِ إِذَا أَسَاءَ .

ب — أَلَّا يَقْنَعَ بِرَفْعِ يَدِهِ عَنِ ٱلظُّلْمِ ، بَلْ يُهَذِّبَ غِلْمَانَهُ ، وَأَصْحَابَهُ ، وَعُمَّالَهُ وَنُوَّابَهُ ، فَإِنَّهُ عَنْ ظُلْمِهِمْ مَسْئُولٌ .

ج — أَلَّا يَتَكَبَّرَ ، فَإِنَّ ٱلتَّكَبُّرَ دَاعِيَةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلِانْتِقَامِ .

---

(١) المراسيم : جمع مرسوم ، وهو الكتاب السلطانيّ (٢) البعوث الجيوش التى تبعث ، جمع بعث (٣) الصولجان : العصا المنعطفة الرأس

د — أَنْ يَفْرِضَ نَفْسَهُ وَاحِدًا مِنَ الرَّعِيَّةِ فِي كلِّ مَا يُعْرَضَ عَلَيْهِ ، فَمَا لَا يَرْضَاهُ لِنَفْسِهِ ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْضَاهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

هـ — أَلَّا يَشْتَغِلَ بِنَوَافِلِ [1] الْعِبَادَةِ وَبِبَابِهِ أَحَدٌ مِنْ أَرْبَابِ الْحَوَائِجِ .

و — أَلَّا يُعَوِّدَ نَفْسَهُ الِاشْتِغَالَ بِالشَّهَوَاتِ ، مِنْ لُبْسِ الثِّيَابِ الْفَاخِرَةِ ، وَأَكْلِ الْأَطْعِمَةِ الطَّيِّبَةِ ، بَلْ يَتَعَوَّدَ الْقَنَاعَةَ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، فَلَا عَدْلَ بِلَا قَنَاعَةٍ

ز — أَنْ يَتَجَنَّبَ الشِّدَّةَ وَالْعُنْفَ ، كُلَّمَا أَمْكَنَ الرِّفْقُ .

ح — أَنْ يَجْتَهِدَ فِي أَنْ تَرْضَى عَنْهُ الرَّعِيَّةُ بِمُوَافَقَةِ الشَّرْعِ .

ط — أَلَّا يَطْلُبَ رِضَا أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ بِمُخَالَفَةِ الشَّرْعِ .

---

(١) النوافل : ماليس بفرض كالسنن

ى — أَنْ يُعِينَ رَعِيَّتَهُ إِذَا وَقَعَتْ فِى ضَائِقَةٍ ، وَأَنْ يُنْفِقَ عَلَيْهَا مِنْ خَزَائِنِهِ إِذَا وَقَعَتْ فِى قَحْطٍ (١) أَوْ غَلَاءٍ لِأَنَّ فِى ذَلِكَ اسْتِبْقَاءً لِطَاعَتِهِمْ وَدَرْءًا (٢) لِمَطَامِعِ الْمُحْتَكِرِينَ (٣) .

وَلَا يَسْتَنْكِرُ الْغَزَالِىُّ مِنَ السُّلْطَانِ الْقَسْوَةَ فِى مَوْضِعِهَا لِلزَّجْرِ وَالنَّهْىِ وَفِى ذَلِكَ يَقُولُ : وَسُلْطَانُ هَذَا الزَّمَانِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَوْفَى سِيَاسَةٍ ، وَأَتَمُّ هَيْبَةٍ لِأَنَّ أُنَاسَ هَذَا الزَّمَانِ لَيْسُوا كَالْمُتَقَدِّمِينَ ، فَإِنَّ زَمَانَنَا هَذَا هُوَ زَمَانُ ذَوِى الْقِحَةِ (٤) وَالسُّفَهَاءِ وَأَهْلِ الْقَسْوَةِ وَالشَّحْنَاءِ (٥) ، وَإِذَا كَانَ السُّلْطَانُ — وَالْعِيَاذُ بِاللهِ — بَيْنَهُمْ ضَعِيفًا ، أَوْ كَانَ غَيْرَ ذِى سِيَاسَةٍ ، فَلَا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ سَبَبَ خَرَابِ الْبِلَادِ ، وَأَنَّ الْخَلَلَ يَعُودُ عَلَى الدُّنْيَا وَالدِّينِ .

---

(١) قحط : أى جدب (٢) درءا : أى دفعا (٣) المحتكرين : احتكر الشىء : اشتراه وحبسه انتظارا لغلائه (٤) ذوى القحة : قليلى الحياء (٥) الشحناء : العداوة والبغضاء

***

الحب ومراتبه

وَقَدْ تَحَدَّثَ ٱلْغَزَالِيُّ عَنِ ٱلْحُبِّ فِي مُخْتَلِفِ مَرَاتِبِهِ فَجَعَلَ ٱلْحُبَّ لِلّٰهِ أَسْمَاهَا ، وَأَوْجَبَ أَنْ يَكُونَ لِلْمَرْءِ أَعْدَاءٌ يُبْغِضُهُمْ فِي ٱللّٰهِ ، كَمَا أَوْجَبَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَحْبَابٌ يُحِبُّهُمْ فِي ٱللّٰهِ .

وَقَدْ قَسَّمَ ٱلْحُبَّ نَاحِيَتَيْنِ : ٱلْحُبُّ لِذَاتِ ٱلْمَحْبُوبِ وَٱلْحُبُّ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّوَصُّلِ إِلَى مَقْصُودٍ ، وَهَذَا إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَقْصُورًا عَلَى ٱلدُّنْيَا وَحُظُوظِهَا وَمُتَعِهَا وَلَذَّاتِهَا ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِٱلْآخِرَةِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِٱللّٰهِ .

فَقَدْ يُحَبُّ ٱلْمَرْءُ لِذَاتِهِ ، لَا لِفَائِدَةٍ تُرْجَى عِنْدَهُ ، وَإِنَّمَا لِمُجَرَّدِ ٱلتَّنَاسُبِ فِي ٱلطِّبَاعِ ٱلْبَاطِنَةِ ، وَٱلتَّوَافُقِ فِي ٱلْمَنَازِعِ (١) وَٱلْأَخْلَاقِ ٱلْخَفِيَّةِ ، وَفِي هَذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْحُبِّ ، حُبُّ ٱلْجَمَالِ لِلْجَمَالِ ذَاتِهِ ، وَهَذَا عِنْدَ ٱلْغَزَالِيِّ هُوَ حُبُّ ٱلطَّبْعِ وَشَهْوَةُ ٱلنَّفْسِ فِي غَيْرِ سُوءٍ ، وَهُوَ مُبَاحٌ لَا يُوصَفُ بِمَدْحٍ وَلَا ذَمٍّ .

(١) المنازع : جمع منزع وهو النزوع « الميل »

وَقَدْ يُحَبُّ الْإِنْسَانُ لِيُنَالَ مِنْ ذَاتِهِ غَيْرُ ذَاتِهِ ، كَمَا يُحِبُّ الرَّجُلُ سُلْطَانًا لِانْتِفَاعِهِ بِمَالِهِ أَوْ جَاهِهِ ، وَيُحِبُّ خَوَاصَّهُ لِتَحْسِينِهِمْ حَالَهُ عِنْدَهُ .

وَالْمُتَوَسَّلُ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ مَقْصُورَ الْفَائِدَةِ عَلَى الدُّنْيَا - لَمْ يَكُنْ حُبُّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْحُبِّ لِلّٰهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَقْصُورَ الْفَائِدَةِ عَلَى الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ لَا يُقْصَدُ بِهِ إِلَّا الدُّنْيَا ، كَحُبِّ التِّلْمِيذِ لِأُسْتَاذِهِ « فَهُوَ أَيْضًا خَارِجٌ عَنِ الْحُبِّ لِلّٰهِ » فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُحِبُّهُ لِيُحَصِّلَ الْعِلْمَ مِنْهُ لِنَفْسِهِ فَمَحْبُوبُهُ الْعِلْمُ .

وَيُقَسِّمُ الْغَزَالِيُّ هَذَا الْحُبَّ إِلَى مَذْمُومٍ وَمُبَاحٍ فَإِنْ كَانَ يَقْصِدُ بِهِ إِلَى أَغْرَاضٍ مَذْمُومَةٍ ، كَقَهْرِ الْأَقْرَانِ ، وَحِيَازَةِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ، وَظُلْمِ الرَّعِيَّةِ بِوِلَايَةِ الْقَضَاءِ أَوْ سِوَاهُ ، كَانَ الْحُبُّ مَذْمُومًا ، وَإِنْ كَانَ يَقْصِدُ بِهِ التَّوَصُّلَ إِلَى مُبَاحٍ فَهُوَ مُبَاحٌ .

وَقَدْ يُحَبُّ الْإِنْسَانُ لَا لِذَاتِهِ بَلْ لِغَيْرِهِ ، وَذَلِكَ

ٱلْغَيْرُ لَيْسَ رَاجِعاً إِلَى حُظُوظِهِ فِي ٱلدُّنْيَا ، بَلْ يَرْجِعُ إِلَى حُظُوظِهِ فِي ٱلْآخِرَةِ ، كَمَنْ يُحِبُّ أُسْتَاذَهُ لِأَنَّهُ يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى تَحْصِيلِ ٱلْعِلْمِ وَتَحْسِينِ ٱلْعَمَلِ ، وَمَقْصُودُهُ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعَمَلِ ٱلْفَوْزُ فِي ٱلْآخِرَةِ ، وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ ٱلْمُحِبِّينَ فِي ٱللهِ . وَمِثْلُهُ مَنْ أَحَبَّ زَوْجَهُ لِأَنَّهَا آلَةٌ إِلَى مَقَاصِدَ دِينِيَّةٍ ، كَٱلتَّحَصُّنِ [1] وَٱلْوَلَدِ ٱلصَّالِحِ .

وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ حُبِّ ٱللهِ عِنْدَ ٱلْغَزَالِيِّ أَلَّا يُحِبَّ ٱلْمَرْءُ فِي ٱلْعَاجِلَةِ حَظًّا أَلْبَتَّةَ ، بَلْ إِذَا ٱجْتَمَعَ فِي قَلْبِ ٱلْإِنْسَانِ مَحَبَّتَانِ : مَحَبَّةُ ٱللهِ ، وَمَحَبَّةُ ٱلدُّنْيَا ، فَٱجْتَمَعَ فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ ٱلْمَعْنَيَانِ جَمِيعاً حَتَّى صَلُحَ لِأَنْ يُتَوَسَّلَ بِهِ إِلَى ٱللهِ وَإِلَى ٱلدُّنْيَا ، فَإِذَا أَحَبَّهُ لِصَلَاحِهِ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً فَهُوَ مِنَ ٱلْمُحِبِّينَ فِي ٱللهِ ، كَمَنْ يُحِبُّ أُسْتَاذَهُ ٱلَّذِي يُعَلِّمُهُ ٱلدِّينَ وَيَكْفِيهِ مُهِمَّاتِ ٱلدُّنْيَا بِٱلْمُوَاسَاةِ فِي ٱلْمَالِ .

وَقَدْ يُحَبُّ ٱلْإِنْسَانُ فِي ٱللهِ وَلِلهِ ، دُونَ أَنْ يُنَالَ

---

(١) التحصن : التعفف

مِنْهُ شَيْءٌ أَوْ يُتَوَسَّلَ بِهِ إِلَى أَمْرٍ وَرَاءَ ذَاتِهِ ، وَهَذَا أَعْلَى الدَّرَجَاتِ .

وَقَدْ بَيَّنَ الْغَزَالِيُّ أَلَّا تَعَارُضَ بَيْنَ الْحُبِّ لِلدُّنْيَا وَالْحُبِّ لِلْآخِرَةِ ، فَقَالَ : إِذَا لَمْ يَكُنْ حُبُّ السَّعَادَةِ فِي الْآخِرَةِ مُنَافِضًا لِحُبِّ اللهِ تَعَالَى ، فَحُبُّ السَّلَامَةِ ، وَالصِّحَّةِ ، وَالْكِفَايَةِ ، وَالْكَرَامَةِ فِي الدُّنْيَا كَيْفَ يَكُونُ مُنَاقِضًا لِحُبِّ اللهِ ؟ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ : عِبَارَةٌ عَنْ حَالَتَيْنِ ، إِحْدَاهُمَا أَقْرَبُ مِنَ الْأُخْرَى ، فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يُحِبَّ الْإِنْسَانُ حُظُوظَ نَفْسِهِ غَدًا وَلَا يُحِبَّهَا الْيَوْمَ ؟ وَإِنَّمَا يُحِبُّهَا غَدًا ، لِأَنَّ الْغَدَ سَيَصِيرُ حَالَةً رَاهِنَةً [1] فَالْحَالَةُ الرَّاهِنَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَطْلُوبَةً ، إِلَّا أَنَّ الْحُظُوظَ الْعَاجِلَةَ مُنْقَسِمَةٌ إِلَى مَا يُضَادُّ حُظُوظَ الْآخِرَةِ ، وَهُوَ الَّذِي احْتَرَزَ [2] عَنْهُ الْأَنْبِيَاءُ وَأَمَرُوا بِالِاحْتِرَازِ عَنْهُ ، وَإِلَى مَا لَا يُضَادُّ ، وَهُوَ

(١) حالة راهنة : أى ثابتة دائمة (٢) احترز منه : توقاه ، احترز عنه : نهى عن فعله

مَا لَمْ يَمْتَنِعُوا عَنْهُ كَالنِّكَاحِ الصَّحِيحِ وَأَكْلِ الْحَلَالِ ، وَلَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَشْتَدَّ حُبُّكَ لِإِنْسَانٍ لِجُمْلَةِ أَغْرَاضٍ لَكَ تَرْتَبِطُ بِهِ ، وَلَا يَسْتَحِيلُ اجْتِمَاعُ الْأَغْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي جُمْلَةِ الْحُبِّ لِلَّهِ

وَلَعَمْرِي هَذَا هُوَ أَبْدَعُ تَوْفِيقٍ بَيْنَ مَطَالِبِ الدُّنْيَا وَمَقَاصِدِ الْآخِرَةِ فِي مَعَانِي الْحُبِّ وَمَرَامِيهِ [1] .

***

الاخاء الصداقة

وَيَتَفَرَّعُ عَنْ مَعَانِي الْحُبِّ الْإِخَاءُ ، وَهُوَ عِنْدَ الْغَزَالِيِّ أَدَقُّ وَأَوْفَى وَأَجَلُّ مِنْ مَعَانِيهِ وَمَبَادِئِهِ وَغَايَتِهِ فِي الثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَحُقُوقِ الْإِنْسَانِ ، حَتَّى لَيَرَى الْغَزَالِيُّ لِلْأَخِ حَقًّا عَلَى أَخِيهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ ، وَلِكُلِّ حَقٍّ مِنْ هَذِهِ الْحُقُوقِ ، دَرَجَاتٌ تَتَفَاوَتُ مَعَ الْحُبِّ قُوَّةً وَضَعْفًا .

وَأَحْسَبُ فِي هَذَا التَّقْدِيرِ لِلْإِخَاءِ رَدْحًا [2] مِنْ

(١) مراميه : أغراضه (٢) الردح : أصله الوجع الخفيف ، والمراد : نصيبا قليلا

الاشتراكية [١] التي شاعت مبادئها في العصر الحديث

وقد تحدث الغزالي أيضاً بسبيل الإخاء عن الصداقة

أو الألفة، ووجوب التخير لها، فليس يصلح للصداقة

كل إنسان، وقد أورد الغزالي في ذلك أحاديث وحكماً

غالية، ووصايا ونصائح سامية، كوصية علقمة لابنه

وهي قوله: «يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال

حاجة، فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته

زانك، وإن قعدت بك مؤونة [٢] مانك، أصحب من

إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة

عدها، وإن رأى سيئة سدها [٣]، أصحب من إذا

سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك

نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدق قولك،

وإن حاولت أمراً آمرك [٤]، وإن تنازعتما آثرك [٥]»

---

(١) الاشتراكية: يراد بها النهوض بالطبقة الفقيرة ورفع مستواها حتى تساوى غيرها من الأمة ولها مبادئ خاصة ليس هنا محلها (٢) المؤونة ما تقوم به الكفاية من لوازم الحياة (٣) سدها: أصلحها (٤) آمره مؤامرة واستأمره: شاوره (٥) آثرك قدمك واختارك على نفسه

وَأَوْرَدَ شِعْرًا مَنْسُوبًا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُوَ :

إِنَّ أَخَاكَ الْحَقِّ مَنْ كَانَ مَعَكْ

وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكْ

وَمَنْ إِذَا رَيْبُ[1] زَمَانٍ صَدَعَكْ

شَتَّتَ فِيهِ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكْ

وَشَدَّدَ الْغَزَالِيُّ فِي انْتِبَاذِ[2] النَّفْعِيِّينَ[3] وَالْوُصُولِيِّينَ[4] وَالْمَادِّينَ أَوْ طُلَّابِ الدُّنْيَا فَقَالَ : وَأَمَّا الْحَرِيصُ عَلَى الدُّنْيَا فَإِنَّ صُحْبَتَهُ سُمٌّ قَاتِلٌ لِأَنَّ الطَّبَائِعَ مَجْبُولَةٌ عَلَى التَّشَبُّهِ وَالِاقْتِدَاءِ ، بَلِ الطَّبْعُ يَسْرِقُ مِنَ الطَّبْعِ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي صَاحِبُهُ ، فَمُجَالَسَةُ الْحَرِيصِ عَلَى الدُّنْيَا تُحَرِّكُ الْحِرْصَ ، وَمُجَالَسَةُ الزَّاهِدِ تُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا . لِذَلِكَ تُكْرَهُ صُحْبَةُ طُلَّابِ الدُّنْيَا وَتُطْلَبُ صُحْبَةُ الْعُلَمَاءِ

(١) الريب : صرف الدهر وحوادثه (٢) انتباذ : اعتزال وتنح
(٣) النفعيين : جمع نفعى : المنسوب للنفع أى الخير (٤) الوصوليين : المتلطفين فى الوصول إلى الناس

وَالْحُكَمَاءِ . قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ : يَابُنَيَّ جَالِسِ الْعُلَمَاءَ وَزَاحِمْهُمْ بِرُكْبَتَيْكَ فَإِنَّ الْقُلُوبَ تَحْيَا بِالْحِكْمَةِ كَمَا تَحْيَا الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ (١) بِوَابِلِ (٢) الْمَطَرِ .

***

حقوق المرأة

وَقَدْ جَاءَ رَأْيُ الْغَزَالِيِّ فِي مَنْزِلَةِ الْمَرْأَةِ مِنَ الْمُجْتَمَعِ مُطَابِقًا لِنَظْرَةِ عَصْرِهِ وَرُوحِ جِيلِهِ ، وَتَشَبُّعِهِ بِعَقِيدَتِهِ الدِّينِيَّةِ ، فَلَمْ يُرَتِّبْ لَهَا مِنَ الْحُقُوقِ إِلَّا عَلَى قَدْرٍ (٣) ، وَلَمْ يَقُلْ بِتَعْلِيمِهَا إِلَّا نَزْرًا مِنَ الْعِلْمِ ، يَكْفِي لِمَعْرِفَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَتَعَالِيمِ الْفَضِيلَةِ وَالْآدَابِ وَلَكِنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ عَلَى يَدِ الزَّوْجِ لِلْمَرْأَةِ ، وَلَمْ يَعْرِضْ لِتَرْبِيَةِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ .

وَلَمْ يَرَ الْغَزَالِيُّ الْمُسَاوَاةَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وَإِنَّمَا رَأَى السِّيَادَةَ لِلزَّوْجِ دُونَ زَوْجِهِ ، فِي غَيْرِ طُغْيَانٍ

---

(١) الأرض الميتة : التى لاينتفع بها أحد ، لجدبها (٢) وابل المطر : شديد المطر الضخم القطر (٣) أى مقدار معلوم

وَلَا عُدْوَانٍ ، وَقَالَ بِأَنَّ ٱلطَّلَاقَ مُبَاحٌ وَلَـٰكِنَّهُ إِيذَاءٌ ، وَلَا يُبَاحُ لِلرَّجُلِ إِيذَاءُ ٱلْمَرْأَةِ إِلَّا بِجِنَايَةٍ مِنْ جَانِبِهَا ، أَوْ ضَرُورَةٍ مِنْ جَانِبِهِ ، وَيَكْرَهُ ٱلْغَزَالِيُّ لِلزَّوْجِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَى ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِجْحَافٌ بِهَا ، وَتَحَامُلٌ (١) عَلَيْهَا ، وَتِجَارَةٌ بِالزَّوَاجِ ، كَمَا أَوْجَبَ عَلَى ٱلرَّجُلِ ٱلتَّلَطُّفَ وَٱلرِّفْقَ بِالْمَرْأَةِ ، مُذَكِّرًا لَهُ بِأَنَّ ٱلْمَرْأَةَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تُطَلِّقَهُ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى طَلَاقِهَا مَتَى شَاءَ ، وَأَنَّهَا لَا تَقْدِرُ أَنْ تَأْخُذَ شَيْئًا بِغَيْرِ إِذْنِهِ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنَّهَا مَا دَامَتْ فِي حِبَالِهِ (٢) لَا تَقْدِرُ عَلَى زَوْجٍ سِوَاهُ . وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَتَزَوَّجَ عَلَيْهَا ، وَأَنَّهُ لَا يُخَافُهَا وَهِيَ تَخَافُهُ ، وَأَنَّهَا تَقْنَعُ مِنْهُ بِطَلَاقَةِ وَجْهِهِ وَبِالْكَلَامِ ٱللَّيِّنِ ، وَهُوَ بَعِيدُ مَنَالِ ٱلرِّضَا وَأَنَّهَا تُفَارِقُ أُمَّهَا وَأَبَاهَا وَجَمِيعَ أَقَارِبِهَا لِأَجْلِهِ ، وَهُوَ

(١) تحامل عليها : جور وتكليف بما لا تطيقه (٢) حباله : عصمته

لَا يُفَارِقُ لِأَجْلِهَا أَحَدًا ، وَأَنَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَتَسَرَّى [١] وَيَحْتَظِي بِالْجَوَارِي دُونَهَا ، وَأَنَّهَا تَخْدُمُهُ دَائِماً وَهُوَ لَا يَخْدُمُهَا وَأَنَّهَا تُتْلِفُ [٢] نَفْسَهَا إِذَا كَانَ مَرِيضاً ، وَهُوَ لَا يَغْتَمُّ [٣] لَهَا وَلَوْ مَاتَتْ .

وَقَدْ وَضَعَ الْغَزَالِيُّ لِلنِّسَاءِ آدَاباً وَطَائِفَةً مِنَ التَّعَالِيمِ فِي حَقِّ الزَّوْجِ وَالْحَيَاةِ الْمَنْزِلِيَّةِ ، تَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ نُزُوعِهِ إِلَى التَّسَامُحِ الْفِكْرِيِّ بِجَانِبِ تَشَدُّدِهِ فِي الدِّينِ فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى هَذِهِ الْآدَابِ الْحَكِيمَةِ فَلْيَلْتَمِسْهَا فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ كِتَابِ الْإِحْيَاءِ .

(١) يتسرى : تسرى بالسرية : دخل عليها ، والسرية : الأمة التى التى أنزلتها بيتا (٢) تتلف نفسها : تفنيها (٣) لا يغتم : لا يحزن

﴿ انتهى الجزء الأول من كتاب الغزالى ﴾

ويليه الجزء الثانى وأوله

« الأدب فى الدين »

﴿ حقوق الطبع محفوظة للملتزمه ﴾

الدكتور احمد فريد رفاعى

جميع النسخ ممهورة بتوقيع ناشره

الصفحة من	الصفحة الى	الموضـــوع
٥٤	٥٤	صفات الوحدانية
٥٥	٥٦	علة العالم وفوق العالم
٥٦	٥٦	العقل
٥٦	٥٧	النفس
٥٧	٥٨	الطبيعة
٥٨	٥٩	المادة
٥٩	٥٩	أوج التصوف
٥٩	٦٠	اتباع المذهب
٦٠	٦٠	الشك
٦١	٦٢	العصور الثلاثة للدولة العباسية
٦٢	٦٢	انتشار الثقافة
٧٢	٦٣	الرغبة فى التحرر الفكرى
٦٣	٦٤	ظهور المذاهب والنحل
٦٥	٦٦	أهل التقليد
٦٦	٦٧	ظهور الفلسفة
٦٧	٦٨	نشأة الغزالى
٦٨	٦٨	الناحية السياسية لعصر الغزالى
٦٨	٦٩	السلاجقة
٦٩	٧٠	مولد الغزالى
٧٠	٧٠	المدارس النظامية
٧٠	٧٠	الفقهاء
٧١	٧١	فورة الخصومات والمنافسات
٧١	٧٢	فترة التحصيل
٧٢	٧٣	المعتزلة
٧٣	٧٣	صلتهم بالفلسفة اليونانية
٧٤	٧٤	إخوان الصفا
٧٤	٧٥	النظريات العلمية

الصفحة من	الصفحة الى	الموضوع
٧٥	٧٦	العبادة العلمية أو التصوف
٧٦	٧٧	المصلح غريب فى قومه
٧٧	٧٨	لم يكن الغزالى كشافا
٧٨	٧٨	الغزالى يفتتح عصرا جديدا
٧٩	٨٠	حياته وسيرته ـ مولده وأصله .
٨٠	٨٠	والد الغزالى
٨٠	٨١	الأخوان أبو حامد وأحمد
٨١	٨٣	أحمد الغزالى وشىء من أخباره
٨٣	٨٤	أثر الوراثة
٨٤	٨٥	بعد وفاة أبيه
٨٥	٨٧	وصية أبى الغزالى لصديقه
٨٧	٨٧	نظام المدارس
٨٧	٨٨	دراسة الفقه
٨٨	٨٨	الفكاك من التقاليد
٨٩	٨٩	إهمال الاستذ كار
٨٩	٩٠	واقعة مع بعض اللصوص
٩١	٩١	صورة بديعة
٩١	٩٢	مغادرة طوس
٩٢	٩٣	نيسابور والاتصال بامام الحرمين
٩٣	٩٧	نظام الملك
٩٧	٩٧	تفوق الغزالى
٩٧	٩٨	مرض الغزالى
٩٨	٩٩	تقدير أستاذه لمواهبه
٩٩	٩٩	بعض مصنفاته
١٠٠	١٠٠	الغزالى بنيسابور
١٠٠	١٠١	شكوك ✗
١٠١	١٠٢	وفاة معلمه

الصفحة من	الصفحة الى	الموضـــوع
١٠٢	١٠٢	اتساع سلطان السلاجقة
١٠٣	١٠٣	ملك شاه
١٠٤	١٠٤	وفاة نظام الملك
١٠٥	١٠٤	قصته مع الخيام
١٠٥	١٠٥	فوز نظام الملك
١٠٥	١٠٥	رأى المؤلف
١٠٦	١٠٦	عيشة الغزالى
١٠٧	١٠٧	التدريس فى المدارس النظامية
١٠٨	١٠٨	حكاية له مع الفقهاء
١٠٩	١٠٩	شهرة الغزالى
١١٠	١٠٩	مرضه الفجائى
١١٠	١١٠	خروجه من بغداد
١٢١	١١١	عزلة الغزالى
١١٢	١١٣	زهده فى الحياة
١١٣	١١٤	اعترافه بأسباب عزلته
١١٤	١١٦	وساوسه
١١٦	١١٨	الالتجاء إلى الله
١١٨	١١٩	سبب سياسى لخروجه من بغداد
١١٩	١١٠	عمل سياسى يؤديه الغزالى
١٢٠	١٢١	عمل آخر يتصل بالسياسة
١٢٢	١٢٣	تصوفه
١٢٣	١٢٣	تجواله فى المدائن
١٢٣	١٢٤	ابتداء تأليفه
١٢٥	١٢٥	العودة إلى الوطن
١٢٥	١٢٥	رفيقه فى سفره
١٢٦	١٢٦	تلميذه فى دمشق
١٢٦	١٢٦	رجوع الغزالى إلى بغداد

الموضوع	الصفحة من	الى
عودة الغزالى إلى خراسان	١٢٦	١٢٧
محاربته للفلسفة	١٢٧	١٢٧
دافيد هيوم	١٢٧	١٢٨
دراسة الحديث	١٢٨	١٢٨
الاخلاد إلى الصوفية	١٢٩	١٢٩
ضعف صحته	١٢٩	١٣٠
نفوره من البيئة	١٣٠	١٣١
وفاته	١٣١	١٣٢
وصف منيته	١٣٢	١٣٣
دفنه وما قيل فيه	١٣٣	١٣٤
مجدد القرن الخامس	١٣٥	١٣٥
عزلته واعترافاته ـ فترة روحية	١٣٦	١٣٧
فذلكة صوفية	١٣٧	١٣٨
منزلته الصوفية	١٣٨	١٣٩
طلب الحقيقة	١٣٩	١٤١
التهم المنسوبة إليه	١٤١	١٤١
الاتصال الشخصى بالله	١٤٢	١٤٢
حياة جديدة	١٤٢	١٤٢
بواعث نزوعه إلى التصوف	١٤٣	١٤٣
نفسيته قبل العزلة	١٤٣	١٤٥
شيخه النساج	١٤٥	١٤٧
الخلوة والمجاهدة	١٤٧	١٤٨
كيف وصف رياضته النفسية	١٤٨	١٥٢
الصوفية فى تقديره	١٥٢	١٥٥
إدراك الصوفية بالذوق	١٥٥	١٥٨
لماذا ترك العزلة ؟	١٥٨	١٦٠
أسباب ضعف الايمان	١٦٠	١٧٠

الصفحة من	الصفحة الى	الموضـــوع
١٧٠	١٧١	فضل العزلة فى حياة الغزالى
١٧١	١٧١	المجالس الغزالية
١٧١	١٧٢	قلب يخفق
١٧٢	١٧٣	وصف كتاب المنقذ من الضلال
١٧٣	١٧٤	اعتذار و بيان
١٧٥	١٧٥	كتاب شيخ
١٧٥	١٧٦	قبل ديكارت وكونت
١٧٦	١٧٧	على غرار هيوم
١٧٧	١٧٩	النور الخفى
١٧٩	١٨٠	مفتاح المعرفة
١٨٠	١٨٣	الكشف الباطنى
١٨٣	١٨٣	الاوليات العقلية
١٨٣	١٨٤	مناقشة الفلاسفة
١٨٤	١٨٥	استمساكه بصوفيته
١٨٥	١٨٦	اتهامه ظلما
١٨٧	١٨٨	التدليل على صحة النبوة
١٨٨	١٨٨	كتاب الفرنجة الذين كتبوا عن المسيح
١٨٨	١٨٩	رينان
١٨٩	١٩٠	بابينى
١٩٠	١٩٠	تماثل بينه و بين الغزالى
١٩١	١٩٤	اعترافات بابينى
١٩٤	١٩٦	نفس عطشى إلى مورد الحقيقة
١٩٦	١٩٧	ابتداء الشك
١٩٧	١٩٨	شوبنهور
١٩٨	١٩٩	صعلوك الفلسفة
٢٠٠	٢٠١	حياة المسيح
٢٠١	٢٠٢	فردريك نيتشه

الصفحة من	الصفحة الى	الموضوع
٢٠٢	٢٠٣	المسيحية والصوفية
٢٠٣	٢٠٤	الغزالى وتعاليم المسيح
٢٠٤	٢٠٥	المسيحية والحياة
٢٠٦	٢٠٧	آراؤه وفلسفته — تقدمة
٢٠٧	٢٠٨	قيمة الغزالى
٢٠٨	٢٠٩	ابن العربى وشهادته للغزالى
٢٠٩	٢١٠	الاقطاب الثلاثة
٢١٠	٢١٢	معرفة الغزالى
٢١٢	٢١٣	هادم الفلسفة
٢١٣	٢١٥	رأى ماكدولاند فى الغزالى
٢١٥	٢١٦	أثر الخوف من عقاب الله
٢١٦	٢١٦	إعلاء مكانة الصوفية
٢١٦	٢١٧	الاشعرى والغزالى
٢١٨	٢١٩	ديمقراطية العلم
٢١٩	٢٢٠	تهافت الفلاسفة
٢٢٠	٢٢١	أرستقراطية العلم
٢٢١	٢٢٢	ظاهر الشرع
٢٢٢	٢٢٣	أخلاقيات الغزالى
٢٢٣	٢٢٤	النزاع بين الفلسفة والدين
٢٢٥	٢٢٥	الحقائق العلمية
٢٢٥	٢٢٦	إخضاع الدين للعقل .
٢٢٦	٢٢٦	موجبات التفكير
٢٢٦	٢٢٧	مسألة الزمان والمكان
٢٢٨	٢٣٠	نظرية السببية والمعجزات والرد على الفلاسفة
٢٣٠	٢٣١	مذهب هيوم فى قانون السببية
٢٣١	٢٣٢	إنكار الضرورة الفعلية
٢٣٢	٢٣٢	المعجزات النبوية

الصفحة من	الصفحة الى	الموضوع
٢٣٢	٢٣٣	نطاق العقل ونطاق الدين
٢٣٣	٢٣٤	رد ابن رشد على الغزالى
٢٣٤	٢٣٥	تعليل المعجزات
٢٣٦	٢٣٧	إثبات حقيقة الله
٢٣٧	٢٣٨	علم الجزئيات
٢٣٨	٢٤٠	كتاب المقاصد
٢٤٠	٢٤١	الرد على التعليمية
٢٤١	٢٤٩	الحكم أيكون بالنص أم بالاجتهاد؟ وفى الاصل بالاجماع وهو خطأ
٢٥٠	٢٥٠	مفصل الخلاف
٢٥٠	٢٥٣	الامام المعصوم
٢٥٣	٢٥٤	نزاهة الحوار
٢٥٤	٢٥٥	أدب الفقهاء
٢٥٦	٢٥٧	البدع
٢٥٧	٢٥٨	معرفة الحق
٢٥٨	٢٥٩	الفقهاء
٢٥٩	٢٦٢	علم الكلام والفتاوى
٢٦٢	٢٦٩	آداب المناظرة
٢٦٩	٢٧٠	أدب رفيع
٢٧٠	٢٧٧	المعلم والمتعلم
٢٧٧	٢٧٧	فلسفة التربية
٢٧٧	٢٧٨	تعريف النفس
٢٧٩	٢٨٠	الروح
٢٨٠	٢٨١	العقل .
٢٨١	٢٨٣	الأخلاق
٢٨٣	٢٨٦	مبادىء نيتشية
٢٨٦	٢٨٦	مفردات الفضائل
٢٨٧	٢٨٨	محتويات الاحياء

الصفحة من	الصفحة الى	الموضـــوع
٢٨٨	٢٧٩	اعتراض الغزالى من الاحياء
٢٨٩	٢٩٠	الافراط والتفريط
٢٩١	٢٩١	العقل والشرع .
٢٩١	٢٩٢	الفرق
٢٩٢	٢٩٣	العلم والعمل
٢٩٣	٢٩٤	كيمياء السعادة
٢٩٤	٢٩٥	امكان تغيير الخلق
٢٩٥	٢٩٥	انكار أثر الوراثة
٢٩٥	٢٩٦	براءة الفطرة
٢٩٦	٢٩٦	رأى الغزالى فى الحكومة
٢٩٦	٢٩٩	آداب الملوك
٣٠٠	٣٠٤	الحب ومراتبه
٣٠٤	٣٠٧	الاخاء والصداقة
٣٠٧	٣٠٩	حقوق المرأة

﴿ تم فهرست الجزء الأول من كتاب الغزالى ﴾

مجلد الاجزاء الثلاثة معاً

مطبوعات دار المأمون

الوقت من ذهب
مكتبة القراءة والثقافة
الأدبية

الدكتور احمد فريد رفاعي
مدير ادارة الصحافة والنشر والثقافة
المصرية

سلسلة زعماء الفلسفة والأدب والأخلاق

حَلْقة

الغزالى

فى مجلدين

وثالث خصص للمختارات

مضبوطة ومشروحةً ومعلقاً عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

المجلّدُ الثّانِى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر

الصفحة من	الصفحة الى	الموضوع
٢٨٨	٢٧٩	اعتراض الغزالى من الاحياء
٢٨٩	٢٩٠	الافراط والتفريط
٢٩١	٢٩١	العقل والشرع .
٢٩١	٢٩٢	الفرق
٢٩٢	٢٩٣	العلم والعمل
٢٩٣	٢٩٤	كيمياء السعادة
٢٩٤	٢٩٥	امكان تغيير الخلق
٢٩٥	٢٩٥	انكار أثر الوراثة
٢٩٥	٢٩٦	براءة الفطرة
٢٩٦	٢٩٦	رأى الغزالى فى الحكومة
٢٩٦	٢٩٩	آداب الملوك
٣٠٠	٣٠٤	الحب ومراتبه
٣٠٤	٣٠٧	الاخاء والصداقة
٣٠٧	٣٠٩	حقوق المرأة

﴿ تم فهرست الجزء الأول من كتاب الغزالى ﴾

مجلد الجزء الثالث صفا

مطبوعات دار المأمون

الوقت من ذهب — الدكتور أحمد فريد رفاعي

مكتبة القراءة والثقافة — مدير إدارة الصحافة والنشر والثقافة

الأدبية — المصرية

سلسلة زعماء الفلسفة والأدب والأخلاق

حلقة

الغزالي

في مجلدين

وثالث خصص للمختارات

مضبوطة ومشروحة ومعلقاً عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

المجلد الثاني

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ أَمَّا بَعْدُ

فَقَدْ قَالَ الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِيُّ

إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ فِي غَدِهِ: لَوْ غُيِّرَ هَذَا لَكَانَ أَحْسَنَ، وَلَوْ زِيدَ كَذَا لَكَانَ يُسْتَحْسَنُ، وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ، وَلَوْ تُرِكَ هَذَا لَكَانَ أَجْمَلَ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِيلَاءِ النَّقْصِ عَلَى جُمْلَةِ الْبَشَرِ.

الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِي

بسم الله الرحمن الرحيم

***

الأدب فى الدين

وَقَدْ لَخَّصَ ٱلْغَزَالِىُّ بَعْدَ ذَلِكَ تَعَالِيمَهُ ٱلدِّينِيَّةَ وَنَصَائِحَهُ ٱلْغَالِيَةَ فِى رِسَالَةٍ بِمُفْرَدِهَا أَسْمَاهَا « رِسَالَةَ ٱلْأَدَبِ فِى ٱلدِّينِ » وَهُوَ عِنْدَهُ أَكْمَلُ ٱلْاخْلَاقِ وَأَعْلَاهَا وَأَحْسَنُ ٱلْأَفْعَالِ وَأَبْهَاهَا ، وَهُوَ مَا يَقْتَدِى بِهِ ٱلْمُؤْمِنُ مِنْ فِعْلِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ، وَأَخْلَاقِ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلْمُرْسَلِينَ

وَقَدْ تَنَاوَلَ فِى هَذِهِ ٱلرِّسَالَةِ ٱلْجَلِيلَةِ ٱلْكَلَامَ عَنْ آدَابِ ٱلْمُؤْمِنِ وَٱلْعَالِمِ وَٱلْمُتَعَلِّمِ وَٱلْقَارِئِ وَٱلْمُحَدِّثِ وَطَالِبِ ٱلْحَدِيثِ وَٱلْكَاتِبِ وَٱلْوَاعِظِ وَٱلْمُسْتَمِعِ وَٱلنَّاسِكِ وَٱلْمُعْتَزِلِ وَٱلصُّوفِىِّ وَٱلشَّرِيفِ كَمَا تَحَدَّثَ فِيهَا عَنْ آدَابِ ٱلنَّوْمِ وَٱلتَّهَجُّدِ (١) وَٱلْخَلَاءِ وَٱلْحَمَّامِ وَٱلْوُضُوءِ وَدُخُولِ ٱلْمَسْجِدِ وَٱلِاعْتِكَافِ وَٱلْأَذَانِ وَٱلْإِمَامَةِ وَٱلصَّلَاةِ وَٱلْقِرَاءَةِ وَٱلدُّعَاءِ وَٱلْجُمُعَةِ وَٱلْخُطْبَةِ وَٱلْعِيدِ ،

---

(١) التهجد : الصلاة بالليل تقربا من الله

ثُمَّ آدَابِ ٱلْمَرِيضِ وَٱلْمُعَزِّى وَٱلْمُشَيِّعِ لِلْجَنَازَةِ ، وَٱلْمُتَصَدِّقِ وَٱلسَّائِلِ وَٱلْغَنِيِّ وَٱلْفَقِيرِ وَٱلْمُهْدِى وَٱلْمُهْدَى إِلَيْهِ ، وَآدَابِ ٱصْطِنَاعِ ٱلْمَعْرُوفِ وَٱلصِّيَامِ وَٱلْحَجِّ وَآدَابِ ٱلتَّاجِرِ وَٱلصَّيْرَفِيِّ (١) وَٱلصَّائِغِ وَآدَابِ ٱلْأَكْلِ وَٱلشُّرْبِ وَآدَابِ ٱلْمَرْأَةِ وَآدَابِ ٱلْمُعَاشَرَةِ وَٱلْجَارِ وَٱلْإِخْوَانِ وَٱلسُّلْطَانِ مَعَ ٱلرَّعِيَّةِ ، وَٱلرَّعِيَّةِ مَعَ ٱلسُّلْطَانِ ، وَٱلْقَاضِى وَٱلشَّاهِدِ وَآدَابِ ٱلْجِهَادِ ، وَآدَابِ ٱلْأَسِيرِ ، وَجَوَامِعَ لِشُذُورٍ (٢) أُخْرَى مِنَ ٱلْأَدَبِ

وَهَذِهِ ٱلْآدَابُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ ٱلتَّعَالِيمِ فِى حُسْنِ ٱلسُّلُوكِ وَٱللِّيَاقِ (٣) وَصِلَةِ ٱلْفَرْدِ بِٱلْمُجْتَمَعِ ، وَقَدِ ٱسْتُقِيَتْ (٤) كَافَّةً مِنَ ٱلدِّينِ وَٱلْآدَابِ ٱلنَّبَوِيَّةِ ٱلْكَرِيمَةِ فَجَاءَتْ خُلَاصَةً حَسَنَةً ، وَصَفْوَةً مُخْتَارَةً ، وَرِسَالَةً مِنْ أَقْوَمِ ٱلرِّسَالَاتِ .

---

(١) الصيرفى : الذى يبيع الدراهم والدنانير و يشتريها وهو الصراف .

(٢) الشذور : المتفرقات (٣) اللياق : اللزوق يقال هذا الأمر لا يليق بك أى لا يحسن بك حتى يلصق بك (٤) استقيت أخذت

***

وَقَدْ لَزِمَ أَحَدُ الطَّلَبَةِ خِدْمَةَ الْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ ، أيها الولد
وَاشْتَغَلَ بِالتَّحْصِيلِ وَقِرَاءَةِ الْعِلْمِ عَلَيْهِ ، حَتَّى جَمَعَ مَاجَمَعَ مِنْ دَقَائِقِ الْعُلُومِ وَاسْتَكْمَلَ مَاأَرَادَ مِنْ فَضَائِلِ النَّفْسِ ، ثُمَّ إِنَّهُ فَكَّرَ يَوْمًا فِي حَالِ نَفْسِهِ وَخَطَرَ عَلَى بَالِهِ أَنْ قَالَ : « إِنِّي قَرَأْتُ أَنْوَاعًا مِنَ الْعُلُومِ ، وَصَرَفْتُ رَيْعَانَ (١) عُمُرِي فِي تَعَلُّمِهَا وَجَمْعِهَا ، فَالْآنَ يَنْبَغِي أَنْ أَعْلَمَ أَيُّ نَوْعٍ مِنْهَا يَنْفَعُنِي غَدًا وَيُؤَانِسُنِي فِي قَبْرِي ؟ وَأَيُّهَا لَا يَنْفَعُنِي حَتَّى أَتْرُكَهُ ؟ فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ » فَاسْتَمَرَّتْ لَهُ هَذِهِ الْفِكْرَةُ حَتَّى كَتَبَ إِلَى الْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ اسْتَفْتَاهُ ، وَسَأَلَ عَنْ مَسَائِلَ وَالْتَمَسَ مِنْهُ نَصِيحَةً وَدَعَاهُ ، قَالَ : وَإِنْ كَانَتْ مُصَنَّفَاتُ الشَّيْخِ كَالْإِحْيَاءِ وَغَيْرِهِ تَشْتَمِلُ عَلَى جَوَابِ مَسَائِلِي ، لَكِنَّ مَقْصُودِي أَنْ

(١) الريعان من كل شيء أوله وأفضله

يَكْتُبَ الشَّيْخُ حَاجَتِي فِي وَرَقَاتٍ تَكُونُ مَعِي مُدَّةَ حَيَاتِي ، وَأَعْمَلُ بِمَا فِيهَا مُدَّةَ عُمُرِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى

هَذِهِ مُقَدِّمَةُ رِسَالَةٍ هِيَ أَيْضاً لِلغَزَالِيِّ دَعَاهَا رِسَالَةَ « أَيُّهَا الْوَلَدُ » وَجَعَلَهَا جَوَاباً لِهَذَا الطَّالِبِ الَّذِي سَأَلَهُ وَطَلَبَ نَصَائِحَهُ وَالِاسْتِهْدَاءَ بِهُدَاهُ ، وَقَدْ أَتَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ أَشْبَهَ بِكِتَابِ « لُورْدْ شِسْتَرْفِيلْدَ » الْمَشْهُورِ فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ ، وَهُوَ مِنْ وَالِدٍ إِلَى ابْنِهِ » وَهُوَ كِتَابٌ جَلِيلٌ جَعَلَهُ « ذَلِكَ الرَّجُلُ الشَّرِيفُ الْكَبِيرُ » فُصُولًا مُوَجَّهَةً إِلَى وَلَدِهِ فِي التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَلَقَنَّهُ فِيهَا جُمْلَةً مِنَ الْآدَابِ رِيَاضَةً [1] لِنَفْسِهِ وَتَهْذِيباً لِخُلُقِهِ ، وَمَعْرِفَةً بِأَسَالِيبِ السُّلُوكِ فِي الْجَمَاعَةِ ، فَكَانَتْ كِتَاباً خَالِداً لَا يَزَالُ يُقْرَأُ كَأَنَّهُ جَدِيدٌ ، وَلَا تَزَالُ عَلَيْهِ طَلَاوَةُ الْمُبْتَكَرِ ، وَجِدَّةُ [2] الشَّيْءِ الصَّالِحِ النَّافِعِ فِي كُلِّ الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ .

---

(١) رياضة لنفسه : تذليلا لها ، وجعلها مطيعة ، و تعليمها .

(٢) الجدة : كون الشيء جديدا

***

لورد شسترفيلد والغزالى

عَلَى أَنَّ ٱلْغَزَالِيَّ بَثَّ فِي رِسَالَةِ « أَيُّهَا ٱلْوَلَدُ » رَوْحًا [١] مِنْ لَطَائِفِ ٱلصُّوفِيَّةِ وَنَسَائِمِهَا ، فَٱخْتَلَفَتْ طَرِيقَةُ تَنَاوُلِهِ وَمَنْحَى « لُورْدْ شِسْتِرْفِيلْدَ » فِي كِتَابِهِ وَهُوَ ٱخْتِلَافٌ وَاضِحُ ٱلْبَاعِثِ ، فَإِنَّ ٱلْغَزَالِيَّ لَمْ يَنْظُرْ فِي رِسَالَتِهِ إِلَّا إِلَى جِهَةِ ٱلرُّوحَانِيَّةِ وَٱلرِّيَاضَةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ وَٱلنَّاحِيَةِ ٱلدِّينِيَّةِ ، وَهِيَ ٱلْجِهَةُ ٱلَّتِي غَلَبَتْ عَلَى كُلِّ تَعَالِيمِهِ ، وَمَلَكَتْ عَلَيْهِ مَسَالِكَ تَفْكِيرِهِ ، عَلَى حِينَ ٱتَّجَهَ صَاحِبُ كِتَابِ « مِنْ وَالِدٍ إِلَى وَلَدِهِ » ٱتِّجَاهًا ٱجْتِمَاعِيًّا بَحْتًا ، وَعَرَضَ [٢] لِأَدَبِ ٱلْحَيَاةِ وَمَحَاسِنِ ٱلسُّلُوكِ ، وَلُطْفِ ٱلتَّقَالِيدِ وَكَرَائِمِ ٱلْأَخْلَاقِ .

***

الاستغناء عن العلم الكثير

وَفِي هَذِهِ ٱلرِّسَالَةِ ٱلتَّأْدِيبِيَّةِ يَتَحَدَّثُ ٱلْغَزَالِيُّ فِيمَا يَتَحَدَّثُ عَنِ ٱلْغَنَاءِ [٣] عَنِ ٱلْعِلْمِ ٱلْكَثِيرِ ، فَقَالَ :

---

(١) الروح : نسيم الريح (٢) عرض : تعرض وتصدى (٣) الغناء : بالفتح ، الكفاية

إِنَّ هَاشِماً ٱلْأَصَمَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلشَّقِيقِ ٱلْبَلْخِيِّ رَحْمَةُ ٱللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمَا ، فَسَأَلَهُ يَوْمًا قَالَ : صَاحَبْتَنِي مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً مَا حَصَّلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : حَصَّلْتُ ثَمَانِيَ فَوَائِدَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَهِيَ تَكْفِينِي مِنْهُ ، لِأَنِّي أَرْجُو خَلَاصِي وَنَجَاتِي فِيهَا ، فَقَالَ شَقِيقٌ : مَا هِيَ ؟ قَالَ هَاشِمٌ ٱلْأَصَمُّ : ٱلْفَائِدَةُ ٱلْأُولَى — أَنِّي نَظَرْتُ إِلَى ٱلْخَلْقِ فَرَأَيْتُ لِكُلٍّ مِنْهُمْ مَحْبُوباً وَمَعْشُوقاً يُحِبُّهُ وَيَعْشَقُهُ ، وَبَعْضُ ذَلِكَ ٱلْمَحْبُوبِ يُصَاحِبُهُ إِلَى مَرَضِ ٱلْمَوْتِ وَبَعْضُهُ إِلَى شَفِيرِ (١) ٱلْقَبْرِ ثُمَّ يَرْجِعُ كُلُّهُ وَيَتْرُكُهُ فَرِيداً وَحِيداً وَلَا يَدْخُلُ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، فَتَفَكَّرْتُ وَقُلْتُ : أَفْضَلُ مَحْبُوبِ ٱلْمَرْءِ مَا يَدْخُلُ فِي قَبْرِهِ وَيُؤَانِسُهُ فِيهِ ، فَمَا وَجَدْتُهُ غَيْرَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلصَّالِحَةِ فَأَخَذْتُهَا مَحْبُوباً لِي ، لِتَكُونَ سِرَاجاً (٢) فِي قَبْرِي وَتُؤَانِسُنِي فِيهِ وَلَا تَتْرُكُنِي فَرِيداً — ٱلْفَائِدَةُ ٱلثَّانِيَةُ — أَنِّي

(١) شفير القبر : حافته (٢) سراجا : مصباحا

رَأَيْتُ ٱلْخَلْقَ يَقْتَدُونَ بِأَهْوَائِهِمْ وَيُبَادِرُونَ إِلَى مَرَادَاتِ (١) أَنْفُسِهِمْ ، فَتَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَى فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَى » وَتَيَقَّنْتُ أَنَّ ٱلْقُرْآنَ حَقٌّ صَادِقٌ فَبَادَرْتُ إِلَى خِلَافِ نَفْسِي وَتَشَمَّرْتُ (٢) بِمُجَاهَدَتِهَا ، وَمَا مَتَّعَتْهَا بِهَوَاهَا ، حَتَّى رَضِيَتْ بِطَاعَةِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَٱنْقَادَتْ .

ٱلْفَائِدَةُ ٱلثَّالِثَةُ — أَنِّي رَأَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْعَى فِي جَمْعِ حُطَامٍ (٣) ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يُمْسِكُهُ قَابِضًا يَدَهُ عَلَيْهِ فَتَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ (٤) وَمَا عِنْدَ ٱللهِ بَاقٍ » فَبَذَلْتُ مَحْصُولِي مِنَ ٱلدُّنْيَا لِوَجْهِ ٱللهِ تَعَالَى فَفَرَّقْتُهُ بَيْنَ ٱلْمَسَاكِينِ لِيَكُونَ ذُخْرًا (٥) لِي عِنْدَ ٱللهِ تَعَالَى . ٱلْفَائِدَةُ ٱلرَّابِعَةُ — أَنِّي رَأَيْتُ بَعْضَ ٱلْخَلْقِ ظَنَّ شَرَفَهُ وَعِزَّهُ فِي كَثْرَةِ ٱلْأَقْوَامِ وَٱلْعَشَائِرِ فَاغْتَرَّ بِهِمْ ،

---

(١) مرادات : جمع مراد : مكان الارتياد ، والمراد نزعات النفوس .
(٢) تشمرت : تهيأت (٣) حطام الدنيا . ما فيها من مال قليل أو كثير
(٤) ينفد : يفنى (٥) الذخر : ماذخر لوقت الحاجة أى خبىء

وَزَعَمَ آخَرُونَ أَنَّهُ فِي ثَرْوَةِ الْأَمْوَالِ وَكَثْرَةِ الْأَوْلَادِ فَافْتَخَرُوا بِهَا ، وَحَسِبَ بَعْضُهُمُ الشَّرَفَ وَالْعِزَّ فِي غَصْبِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَظُلْمِهِمْ وَسَفْكِ دِمَائِهِمْ ، وَاعْتَقَدَتْ طَائِفَةٌ أَنَّهُ فِي إِتْلَافِ الْمَالِ وَإِسْرَافِهِ وَتَبْذِيرِهِ ، وَتَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » فَاخْتَرْتُ التَّقْوَى ، وَاعْتَقَدْتُ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ صَادِقٌ وَظَنَّهُمْ وَحِسْبَانَهُمْ كُلَّهُ بَاطِلٌ زَائِلٌ .

وَالْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ — أَنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ يَذُمُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَغْتَابُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَوَجَدْتُ ذَلِكَ مِنَ الْحَسَدِ فِي الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْعِلْمِ فَتَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . فَقُلْتُ إِنَّ الْقِسْمَةَ كَانَتْ مِنَ اللهِ تَعَالَى فِي الْأَزَلِ فَمَا حَسَدْتُ أَحَدًا وَرَضِيتُ بِقِسْمَةِ اللهِ تَعَالَى

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ — أَنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ يُعَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِغَرَضٍ وَسَبَبٍ فَتَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى : « إِنَّ

ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا » فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا تَجُوزُ غَيْرُ عَدَاوَةِ ٱلشَّيْطَانِ

ٱلْفَائِدَةُ ٱلسَّابِعَةُ — أَنِّي رَأَيْتُ كُلَّ أَحَدٍ يَسْعَى بِجِدٍّ ، وَيَجْتَهِدُ بِمُبَالَغَةٍ ، فِي طَلَبِ ٱلْقُوتِ وَٱلْمَعَاشِ ، بِحَيْثُ يَقَعُ بِهِ فِي شُبْهَةٍ (١) وَحَرَامٍ ، وَيُذِلُّ نَفْسَهُ ، وَيُنْقِصُ قَدْرَهُ ، فَتَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللهِ رِزْقُهَا » فَعَلِمْتُ أَنَّ رِزْقِي عَلَى ٱللهِ تَعَالَى وَقَدْ ضَمِنَهُ فَٱشْتَغَلْتُ بِعِبَادَتِهِ وَقَطَعْتُ طَمَعِي عَمَّنْ سِوَاهُ

ٱلْفَائِدَةُ ٱلثَّامِنَةُ — أَنِّي رَأَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مُعْتَمِدًا عَلَى شَيْءٍ مَخْلُوقٍ ، بَعْضُهُمْ عَلَى ٱلدُّنْيَا وَٱلدِّرْهَمِ ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى ٱلْمَالِ وَٱلْمُلْكِ ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى ٱلْحِرْفَةِ وَٱلصِّنَاعَةِ ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ فَتَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ ٱللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ

(١) الشبهة : ما بين الحلال والحرام لعدم ظهور دليل حله أو حرمته

قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا » فَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ تَعَالَى فَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ :

فَقَالَ شَقِيقٌ : وَفَّقَكَ اللهُ تَعَالَى ، إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ ، فَوَجَدْتُ الْكُتُبَ الْأَرْبَعَةَ تَدُورُ حَوْلَ هَذِهِ الْفَوَائِدِ الثَّمَانِيَةِ ، فَمَنْ عَمِلَ بِهَا كَانَ عَامِلًا بِهَذِهِ الْكُتُبِ الْأَرْبَعَةِ .

***

لمع خاطفة

هَذِهِ لُمَعٌ (١) مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ مَبَادِئِ الْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ وَآرَائِهِ وَتَعَالِيمِهِ وَنَظَرَاتِهِ وَخَوَاطِرِهِ ، وَقَدْ بَثَّهَا فِي كُتُبِهِ الْكَثِيرَةِ ، وَعَدِيدِ تَوَالِيفِهِ ، وَجَدَّدَ بِهَا الْقَرْنَ الْخَامِسَ ، وَأَشْعَلَ بِهَا نُفُوسَ مُعَاصِرِيهِ ، وَأَوْقَدَ بِهَا الْحَمِيَّةَ (٢) لِلدِّينِ وَقَضَى بِهَا عَلَى وَسَاوِسِ الزَّيْغِ (٣) وَرُوحِ الرَّيْبِ عِنْدَ الَّذِينَ ضَعُفَتْ عَقِيدَتُهُمْ وَرَانَ الْهَوَى (٤) عَلَى قُلُوبِهِمْ ، فَمَا لَبِثَتْ

(١) لمع : جمع لمعة : قطعة من النبت أخذت فى اليبس . والمراد : قدر يسير (٢) الحمية : النخوة والأنفة (٣) الزيغ : الميل عن الحق ، والشك (٤) ران الهوى على قلوبهم : غلب عليها فخبثت

مِنْ بَعْدِهِ أَنْ وَجَدَتْ أَنْصَارًا لَا عَدَّ لَهُمْ ، وَانْحَدَرَتْ إِلَى الْأَجْيَالِ التَّالِيَةِ فِي دَوِيٍّ [١] لَا يَنْقَطِعُ وَذِكْرٍ لِصَاحِبِهَا لَا يَنْطَفِئُ بَرِيقُهُ ، وَلَكِنَّهَا أَيْضًا وَجَدَتْ خُصُومًا كَثِيرِينَ ، فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يُزَلْزِلُوا مِنْ بُنْيَانِهَا الْمَكِينِ .

***

أثر الحقد

وَقَدِ اتُّهِمَ الْغَزَالِيُّ مِنْ خُصُومِهِ وَالنَّفَسَةِ [٢] عَلَيْهِ بِتُهَمٍ كَثِيرَةٍ ، وَحُورِبَتْ كُتُبُهُ وَأُحْرِقَتْ تَوَالِيفُهُ ، وَلَقِيَ جِهَادُهُ الرَّائِعُ الْجَلِيلُ فِي إِعْلَاءِ شَأْنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، رَهَقًا [٣] وَبَغْيًا وَعُدْوَانًا ، وَلَكِنَّهُ ثَبَتَ وَاطْمَأَنَّ وَمَكَثَ فِي الْأَرْضِ لِأَنَّ نَفْعَهُ عَامٌّ مُحَقَّقٌ وَصَلَاحَهُ لِلنَّاسِ مُؤَكَّدٌ يَقِينٌ .

وَسَنَعْرِضُ لِكُتُبِهِ وَأَمَانَتِهِ الذِّهْنِيَّةِ فِي فُصُولٍ مُسْتَقِلَّةٍ فِي هَذَا الْكِتَابِ .

---

(١) دوى : أى صوت (٢) النفسة : جمع نافس : أى حاسد (٣) رهقا : أى إرهاقا ومشقة

***

﴿ تَصَانِيفُهُ وَتَوَالِيفُهُ ﴾

سعة المادة

كَانَ ٱلْإِمَامُ ٱلْغَزَالِيُّ عَالِماً فَيَّاضًا زَاخِرَ ٱلْمَادَّةِ ، طَامَّ ٱلْعُبَابِ [١] مُتَرَامِيَ ٱلتَّيَّارِ فِي ٱلْغُدُوِّ وَٱلذِّهَابِ مُتَدَفِّقَ ٱلْمَنْبَعِ مِنْ أَعْلَى ٱلْقُلَلِ وَأَسْمَقِ [٢] ٱلْهِضَابِ ، وَكَانَ ٱلْإِمَامُ ٱلْغَزَالِيُّ خَصِيباً كَثِيرَ ٱلثَّمَرِ ، وَفْرَ ٱلْمَحْصُولِ ، غَزِيرَ ٱلْإِنْتَاجِ [٣] طَيِّبَ ٱلْحَصَادِ ، وَهُوَ فِي ٱلْعِلْمِ حَقًّا بَحْرٌ خِضَمٌّ [٤] كَأَنَّ ٱلْحَقِيقَةَ فِيهِ مِنْ هَذَا ٱلتَّشْبِيهِ أَدَقُّ مِنَ ٱلْمَجَازِ ، وَفِي ٱلْفَيْضِ أُوقِيَانُوسٌ [٥] بَعِيدُ ٱلسَّاحِلِ ، قَصِيُّ ٱلضِّفَافِ ، صَعْبُ ٱلِاجْتِيَازِ ، بَعِيدُ ٱلْعُذْرِ [٦] ٱسْتِنْبَاطًا وَكَشْفًا ، حَتَّى لَكَأَنَّهُ ٱلْمُحِيطُ يُغْتَرَفُ مِنْهُ أُغْتِرَافًا .

---

(١) طام العباب : كثير المعنى (٢) أسمق الهضاب أعلاها (٣) غزير الانتاج : كثير الثمرة : والمراد كثرة المنفعة (٤) بحر خضم كثير الماء (٥) الأوقيانوس : البحر المحيط . معرب أكيانس باليونانية ـ ومعناه الغمر (٦) العذر : النجح والغلبة . ومنه يقال فى الحرب : لمن العذر ؟

***

كثرة المؤلفات

وَمَا نَعْرِفُ كَثِيرًا مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ تَبَحَّرُوا فِي ٱلْعِلْمِ مِثْلَ ٱلْغَزَالِيِّ فِي ٱلتَّبَحُّرِ ، وَلَا عَدِيدًا أَحْدَثُوا بِكُتُبِهِمْ مَا أَحْدَثَ هُوَ فِي ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا مِنْ حُسْنِ ٱلْأَثَرِ ، حَتَّى لَقَدْ قَالَ ٱلْمَنَاوِيُّ فِي كَثْرَةِ مَحْصُولِ ٱلْغَزَالِيِّ مِنَ ٱلْكُتُبِ وَٱلتَّوَالِيفِ وَٱلرِّسَالَاتِ وَٱلتَّصَانِيفِ : إِنَّهُ قَدْ أُحْصِيَتْ كُتُبُ ٱلْغَزَالِيِّ وَوُزِّعَتْ عَلَى عُمُرِهِ ، فَخَصَّ كُلَّ يَوْمٍ أَرْبَعَةُ كَرَارِيسَ ، وَقَالَ ٱلسَّيِّدُ مُرْتَضَى فِي ٱلتَّعْقِيبِ عَلَى هَذَا ٱلْإِحْصَاءِ ٱلْعَجِيبِ : إِنَّ ذَلِكَ قَدْ وَقَعَ لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَئِمَّةِ ، كَابْنِ جَرِيرٍ ٱلطَّبَرِيِّ ، وَٱبْنِ شَاهِينَ ، وَٱبْنِ ٱلنَّقِيبِ ، وَٱلنَّوَوِيِّ ، وَٱلسُّبْكِيِّ ، وَٱلسُّيُوطِيِّ ، وَغَيْرِهِمْ .

وَقَالَ أَيْضًا : إِنَّ لِلْغَزَالِيِّ تَصَانِيفَ فِي غَالِبِ ٱلْفُنُونِ ، حَتَّى فِي عُلُومِ ٱلْحَرْفِ وَأَسْرَارِ ٱلرُّوحَانِيَّاتِ وَخَوَاصِّ

ٱلْأَعْـدَادِ ، وَلَطَائِفِ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْإِلٰهِيَّـةِ ، وَفِي ٱلسِّيمْيَاءِ [١] وَغَيْرِهَا .

***

المدسوس عليه

وَلَـكِنْ لَا شَكَّ فِي أَنَّ كُتُبًا وَتَوَالِيفَ كَثِيرَةً قَدْ دُسَّتْ [٢] عَلَى ٱلْغَزَالِيِّ مِنْ بَعْدِهِ لِتَجْرِيَ مَجْرَى شُهْرَتِهِ ، وَٱحْتِيَالًا مِنْ وُضَّاعِهَا وَنَاحِلِي نِسْبَتِهَا إِلَيْهِ عَلَى تَرْوِيجِهَا بِٱسْمِهِ فِي عَظِيمِ ذُيُوعِهِ وَكَبِيرِ مَحْمَدَتِهِ ، وَكَانَ ٱلِانْتِحَالُ وَٱلتَّزْيِيفُ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ أَسْهَلَ شَيْءٍ عَلَى طُلَّابِهِ وَبُغَاتِهِ [٣] فَلَمْ تَـكُنْ حُقُوقُ ٱلتَّأْلِيفِ مَعْرُوفَةً يَوْمَئِذٍ لِلنَّاسِ ، وَلَمْ تَشْتَهِرِ ٱلْمَطْبَعَةُ حَتَّى يَـكُونَ ٱلتَّحْقِيقُ فِي أُصُولِ ٱلـكُتُبِ وَحَقَائِقِهَا مَيْسُورًا لِمَنْ رَامَهُ مُذَلَّلًا لِلْمُحَقِّقِينَ

***

فضل كتاب الاحياء

وَقَدْ عَرَضْنَا فِي أَحَادِيثِنَا عَبْرَ [٤] ٱلْفُصُولِ ٱلْمَاضِيَةِ

(١) السيمياء : علم يطلق على غير الحقيقي من السحر ـ عبرانيـة .
(٢) دست : أدخلت خفية (٣) بغاته : طالبيه ـ جمع باغ (٤) عبر الوادى وعبره : شاطئه وناحيته : والمراد ، خلال الفصول الماضية

لِبَعْضِ كُتُبِ ٱلْغَزَالِيِّ وَتَوَالِيفِهِ ، خِلَالَ شُرُوحِنَا لِآرَائِهِ وَنَظَرِيَّاتِهِ أَوْ مُضِيئِنَا فِي سِيرَتِهِ ، وَتَنَاوُلِنَا لِتَرْجَمَتِهِ ، وَهِيَ ٱلْكُتُبُ ٱلْأَعْلَامُ فِي بَابِهَا ، وَٱلْمُؤَلَّفَاتُ ٱلْمَشْهُورَاتُ بَيْنَ ٱلْمَنْسُوبَةِ إِلَى صَاحِبِهَا ، فَاقْتَبَسْنَا مِنْ كِتَابِ « إِحْيَاءِ عُلُومِ ٱلدِّينِ » وَهُوَ بِلَا رَيْبَ أَعْظَمُ كُتُبِ ٱلْغَزَالِيِّ وَأَضْخَمُهَا . وَأَكْبَرُهَا قَدْرًا ، وَقَدْ وَصَفَهُ كَثِيرٌ وَٱفْتَنُّوا[1] فِي وَصْفِهِ وَنَعْتِهِ ، وَقَدَّرَهُ عَدِيدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ ، وَبَالَغُوا فِي تَعْيِينِ قِيمَتِهِ ، حَتَّى قِيلَ : إِنَّهُ لَوْ ذَهَبَتْ كُتُبُ ٱلْإِسْلَامِ وَبَقِيَ ٱلْإِحْيَاءُ ، لَأَغْنَى عَمَّا ذَهَبَ . وَنُقِلَ فِي لَطَائِفِ ٱلْمِنَنِ عَنِ ٱلْقُطْبِ أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱلشَّاذِلِيِّ ، أَنَّهُ قَالَ : كِتَابُ ٱلْإِحْيَاءِ يُورِثُكَ ٱلْعِلْمَ ، وَكِتَابُ ٱلْقُوتِ يُورِثُكَ ٱلنُّورَ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلسُّبْكِيِّ : وَهُوَ مِنَ ٱلْكُتُبِ ٱلَّتِي يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ ٱلِاعْتِنَاءُ بِهَا ، وَإِشَاعَتُهَا لِيَهْتَدِيَ بِهَا ٱلْكَثِيرُ مِنَ ٱلْخَلْقِ . وَقَلَّمَا يَنْظُرُ فِيهِ نَاظِرٌ إِلَّا تَيَقَّظَ لَهُ فِي

(١) افتنوا : تفننوا وأخذوا فى فنون من القول وجاءوا بالأفانين .

ٱلْحَالِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكُتُبِ ٱلَّتِى صَنَّفَهَا أَهْلُ ٱلْعِلْمِ إِلَّا ٱلْإِحْيَاءَ لَكَفَاهُمْ ، وَإِنِّى لَا أَعْرِفُ لَهُ نَظِيرًا فِى ٱلْكُتُبِ ٱلَّتِى صَنَّفَهَا ٱلْفُقَهَاءُ ٱلْجَامِعُونَ فِى تَصَانِيفِهِمْ بَيْنَ ٱلنَّقْلِ وَٱلنَّظَرِ وَٱلْفِكْرِ وَٱلْأَثَرِ .

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِى قِيمَةِ ٱلْكِتَابِ وَسُمُوِّ قَدْرِهِ ، وَبَالِغِ شَأْنِهِ ، فَقَدْ حَوَى أَكْثَرَ تَفْكِيرِ ٱلْغَزَالِىِّ وَجَوْهَرَهُ ، وَتَضَمَّنَ أَغْلَبَ تَعَالِيمِهِ وَآرَائِهِ وَمَذْوُبِ[1] خَاطِرِهِ ، وَقَدْ نَقَلْنَا لَكَ فِى ٱلْفَصْلِ ٱلسَّابِقِ مَا ذَكَرَهُ ٱلْمُؤَلِّفُ مِنْ غَرَضِهِ فِيهِ ، وَمَرْمَاهُ مِنْهُ ، وَأَتَيْنَا عَلَى قَائِمَةِ مَوْضُوعَاتِهِ ، وَٱقْتَبَسْنَا لَكَ شَيْئًا مِنْ فِقْرَاتِهِ[2] ، وَقَدْ فَعَلَ ٱلْغَزَالِىُّ شَيْئًا كَهَذَا ، إِذِ ٱخْتَصَرَهُ فِى رَسَائِلَ وَكُتُبٍ عِدَّةٍ ، كَٱلْوَجِيزِ وَٱلْمَبْسُوطِ وَٱلْمُرْشِدِ ٱلْأَمِينِ .

وَقَدْ حَدَّثْنَاكَ أَيْضًا عَنْ كِتَابِهِ « ٱلْمُنْقِذِ مِنَ

---

(١) مذوب خاطره : حاصله (٢) فقراته : جمع فقرة : وهى الجملة من الكلام

الضَّلَالِ » وَاقْتَطَفْنَا شُذُورًا مِنْهُ فِي مُنَاسَبَاتِ الْبَحْثِ ، وَمَوْضُوعَاتِ التَّحْلِيلِ وَالشَّرْحِ ، بِسَبِيلِ عُزْلَتِهِ وَصُوفِيَّتِهِ وَتَعَرُّضِهِ لِنَقْدِ الْمَذَاهِبِ الْفَلْسَفِيَّةِ ، وَوَصَفْنَا ذَلِكَ الْكِتَابَ بِأَنَّهُ اعْتِرَافَاتٌ مُمْتِعَةٌ ، صَادِقَةٌ عَنْ حَيَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ ، وَتَطَوُّرِهِ الذِّهْنِيِّ ، وَخَلَجَاتِ (١) نَفْسِهِ فِي مَرَاحِلِهَا ، مِنَ الشَّكِّ الْأَوَّلِ إِلَى نِهَايَةِ الْيَقِينِ .

وَقَدْ عَرَضْنَا فِي الْبُحُوثِ الْمَاضِيَةِ كَذَلِكَ لِكُتُبِهِ الْبَارِزَةِ « كَتَهَافُتِ الْفَلَاسِفَةِ ، وَالْمُسْتَظْهِرِينَ ، وَمِيزَانِ الْعَمَلِ ، وَرِسَالَةِ الْأَدَبِ فِي الدِّينِ .

***

بيان كتبه

وَنَحْنُ هُنَا مُورِدُونَ أَسْمَاءَ مَشْهُورِ كُتُبِهِ ، وَأَعْلَامِ رَسَائِلِهِ ، مَعَ بَيَانِ مَوْضُوعَاتِهَا وَمَوَادِّهَا ، فِي غَيْرِ إِفَاضَةٍ (٢) فِيهَا ، حَتَّى لَا يَطُولَ بِنَا نَفَسُ الْكَلَامِ .

---

(١) خلجات نفسه : ما يختلج ويحتك فى صدره من الشك . جمع خلجة (٢) إفاضة فيها : اندفاع فيها وخوض

إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ : وَهُوَ آيَةُ عَمَلِهِ ، وَأَرْوَعُ مَا خَرَجَ مِنْ تَوَالِيفِهِ ، وَسَنُفْرِدُ لَهُ حَدِيثًا نَتَنَاوَلُ فِيهِ الْكَلَامَ عَنْ مَاهِيَّتِهِ وَشُرُوحِهِ وَمُخْتَصَرَاتِهِ ، وَأَنْصَارِ الْغَزَالِيِّ فِيهِ وَخُصُومِهِ ، بَعْدَ أَنْ نَفْرُغَ مِنْ إِيرَادِ أَسْمَاءِ كُتُبِهِ وَرَسَائِلِهِ .

جَوَاهِرُ الْقُرْآنِ وَدُرَرُهُ . وَهُوَ كِتَابٌ قَيِّمٌ قَرِيبٌ مِنْ مَوْضُوعَاتِ الْإِحْيَاءِ وَقَدْ وُضِعَ بَعْدَهُ

كِتَابُ الْأَرْبَعِينَ فِي أُصُولِ الدِّينِ : وَهُوَ قِسْمٌ مِنْ جَوَاهِرِ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ أَجَازَ الْغَزَالِيُّ أَنْ يُكْتَبَ مُفْرَدًا ، فَكَتَبُوهُ هَكَذَا ، وَجَعَلُوهُ مُسْتَقِلًّا .

الْإِمْلَاءُ عَلَى إِشْكَالِ الْإِحْيَاءِ : وَهُوَ الَّذِي رَدَّ بِهِ الْغَزَالِيُّ عَلَى اعْتِرَاضَاتٍ أَوْرَدَهَا بَعْضُ مُعَاصِرِيهِ عَلَى مَوَاضِعَ مِنَ الْإِحْيَاءِ ، وَيَقُولُ السَّيِّدُ الْمُرْتَضَى فِي كِتَابِهِ « إِتْحَافِ السَّادَةِ الْمُتَّقِينَ » إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ أَيْضًا يُسَمَّى الْأَجْوِبَةَ الْمُسْكِتَةَ عَنِ الْأَسْئِلَةِ الْمُبْهِتَةِ[1] .

(١) المبهتة : المدهشة المحيرة .

مِيزَانُ ٱلْعَمَلِ : وَهُوَ مُخْتَصَرٌ فِي عِلْمِ ٱلنَّفْسِ ، وَطَلَبِ ٱلسَّعَادَةِ ٱلَّتِي لَا تُنَالُ إِلَّا بِالْعِلْمِ وَٱلْعَمَلِ ، وَبَيَانِ شَرَفِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ .

وَمِنْهَاجُ ٱلْعَابِدِينَ إِلَى ٱلْجَنَّةِ : قِيلَ إِنَّهُ آخِرُ تَوَالِيفِهِ وَقَدْ رَتَّبَهُ عَلَى سَبْعِ عَقَبَاتٍ ، وَقَالَ فِي أَوَّلِهِ ، صَنَّفْنَا فِي قَطْعِ طَرِيقِ ٱلْآخِرَةِ ، وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ كُتُبًا كَإِحْيَاءِ ٱلْعُلُومِ ، وَٱلْقُرْبَةِ إِلَى ٱللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَلَمْ يُحْسِنُوهَا ، فَأَيُّمَا كَلَامٍ أَفْصَحُ مِنْ كَلَامِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ؟ فَقَدْ قَالُوا : « أَسَاطِيرُ (١) ٱلْأَوَّلِينَ » ، وَٱقْتَضَتِ ٱلْحَالُ ٱلنَّظَرَ إِلَى كَافَّةِ خَلْقِ ٱللهِ بِعَيْنِ ٱلرَّحْمَةِ وَتَرْكِ ٱلْمُمَارَاةِ (٢) فَابْتَهَلْتُ إِلَى ٱللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَنْ يُوَفِّقَنِي لِتَأْلِيفِ كِتَابٍ يَقَعُ عَلَيْهِ ٱلْإِجْمَاعُ ، وَيَحْصُلُ بِقِرَاءَتِهِ ٱلِانْتِفَاعُ ، فَأَجَابَنِي وَأَطْلَعَنِي بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ عَلَى أَسْرَارِ ذَلِكَ ،

---

(١) أساطير : جمع أسطورة : القصة التى لا أصل لها والحكاية ، أى أكاذيب (٢) المماراة : المجادلة والمخاصمة

وَأَلْهَمَنِي تَرْتِيباً عَجِيباً لَمْ أَذْكُرْهُ فِي الَّتِي تَقَدَّمَتْ — وَقَدْ شَرَحَ هَذَا الْكِتَابَ شَمْسُ الدِّينِ الْبَلَاطِنْسِيُّ مِنْ أَهْلِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ الْهِجْرِيِّ ، شَرْحَيْنِ صَغِيرًا وَكَبِيرًا ، ثُمَّ اخْتَصَرَ الْمِنْهَاجَ فِي جُزْءٍ سَمَّاهُ بُغْيَةَ الطَّالِبِينَ ، وَلَمْ يَذْكُرْهُ ابْنُ السُّبْتِيِّ فِي تَعْدَادِ مُصَنَّفَاتِهِ ، وَقَالَ الْمُرْتَضَى : إِنَّهُ رَأَى فِي كِتَابِ الْمُسَامَرَةِ لِلشَّيْخِ الْأَكْبَرِ مُحْيِي الدِّينِ ابْنِ الْعَرَبِيِّ — قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ — مَا نَصُّهُ : « إِنَّ الشَّيْخَ أَبَا حَسَنٍ عَلِيَّ بْنَ خَلِيلٍ السُّبْتِيَّ ، كَانَ عَالِماً بِالْحَقِيقَةِ عَارِفًا مَخْمُولَ (١) الذِّكْرِ ، رَأَيْتُهُ بِسَبْتَةَ وَتَبَاحَثْتُ مَعَهُ وَرَأَيْتُ لَهُ تَصَانِيفَ مِنْهَا : مِنْهَاجُ الْعَابِدِينَ ، الَّذِي يُعْزَى إِلَى أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ وَلَيْسَ لَهُ ، وَهُوَ غَرِيبٌ يُسْتَفَادُ

مُشْكِلَةُ الْأَنْوَارِ فِي لَطَائِفِ الْأَخْيَارِ — فِي الْمَوْعِظَةِ — حَصَرَ مَقْصُودَهُ فِي ثَمَانِيَةٍ وَأَرْبَعِينَ بَابًا ، قَالَ فِي أَوَّلِهَا :

(١) مخمول الذكر : ضعيف الذكر غير مشتهر

انكشف لأرباب القلوب أن لا وصول إلى السعادة للإنسان ، إلا بإخلاص العلم والعمل للرحمن ، فسنح [1] في خاطري أن أجمع كتابا جامعا لجمع أشياء من آيات القرآن العظيم ، وسنن الرسول - عليه الصلاة والسلام - وكلمات الأولياء ، ونكت [2] المشايخ - رحمهم الله تعالى - وحكم أهل العرفان ، وأخذت من كل ما يشوق القلب إليه - سبحانه - وطاعته ، ويقطع لذة النفس عن الدنيا وشهواتها ، ويرغبها في الآخرة ودرجاتها ، إلى آخر ما قال :

فاتحة العلوم : وهو مشتمل على فصلين

تهافت الفلاسفة ، صدره بأربع مقدمات ، رد فيها على الفلاسفة ، ثم ذكر المسائل التي تناقض مذهبه وهي عشرون مسألة . وذكر في خاتمته ما يقطع

---

(١) سنح : عرض . (٢) نكت : جمع نكتة : اللطيفة المؤثرة في القلب .

ٱلْقَوْلَ بِكُفْرِهِمْ مِنْ ثَلَاثَةِ وُجُوهٍ ، وَقَدْ صَنَّفَ فِي ٱلرَّدِّ عَلَيْهِ أَحَدُ عُلَمَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ : ٱلْقَاضِي أَبُو ٱلْوَلِيدِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ رُشْدٍ ٱلْفَيْلَسُوفُ ٱلْإِسْلَامِيُّ ٱلْمَعْرُوفُ، مُصَنَّفاً قَالَ فِي آخِرِهِ :

لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا ٱلرَّجُلَ - يُرِيدُ ٱلْغَزَالِيَّ - أَخْطَأَ عَلَى ٱلشَّرِيعَةِ ، كَمَا أَخْطَأَ عَلَى ٱلْحِكْمَةِ ، وَلَوْلَا ضَرُورَةُ طَلَبِ ٱلْحَقِّ مَا تَكَلَّمْتُ فِي ذَلِكَ . ثُمَّ تَكَلَّمَ فِيمَا بَعْدُ فِي ٱلْمُحَاكَمَةِ بَيْنَهُمَا مِنْ عُلَمَاءِ ٱلرُّومِ مُصْطَفَى بْنُ يُوسُفَ ٱلْبَرَمُونِيُّ ٱلْمَعْرُوفُ بِخَوَاجَا زَادَهْ ، وَٱلْمَوْلَى عَلَاءُ ٱلدِّينِ ٱلطَّرَطُوسِيُّ وَعَلَى ٱلْأَوَّلِ مِنْهَا تَعْلِيقَةٌ لِابْنِ كَمَالٍ بَاشَا .

مَقَاصِدُ ٱلْفَلَاسِفَةِ — فِي ٱلْمَنْطِقِ وَٱلْحِكْمَةِ ٱلْإِلَهِيَّةِ وَٱلْحِكْمَةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ ، وَقَدْ عَرَّفَ فِيهِ مَقَاصِدَ ٱلْفَلَاسِفَةِ وَحَكَى مِنْ مَعْلُومَاتِهِمْ ، وَأَتَى بِالرُّدُودِ عَلَيْهِمْ ، « فِي ٱلتَّهَافُتِ » ٱلَّذِي مَرَّ بِكَ .

مِعْيَارُ ٱلْعُلُومِ فِي ٱلْمَنْطِقِ :

مَعَارِجُ ٱلْقُدْسِ ، فِي مَدَارِجِ عِلْمِ ٱلنَّفْسِ

مِعْرَاجُ ٱلسَّالِكِينَ : وَهُوَ مُخْتَصَرٌ أَوْرَدَ فِيهِ ٱلْمَوَاعِظَ وَٱلتَّذْكِيرَ .

مَوَاهِبُ ٱلْبَاطِنِيَّةِ : قَالَ ٱبْنُ ٱلسَّبْتِيِّ: وَهُوَ غَيْرُ كِتَابِ ٱلْمُسْتَظْهِرِيِّ : فِي ٱلرَّدِّ عَلَى ٱلْبَاطِنِيَّةِ .

ٱلْمُسْتَظْهِرِيُّ أَوْ فَضَائِحُ ٱلْبَاطِنِيَّةِ ، وَفَضَائِلُ ٱلْمُسْتَظْهِرِيَّةِ .

ٱلْمُسْتَصْفَى فِي أُصُولِ ٱلْفِقْهِ — مُؤَلَّفٌ ضَخْمٌ ، رَتَّبَهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَأَرْبَعَةِ أَقْطَارٍ وَخَاتِمَةٍ ، فَٱلْمُقَدِّمَةُ فِيهَا ٱلتَّوْطِئَةُ وَٱلتَّمْهِيدُ ، وَٱلْقُطْرُ ٱلْأَوَّلُ فِي ٱلْأَحْكَامِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى لُبَابِ (١) ٱلْمَقْصُودِ ، وَٱلثَّانِي فِي ٱلْأَدِلَّةِ ٱلْحُكْمِيَّةِ ، وَٱلثَّالِثُ فِي ذِكْرِ ٱلِاشْتِهَارِ وَٱلْمُنَاسَبَةِ ، وَٱلرَّابِعُ فِي ٱلِاسْتِمْرَارَاتِ ، وَٱلْخَاتِمَةُ فِي ٱلْإِيقَاعَاتِ ، وَذَكَرَ فِي أَوَّلِهِ أَنَّهُ صَنَّفَهُ قَبْلَ ٱلْإِحْيَاءِ ، وَٱخْتَصَرَهُ

(١) اللباب : المختار الخالص من كل شيء

أَبُو الْعَبَّاس أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْإِشْبِيلِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ وَسِتَّمِائَةٍ ، وَشَرَحَهُ الْفَاضِلُ أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ ابْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْفِهْرِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَعَلَيْهِ تَعْلِيقَةٌ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ الْغَرْنَاطِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ .

الْمَنْخُولُ فِي الْأُصُولِ ـ قَالَ ابْنُ السُّبْتِيِّ ـ أَلَّفَهُ فِي حَيَاةِ أُسْتَاذِهِ إِمَامِ الْحَرَمَيْنِ ، وَقَالَ السَّيِّدُ الْمُرْتَضَى تَعْلِيقًا عَلَى هَذَا : وَالَّذِي يَقْتَضِيهِ سِيَاقُ عِبَارَةِ الْمُسْتَصْفَى فِي أَوَّلِهِ أَنَّهُ مُتَأَخِّرٌ عَنِ الْإِحْيَاءِ ، وَكِيمْيَاءِ السَّعَادَةِ ، وَجَوَاهِرِ الْقُرْآنِ ، لِأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ هَذِهِ الْكُتُبَ الثَّلَاثَةَ قَالَ : ثُمَّ سَاقَنِي التَّقْدِيرُ الْإِلٰهِيُّ إِلَى التَّصَدُّرِ [1] لِلتَّدْرِيسِ فَكُتِبَ مِنْ تَقْرِيرِي فِي عِلْمِ أُصُولِ الْفِقْهِ .

فَحَصَّلُوا [2] تَصْنِيفًا لَمْ يَقَعْ مِثْلُهُ فِي تَهْذِيبِ الْأُصُولِ فَلَمَّا أَكْمَلُوهُ عَرَضُوهُ عَلَيَّ وَلَمْ أُخَيِّبْ سَعْيَهُمْ ، وَسَمَّيْتُهُ الْمَنْخُولَ .

---

(١) التصدر : التقدم (٢) فحصلوا : فجمعوا والضمير للطلاب

وَلِلشَّيْخِ شَمْسِ الدِّينِ الْكُرْدِيِّ الْحَنَفِيِّ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ مُصَنَّفٌ لَطِيفُ الْمَآخِذِ [١] فِي الْخِلَافِيَّاتِ بَيْنَ الْحَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ .

الْمَبَادِئُ وَالْغَايَاتُ - فِي أَسْرَارِ الْحَرْفِ الْمَكْنُونَاتِ

الْمَجَالِسُ الْغَزَالِيَّةُ - ذَكَرَ ابْنُ السَّبْتِيِّ أَنَّهُ لَمَّا عَقَدَ مَجْلِسَ الْوَعْظِ بِبَغْدَادَ ازْدَحَمَ النَّاسُ عَلَيْهِ ، فَكَانَ يُدَوِّنُ مَجَالِسَ وَعْظِهِ مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ الشَّيْخُ صَاعِدُ بْنُ فَارِسٍ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ اللَّبَّانِ ، فَبَلَغَتْ مِائَةً وَثَلَاثَةً وَثَمَانِينَ مَجْلِسًا ، ثُمَّ قَرَأَهَا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، فَأَجَازَهُ بِهَا بَعْدَ أَنْ صَحَّحَهَا ، فَبَيَّضَهَا فِي مُجَلَّدَيْنِ ضَخْمَيْنِ .

« الْمُنْقِذُ مِنَ الضَّلَالِ » ، وَالْمُفْصِحُ عَنِ الْأَحْوَالِ : وَقَدْ مَرَّ بِكَ حَدِيثٌ عَنْهُ ، وَهُنَا نَنْقُلُ مَا كَتَبَهُ السَّيِّدُ الْمُرْتَضَى بِسَبِيلِهِ ، قَالَ : إِنَّهُ بَثَّ فِيهِ غَايَةَ الْعُلُومِ وَأَسْرَارَهَا ، وَالْمَذَاهِبَ وَأَعْذَارَهَا [٢] ، وَرَدَّ فِيهِ عَلَى

---

(١) المآخذ : جمع مأخذ ، ويراد به الانتقاد والاعتراض . (٢) أعذارها : حججها التى يعتذر بها : جمع عذر ، وهو الحجة

ٱلْحُكَمَاءِ ٱلْفَلَاسِفَةِ ، وَنَسَبَهُمْ إِلَى ٱلْكُفْرِ وَالضَّلَالِ .

ٱلْقِسْطَاسُ ٱلْمُسْتَقِيمُ ، مُخْتَصَرٌ جَعَلَهُ مِيزَانًا لِإِدْرَاكِ حَقِيقَةِ ٱلْمَعْرِفَةِ .

قَوَاعِدُ ٱلْعَقَائِدِ ، وَهُوَ فِي عِلْمِ ٱلْكَلَامِ ، شَرَحَهُ ٱلسَّيِّدُ رُكْنُ ٱلدِّينِ ٱلْأَسْطَرَابَاوِيُّ ، وَٱلْعَلَّامَةُ أَحْمَدُ أَمِينُ بْنُ صَدْرِ ٱلدِّينِ ٱلشَّرْوَانِيُّ .

كِيمْيَاءُ ٱلسَّعَادَةِ ـ وَٱلْعُلُومِ بِالْفَارِسِيَّةِ ، وَهُوَ كِتَابٌ كَبِيرٌ ، قَالُوا : إِنَّهُ تَرْجَمَ فِيهِ كِتَابَهُ ٱلْإِحْيَاءَ ، وَقَدْ تَكَلَّمَ عَنْهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْهُ ، وَلَهُ رِسَالَةٌ بِهَذَا ٱلْعُنْوَانِ ٱقْتَبَسْنَا لَكَ مِنْهَا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلسَّابِقِ شُذُورًا فِي تَعْرِيفِ ٱلسَّعَادَةِ عِنْدَهُ .

فَيْصَلُ ٱلتَّفْرِقَةِ ، بَيْنَ ٱلْإِسْلَامِ وَٱلزَّنْدَقَةِ ،

ٱلْوَسِيطُ فِي فُرُوعِ ٱلْفِقْهِ ، وَهُوَ مُلَخَّصٌ مِنْ بَسِيطِهِ مَعَ زِيَادَاتٍ ، وَهُوَ أَحَدُ ٱلْكُتُبِ ٱلْخَمْسَةِ ٱلْمُتَدَاوَلَةِ ، شَرَحَهُ تِلْمِيذُهُ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى ٱلنَّيْسَابُورِيُّ ،

وَسَمَّاهُ ٱلْمُحِيطَ فِي سِتَّةَ عَشَرَ مُجَلَّدًا ، وَشَرَحَهُ نَجْمُ ٱلدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ ٱلرِّفْعَةِ ، فِي سِتِّينَ مُجَلَّدًا ، وَسَمَّاهُ ٱلْمَطْلَبَ ، وَشَرَحَهُ ٱلنَّجْمُ ٱلْقَامُولِيُّ ، وَسَمَّاهُ ٱلْبَحْرَ ٱلْمُحِيطَ ، وَشَرَحَهُ ٱلظَّهِيرُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى ٱلتَّزَنْتِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْحَاكِمِ ، وَٱلْعِزُّ عُمَرُ بْنُ أَحْمَدَ ٱلْمُدْلِجِيُّ ، وَأَبُو ٱلْفُتُوحِ ٱلْعِجْلِيُّ ، وَٱبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ ٱبْنِ أَبِي ٱلدَّمِ ، وَٱبْنُ الصَّلَاحِ عَلِيٌّ الرَّبِيعُ ، وَٱلْكَمَالُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ٱلْحَلَبِيُّ الشَّهِيرُ بِابْنِ الْأُسْتَاذِ فِي أَرْبَعَةِ مُجَلَّدَاتٍ .

الْأَدَبُ فِي الدِّينِ — رِسَالَةٌ طُبِعَتْ مَعَ رِسَالَاتٍ أُخْرَى ، وَقَدْ مَرَّ بِكَ ذِكْرُهَا .

أَيُّهَا الْوَلَدُ — رِسَالَةٌ كَتَبَهَا إِلَى بَعْضِ تَلَامِيذِهِ نَاصِحًا لَهُ ، وَذَكَرَ فِيهَا وَصَايَا فِي الزُّهْدِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ مُتَرْجَمٌ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ ، وَقَدْ طُبِعَتْ مَعَ تَرْجَمَةٍ أَلْمَانِيَّةٍ فِي ڤِينَّا عَامَ ثَمَانِيَةٍ وَثَلَاثِينَ

وَثَمَانِمِائَةٍ بَعْدَ الْأَلْفِ وَعَامَ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ بَعْدَ الْأَلْفِ بِعِنَايَةِ « هَامِرِ بُرْغُشْتَالَ » كَمَا طُبِعَتْ فِي الْقَاهِرَةِ فِي مَجْمُوعَةٍ مِنْ رَسَائِلَ أُخْرَى لِلْغَزَالِيِّ

بِدَايَةُ الْهِدَايَةِ ، وَتَهْذِيبُ النُّفُوسِ بِالْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ وَلِهَذَا الْكِتَابِ مُخْتَصَرٌ ، وَقَدْ شَرَحَهُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ نُورِيّ الْجَاوِيُّ بِكِتَابِهِ الْمُسَمَّى مَرَاقِيَ الْعُبُودِيَّةِ .

تَحْصِينُ الْمَآخِذِ .

تَحْصِينُ الْأَدِلَّةِ .

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ .

حُجَّةُ الْحَقِّ .

حَقِيقَةُ الرُّوحِ .

حَقِيقَةُ الْقَوْلَيْنِ .

خُلَاصَةُ الْوَسَائِلِ ، إِلَى عِلْمِ الْمَسَائِلِ فِي فُرُوعِ الْمَذْهَبِ ، أَحَدُ الْكُتُبِ الْمَشْهُورَةِ ، ذَكَرَ فِيهِ أَنَّهُ اخْتَصَرَهُ مِنْ مُخْتَصَرِ الْمُزَنِيِّ ، وَزَادَ عَلَيْهِ .

رِسَالَةُ ٱلْأَقْطَابِ .

رِسَالَةُ ٱلطَّيْرِ .

ٱلرَّدُّ عَلَى مَنْ طَغَى .

ٱلرِّسَالَةُ ٱلْقُدْسِيَّةُ ، بِأَدِلَّتِهَا ٱلْبُرْهَانِيَّةِ ، فِي عِلْمِ ٱلْكَلَامِ ، كَتَبَهَا لِأَهْلِ ٱلْقُدْسِ

ٱلسِّرُّ ٱلْمَصُونُ - وَهُوَ مُؤَلَّفٌ صَغِيرٌ رَتَّبَ فِيهِ ٱلْآيَاتِ ٱلْقُرْآنِيَّةَ يَذْكُرُ بَعْدَ كُلِّ جُمْلَةٍ مِنْهَا : أَعْدَاؤُنَا لَنْ يَصِلُوا إِلَيْنَا ، لَا بِالنَّفْسِ وَلَا بِالْوَاسِطَةِ ، وَلَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى إِيصَالِ ٱلسُّوءِ إِلَيْنَا ، بِحَالٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ .

شَرْحُ دَائِرَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، ٱلْمُسَمَّاةِ نُخْبَةَ ٱلْأَسْمَاءِ ، وَيَقُولُ ٱلسَّيِّدُ ٱلْمُرْتَضَى فِي كِتَابِ إِتْحَافِ ٱلسَّادَةِ ٱلْمُتَّقِينَ : إِنَّهُ كِتَابٌ مَشْهُورٌ بَيْنَ أَيْدِي ٱلنَّاسِ.

شِفَاءُ ٱلْغَلِيلِ ، فِي بَيَانِ مَسْأَلَةِ ٱلتَّعْلِيلِ ، رَتَّبَهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ ، وَخَمْسَةِ أَرْكَانٍ ، فَٱلْمُقَدِّمَةُ فِي بَيَانِ مَعَانِي ٱلْقِيَاسِ وَٱلْعِلَّةِ وَٱلدَّلَالَةِ ، وَٱلرُّكْنُ ٱلْأَوَّلُ فِي إِثْبَاتِ

عِلَّةِ ٱلْأَصْلِ ، وَٱلثَّانِي فِي ٱلْعِلَّةِ ، وَٱلثَّالِثُ فِي ٱلْحُكْمِ ، وَٱلرَّابِعُ فِي ٱلْقِيَاسِ ، وَٱلْخَامِسُ فِي ٱلْفَرْعِ ٱلْمُلْحَقِ بِالْأَصْلِ .

كَشْفُ عُلُومِ ٱلْآخِرَةِ .

كَنْزُ ٱلْعُدَّةِ .

ٱللُّبَابُ ٱلْمُنْتَخَلُ فِي ٱلْجَدَلِ .

ٱلْقَوْلُ ٱلْجَمِيلُ فِي ٱلرَّدِّ عَلَى مَنْ غَيَّرَ ٱلْإِنْجِيلَ .

ٱلْفِكْرَةُ وَٱلْعِبْرَةُ .

فَوَاتِحُ ٱلسُّوَرِ .

ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلصَّالِحِ وَغَيْرِ ٱلصَّالِحِ ، ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ نَصِيحَةِ ٱلْمُلُوكِ .

ٱلْقَانُونُ ٱلْكُلِّيُّ .

قَانُونُ ٱلرَّسُولِ .

ٱلْقُرْبَةُ إِلَى ٱللهِ — عَزَّ وَجَلَّ — .

ٱلْقِسْطَاسُ ٱلْمُسْتَقِيمُ ، مُخْتَصَرٌ ، جَعَلَهُ مِيزَانًا لِإِدْرَاكِ حَقِيقَةِ ٱلْمَعْرِفَةِ .

الْمَكْنُونُ فِى الْأُصُولِ

مُسَلَّمُ السَّلَاطِينِ

نَصِيحَةُ الْمُلُوكِ : وَهُوَ الْمَشْهُورُ بِاسْمِ البِرِّ الْمَسْلُوكِ وَيُقَالُ : إِنَّ الْغَزَالِىَّ كَتَبَهُ فِى الْأَصْلِ بِالْفَارِسِيَّةِ ، ثُمَّ نَقَلَهُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، كَمَا يُقَالُ : إِنَّهُ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِى دُسَّتْ عَلَيْهِ ، وَيُسَمَّى أَيْضاً عُمْدَةَ الْمُحَقِّقِينَ ، وَبُرْهَانَ الْيَقِينِ .

يَاقُوتُ التَّأْوِيلِ ، فِى تَفْسِيرِ التَّنْزِيلِ ، وَهُوَ أَرْبَعُونَ مُجَلَّدًا .

غَايَةُ الْغَوْرِ فِى مَسَائِلِ الدَّوْرِ - أَلَّفَهَا فِى الْمَسْأَلَةِ السُّرَيْجِيَّةِ فِى عَدَمِ وُقُوعِ الطَّلَاقِ ، ثُمَّ رَجَعَ وَأَفْتَى بِوُقُوعِهِ .

غَوْرُ الدَّوْرِ فِى الْمَسْأَلَةِ الْمَذْكُورَةِ ، وَهُوَ الْمُخْتَصَرُ الْأَخِيرُ لَهَا ، أَلَّفَهُ بِبَغْدَادَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ .

جَامِعُ ٱلْحَقَائِقِ بِتَجْرِبَةِ ٱلْعَلَائِقِ .

زُهْدُ ٱلْفَاتِحِ .

مَدْخَلُ ٱلسُّلُوكِ ، إِلَى مَنَازِلِ ٱلْمُلُوكِ .

نُورُ ٱلشَّمْعَةِ ، فِي بَيَانِ ظُهْرِ ٱلْجُمُعَةِ .

حَقَائِقُ ٱلْعُلُومِ لِأَهْلِ ٱلْفُهُومِ .

فَضَائِلُ ٱلْقُرْآنِ .

ٱلْمَعَارِفُ ٱلْعَقْلِيَّةُ وَٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ .

أَسْرَارُ ٱلْحَجِّ فِي ٱلْفِقْهِ ٱلشَّافِعِيِّ .

مَحَكُّ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَنْطِقِ .

ٱلْمَقْصِدُ ٱلْأَسْنَى فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ ٱللهِ ٱلْحُسْنَى .

آدَابُ ٱلصُّوفِيَّةِ .

ٱلْحِكْمَةُ فِي مَخْلُوقَاتِ ٱللهِ .

خُلَاصَةُ ٱلتَّصَانِيفِ : أَلَّفَهُ بِٱللُّغَةِ ٱلْفَارِسِيَّةِ ، وَتَرْجَمَهُ مُحَمَّدٌ أَمِينٌ ٱلْكُرْدِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَأَلْفٍ هِجْرِيَّةً .

اَلدُّرَّةُ اَلْفَاخِرَةُ فِي كَشْفِ عُلُومِ اَلْآخِرَةِ .

اَلرِّسَالَةُ اَللَّدُنِّيَّةُ ، رِسَالَةٌ طُبِعَتْ مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ اَلرَّسَائِلِ .

اَلرِّسَالَةُ اَلْوَعْظِيَّةُ ، طُبِعَتْ مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ اَلرَّسَائِلِ .

اَلْقَوَاعِدُ اَلْعَشْرُ .

اَلْكَشْفُ وَالتَّبْيِينُ فِي غُرُورِ اَلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ، وَهُوَ اَلْمَطْبُوعُ عَلَى هَامِشِ تَنْبِيهِ اَلْمُغْتَرِّ لِلشَّعْرَانِيِّ .

اَلْمُرْشِدُ اَلْأَمِينُ إِلَى مَوْعِظَةِ اَلْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِحْيَاءِ عُلُومِ اَلدِّينِ ، وَقَدْ لَخَّصَ فِيهِ اَلْإِحْيَاءَ .

مُكَاشَفَةُ اَلْقُلُوبِ ، اَلْمُقَرِّبُ إِلَى حَضْرَةِ عَلَّامِ اَلْغُيُوبِ .

إِلْجَامُ اَلْعَوَامِّ عَنْ عِلْمِ اَلْكَلَامِ .

اَلِاقْتِصَادُ فِي اَلِاعْتِقَادِ .

عَقِيدَةُ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ .

اَلْمَضْنُونُ بِهِ عَلَى أَهْلِهِ ، وَيُسَمَّى أَيْضاً : اَلْأَجْوِبَةَ اَلْغَزَالِيَّةَ ، فِي اَلْمَسَائِلِ اَلْأُخْرَوِيَّةِ .

يَوَاقِيتُ ٱلْعُلُومِ بِالْفَارِسِيَّةِ .

ٱلْوَظَائِفُ فِي بَيَانِ ٱلْعُلُومِ .

ٱلنِّيَّةُ وَٱلْإِخْلَاصُ .

نِعْمَةُ ٱلْفَقِيرِ .

ٱلْمَنْهَجُ ٱلْأَعْلَى .

مَنْشَأُ ٱلرِّسَالَةِ فِي أَحْكَامِ ٱلزَّيْغِ وَٱلضَّلَالَةِ .

ٱلْمَوَاعِظُ فِي ٱلْأَحَادِيثِ ٱلْقُدْسِيَّةِ .

مِنْهَاجُ ٱلرَّشَادِ .

مِنْهَاجُ ٱلْمُتَعَلِّمِ .

مِنْهَاجُ ٱلْقَاصِدِينَ .

مَوَاهِبُ ٱلْبَاطِنِيَّةِ .

مَنَاهِجُ ٱلْعَارِفِينَ .

ٱلْمَنَازِلُ ٱلسَّائِرَةُ .

ٱلْمُنَادِي وَٱلصَّامِتُ .

ٱلْمَأْخَذُ فِي ٱلْخِلَافِ بَيْنَ ٱلْحَنَفِيَّةِ .

مَا لَابُدَّ مِنْهُ « فِي ٱلطَّهَارَةِ وَٱلصَّلَاةِ وَٱلصَّوْمِ » .

مَذْهَبُ أَهْلِ ٱلسَّلَفِ .

مَرَاقِي ٱلزُّلْفَى .

مُرْشِدُ ٱلطَّالِبِينَ .

ٱلْمَسَائِلُ ٱلْبَغْدَادِيَّةُ .

ٱلْمَصَالِحُ وَٱلْمَفَاسِدُ .

ٱلْمِصْبَاحُ فِي ٱلْعَقَائِدِ .

مُصْطَفَيَاتُ ٱلْأَنْوَارِ .

مُعْتَادُ ٱلْعِلْمِ .

ٱلْمُعْتَقَدُ .

ٱلْمِعْرَاجُ .

مِعْيَارُ ٱلنَّظَرِ .

مَغَالِيطُ ٱلْمَغْرُورِينَ .

مُعْضِلُ ٱلْخِلَافِ .

ٱلْمَقَاصِدُ .

مَقَامَاتُ ٱلْعُلَمَاءِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْخُلَفَاءِ وَٱلْأُمَرَاءِ .

كَنْزُ ٱلْقُومِ وَٱلسِّرُّ ٱلْمَكْتُومُ .

ٱلْكَافِي فِي ٱلْعِقْدِ ٱلصَّافِي .

ٱلْفُتُوحُ ٱلرَّبَّانِيُّ فِي نَفْخِ ٱلرُّوحِ ٱلْإِنْسَانِيِّ .

ٱلْغَايَةُ وَٱلنِّهَايَةُ ، وَهِيَ مَجْمُوعَةُ قَصَائِدَ فِي مَدْحِ ٱلرَّسُولِ — عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ —

عُدَّةُ ٱلْعِبَادِ لِيَوْمِ ٱلْمَعَادِ

عَقِيدَةُ ٱلصَّبَاحِ

عُنْقُودُ ٱلْمُخْتَصَرِ .

ٱلْعُنْوَانُ .

زَادُ ٱلْآخِرَةِ .

تَدْلِيسُ إِبْلِيسَ .

ٱلتَّجْرِيدُ فِي ٱلتَّوْحِيدِ .

ٱلتَّأْوِيلَاتُ .

ٱلْجَوْهَرُ وَٱلدُّرَرُ فِي ٱلتَّصَوُّفِ .

جَنَّةُ ٱلْأَسْمَاءِ .

حُجَّةُ ٱلْحَقِّ — ذَكَرَهُ فِي ٱلْمُنْقِذِ .

أَسْرَارُ ٱلْأَنْوَارِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ فِي ٱلْآيَاتِ ٱلْمُتْلُوَّةِ ٱلْقُرْآنِيَّةِ .

رُوحُ ٱلْأَشْبَاحِ .

أَخْلَاقُ ٱلْأَبْرَارِ وَٱلنَّجَاةُ مِنَ ٱلْاشْرَارِ .

***

الضائع منها والمشهور والمخطوط

هَذَا بَيَانٌ مُفَصَّلٌ لِمَا وَجَدْنَاهُ مِنْ أَسْمَاءِ كُتُبِ ٱلْغَزَالِيِّ وَتَوَالِيفِهِ ، وَرِسَالَاتِهِ وَتَصَانِيفِهِ ، وَقَدْ ذَهَبَ أَكْثَرُهَا ، وَلَمْ يُعْرَفْ غَيْرُ أَبْرَزِهَا وَأَشْهَرِهَا ، وَبَيْنَهَا مَا لَا يَزَالُ مَخْطُوطًا فِي مُسْتَوْدَعِهِ بِالْمَكَاتِبِ ٱلْعَامَّةِ وَٱلْمَتَاحِفِ ، وَعَدِيدٌ مِنْهَا مَفْقُودٌ ضَائِعٌ ، أَوْ مُزَيَّفٌ مَنْسُوبٌ إِلَى ٱلْغَزَالِيِّ ، وَمَنْحُولٌ [1] وَمُصْطَنَعٌ .

(١) أى منتحل ، منسوب إلى غيره وهو له .

***

المضنون به على غير أهله

عَلَى أَنَّ هُنَاكَ كِتَابًا يُسَمَّى « ٱلْمَضْنُونَ بِهِ عَلَى غَيْرِ أَهْلِهِ » نُسِبَ إِلَى ٱلْغَزَالِيِّ وَكَانَ مَوْضِعَ إِتِّهَامٍ لَهُ ، سَنُفْرِدُ لَهُ حَدِيثًا خَاصًّا فِيمَا سَيَلِي مِنَ ٱلْكَلَامِ . وَقَدْ قَالَ ٱبْنُ ٱلسُّبْكِيِّ : ذَكَرَ ٱبْنُ ٱلصَّلَاحِ أَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ ، وَقَالَ : ـ مَعَاذَ ٱللهِ ـ أَنْ يَكُونَ لَهُ ، وَبَيَّنَ سَبَبَ كَوْنِهِ مُخْتَلَقًا مَوْضُوعًا [1] عَلَيْهِ ، وَقَدِ ٱشْتَمَلَ هَذَا ٱلْكِتَابُ عَلَى ٱلتَّصْرِيحِ بِقِدَمِ ٱلْعَالَمِ ، وَنَفْيِ عِلْمِ ٱلْقَدِيمِ بِالْجُزْئِيَّاتِ ، وَكُلٌّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ يُكَفِّرُ ٱلْغَزَالِيُّ قَائِلَهَا ، فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَقُولَهَا ؟ وَكَذَلِكَ صَرَّحَ صَاحِبُ كِتَابِ « تُحْفَةِ ٱلْإِرْشَادِ » بِأَنَّهُ مَوْضُوعٌ عَلَيْهِ ، وَقَدْ صَنَّفَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْمَالَقِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ خَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ كِتَابًا فِي ٱلرَّدِّ عَلَيْهِ .

***

شرح الاحياء

وَلَا يَزَالُ كِتَابُهُ « إِحْيَاءُ عُلُومِ ٱلدِّينِ » أَشْهَرَ

(١) موضوعا عليه : أى مكذوبا عليه .

تَوَالِيفِهِ وَأَرْوَعَهَا ، وَأَكْبَرَهَا قِيمَةً ، وَلَا يَزَالُ النَّاسُ مُنْتَفِعِينَ بِهِ ، رُوَّادَ الْخَيْرِ مِنْ قِرَاءَتِهِ ، مُنْتَجِعِي[1] نُجْعَتِهِ ، وَلَا عَجَبَ ، فَقَدْ أَحْدَثَ الْكِتَابُ دَوِيًّا ، وَتَرَكَ مِنْ بَعْدِ الْغَزَالِيِّ ضَجَّةً كَبِيرَةً ، وَجَلَبَ أَنْصَارًا لَهُ وَخُصُومًا عَلَيْهِ ، وَطَلَبَ خَلْقٌ كَثِيرٌ الزُّلْفَى إِلَيْهِ بِشُرُوحٍ يُقَدِّمُونَهَا لِمَا حَوَى مِنَ الْمَسَائِلِ ، وَالْتَمَسَ غَيْرُهُمْ خِدْمَتَهُ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِ بِتَذْيِيلَاتٍ[2] لَهُ ، وَإِضَافَاتٍ عَلَيْهِ ، وَمُخْتَصَرَاتٍ فِيهِ .

***

مختصروه

وَيُقَالُ : إِنَّ أَوَّلَ مَنِ اخْتَصَرَهُ هُوَ أَخُوهُ الْمُلَقَّبُ بِأَبِي الْفُتُوحِ أَحْمَدَ ابْنِ مُحَمَّدٍ الْغَزَالِيِّ ، الْمُتَوَفَّى بِقَزْوِينَ سَنَةَ عِشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، أَيْ عَاشَ بَعْدَ الْغَزَالِيِّ خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا ، وَقَدْ سَمَّى مُوجَزَهُ فِيهِ « لُبَابَ الْإِحْيَاءِ »

---

(١) منتجعى نجعته : الانتجاع طلب الكلأ فى موضعه ، والنجعة اسم من الانتجاع ، والمراد : الانتفاع بما أودع فيه من العلم والتصوف .

(٢) تذييلات : جمع تذييل : وهو ما يكتب فى آخر الكتاب زيادة على ما فيه .

وَاخْتَصَرَهُ أَحْمَدُ بْنُ مُوسَى الْمَوْصِلِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ الْيَمَنِيُّ وَيَحْيَى ابْنُ أَبِي الْخَيْرِ الْيَمَنِيُّ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ عُثْمَانَ الْبَلْخِيُّ ، وَسَمَّاهُ « عَيْنَ الْعِلْمِ » وَعَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَلِيٍّ الْخَطِيبُ الْمَرَاغِيُّ وَسَمَّاهُ « لُبَابَ الْإِحْيَاءِ » وَالشَّمْسُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ جَعْفَرٍ الْعَجْلُونِيُّ الْمَشْهُورُ بِالْبِلَالِيِّ وَهُوَ شَيْخُ «خَانِقَاه» سَعِيدِ السُّعَدَاءِ بِمِصْرَ ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ عِشْرِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ ، وَقَدْ قَالَ فِيهِ الْحَافِظُ السَّخَاوِيُّ : إِنَّهُ أَحْسَنُ الْمُخْتَصَرَاتِ .

وَقَدْ اخْتَصَرَهُ الْجَلَالُ السُّيُوطِيُّ الْحَافِظُ ، وَآخَرُونَ نَحْسَبُ أَقْرَبَهُمْ عَهْدًا إِلَى عَصْرِنَا الشَّيْخَ مُحَمَّدًا جَمَالَ الدِّينِ الْقَاسِمِيَّ الدِّمَشْقِيَّ ، وَسَمَّاهُ مَوْعِظَةَ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ ، وَذَكَرَ فِي مُقَدِّمَتِهِ أَنَّهُ تَذَاكَرَ يَوْمًا مَعَ حَكِيمٍ إِمَامٍ بَعْدَ أَنْ بَحَثَ طَوِيلًا عَنْ كِتَابٍ نَفِيسٍ يَصِحُّ مِنْهُ الْإِيجَازُ وَالِاخْتِصَارُ وَالِاقْتِبَاسُ ، فَقَالَ

لَهُ ٱلْإِمَامُ مُتَأَسِّفاً ، إِنَّ هَذَا ٱلْمَوْضُوعَ لَمْ يُبَرِّزْ فِيهِ أَحَدٌ ، إِلَّا أَنَّ أَحْسَنَ مَا لَدَيْنَا لِذَلِكَ هُوَ ٱلْإِحْيَاءُ بَعْدَ تَجْرِيدِهِ ، وَٱلْإِمَامُ ٱلَّذِي عَنَاهُ ٱلشَّيْخُ هُوَ ٱلْأُسْتَاذُ ٱلْإِمَامُ . ٱلْمَغْفُورُ لَهُ ٱلْمُصْلِحُ ٱلْخَالِدُ ٱلشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ مُفْتِي ٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ ، وَكَانَ ٱلشَّيْخُ ٱلْقَاسِمِيُّ ٱلدِّمَشْقِيُّ قَدِ ٱنْحَدَرَ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ يَوْمَئِذٍ وَنَزَلَ فِي ضِيَافَةِ ٱلْإِمَامِ .

***

إتحاف السادة المتقين

وَهَذَا ٱلْمُخْتَصَرُ ٱلْقَيِّمُ ٱلْحَسَنُ مَطْبُوعٌ فِي جُزْأَيْنِ . وَمِمَّنْ تَوَلَّوْا شَرْحَ كِتَابِ ٱلْإِحْيَاءِ ، عُمْدَةُ ٱلْمُحَقِّقِينَ ، ٱلسَّيِّدُ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلزَّبِيدِيُّ ٱلْمَشْهُورُ بِمُرْتَضَى ، وَقَدْ سَمَّاهُ : إِتْحَافَ ٱلسَّادَةِ ٱلْمُتَّقِينَ بِشَرْحِ أَسْرَارِ إِحْيَاءِ عُلُومِ ٱلدِّينِ ، وَهُوَ ٱلْكِتَابُ ٱلْمُمْتِعُ ٱلَّذِي رَجَعْنَا إِلَيْهِ ، وَأَخَذْنَا عَنْهُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ هَذَا ٱلْكِتَابِ .

وَلَعَلَّ مِنْ أَلْطَفِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ مُقَدِّمَتُهُ ، وَأَجْمَلِ أَسَالِيبِ ٱلِاعْتِذَارِ عِنْدَ ٱلْمُؤَلِّفِينَ ٱعْتِذَارُهُ ، وَنَحْنُ مُقْتَبِسُوهَا هُنَا ، وَنَاقِلُو طَرَفٍ مِنْهَا ، إِعْجَاباً بِهَا وَتَمَثُّلاً وَتَأَسِّياً بِهَا (١) وَتَجَمُّلاً .

***

مقدمة شرحه

يَقُولُ ٱلسَّيِّدُ مُرْتَضَى — رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ — ، وَأَنَا مَعَ وَضْعِي هَذَا ٱلْكِتَابَ ، مَا أُبَرِّئُ نَفْسِي وَلَا كِتَابِي مِنْ خَلَلٍ (٢) وَرَيْبٍ ، وَلَا أَبِيعُهُ بِشَرْطِ بَرَاءَتِي مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ، بَلْ أَعْتَرِفُ بِكَمَالِ ٱلْقُصُورِ (٣) وَأَسْأَلُ ٱللهَ ٱلصَّفْحَ عَمَّا جَرَى بِهِ ٱلْقَلَمُ بِهَذِهِ ٱلسُّطُورِ ، وَأَقُولُ لِنَاظِرِ جَمْعِي هَذَا ، لَا تَأْخُذَنَّ (٤) فِي نَفْسِكَ عَلَى شَيْءٍ وَجَدْتَهُ فِيهِ مُغَايِرًا لِلْفَهْمِ ، فَإِنَّ ٱلْفُهُومَ قَدْ تَخْتَلِفُ ، وَمَنْ صَنَّفَ قَدِ ٱسْتَهْدَفَ (٥) ، وَأَعْتَذِرُ لَكَ أَيُّهَا ٱلْمُنْصِفُ

(١) تأسيا : اقتداء . (٢) خلل : نقص وتقصير ، والريب : الشك .
(٣) القصور : العجز . (٤) لا تأخذن فى نفسك : أى لا تتأثرن .
(٥) استهدف : صار هدفا وغرضا للانتقاد والانتقاص .

مِنْ خَطَإٍ أَوْ زَلَّةٍ ، فَالْجَوَادُ قَدْ يَكْبُو ، وَالْفَتَى قَدْ يَصْبُو [١] ، وَلَا يُعَدُّ إِلَّا فُضُولَاتُ الْعَارِفِ ، وَتَدْخُلُ الزُّيُوفُ عَلَى أَعْلَى الصَّيَارِفِ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ أَنَّ التَّعْقِيبَ عَلَى الْكُتُبِ وَلَا سِيَّمَا الطَّوِيلَةُ ، سَهْلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَأْلِيفِهَا ، وَوَضْعِهَا وَتَرْصِيفِهَا [٢] ، كَمَا يُشَاهَدُ فِي الْأَبْنِيَةِ الْقَدِيمَةِ ، وَالْهَيَاكِلِ الْعَظِيمَةِ ، حَيْثُ يَعْتَرِضُ عَلَى بَانِيهَا ، مَنْ عَرِيَ فِي فَنِّهِ عَنِ الْقُوَى وَالْقُدَرِ ، بِحَيْثُ لَا يَقْدِرُ عَلَى وَضْعِ حَجَرٍ عَلَى حَجَرٍ . هَذَا جَوَابِي عَمَّا يَرِدُ عَلَى كِتَابِي . فَقَدْ كَتَبَ أُسْتَاذُ الْبُلَغَاءِ ، الْقَاضِي الْفَاضِلُ عَبْدُ الرَّحِيمِ الْبَيْسَانِيُّ إِلَى الْعِمَادِ الْكَاتِبِ الْأَصْبَهَانِيِّ ، مُعْتَذِرًا عَنْ كَلَامٍ اسْتَدْرَكَهُ [٣] عَلَيْهِ : إِنَّهُ وَقَعَ لِي شَيْءٌ ، وَلَا أَدْرِي أَوَقَعَ لَكَ أَمْ لَا ؟ وَهَأَنَا أُخْبِرُكَ بِهِ ، وَذَلِكَ أَنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ إِنْسَانٌ

(١) يصبو : يميل ويحن . والمراد ، أن كل أحد عرضة للخطإ والنسيان وما سمى الإنسان إلا لنسيه ولا القلب الا أنه يتقلب

(٢) ترصيفها : احكامها . (٣) استدركه عليه : أخذه عليه .

كِتَاباً فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ فِي غَدِهِ : لَوْ غُيِّرَ هَذَا لَكَانَ أَحْسَنَ وَلَوْ زِيدَ لَكَانَ يُسْتَحْسَنُ ، وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ ، وَلَوْ تُرِكَ هَذَا لَكَانَ أَجْمَلَ ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِيلَاءِ النَّقْصِ عَلَى جُمْلَةِ الْبَشَرِ ، فَأَرْجُو مُسَامَحَةَ نَاظِرِيهِ ، فَهُمْ أَهْلُوهَا ، وَأُؤَمِّلُ جَمِيلَهُمْ فَهُمْ أَحْسَنُ النَّاسِ وُجُوهاً . . . »

وَتَوَلَّى شَرْحَهُ كَذَلِكَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ بْنُ شَيْخِ ابْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْعَيْدَرُوسُ بَا عَلَوِي وَسَمَّاهُ « تَعْرِيفَ الْاحْيَاءِ بِفَضَائِلِ الْإِحْيَاءِ » .

***

الرد على نقدة الاحياء

قَدْ تَعَرَّضَ أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ لِلْغَزَالِيِّ فِي كِتَابِ الْإِحْيَاءِ ، فَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ فِيهِ أَشْيَاءَ قَالَ بِهَا ، وَأَخَذُوا عَلَيْهِ مَآخِذَ عَدَّدُوهَا ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ النَّقَدَةِ الَّذِينَ اسْتَنْكَرُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْمَازَرِيُّ ،

وَأَبُو ٱلْوَلِيدِ ٱلطُّرْطُوشِيُّ وَغَيْرُهُمَا . وَقَدْ تَنَاوَلَ ٱلسَّيِّدُ مُرْتَضَى ٱلزَّبِيدِيُّ ٱلْجَوَابَ عَلَى مَطَاعِنِهِمْ فِي فَصْلٍ خَاصٍّ نَرَى مِنَ ٱلْفَائِدَةِ وَٱلْإِنْصَافِ ٱقْتِبَاسَهُ هُنَا .

***

نقد المأزرى

أَمَّا ٱلْمَأْزَرِيُّ فَقَدْ قَالَ مُجِيباً لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ وَحَالِ كِتَابِهِ ـ ٱلْإِحْيَاءِ ـ مَانَصُّهُ :

هَذَا ٱلرَّجُلُ — يَعْنِي ٱلْغَزَالِيَّ — وَإِنْ لَمْ أَكُنْ قَرَأْتُ كِتَابَهُ ، فَقَدْ رَأَيْتُ تَلَامِذَتَهُ وَأَصْحَابَهُ ، فَكُلٌّ مِنْهُمْ يَحْكِي لِي نَوْعًا مِنْ حَالِهِ وَطَرِيقَتِهِ ، أَسْتَشِفُّ مِنْهَا سِيرَتَهُ وَمَذْهَبَهُ ، فَقَامَ لِي ذَلِكَ مَقَامَ ٱلْعِيَانِ ، فَأَنَا أَقْتَصِرُ عَلَى ذِكْرِ حَالِ ٱلرَّجُلِ وَحَالِ كِتَابِهِ ، وَذِكْرِ جُمَلٍ مِنْ مَذْهَبِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَٱلْفَلَاسِفَةِ وَٱلْمُتَصَوِّفَةِ ، وَأَصْحَابِ ٱلْإِشَارَاتِ ، فَإِنَّ كِتَابَهُ مُتَرَدِّدٌ

بَيْنَ هَذِهِ الطَّوَائِفِ لَا يَعْدُوهَا ، ثُمَّ أُتْبِعُ ذَلِكَ بِذِكْرِ حَمْلِ (١) أَهْلِ مَذْهَبٍ عَلَى أَهْلِ مَذْهَبٍ آخَرَ ، ثُمَّ أُبِينُ عَنْ طُرُقِ الْغُرُورِ ، فَأَكْشِفُ عَمَّا دُفِنَ مِنْ خَيَالِ الْبَاطِلِ لِيُحْذَرَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي حِبَالِ صَائِدِهِ .

ثُمَّ أُثْنِي عَلَى الْغَزَالِيِّ بِالْفِقْهِ ، وَقَالَ : هُوَ بِالْفِقْهِ أَعْرَفُ مِنْهُ بِأُصُولِهِ . وَأَمَّا عِلْمُ الْكَلَامِ ، الَّذِي هُوَ أُصُولُ الدِّينِ ، فَإِنَّهُ صَنَّفَ فِيهِ أَيْضاً ، وَلَيْسَ بِالْمُسْتَبْحِرِ فِيهِ ، وَلَقَدْ فَطِنْتُ لِسَبَبِ عَدَمِ اسْتِبْحَارِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَرَأَ عِلْمَ الْفَلْسَفَةِ قَبْلَ اسْتِبْحَارِهِ فِي فَنِّ الْأُصُولِ ، فَكَسَبَتْهُ قِرَاءَةُ الْفَلْسَفَةِ جَرَاءَةً عَلَى الْمَعَانِي ، وَتَسْهِيلًا لِلْهُجُومِ عَلَى الْحَقَائِقِ ، لِأَنَّ الْفَلَاسِفَةَ تَمُرُّ مَعَ خَوَاطِرِهَا وَلَيْسَ لَهَا حُكْمُ شَرْعٍ يَزَعُهَا (٢) وَلَا تَخَافُ مِنْ مُخَالَفَةِ أَئِمَّةٍ تَتَّبِعُهَا .

---

(١) حمل الخ : كروره عليه وانتقاد مذهبه . (٢) يزعها : ينهاها ويزجرها .

وَعَرَّفَنِي بَعْضُ أَصْحَابِهِ أَنَّهُ كَانَ لَهُ عُكُوفٌ عَلَى رَسَائِلِ « إِخْوَانِ الصَّفَا » ، وَهِيَ إِحْدَى وَخَمْسُونَ رِسَالَةً ، وَمُصَنِّفُهَا فَيْلَسُوفٌ قَدْ خَاضَ فِي عِلْمِ الشَّرْعِ وَالنَّقْلِ ، فَمَزَجَ مَا بَيْنَ الْعِلْمَيْنِ ، وَذَكَرَ الْفَلْسَفَةَ وَحُسْنَهَا فِي قُلُوبِ أَهْلِ الشَّرْعِ بِآيَاتٍ يَتْلُوهَا عِنْدَهَا ، وَأَحَادِيثَ يَذْكُرُهَا .

ثُمَّ كَانَ فِي هَذَا الزَّمَانِ الْمُتَأَخِّرِ رَجُلٌ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ يُعْرَفُ بِابْنِ سِينَا ، مَلَأَ الدُّنْيَا تَأْلِيفًا فِي عِلْمِ الْفَلْسَفَةِ ، وَهُوَ فِيهَا إِمَامٌ كَبِيرٌ ، وَقَدْ أَدَّتْهُ قُوَّتُهُ فِي الْفَلْسَفَةِ إِلَى أَنْ حَاوَلَ رَدَّ أُصُولِ الْعَقَائِدِ إِلَيْهَا ، وَتَلَطَّفَ جُهْدَهُ حَتَّى تَمَّ لَهُ مَا لَمْ يَتِمَّ لِغَيْرِهِ ، وَقَدْ رَأَيْتُ جُمَلًا مِنْ دَوَاوِينِهِ .

وَرَأَيْتُ هَذَا الْغَزَالِيَّ يُعَوِّلُ عَلَيْهِ فِي أَكْثَرِ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ مِنَ الْفَلْسَفَةِ .

« وَأَمَّا مَذْهَبُ الصُّوفِيَّةِ فَلَسْتُ أَدْرِى عَلَى مَنْ عَوَّلَ فِيهَا ؟ »

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ عَوَّلَ عَلَى أَبِى حَيَّانَ التَّوْحِيدِىِّ ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى تَوْهِيَةِ (١) أَكْثَرِ مَا فِى الْإِحْيَاءِ مِنَ الْاحَادِيثِ فَقَالَ : عَادَةُ الْمُتَوَرِّعِينَ أَلَّا يَقُولُوا : قَالَ مَالِكٌ ، قَالَ الشَّافِعِىُّ ، فِيمَا لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَهُمْ !

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى أَنَّهُ يَسْتَحْسِنُ أَشْيَاءَ مَبْنَاهَا عَلَى مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ ، مِثْلُ قَوْلِهِ فِى قَصِّ الْأَظْفَارِ ، أَنْ تَبْدَأَ بِالسَّبَّابَةِ ، لِأَنَّهَا لَهَا الْفَضْلُ عَلَى بَقِيَّةِ الْأَصَابِعِ لِكَوْنِهَا الْمُسَبِّحَةَ ، إِلَى آخِرِ مَاذَكَرَهُ مِنَ الْكَيْفِيَّةِ وَمَا ذَكَرَ فِيهِ أَثَرًا ، وَقَالَ : مَنْ مَاتَ بَعْدَ بُلُوغِهِ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الْبَارِىَ قَدِيمٌ مَاتَ مُسْلِماً إِجْمَاعًا ، وَمَنْ تَسَاهَلَ فِى حِكَايَةِ هَذَا الْإِجْمَاعِ الَّذِى الْأَقْرَبُ أَنْ يَكُونَ الْإِجْمَاعُ فِيهِ بِعَكْسِ مَا قَالَ ، حَقِيقٌ أَلَّا يُوثَقَ بِمَا نَقَلَ .

(١) توهية : تضعيف .

وَقَدْ رَأَيْتُ لَهُ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ فِي عُلُومِهِ هَذِهِ مَالَا يَسُوغُ أَنْ يُودَعَ فِي كِتَابٍ ، فَلَيْتَ شِعْرِي ، أَحَقٌّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ ؟ فَإِنْ كَانَ بَاطِلًا فصَدَقَ . وَإِنْ كَانَ حَقًّا وَهُوَ مُرَادُهُ بِلَا شَكٍّ فَلِمَ لَا يُودَعُ فِي ٱلْكُتُبِ ؟ أَلِغُمُوضِهِ وَدِقَّتِهِ ؟ فَإِنْ كَانَ هُوَ فَهِمَهُ ، فَمَا ٱلْمَانِعُ مِنْ أَنْ يَفْهَمَهُ غَيْرُهُ ؟ .

هَذَا هُوَ مُلَخَّصُ كَلَامِ ٱلْمَازِرِيِّ .

***

نقد الطرطوشي

وَيَقُولُ ٱلسَّيِّدُ مُرْتَضَى ، وَقَدْ سَبَقَهُ إِلَى قَرِيبٍ مِنْهُ مِنَ ٱلْمَالِكِيَّةِ ٱلْإِمَامُ أَبُو ٱلْوَلِيدِ ٱلطُّرْطُوشِيُّ نَزِيلُ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، فَذَكَرَ فِي رِسَالَةٍ إِلَى ٱبْنِ مُظَفَّرٍ : فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَمْرِ ٱلْغَزَالِيِّ ، فَقَدْ رَأَيْتُ ٱلرَّجُلَ وَكَلَّمْتُهُ ، فَرَأَيْتُهُ مِنْ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ ، قَدْ نَهَضَتْ بِهِ فَضَائِلُهُ ، وَٱجْتَمَعَ فِيهِ ٱلْعَقْلُ وَٱلْفَهْمُ ، وَمُمَارَسَةُ ٱلْعُلُومِ طُولَ عُمُرِهِ ، وَكَانَ عَلَى ذَلِكَ طُولَ زَمَانِهِ ، ثُمَّ بَدَا لَهُ

عَنْ طَرِيقِ ٱلْعُلَمَاءِ ، فَدَخَلَ فِي غُمَارِ [١] ٱلْعُمَّالِ ، ثُمَّ تَصَوَّفَ فَهَجَرَ ٱلْعُلُومَ وَأَهْلَهَا ، وَدَخَلَ فِي عُلُومِ ٱلْخَوَاطِرِ وَأَرْبَابِ ٱلْقُلُوبِ ، وَوَسَاوِسِ ٱلشَّيْطَانِ ، ثُمَّ شَابَهَا [٢] بِآرَاءِ ٱلْفَلَاسِفَةِ وَرُمُوزِ ٱلْحَلَّاجِ [٣] . وَجَعَلَ يَطْعَنُ عَلَى ٱلْفُقَهَاءِ وَٱلْمُتَكَلِّمِينَ ، فَلَقَدْ كَادَ يَنْسَلِخُ مِنَ ٱلدِّينِ .

فَلَمَّا عَمِلَ ٱلْإِحْيَاءَ عَمَدَ يَتَكَلَّمُ فِي عُلُومِ ٱلْأَحْوَالِ وَمَرَامِزِ ٱلصُّوفِيَّةِ ، وَكَانَ غَيْرَ أَنِيسٍ بِهَا وَلَا خَبِيرٍ بِمَعْرِفَتِهَا ، فَسَقَطَ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ ، وَشَحَنَ كِتَابَهُ بِٱلْمَوْضُوعَاتِ [٤] .

وَهَذِهِ خُلَاصَةُ نَقْدِ ٱلطُّرْطُوشِيِّ .

---

(١) فى غمار العمال : أى فى كثرتهم وجمعهم المتكاثف . (٢) شابها : خلطها ومزجها . (٣) الحلاج : هو ابن الحلاج منصور التميمى الذى كان يدعى الألوهية فكان يشير الى جبته ويقول : ماتحت هذه الجبة الا الله يعنى نفسه ، وهو مذهب يقال له الحلول . (٤) الموضوعات : الأحاديث المختلقة .

***

دفاع ابن السبكى

وَقَدْ تَوَلَّى ٱبْنُ ٱلسُّبْكِيِّ رَدَّ هَذِهِ ٱلنَّقَدَاتِ ٱلْمُوَجَّهَةِ إِلَى ٱلْغَزَالِيِّ فَقَالَ : وَأَنَا أَتَكَلَّمُ عَلَى كَلَامِهِمَا - يَعْنِي ٱلْمَازَرِيَّ وَٱلطُّرْطُوشِيَّ - ثُمَّ أَذْكُرُ كَلَامَ غَيْرِهِمَا وَأَتَعَقَّبُهُ (١) أَيْضاً ، وَأَجْتَهِدُ أَلَّا أَتَعَدَّى طَوْرَ ٱلْإِنْصَافِ ، وَأَسْأَلُ ٱللهَ ٱلْإِمْدَادَ بِذَلِكَ وَٱلْإِسْعَافَ ، فَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ مُعَاصِرًا لَنَا وَلَا قَرِيباً ، وَلَا بَيْنَنَا إِلَّا وُصْلَةُ (٢) ٱلْعِلْمِ وَدَعْوَةُ ٱلْخَلْقِ إِلَى جَنَابِ ٱلْحَقِّ ، فَأَقُولُ :

« أَمَّا ٱلْمَازَرِيُّ : فَقَبْلَ ٱلْخَوْضِ مَعَهُ فِي ٱلْكَلَامِ أُقَدِّمُ لَكَ مُقَدَّمَةً ، وَهِيَ أَنَّ هَذَا ٱلرَّجُلَ ، كَانَ مِنْ أَذْكَى ٱلْمَغَارِبَةِ قَرِيحَةً ، وَأَحَدِّهِمْ ذِهْناً ، بِحَيْثُ ٱجْتَرَأَ عَلَى شَرْحِ « ٱلْبُرْهَانِ » لِإِمَامِ ٱلْحَرَمَيْنِ ، وَهُوَ لُغْزُ ٱلْأُمَّةِ ، ٱلَّذِي لَا يَحُومُ حَوْلَ حِمَاهُ ، وَلَا يَدْنُو مِنْ نَحْوِ أُثْرِهِ إِلَّا غَوَّاصٌ عَلَى ٱلْمَعَانِي ، ثَاقِبُ ٱلذِّهْنِ ،

(١) أتعقبه : أتتبعه وأبين أغلاطه (٢) وصلة العلم : بضم الواو : أى الاتصال .

فَبَرَّزَ [١] فِي الْعِلْمِ ، وَكَانَ مُصَمِّمًا عَلَى مَقَالَاتِ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ ، جَلِيلِهَا وَدَقِيقِهَا ، لَا يَتَعَدَّاهَا خُطْوَةً ، وَيُبَدِّعُ [٢] مَنْ خَالَفَهُ ، وَلَوْ فِي النَّزْرِ الْيَسِيرِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مَالِكِيُّ الْمَذْهَبِ ، شَدِيدُ الْمَيْلِ إِلَى مَذْهَبِهِ ، كَثِيرُ الْمُنَاضَلَةِ [٣] عَنْهُ .

وَهَذَانِ الْإِمَامَانِ ، أَعْنِي إِمَامَ الْحَرَمَيْنِ وَتِلْمِيذَهُ الْغَزَالِيَّ ، وَصَلَا مِنَ التَّحْقِيقِ وَسَعَةِ الدَّائِرَةِ فِي الْعِلْمِ إِلَى الْمَبْلَغِ الَّذِي يَعْلَمُ كُلُّ مُنْصِفٍ بِأَنَّهُ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ أَحَدٌ بَعْدَهُمَا ، وَرُبَّمَا خَالَفَا أَبَا الْحَسَنِ فِي مَسَائِلَ مِنْ عِلْمِ الْكَلَامِ ، وَالْقَوْمُ - أَعْنِي الْأَشَاعِرَةَ ، لَا سِيَّمَا الْمَغَارِبَةُ مِنْهُمْ - يَسْتَصْعِبُونَ هَذَا الصُّنْعَ ، وَلَا يَرَوْنَ مُخَالَفَةَ أَبِي الْحَسَنِ فِي نَقِيرٍ [٤] وَلَا قِطْمِيرٍ ، وَرُبَّمَا ضَعَّفَا مَذْهَبَ مَالِكٍ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ ، كَمَا فَعَلَا

---

(١) برز فى العلم : فاق أقرانه فيه . (٢) يبدع من خالفه : ينسبه الى البدعة . (٣) المناضلة : الدفاع . (٤) النقير والقطمير : كناية عن الشىء القليل .

فِي مَسْأَلَةِ ٱلْمَصَالِحِ [١] ٱلْمُرْسَلَةِ ، وَعِنْدَ ذِكْرِ ٱلتَّرْجِيحِ بَيْنَ ٱلْمَذَاهِبِ ، فَهَـذَانِ ٱلْأَمْرَانِ يَغُصُّ [٢] ٱلْمَازَرِيُّ مِنْهُمَا ، وَيَنْضَمُّ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ ٱلطُّرُقَ شَتَّى مُخْتَلِفَةٌ ، وَقَلَّمَا رَأَيْتُ سَالِكَ طَرِيقٍ إِلَّا وَٱسْتَقْبَحَ ٱلطَّرِيقَ ٱلَّتِي لَمْ يَسْلُكْهَا ، وَلَمْ يُفْتَحْ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِهَا ، وَيَضَعُ [٣] عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِهَا ، لَا يَنْجُو مِنْ ذَلِكَ إِلَّا ٱلْقَلِيلُ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ وَٱلتَّمَكُّنِ ، وَلَقَدْ وَجَدْتُ هَذَا وَٱعْتَبَرْتُهُ ، حَتَّى فِي مَشَايِخِ ٱلطَّرِيقَةِ ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ طَرِيقَةَ ٱلْغَزَالِيِّ هِيَ ٱلتَّصَوُّفُ وَٱلتَّعَمُّقُ فِي ٱلْحَقَائِقِ ، وَمَحَبَّةُ إِشَارَاتِ ٱلْقَوْمِ ، وَطَرِيقَةُ ٱلْمَازَرِيِّ ٱلْجُمُودُ عَلَى ٱلْعِبَارَاتِ ٱلظَّاهِرَةِ وَٱلْوُقُوفُ مَعَهَا ، وَٱلْكُلُّ حَسَنٌ ، وَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ ، إِلَّا أَنَّ ٱخْتِلَافَ ٱلطَّرِيقَيْنِ ، يُوجِدُ تَبَايُنَ ٱلْمِزَاجَيْنِ وَبُعْدَ مَا بَيْنَ ٱلْقَلْبَيْنِ ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ ٱنْضَمَّ إِلَيْهِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ

---

(١) المصالح المرسلة : المسائل القياسية التى اختلف فيها الأئمة ولم يقفوا فيها على علة . (٢) يغص : المراد يهم ويحزن . (٣) يضع الخ : يحط من قدرهم

ٱلْمُخَالَفَةِ فِي ٱلْمَذْهَبِ . وَتَوَهَّمَ ٱلْمَأْزِرِيُّ أَنَّهُ يَضَعُ مِنْ مَذْهَبِهِ ، وَأَنَّهُ يُخَالِفُ شَيْخَ ٱلسُّنَّةِ ٱلْأَشْعَرِيَّ ، حَتَّى رَأَيْتُهُ - أَعْنِي ٱلْمَأْزِرِيَّ - قَالَ فِي شَرْحِ ٱلْبُرْهَانِ فِي مَسْأَلَةٍ خَالَفَ فِيهَا إِمَامُ ٱلْحَرَمَيْنِ أَبَا ٱلْحَسَنِ ٱلْأَشْعَرِيَّ لَيْسَتْ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ ، وَلَا ٱلْمَسَائِلِ ٱلْمُهِمَّةِ فِي خَطَإِ شَيْخِ ٱلسُّنَّةِ أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱلْأَشْعَرِيِّ ، فَهُوَ ٱلْمُخْطِئُ ، وَأَطَالَ فِي هَذَا ، وَقَالَ فِي ٱلْكَلَامِ عَلَى مَاهِيَّةِ ٱلْعَقْلِ فِي أَوَائِلِ ٱلْبُرْهَانِ : وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ ٱلْأَشْعَرِيَّ يَقُولُ : ٱلْعَقْلُ : ٱلْعِلْمُ ، وَإِنَّ ٱلْإِمَامَ رَضِيَ مَقَالَةَ ٱلْحَرِثِ ٱلْمُحَاسِبِيِّ : إِنَّهُ غَرِيزَةٌ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي ٱلشَّامِلِ أَنْكَرَهَا ، إِنَّهُ إِنَّمَا رَضِيَهَا لِكَوْنِهِ فِي آخِرِ عُمُرِهِ قَرَعَ بَابَ قَوْمٍ آخَرِينَ - يَعْنِي ٱلْفَلَاسِفَةَ - فَلَيْتَ شِعْرِي مَا فِي هَذِهِ ٱلْمَقَالَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ !

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ - أَعْنِي ٱلْمَأْزِرِيَّ - فِي آخِرِ كَلَامِهِ ، ٱعْتَرَفَ بِأَنَّ ٱلْإِمَامَ لَا يَنْحُو نَحْوَهُمْ ، وَأَخَذَ

يُخِلُّ مِنْ قَدْرِهِ ، وَلَهُ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ كَثِيرٌ ، فَهَذِهِ أُمُورٌ تُوجِبُ التَّنَافُرَ بَيْنَهُمْ ، وَتَحْمِلُ الْمُنْصِفَ عَلَى أَلَّا يَسْمَعَ كَلَامَ الْمَأْزَرِيِّ فِيهِمَا إِلَّا بَعْدَ حُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ .

وَلَا تَحْسَبْ أَنَّا نَفْعَلُ ذَلِكَ إِزْرَاءً [1] بِالْمَأْزَرِيِّ وَحَطًّا مِنْ قَدْرِهِ ، لَا وَاللهِ ، بَلْ تَبْيِينًا لِطَرِيقِ الْوَهْمِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ بَيَانٌ لِعُذْرِهِ ، فَإِنَّ الْمَرْءَ إِذَا ظَنَّ بِشَخْصٍ سُوءًا قَلَّمَا أَمْعَنَ النَّظَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي كَلَامِهِ ، بَلْ يَصِيرُ بِأَدْنَى لَمْحَةٍ [2] يَحْمِلُ أَمْرَهُ عَلَى السُّوءِ ، وَيَكُونُ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ ، إِلَّا مَنْ وَفَّقَ اللهُ ، فَبَرِئَ مِنَ الْأَغْرَاضِ ، وَلَمْ يَظُنَّ إِلَّا الْخَيْرَ ، وَتَوَقَّفَ عِنْدَ سَمَاعِ كُلِّ كَلِمَةٍ ، وَذَلِكَ مَقَامٌ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ إِلَّا الْآحَادُ مِنَ الْخَلْقِ ، وَلَيْسَ الْمَأْزَرِيُّ بِالنِّسْبَةِ لِهَذَيْنِ الْإِمَامَيْنِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَا فَعَلَهُ فِي حَقِّ الْإِمَامِ فِي مَسْأَلَةِ الِاسْتِرْسَالِ ،

---

(١) إزراء بالمأزرى : أى لادخال العيب عليه والضعة منه (٢) اللمحة : اختلاس النظر الى الشيء

وَكَيْفَ وَهَمَ [1] عَلَى ٱلْإِمَامِ ؟ وَفَهِمَ عَنْهُ مَا لَا تَفْهَمُهُ ٱلْعَوَامُّ ، وَفَوْقَ نَحْوِهِ سَهْمَ ٱلْمَلَامِ ، فَإِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ مَا ٱدَّعَاهُ أَنَّهُ عَرَفَ مَذْهَبَهُ ، بِحَيْثُ قَامَ لَهُ مَقَامَ ٱلْعِيَانِ ، كَلَامٌ عَجِيبٌ ، فَإِنَّا لَا نُجِيزُ أَنْ نَحْكُمَ عَلَى عَقِيدَةِ أَحَدٍ بِهَذَا ٱلْحُكْمِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ إِلَّا ٱللهُ ، وَلَنْ تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ ٱلْقَرَائِنُ وَٱلْأَخْبَارُ أَبَدًا .

وَقَدْ وَقَفْنَا نَحْنُ عَلَى غَالِبِ كَلَامِ ٱلْغَزَالِيِّ ، وَتَأَمَّلْنَا كُتُبَ أَصْحَابِهِ ٱلَّذِينَ شَاهَدُوهُ وَتَنَاقَلُوا أَخْبَارَهُ ، وَهُمْ بِهِ أَعْرَفُ مِنَ ٱلْمَأْزِرِيِّ ، ثُمَّ لَمْ تَنْتَهِ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ غَلَبَةِ ٱلظَّنِّ بِأَنَّهُ رَجُلٌ أَشْعَرِيُّ ٱلْعَقِيدَةِ خَاضَ فِي كَلَامِ ٱلصُّوفِيَّةِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ « وَذَكَرَ جُمَلًا مِنْ مَذَاهِبِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَٱلْفَلَاسِفَةِ وَٱلْمُتَصَوِّفَةِ وَأَصْحَابِ ٱلْإِشَارَاتِ » فَأَقُولُ : إِنْ عَنَى بِٱلْمُوَحِّدِينَ ٱلَّذِينَ يُوَحِّدُونَ ٱللهَ

(١) وهم على الامام : توهم فى قوله غير الحق.

فَالْمُسْلِمُونَ أَوَّلُ دَاخِلٍ فِيهِمْ ، ثُمَّ عَطْفُ الصُّوفِيَّةِ عَلَيْهِمْ يُوهِمُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مُسْلِمِينَ ، وَحَاشَ لِلّٰهِ . وَإِنْ عَنَى بِهِمْ أَهْلَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللّٰهِ فَهُمْ مِنْ خَيْرِ فِرَقِ الصُّوفِيَّةِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَيْرِ الْمُسْلِمِينَ ، فَمَا وَجْهُ عَطْفِ الصُّوفِيَّةِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذٰلِكَ ؟ وَإِنْ أَرَادَ أَهْلَ الْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ الْمَنْسُوبَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى الِاتِّحَادِ وَالْحُلُولِ فَمَعَاذَ اللّٰهِ ، لَيْسَ الرَّجُلُ فِي هٰذَا الصَّوْبِ [1] وَهُوَ مُصَرِّحٌ بِتَكْفِيرِ هٰذِهِ الْفِئَةِ ، وَلَيْسَ فِي كِتَابِهِ شَيْءٌ مِنْ مُعْتَقَدَاتِهِمْ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : إِنَّهُ لَيْسَ بِالْمُتَبَحِّرِ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ ، فَأَنَا أُوَافِقُهُ عَلَى ذٰلِكَ ، لٰكِنِّي أَقُولُ : إِنَّ قَدَمَهُ فِيهِ رَاسِخٌ ، وَلٰكِنْ لَا بِالنِّسْبَةِ لِقَدَمِهِ فِي بَقِيَّةِ عُلُومِهِ ، هٰذَا ظَنِّي . وَأَمَّا قَوْلُهُ : إِنَّهُ اشْتَغَلَ بِالْفَلْسَفَةِ قَبْلَ اسْتِبْحَارِهِ فِي فَنِّ الْأُصُولِ ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذٰلِكَ ، بَلْ لَمْ يَنْظُرْ فِي

(١) الصوب : الجهة .

ٱلْفَلْسَفَةِ إِلَّا بَعْدَ أَنِ ٱسْتَبْحَرَ فِي فَنِّ ٱلْأُصُولِ ، وَقَدْ أَشَارَ فِي كِتَابِهِ « ٱلْمُنْقِذِ مِنَ ٱلضَّلَالِ » وَصَرَّحَ بِأَنَّهُ تَوَغَّلَ فِي عِلْمِ ٱلْكَلَامِ قَبْلَ ٱلْفَلْسَفَةِ .

ثُمَّ قَوْلُ ٱلْمَأْزَرِيِّ : قَرَأَ عِلْمَ ٱلْفَلْسَفَةِ قَبْلَ ٱسْتِبْحَارِهِ فِي عِلْمِ ٱلْأُصُولِ ، بَعْدَ قَوْلِهِ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِٱلْمُسْتَبْحِرِ فِي ٱلْأُصُولِ ، كَلَامٌ يُنَاقِضُ أَوَّلُهُ آخِرَهُ ، وَأَمَّا دَعْوَاهُ أَنَّهُ تَجَرَّأَ عَلَى ٱلْمَعَانِي ، فَلَيْسَتْ لَهُ جَرَاءَةٌ إِلَّا حَيْثُ دَلَّهُ ٱلشَّرْعُ ، وَمُدَّعِي خِلَافِ ذَلِكَ لَا يَعْرِفُ ٱلْغَزَالِيَّ ، وَلَا يَدْرِي مَعَ مَنْ يَتَحَدَّثُ ؟ وَمِنَ ٱلْجَهْلِ بِحَالِهِ ، دَعْوَى أَنَّهُ ٱعْتَمَدَ عَلَى كُتُبِ أَبِي حَيَّانَ ٱلتَّوْحِيدِيِّ ، وَٱلْأَمْرُ بِخِلَافِ ذَلِكَ ، فَلَمْ يَكُنْ عُمْدَتُهُ فِي ٱلْإِحْيَاءِ بَعْدَ مَعَارِفِهِ وَعُلُومِهِ وَتَحْقِيقَاتِهِ ٱلَّتِي جَمَعَ بِهَا شَمْلَ ٱلْكِتَابِ ، وَنَظَمَ بِهَا مَحَاسِنَهُ ، إِلَّا عَلَى كِتَابِ « قُوتِ ٱلْقُلُوبِ » لِأَبِي طَالِبٍ ٱلْمَكِّيِّ ، وَكِتَابِ « ٱلرِّسَالَةِ » لِلْأُسْتَاذِ

أَبِي ٱلْقَاسِمِ ٱلْقُشَيْرِيِّ ، ٱلْمُجْمَعِ عَلَى جَلَالَتِهِمَا وَجَلَالَةِ مُصَنَّفَيْهِمَا ، وَأَمَّا ٱبْنُ سِينَا فَٱلْغَزَالِيُّ يُكَفِّرُهُ ، فَكَيْفَ يُقَالُ إِنَّهُ يَقْتَدِي بِهِ ؟ وَلَقَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابِهِ « ٱلْمُنْقِذِ مِنَ ٱلضَّلَالِ » أَنَّهُ لَا شَيْخَ لَهُ فِي ٱلْفَلْسَفَةِ ، وَأَنَّ ٱللهَ أَطْلَعَهُ عَلَى هَذِهِ ٱلْعُلُومِ بِمُجَرَّدِ ٱلْمُطَالَعَةِ فِي أَقَلَّ مِنْ سَنَتَيْنِ بِبَغْدَادَ ، مَعَ ٱشْتِغَالِهِ بِالْإِفَادَةِ وَٱلتَّدْرِيسِ .

« وَقَوْلُهُ : لَا أَدْرِي عَلَى مَنْ عَوَّلَ فِي ٱلتَّصَوُّفِ؟ »

قُلْتُ : عَوَّلَ عَلَى كِتَابِ ٱلْقُوتِ وَٱلرِّسَالَةِ مَعَ مَا ضَمَّ إِلَيْهِمَا مِنْ كَلَامِ مَشَايِخِهِ أَبِي عَلِيٍّ ٱلْفَارَمْذِيِّ وَأَمْثَالِهِ ، وَمَعَ مَا زَادَهُ مِنْ قِبَلِ [1] نَفْسِهِ بِفِكْرِهِ وَنَظَرِهِ ، وَمَا فُتِحَ بِهِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ عِنْدِي أَغْلَبُ مَا فِي ٱلْكِتَابِ ، وَلَيْسَ فِي ٱلْكِتَابِ لِلْفَلَاسِفَةِ مَدْخَلٌ ، وَلَمْ يُصَنِّفْهُ إِلَّا بَعْدَ مَا أُزْدَرَى [2] عُلُومَهُمْ ، وَنَهَى عَنِ ٱلنَّظَرِ فِي كُتُبِهِمْ ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ « ٱلْإِحْيَاءِ »

(١) قبل : تجاه وناحية (٢) ازدرى : احتقر

ثُمَّ فِي كِتَابِ « الْمُنْقِذِ مِنَ الضَّلَالِ »

فَهَذَا رَجُلٌ يُنَادِي عَلَى كَافَّةِ الْفَلَاسِفَةِ بِالْكُفْرِ، وَلَهُ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ الْكُتُبُ الْفَائِقَةُ ، وَفِي الذَّبِّ عَنْ حَرِيمِ الْإِسْلَامِ الْكَلِمَاتُ الرَّائِقَةُ ، ثُمَّ يُقَالُ : إِنَّهُ بَنَى كِتَابَهُ عَلَى مَقَالَتِهِمْ ، فَيَا لِلَّهِ لِلْمُسْلِمِينَ : نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ تَعَصُّبٍ يَحْمِلُ عَلَى الْوَقِيعَةِ فِي أَئِمَّةِ الدِّينِ .

وَأَمَّا مَا عَابَ بِهِ الْإِحْيَاءَ مِنْ وَهْنِ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ فَالْغَزَالِيُّ مُعْتَرِفٌ بِأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِي الْحَدِيثِ : يَدٌ بَاسِطَةٌ ، وَعَامَّةُ مَا فِي الْإِحْيَاءِ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ مُبَدَّدٌ فِي كُتُبِ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَالْفُقَهَاءِ وَلَمْ يَسْتَبِدَّ الرَّجُلُ بِحَدِيثٍ وَاحِدٍ .

وَقَدِ اعْتَنَى بِتَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْإِحْيَاءِ بَعْضُ أَصْحَابِنَا فَلَمْ يَشِذَّ عَنْهُ إِلَّا الْيَسِيرُ .

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ فِي قَصِّ الْأَظْفَارِ وَالْأَثَرِ الْمُشَارِ

إِلَيْهِ عَنْ عَلِيٍّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ ، فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ كَبِيرُ أَمْرٍ وَلَا يُخَالِفُهُ شَرْعٌ ، وَقَدْ سَمِعْتُ جَمَاعَةً مِنَ الْفُقَرَاءِ يَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ جَرَّبُوهُ فَوَجَدُوهُ لَا يُخْطِئُ ، مَنْ دَاوَمَهُ أَمِنَ مِنْ وَجَعِ الْعَيْنِ .

وَأَمَّا قَوْلُ الْمَازِرِيِّ عَادَةُ الْمُتَوَرِّعِينَ أَلَّا يَقُولُوا : قَالَ مَالِكٌ الخ ، فَقَلَّمَا قَالَ الْغَزَالِيُّ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَبِيلِ الْجَزْمِ ، وَإِنَّمَا يَقُولُ عَنْ وَبِتَقْدِيرِ الْجَزْمِ فَلَوْ لَمْ يَغْلِبْ عَلَى ظَنِّهِ لَمْ يَقُلْهُ ، وَغَايَتُهُ أَنَّهُ لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ظَنَّ .

وَأَمَّا مَسْأَلَةُ مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْلَمْ قِدَمَ الْبَارِي فَفَرْقٌ بَيْنَ انْتِفَاءِ اعْتِقَادِهِ بِالْقِدَمِ وَاعْتِقَادِهِ أَنْ لَا قِدَمَ ، وَالثَّانِي هُوَ الَّذِي أَجْمَعُوا عَلَى تَكْفِيرِ مَنِ اعْتَقَدَهُ ، فَمَنِ اسْتَحْضَرَ بِذِهْنِهِ صِفَةَ الْقِدَمِ وَنَفَاهَا عَنِ الْبَارِي أَوْ حَسِبَهَا مَنْفِيَّةً ، أَوْ شَكَّ فِي انْتِفَائِهَا ، كَانَ كَافِرًا ،

وَأَمَّا ٱلسَّاذَجُ [١] فِي مَسْأَلَةِ ٱلْقِدَمِ ٱلْخَالِي ٱلْجِلْفُ [٢] ٱلْمُؤْمِنُ بِاللهِ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ ، فَهُوَ ٱلَّذِي ٱدَّعَى ٱلْغَزَالِيُّ ٱلْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّهُ مُؤْمِنٌ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ ، نَاجٍ مِنْ حَيْثُ مُطْلَقُ ٱلْإِيمَانِ ٱلْجُمْلِيِّ ، وَمِنَ ٱلْبَلِيَّةِ ٱلْعُظْمَى أَنْ يُقَالَ عَنْ مِثْلِ ٱلْغَزَالِيِّ أَنَّهُ غَيْرُ مَوْثُوقٍ بِهِ فِي نَقْلِهِ ، فَمَا أَدْرِي مَا أَقُولُ ! وَلَا بِأَيِّ وَجْهٍ يَلْقَى ٱللهَ تَعَالَى مَنْ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ فِي هَذَا ٱلْإِمَامِ .

وَأَمَّا تَقْسِيمُ ٱلْمَازَرِيِّ فِي ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِي أَشَارَ حُجَّةُ ٱلْإِسْلَامِ أَنَّهُ لَا يُودَعُ فِي كِتَابٍ ، فَوَدِدْتُ لَوْ لَمْ يَذْكُرْهُ ، فَإِنَّهُ شُبِّهَ عَلَيْهِ ، وَهَذَا ٱلْمَازَرِيُّ كَانَ رَجُلًا فَاضِلًا ذَكِيًّا ، وَمَا كُنْتُ أَحْسَبُهُ يَقَعُ فِي مِثْلِ هَذَا ، أَوْ خَفِيَ عَلَيْهِ أَنَّ لِلْعُلُومِ دَقَائِقَ نُهِيَ ٱلْعُلَمَاءُ عَنِ ٱلْإِفْصَاحِ بِهَا خَشْيَةً عَلَى ضُعَفَاءِ ٱلْخَلْقِ، وَأُمُورًا أُخَرَ لَا تُحِيطُ بِهَا

(١) الساذج : البسيط . (٢) الجلف : الفظ الغليظ الطبع .

ٱلْعِبَارَاتُ وَلَا يَعْرِفُهَا إِلَّا أَهْلُ ٱلذَّوْقِ ، وَأُمُوراً أُخَرَ لَمْ يَأْذَنِ ٱللهُ فِي إِظْهَارِهَا ، وَمَاذَا يَقُولُ ٱلْمَازِرِيُّ فِيمَا خَرَّجَهُ ٱلْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ ٱلطُّفَيْلِ « سَمِعْتُ عَلِيًّا رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ يَقُولُ : حَدِّثُوا ٱلنَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ » ، وَكَمْ مَسْأَلَةٍ نَصَّ ٱلْعُلَمَاءُ عَلَى عَدَمِ ٱلْإِفْصَاحِ [1] بِهَا ، خَشْيَةً عَلَى أَفْهَامِ مَنْ لَا يَفْهَمُهَا ، وَرُبَّمَا وَقَعَ ٱلسُّكُوتُ عَنْ بَعْضِ ٱلْعِلْمِ خَشْيَةً مِنَ ٱلْوُقُوعِ فِي مَحْذُورٍ ، وَأَمْثِلَتُهُ تَكْثُرُ :

***

الرد على الطرطوشي

وَأَمَّا كَلَامُ ٱلطُّرْطُوشِيِّ فَمِنَ ٱلدَّعَاوَى ٱلْعَارِيَةِ عَنِ ٱلدِّلَالَةِ ، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ ٱسْتَجَازَ فِي دِينِهِ أَنْ يَنْسِبَ إِلَى هَذَا ٱلْحِبْرِ أَنَّهُ دَخَلَ فِي وَسَاوِسِ ٱلشَّيْطَانِ ، وَلَا مِنْ أَيْنَ ٱطَّلَعَ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ شَابَهَا [2] بِآرَاءِ

---

(١) عدم الإفصاح بها: أى عدم بيان المراد منها (٢) شابها : أى خلطها

ٱلْفَلَاسِفَةِ ، وَرُمُوزِ ٱلْحَلَّاجِ ، فَلَا أَدْرِى أَىَّ رُمُوزٍ فِى هٰذَا ٱلْكِتَابِ غَيْرَ إِشَارَاتِ ٱلْقَوْمِ ٱلَّتِى لَا يُنْكِرُهَا عَارِفٌ ، وَلَيْسَ لِلْحَلَّاجِ رُمُوزٌ يُعْرَفُ بِهَا .

وَأَمَّا قَوْلُهُ « كَادَ يَنْسَلِخُ مِنَ ٱلدِّينِ » ، فَيَالَهَا كَلِمَةً — وَقَاهُ ٱللهُ شَرَّهَا — ، وَأَمَّا دَعْوَاهُ أَنَّهُ غَيْرُ أَنِيسٍ بِعُلُومِ ٱلصُّوفِيَّةِ ، فَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْبَارِدِ ، فَإِنَّهُ لَا يَرْتَابُ ذُو نَظَرٍ فِى أَنَّ ٱلْغَزَالِىَّ كَانَ ذَا قَدَمٍ رَاسِخٍ فِى ٱلتَّصَوُّفِ ، وَلَيْتَ شِعْرِى إِنْ لَمْ يَكُنْ يَدْرِى ٱلْغَزَالِىُّ ٱلتَّصَوُّفَ فَمَنْ يَدْرِيهِ ؟

وَأَمَّا دَعْوَاهُ أَنَّهُ سَقَطَ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ ، فَوَقْعَةٌ (١) فِى ٱلْعُلَمَاءِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ لَنَا بِمَاذَا سَقَطَ ، — كَفَاهُ ٱللهُ وَإِيَّانَا غَائِلَةَ ٱلتَّعَصُّبِ —

وَأَمَّا ٱلْمَوْضُوعَاتُ فِى كِتَابِهِ — فَلَيْتَ شِعْرِى . أَهُوَ وَاضِعُهَا حَتَّى يُنْكَرَ ؟! إِنْ هٰذَا إِلَّا تَعَصُّبٌ بَارِدٌ وَتَشْنِيعٌ بِمَا لَا يَرْتَضِيهِ نَاقِدٌ .

(١) وقعة : أى تنقيص وتعد على مقامهم

***

نقدة آخرون

وَقَدْ حَمَلَ عَلَى ٱلْغَزَالِيِّ خَلْقٌ كَثِيرٌ ، وَمِمَّنْ تَكَلَّمَ عَنْهُ مِنْهُمْ وَبَسَطَ لِسَانَهُ فِيهِ « ٱبْنُ ٱلصَّلَاحِ » وَقَدْ ذَكَرَ ٱلسَّيِّدُ مُرْتَضَى فِي «إِتْحَافِ ٱلسَّادَةِ» مَادَافَعَ ٱلسُّبْكِيُّ بِهِ عَنِ ٱلْغَزَالِيِّ إِزَاءَ هَذَا ٱلنَّاقِدِ ٱلطَّاعِنِ فَقَالَ : إِنَّ ٱلسُّبْكِيَّ قَالَ فِي كِتَابٍ لِلْعَفِيفِ ٱلْمَطَرِيِّ ٱلْمُقِيمِ بِالْمَدِينَةِ ٱلْمُنَوَّرَةِ مَانَصُّهُ :

***

دفاع السبكى

مَاذَا يَقُولُ ٱلْإِنْسَانُ فِي ٱلْغَزَالِيِّ وَفَضْلِهِ ، وَٱسْمُهُ قَدْ طَبَّقَ ٱلْأَرْضَ ، وَمَنْ خَبَرَ كَلَامَهُ عَرَفَ أَنَّهُ فَوْقَ ٱسْمِهِ ، وَأَمَّا مَاذَكَرَهُ « ٱبْنُ ٱلصَّلَاحِ » مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ وَمِنْ كَلَامِ يُوسُفَ ٱلدِّمَشْقِيِّ وَٱلْمَازَرِيِّ ، فَمَا أَشْبَهُ هَؤُلَاءِ ٱلْجَمَاعَةَ - رَحِمَهُمُ ٱللهُ - إِلَّا بِقَوْمٍ مُتَعَبِّدِينَ سَلِيمَةٍ قُلُوبُهُمْ قَدْ رَكَنُوا إِلَى ٱلْهُوَيْنَى [1] ، فَرَأَوْا فَارِسًا عَظِيمًا مِنَ

(١) التؤدة والرفق

ٱلْمُسْلِمِينَ قَدْ رَأَى عَدَدًا عَظِيماً لِأَهْلِ ٱلْإِسْلَامِ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ ، وَٱنْغَمَسَ فِي صُفُوفِهِمْ ، وَمَازَالَ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى فَلَّ شَوْكَتَهُمْ وَكَسَرَهُمْ ، وَفَرَّقَ جُمُوعَهُمْ شَذَرمَذَرَ(١) وَفَلَقَ هَامَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ ، فَأَصَابَهُ يَسِيرٌ مِنْ دِمَائِهِمْ ، وَعَادَ سَالِماً فَرَأَوْهُ وَهُوَ يَغْسِلُ ٱلدَّمَ عَنْهُ ، ثُمَّ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي صَلَاتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ ، فَتَوَهَّمُوا بَقَاءَ أَثَرِ دَمٍ عَلَيْهِ فَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ . هَذَا حَالُ ٱلْغَزَالِيِّ وَحَالُهُمْ ، وَٱلْكُلُّ إِنْ شَاءَ اللهُ مُجْتَمِعُونَ « فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ . »

وَأَمَّا ٱلْمَازَرِيُّ فَمَعْذُورٌ لِأَنَّهُ مَغْرِبِيٌّ ، وَكَانَتِ ٱلْمَغَارِبَةُ لَمَّا وَقَعَ لَهُمْ كِتَابُ ٱلْإِحْيَاءِ لَمْ يَفْهَمُوهُ فَحَرَّفُوهُ ، فَمِنْ تِلْكَ ٱلْحَالَةِ تَكَلَّمَ ٱلْمَازَرِيُّ ، ثُمَّ إِنَّ ٱلْمَغَارِبَةَ بَعْدَ ذَلِكَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ وَمَدَحُوهُ بِقَصَائِدَ مِنْهَا قَصِيدَةٌ أَوَّلُهَا :

---

(١) شذر مذر : أى ذهبوا فى كل وجه

أَبَا حَامِدٍ أَنْتَ ٱلْمُخَصَّصُ بِٱلْحَمْدِ

وَأَنْتَ ٱلَّذِى عَلَّمْتَنَا سُنَنَ ٱلرُّشْدِ

وَضَعْتَ لَنَا ٱلْإِحْيَاءَ يُحْيِى نُفُوسَنَا

وَيُنْقِذُنَا مِنْ رِبْقَةِ ٱلْمَارِدِ (١) ٱلْمُرْدِى

وَهِىَ طَوِيلَةٌ ، وَإِنْ كُنْتُ لَا أَرْضَى بِقَوْلِهِ : أَنْتَ ٱلْمُخَصَّصُ بِٱلْحَمْدِ، وَلَكِنْ يُتَأَوَّلُ لِقَائِلِهِ أَنَّهُ أَرَادَ « مِنْ بَيْنِ أَقْرَانِهِ أَوْ مِنْ بَيْنِ مَنْ يُتَكَلَّمُ فِيهِ » ، وَأَيْنَ نَحْنُ وَمَنْ فَوْقَنَا وَمَنْ فَوْقَهُمْ ، مِنْ فَهْمِ كَلَامِ ٱلْغَزَالِىِّ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى مَرْتَبَتِهِ فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلدِّينِ وَٱلتَّأَلُّهِ (٢) وَلَا يُنْكَرُ فَضْلُ ٱلشَّيْخِ « ٱبْنِ ٱلصَّلَاحِ » وَفِقْهُهُ وَحَدِيثُهُ وَدِينُهُ وَقَصْدُهُ ٱلْخَيْرَ ، وَلَكِنْ لِكُلِّ عَمَلٍ رِجَالٌ ، وَلَا يُنْكَرُ عُلُوُّ رُتْبَةِ ٱلْمَازِرِىِّ ، وَلَكِنْ كُلُّ حَالٍ لَا يَعْرِفُهُ مَنْ لَمْ يَذُقْهُ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ يَتَكَيَّفُ بِمَا نَشَأَ عَلَيْهِ وَوَصَلَ إِلَيْهِ .

(١) المارد المردى : الشيطان الرجيم (٢) التأله : التعبد والتنسك

ثُمَّ قَالَ : وَإِنْ كَانَ فِى ٱلْإِحْيَاءِ أَشْيَاءُ يَسِيرَةٌ تُنْتَقَدُ فَهِىَ لَا تَرْفَعُ مَحَاسِنَ أَكْثَرِهِ ٱلَّتِى لَا تُوجَدُ فِى كِتَابٍ غَيْرِهِ . وَكَمْ مِنْ مَنْقَبَةٍ [1] لِلْغَزَالِىِّ . . .

وَقَدْ أَطَالَ فِى هَذَا ٱلْكَلَامِ فَرَاجِعْهُ فِى طَبَقَاتِ وَلَدِهِ ، يَعْنِى كِتَابَ طَبَقَاتِ ٱبْنِ ٱلسُّبْكِىِّ فَإِنَّهُ نَفِيسٌ فِى ٱلْبَابِ .

وَفِى ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعَ عَشَرَ مِنْ تَذْكِرَةِ « ٱلْحَافِظِ جَلَالِ ٱلدِّينِ ٱلسُّيُوطِىِّ » قَالَ: وَمِمَّا وَقَعَ لِلْعُلَمَاءِ مِنْ ضَرْبِ ٱلْمَثَلِ لِأَهْلِ عَصْرِهِمْ بِالْآيَاتِ مَا وَقَعَ لِحُجَّةِ ٱلْإِسْلَامِ ٱلْغَزَالِىِّ فِى كِتَابِهِ « ٱلِانْتِصَارِ لِمَا فِى ٱلْإِحْيَاءِ مِنَ ٱلْأَسْرَارِ » حِينَ أَنْكَرَ عَلَيْهِ عُلَمَاءُ عَصْرِهِ مَوَاضِعَ مِنْهُ .

قَالَ فِى أَوَّلِهِ مَا نَصُّهُ : —

***

رد الغزالى على حسدته وناقديه

سَأَلْتَ : يَسَّرَكَ ٱللهُ لِمَرَاتِبِ ٱلْعِلْمِ تَصْعَدُ مَرَاقِيهَا ،

(١) منقبة : أى مفخرة .

وَقَرَّبَ لَكَ مَقَامَاتِ ٱلْوِلَايَةِ تَحُلُّ مَعَالِيهَا - فِي بَعْضِ مَا وَقَعَ فِي ٱلْإِمْلَاءِ ٱلْمُلَقَّبِ بِالْإِحْيَاءِ ، مِمَّا أَشْكَلَ عَلَى مَنْ حُجِبَ فَهْمُهُ ، وَقَصُرَ عِلْمُهُ ، وَلَمْ يَفُزْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْحُظُوظِ ٱلْمَلَكِيَّةِ قِدْحُهُ وَسَهْمُهُ ، وَأَظْهَرْتَ ٱلتَّحَزُّنَ لِمَا شَاشَ [1] بِهِ شُرَكَاءُ ٱلطَّغَامِ [2] ، وَأَمْثَالُ ٱلْأَنْعَامِ ، وَإِجْمَاعُ ٱلْعَوَامِّ ، وَسُفَهَاءُ [3] ٱلْأَحْلَامِ ، وَعَارُ أَهْلِ ٱلْإِسْلَامِ ، حَتَّى طَعَنُوا عَلَيْهِ ، وَنَهَوْا عَنْ قِرَاءَتِهِ وَمُطَالَعَتِهِ ، وَأَفْتَوْا بِمُجَرَّدِ ٱلْهَوَى ، عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ بِاطِّرَاحِهِ وَمُنَابَذَتِهِ ، وَنَسَبُوا مُمْلِيَهُ إِلَى ضَلَالٍ وَإِضْلَالٍ ، وَنَبَزُوا قُرَّاءَهُ وَمُنْتَحِلِيهِ بِزَيْغٍ فِي ٱلشَّرِيعَةِ وَٱخْتِلَالٍ ، فَإِلَى ٱللهِ ٱنْصِرَافُهُمْ وَمَآبُهُمْ ، وَعَلَيْهِ فِي ٱلْعَرْضِ ٱلْأَكْبَرِ إِيقَافُهُمْ وَحِسَابُهُمْ « فَسَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ . وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ . بَلْ كَذَّبُوا

---

(١) شاش : من التشويش . (٢) الطغام : أوغاد الناس وأراذلهم .
(٣) سفهاء الأحلام : صغار العقول .

بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ. وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ . وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ، »وَلَكِنِ الظَّالِمُونَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ، وَلَا عَجَبَ فَقَدْ تَوَى [1] أَوْلَادُ الطَّرِيقِ وَذَهَبَ أَرْبَابُ التَّحْقِيقِ ، فَلَمْ يَبْقَ فِي الْغَالِبِ إِلَّا أَهْلُ الزُّورِ وَالْفُسُوقِ ، مُتَشَبِّثِينَ بِدَعَاوَى كَاذِبَةٍ ، مُتَّصِفِينَ بِحِكَايَاتٍ مَوْضُوعَةٍ ، مُتَزَيِّنِينَ بِصِفَاتٍ مُنَمَّقَةٍ، مُتَظَاهِرِينَ بِظَوَاهِرَ بِالْعِلْمِ فَاسِدَةٍ ، وَمُتَقَاطِعِينَ بِحُجَجٍ غَيْرِ صَادِقَةٍ، كُلُّ ذَلِكَ لِطَلَبِ دُنْيَا ، أَوْ مَحَبَّةِ ثَنَاءٍ ، أَوْ مُغَالَبَةِ نُظَرَاءَ ، قَدْ ذَهَبَتِ الْمُوَاصَلَةُ بَيْنَهُمْ بِالْبِرِّ ، وَتَآلَفُوا جَمِيعًا عَلَى الْفِعْلِ الْمُنْكَرِ ، وَعُدِمَتِ النَّصَائِحُ مِنْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَتَصَافَوْا بِأَسْرِهِمْ عَلَى الْخَدِيعَةِ وَالْمَكْرِ ، إِنْ نَصَحَتْهُمُ الْعُلَمَاءُ أَغْرَوْا [2] بِهِمْ ، وَإِنْ صَمَتَ عَنْهُمُ الْعُقَلَاءُ أَزَرَوْا [3] عَلَيْهِمْ، أُولَئِكَ الْجُهَّالُ فِي عِلْمِهِمْ ، الْفُقَرَاءُ فِي طَوْلِهِمْ ، الْبُخَلَاءُ

(١) توى : أى هلك (٢) أغرى بهم : أى ألقى العداوة وأفسد بينهم
(٣) أزروا عليهم : أى عابوا عليهم

عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْفُسِهِمْ ، لَا يُفْلِحُونَ وَلَا يَنْجَحُ تَابِعُهُمْ ، وَلِذَلِكَ لَا تَظْهَرُ عَلَيْهِمْ مُوَارَثَةُ الصِّدْقِ ، وَلَا تَسْطَعُ حَوْلَهُمْ أَنْوَارُ الْوِلَايَةِ ، وَلَا تَتَحَقَّقُ لَدَيْهِمْ أَعْلَامُ الْمَعْرِفَةِ وَلَا يَسْتُرُ عَوْرَاتِهِمْ لِبَاسُ الْخَشْيَةِ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا أَحْوَالَ الْأَتْقِيَاءِ ، وَمَرَاتِبَ النُّجَبَاءِ ، وَخُصُوصِيَّةَ الْبُدَلَاءِ (١) ، وَكَرَامَاتِ الْأَوْتَادِ (٢) وَفَوَائِدَ الْقُطْبِ ، وَفِي هَذِهِ أَسْبَابُ السَّعَادَةِ ، وَتَتِمَّةُ الطَّهَارَةِ ، لَوْ عَرَفُوا أَنْفُسَهُمْ ، لَظَهَرَ لَهُمُ الْحَقُّ ، وَعَلِمُوا عِلَّةَ أَهْلِ الْبَاطِنِ ، وَدَاءَ أَهْلِ الْغَضَبِ وَدَوَاءَ أَهْلِ الْقُوَّةِ ، وَلَكِنْ لَيْسَ هَذَا مِنْ بَضَائِعِهِمْ ، حُجِبُوا عَنِ الْحَقِيقَةِ بِأَرْبَعَةٍ : بِالْجَهْلِ ، وَالْإِصْرَارِ ، وَمَحَبَّةِ الدُّنْيَا ، وَإِظْهَارِ الدَّعْوَى ، فَالْجَهْلُ أَوْرَثَهُمُ السُّخْفَ (٣) ، وَالْإِصْرَارُ أَوْرَثَهُمُ التَّهَاوُنَ ، وَمَحَبَّةُ الدُّنْيَا أَوْرَثَتْهُمْ طُولَ الْغَفْلَةِ ، وَإِظْهَارُ الدَّعْوَى أَوْرَثَهُمُ الْكِبْرَ وَالْإِعْجَابَ

(١) اذا شئت معرفة مراتب السالكين فى طريق الحق جل جلاله فعليك بالاطلاع على ما كتبه الغزالى فى الاحياء بهذا الصدد فى كتاب العلم

وَالرِّيَاءِ، «وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ». فَلَا يَغُرَّنَّكَ - أَعَاذَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، وَشَأْنِهِمْ -، وَلَا يُذْهِلَنَّكَ عَنِ الِاشْتِغَالِ بِصَلَاحِ نَفْسِكَ تَمَرُّدُهُمْ (١) وَطُغْيَانُهُمْ، وَلَا يُغْوُونَكَ بِمَا زَيَّنَ لَهُمْ مِنْ سُوءِ عَمَلِهِمْ شَيْطَانُهُمْ، فَكَأَنْ قَدْ جُمِعَ الْخَلَائِقُ فِي صَعِيدٍ، «وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ» وَتُلِيَ «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» فَيَالَهُ مَوْقِفاً أَذْهَلَ ذَوِي الْعُقُولِ عَنِ الْقَالِ وَالْقِيلِ، وَمُتَابَعَةِ الْأَبَاطِيلِ، «فَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ. وَلَا تُطِعْ كُلَّ أَفَّاكٍ (٢) أَثِيمٍ. فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، فَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»

---

(١) تمردهم: عصيانهم وخروجهم عن جادة الطريق (٢) أفاك أثيم: كثير الزور والبهتان

***

ما أنكر عليه في الاحياء

وَقَدْ أَنْكَرَ عَلَى ٱلْغَزَالِيِّ فِي ٱلْإِحْيَاءِ مَوَاضِعَ مِنْهَا مَاهُوَ قَوْلٌ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ ، وَمِنْهَا مَا نَقَلَهُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ ٱلْعَارِفِينَ فَأَثْبَتَهُ وَسَكَتَ عَلَيْهِ .

وَقَدْ تَعَرَّضَ ٱلسَّيِّدُ مُرْتَضَى فِي إِنْحَافِ ٱلسَّادَةِ لِهَذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ فَدَافَعَ عَنِ ٱلْإِمَامِ ٱلْغَزَالِيِّ بَعْدَ أَنْ أَوْرَدَهَا وَعَرَضَ فِيهَا لِأَقْوَالِ ٱلَّذِينَ رَدُّوهَا وَفَنَّدُوهَا تَفْنِيدًا .

وَنَحْنُ نَاقِلُونَ ٱلِاعْتِرَاضَاتِ وَٱلرُّدُودَ عَلَيْهَا مِنْ كِتَابِ ٱلسَّيِّدِ ٱلْمُرْتَضَى :

***

الاعتراض الاول

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْإِحْيَاءِ « لَيْسَ فِي ٱلْإِمْكَانِ أَبْدَعُ مِمَّا كَانَ » وَقَدْ قَالُوا هَذَا يُفْهِمُ مِنْهُ ٱلْعَجْزُ فِي ٱلْجَنَابِ ٱلْإِلٰهِيِّ ، وَهُوَ كُفْرٌ صَرِيحٌ ، وَقَدْ أَجَابَ عَنْهُ

ٱلْقُطْبُ سَيِّدِى عَبْدُ ٱلْوَهَّابِ ٱلشَّعْرَانِىُّ فِى كِتَابِ ٱلْأَجْوِبَةِ ٱلْمَرْضِيَّةِ، عَنْ أَئِمَّةِ ٱلْفُقَهَاءِ وَٱلصُّوفِيَّةِ بِثَلَاثَةِ أَجْوِبَةٍ : ٱلْأَوَّلُ نَقْلًا عَنِ ٱلْقُطْبِ ٱبْنِ عَرَبِىٍّ ، وَٱلثَّانِى عَنْ عَبْدِ ٱلْكَرِيمِ ٱلْجِيلِىِّ ، وَٱلثَّالِثُ عَنِ ٱلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ ٱلْمَغْرِبِىِّ شَيْخِ ٱلْجَلَالِ ٱلسُّيُوطِىِّ ، وَكُلٌّ مِنَ ٱلْأَجْوِبَةِ ٱلثَّلَاثَةِ قَدْ أَوْرَدَهَا شَيْخُ مَشَايِخِنَا سَيِّدِى أَحْمَدُ بْنُ مُبَارَكٍ ٱلسِّجِلْمَاسِىُّ فِى كِتَابِهِ « ٱلذَّهَبِ ٱلْإِبْرِيزِ » وَبَسَطَ ٱلْكَلَامَ عَلَيْهِ ، وَرَأَيْتُ ذَلِكَ بِعَيْنِهِ فِى كِتَابِ ٱلشَّعْرَانِىِّ ٱلْمَذْكُورِ بِخَطِّ أَحَدِ تَلَامِذَتِهِ .

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مُبَارَكٍ : وَقُلْتُ لِبَعْضِ ٱلْفُقَهَاءِ مَا قَوْلُكَ فِى قَوْلِ أَبِى حَامِدٍ « لَيْسَ فِى ٱلْإِمْكَانِ أَبْدَعُ مِمَّا كَانَ » فَقَالَ : لَقَدْ تَكَلَّمَ عَلَيْهِ ٱلشَّعْرَانِىُّ وَغَيْرُهُ، فَقُلْتُ إِنَّمَا أَسْأَلُكَ عَمَّا عِنْدَكَ فِيهِ، فَقَالَ لِى : وَأَىُّ شَىْءٍ عِنْدِى فِيهِ ؟ فَقُلْتُ وَيْحَكَ (١) إِنَّهَا عَقِيدَةٌ ، أَرَأَيْتَ

(١) ويحك : ويح كلمة ترحم وتوجع

لَوْ قَالَ ٱلْقَائِلُ : هَلْ يَقْدِرُ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى إِيجَادِ أَفْضَلَ مِنْ هَذَا ٱلْخَلْقِ ؟ فَقَالَ : أَقُولُ لَهُ إِنَّ مَقْدُورَاتِ ٱللهِ لَا تَتَنَاهَى ، فَيَقْدِرُ عَلَى إِيجَادِ أَفْضَلَ مِنْ هَذَا ٱلْخَلْقِ بِأَلْفِ دَرْجَةٍ وَأَفْضَلَ - مِنْ هَذَا ٱلْأَفْضَلِ ، وَهَكَذَا إِلَى مَالَانِهَايَةَ لَهُ ، فَقُلْتُ : وَقَوْلُهُ لَيْسَ فِي ٱلْإِمْكَانِ أَبْدَعُ مِمَّا كَانَ يُنَافِي ذَلِكَ ، فَتَفَطَّنَ لِلْعِبَارَةِ ٱلْمَنْسُوبَةِ لِأَبِي حَامِدٍ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى - وَهَكَذَا وَقَعَ لِي مَعَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ فَإِذَا سَأَلْتُهُمْ عَنْ عِبَارَةِ أَبِي حَامِدٍ ٱسْتَشْعَرُوا جَلَالَةَ قَدْرِهِ فَتَوَقَّفُوا ، فَإِذَا بَدَّلْتُ ٱلْعِبَارَةَ وَعَبَّرْتُ بِمَا سَبَقَ فِي سُؤَالٍ لِلْعَامَّةِ جَزَمُوا بِعِظَمِ ٱلْقُدْرَةِ وَعَدَمِ نِهَايَةِ ٱلْمَقْدُورَاتِ .

قَالَ : وَقَدِ ٱخْتَلَفَ ٱلْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ ٱلْمَقَالَةِ ٱلْمَنْسُوبَةِ إِلَى أَبِي حَامِدٍ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ ، فَطَائِفَةٌ أَنْكَرَتْهَا ، وَطَائِفَةٌ أَوَّلَتْهَا ، وَطَائِفَةٌ كَذَّبَتِ ٱلنِّسْبَةَ إِلَى أَبِي حَامِدٍ وَنَزَّهَتْ (١)

(١) نزهت : أى باعدت

مَقَامَهُ عَنْهَا ، وَالْأَوَلُ هُمُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَهَلُمَّ جَرًّا ، مِنْهُمْ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ تِلْمِيذُهُ فِيمَا نَقَلَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْقُرْطُبِيُّ فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى مَا نَصُّهُ :

قَالَ شَيْخُنَا أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ قَوْلًا عَظِيمًا انْتَقَدَهُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعِرَاقِ ، وَهُوَ بِشَهَادَةِ اللهِ مَوْضِعُ انْتِقَادٍ ، فَقَدْ قَالَ : لَيْسَ فِي الْقُدْرَةِ أَبْدَعُ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ فِي الْاِتْقَانِ وَالْحِكْمَةِ ، وَلَوْ كَانَ فِي الْقُدْرَةِ أَبْدَعُ مِنْ هَذَا وَادَّخَرَ لَكَانَ مُنَافِيًا لِلْجُودِ . . . وَنَحْنُ وَإِنْ كُنَّا قَطْرَةً فِي بَحْرِهِ « أَيِ الْغَزَالِيِّ » فَإِنَّا لَا نَرُدُّ عَلَيْهِ إِلَّا بِقَوْلِهِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ أَكْمَلَ بِشَيْخِنَا هَذَا فَوَاضِلَ[1] الْخَلَائِقِ ، ثُمَّ صَرَفَ بِهِ عَنْ هَذِهِ الْوَاضِحَةِ فِي الطَّرَائِقِ .

وَمِمَّنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ نَاصِرُ الدِّينِ بْنُ الْمُنَيِّرِ

---

(١) فواضل : جمع فاضلة وهى الهبة والنعمة

ٱلْإِسْكَنْدَرِيِّ ، وَصَنَّفَ فِي ذٰلِكَ رِسَالَةً سَمَّاهَا « ٱلضِّيَاءَ ٱلْمُتَلَالِي فِي تَعَقُّبِ ٱلْإِحْيَاءِ لِلْغَزَالِي » وَقَالَ : ٱلْمَسْأَلَةُ ٱلْمَذْكُورَةُ لَا تَتَمَشَّى إِلَّا عَلَى قَوَاعِدِ ٱلْفَلَاسِفَةِ وَٱلْمُعْتَزِلَةِ .

وَفِي مُنَاقَضَةِ هٰذِهِ ٱلرِّسَالَةِ ، أَلَّفَ ٱلسَّيِّدُ ٱلسَّمْهُودِيُّ رِسَالَةً عَظِيمَةً فِي نَحْوِ سَبْعَةِ كَرَارِيسَ .

وَمِمَّنْ نَقَلَ عَنْهُ أَفْكَارَهُ ٱلْحَافِظُ ٱلذَّهَبِيُّ فِي تَارِيخِ ٱلْإِسْلَامِ ، وَٱلْإِمَامُ بَدْرُ ٱلدِّينِ ٱلزَّرْكَشِيُّ ، وَقَالَ هٰذَا مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْعُقْمِ [1] ٱلَّتِي لَا يَنْبَغِي إِطْلَاقُ مِثْلِهَا فِي حَقِّ ٱلصَّانِعِ ، وَٱلْكَمَالُ بْنُ أَبِي شَرِيفٍ ، وَٱلْبُرْهَانُ ٱلْبِقَاعِيُّ ، وَأَلَّفَ رِسَالَةً فِي ٱلْمَسْأَلَةِ سَمَّاهَا « تَهْدِيمَ ٱلْأَرْكَانِ » وَغَيْرُهُمْ .

وَٱلطَّائِفَةُ ٱلثَّانِيَةُ — وَهُمُ ٱلْمُنْتَصِرُونَ لِأَبِي حَامِدٍ ، وَٱلْمُؤَوِّلُونَ لِكَلَامِهِ عَلَى وَجْهٍ صَحِيحٍ فِي ظَنِّهِمْ ، فَأَوَّلُهُمْ

(١) العقيم : التى لاتلد . والمراد بالعقم هنا عدم الانتاج

ٱلْإِمَامُ أَبُو حَامِدٍ نَفْسُهُ ، فَإِنَّهُ سُئِلَ فِي زَمَانِهِ عَنْ هَذِهِ ٱلْمَسْأَلَةِ ، فَأَجَابَ بِمَا هُوَ مَسْطُورٌ فِي ٱلْأَجْوِبَةِ ٱلْمُسْكِتَةِ ، وَمِنْهُمْ مُحْيِي ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْعَرَبِيِّ ، وَعَبْدُ ٱلْكَرِيمِ ٱلْجِيلِيُّ ، وَمُحَمَّدٌ ٱلْمَغْرِبِيُّ ، وَنَقَلَ عَنْهُمُ ٱلشَّعْرَانِيُّ ، كَمَا سَبَقَتِ ٱلْإِشَارَةُ إِلَيْهِ ، وَمِنْهُمُ ٱلْإِمَامُ جَلَالُ ٱلدِّينِ أَبُو ٱلْبَقَاءِ مُحَمَّدٌ ٱلْبَكْرِيُّ ٱلشَّافِعِيُّ ، وَٱلْبَدْرُ ٱلزَّرْكَشِيُّ أَيْضاً ، وَٱلشَّيْخُ سَيِّدِي أَحْمَدُ زَرُّوقٌ ، فِي شَرْحِ « قَوَاعِدِ ٱلْعَقَائِدِ » لِلْغَزَالِيِّ ، وَٱلْبُرْهَانُ بْنُ أَبِي شَرِيفٍ أَخُو ٱلْكَمَالِ ٱلَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي ٱلطَّائِفَةِ ٱلْأُولَى ، وَٱلشَّيْخُ أَبُو ٱلْمَوَاهِبِ ٱلتُّونِسِيُّ ، وَشَيْخُ ٱلْإِسْلَامِ زَكَرِيَّا ٱلْأَنْصَارِيُّ ، وَٱلْحَافِظُ جَلَالُ ٱلدِّينِ ٱلسُّيُوطِيُّ ، وَأَلَّفَ رِسَالَةً نَاقَضَ بِهَا عَلَى ٱلْبُرْهَانِ ٱلْبِقَاعِيِّ سَمَّاهَا « تَشْيِيدُ ٱلْأَرْكَانِ » .

وَقَدْ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ ٱلْمَسْأَلَةِ كُلٌّ مِنْ مَشَايِخِنَا ، ٱلْقُطْبُ نَجْمُ ٱلدِّينِ أَبِي ٱلْمَكَارِمِ مُحَمَّدِ بْنِ سَالِمٍ ٱلْحِفْنِيِّ

ٱلشَّافِعِيِّ - نَفَعَنَا ٱللهُ بِهِ - وَٱلسَّيِّدِ ٱلْقُطْبِ أَبِي ٱلْمَرَاحِمِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ بْنِ مُصْطَفَى ٱلْعَيْدَرُوسِيِّ - نَفَعَنَا ٱللهُ بِهِ - فَأَجَابَا بِتَأْوِيلِ كَلَامِهِ عَلَى أَحْسَنِ ٱلْمَظِنَّاتِ .

وَٱلطَّائِفَةُ ٱلثَّالِثَةُ — وَهُمُ ٱلذَّاهِبُونَ إِلَى عَدَمِ نِسْبَةِ ٱلْمَقَالَةِ إِلَى أَبِي حَامِدٍ ، وَأَنَّهَا مَدْسُوسَةٌ [1] فِي كُتُبِهِ ، وَمُسْتَنَدُهُمْ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ عَرَضُوهَا عَلَى كَلَامِهِ فِي كُتُبِهِ فَوَجَدُوهَا مَعَ كَلَامِهِ عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ [2] ، وَٱلْعَاقِلُ لَا يَعْتَقِدُ ٱلنَّقِيضَ ، فَضْلًا عَنْ أَبِي حَامِدٍ وَعِبَارَاتُهُ ٱلَّتِي هِيَ مُنَاقِضَةٌ لِتِلْكَ ٱلْمَقَالَةِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِ ٱلْإِحْيَاءِ ، وَفِي « ٱلْمُنْقِذِ مِنَ ٱلضَّلَالِ » وَفِي « ٱلْمُسْتَصْفَى » مِمَّا تَصَدَّى لِجَمْعِهَا جَمِيعِهَا ٱلْبُرْهَانُ ٱلْبِقَاعِيُّ فِي رِسَالَتِهِ ٱلْمَذْكُورَةِ .

هَذَا خُلَاصَةُ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ سَيِّدِي أَحْمَدُ بْنُ مُبَارَكٍ

---

(١) مدسوسة : مكذوبة عليه ، لم يقلها ولم تصدر منه (٢) طرفى نقيض : أى مناقضة لـكلامه كل المناقضة

ٱلسِّجِلْمَاسِيُّ، وَلَمْ نُطَوِّلْ بِنُصُوصِ ٱلْأَجْوِبَةِ، وَمَا نُوقِضَتْ بِهِ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْإِسْهَابِ.

***

الاعتراض الثانى

وَقَالَ ٱلْقُطْبُ ٱلشَّعْرَانِيُّ: وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَى ٱلْغَزَالِيِّ قَوْلُهُ: يُبَاحُ لِلصُّوفِيَّةِ تَمْزِيقُ ثِيَابِهِمْ عِنْدَ غَلَبَةِ ٱلْحَالِ إِنْ قُطِّعَتْ قِطَعًا مُرَبَّعَةً تَصْلُحُ لِتَرْقِيعِ ٱلثِّيَابِ وَٱلسَّجَّادَاتِ، كَمَا يَجُوزُ تَمْزِيقُ ٱلثَّوْبِ لِيُرَقَّعَ بِهِ قَمِيصٌ آخَرُ. قَالَ ٱلْمُنْكِرُ: وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ هَذَا ٱلرَّجُلِ - يَعْنِي ٱلْغَزَالِيَّ - كَيْفَ ٱسْتَلَبَهُ حُبُّ مَذْهَبِ ٱلصُّوفِيَّةِ حَتَّى ذَهِلَ عَنْ أُصُولِ ٱلْفِقْهِ وَمَذْهَبِ ٱلشَّافِعِيِّ، وَٱخْتَارَ بِدَعَ ٱلصُّوفِيَّةِ عَلَى مَذَاهِبِ ٱلْأَئِمَّةِ؟، وَٱلْجَوَابُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي ٱلْإِنْكَارُ عَلَيْهِ بِمُوَافَقَةِ ٱلصُّوفِيَّةِ فِي هَذِهِ ٱلْمَسْأَلَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ غَرَضٌ صَحِيحٌ فِي مُعَامَلَةِ أَرْبَابِ ٱلْقُلُوبِ، فَإِنَّ ٱلصُّوفِيَّ لَوْلَا أَنَّهُ رَأَى صَلَاحَ قَلْبِهِ وَحُضُورَهُ مَعَ ٱللهِ تَعَالَى بِذَلِكَ، مَا مَزَّقَ ثَوْبَهُ، بَلْ يُنْكِرُ

عَلَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ . وَبِالْجُمْلَةِ : فَلَوْ كَانَ جَمِيعُ أَمْوَالِ الدُّنْيَا وَأَمْتِعَتِهَا بِيَدِ الْفَقِيرِ ، وَرَأَى حُضُورَ قَلْبِهِ مَعَ اللهِ تَعَالَى لَحْظَةً بِإِتْلَافِهَا كُلِّهَا ، بِحَرْقِهَا أَوْ رَمْيِهَا فِي الْبَحْرِ ، لَكَانَ لَهُ ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْإِجْتِهَادِ ، وَلَا لَوْمَ إِلَّا عَلَى مَنْ يُمَزِّقُ ثِيَابَهُ ، وَيُتْلِفُ مَالَهُ ، إِسْرَافاً وَسَفَهاً [1] ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ رِجَالٌ ، وَأَنْشَدُوا :

لَوْ ذَاقَ عَاذِلِي [2] صَبَابَتِي صَبَا [3]

مَعِي وَلَكِنْ عَاذِلِي مَا ذَاقَهَا

فَاعْلَمْ ذَلِكَ ، وَالْزَمِ الْأَدَبَ مَعَ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ فِي دَوْلَتَيِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ .

***

الاعتراض الثالث

قَالُوا : وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي الْإِحْيَاءِ : الْمَقْصُودُ بِالرِّيَاضَةِ تَفْرِيغُ الْقَلْبِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْخَلْوَةِ وَالْجُلُوسِ فِي مَكَانٍ مُظْلِمٍ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ

(١) سفها : أى جهلا (٢) عاذلى : أى لائمى (٣) أى مال معى نحو الصبابة والصبابة العشق والهوى

مُظْلِماً لَفَّ رَأْسَهُ فِي جَيْبِهِ ، أَوْ تَدَثَّرَ بِكِسَاءٍ أَوْ رِدَاءٍ ، فَإِنَّهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ يَسْمَعُ نِدَاءَ الْحَقِّ تَعَالَى وَيُشَاهِدُ جَلَالَ الرُّبُوبِيَّةِ .

قَالَ الْمُنْكِرُ : انْظُرُوا إِلَى هَذِهِ التُّرَّهَاتِ [1] الْعَجِيبَةِ ، وَكَيْفَ صَدَرَتْ مِنْ فَقِيهٍ ؟ وَمِنْ أَيْنَ لَهُ أَنَّ الَّذِي يَسْمَعُهُ إِذْ ذَاكَ هُوَ نِدَاءُ الْحَقِّ تَعَالَى ؟ وَأَنَّ الَّذِي يُشَاهِدُهُ هُوَ جَلَالُ الرُّبُوبِيَّةِ ؟ وَمَا يُدْرِيهِ أَنْ يَكُونَ مَا يَجِدُهُ هُوَ مِنَ الْوَسَاوِسِ وَالْخَيَالَاتِ الْفَاسِدَةِ ؟ وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ مِمَّنْ يَسْتَعْمِلُ التَّقَلُّلَ فِي الْمَطْعَمِ ، فَإِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْمَالِيخُولْيَا [2] .

وَالْجَوَابُ : أَنَّ مَاقَالَهُ الْغَزَالِيُّ ، تَبَعاً لِغَيْرِهِ ، صَحِيحٌ ، وَلَكِنْ لَهُ شُرُوطٌ عِنْدَ أَهْلِ الطَّرِيقِ ، مِنْ بُلُوغِهِ فِي الْوَرَعِ الْغَايَةَ الْقُصْوَى ، وَمُدَاوَمَتِهِ مُرَاقَبَةَ اللهِ مَعَ

---

(١) الترهات : جمع ترهة وهى الاباطيل (٢) الماليخوليا : نوع من الجنون

ٱلْأَنْفَاسِ، وَعَدَمِ شُغْلِ قَلْبِهِ بِنَعِيمِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ، وَهُنَاكَ يَخْرُجُ ٱلْعَبْدُ مِنْ مَوَاطِنِ ٱلتَّلْبِيسِ (١) مِنَ ٱلنَّفْسِ وَٱلشَّيْطَانِ، وَتَصِيرُ رُوحُهُ مَلَكِيَّةً، فَيُشَاهِدُ جَلَالَ ٱلرُّبُوبِيَّةِ كَمَا تُشَاهِدُهُ ٱلْمَلَائِكَةُ، وَكُلُّ مَنْ دَخَلَ ٱلْحَضْرَةَ عَلَى مُصْطَلَحِ أَهْلِ ٱللهِ عَرَفَ مَا أَقُولُ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ فَمَعْذُورٌ فِي إِنْكَارِهِ لِعَدَمِ وُجْدَانِهِ، ذَكَرَهُ ٱلْغَزَالِيُّ نَفْسُهُ.

***

الاعتراض الرابع

وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ أَيْضاً: تَقْرِيرُهُ فِي ٱلْإِحْيَاءِ قَوْلَ أَبِي سُلَيْمَانَ ٱلدَّارَانِيِّ: إِذَا طَلَبَ ٱلرَّجُلُ ٱلْحَدِيثَ، أَوْ سَافَرَ فِي طَلَبِ ٱلْمَعَاشِ، أَوْ تَزَوَّجَ، فَقَدْ رَكَنَ إِلَى ٱلدُّنْيَا.

قَالَ ٱلْمُنْكِرُ: هَذِهِ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْأَشْيَاءُ غَيْرُ مُخَالِفَةٍ لِقَوَاعِدِ ٱلشَّرِيعَةِ، وَكَيْفَ لَا يُطْلَبُ ٱلْحَدِيثُ وَقَدْ وَرَدَ: «إِنَّ

(١) التلبيس: الخلط والتدليس وكتمان العيب مع اظهار خلافه

ٱلْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ ٱلْعِلْمِ »؟ وَكَيْفَ لَا يُطْلَبُ ٱلْمَعَاشُ، وَقَدْ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ : « لَأَنْ أَمُوتَ فِي سَعْيِ رِجْلِي ، أَطْلُبَ كَفَافَ وَجْهِي ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ ٱللهِ» ، وَكَيْفَ لَا يُطْلَبُ ٱلتَّزْوِيجُ ؟ وَصَاحِبُ ٱلشَّرْعِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « تَنَاكَحُوا تَنَاسَلُوا » ؟ فَمَا أَدْرِي هَذِهِ ٱلْأَوْضَاعَ مِنَ ٱلصُّوفِيَّةِ إِلَّا عَلَى خِلَافِ ٱلشَّرْعِ .

وَٱلْجَوَابُ : أَنَّ مِثْلَ ٱلْغَزَالِيِّ لَا يَجْهَلُ مِثْلَ هَذِهِ ٱلْأُمُورِ . بِدَلِيلِ مَدْحِهَا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ مِنْ كِتَابِ ٱلْإِحْيَاءِ ، وَإِنَّمَا : مُرَادُهُ أَنَّ ٱلدُّخُولَ فِي هَذِهِ ٱلْأُمُورِ مِنَ لَازِمِهِ غَالِبًا دُخُولُ ٱلْآفَاتِ ٱلَّتِي تُحِيطُهَا ، فَإِنَّ مَنْ طَلَبَ ٱلْحَدِيثَ لَزِمَتْهُ ٱلرِّيَاسَةُ ، وَصَارَ مُقَدَّمًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَٱلْإِكْرَامِ عَلَى مَنْ لَا يَطْلُبُهُ ، وَقَلَّ مَنْ يَتَخَلَّصُ مِنَ ٱلْمَحَبَّةِ وَٱلْمَيْلِ لِمِثْلِ ذَلِكَ ، وَأَمَّا ٱلتِّجَارَةُ وَٱلْبَيْعُ

وَالشَّرَاءِ مَعَ الْخَلَاصِ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى الدُّنْيَا ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا مِمَّنْ كَمُلَ سُلُوكُهُ ، وَدَخَلَ حَضْرَةَ اللهِ وَعَرَفَ الْمَوَاقِعَ كُلَّهَا ، فَكَلَامُ أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيِّ جَرَى عَلَى الْغَالِبِ ، فَلَا لَوْمَ عَلَى الْغَزَالِيِّ فِي تَقْرِيرِهِ إِيَّاهُ. وَأَمَّا كَوْنُ التَّزْوِيجِ مِنْ جُمْلَةِ الْمَيْلِ إِلَى الدُّنْيَا ، فَهُوَ ظَاهِرٌ لِأَنَّهُ فِي الْغَالِبِ يُطْلَبُ لِلِاسْتِمْتَاعِ ، وَذَلِكَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْوُقُوعِ فِي الْآفَاتِ الَّتِي كَانَ عَنْهَا بِمَعْزِلٍ أَيَّامَ عُزُوبَتِهِ ، لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ مُتَجَرِّدًا عَنِ الْقِيَامِ فِي الْأَسْبَابِ الَّتِي تَجْلِبُ لَهُ أَمْرَ مَعَاشِهِ ، فَإِنَّهُ يَتْلَفُ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَيَلْزَمُهُ الرِّيَاءُ لِكُلِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ لُقْمَةً ، أَوْ خِرْقَةً أَوْ غَيْرَهُمَا ، فَأَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيْهِ مَنْ يَذُمُّهُ عِنْدَهُ ، خَوْفًا أَنْ يَتَغَيَّرَ اعْتِقَادُهُ فِيهِ ، فَيَقْطَعَ عَنْهُ بِرَّهُ ، فَكَأَنَّ عِبَادَةَ هَذَا كُلَّهَا لِأَجْلِ الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيْهِ. فِي الْحَدِيثِ « خَيْرُكُمْ بَعْدَ الْمِائَتَيْنِ الْخَفِيفُ الْحَاذِ »

أَيِ ٱلَّذِى لَا زَوْجَةَ لَهُ وَلَا وَلَدَ ، وَفِى ٱلْحَدِيثِ أَيْضاً « سَيَأْتِى عَلَى أُمَّتِى زَمَنٌ يَكُونُ هَلَاكُ ٱلرَّجُلِ عَلَى يَدِ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ » فَذَكَرَ ٱلْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ « وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُعَيِّرُونَهُ بِضِيقِ ٱلْمَعِيشَةِ إِلَى أَنْ يُورِدُوهُ مَوَارِدَ ٱلْهَلَاكِ »

وَقَدِ ٱسْتَشَارَ شَخْصٌ سَيِّدِى عَلِيًّا ٱلْخَوَّاصَ فِى ٱلتَّزْوِيجِ ، فَقَالَ : شَاوِرْ غَيْرِى . فَقَالَ فَقِيهٌ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تُشِيرَ عَلَيْهِ بِفِعْلِ ٱلسُّنَّةِ ؟ فَقَالَ أَنْتَ مَا حَفِظْتَ إِلَّا كَوْنَهُ سُنَّةً ، أَمَا تَنْظُرُ إِلَى ٱلْآفَاتِ ٱلْمُرَتَّبَةِ عَلَيْهِ ، مِنْ هَلَاكِ ٱلدِّينِ ، وَأَكْلِ ٱلْحَرَامِ وَٱلشُّبُهَاتِ [1] .

***

الاعتراض الخامس

وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ : تَقْرِيرُهُ قَوْلَ ٱلْجُنَيْدِ « إِذَا كَانَ ٱلْأَوْلَادُ عُقُوبَةَ شَهْوَةِ ٱلْحَلَالِ فَمَا ظَنُّكُمْ بِعُقُوبَةِ شَهْوَةِ ٱلْحَرَامِ ؟ »

(١) الشبهات: جمع شبهة وهى التى لم يظهر دليل حلها أو حرمتها .

قَالَ ٱبْنُ ٱلْقَيِّمِ : هَذَا غَلَطٌ مِنَ ٱلْجُنَيْدِ وَمَنْ أَقَرَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ ؟ فَإِنَّ ٱلْجِمَاعَ سُنَّةٌ أَوْ مُبَاحٌ ، وَكِلَاهُمَا لَا عُقُوبَةَ عَلَى فَاعِلِهِ ، جَرْيًا عَلَى قَوَاعِدِ ٱلشَّرِيعَةِ .

وَٱلْجَوَابُ : أَنَّ مُرَادَ ٱلْجُنَيْدِ ٱلْعُقُوبَةُ ٱلَّتِي تَحْصُلُ بِلَازِمِ ذَلِكَ لَا بِعَيْنِهِ ، قَالَ ٱللهُ تَعَالَى : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ (١) » وَقَالَ ٱللهُ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » وَلَا يُحَذِّرُ ٱللهُ تَعَالَى إِلَّا مِمَّا فِيهِ رَائِحَةُ ٱلْإِثْمِ ، وَمِنْ مُصْطَلَحِ ٱلْقَوْمِ ، أَنْ يُؤَاخِذُوا ٱلْمُرِيدَ عَلَى فِعْلِ ٱلْمُبَاحِ ، وَيُعَاقِبُوهُ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ يُوقِفُ عَنِ ٱلتَّرَقِّي وَلِكُلِّ مَقَامٍ رِجَالٌ .

***

الاعتراض السادس

وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ أَيْضًا : تَقْرِيرُهُ قَوْلَ أَبِي حَمْزَةَ ٱلْبَغْدَادِيِّ « إِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنَ ٱللهِ أَنْ أَدْخُلَ ٱلْبَادِيَةَ

(١) فتنة : أى اختبار وامتحان وابتلاء .

وَأَنَا شَبْعَان وَقَدْ اعْتَقَدْتُ التَّوَكُّلَ ، لِئَلَّا يَكُونَ شِبَعِي زَادًا تَزَوَّدْتُ بِهِ »

قَالَ الْمُنْكِرُ : وَمِنَ الْعَجَبِ اعْتِذَارُهُ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ بِقَوْلِهِ : كَلَامُ أَبِي حَمْزَةَ صَحِيحٌ لَكِنْ مُحْتَاجٌ إِلَى شَرْطَيْنِ : أَحَدُهُمَا ، أَنْ تَكُونَ لِلْإِنْسَانِ قُدْرَةٌ فِي نَفْسِهِ بِحَيْثُ يُمْكِنُهُ الصَّبْرُ عَنِ الطَّعَامِ أُسْبُوعًا وَنَحْوَهُ ، وَالثَّانِي أَنْ يُمْكِنَهُ التَّقَوُّتُ بِالْحَشِيشِ ، وَلَا تَخْلُو الْبَادِيَةُ مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ الَّذِي مَعَهُ طَعَامٌ بَعْدَ أُسْبُوعٍ أَوْ يَنْتَهِيَ إِلَى مَحَلَّةٍ ، أَوْ حَشِيشٍ يَجِدُ بِهِ مَا يَقُوتُهُ »

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : أَقْبَحُ مَافِي هَذَا الْقَوْلِ صُدُورُهُ مِنْ فَقِيهٍ ، فَإِنَّهُ قَدْ لَا يَلْقَى أَحَدًا ، وَقَدْ يَضِلُّ ، وَقَدْ يَمْرَضُ ، فَلَا يَصْلُحُ لَهُ الْحَشِيشُ ، وَقَدْ يَلْقَاهُ مَنْ لَا يُطْعِمُهُ ، وَقَدْ يَمُوتُ فَلَا يَدْفِنُهُ أَحَدٌ .

وَالْجَوَابُ : أَمَّا كَلَامُ أَبِي حَمْزَةَ فَهُوَ فِي نِهَايَةِ

ٱلْإِخْلَاصِ ، وَكَذٰلِكَ مَا شَرَطَهُ ٱلْغَزَالِيُّ هُوَ صَحِيحٌ يَتَمَشَّى عَلَى قَوَاعِدِ ٱلْفِقْهِ ، وَأَمَّا مَاذَكَرَهُ ٱبْنُ ٱلْقَيِّمِ فَلَا يَنْهَضُ (١) حُجَّةً وَاضِحَةً عَلَى أَبِي حَمْزَةَ وَٱلْغَزَالِيِّ ، لِأَنَّهُ لَوْ حَمَلَ أَيْضاً ٱلزَّادَ يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ لَهُ مَا يَقَعُ لِمَنْ لَمْ يَحْمِلْهُ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا ، لَـٰكِنْ لَا يَخْفَى أَنَّ حَمْلَ ٱلزَّادِ سُنَّةٌ ، وَمَنْ فَعَلَ ٱلسُّنَّةَ كَانَ تَحْتَ نَظَرِ ٱللهِ بِالْإِمْدَادِ وَٱللُّطْفِ ، لِأَنَّهُ فَعَلَ مَا كَلَّفَهُ ، بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يَحْمِلْ زَادًا فَإِنَّهُ مَوْكُولٌ إِلَى نَفْسِهِ ، وَلَوْ كَانَ مِمَّنْ صَحَّتْ تَجْرِبَتُهُ لِلْحَقِّ تَعَالَى ، فَإِنَّ ٱلْحَقَّ جَلَّ وَعَلَا لَا تَقْيِيدَ عَلَيْهِ ، يَفْعَلُ مَايَشَاءُ ، إِلا إِنْ قَيَّدَ عَلَى نَفْسِهِ بِشَيْءٍ فَلِلْعَبْدِ طَلَبُهُ مِنْهُ عُبُودِيَّةً ، وَقَدْ قَالَ رَجُلٌ لِلْحَسَنِ ٱلْبَصْرِيِّ « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَجْلِسَ فِي مَسْجِدٍ وَأَتْرُكَ ٱلسَّبَبَ ، لِاعْتِقَادِي أَنَّ ٱللهَ لَا يُضَيِّعُنِي ، فَقَالَ لَهُ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ : إِنْ كُنْتَ عَلَى يَقِينِ ٱلسَّيِّدِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْخَلِيلِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فَافْعَلْ ، وَإِلَّا فَٱلْزَمِ ٱلْحِرْفَةَ . وَٱللهُ أَعْلَمُ .

---

(١) أى لايقوم

***

الاعتراض السابع

وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ أَيْضاً تَقْرِيرُهُ مَا حَكَاهُ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ بَاتَ عِنْدَ ٱلسِّبَاعِ فِي بَرِّيَّةٍ لِيَمْتَحِنَ تَوَكُّلَهُ عَلَى ٱللهِ تَعَالَى أَهُوَ صَحِيحٌ أَمْ لَا .

قَالَ ٱلْمُنْكِرُ : كَيْفَ يَجُوزُ لِلْغَزَالِيِّ أَنْ يَسْكُتَ عَمَّا فَعَلَهُ هَذَا ٱلرَّجُلُ مَعَ تَعَرُّضِهِ لِأَسْبَابِ ٱلْهَلَاكِ ، بِمَبِيتِهِ عِنْدَ ٱلسِّبَاعِ ، لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَتْ جِيَاعاً ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ »

وَٱلْجَوَابُ : أَنَّ ذَلِكَ فِي حَقِّ أَرْبَابِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلَّذِينَ يَغْلِبُ حَالُهُمْ حَالَ ٱلسَّبُعِ وَيَرْكَبُونَهُ وَيَعْرُكُونَ أُذُنَهُ وَيَنْقَادُ لَهُمْ ، بَلْ يَخَافُ هُوَ مِنْهُمْ ، وَهَذَا مَقَامٌ يَبْلُغُهُ ٱلْمُرِيدُ أَوَائِلَ دُخُولِهِ فِي ٱلطَّرِيقِ فَيَمْسَحُ ٱللهُ مِنْ قَلْبِهِ ٱلْخَوْفَ مِنْ شَيْءٍ مِنَ ٱلْمَخْلُوقَاتِ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ لِجُمْلَةٍ مِنَ ٱلْأَوْلِيَاءِ ، وَفَوْقَ هَذَا ٱلْمَقَامِ مَقَامٌ

أَرْفَعُ مِنْ هَذَا ، وَهُوَ ٱلْخَوْفُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِي وَٱلتَّبَاعُدُ عَنْهُ ، وَلَوْ عَلِمْنَا أَنَّ ٱللهَ تَعَالَى قَدَّرَ عَلَيْنَا مَا يُؤْذِينَا ، فَنَتَحَفَّظُ مِنَ ٱلْأَذَى حَسْبَ طَاقَتِنَا ، وَيَفْعَلُ ٱللهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ ، وَنُثَابُ عَلَى ذَلِكَ ٱلْحَذَرِ . وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ مَشْهَدُ أَحَدِنَا أَنَّ نَفْسَنَا وَدِيعَةٌ عِنْدَهُ مِنَ ٱللهِ تَعَالَى ، وَقَدْ أَمَرَنَا بِمُدَافَعَةِ ٱلْأَقْدَارِ عَنْهَا . وَٱللهُ أَعْلَمُ .

***

الاعتراض الثامن

وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ أَيْضاً تَقْرِيرُهُ مَا حَكَاهُ عَنْ أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱلدِّينَوَرِيِّ أَنَّهُ حَجَّ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ حِجَّةً وَهُوَ حَافٍ مَكْشُوفُ ٱلرَّأْسِ .

قَالَ ٱبْنُ ٱلْقَيِّمِ : هَذَا مِنْ أَعْظَمِ ٱلْجَهْلِ ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ ٱلْأَذَى لِلرَّأْسِ وَٱلرِّجْلَيْنِ ، وَلَا تَسْلَمُ ٱلْأَرْضُ مِنَ ٱلشَّوْكِ وَٱلْوَعْرِ ، وَكَأَنَّ هَؤُلَاءِ ٱلصُّوفِيَّةَ ٱبْتَكَرُوا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ شَرِيعَةً سَمَّوْهَا بِٱلتَّصَوُّفِ ، وَتَرَكُوا شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَانِبٍ ، فَنَعُوذُ بِٱللهِ

مِنْ تَلْبِيسِ إِبْلِيسَ ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ تُفْسِدُ عَقَائِدَ الْعَوَامِّ وَيَظُنُّونَ أَنَّ فِعْلَهُ مِنَ الصَّوَابِ .

وَالْجَوَابُ : أَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْمُبَادَرَةُ بِالْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ أَتْلَفَ جِسْمَهُ فِي مَرْضَاةِ اللهِ وَتَعْظِيمِ حُرُمَاتِهِ ، وَرُبَّمَا كَانَ مَنْ خَرَجَ لِلْحَجِّ حَافِيًا مَكْشُوفَ الرَّأْسِ وَقَعَ فِي ذَنْبٍ عَظِيمٍ عِنْدَهُ ، وَظَنَّ أَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى سَخِطَ عَلَيْهِ بِسَبَبِهِ ، فَخَرَجَ بِتِلْكَ الْهَيْئَةِ يَطْلُبُ التَّنَصُّلَ (١) مِنْ ذَنْبِهِ عَلَى وَجْهِ الذِّلَّةِ وَالِانْكِسَارِ ، وَقَدْ وَقَعَ لِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ حَجَّ مِنَ الْبَصْرَةِ حَافِيًا فَتَلَقَّاهُ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ وَابْنُ عُيَيْنَةَ ، وَابْنُ أَدْهَمَ ، مِنْ خَارِجِ مَكَّةَ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ ، أَمَا كَانَ مِنَ الرِّفْقِ بِذَاتِكَ أَنْ تَرْكَبَ وَلَوْ حِمَارًا ؟ فَقَالَ : أَمَا يَرْضَى الْعَبْدُ الْآبِقُ (٢) مِنْ سَيِّدِهِ أَنْ يَأْتِيَ إِلَى مُصَالَحَتِهِ إِلَّا رَاكِبًا ؟ فَبَكَى الْفُضَيْلُ وَالْجَمَاعَةُ ، فَانْظُرْ ذَلِكَ وَاقْتَدِ بِهِ . وَاللهُ أَعْلَمُ .

---

(١) التنصل : أى التبرؤ . (٢) الآبق : الهارب .

***

الاعتراض التاسع

وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ أَيْضاً مَاأَجَابَ بِهِ مَنْ سَأَلَهُ عَنْ رَجُلٍ يَدْخُلُ ٱلْبَادِيَةَ بِلَا زَادٍ ، مِنْ قَوْلِهِ : هَذَا مِنْ فِعْلِ رِجَالِ ٱللهِ : قِيلَ لَهُ فَإِنْ مَاتَ ؟ قَالَ ٱلدِّيَةُ (١) عَلَى ٱلْعَاقِلَةِ (٢) قَالَ ٱلْمُنْكِرُ : هَذِهِ فَتْوَى جَاهِلٍ بِقَوَاعِدِ ٱلشَّرِيعَةِ ، إِذْ لَا خِلَافَ بَيْنَ فُقَهَاءِ ٱلْإِسْلَامِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ دُخُولُ ٱلْبَادِيَةِ بِغَيْرِ زَادٍ ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَمَاتَ بِالْجُوعِ ، فَهُوَ عَاصٍ مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ فِي ٱلْآخِرَةِ .

وَٱلْجَوَابُ : يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُ ٱلْغَزَالِيِّ مِنْ قَوْلِهِ : هَذَا مِنْ فِعْلِ رِجَالِ ٱللهِ أَرْبَابَ ٱلْأَحْوَالِ ٱلَّذِينَ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ أَحْوَالُهُمْ لَا ٱلْعَارِفِينَ مِنْ مَشَايِخِ ٱلطُّرُقِ بِقَرِينَةِ مَامَرَّ فِي ٱلْجَوَابِ قَبْلَهُ ، فَلَا لَوْمَ عَلَى ٱلْغَزَالِيِّ إِلَّا لَوْ جَعَلَ ذَلِكَ شَائِعاً فِي حَقِّ كُلِّ ٱلنَّاسِ .

---

(١) الدية : الفدية . (٢) العاقلة : عصابة الرجل من جهة أبيه وقرابته .

***

الاعتراض العاشر

وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ أَيْضاً تَقْرِيرُهُ عَنْ أَبِي ٱلْخَيْرِ ٱلْأَقْطَعِ ٱلتِّيتَاتِيِّ قَوْلَهُ إِنِّي عَقَدْتُ مَعَ ٱللهِ عَهْداً أَلَّا آكُلَ شَيْئاً مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ ، فَمَدَدْتُ يَدِي إِلَى ثَمَرَةٍ فِي شَجَرَةٍ فَقَطَعْتُهَا فَبَيْنَمَا أَنَا أَمْضُغُهَا إِذْ ذَكَرْتُ ٱلْعَهْدَ فَرَمَيْتُ بِمَا فِي فَمِي فَدَارَ بِي فُرْسَانٌ ، وَقَالُوا قُمْ ، وَأَخْرَجُونِي إِلَى سَاحِلِ بَحْرِ إِسْكَنْدَرِيَّةَ ، وَإِذَا أَمِيرٌ وَحَوْلَهُ خَيْلٌ وَجُنْدٌ ، فَقَالُوا أَنْتَ مِنَ ٱللُّصُوصِ ، وَإِذَا مَعَهُمْ جَمَاعَةٌ مِنْ لُصُوصِ ٱلسُّودَانِ ، فَسَأَلُوهُمْ عَنِّي فَقَالُوا لَا نَعْرِفُهُ ، فَكَذَّبَهُمُ ٱلْأَمِيرُ ، وَشَرَعَ يُقَدِّمُ يَداً وَيَقْطَعُهَا إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَيَّ فَقَالَ : تَقَدَّمْ وَمُدَّ يَدَكَ فَمَدَدْتُهَا فَقُطِعَتْ إِلَى آخِرِهَا .

قَالَ ٱلْمُنْكِرُ : فَٱنْظُرُوا إِلَى هَذَا ٱلْجَهْلِ ٱلْعَظِيمِ مَا فَعَلَ بِصَاحِبِهِ ، وَلَوْ أَنَّ عِنْدَ ٱلتِّيتَاتِيِّ رَائِحَةَ عِلْمٍ لَعَلِمَ أَنَّ مَا فَعَلَهُ حَرَامٌ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ لِإِبْلِيسَ عَوْنٌ عَلَى ٱلزُّهَّادِ وَٱلْعُبَّادِ أَكْثَرَ مِنَ ٱلْجَهْلِ ، وَمَا أَظُنُّ غَالِبَ مَا يَقَعُ لِهَؤُلَاءِ إِلَّا مِنَ ٱلْمَالِيخُولْيَاتِ .

وَالْجَوَابُ : لَا يَنْبَغِى الْإِنْكَار عَلَى أَبِى الْخَيْرِ وَلَا عَلَى الْغَزَالِىِّ فَإِنَّهُمَا مُجْتَهِدَانِ فِى ذَلِكَ ، فَرَأَيَا أَنَّ نَقْضَ (١) الْعَهْدِ عِنْدَ الْأَكَابِرِ أَعْظَمُ مِنْ سَرِقَةِ رُبُعِ دِينَارٍ ، وَأَيْضاً فَإِنَّ مَشْهَدَ الْأَكَابِرِ حَضْرَةُ التَّقْدِيرِ الْإِلٰهِىِّ ، فَهُمْ مَعَ الَّذِى قَدَّرَ الْقَطْعَ لَا مَعَ الْبَلَدِ الَّذِى يَقْطَعُ الْيَدَ ، فَكَلَامُ الْغَزَالِىِّ فِى حَقِّ الْأَكَابِرِ ، وَقَوْلُ الْمُنْكِرِ فِى حَقِّ الْأَصَاغِرِ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَكْفِى عُقُوبَةً لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَتُوبَ وَيَسْتَغْفِرَ مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُمَكِّنَ الْجَلَّادَ مِنْ قَطْعِ يَدِهِ مَا أَمْكَنَ ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

***

الاعتراض الحادى عشر

وَمِمَّا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ إِنَّ الِاشْتِغَالَ بِعِلْمِ الظَّاهِرِ بَطَالَةٌ .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : هَذَا جَهْلٌ مُفْرِطٌ مِنْهُ ، وَأَصْلُ ذَمٍّ

(١) نقض العهد : أى إفساده بعد إحكامه

ٱلصُّوفِيَّةِ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُمْ رَأَوْا طَرِيقَ ٱلِاشْتِغَالِ بِهِ لَا يُوَصِّلُهُمْ إِلَى ٱلرِّيَاسَةِ إِلَّا بَعْدَ طُولِ زَمَانٍ بِخِلَافِ طَرِيقَتِهِمُ ٱلْمُبْتَدَعَةِ ، مِنْ لُبْسِهِمُ ٱلزِّيَّ ، وَصَلَاتِهِمْ بِٱللَّيْلِ ، وَصِيَامِهِمْ بِٱلنَّهَارِ ، وَتَقْصِيرِ ٱلثِّيَابِ وَٱلْأَكْمَامِ .

وَٱلْجَوَابُ : لَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ ذَلِكَ ، فَإِنَّ مُرَادَهُ ٱلِاشْتِغَالُ بِهِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْجِدَالِ مُطَالَبَةً ، بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى طَرِيقِ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْعَامِلِينَ ، لِأَنَّ مُرَادَهُ مُطَالَبَةٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، وَكَيْفَ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يُرِيدُ مَافَهِمَهُ ٱلْمُنْكِرُ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ عِلْمَ ٱلشَّرِيعَةِ هُوَ أَسَاسُ عِلْمِ ٱلْحَقِيقَةِ ، إِذِ ٱلشَّرِيعَةُ لَهَا تَقْدِيمُ صَدْرِ ٱلْعِبَادَاتِ ٱلْبَاطِنَةِ ، بِحَيْثُ تَسْتَحِقُّ أَنْ يَقْبَلَهَا ٱللهُ تَفَضُّلًا مِنْهُ[1] ، وَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّ ٱلْغَزَالِيَّ مَا قَالَ ذَلِكَ إِلَّا فِي حَقِّ نَفْسِهِ لَمَّا دَخَلَ طَرِيقَ ٱلْقَوْمِ وَرَأَى كَمَالَهَا وَآدَابَهَا . فَقَالَ : ضَيَّعْنَا عُمُرَنَا فِي ٱلْبَطَالَةِ ، وَٱللهُ أَعْلَمُ

(١) تفضلا منه : أى لا ايجابا عليه كما هو رأى المعتزلة

***

الاعتراض الثانى عشر

وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ أَيْضاً قَوْلُهُ : إِعْلَمْ أَنَّ مَيْلَ قُلُوبِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَى تَحْصِيلِ الْعُلُومِ اللَّدُنِّيَّةِ ، دُونَ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَحُضُّوا (١) عَلَى دِرَاسَةِ الْعِلْمِ ، وَلَا تَحْصِيلِ مَا صَنَّفَهُ الْمُصَنِّفُونَ ، وَإِنَّمَا حَضُّوا عَلَى الِاشْتِغَالِ بِاللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ، وَالِاشْتِغَالِ بِذِكْرِ اللهِ فَقَطْ ، إِلَى آخِرِ مَاقَالَ .

وَعَدَّ الْمُنْكِرُونَ ذَلِكَ مِنْ جُمْلَةِ مَاغَلِطَ الْغَزَالِيُّ فِيهِ وَقَالُوا : قَدْ حَثَّ الشَّرْعُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ ، فَكَيْفَ يَمْدَحُ مَنْ لَمْ يَحُضَّ عَلَى تَحْصِيلِهِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ ؟ وَقَالُوا : عَزِيزٌ أَنْ يَصْدُرَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ مُشْتَرِعٍ (٢) ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى قُبْحُهُ ، وَهُوَ كَالطَّيِّ لِبِسَاطِ الشَّرِيعَةِ حَقِيقَةً ، ثُمَّ عَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ قَدْ فَاتَتِ الْفَضَائِلُ عُلَمَاءَ الْأَمْصَارِ كُلَّهُمْ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَسْلُكُوا طَرِيقَ الصُّوفِيَّةِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ

---

(١) لم يحضوا : أى لم يحثوا (٢) مشترع : أى مظهر ومبين لقوانين الشرع

ٱلَّذِى ذَكَرَهُ ٱلْغَزَالِىُّ ، وَإِذَا تَرَكَ ٱلْإِنْسَانُ ٱلِاشْتِغَالَ بِعِلْمِ ٱلشَّرِيعَةِ ، خَلَتِ ٱلنَّفْسُ بِوَسَاوِسِهَا وَخَيَالَاتِهَا ، وَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهَا مِنَ ٱلْعِلْمِ مَايَطْرُدُ ذٰلِكَ ، فَيَلْعَبُ بِهَا إِبْلِيسُ أَىَّ مَلْعَبٍ .

وَٱلْجَوَابُ : أَنَّ مُرَادَ ٱلْغَزَالِىِّ فِيمَا حَكَاهُ عَنْهُمْ ، إِنَّمَا هُوَ بَعْدَ إِحْكَامِ (١) ٱلْفَقِيرِ عِلْمَ ٱلشَّرِيعَةِ ، فَإِنَّهُ حَكَى إِجْمَاعَ ٱلْقَوْمِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ أَنْ يَدْخُلَ طَرِيقَ ٱلْقَوْمِ إِلَّا بَعْدَ تَضَلُّعِهِ مِنْ عُلُومِ ٱلشَّرِيعَةِ ، بِحَيْثُ يَصِيرُ يَقْطَعُ عُلَمَاءَ ٱلشَّرِيعَةِ بِٱلْحُجَجِ فِى مَجْلِسِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ، فَلَا يَنْبَغِى حَمْلُ مِثْلِ كَلَامِهِ عَلَى أَنَّ مُرَادَهُ مَدْحُ ٱلِاشْتِغَالِ بِأَحْوَالِ طَرِيقِ ٱلْقَوْمِ مِنْ غَيْرِ تَقَدُّمِ عِلْمِهِمْ لِلشَّرِيعَةِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ أَبْعَدُ مِنَ ٱلْبَعِيدِ ، فَٱلْغَزَالِىُّ فِى وَادٍ وَٱلْمُنْكِرُ فِى وَادٍ .

***

الاعتراض الثالث عشر

وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ فِى تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً

عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ « وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ » أَنَّ ٱلْأَصْنَامَ هِيَ ٱلذَّهَبُ وَٱلْفِضَّةُ ، وَعِبَادَتُهُمَا حُبُّهُمَا وَٱلِاغْتِرَارُ (١) بِهِمَا .

قَالَ ٱبْنُ ٱلْقَيِّمِ : وَهُوَ تَفْسِيرٌ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُفَسِّرِينَ .

وَٱلْجَوَابُ : لَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْكَرَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، فَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ « تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّينَارِ وَٱلدِّرْهَمِ وَعَبْدُ ٱلْخَمِيصَةِ (٢) » فَسُمِّيَ مُحِبُّ هَذِهِ ٱلْأُمُورِ عَبْدًا لَهَا ، مَعَ أَنَّهَا لَا تَعْقِلُ ، وَلَا تَدْرِي مَنْ يُحِبُّهَا ، وَلَا مَنْ يُبْغِضُهَا ، فَكَانَتْ كَٱلْأَصْنَامِ ، وَٱلْعِبَادَةُ فِي ٱللُّغَةِ ، ٱلْمَيْلُ إِلَى ٱلشَّيْءِ وَٱلطَّاعَةُ لَهُ ، قَالَ تَعَالَى : « يَابَنِي آدَمَ (٣) أَلَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَانَ » أَيْ لَا تُطِيعُوهُ فِي وَسْوَسَتِهِ لَكُمْ

---

(١) الاغترار : الانخداع (٢) الخميصة : ثوب أسود مربع (٣) يابنى آدم الخ : أول الآية ألم أعهد إليكم يا بنى الخ

بِالسُّوءِ ، فَلَمَّا كَنَى ٱلْحَقُّ تَعَالَى عَنْ طَاعَةِ إِبْلِيسَ بِالْعِبَادَةِ ٱسْتِعَارَةً مَجَازِيَّةً ، كَذَلِكَ صَحَّ لِلْغَزَالِيِّ ٱسْتِعَارَةُ ٱلْعِبَادَةِ لِلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ، ٱلَّتِي هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ شِدَّةِ مَحَبَّتِهِمَا ، وَمُقَاتَلَةِ ٱلنَّاسِ لِأَجْلِهِمَا ، بِجَامِعِ أَنَّ ٱلْقَلْبَ يَشْتَغِلُ بِهِمَا عَنِ ٱللهِ تَعَالَى ، كَمَا يَشْتَغِلُ عُبَّادُ ٱلْأَصْنَامِ بِهَا عَنِ ٱللهِ تَعَالَى .

***

الاعتراض الرابع عشر

وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ ، تَقْرِيرُهُ فِي ٱلْإِحْيَاءِ قَوْلَ سَهْلٍ ٱلتُّسْتُرِي : « إِنَّ لِلرُّبُوبِيَّةِ سِرًّا ، لَوْ ظَهَرَ لَبَطَلَتِ ٱلنُّبُوَّةُ ، وَإِنَّ لِلنُّبُوَّةِ سِرًّا لَوْ ظَهَرَ لَبَطَلَ ٱلْعِلْمُ ، وَإِنَّ لِلْعُلَمَاءِ بِهِ سِرًّا لَوْ ظَهَرَ لَبَطَلَتِ ٱلْأَحْكَامُ وَٱلشَّرَائِعُ »

قَالَ ٱبْنُ ٱلْقَيِّمِ : ٱنْظُرُوا إِلَى هَذَا ٱلتَّخْلِيطِ (١) ٱلْقَبِيحِ ، وَدَعْوَاهُ أَنَّ بَاطِنَ ٱلشَّرِيعَةِ يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا ، وَذَلِكَ مِنَ ٱلْهَذَيَانِ .

(١) التخليط القبيح : أى الهذيان المزرى

وَالْجَوَابُ : لَا يُنْكَرُ عَلَى سَهْلٍ وَعَلَى الْغَزَالِيِّ ، لِأَنَّ مَاذَكَرَاهُ إِنَّمَا هُوَ عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ وَالتَّقْدِيرِ ، أَيْ أَنَّ لِلّٰهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ وَشَرَائِعِهِ أَسْرَارًا اخْتَصَّ بِهَا دُونَ خَلْقِهِ لِشِدَّةِ حِجَابِهِمْ ، وَلَوْ رُفِعَ هَذَا الْحِجَابُ لَتَسَاوَى عِلْمُهُمْ وَعِلْمُ سَيِّدِهِمْ ، وَلَا قَائِلَ بِذَلِكَ ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَشُمَّ رَائِحَةَ ذَلِكَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَضْرَةِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ قَبْلَ خَلْقِهِ الْخَلْقَ ، أَحَدًا فَرْدًا ، لَا ثَانِيَ مَعَهُ يَشْهَدُ أَبَدًا ، ثُمَّ يَسْتَصْحِبُ هَذَا الْمَشْهَدَ وَهُوَ نَازِلٌ فِي الْمَرَاتِبِ ، مِنْ غَيْرِ تَخَلُّلِ (١) غَفْلَةٍ أَوْ حِجَابٍ ، وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا لَا يُقَالُ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا وَاحِدٌ لَا خَلْقَ مَعَهُ ، ذَهَبَتِ الرِّسَالَةُ وَالرَّسُولُ لِعَدَمِ وُجُودِ مَنْ تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمُ الْأَحْكَامُ . فَكَانَ بَقَاءُ الرِّسَالَةِ وَأَحْكَامِهَا بِعَدَمِ كَشْفِ أَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ ، فَافْهَمْ ذَلِكَ وَاللّٰهُ أَعْلَمُ .

(١) تخلل : أى دخول

***

الاعتراض الخامس عشر

وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ أَيْضاً، قَوْلُهُ: «ضَاعَ لِبَعْضِ الصُّوفِيَّةِ وَلَدٌ صَغِيرٌ فَقِيلَ لَهُ: لَوْ سَأَلْتَ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَرُدَّهُ إِلَيْكَ، فَقَالَ اعْتِرَاضِي عَلَيْهِ أَشَدُّ مِنْ ذَهَابِ وَلَدِي.»

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: لَقَدْ طَالَ تَعَجُّبِي مِنْ أَبِي حَامِدٍ هَذَا كَيْفَ يَحْكِي هَذِهِ الْحِكَايَاتِ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِحْسَانِ لَهَا، وَالرِّضَا عَنْ أَصْحَابِهَا، وَيَعُدُّ الدُّعَاءَ لِلَّهِ تَعَالَى وَالسُّؤَالَ اعْتِرَاضاً، فَقَدْ طَوَى هَذَا بِسَاطَ الشَّرِيعَةِ طَيًّا، إِذِ الدُّعَاءُ مَشْرُوعٌ بِالْإِجْمَاعِ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ مُرَادَ الْغَزَالِيِّ أَنَّ فِي ذَلِكَ مَعْنَى الِاعْتِرَاضِ، لَا أَنَّهُ اعْتِرَاضٌ، وَإِيضَاحُهُ أَنَّ الِاعْتِرَاضَ يَرْجِعُ إِلَى تَمَنِّي غَيْرِ مَا سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ تَعَالَى ضَيَاعُ وَلَدِ هَذَا الصُّوفِيِّ،

فَرَضِيَ بِقَضَاءِ رَبِّهِ ، وَلَمْ يَطْلُبْ رُجُوعَ وَلَدِهِ ، لِيَتَسَاوَى وُجُودُ وَلَدِهِ وَعَدَمُهُ عِنْدَهُ فِي أَيِّ مَكَانٍ كَانَ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ فِي دَارِهِ أَوْ فِي أَقْصَى الْأَرْضِ ، لِأَنَّهُ عَبْدٌ لِلّٰهِ تَعَالَى لَا عَبْدٌ لِوَلَدِهِ .

***

الاعتراض السادس عشر

وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ أَيْضًا عَلَى الْغَزَالِيِّ فِي إِحْيَائِهِ قَوْلُهُ : كَانَ بَعْضُ الشُّيُوخِ فِي بِدَايَتِهِ يَكْسَلُ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ، فَأَلْزَمَ نَفْسَهُ الْقِيَامَ عَلَى رَأْسِهِ طُولَ اللَّيْلِ ، لِتَصِيرَ نَفْسُهُ تُحَبِّبُهُ إِلَى قِيَامِ اللَّيْلِ اخْتِيَارًا ، وَكَذَلِكَ عَالَجَ بَعْضُهُمْ حُبَّ الْمَالِ فَبَاعَ جَمِيعَ أَمْتِعَتِهِ ، وَرَمَى ثَمَنَهَا فِي الْبَحْرِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقَعَ فِي حُبِّ تَزْكِيَةِ النَّاسِ لَهُ ، وَوَصْفِهِ بِالْجُودِ أَوِ الرِّيَاءِ[1] فِي فِعْلِهِ الْمَذْكُورِ[2] ، وَلِذَلِكَ كَانَ بَعْضُهُمْ يَسْتَأْجِرُ مَنْ يَشْتُمُهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ ، لِيُعَوِّدَ نَفْسَهُ الْحِلْمَ ، وَكَانَ آخَرُ يَرْكَبُ الْبَحْرَ فِي الشِّتَاءِ

(١) الرياء : النفاق (٢) الذائع المشهور

عِنْدَ ٱضْطِرَابِ ٱلْمَوْجِ لِيُعَوِّدَ نَفْسَهُ ٱلشَّجَاعَةَ ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ إِذَا خَافَ ٱلنَّوْمَ يَقِفُ عَلَى رَأْسِ حَائِطٍ عَالٍ حَتَّى لَا يَأْخُذَهُ ٱلنَّوْمُ .

قَالَ ٱلْمُنْكِرُ : أَعْجَبُ مِنْ كُلِّ هَؤُلَاءِ عِنْدِى هُوَ أَبُو حَامِدٍ نَفْسُهُ ، كَيْفَ حَكَى هَذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ وَلَمْ يُنْكِرْهَا ، وَلَكِنْ كَيْفَ يُنْكِرُهَا وَقَدْ أَتَى بِهَا فِى مَعْرِضِ ٱلتَّعْلِيمِ وَلَمْ يَزِنْهَا بِمِيزَانِ ٱلشَّرِيعَةِ ، وَهُوَ قَبْلَ أَنْ يُورِدَ هَذِهِ ٱلْحِكَايَاتِ قَالَ : يَنْبَغِى لِلشَّيْخِ أَنْ يَنْظُرَ حَالَةَ ٱلْمُبْتَدِئِ ، فَإِنْ رَأَى عِنْدَهُ مَالًا حَاضِرًا زَائِدًا عَنْ حَاجَتِهِ أَخَذَهُ مِنْهُ فَصَرَفَهُ فِى ٱلْخَيْرِ ، وَفَرَّغَ قَلْبَ ٱلْمُرِيدِ مِنْهُ ، حَتَّى لَا يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ ، وَإِنْ رَأَى ٱلْكِبْرَ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ ، أَمَرَهُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى ٱلسُّوقِ لِلْحِرْفَةِ ، وَٱلسُّؤَالِ بِٱلْإِلْحَاحِ ، وَيُكَلِّفُهُ ٱلْمُوَاظَبَةَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ رَأَى ٱلْغَالِبَ عَلَيْهِ ٱلْبَطَالَةَ ، ٱسْتَخْدَمَهُ فِى تَعَهُّدِ ٱلْأَخْلِيَةِ ،

وَتَنْظِيفِهَا مِنَ ٱلْقَذَرِ ، وَمُلَازَمَةِ ٱلْمَطْبَخِ ، وَكَنْسِ ٱلْقَاذُورَاتِ ، وَمَوَاضِعِ ٱلدُّخَانِ ، وَإِنْ رَأَى شَرَهَ حُبِّ ٱلطَّعَامِ غَالِباً عَلَيْهِ أَلْزَمَهُ ٱلصَّوْمَ ، وَإِنْ رَآهُ عَزَباً وَلَمْ تَنْكَسِرْ شَهْوَتُهُ بِالصَّوْمِ ، أَمَرَهُ أَنْ يُفْطِرَ لَيْلَةً عَلَى ٱلْمَاءِ دُونَ ٱلْخُبْزِ ، وَلَيْلَةً عَلَى ٱلْخُبْزِ دُونَ ٱلْمَاءِ ، وَيَمْنَعُهُ ٱللَّحْمَ رَأْسًا .

قَالَ ٱبْنُ ٱلْقَيِّمِ : وَإِنِّي لَأَتَعَجَّبُ مِنْ أَبِي حَامِدٍ هَذَا ، كَيْفَ يَأْمُرُ بِهَذِهِ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تُخَالِفُ ٱلشَّرِيعَةَ ، وَكَيْفَ يُحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُومَ عَلَى رَأْسِهِ طُولَ ٱللَّيْلِ ؟ وَكَيْفَ يُحِلُّ رَمْيَ ٱلْمَالِ فِي ٱلْبَحْرِ ؟ وَكَيْفَ يُحِلُّ سَبَّ ٱلْمُسْلِمِ بِلَا سَبَبٍ ؟ وَهَلْ يَجُوزُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَسْتَأْجِرَ مَنْ يَشْتُمُهُ ؟ وَهَلْ يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُومَ عَلَى رَأْسِ جِدَارٍ عَالٍ وَيُعَرِّضَ نَفْسَهُ لِلْوُقُوعِ بِالنَّوْمِ فَتَنْكَسِرَ رَقَبَتُهُ فَيَمُوتَ ؟ فَمَا أَرْخَصَ مَا بَاعَ أَبُو حَامِدٍ ٱلْفِقْهَ بِالتَّصَوُّفِ ؟

وَالْجَوَابُ : أَنَّ أَهْلَ الطَّرِيقِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مُجْتَهِدُونَ ، وَلَا سِيَّمَا فِي تَرْجِيحِ الْأَعْمَالِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ ، فَكُلَّمَا أَدَّى اجْتِهَادُهُمْ إِلَى أَنَّهُ أَرْضَى لِلَّهِ تَعَالَى ، أَوْ فِيهِ تَقْرِيبٌ لِلطَّرِيقِ عَلَى الْمُرِيدِينَ قَدَّمُوهُ ، عَلَى أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنَّ الشَّيْخَ كَانَ مِمَّنْ أَقْدَرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى جَمْعِ ذَلِكَ الْمَالِ الَّذِي أَقَرَّ مُرِيدَهُ بِرَمْيِهِ فِي الْبَحْرِ ، وَكَذَلِكَ يُحْتَمَلُ أَنَّ الشَّيْخَ مَا أَمَرَهُ بِالْوُقُوفِ عَلَى رَأْسِهِ أَوْ عَلَى رَأْسِ جِدَارٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ عَلِمَ قُدْرَتَهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَوْ بِإِدْمَانٍ سَابِقٍ.

***

الاعتراض السابع عشر

وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ أَيْضاً ، حِكَايَتُهُ عَنْ أَبِي تُرَاب النَّخْشَبِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِمُرِيدٍ لَهُ : لَوْ رَأَيْتَ أَبَا يَزِيدَ مَرَّةً وَاحِدَةً كَانَ أَنْفَعَ لَكَ مِنْ رُؤْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ سَبْعِينَ مَرَّةً .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : هَذَا الْكَلَامُ فَوْقَ الْجُنُونِ بِدَرَجَاتٍ .

وَالْجَوابُ : لَا يُنْكِرُ تقْرِيرَهُ أَبَاتُرَابٍ عَلَى مَقَالَتِهِ ، لِأَنَّ مُرَادَهُ أَنَّ ذَلِكَ الْمُرِيدَ يَجْهَلُ مَقَامَ الْأَدَبِ وَالْمَعْرِفَةِ لِلّٰهِ تَعَالَى ، فَهُوَ لَا يَنْتَفِعُ بِرُؤْيَتِهِ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَنْفَحَهُ (١) الْحَقُّ تَعَالَى بِشَيْءٍ مِنَ الْآدَابِ ، بِخِلَافِ رُؤْيَةِ أَبِي يَزِيدَ فَإِنَّهَا تُعَلِّمُهُ طَرِيقَ الْأَدَبِ مَعَ اللّٰهِ تَعَالَى وَمَعَ خَلْقِهِ ، فَكَانَتْ أَنْفَعَ لَهُ مِنْ رُؤْيَةِ رَبِّهِ ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ أَنَّهُ هُوَ ، وَهَذَا هُوَ شَأْنُ أَكْثَرِ النَّاسِ الْيَوْمَ فَلَا يَصِحُّ لَهُمُ الْأَخْذُ عَنِ اللّٰهِ تَعَالَى لِكَثْرَةِ الْحُجُبِ الَّتِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِ أَبِي تُرَابٍ ، وَلَيْسَ مُرَادُهُ أَنَّ رُؤْيَةَ أَبِي يَزِيدَ أَفْضَلُ مِنْ رُؤْيَةِ اللّٰهِ تَعَالَى لِمَنْ يَعْرِفُهُ .

***

الاعتراض الثامن عشر

وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ أَيْضاً عَلَيْهِ فِي حِكَايَتِهِ عَنِ ابْنِ الْكُرَيِّيِّ شَيْخِ الْجُنَيْدِ أَنَّهُ قَالَ : نَزَلْتُ فِي مَحَلَّةٍ

(١) أن ينفحه : أن يعطيه

فَعُرِفْتُ فِيهَا بِالصَّلَاحِ ، فَشَتَّ[1] قَلْبِي وَنَفَرَ[2] مِنِّي ، فَدَخَلْتُ الْحَمَّامَ ، وَسَرَقْتُ ثِيَابًا فَاخِرَةً وَلَبِسْتُهَا ، ثُمَّ لَبِسْتُ مُرَقَّعَتِي فَوْقَهَا وَخَرَجْتُ ، فَجَعَلْتُ أَمْشِي قَلِيلًا قَلِيلًا ، فَلَحِقُونِي وَأَخَذُوا مِنِّي الثِّيَابَ ، وَصَفَعُونِي وَسَمُّونِي ، « لِصَّ الْحَمَّامِ » فَسَكَنَتْ نَفْسِي . قَالَ الْغَزَالِيُّ : فَهَكَذَا كَانُوا يُرَوِّضُونَ[3] أَنْفُسَهُمْ حَتَّى يُخَلِّصَهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ فِتْنَةِ النَّظَرِ إِلَى الْخَلْقِ وَمُرَاعَاتِهِمْ لَهُ ، ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ النَّظَرِ إِلَى النَّفْسِ وَأَرْبَابَ الْأَحْوَالِ ، رُبَّمَا عَالَجُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا لَا يُفْتِي بِهِ الْفَقِيهُ ، مَهْمَا رَأَوْا صَلَاحَ قُلُوبِهِمْ بِذَلِكَ ، ثُمَّ يَتَدَارَكُونَ مَا فَرَطَ مِنْهُمْ مِنْ صُورَةِ التَّقْصِيرِ ، كَمَا فَعَلَ هَذَا فِي الْحَمَّامِ .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : سُبْحَانَ[4] مَنْ أَخْرَجَ أَبَا حَامِدٍ مِنْ دَائِرَةِ الْفِقْهِ بِتَصْنِيفِ كِتَابِ الْإِحْيَاءِ ، فَلَيْتَهُ لَمْ

---

(١) شت : أى بعد وتفرق (٢) نفر : أى تباعد (٣) يروضون أى يذللون ويسخرون (٤) سبحان : هى هنا للتعجب

يَحْكِ فِيهِ هَذِهِ الْأُمُورَ ، الَّتِي لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ السُّكُوتُ عَلَيْهَا ، وَالْعَجَبُ أَنَّهُ يَحْكِي هَذِهِ الْأُمُورَ وَيَسْتَحْسِنُهَا ، وَيُسَمِّي أَصْحَابَهَا أَرْبَابَ الْاحْوَالِ ، وَأَيُّ حَالَةٍ أَقْبَحُ مِنْ حَالِ مَنْ خَالَفَ الشَّرِيعَةَ ، وَرَأَى الْمَصْلَحَةَ فِي النَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِهَا ؟ وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَطْلُبَ صَلَاحَ الْقُلُوبِ بِفِعْلِ الْمَعَاصِي ؟ ثُمَّ كَيْفَ يَجُوزُ التَّصَرُّفُ فِي مَالِ الْغَيْرِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ ؟ فَإِنَّ فِي نَصِّ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَالشَّافِعِيِّ أَنَّ مَنْ سَرَقَ مِنَ الْحَمَّامِ ثِيَابًا عَلَيْهَا حَافِظٌ وَجَبَ قَطْعُ يَدِهِ ، ثُمَّ أَيْنَ أَرْبَابُ الْأَحْوَالِ أَوَّلًا ، حَتَّى يَعْمَلَ الْعَبْدُ عَلَى وِفَاقِهِمْ فِي الرِّيَاضَةِ ؟ كَلَّا وَاللهِ ، إِنَّهَا لَشَرِيعَةٌ لَوْ رَامَ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنْ يَخْرُجَ عَنْهَا لَمَا وَجَدَ لِذَلِكَ مَسَاغًا (١) ، وَلَوْ أَنَّهُ خَالَفَهَا وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ لَكَانَ عَمَلُهُ مَرْدُودًا عَلَيْهِ ، إِذِ الْحَقُّ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا كَانَ عَلَى وَفْقِ

(١) أى مايسوغه و يجيزه

الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ ، قَالَ : وَتَعَجَّبِي مِنْ هَذَا الْفَقِيهِ الَّذِي اسْتَلَبَ التَّصَوُّفُ عَقْلَهُ وَعِلْمَهُ أَكْثَرُ مِنْ تَعَجُّبِي مِنْ هَذَا الْمُسْتَلِبِ الثِّيَابِ مِنَ الْحَمَّامِ ، فَيَالَيْتَ أَبَا حَامِدٍ بَقِيَ مَعَ قَوَاعِدِ الْفِقْهِ ، وَاسْتَغْنَى عَنْ هَذِهِ الْهَذَيَانَاتِ .

وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا كُلِّهِ كَمَا سَبَقَ ، وَهُوَ أَنَّ الْقَوْمَ مُجْتَهِدُونَ فِي أَحْكَامِ الطَّرِيقِ ، فَكُلُّ مَا رَأَوْهُ أَصْلَحَ لِقُلُوبِهِمْ عَمِلُوا بِهِ ، وَذَلِكَ مِنْ بَابِ تَعَارُضِ الْمَفْسَدَتَيْنِ فَيَجِبُ ارْتِكَابُ الْأَخَفِّ مِنْهُمَا . وَأَمَّا مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ الْفِعْلِ شَرْعًا ، فَقَدْ جَرَّبُوا حِمَايَتَهُمْ مِنْ وُقُوعِ الْعُقُوبَةِ لَهُمْ بِسَبَبِهِ ، بَلْ يَعْرِفُهُمُ النَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ وَيُقَبِّلُونَ أَيْدِيَهُمْ فَاعْلَمْ ذَلِكَ .

قُلْتُ — أَيِ السَّيِّدُ الْمُرْتَضَى - وَقَدْ نَقَلَ الْغَزَالِيُّ مِثْلَ هَذِهِ الْحِكَايَةِ الَّتِي جَرَتْ فِي الْحَمَّامِ لِابْنِ الْكَرَبِيِّ ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَوَّاصِ ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ ابْنُ الْقَيِّمِ ، كَإِنْكَارِهِ عَلَى الْأَوَّلِ ، وَتَعَجَّبَ مِنْ أَبِي حَامِدٍ

وَقَالَ : فَيَالَيْتَهُ لَمْ يَتَصَوَّفْ ، وَالْجَوَابُ وَاحِدٌ ، وَأَنَّ لِلْفَقِيرِ أَنْ يُدَاوِيَ قَلْبَهُ بِبَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ ، لِيَدْفَعَ عَنْهُ مُحَرَّمًا آخَرَ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ ، قِيَاسًا عَلَى مُدَاوَاةِ الْأَجْسَامِ ، وَالْأَمْرَاضُ إِنَّمَا تُدَاوَى بِأَضْدَادِ عِلَلِهَا ، وَأَيْنَ هَلَاكُ الْأَبْدَانِ مِنْ هَلَاكِ الْقُلُوبِ ؟ !

* * *

الاعتراض التاسع عشر

وَمِمَّا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ أَيْضًا تَقْرِيرُهُ الشِّبْلِيَّ عَلَى رَمْيِ مَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الدَّنَانِيرِ فِي الدِّجْلَةِ ، وَقَالَ مَا أَعَزَّكَ عَبْدٌ إِلَّا أَذَلَّهُ اللهُ ؟

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : وَأَنَا أَتَعَجَّبُ مِنْ أَبِي حَامِدٍ ، أَكْثَرَ مِنْ تَعَجُّبِي مِنْ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةِ بِالشَّرِيعَةِ ، كَيْفَ يَحْكِي ذَلِكَ عَنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الْمَدْحِ لَهُمْ ؟ لَا عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ ، وَأَيُّ رَائِحَةٍ بَقِيَتْ مِنَ الْفِقْهِ عِنْدَ أَبِي حَامِدٍ حَتَّى يُكْتَبَ عَنْهُ شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ ، فَإِنَّ الْفُقَهَاءَ كُلَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ رَمْيَ الْمَالِ فِي الْبَحْرِ لَا يَجُوزُ .

وَالْجَوَابُ قَدْ تَقَدَّمَ مِرَارًا ، مِنْ أَنَّ أَهْلَ الطَّرِيقِ مُجْتَهِدُونَ فِي أَحْوَالِهِمْ وَأَنَّ مِنْ قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ ارْتِكَابَ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ إِذَا تَعَارَضَ مَعَنَا مَفْسَدَتَانِ ، وَقَدْ تَعَارَضَ هُنَا أَمْرَانِ ، أَحَدُهُمَا مَفْسَدَةٌ لِلدِّينِ ، فَقَدَّمُوهُ عَلَى الْمُفْسِدِ لِلدُّنْيَا ، فَافْهَمْ وَاللهُ أَعْلَمُ

***

الاعتراض العشرون

وَمِمَّا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ أَيْضًا ، مَا حَكَاهُ عَنْ شَقِيقٍ الْبَلْخِيِّ أَنَّهُ رَأَى مَعَ شَخْصٍ رَغِيفًا لِيُفْطِرَ عَلَيْهِ مِنْ صَوْمِهِ ، فَهَجَرَهُ وَقَالَ : تُمْسِكُ رَغِيفًا إِلَى اللَّيْلِ ؟

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْجَهْلِ الْعَظِيمِ بِالشَّرِيعَةِ ، كَيْفَ يَفْعَلُ مُحَرَّمًا لِأَجْلِ أَمْرٍ مُبَاحٍ ، وَكَيْفَ يَجُوزُ هَجْرُ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ سَبَبٍ مُسَوِّغٍ لِذَلِكَ ، وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّ هَؤُلَاءِ لَمَّا قَلَّ عِلْمُهُمْ بِالشَّرْعِ ، صَدَرَتْ مِنْهُمْ هَذِهِ الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ الْمُخَالِفَةُ لِلشَّرِيعَةِ . وَقَدْ كَانَ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى يَقُولُ : عِنْدِي أَنَّ مُخَالَفَةَ الصُّوفِيَّةِ مِنْ جُمْلَةِ

طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلَـكِنِ اصْطَلَحَ الذِّئْبُ وَالْغَنَمُ ، وَقَدْ أَنْـكَرَ الْفُقَهَاءُ بِمِصْرَ عَلَى ذِى النُّونِ (١) ، وَأَخْرَجُوهُ مِنْ أَخْمِيمَ - إِلَى الْجَزِيرَةِ - إِلَى بَغْدَادَ .

وَكَذَلِكَ أَنْـكَرُوا عَلَى أَبِى يَزِيدَ الْبُسْطَامِىِّ ، وَعَلَى أَبِى سُلَيْمَانَ الدَّارَانِىِّ ، وَأَحْمَدَ ابْنِ أَبِى الْحَوَارِى ، وَسَهْلٍ التَّسْتَرِىِّ وَغَيْرِهِمْ ، وَكُلُّ ذَلِكَ لِمَا كَانُوا يَقَعُونَ فِيهِ مِنْ مُخَالَفَةِ ظَاهِرِ الشَّرْعِ . قَالَ : أَى ابْنُ الْقَيِّمِ

وَقَدْ كَانَتِ الزَّنَادِقَةُ فِى الْعَصْرِ الْأَوَّلِ يَكْتُمُونَ حَالَهُمْ ، وَلَمْ يَتَجَاسَرُوا عَلَى إِظْهَارِ مَاعِنْدَهُمْ ، حَتَّى جَاءَتِ الصُّوفِيَّةُ ، فَرَفَضُوا الشَّرِيعَةَ جَهْرًا ، وَتَسَتَّرُوا بِمُسَمَّى الْحَقِيقَةِ ، وَصَارُوا يَقُولُونَ : « هَذَا شَرِيعَةٌ » ، « وَهَذَا حَقِيقَةٌ » ، وَهَذَا مِنْ أَقْبَحِ الْأُمُورِ ، لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ قَدْ وَضَعَهَا الْحَقُّ تَعَالَى لِصَالِحِ الْعِبَادِ فِى الدَّارَيْنِ ، فَمَا الْحَقِيقَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا إِلْقَاءُ الشَّيْطَانِ فِى النَّفْسِ ، وَقَدْ تَمَادَى

(١) ذى النون : صالح من كبار الصوفية

هُؤُلَاءِ ٱلْجَهَلَةُ فِي غَيِّهِمْ حَتَّى صَارَ أَحَدُهُمْ يَقُولُ : حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي ، وَفِي ذَلِكَ تَصْرِيحٌ بِالِاسْتِغْنَاءِ عَنْ بِعْثَةِ ٱلرُّسُلِ ، وَهُوَ كُفْرٌ ، وَهِيَ حِكْمَةٌ مَدْسُوسَةٌ فِي ٱلشَّرِيعَةِ تَحْتَهَا هَذِهِ ٱلزَّنْدَقَةُ (١) وَلَكِنْ قَدْ صَارَ ٱلْخَوَارِجُ عَنِ ٱلشَّرِيعَةِ كَثِيرًا بِالسُّكُوتِ عَلَى هَؤُلَاءِ ٱلْجُهَّالِ ٱلَّذِينَ سَمَّوْا أَنْفُسَهُمْ بِالصُّوفِيَّةِ . . . إلخ .

وَٱلْجَوَابُ : أَمَّا هَجْرُ شَقِيقٍ ٱلْبَلْخِيِّ لِمَنْ أَمْسَكَ ٱلرَّغِيفَ إِلَى آخِرِ ٱلنَّهَارِ ، فَهُوَ جَائِزٌ لِيُخْرِجَهُ مِنْ وَرْطَةِ ٱلْحِرْصِ ، وَطُولِ ٱلْأَمَلِ ، وَٱلْوُقُوعِ فِي رَائِحَةِ ٱلِاتِّهَامِ لِلْحَقِّ تَعَالَى فِي أَنَّهُ يُضَيِّعُهُ وَيُمِيتُهُ جُوعًا ، إِذَا لَمْ يُمْسِكِ ٱلرَّغِيفَ ، وَلَوْ أَنَّهُ قَوَّى يَقِينَهُ ، لَكَانَ تَرَكَ إِمْسَاكَ ٱلرَّغِيفِ وَطَلَبَهُ وَقْتَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ فَقَطْ ، وَٱسْتَرَاحَ مِنَ ٱلْوُقُوعِ فِي ٱلْحِرْصِ ، وَٱلشَّكِّ فِي أَنَّ ٱللهَ تَعَالَى يُضَيِّعُهُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ ٱلرَّغِيفَ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَقْسُومًا لَهُ ،

(١) الزندقة : الكفر باطنا مع التظاهر بالإيمان

فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْكُلَهُ ، فَهُوَ وَلَوْ رَمَاهُ فِي السُّوقِ يَعُودُ إِلَيْهِ ، وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ مَقْسُوماً لَهُ ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي إِمْسَاكِهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا أَمْسَكَهُ إِلَى وَقْتِ الْفِطْرِ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَكْلِهِ ، بَلْ يَأْكُلُهُ غَيْرُهُ فَتَأَمَّلْ .

ثُمَّ إِنَّ الْعِلَّةَ فِي تَحْرِيمِ الْهَجْرِ ، إِنَّمَا هُوَ الْأَذَى لِلْمُسْلِمِ بِغَيْرِ طَرِيقٍ شَرْعِيٍّ ، كَأَنْ يَكُونَ لِحَظِّ نَفْسِيٍّ ، وَأَمَّا هَجْرُ الشَّيْخِ لِلْمُرِيدِ لِيُقَبِّحَ فِي عَيْنِهِ الْمُبَاحَ الَّذِي يَجُرُّهُ إِلَى حَرَامٍ ، فَلَا مَنْعَ مِنْهُ ، لِأَنَّهُ بِطِيبِ نَفْسٍ مِنَ الشَّيْخِ وَالْمُرِيدِ ، وَقَدْ كَانَ تَابِعَهُ عَلَى امْتِثَالِ أَمْرِهِ وَالرِّضَا بِمَا يَفْعَلُهُ مِنَ الْعُقُوبَاتِ لَهُ عَلَى أَعْمَالِهِ الرَّدِيئَةِ فَافْهَمْ .

وَأَمَّا قَوْلُ ابْنِ الْقَيِّمِ : إِنَّ مُخَالَفَةَ الصُّوفِيَّةِ مِن طَاعَةِ اللهِ فَهُوَ فِي غَايَةِ الْقُبْحِ ، فَإِنَّ حَقِيقَةَ الصُّوفِيِّ أَنَّهُ عَالِمٌ عَمِلَ بِعِلْمِهِ عَلَى وَجْهِ الْإِخْلَاصِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ مُخَالَفَةُ مِثْلِ هَذَا فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ مِنْ طَاعَةِ اللهِ ؟ وَالْإِطْلَاقُ

فِي مَحَلِّ التَّفْصِيلِ خَطَأٌ وَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ : إِنَّ مُخَالَفَةَ مَنِ انْتَسَبَ إِلَى الصُّوفِيَّةِ ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْهُمْ طَاعَةٌ وَقُرْبَةٌ (١) إِلَى اللهِ تَعَالَى ، لِتَخْرُجَ أَئِمَّةُ الطَّرِيقِ .

وَأَمَّا إِنْكَارُهُ عَلَى أَهْلِ الْحَقِيقَةِ ، وَقَوْلُهُ : إِنَّ الشَّرِيعَةَ كَانَتْ كَافِيَةً عَنِ الْحَقِيقَةِ ، فَهُوَ كَلَامٌ صَدَرَ بِلَا تَأَمُّلٍ ، فَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الْحَقِيقَةَ غَايَةُ مَرْتَبَةِ الشَّرِيعَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ فِي مَرْتَبَةِ الشَّرِيعَةِ عَلَى مَرْتَبَتَيْنِ ، إِحْدَاهُمَا مَنْ عَمِلَ بِالشَّرِيعَةِ تَقْلِيدًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَقَامِ الْيَقِينِ ، وَالثَّانِيَةُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَى مَقَامِ الْيَقِينِ ، فَلَيْسَتِ الْحَقِيقَةُ بِأَمْرٍ زَائِدٍ عَلَى الشَّرِيعَةِ ، لِأَنَّ الْحَقِيقَةَ هِيَ إِخْبَارٌ بِالْأُمُورِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهَا ، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ الشَّرِيعَةِ ، فَإِنَّ الشَّارِعَ لَا يُخْبِرُ إِلَّا بِالْوَاقِعِ ، فَغَايَةُ أَمْرِ التَّصَوُّفِ ، الْوُصُولُ بِالرِّيَاضِيَّاتِ وَالْمُجَاهَدَاتِ إِلَى مَقَامِ الْعِلْمِ وَالْيَقِينِ .

---

(١) قربة : القربة ما يتقرب به إلى الله تعالى من أفعال البر والطاعة

وَأَمَّا قَوْلُهُ : إِنَّ مَنْ قَالَ « حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي يَكْفُرُ » فَلَيْسَ بِمُسَلَّمٍ لِقَائِلِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَإِنَّمَا يَكُون كُفْرًا لَوْ قَالَ أَعْطَانِي اللهُ أَمْرًا يُخَالِفُ الشَّرِيعَةَ وَصَارَ يَتَدَيَّنُ بِهِ ، وَأَمَّا إِذَا أَطْلَعَهُ اللهُ مِنْ طَرِيقِ الْإِلْهَامِ وَالتَّحْدِيثِ الَّذِي هُوَ مَقَامُ سَيِّدِنَا عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَلَى أَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ وَدَقَائِقِهَا ، وَعَلَى زِيَادَةِ آدَابٍ فِي الْعَمَلِ بِهَا ، فَلَا مَنْعَ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَا بَلَغَنَا أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْأَوْلِيَاءِ ادَّعَى أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ التَّقْلِيدِ [1] لِلشَّارِعِ ، أَوْ خَرَجَ عَنْ دَائِرَةِ عِلْمِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ - أَبَدًا ، بَلْ كُلُّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ عُلُومِهِمْ مِنْ بَاطِنِ شَرْعِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدِهِمُ الْعَمَلُ بِمَا فَهِمَهُ مِنْهَا إِلَّا بَعْدَ عَرْضِهِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمُوَافَقَتِهِ لَهُمَا .

وَاللهُ يَغْفِرُ لِابْنِ الْقَيِّمِ مَا ظَنَّهُ بِالصُّوفِيَّةِ ، فَإِنَّهُ ذَبَّ عَنِ الشَّرِيعَةِ بِحَسَبِ فَهْمِهِ .

---

(١) التقليد : هو محاكاة الإنسان فعل غيره

***

الاعتراض الحادى والعشرون

وَمِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : لَا وَجْهَ لِتَحْرِيمِ سَمَاعِ الْأَصْوَاتِ الْمُطْرِبَةِ مَعَ الضَّرْبِ بِالْقَضِيبِ وَالتَّصْفِيقِ ، فَإِنَّ آحَادَ هَذِهِ الْأُمُورِ حَلَالٌ ، فَكَذَلِكَ إِنِ اجْتَمَعَتْ تَكُونُ مُبَاحَةً ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى تَحْرِيمِ السَّمَاعِ ، مِنْ نَصٍّ وَلَا قِيَاسٍ ، وَإِذَا كَانَ الصَّوْتُ مَوْزُونًا فَلَا تَحْرِيمَ .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : لَقَدْ نَزَلَ أَبُو حَامِدٍ بِهَذَا الِاحْتِجَاجِ عَنْ رُتْبَةِ الْفَهْمِ الصَّحِيحِ ، وَإِنِّي لَأَتَعَجَّبُ مِنِ انْسِلَاخِهِ عَنِ الْفِقْهِ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْهَذَيَانَاتِ .

وَالْجَوَابُ : إِنَّ الْغَزَالِيَّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - كَانَ مُجْتَهِدًا فِي مِثْلِ ذَلِكَ ، فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ بِإِبَاحَةِ اجْتِمَاعِ هَذِهِ الْأُمُورِ .

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : وَقَدْ بَلَغَنَا عَنِ الْغَزَالِيِّ مَا هُوَ أَقْبَحُ مِنَ الْقَوْلِ بِإِبَاحَةِ الْغِنَاءِ مَعَ الْآلَةِ الْمُطْرِبَةِ ، وَهُوَ

قَوْلُهُ « مَنْ أَحَبَّ اللهَ تَعَالَى وَعَشِقَهُ وَاشْتَاقَ إِلَى لِقَائِهِ ، فَالسَّمَاعُ فِي حَقِّهِ مُؤَكِّدٌ لِعِشْقِهِ ، قَالَ وَهَذَا خَطَأٌ لَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْعِشْقِ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، لِأَنَّهُ يَقْتَضِي مُمَاسَّةَ الْعَاشِقِ لِلهِ تَعَالَى وَهُوَ مُحَالٌ ، ثُمَّ أَيُّ تَوْكِيدٍ لِعِشْقِهِ فِي نَحْوِ قَوْلِ الْمُغَنِّي ؟

ذَهَبِيُّ اللَّوْنِ تَحْسَبُ مِنْ

وَجْنَتَيْهِ النَّارَ تَنْقَدِحُ

وَمَا وَجْهُ الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ ، وَبَيْنَ خَالِقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ ، حَتَّى يُعْشَقَ - تَعَالَى اللهُ - عَنْ قَوْلِ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ (١) عُلُوًّا كَبِيرًا - قَالَ : ثُمَّ الْعَجَبُ مِنَ الصُّوفِيَّةِ إِبَاحَةُ مِثْلِ ذَلِكَ ، مَعَ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَعْرَفُ بِاللهِ تَعَالَى مِنْ غَيْرِهِمْ ، هَذَا مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَى جَهْلِهِمْ بِاللهِ تَعَالَى .

قَالَ : وَكَثِيرًا مَا يَقُولُونَ عَنْ بَعْضِ النَّاسِ سَلِّمُوا لَهُ

(١) الملحدين : المائلين عن الدين الطاعنين فيه

حالَهُ ، وَلَيْسَ لَنَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ يُسَلَّمُ لَهُ مَا يَفْعَلُ إِلَّا الشَّارِعُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا غَيْرُ ، لِعِصْمَتِهِ (١) ، بِخِلَافِ غَيْرِ الْمَعْصُومِ .

وَالْجَوَابُ : لَا إِنْكَارَ عَلَى الْغَزَالِيِّ وَغَيْرِهِ فِي تَسْمِيَةِ مَحَبَّةِ اللهِ عِشْقًا ، لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ لَنَا نَهْيٌ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعِشْقَ أَوَائِلُ مُقَدِّمَاتِ الْمَحَبَّةِ ، فَلَوْ سَمَّيْنَا الْعَاشِقَ لِلَّهِ تَعَالَى مُحِبًّا لَهُ ، كَانَ كَذِبًا ، فَالْعَاشِقُ يَطْلُبُ الْقُرْبَ مِنْ حَضْرَةِ مَحْبُوبِهِ ، لَا الِاتِّصَالَ بِهِ ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مُحَالٌ ، فَلَا اعْتِرَاضَ عَلَى الْغَزَالِيِّ وَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ بِأَخْذِ الْإِشَارَاتِ مِنَ الْأَشْعَارِ وَغَيْرِهَا ، فَإِنَّ كُلَّ مَا فِي الْوُجُودِ دَلِيلٌ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَأْخُذَ تِلْكَ الْإِشَارَاتِ الْمُحَرِّكَةَ لِلْوَجْدِ (٢) مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ ، كُلُّهُ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْقَوْمَ

---

(١) لعصمته : العصمة الصيانة من المعاصى أو الخطأ (٢) الوجد : الحب الشديد

يَتَكَلَّمُونَ غَالِباً بِلِسَانِ ٱلسُّكْرِ وَٱلشَّوْقِ ، لَا بِلِسَانِ ٱلصَّحْوِ وَٱلْعِلْمِ ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَا نَجِدُهُ فِي كَلَامِهِمْ لَا يَنْبَغِي لَنَا إِنْكَارُهُ ، إِلَّا إِذَا وَجَدْنَا أَحَدَهُمْ صَاحِياً مِنْ سُكْرِ ٱلْحَالِ .

***

كلمة تقدير

وَقَدْ خَتَمَ صَاحِبُ « إِتْحَافِ ٱلسَّادَةِ ٱلْمُتَّقِينَ » هَذَا ٱلدِّفَاعَ ٱلتَّفْصِيلِيَّ ٱلْمُسْهَبَ ٱلْمُسْتَطِيلَ ، ٱلَّذِي ٱلْتَزَمْنَا نَقْلَهُ عَلَى سِيَاقِهِ لِبَيَانِ ٱلْحُجَجِ عَلَى ٱلدَّعَاوَى ، حَتَّى لَا يَقَعَ ٱلْبُسَطَاءُ فِي ٱلْمَطَاعِنِ فَيُصَدِّقُوهَا وَيَأْخُذُوا بِهَا ، وَهِيَ بِغَيْرِ مَا يُدْحِضُهَا ، وَلَا مَقْرُونَةٍ بِمَا يَرُدُّهَا ، وَبِحَسْبِ كِتَابٍ خَالِدٍ جَلِيلٍ كَٱلْإِحْيَاءِ ، أَحْدَثَ دَوِيًّا رَهِيباً ، وَغَزَا ٱلْأَذْهَانَ غَزْوًا ، أَنْ تُعَدَّ مَآخِذُهُ إِنْ صَحَّتْ تَسْمِيَتُهَا كَذَلِكَ ، وَأَنْ تُحْصَى بِهَذَا ٱلْقَدْرِ ٱلْيَسِيرِ مَعَايِبُهُ ، إِنْ جَازَ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ هَذَا مَعِيباً ، وَقَدْ رَأَيْنَا ٱلْحُجَجَ قَوِيَّةً عَلَيْهِ جَمِيعاً .

نَقُولُ : لَقَدْ خَتَمَ السَّيِّدُ الْمُرْتَضَى هَذَا الدِّفَاعَ الْمُسْتَفِيضَ الْمَكِينَ بِكَلِمَةٍ فِي الْكِتَابِ وَتَقْدِيرِهِ ، وَوَصْفٍ لِرُوحِ الْغَزَالِيِّ وَمَنْبَعِهِ ، فَجَاءَتْ مِنَ الْكَلِمِ النَّوَابِغِ (١)

قَالَ : هَذَا مَا تَيَسَّرَ بَيَانُهُ مِمَّا أُنْكِرَ عَلَى أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ فِي كِتَابِ الْإِحْيَاءِ ، وَهُمْ أَيِ الْمُنْكِرُونَ مِنْ طَوَائِفَ شَتَّى ، مَا بَيْنَ مَغَارِبَةٍ وَمَشَارِقَةٍ وَمَالِكِيَّةٍ وَشَافِعِيَّةٍ وَحَنَابِلَةٍ ، فَمِنَ الْأُولَى ابْنُ الْعَرَبِيِّ وَالْمَازَرِيُّ وَالطُّرْطُوشِيُّ وَالْقَاضِي عِيَاضٌ وَابْنُ الْمُنَيِّرِ ، وَمِنَ الثَّانِيَةِ ابْنُ الصَّلَاحِ ، وَيُوسُفُ الدِّمَشْقِيُّ وَالْبَدْرُ الزَّرْكَشِيُّ ، وَالْبُرْهَانُ الْبِقَاعِيُّ ، وَمِنَ الثَّالِثَةِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ وَابْنُ تَيْمِيَةَ ، وَابْنُ الْقَيِّمِ وَآخَرُونَ .

وَقَدْ أَوْرَدْنَا اعْتِرَاضَاتِهِمْ ، وَبَيَّنَّا وَجْهَ الْأَجْوِبَةِ وَالِاعْتِذَارِ عَنِ الْغَزَالِيِّ ، حَسْبَمَا نَقَلْنَاهُ عَنِ الْأَثْبَاتِ الْمُتْقِنِينَ .

---

(١) النوابغ : جمع نابغة وهو المجيد الفصيح وهو استعمال مجازى

وَأَمَّا ٱلْمُحِبُّونَ لِطَرِيقَتِهِ ، وَٱلْمُهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ ، فَكَثِيرُونَ ، وَجَلَالَةُ قَدْرِهِ ، وَفَخَامَةُ كِتَابِهِ ، أَشْهَرُ مِنَ ٱلشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ ٱلنَّهَارِ ، وَمَا أَحَاطَ بِمَقَامِ كِتَابِهِ ، إِلَّا مَنْ أَفَاضَ ٱللهُ عَلَى قَلْبِهِ ٱلْأَنْوَارَ ، إِذْ كِتَابُهُ مُتَكَفِّلٌ بِبَيَانِ ٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ، ٱلَّتِي هِيَ عِلْمُ ٱلْعَقْلِ ، وَعِلْمُ ٱلْأَحْوَالِ ، وَعِلْمُ ٱلْأَسْرَارِ ، وَمَا فِيهِ مِنْ عِلْمِ ٱلْأَحْوَالِ فَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلَّا بِالذَّوْقِ ، وَلَا يَقْدِرُ عَاقِلٌ عَلَى ذَوْقِهِ وَلَا وُجْدَانِهِ ، وَلَا أَنْ يُقِيمَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ دَلِيلًا ، وَهُوَ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ عِلْمِ ٱلْعَقْلِ ، وَعِلْمِ ٱلْأَسْرَارِ ، وَهُوَ إِلَى عِلْمِ ٱلْأَسْرَارِ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَى عِلْمِ ٱلْعَقْلِ ٱلنَّظَرِيِّ ، وَلَا يَكَادُ يَلْتَذُّ بِهِ إِذَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ نَبِيٍّ ، إِلَّا أَصْحَابُ ٱلْأَذْوَاقِ ٱلسَّلِيمَةِ ، وَعَلَامَةُ هَذَا ٱلذَّوْقِ ، كَوْنُهُ خَارِجًا عَنْ مَوَازِينِ ٱلْعُقُولِ ، عَكْسَ ٱلْعِلْمِ ٱلْمُكْتَسَبِ ، إِذِ ٱلْعِلْمُ ٱلْمُكْتَسَبُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ دَاخِلًا فِي مِيزَانِ ٱلْعُقُولِ ، وَلِذَلِكَ لَا تَتَسَارَعُ ٱلنَّاسُ إِلَى إِنْكَارِهِ ، وَعِلْمُ

ٱلْأَذْوَاقِ لَمَّا كَانَ خَارِجًا عَنْ مَوَازِينِ ٱلْعُقُولِ ، تَسَارَعَتِ ٱلنَّاسُ إِلَى إِنْكَارِهِ وَرَدِّهِ وَهَذَا ٱلْقَدْرُ كَافٍ فِي بَيَانِ ٱلْمَقْصُودِ .

***

أُسْلُوبُهُ وَرَسَائِلُهُ وَشِعْرُهُ

وصف عبارة الغزالى

نَتَحَدَّثُ إِلَيْكَ هُنَا عَنْ أُسْلُوبِ ٱلْغَزَالِيِّ وَلُغَتِهِ ، وَطَرِيقَتِهِ فِي ٱلشَّرْحِ ، وَصِيَغِ بَيَانِهِ وَنَوْعِ عِبَارَتِهِ ، بَعْدَ أَنْ أَسْلَفْنَا لَكَ شُذُورًا [1] مِنْ كُتُبِهِ وَفِقَرًا مِنْ تَوَالِيفِهِ ، وَقُطُوفًا مِنْ ثَمَرِهِ ، وَنَحْسَبُكَ قَدْ أَدْرَكْتَ مِنْهَا أَنَّ أُسْلُوبَ ٱلْغَزَالِيِّ تَغْلِبُ عَلَيْهِ ٱلسُّهُولَةُ ، فِي غَيْرِ صَنْعَةٍ ، وَٱلْبَسَاطَةُ فِي غَيْرِ كُلْفَةٍ ، وَٱلْمَائِيَّةُ ٱلْمُنْسَرِبَةُ فِي رِفْقٍ ، فَلَا تَرَى عَلَى أُسْلُوبِهِ شَيْئًا مِنْ عُنْفِ ٱلْبَيَانِ ، أَوْ حَبْكَةِ ٱلصِّيَاغَةِ ، أَوْ مَتَانَةِ ٱلنَّسِيجِ ، وَلَكِنَّهُ يَتَبَسَّطُ فِي شُرُوحِهِ ، كَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ مَعَكَ ، أَوْ يَتَحَدَّثُ

(١) شذورا : جمع الشذر وهو قطع من الذهب تلقط من معدنه والمراد جمل من كتبه

إِلَيْكَ ، فِى ٱنْطِلَاقَةٍ حُلْوَةٍ ، وَشَطَحَاتٍ[1] طِوَالٍ ، وَغَزَارَةِ مَادَّةٍ ، وَلَا يَهُمُّهُ ٱلتَّطْرِيَةُ[2] فِى ٱلْأُسْلُوبِ ، أَوِ ٱلتَّجَمُّلُ بِالثَّوْبِ وَالشَّمْلَةِ وَٱلْأَكْسِيَةِ ، وَلَا يَحْفِلُ أَهُوَ بَادِئٌ ٱلْجُمْلَةَ بِالِاسْمِ وَٱلْمُبْتَدَإِ أَوْ مُسْتَهِلُّهَا بِالْفِعْلِ ، لِأَنَّ كُلَّ هَمِّهِ مُنْصَرِفٌ إِلَى ٱلْوُصُولِ إِلَى قَلْبِكَ مِنْ أَقْصَرِ طَرِيقٍ وَٱلنُّفُوذِ إِلَى لُبِّكَ بِأَيْسَرِ مَا تَكُونُ ٱلْعِبَارَةُ ، وَأَجْمَلِ مَا يَكُونُ ٱلْأَدَاءُ ، إِذَا مَا ٱسْتَوْفَى ٱلْوُضُوحَ وَتَمَّ لَهُ ٱلْإِفْصَاحُ وَتَيَسَّرَ ٱلْبَيَانُ وَٱلْإِعْلَانُ .

***

أسلوب الترغيب والترهيب

وَقَدْ كَانَ ٱلْغَزَالِيُّ حَكِيماً يَنْبَعِثُ مَعَ نَفْسِهِ فِى ضَرْبٍ مِنَ ٱلتَّرْغِيبِ ، وَنَوَاحٍ مِنَ ٱلتَّرْهِيبِ ، وَقَدِ ٱقْتَضَى ذَلِكَ مِنْهُ ٱلْأُسْلُوبَ ٱلْخَطَابِيَّ ٱلْمُرْسَلَ عَلَى سَجِيَّتِهِ ٱلْمُنْطَلِقَ عَلَى أَعِنَّتِهِ ، فَكُلَّمَا حَلَا لَهُ قَالَهُ ، وَكُلَّمَا وَجَدَهُ عَلَى ضِفَافِ خَاطِرِهِ ، مَلَأَ مِنْهُ حَتَّى ٱلْحِفَافَيْنِ وَسَقَى ٱلنَّاسَ ،

(١) شطحات : أى شوارد (٢) التطرية : التزيين

وَإِنَّهُ لَيُرْوِيهِمْ وَيُطْفِئُ غُلَّتَهُمْ ، وَيَنْقَعُ (١) ظَمَأَهُمْ غَيْرَ مُكْتَفٍ بِالنَّهْلَةِ (٢) ، وَلَا مُجْتَزِئٍ بِالْوَشَلْ وَلَا مُقْتَصِرٍ عَلَى الْجُرَعِ الْقِلَالِ .

***

كثرة الأمثلة والاستشهاد

وَمِمَّا امْتَازَ بِهِ أُسْلُوبُهُ فِي كُتُبِهِ ، كَثْرَةُ الِاسْتِشْهَادَاتِ وَجَزَالَةُ الْأَمْثِلَةِ وَغَزَارَةُ الرِّوَايَاتِ ، وَتَتَابُعُ الْحِكَايَاتِ وَالْأَسَانِيدِ ، فِي لُغَةٍ سَهْلَةٍ لِلْغَايَةِ ، وَاسْتِطْرَادٍ أَخَّاذٍ بِالْقَلْبِ ، نَفَّاذٍ إِلَى الصَّمِيمِ .

***

السهولة والوضوح

وَلَيْسَرَ فِي كُتُبِ الْمُؤَلِّفِ أَوْ فِي أَكْثَرِهَا مَا يَسْتَعْصِي عَلَى أَفْهَامِ سَوَادِ النَّاسِ وَعَوَامِّهِمْ ، وَجُمْهُورِهِمْ ، لِأَنَّهُ تَحَاشَى فِي أَكْثَرِ تَوَالِيفِهِ الْأُسْلُوبَ الْعِلْمِيَّ ، أُوصِيغَ الْجَدَلِيِّينَ ، وَمُصْطَلَحَاتِ الْفُقَهَاءِ ، وَإِنَّمَا مَضَى سَلِسًا ، سَائِغًا لَا يَسْتَأْذِنُ عَلَى الْأَذْهَانِ .

---

(١) ينقع : يروى (٢) النهلة : الشرب الاول. والوشل : القليل من الماء

***

كثرة الأخلية والاستعارات

وَمَا رَأَيْنَا مُؤَلِّفًا حَسَنَ ٱلْأَخِيلَةِ ، جَيِّدَ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَسْطَ مَوْضُوعَاتٍ جَافَّةٍ ، وَعُلُومٍ مُسْتَدِقَّةٍ ، وَبُحُوثٍ مُتَشَعِّبَةٍ ، فِي مِثْلِ بَرَاعَةِ ٱلْغَزَالِيِّ ، فِي ٱلتَّدْلِيلِ عَلَى أَفْكَارِهِ بِأَلْطَفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ، وَأَجْمَلِ ٱلْمُثُلِ ، وَأَدَقِّ ٱلْمَجَازَاتِ ، حَتَّى لَقَلَّ مَنْ يَقْرَأُ ٱلْغَزَالِيَّ ، وَلَا يَتَأَثَّرُ بِهِ وَلَا يُؤْخَذُ بِفُتُونِ بَيَانِهِ ، وَرِقَّةِ غَلَائِلِ شُرُوحِهِ ، وَحُسْنِ شَمْلَاتِ تَفْسِيرِهِ وَإِيضَاحِهِ .

***

الاغلاط والرد عليها

وَقَدْ قَالَ ٱلْفَخْرُ بْنُ عَسَاكِرَ بِسَبِيلِ أُسْلُوبِهِ وَلُغَتِهِ : إِنَّهُ كَانَ مِمَّا يُعْتَرَضُ عَلَى ٱلْغَزَالِيِّ وُقُوعُ خَلَلٍ فِي كِتَابِهِ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلنَّحْوِ ، وَرُوجِعَ ٱلْغَزَالِيُّ فِي ذَلِكَ فَأَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَٱعْتَرَفَ بِأَنَّهُ مَامَارَسَ ذَلِكَ ٱلْفَنَّ ، وَٱكْتَفَى بِمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ كَلَامِهِ ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ يُؤَلِّفُ ٱلْخُطَبَ ، وَيَشْرَحُ ٱلْكُتُبَ ، بِٱلْعِبَارَاتِ ٱلرَّائِقَةِ ، ٱلَّتِي تَعْجِزُ

ٱلْأُدَبَاءِ وَٱلْفُصَحَاءِ عَنْ أَمْثَالِهَا ، وَأَذِنَ لِلَّذِينَ يُطَالِعُونَ كُتُبَهُ ، فَيَعْثُرُونَ عَلَى خَلَلٍ فِيهَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ أَنْ يُصْلِحُوهُ وَيَعْذِرُوهُ ، فَمَا كَانَ قَصْدُهُ إِلَّا ٱلْمَعَانِيَ وَتَحْقِيقَهَا دُونَ ٱلْأَلْفَاظِ وَتَلْفِيقَهَا .

***

الترخص فى نقل الحديث

وَقَدْ أَنْكَرَ فَرِيقٌ مِنَ ٱلنَّاسِ عَلَى ٱلْغَزَالِيِّ إِيثَارَهُ ٱلرُّخْصَةَ وَٱلسَّعَةَ فِى ٱلنَّقْلِ وَٱلرِّوَايَةِ وَٱلْأَحَادِيثِ عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَٱلْآثَارِ عَنِ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ وَمُتَقَدِّمِى ٱلسَّلَفِ ، فَقَالُوا : إِنَّهُ قَدْ يَتَّفِقُ لَهُ فِى سِيَاقِهِ وَإِيرَادِهِ ذَلِكَ وَنَحْوُهُ ، مُخَالَفَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ، وَٱلتَّقْدِيمُ وَٱلتَّأْخِيرُ ، وَٱلزِّيَادَةُ وَٱلنَّقْصِ ، مَعَ مُوَافَقَةِ ٱلْمَعْنَى وَتَطَابُقِهِ .

***

تسويغ ذلك

وَقَدْ عَرَضَ ٱلزَّبِيدِىُّ لِهَذَا ٱلَّذِى أُنْكِرَ عَلَيْهِ مُعْتَذِرًا عَنْهُ فَقَالَ : إِنَّهُ رَحِمَهُ ٱللهُ لَمْ يَكُنْ يَعْتَبِرُ

فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ أَلْفَاظَ ٱلْأَخْبَارِ وَٱلْآثَارِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ تَحْرِيرُ ٱلْأَلْفَاظِ عِنْدَهُ وَاجِباً إِذَا أَتَى بِٱلْمَعْنَى ، بَعْدَ عِلْمِهِ بِتَصْرِيفِ ٱلْكَلَامِ وَبِتَفَاوُتِ وُجُوهِ ٱلْمَعَانِي ، وَٱجْتِنَابِهِ لِمَا يَكُونُ بِهِ تَحْرِيفٌ أَوْ إِحَالَةٌ بَيْنَ لَفْظَتَيْنِ .

***

القائلون بجواز ايراد المعنى دون الالفاظ ذاتها

وَقَدْ رَخَّصَ فِي سَوْقِ ٱلْحَدِيثِ بِٱلْمَعْنَى دُونَ سِيَاقِهِ عَلَى ٱللَّفْظِ جَمَاعَةٌ ، مِنْهُمْ عَلِيٌّ وَٱبْنُ عَبَّاسٍ ، وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ، وَأَبُو ٱلدَّرْدَاءِ وَوَاثِلَةُ بْنُ ٱلْأَسْقَعِ ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ ، ثُمَّ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلتَّابِعِينَ يَكْثُرُ عَدَدُهُمْ وَمِنْهُمْ ٱلْإِمَامُ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ ، ثُمَّ ٱلشَّافِعِيُّ ، وَعَمْرُو ٱبْنُ دِينَارٍ ، وَإِبْرَاهِيمُ ٱلنَّخْعِيُّ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَعِكْرِمَةُ .

وَقَالَ ٱبْنُ سِيرِينَ : كُنْتُ أَسْمَعُ ٱلْحَدِيثَ مِنْ عَشَرَةِ أَشْخَاصٍ ، ٱلْمَعْنَى وَاحِدٌ ، وَٱلْأَلْفَاظُ مُخْتَلِفَةٌ ، وَكَذَلِكَ ٱخْتَلَفَتْ أَلْفَاظُ ٱلصَّحَابَةِ فِي رِوَايَةِ ٱلْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَرْوِيهِ تَامًّا ، وَمِنْهُمْ

مَنْ يَأْتِي بِالْمَعْنَى ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُورِدُهُ مُخْتَصَرًا ، وَبَعْضُهُمْ يُغَايِرُ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ ، وَيَرَاهُ سَائِغًا إِذَا لَمْ يُخَالِفْ الْمَعْنَى ، وَكُلُّهُمْ لَا يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ ، وَجَمِيعُهُمْ يَقْصِدُونَ الصِّدْقَ وَمَعْنَى مَاسَمِعَ ، فَلِذَلِكَ وَسِعَهُمْ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ : إِنَّمَا الْكَذِبُ عَلَى مَنْ تَعَمَّدَهُ .

وَقَالَ جُمْهُورُ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ، مِنَ الطَّوَائِفِ مِنْهُمُ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ : يَجُوزُ بِالْمَعْنَى فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، إِذَا قُطِعَ بِأَدَاءِ الْمَعْنَى ، لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي تَشْهَدُ بِهِ أَحْوَالُ الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ رِوَايَتُهُمُ اللَّفْظَةَ الْوَاحِدَةَ بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ .

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْمَسْأَلَةِ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ رَوَاهُ ابْنُ مَنْدَةَ فِي مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ أَكْثَمَ اللَّيْثِيِّ ، قُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ إِنِّي إِذَا سَمِعْتُ مِنْكَ الْحَدِيثَ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرْوِيَهُ كَمَا أَسْمَعُ مِنْكَ ، يَزِيدُ حَرْفًا أَوْ يَنْقُصُ

حَرْفاً ، فقَالَ : « إِذَا لَمْ تُحِلُّوا حَرَاماً وَلَمْ تُحَرِّمُوا حَلَالًا وَأَصَبْتُمُ ٱلْمَعْنَى فَلَا بَأْسَ » فَذُكِرَ ذٰلِكَ لِلْحَسَنِ فَقَالَ : « لَوْلَا هٰذَا مَا حَدَّثْنَا »

هٰذَا بَعْضُ مَارُوِيَ فِي جَوَازِ إِيرَادِ ٱلْأَحَادِيثِ ٱلنَّبَوِيَّةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي ، وَإِنِ ٱخْتَلَفَتِ ٱلْأَلْفَاظُ ، وَقَدْ جَاءَ فِي كَلِمَةِ ٱبْنِ عُمَرَ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي عَرْضِ هٰذَا ٱلِاسْتِشْهَادِ أَنَّ ٱلْأَئِمَّةَ ٱلْأَرْبَعَةَ كَانُوا مِنْ هٰذَا ٱلرَّأْيِ ، وَلٰكِنَّ ٱلْوَاقِعَ أَنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ ، إِذِ ٱلْمَشْهُورُ عَنِ ٱلْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ لَا يُجَوِّزُ نَقْلَ ٱلْحَدِيثِ إِلَّا بِاللَّفْظِ دُونَ ٱلْمَعْنَى ، قَالُوا وَبِهٰذَا ٱلِاعْتِبَارِ قَلَّتْ رِوَايَتُهُ لِلْحَدِيثِ . وَمِمَّا يُرْوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ أَيْضاً : لَا يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يُحَدِّثَ مِنَ ٱلْأَحَادِيثِ إِلَّا بِمَا حَفِظَهُ مِنْ يَوْمِ سَمِعَهُ إِلَى يَوْمِ يُحَدِّثُ بِهِ ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ ٱلْقَاضِي عِيَاضٌ مِنَ ٱلْمَالِكِيَّةِ حَيْثُ قَالَ فِيمَا نَقَلَهُ ٱلسُّيُوطِيُّ فِي شَرْحِ كِتَابِ ٱلْإِحْيَاءِ : يَنْبَغِي سَدُّ بَابِ ٱلرِّوَايَةِ بِالْمَعْنَى ، لِئَلَّا يَتَسَلَّطَ

مَنْ لَا يُحْسِنُ مِمَّنْ يَظُنُّ أَنَّهُ يُحْسِنُ كَمَا وَقَعَ لِلرُّوَاةِ كَثِيرًا ، قَدِيمًا وَحَدِيثًا .

***

ما هو مسند وما هو مرسل فى الاحياء

وَالْمَعْرُوفُ عَنْ كِتَابِ الْإِحْيَاءِ ، أَنَّ الْغَزَالِيَّ أَوْرَدَ فِيهِ مَرَاسِيلَ (١) وَمَقَاطِيعَ ، وَمِنْهَا مَا فِي سَنَدِهِ مقال ، وَرُبَّمَا كَانَ الْمَقْطُوعُ (٢) مِنْهَا وَالْمُرْسَلُ أَصَحَّ مِنْ بَعْضِ الْسَّنَدِ ، إِذَا رَوَاهُ الْأَئِمَّةُ ، وَجَازَ لَهُمْ رَسْمُ ذَلِكَ فِي الْوَرَعِ لِمَعَانٍ ، أَحَدُهَا يَقُولُ : إِنَّ الْأَخْبَارَ الضِّعَافَ ، غَيْرَ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا يَلْزَمُنَا رَدُّهَا ، بَلْ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَيْهَا ، وَالثَّانِي يَقُولُ : إِنَّا لَسْنَا عَلَى يَقِينٍ مِنْ بَاطِلِهَا ، وَالثَّالِثُ يَقُولُ : إِنَّ مَعْنَا حُجَّةً بِذَلِكَ ، وَهُوَ رِوَايَةُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ لَهُ وَهُمْ قَدْ سَمِعُوهُ ، فَإِنْ أَخْطَأُوا الْحَقِيقَةَ عَنِ اللهِ تَعَالَى ، فَذَلِكَ سَاقِطٌ عَنْهُمْ ، وَالرَّابِعُ يَقُولُ : الْمُتَعَبِّدُونَ بِحُسْنِ الظَّنِّ مَنْهِيُّونَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ

(١) مراسيل : جمع مرسل وهو نوع من الحديث سقط من سنده الصحابى (٢) المقطوع : ما سقط من سنده واحد قبل الصحابى

الظَّنِّ ، وَالْخَامِسُ يَقُولُ : إِنَّهُ لَا يُتَوَصَّلُ إِلَى حَقِيقَةِ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْمُعَايَنَةِ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَيْهَا ، فَاضْطُرِرْنَا إِلَى التَّقْلِيدِ ، وَالتَّصْدِيقِ لِحُسْنِ الظَّنِّ بِالنَّقَلَةِ مَعَ مَا تَسْكُنُ إِلَيْهِ قُلُوبُنَا ، وَتَلِينُ لَهُ أَبْشَارُنَا[1] ، وَنَرَى أَنَّهُ حَقٌّ كَمَا جَاءَ فِي الْخَبَرِ .

وَنَحْسَبُ الْغَزَالِيَّ - رَحِمَهُ اللهُ - نَظَرَ إِلَى هَذَا كُلِّهِ ، فِيمَا اسْتَشْهَدَ بِهِ فِي كِتَابِ الْإِحْيَاءِ ، وَأَنَّ أَكْثَرَ مَا قِيلَ فِيهِ عَنْ إِيرَادِ أَحَادِيثَ ضَعِيفَةٍ غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ . وَلَا حَقِيقٌ بِالِاعْتِبَارِ ، إِذْ مَقْصِدُهُ جَمِيلٌ لَا يَتَعَدَّى حُسْنَ الظَّنِّ بِالَّذِينَ رَوَوْهَا فِي كُتُبِهِمْ ، وَنَقَلَ هُوَ عَنْهُمْ .

***

دراسة الحديث في آخر أيامه

وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ سِيرَتِهِ ، وَمَرَاحِلِ حَيَاتِهِ ، أَنَّهُ حِينَ عَوْدِهِ إِلَى وَطَنِهِ فِي طُوسٍ ، كَانَتْ خَاتِمَةُ أَمْرِهِ الْإِقْبَالَ عَلَى طَلَبِ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ ،

(١) أبشارنا : ظواهر جلودنا

وَمَجَالِسِ أَهْلِهِ ، وَقِرَاءَتِهِ وَنَسْخِهِ ، وَأَنَّهُ اسْتَدْعَى إِلَيْهِ الْحَافِظَ أَبَا الْفِتْيَانِ عُمَرَ بْنَ أَبِي الْحَسَنِ الرَّوَّاسِيَّ فَأَكْرَمَهُ وَاغْتَنَمَ أَيَّامَهُ ، وَسَمِعَ مِنْهُ الصَّحِيحَيْنِ .

وَذَكَرَ الْحَافِظُ بْنُ عَسَاكِرَ أَنَّهُ سَمِعَ صَحِيحَ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي إِسْمَاعِيلَ الْحَفْصِيِّ

وَلَوْ أَنَّ الْغَزَالِيَّ رَأَى بَأْسًا فِيمَا اسْتَشْهَدَ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِغَيْرِ إِسْنَادٍ لَكَانَ عَاوَدَ رَدَّهَا إِلَى أُصُولِهَا بَعْدَ قِرَاءَةِ الْحَدِيثِ وَالتَّوَفُّرِ عَلَى اسْتِذْكَارِهِ وَحِفْظِهِ .

***

رسائله

وَلِلْغَزَالِيِّ رَسَائِلُ قَلِيلَةٌ كَتَبَهَا إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ ، وَهِيَ عَلَى نَسَقٍ تَوَالِيفِهِ ، سُهُولَةَ أُسْلُوبٍ ، وَعُذُوبَةَ تَرْغِيبٍ ، وَهَوْلَ تَرْهِيبٍ ، وَكَثْرَةَ تَمْثِيلٍ ، وَاسْتِعَارَةٍ وَمَجَازٍ .

فَمِنْ ذَلِكَ مَاقَالَ ابْنُ السَّمْعَانِيِّ : قَرَأْتُ فِي كِتَابٍ

كَتَبَهُ ٱلْغَزَالِيُّ إِلَى أَبِي حَامِدٍ أَحْمَدَ بْنِ سَلَامَةَ ، بِٱلْمَوْصِلِ فَقَالَ فِي خِلَالِ فُصُولِهِ :

أَمَّا ٱلْوَعْظُ فَلَا أَرَى نَفْسِي أَهْلاً لَهُ ، لِأَنَّ ٱلْوَعْظَ زَكَاةٌ ، نِصَابُهُ (١) ٱلِاتِّعَاظُ فَمَنْ لَا نِصَابَ لَهُ ، كَيْفَ يُخْرِجُ ٱلزَّكَاةَ ، وَفَاقِدُ ٱلثَّوْبِ كَيْفَ يَسْتُرُ بِهِ غَيْرَهُ ، وَمَتَى يَسْتَقِيمُ ٱلظِّلُّ (٢) وَٱلْعُودُ أَعْوَجُ ، وَقَدْ أَوْحَى ٱللهُ إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ « عِظْ نَفْسَكَ ، فَإِنِ ٱتَّعَظَتْ فَعِظِ ٱلنَّاسَ ، وَإِلَّا فَٱسْتَحِ مِنِّي »

وَلَهُ رِسَالَةٌ مِنْ أَرْوَعِ مَا كَتَبَ ٱلْكَاتِبُونَ ، بَعَثَ بِهَا إِلَى بَعْضِ أَهْلِ عَصْرِهِ ، وَهِيَ خَيْرُ نَمُوذَجٍ لِأُسْلُوبِهِ ، وَأَصْدَقُ صُورَةٍ لِطَرِيقَتِهِ فِي بَيَانِ مَعَانِيهِ .

وَنَحْنُ نَاقِلُوهَا هُنَا ، ٱعْتِزَازًا بِهَا ، وَقَدْرًا لِحَقِّهَا مِنَ ٱلْحِفْظِ وَٱلتَّخْلِيدِ .

---

(١) النصاب : المقدار الذى تجب فيه الزكاة (٢) متى يستقيم الظل والعود أعوج : مثل يضرب لبعد الاستقامة مع العكوف على العوج

***

رسالة خاصة

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، ٱلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ، وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ ، وَٱلصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِ ٱلْمُرْسَلِينَ ، مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ ، أَمَّا « بَعْدُ » ، فَقَدِ ٱنْتَشَجَ (١) بَيْنِي وَبَيْنَ ٱلشَّيْخِ ٱلْأَجَلِّ ، مُعْتَمَدِ ٱلْمَلِكِ ، أَمِيرِ ٱلدَّوْلَةِ ، غَرَسَ ٱللهُ تَأْبِيدَهُ ، بِوَاسِطَةِ ٱلْقَاضِي ٱلْجَلِيلِ ، ٱلْإِمَامِ مَرْوَانَ ، زَادَهُ ٱللهُ تَوْفِيقاً ، مِنَ ٱلْوِدَادِ ، وَحُسْنِ ٱلِاعْتِقَادِ ، مَا يَجْرِي مَجْرَى ٱلْقَرَابَةِ ، وَيَقْتَضِي دَوَامَ ٱلْمُكَاتَبَةِ وَٱلْمُوَاصَلَةِ ، وَإِنِّي لَا أَصِلُهُ بِصِلَةٍ أَفْضَلَ مِنْ نَصِيحَةٍ تُوَصِّلُهُ إِلَى ٱللهِ ، وَتُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ زُلْفَى (٢) وَتُحِلُّهُ ٱلْفِرْدَوْسَ ٱلْأَعْلَى ، فَٱلنَّصِيحَةُ هِيَ هَدِيَّةُ ٱلْعُلَمَاءِ ، وَإِنَّهُ لَنْ يُهْدِيَ إِلَيَّ تُحْفَةً (٣) أَكْرَمَ مِنْ قَبُولِهِ لَهَا ، وَإِصْغَائِهِ بِقَلْبٍ فَارِغٍ عَنْ ظُلُمَاتِ ٱلدُّنْيَا إِلَيْهَا ، وَإِنِّي أُحَذِّرُهُ إِذَا مُيِّزَتْ عِنْدَهُ أَرْبَابُ ٱلْقُلُوبِ

(١) انتشج : اشتبك واتصل (٢) زلفى : منزلة ورتبة (٣) تحفة : أى هدية .

أَحْرَارُ النَّاسِ ، أَنْ يَكُونَ إِلَا فِي زُمْرَةِ الْكِرَامِ الْأَكْيَاسِ ، وَقَدْ قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ ؟ فَقَالَ : أَتْقَاهُمْ ، فَقِيلَ مَنْ أَكْيَسُ النَّاسِ ؟ فَقَالَ : أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا ، وَأَشَدُّهُمْ اسْتِعْدَادًا » وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ (١) نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْأَحْمَقُ مَنِ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْمَغْفِرَةَ ، وَأَشَدُّ النَّاسِ غَبَاوَةً وَجَهْلًا ، مَنْ تَهُمُّهُ أُمُورُ الدُّنْيَا الَّتِي تُخْتَطَفُ عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَلَا يَهُمُّهُ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ ، وَقَدْ عَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ حَيْثُ قَالَ « إِنَّ الْأَبْرَارَ (٢) لَفِي نَعِيمٍ ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ، وَقَالَ : « فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (عَلَى الْآخِرَةِ) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى » ، وَقَالَ : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ، وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ » إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

(١) دان نفسه: أذلها وحملها على ما تكره (٢) الأبرار: جمع بر وهو الطائع

وَإِنِّي أُوصِيهِ أَنْ يَصْرِفَ إِلَى هَذَا ٱلْمُهِمِّ هِمَّتَهُ ، وَأَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ ، قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ ، وَيُرَاقِبَ سَرِيرَتَهُ وَعَلَانِيَتَهُ ، وَقَصْدَهُ وَهِمَّتَهُ ، وَأَفْعَالَهُ وَأَقْوَالَهُ ، وَإِصْدَارَهُ وَإِيرَادَهُ ، أَهِيَ مَقْصُورَةٌ عَلَى مَا يُقَرِّبُهُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى ، وَيُوَصِّلُهُ إِلَى سَعَادَةِ ٱلْأَبَدِ ، أَوْ هِيَ مَصْرُوفَةٌ إِلَى مَا يَعْمُرُ دُنْيَاهُ ، وَيُصْلِحُهَا لَهُ إِصْلَاحًا مُنَغَّصًا مَشُوبًا[1] بِالْمُكَدِّرَاتِ مَشْحُونًا بِالْهُمُومِ وَٱلْغُمُومِ ، ثُمَّ يَخْتِمُهَا بِالشَّقَاوَةِ وَٱلْعِيَاذُ بِاللهِ ، فَلْيَفْتَحْ عَيْنَ بَصِيرَتِهِ ، « وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ لِغَدٍ » وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ لَا مُشْفِقَ وَلَا نَاظِرَ لِنَفْسِهِ سِوَاهُ ، وَلْيَتَدَبَّرْ مَاهُوَ بِصَدَدِهِ فَإِنْ كَانَ مَشْغُولًا بِعِمَارَةِ ضَيْعَةٍ ، فَلْيَنْظُرْ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكَهَا ٱللهُ « وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » ، بَعْدَ عُمَّالِهَا ، وَإِنْ كَانَ مُقْبِلًا عَلَى ٱسْتِخْرَاجِ مَاءٍ أَوْ عِمَارَةِ نَهْرٍ ، فَلْيُفَكِّرْ ، كَمْ مِنْ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ بَعْدَ عَمَارِهَا ، وَإِنْ كَانَ مُهْتَمًّا بِتَاسِيسِ بِنَاءٍ ،

(١) مشوبا : مخلوطا (٢) مشفق : خائف وحذر وحريص

فَلْيَتَأَمَّلْ ، كَمْ مِنْ قُصُورٍ مُشَيَّدَةِ ٱلْبُنْيَانِ ، مُحْكَمَةِ ٱلْقَوَاعِدِ وَٱلْأَرْكَانِ ، أَظْلَمَتْ بَعْدَ سُكَّانِهَا ، وَإِنْ كَانَ مُفْتَتِناً بِعِمَارَةِ ٱلْحَدَائِقِ وَٱلْبَسَاتِينِ ، فَلْيَعْتَبِرْ ، « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ » وَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى : « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ » وَإِنْ كَانَ مَشْغُوفاً - وَٱلْعِيَاذُ بِٱللهِ - بِخِدْمَةِ سُلْطَانٍ ، فَلْيَذْكُرْ مَا وَرَدَ فِي ٱلْخَبَرِ أَنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، أَيْنَ ٱلظَّلَمَةُ وَأَعْوَانُهُمْ ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ مَدَّ لَهُمْ دَوَاةً ، أَوْ بَرَى لَهُمْ قَلَماً ، فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ ، إِلَّا أُحْضِرُوا ، فَيُجْمَعُونَ فِي تَابُوتٍ [1] مِنْ نَارٍ ، فَيُلْقَوْنَ فِي جَهَنَّمَ .

وَعَلَى ٱلْجُمْلَةِ فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ - إِلَّا مَنْ عَصَمَ ٱللهُ - نَسُوا ٱللهَ فَنَسِيَهُمْ ، فَأَعْرَضُوا عَنِ ٱلتَّزَوُّدِ لِلْآخِرَةِ ، وَأَقْبَلُوا عَلَى طَلَبِ أَمْرَيْنِ : ٱلْجَاهِ وَٱلْمَالِ ، فَإِنْ كَانَ

(١) تابوت : التابوت الصندوق

هُوَ فِي طَلَبِ جَاهٍ وَرِيَاسَةٍ فَلْيَتَذَكَّرْ مَا وَرَدَ بِهِ الْخَبَرُ أَنَّ الْأُمَرَاءَ وَالرُّؤَسَاءَ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُوَرِ الذَّرِّ تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ ، يَطَئُونَهُمْ بِأَقْدَامِهِمْ ، وَيَقْرَأُ مَا قَالَ تَعَالَى فِي كُلِّ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يُكْتَبُ الرَّجُلُ جَبَّارًا وَمَا يَمْلِكُ إِلَّا أَهْلَ بَيْتِهِ ، أَيْ إِذَا طَلَبَ الرِّيَاسَةَ بَيْنَهُمْ ، وَتَكَبَّرَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ ، أُرْسِلَا فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ ، بِأَكْثَرَ فَسَادًا مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ »

وَإِنْ كَانَ فِي طَلَبِ الْمَالِ وَجَمْعِهِ ، فَلْيَتَأَمَّلْ قَوْلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : « يَا مَعْشَرَ الْحَوَارِيِّينَ[1] ، مَسَرَّةٌ فِي الدُّنْيَا ، مَضَرَّةٌ فِي الْآخِرَةِ ، بِحَقٍّ أَقُولُ : لَا تَدْخُلُ الْأَغْنِيَاءُ مَلَكُوتَ السَّمَاءِ » ، وَقَدْ قَالَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يُحْشَرُ الْأَغْنِيَاءُ أَرْبَعَ فِرَقٍ : رَجُلٌ جَمَعَ مَالًا

(١) الحواريين : جمع حوارى وهو الناصر والحميم

مِن حَرَامٍ ، وَأَنْفَقَهُ فِى حَرَامٍ ، فَيُقَالُ : اُذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ ، وَرَجُلٌ جَمَعَ مَالًا مِنْ حَرَامٍ ، وَأَنْفَقَهُ فِى حَلَالٍ ، فَيُقَالُ : اُذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ ، وَرَجُلٌ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَلَالٍ ، وَأَنْفَقَهُ فِى حَرَامٍ ، فَيُقَالُ : اُذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ ، وَرَجُلٌ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَلَالٍ ، وَأَنْفَقَهُ فِى حَلَالٍ ، فَيُقَالُ : قِفُوا هَذَا وَسَلُوهُ ، لَعَلَّهُ ضَيَّعَ بِسَبَبِ غِنَاهُ فِيمَا فَرَضْنَاهُ عَلَيْهِ ، أَوْ قَصَّرَ فِى الصَّلَاةِ ، أَوْ فِى وُضُوئِهَا ، أَوْ فِى رُكُوعِهَا ، أَوْ فِى سُجُودِهَا ، أَوْ خُشُوعِهَا ، أَوْ ضَيَّعَ شَيْئًا مِنْ فَرْضِ الزَّكَاةِ ، وَالْحَجِّ ، فَيَقُولُ الرَّجُلُ : جَمَعْتُ الْمَالَ مِنْ حَلَالٍ ، وَأَنْفَقْتُهُ فِى حَلَالٍ ، وَمَاضَيَّعْتُ شَيْئًا مِنْ حُدُودِ الْفَرَائِضِ ، بَلْ أَتَيْتُ بِتَمَامِهَا ، فَيُقَالُ : لَعَلَّكَ بَاهَيْتَ بِمَالِكَ ، وَاخْتَلْتَ (١) فِى شَىْءٍ مِنْ ثِيَابِكَ ، فَيَقُولُ : يَارَبِّ مَابَاهَيْتُ (٢) بِمَالِى ، وَلَا اخْتَلْتُ فِى ثِيَابِى ، فَيُقَالُ : لَعَلَّكَ فَرَّطْتَ فِيمَا أَمَرْنَاكَ مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحَقِّ

(١) اختلت : زهوت وتبخترت فى ثيابك (٢) باهيت : فاخرت غيرك

ٱلْجِيرَانِ وَٱلْمَسَاكِينِ ، وَقَصَّرْتَ فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ ، وَٱلتَّفْضِيلِ وَٱلتَّعْدِيلِ ، وَيُحِيطُ بِهِ هَؤُلَاءِ فَيَقُولُونَ رَبَّنَا أَغْنَيْتَهُ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، وَأَحْوَجْتَنَا إِلَيْهِ ، فَقَصَّرَ فِي حَقِّنَا ، فَإِنْ ظَهَرَ تَقْصِيرٌ ، ذُهِبَ بِهِ إِلَى ٱلنَّارِ ، وَإِلَّا قِيلَ لَهُ قِفْ ، هَاتِ ٱلْآنَ شُكْرَ كُلِّ نِعْمَةٍ ، وَكُلِّ شُرْبَةٍ ، وَكُلِّ أَكْلَةٍ ، وَكُلِّ لَذَّةٍ ، فَلَا يَزَالُ يُسْأَلُ وَيُسْأَلُ . . . فَهَذِهِ حَالُ ٱلصَّالِحِينَ ٱلْمُصْلِحِينَ ٱلْقَائِمِينَ بِحُقُوقِ ٱللهِ ، أَنْ يَطُولَ وُقُوفُهُمْ فِي ٱلْعَرَصَاتِ[1] فَكَيْفَ حَالُ ٱلْمُفَرِّطِينَ ٱلْمُنْهَمِكِينَ فِي ٱلْحَرَامِ وَٱلشُّبُهَاتِ ٱلْمُكَاثِرِينَ بِهِ ٱلْمُتَّبِعِينَ لِشَهَوَاتِهِمْ ، ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ : « أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ » .

فَهَذِهِ ٱلْمَطَالِبُ ٱلْفَاسِدَةُ ، هِيَ ٱلَّتِي ٱسْتَوْلَتْ عَلَى قُلُوبِ ٱلْخَلْقِ ، تُسَخِّرُهَا لِلشَّيْطَانِ ، وَتَجْعَلُهَا ضُحْكَةً لَهُ ، فَعَلَيْهِ وَعَلَى كُلِّ مُسْتَمِرٍّ فِي عَدَاوَةِ نَفْسِهِ ، أَنْ يَتَعَلَّمَ

---

(١) العرصات : جمع عرصة . وهى البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء .

عِلاجَ هَذَا ٱلْمَرَضِ ٱلَّذِى حَلَّ بِالْقُلُوبِ ، فَعِلاجُ مَرَضِ ٱلْقُلُوبِ ، أَهَمُّ مِنْ عِلاجِ مَرَضِ ٱلْأَبْدَانِ ، وَلَا يَنْجُو إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .

وَلَهُ دَوَاءَانِ : أَحَدُهُمَا مُلَازَمَةُ ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ ، وَطُولِ ٱلتَّأَمُّلِ (١) فِيهِ ، مَعَ ٱلِاعْتِبَارِ بِخَاتِمَةِ ٱلْمُلُوكِ ، وَأَرْبَابِ ٱلدُّنْيَا ، كَيْفَ جَمَعُوا كَثِيرًا ، وَبَنَوْا قُصُورًا ، وَفَرِحُوا بِالدُّنْيَا بَطَرًا (٢) وَغُرُورًا ، فَصَارَتْ قُصُورُهُمْ قُبُورًا ، وَأَصْبَحَ جَمْعُهُمْ هَبَاءً (٣) مَنْثُورًا ، « وَكَانَ أَمْرُ ٱللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا » وَأَمْلَاكُهُمْ وَمَسَاكِنُهُمْ صَوَامِتَ نَاطِقَةً ، تَشْهَدُ بِلِسَانِ حَالِهَا عَلَى غُرُورِ عُمَّالِهَا ، فَانْظُرِ ٱلْآنَ فِى جَمِيعِهِمْ ، «هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٤) » .

وَٱلدَّوَاءُ ٱلثَّانِى : تَدَبُّرُ كِتَابِ ٱللهِ تَعَالَى ، فَفِيهِ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ ، وَقَدْ أَوْصَى رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ

---

(١) الفصيح تأمله (٢) بطر : حار ودهش من قلة احتمال النعمة
(٣) الهباء : الغبار المتطاير مع الهواء (٤) ركزا : أى صوتا خفيا

وَسَلَّمَ بِمُلَازَمَةِ هَذَيْنِ الْوَاعِظَيْنِ . فَقَالَ : « تَرَكْتُ فِيكُمْ وَاعِظَيْنِ ، صَامِتاً وَنَاطِقاً : الصَّامِتُ الْمَوْتُ ، وَالنَّاطِقُ الْقُرْآنُ » ، وَقَدْ أَصْبَحَ أَكْثَرُ النَّاسِ أَمْوَاتاً عَنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى ، وَإِنْ كَانُوا أَحْيَاءً فِي مَعَايِشِهِمْ ، وَبُكْماً عَنْ كِتَابِ اللهِ وَإِنْ كَانُوا يَتْلُونَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، وَصُمّاً عَنْ سَمَاعِهِ ، وَإِنْ كَانُوا يَسْمَعُونَهُ بِآذَانِهِمْ ، وَعُمْيَاً عَنْ عَجَائِبِهِ ، وَإِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فِي مَصَاحِفِهِمْ ، وَأُمِّيِّينَ فِي أَسْرَارِهِ وَمَعَانِيهِ ، وَإِنْ كَانُوا يَشْرَحُونَهُ فِي تَفَاسِيرِهِمْ .

فَاحْذَرْ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ ، وَتَدَبَّرْ أَمْرَكَ ، وَأَمْرَ مَنْ لَمْ يَتَدَبَّرْ كَيْفَ نَدِمَ وَتَحَسَّرَ ، وَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ وَأَمْرِ مَنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ ، كَيْفَ خَابَ عِنْدَ الْمَوْتِ وَخَسِرَ ، وَاتَّعِظْ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ فَفِيهِ مَقْنَعٌ وَبَلَاغٌ لِكُلِّ ذِي بَصِيرَةٍ .

قَالَ تَعَالَى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ

وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » إِلَى آخِرِهَا . وَإِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغِلَ بِجَمْعِ الْمَالِ ، فَإِنَّ فَرَحَكَ بِهِ يُنْسِيكَ أَمْرَ الْآخِرَةِ ، وَيَنْزِعُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ مِنْ قَلْبِكَ ، قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَا تَنْظُرُوا إِلَى أَمْوَالِ أَهْلِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ بَرِيقَ أَمْوَالِهِمْ يَذْهَبُ بِحَلَاوَةِ إِيمَانِكُمْ » ، وَهَذِهِ ثَمَرَةُ مُجَرَّدِ النَّظَرِ ، فَكَيْفَ عَاقِبَةُ الْجَمْعِ وَالطُّغْيَانِ وَالْبَطَرِ (١)

وَأَمَّا الْقَاضِي الْجَلِيلُ ، الْإِمَامُ مَرْوَان ، أَكْثَرَ اللهُ فِي أَهْلِ الْعِلْمِ أَمْثَالَهُ ، فَهُوَ قُرَّةُ الْعَيْنِ ، وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْفَضِيلَتَيْنِ : الْعِلْمَ ، وَالتَّقْوَى ، وَلَكِنَّ الِاسْتِمَامَ بِالدَّوَامِ ، وَلَا يَتِمُّ الدَّوَامُ إِلَّا بِمُسَاعَدَةٍ مِنْ جِهَةٍ ، وَمُعَاوَنَةٍ لَهُ عَلَيْهِ بِمَا يَزِيدُ فِي رَغْبَتِهِ ، وَمَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِمِثْلِ هَذَا الْوَلِيدِ النَّجِيبِ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَّخِذَهُ ذُخْرًا لِلْآخِرَةِ ، وَوَسِيلَةً إِلَى اللهِ تَعَالَى ، وَأَنْ يَسْعَى فِي فَرَاغِ

(١) بطر : حار ودهش من قلة احتمال النعمة وطغى بها

قَلْبِهِ لِعِبَادَةِ ٱللهِ تَعَالَى وَلَا يَقْطَعَ عَلَيْهِ ٱلطَّرِيقَ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى ، وَأَوَّلُ ٱلطَّرِيقِ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى طَلَبُ ٱلْحَلَالِ ، وَٱلْقَنَاعَةُ بِقَدْرِ ٱلْقُوتِ مِنَ ٱلْمَالِ ، وَسُلُوكُ سَبِيلِ ٱلتَّوَاضُعِ ، وَٱلنُّزُوعُ مِنْ رُعُونَاتِ (١) أَهْلِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي هِيَ مَصَائِدُ ٱلشَّيْطَانِ ـ هَذَا مَعَ ٱلْهَرَبِ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱلْأُمَرَاءِ وَٱلسَّلَاطِينِ . فَفِي ٱلْخَبَرِ أَنَّ ٱلْفُقَهَاءَ أُمَنَاءُ ٱللهِ مَالَمْ يَدْخُلُوا فِي ٱلدُّنْيَا ، فَإِذَا دَخَلُوا فِيهَا فَاتَّهِمُوهُمْ عَلَى دِينِكُمْ ، وَهَذِهِ أُمُورٌ قَدْ هَدَاهُ ٱللهُ إِلَيْهَا ، وَيَسَّرَهَا عَلَيْهِ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَمُدَّهُ بِبَرَكَةِ ٱلرِّضَا ، وَيَمُدَّهُ بِٱلدُّعَاءِ فَدُعَاءُ ٱلْوَالِدِ أَعْظَمُ ذُخْرًا وُعِدَهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ فِيمَا يَأْمُرُهُ مِنَ ٱلنُّزُوعِ عَنِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْوَلَدُ وَإِنْ كَانَ فَرْعًا فَرُبَّمَا صَارَ بِمَزِيدِ ٱلْعِلْمِ أَصْلًا ، وَلِذَلِكَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : « يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَالَمْ يَأْتِكَ » ـ ٱلْآيَةَ ـ وَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَجْبُرَ

(١) الرعونات : الوقوف مع حظوظ الدنيا ومقتضى طباعها . أو الحمق ونقصان الفكر

تَقْصِيرَهُ فِي ٱلْقِيامَةِ بِتَوْقِيرِهِ وَلَدَهُ ، ٱلَّذِي هُوَ فِلْذَةُ [١] كَبِدِهِ ، فَأَعْظَمُ حَسْرَةِ أَهْلِ ٱلنَّارِ فِي ٱلْقِيامَةِ فَقْدُهُمْ فِي ٱلْقِيامَةِ حَمِيماً يَشْفَعُ لَهُمْ ، قَالَ ٱللهُ تَعَالَى : « فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هٰهُنَا حَمِيمٌ » ، وَأَسْأَلُ ٱللهَ أَنْ يُصَغِّرَ فِي عَيْنَيْهِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي هِيَ صَغِيرَةٌ عِنْدَ ٱللهِ ، وَأَنْ يُعَظِّمَ فِي عَيْنَيْهِ ٱلَّذِي هُوَ عَظِيمٌ عِنْدَهُ ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا وَإِيَّاهُ لِمَرْضَاتِهِ ، وَيُحِلَّهُ ٱلْفِرْدَوْسَ ٱلْأَعْلَى مِنْ جَنَّاتِهِ ، بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ .

***

كلماته وحكمه

وَلِلْغَزَالِيِّ كَلِمَاتٌ مَنْثُورَةٌ ، وَجَوَامِعُ كَلِمٍ ، وَطَائِفَةٌ مِنْ حِكَمٍ رَوَائِعَ ، وَقَدْ ذَكَرَهَا ٱلْمَنَاوِيُّ فِي طَبَقَاتِهِ كَمَا أَوْرَدَهَا غَيْرُهُ ، وَنَحْنُ نَاقِلُونَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْأَفْذَاذِ [٢] ٱلنَّابِغَةِ [٣] طَائِفَةً صَالِحَةً :

---

(١) الفلذة : القطعة من اللحم والغرض منها الاولاد (٢) الافذاذ : جمع فذ وهو الفرد الشاذ عن أصحابه و بقي منفردا (٣) النابغة : الرجل العظيم الشأن والناء فيه للمبالغة

الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ ، وَهِيَ مَنْزِلَةٌ مِنْ مَنَازِلِ الْهُدَى وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ دُنْيَا ، لِأَنَّهَا أَدْنَى الْمَنْزِلَتَيْنِ .

رُبَّمَا وَجَدَ بَعْضُهُمْ فِي نَفْسِهِ أُنْساً وَتَقْرِيباً فِي عِبَادَتِهِ وَمَجْلِسِهِ ، فَظَنَّ أَنَّهُ بِهَا يَغْفِرُ لِجَمِيعِ مَنْ حَضَرَهُ ، فَضْلًا عَنْهُ ، وَلَوْ أَنَّهُ تَعَالَى عَامَلَهُ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ عَلَى سُوءِ أَدَبِهِ فِي ذَلِكَ ، لَأَهْلَكَهُ .

أَنْوَارُ الْعُلُومِ لَمْ تُحْجَبْ مِنَ الْقُلُوبِ ، لِبُخْلٍ وَمَنْعٍ مِنْ جِهَةِ الْمُنْعِمِ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ ، بَلْ لِخُبْثٍ وَكُدُورَةٍ (١) وَشُغْلٍ مِنْ جِهَةِ الْقُلُوبِ ، فَإِنَّهَا كَالْأَوَانِي مَادَامَتْ مَمْلُوءَةً بِالْمَاءِ لَا يَدْخُلُهَا الْهَوَاءُ ، وَالْقَلْبُ الْمَشْغُولُ بِغَيْرِ اللهِ ، لَا تَدْخُلُهُ الْمَعْرِفَةُ بِجَلَالِهِ .

الْإِيمَانُ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ : الْأُولَى ، إِيمَانُ الْعَوَامِّ ، وَهُوَ إِيمَانُ التَّقْلِيدِ الْمَحْضِ ، وَالثَّانِيَةُ : إِيمَانُ الْمُتَكَلِّمِينَ وَهُوَ مَمْزُوجٌ بِنَوْعِ اسْتِدْلَالٍ ، وَالثَّالِثَةُ : إِيمَانُ الْعَارِفِينَ وَهُوَ الْمُشَاهَدَةُ بِنُورِ الْيَقِينِ .

---

(١) كدر الماء : عكر وزال صفاؤه

ظَنُّ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ ٱلْعُلُومَ ٱلْعَقْلِيَّةَ مُنَاقِضَةٌ لِلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ، وَأَنَّ ٱلْجَمْعَ بَيْنَهُمَا غَيْرُ مُمْكِنٍ ، ظَنٌّ صَادِرٌ عَنْ عَمًى فِي عَيْنِ ٱلْبَصِيرَةِ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْهُ . وَٱلْعُلُومُ ٱلْعَقْلِيَّةُ ، دُنْيَوِيَّةٌ ، وَأُخْرَوِيَّةٌ ، فَالدُّنْيَوِيَّةُ كَالطِّبِّ وَٱلْحِسَابِ وَٱلنُّجُومِ وَٱلْحِرَفِ وَٱلصَّنَائِعِ ، وَٱلْأُخْرَوِيَّةُ كَعِلْمِ أَحْوَالِ وَآفَاتِ ٱلْأَعْمَالِ ، وَٱلْعِلْمِ بِاللهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَهُمَا عِلْمَانِ مُتَنَاقِضَانِ ، أَعْنِي مَنْ صَرَفَ غَايَتَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا حَتَّى يَعْمُقَ فِيهِ ، قَصُرَتْ بَصِيرَتُهُ عَنِ ٱلْآخَرِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ .

مَهْمَا سَمِعْتَ أَمْرًا غَرِيبًا مِنْ أُمُورِ ٱلدِّينِ ، جَحَدَهُ أَهْلُ ٱلْكِيَاسَةِ (١) عَنْ سَائِرِ ٱلْعُلُومِ ، فَلَا يُنَفِّرَنَّكَ جُحُودُهُمْ ، عَنْ قَبُولِهِ ، إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَظْفَرَ سَالِكُ طَرِيقِ ٱلشَّرْقِ بِمَا فِي ٱلْغَرْبِ .

تَهُبُّ رِيَاحُ ٱلْأَلْطَافِ ، فَتَكْشِفُ ٱلْحُجُبَ عَنْ

(١) الكياسة : الظرف وتوقد الذهن

أَعْيُنِ الْقُلُوبِ ، فَيَتَجَلَّى لَهَا بَعْضُ مَا هُوَ مَسْطُورٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ .

لَيْسَ الْوَرَعُ فِي الْجَبْهَةِ حَتَّى تُقْطَبَ (١) ، وَلَا فِي الْخَدِّ حَتَّى يُصَعَّرَ (٢) ، وَلَا فِي الظَّهْرِ حَتَّى يُنْحَنَى ، وَلَا فِي الرَّقَبَةِ حَتَّى تُطَأْطِئَ ، وَلَا فِي الذَّيْلِ حَتَّى يُضَمَّ ، إِنَّمَا الْوَرَعُ فِي الْقُلُوبِ ، أَمَّا مَنْ تَلْقَاهُ بِبِشْرٍ فَيَلْقَاكَ بِعُبُوسٍ ، يَمُنُّ عَلَيْكَ بِعِلْمِهِ ، فَلَا أَكْثَرَ اللهُ فِي الْمُسْلِمِينَ مِنْ مِثْلِهِ .

قَلْبُ الْمُؤْمِنِ لَا يَمُوتُ ، وَعِلْمُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ لَا يَنْمَحِي ، وَصَفَاؤُهُ لَا يَتَكَدَّرُ ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ الْحَسَنُ بِقَوْلِهِ : « التُّرَابُ لَا يَأْكُلُ مَحَلَّ الْإِيمَانِ » أَمَّا مَا حَصَّلَهُ مِنْ نَفْسِ الْعِلْمِ ، أَوْ مَا حَصَّلَهُ مِنَ الصَّفَاءِ وَالِاسْتِعْدَادِ بِقَبُولِهِ .

الْعِلْمُ الْبَاطِنُ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللهِ يَقْذِفُهُ (٣) فِي قُلُوبِ أَحْبَابِهِ .

---

(١) تقطب : قطب الرجل : زوى ما بين عينيه وعبس (٢) وصعر : أمال وجهه عن الناس تهاونا و إعراضا (٣) يقذفه : يلقيه

أَعْظَمُ أَنْوَاعِ عُلُومِ ٱلْمُعَامَلَةِ ، ٱلْوُقُوفُ عَلَى خُدَعِ[1] ٱلنَّاسِ وَمَكَايِدِ ٱلشَّيْطَانِ ، وَذَلِكَ فَرْضُ عَيْنٍ عَلَى كُلِّ جَسَدٍ . وَقَدْ أَهْمَلَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱسْتَقَلُّوا بِعُلُومٍ تَجُرُّ إِلَيْهِمُ ٱلْوَسْوَاسَ وَتُسَلِّطُ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَانَ .

مَهْمَا رَأَيْتَ ٱلْعُلَمَاءَ يَتَغَايَرُونَ وَيَتَحَاسَدُونَ وَلَا يَتَنَاسَوْنَ فَاعْلَمْ أَنَّهُمُ ٱشْتَرَوُا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ فَهُمْ خَاسِرُونَ

كُلُّ مَنِ ٱدَّعَى مَذْهَبَ إِمَامٍ وَلَا يَسِيرُ سِيرَتَهُ ، فَذَلِكَ ٱلْإِمَامُ خَصْمُهُ ، يَقُولُ لَهُ كَانَ مَذْهَبِي ٱلْعَمَلَ دُونَ ٱلْحَدِيثِ بِاللِّسَانِ ، وَكَانَ ٱلْحَدِيثُ بِاللِّسَانِ لِأَجْلِ ٱلْعَمَلِ لَا لِلْهَذَيَانِ[2] ، فَمَا بَالُكَ خَالَفْتَنِي فِي ٱلْعَمَلِ وَٱلسِّيرَةِ ٱلَّتِي هِيَ مَذْهَبِي ٱلَّذِي سَلَكْتُهُ وَذَهَبْتُ فِيهِ إِلَى ٱللهِ ثُمَّ ٱدَّعَيْتَ مَذْهَبِي كَاذِبًا ، فَهَذَا مَدْخَلٌ مِنْ مَدَاخِلِ ٱلشَّيْطَانِ ، أَهْلَكَ بِهِ أَكْثَرَ ٱلْعَالَمِ .

---

(١) الخدعة : الختل وإرادة المكروه للناس من حيث لا يعلمون (٢) الهذيان : الخلط فى القول والتخبط فيه

أَشَدُّ ٱلنَّاسِ حَمَاقَةً ، أَقْوَاهُمْ إِعْتِقَادًا فِي فَضْلِ نَفْسِهِ ، وَأَثْبَتُ ٱلنَّاسِ عَقْلًا أَشَدُّهُمْ اتِّهَامًا لِنَفْسِهِ .

ٱلْعَامِيُّ إِذَا زَنَى أَوْ سَرَقَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي ٱلْعِلْمِ ، فَإِنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِتْقَانِ ٱلْعِلْمِ ، فِي ٱللهِ وَفِي دِينِهِ ، وَقَعَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي كَمَنْ رَكِبَ فِي ٱلْبَحْرِ وَلَا يَعْرِفُ ٱلسِّبَاحَةَ

أَوْرَعُ (١) ٱلنَّاسِ وَأَتْقَاهُمْ وَأَعْلَمُهُمْ مَنْ لَا يَنْظُرُ ٱلنَّاسُ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ بِعَيْنٍ وَاحِدَةٍ ، بَلْ بَعْضُهُمْ بِعَيْنِ ٱلرِّضَا وَبَعْضُهُمْ بِعَيْنِ ٱلسُّخْطِ .

* وَعَيْنُ ٱلرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ *

مَهْمَا رَأَيْتَ إِنْسَانًا سَيِّئَ ٱلظَّنِّ بِالنَّاسِ ، طَالِبًا لِلْعُيُوبِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ خَبِيثٌ فِي ٱلْبَاطِنِ وَٱلْمُؤْمِنُ سَلِيمُ ٱلصَّدْرِ فِي حَقِّ كَافَّةِ ٱلْخَلْقِ .

حَقِيقَةُ ٱلذِّكْرِ لَا تَتَمَكَّنُ مِنَ ٱلْقَلْبِ إِلَّا بَعْدَ

(١) أورع الناس : هو الذى جانب الاثم وكف عن المعاصى والشبهات

عِمَارَتِهِ بِالتَّقْوَى ، وَتَطْهِيرِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ ، وَإِلَّا فَيَكُونُ الذِّكْرُ حَدِيثَ نَفْسٍ وَلَا سُلْطَانَ لَهُ عَلَى الْقَلْبِ ، وَلَا يَدْفَعُ الشَّيْطَانَ

الشَّيَاطِينُ (١) جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، وَلِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعَاصِي شَيْطَانٌ يَخُصُّهُ وَيَدْعُو إِلَيْهِ

خَالِصُ الرِّيَاضَةِ وَسِرُّهَا ، أَلَّا تَتَمَتَّعَ النَّفْسُ بِشَيْءٍ لَا يُوجَدُ فِي الْغَيْرِ إِلَّا بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ ، فَيَقْتَصِرُ مِنْ أَكْلِهِ وَلِبَاسِهِ وَمَسْكَنِهِ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ ، فَإِنَّهُ لَوْ تَمَتَّعَ بِشَيْءٍ مِنْهُ أَلِفَهُ ، وَإِذَا مَاتَ تَمَنَّى الرُّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا ، وَلَا يَتَمَنَّى الرُّجُوعَ إِلَيْهَا إِلَّا مَنْ لَاحَظَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ .

النَّفْسُ إِذَا لَمْ تُمْنَعْ بَعْضَ الْمُبَاحَاتِ ، طَمِعَتْ فِي الْمَحْظُورَاتِ

الْبَطْنُ وَالْفَرْجُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النَّارِ ، وَأَصْلُهُ

---

(١) الشياطين : جمع شيطان وهو روح خبيث متمرد مسكنه النار أو كل عات متمرد من انس أو جن أو دابة

ٱلشِّبَعُ . وَٱلذُّلُّ وَٱلِانْكِسَارُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْجَنَّةِ ، وَأَصْلُهُ ٱلْجُوعُ ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ ٱلنَّارِ ، فَقَدْ فَتَحَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ ٱلْجَنَّةِ ، لِتَقَابُلِهِمَا ، فَٱلْقُرْبُ مِنْ أَحَدِهِمَا بُعْدٌ مِنَ ٱلْآخَرِ

ٱلسَّعَادَةُ كُلُّهَا فِي أَنْ يَمْلِكَ ٱلْمَرْءُ نَفْسَهُ ، وَٱلشَّقَاءُ فِي أَنْ تَمْلِكَهُ نَفْسُهُ .

ٱلشِّبَعُ يَمْنَعُ ٱلْعِبَادَةَ وَأَشْوَاقَ ٱلْقَلْبِ وَٱلْفِكْرَ ، وَيُنَغِّصُ ٱلْعَيْشَ . وَٱلْجُوعُ يَدْفَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، لِأَنَّ قِلَّةَ ٱلْأَكْلِ تُصَحِّحُ ٱلْبَدَنَ وَبِكَثْرَتِهِ تَحْصُلُ فَضْلَةُ ٱلْأَخْلَاطِ فِي ٱلْمَعِدَةِ وَٱلْعُرُوقِ

حَدُّ ٱلْمِرَاءِ كُلُّ اعْتِرَاضٍ عَلَى كَلَامِ ٱلْغَيْرِ ، بِإِظْهَارِ خَلَلٍ فِيهِ وَٱلْمُجَادَلَةِ قَصْدَ إِفْحَامِ [1] ٱلْغَيْرِ وَتَعْجِيزِهِ وَتَنْغِيصِهِ بِٱلْقَدْحِ فِي كَلَامِهِ وَنِسْبَتِهِ إِلَى ٱلْقُصُورِ وَٱلْجَهْلِ فِيهِ

مَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ ٱلْفِكْرَ فِي جَلَالِ ٱللهِ وَعَظَمَتِهِ

(١) الافحام : من أفحمه أى أسكته بالحجة

وَمَلَكُوتِ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ صَارَ ذَلِكَ عِنْدَهُ أَلَذَّ مِنْ كُلِّ نَعِيمٍ ، فَلَذَّةُ هَذَا فِي عَجَائِبِ الْمَلَكُوتِ عَلَى الدَّوَامِ أَعْظَمُ مِنْ لَذَّةِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى أَثْمَارِ الْجَنَّةِ وَبَسَاتِينِهَا بِالْعَيْنِ الظَّاهِرَةِ ، هَذَا حَالُهُمْ وَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، فَمَا الظَّنُّ بِهِمْ عِنْدَ انْكِشَافِ الْغِطَاءِ فِي الْعُقْبَى

إِنْ كُنْتَ لَا تَشْتَاقُ إِلَى مَعْرِفَةِ اللهِ فَأَنْتَ مَعْذُورٌ ، فَالْعِنِّينُ لَا يَشْتَاقُ إِلَى لَذَّةِ الْوِقَاعِ ، وَالصَّبِيُّ لَا يَشْتَاقُ لِلْمُلْكِ ، وَالشَّوْقُ بَعْدَ الذَّوْقِ ، وَمَنْ لَمْ يَذُقْ لَمْ يَعْرِفْ ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ لَمْ يَشْتَقْ ، وَمَنْ لَمْ يَشْتَقْ لَمْ يَطْلُبْ ، وَمَنْ لَمْ يَطْلُبْ لَمْ يُدْرِكْ ، وَمَنْ لَمْ يُدْرِكْ بَقِيَ مِنَ الْمَحْرُومِينَ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ

مَنْ فَاتَهُ اللَّحَاقُ بِالْأَكَابِرِ فِي الدِّينِ ، لَمْ يَفُتْهُ ثَوَابُ حُبِّهِ لَهُمْ مَهْمَا أَحَبَّ ذَلِكَ

الْحَسَدُ (١) لَيْسَ مَظْلَمَةً يَجِبُ الِاسْتِحْلَالُ مِنْهَا ،

(١) الحسد . تمنى زوال نعمة الغير ، أما الغبطة فتمنى أن يكون لك مثل ما لغيرك

بَلْ مَعْصِيَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ وَإِنَّمَا يَجِبُ الِاسْتِحْلَالُ مِمَّا يَجِبُ عَلَى الْجَوَارِحِ

دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ عِبَارَتَانِ عَنْ حَالَتَيْنِ مِنْ أَحْوَالِ قَلْبِكَ ، فَالطَّرَفُ الدَّانِي مِنْهُمَا يُسَمَّى دُنْيَا ، وَهِيَ كُلُّهَا قَبْلَ الْمَوْتِ ، وَالْمُتَأَخِّرُ يُسَمَّى آخِرَةً ، وَهِيَ مَا بَعْدَهُ ، وَكُلُّ مَالَكَ فِيهِ حَظٌّ وَشَهْوَةٌ عَاجِلَةٌ قَبْلَ الْوَفَاةِ فَهِيَ الدُّنْيَا فِي حَقِّكَ

لَا يَبْقَى مَعَ الْعَبْدِ عِنْدَ الْمَوْتِ إِلَّا ثَلَاثُ صِفَاتٍ : صَفَاءُ الْقَلْبِ ، أَعْنِي طَهَارَتَهُ مِنْ أَدْنَاسِ الدُّنْيَا ، وَأُنْسُهُ بِذِكْرِ اللهِ ، وَحُبُّهُ لِلهِ ، وَطَهَارَةُ الْقَلْبِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْكَفِّ عَنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا ، وَالْأُنْسُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ ، وَالْحُبُّ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْمَعْرِفَةِ وَلَا تَحْصُلُ مَعْرِفَةُ اللهِ إِلَّا بِدَوَامِ الْفِكْرِ

الْكِبْرُ دَلِيلُ الْأَمْنِ ، وَالْأَمْنُ مُهْلِكٌ ، وَالتَّوَاضُعُ (١) دَلِيلُ الْخَوْفِ ، وَهُوَ مُسْعِدٌ .

(١) التواضع : الذلة والخشوع

مِنْ أَدْوِيَةِ ٱلْكِبْرِ أَنْ يَجْتَمِعَ مَعَ أَقْرَانِهِ فِى ٱلْمَحَافِلِ وَيُقَدِّمَهُمْ وَيَجْلِسَ تَحْتَهُمْ ، وَلِلشَّيْطَانِ هُنَا مَكِيدَةٌ ، وَهُوَ أَنْ يَقْعُدَ فِى صَفِّ ٱلنِّعَالِ ، أَوْ يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَقْرَانِهِ بَعْضَ ٱلْأَرْذَالِ ، فَيَظُنَّ أَنَّهُ مُتَوَاضِعٌ وَهُوَ عَيْنُ ٱلتَّكَبُّرِ لِإِيهَامِهِ لَهُ تَرْكَ مَكَانِهِ بِالِاسْتِحْقَاقِ ، فَيَكُونُ تَكَبُّرًا بِإِظْهَارِ ٱلتَّوَاضُعِ ، بَلْ يُقَدِّمُ أَقْرَانَهُ وَيَجْلِسُ تَحْتَهُمْ ، وَلَا يَنْحَطُّ إِلَى صَفِّ ٱلنِّعَالِ .

أَسَاسُ ٱلسَّعَادَاتِ كُلِّهَا ٱلْعَقْلُ وَٱلْكِيَاسَةُ (١) وَٱلذَّكَاءُ ، وَصِحَّةُ غَرِيزَةِ ٱلْعَقْلِ نِعْمَةٌ مِنَ ٱللهِ فِى أَصْلِ ٱلْفِطْرَةِ ، فَإِذَا مَاتَتْ بِبَلَادَتِهِ أَوْ حَمَاقَتِهِ فَتَدَارَكْ لَهُ .

كُنْ مِنْ شَيَاطِينِ ٱلْجِنِّ فِى ٱلْأَمَانِ ، وَٱحْذَرْ شَيَاطِينَ ٱلْإِنْسِ ، فَإِنَّهُمْ أَرَاحُوا شَيَاطِينَ ٱلْجِنِّ مِنَ ٱلتَّعَبِ فِى ٱلْإِغْوَاءِ وَٱلْإِضْلَالِ .

مَامِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ رَاضٍ عَنِ ٱللهِ فِى كَمَالِ عَقْلِهِ ،

(١) الكياسة : توقد الذهن والفطنة

وَأَشَدُّهُمْ حَمَاقَةً ، وَأَضْعَفُهُمْ عَقْلًا ، أَفْرَحُهُمْ بِكَمَالِ عَقْلِهِ .

عُلَمَاءُ الْآخِرَةِ يُعْرَفُونَ بِسِيمَاهُمُ مِنَ السَّكِينَةِ وَالذِّلَّةِ وَالتَّوَاضُعِ ، أَمَّا التَّمَشْدُقُ [1] وَالِاسْتِغْرَاقُ فِي الضَّحِكِ وَالْحِدَّةُ فِي الْحَرَكَةِ وَالنُّطْقِ فَمِنْ آثَارِ الْبَطَرِ وَالْغَفْلَةِ ، وَذَلِكَ مِنْ دَأْبِ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا .

مِنَ الذُّنُوبِ مَا يُورِثُ سُوءَ الْخَاتِمَةِ ، وَهُوَ ادِّعَاءُ الرَّجُلِ الْوِلَايَةَ مَعَ فَقْدِهَا مِنْهُ .

***

شعر الغزالي

وَلِلْغَزَالِيِّ شِعْرٌ قَلِيلٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ

قَالَ ابْنُ السُّبْكِيِّ : أَخْبَرَنَا الْحَافِظُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْأَشْعَرِيُّ - إِذْنًا خَاصًّا عِنْدَ أَبِي الْفَضْلِ أَحْمَدَ بْنِ هِبَةِ اللهِ بْنِ عَسَاكِرَ - عَنْ أَبِي الْمُظَفَّرِ عَبْدِ الرَّحِيمِ ، أَخْبَرَنَا الْحَافِظُ أَبُو سَعِيدٍ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مَنْصُورٍ .

(١) التمشدق : أن يرى الفصاحة للسامعين فى نطقه وليس بفصيح

أَنْشَدَنَا أَبُو مُحَمَّدِ بنُ أَبِى ٱلْعَبَّاسِ ٱلْخَلِيلِىُّ إِمْلَاءً بِنُوقَانَ فِى ٱلْجَامِعِ ، أَنْشَدَنَا ٱلْإِمَامُ أَبُو حَامِدٍ ٱلْغَزَالِىُّ رَحِمَهُ ٱللهُ :

إِرْفَهْ [١] بِبَالِ ٱمْرِىءٍ يُمْسِى عَلَى ثِقَةٍ
إِنَّ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْزَاقَ يَرْزُقُهُ
فَٱلْعِرْضُ مِنْهُ مَصُونٌ لَا يُدَنِّسُهُ [٢]
وَٱلْوَجْهُ مِنْهُ جَدِيدٌ لَيْسَ يُخْلِقُهُ
إِنَّ ٱلْقَنَاعَةَ مَنْ يَحْلُلْ بِسَاحَتِهَا
لَمْ يَلْقَ فِى دَهْرِهِ شَيْئًا يُؤَرِّقُهُ

وَلَهُ أَيْضًا :

سَقَمِى فِى ٱلْحُبِّ عَافِيَتِى
وَوُجُودِى فِى ٱلْهَوَى عَدَمِى
وَعَذَابٌ تَرْتَضُونَ بِهِ
فِى فَمِى أَحْلَى مِنَ ٱلنِّعَمِ

(١) ارفه : ارفق (٢) لا يدنسه : لا يشوهه

مَا لِضُرٍّ فِي مَحَبَّتِكُمْ
عِنْدَنَا وَاللهِ مِنْ أَلَمِ

وَمِمَّا يُنْسَبُ إِلَيْهِ قَالَهُ فِي أَيَّامِ سِيَاحَتِهِ:

قَدْ كُنْتُ عَبْدًا وَالْهَوَى مَالِكِي
فَصِرْتُ حُرًّا وَالْهَوَى خَادِمِي
وَصِرْتُ بِالْوَحْدَةِ مُسْتَأْنِسًا
مِنْ شَرِّ أَصْنَافِ بَنِي آدَمِ
مَا فِي اخْتِلَاطِ النَّاسِ خَيْرٌ، وَلَا
ذُو الْجَهْلِ بِالْأَشْيَاءِ كَالْعَالِمِ
يَا لَائِمِي فِي تَرْكِهِمْ جَاهِلًا
عُذْرِي مَنْقُوشٌ عَلَى الْخَاتَمِ

وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ نَقَشَ خَاتَمَهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ « وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ »

وَأَنْشَدَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَبْدِ اللهِ الْجَوْهَرِيُّ لِلْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ الْبَيْتَيْنِ الْآتِيَيْنِ:

فُقَهَاؤُنَا كَذُبَالَةِ (١) ٱلنِّبْرَاسِ (٢)

هِيَ فِي ٱلْحَرِيقِ وَضَوْءُهَا لِلنَّاسِ

حَبْرٌ وَسِيمٌ تَحْتَ رَائِقِ مَنْظَرٍ

كَٱلْفِضَّةِ ٱلْبَيْضَاءِ فَوْقَ نُحَاسِ

وَلِلْغَزَالِيِّ أَيْضاً :

حَلَّتْ عَقَارِبُ صُدْغِهِ فِي خَدِّهِ

قَمَرًا يَجِلُّ بِهَا عَنِ ٱلتَّشْبِيهِ

وَلَقَدْ عَهِدْنَاهُ يَحُلُّ بِبُرْجِهَا (٣)

وَمِنَ ٱلْعَجَائِبِ كَيْفَ حَلَّتْ فِيهِ

وَذَكَرَ ٱبْنُ ٱلسَّمْعَانِيِّ فِي ٱلذَّيْلِ وَٱلْعِمَادُ فِي ٱلْخَرِيدَةِ لَهُ :

حَلَّتْ عَقَارِبُ صُدْغِهِ فِي خَدِّهِ

وَحَظِيتُ مِنْهُ بِلَثْمِ خَدٍّ أَزْهَرِ

---

(١) ذبالة : فتيلة احترق بعضها (٢) النبراس : المصباح (٣) و بروج الكواكب معلومة يريد أن يقول عهدنا البدر يحل فى برج العقرب ولكن عقارب صدغ المحبوب حلت فى البدر وهذا من العجائب ، ففى البيت توجيه فلكى

إِنِّى اُعْتَزَلْتُ فَلَا تَلُومُوا أَنَّهُ

أَضْحَى يُقَابِلُنِى بِوَجْهٍ أَشْعَرِى (١)

وَمِمَّا أَنْشَدَهُ ٱلْغَزَالِىُّ بِبَغْدَادَ فِى أَثْنَاءِ دَرْسِ ٱلْإِحْيَاءِ وَرَوَاهُ عَنْهُ أَبُو سَعِيدٍ ٱلْفَرَقَانِىُّ (٢) :

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ ٱلرِّجَالِ إِلَيْهِمُ

مَآرِبُ قَضَّاهَا ٱلشَّبَابُ هُنَالِكَا

إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَّرَتْهُمُ

عُهُودَ ٱلصِّبَا فِيهَا فَحَنُّوا لِذَلِكَا

قَالَ : فَبَكَى وَأَبْكَى ٱلْحَاضِرِينَ .

وَرَآهُ بَعْضُهُمْ (٣) فِى ٱلْبَرِّيَّةِ وَعَلَيْهِ مُرَقَّعَةٌ وَبِيَدِهِ رَكْوَةٌ (٤) وَعُكَّازٌ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ رَآهُ يَحْضُرُ فِى مَجْلِسِهِ ثَلَثُمِائَةِ مُدَرِّسٍ ، وَمِائَةٌ مِنْ أُمَرَاءِ بَغْدَادَ ، فَقَالَ : يَاإِمَامُ أَلَيْسَ تَدْرِيسُ ٱلْعِلْمِ أَوْلَى ؟! فَنَظَرَ إِلَيْهِ شَزْرًا (٥).

---

(١) فى البيت اكتفاء والاصل أشعرى ففى أشعر (تورية) يشير الى مذهب الاعتزال والاشعرية (٢) الابيات معروفة لابن الرومى الشاعر المشهور من قصيدة صغيرة (٣) يروى أنه أبو بكر بن العربى (٤) الركوة : اناء صغير من جلد يشرب فيه الماء ويجمع على ركاء (٥) شزرا : نظرا بمؤخر العين نظر الغضبان

وَقَالَ : « لَمَّا بَزَغَ بَدْرُ السَّعَادَةِ فِى فَلَكِ الْإِرَادَةِ ، وَجَنَحَتْ شَمْسُ الْأُفُولِ ، إِلَى مَغْرِبِ الْوُصُولِ » وَأَنْشَدَ :

تَرَكْتُ هَوَى لَيْلَى وَسُعْدَى بِمَعْزِلٍ
وَعُدْتُ إِلَى مَصْحُوبِ أَوَّلِ مَنْزِلِ
فَنَادَتْ بِى الْأَشْوَاقُ مَهْلًا فَهَذِهِ
مَنَازِلُ مَنْ تَهْوَى رُوَيْدَكَ فَانْزِلِ

وَمِمَّا يُنْسَبُ إِلَيْهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ فِى أَسْرَارِ الْفَاتِحَةِ :

إِذَا مَا كُنْتَ مُلْتَمِسًا لِرِزْقٍ
وَنَيْلِ الْعُقْدِ[1] مِنْ عَبْدٍ وَحُرِّ
وَتَظْفَرُ بِالَّذِى تَرْجُو سَرِيعًا
وَتَأْمَنُ مِنْ مُخَالَفَةٍ وَعُذْرِ[2]
فَفَاتِحَةَ الْكِتَابِ فَإِنَّ فِيهَا
لِمَا أَمَّلْتَ سِرًّا أَىَّ سِرِّ
فَلَازِمْ ذِكْرَهَا عُقْبَى مَسَاءٍ
وَفِى صُبْحٍ وَفِى ظُهْرٍ وَعَصْرِ

(١) العقد هى العقدة حذفت تاؤها لضرورة الشعر : وهى البيعة المعقودة للولاة وقد تكون (العقد) أو هى مصحفة عن (القصد) (٢) قد تكون (غدر)

وَتُمْسِى مُقْرِياً فِى كلِّ لَيْلٍ
إِلَى التِّسْعِينَ تَتْبَعُهَا بِعَشْرِ
تَنَلْ مَا شِئْتَ مِنْ عِزٍّ وَجَاهٍ
وَعُظْمِ مَهَابَةٍ وَعُلُوِّ قَدْرِ
وَسَتْرٍ لَا تُغَـــيِّرُهُ اللَّيَالِى
بِحَادِثَةٍ مِنَ النُّقْصَانِ تَجْرِى
وَتَوْفِيرٍ[1] وَأَفْـرَاحٍ دَوَاماً
وَتَأْمَنُ مِنْ مَخَاوِفِ كُلِّ شَرِّ
وَمِنْ عُرْيٍ وَجُوعٍ وَانْقِطَاعٍ
وَمِنْ بَطْشٍ لِذِى نَهْيٍ وَأَمْرِ

***

أصحاب الغزالى وتلاميذه

جَرَى فِى عُرْضِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ بُحُوثِ هَذَا الْكِتَابِ وَفُصُولِهِ ذِكْرُ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ الْغَزَالِىِّ وَتَلَامِيذِهِ فِى غَيْرِ وُقُوفٍ بِهِمْ، أَوْ بَيَانٍ مُفَاضٍ فِيهِ بِسَبِيلِهِمْ، فَمِنَ الْخَيْرِ أَنْ نُفْرِدَ لَهُمْ هَذَا الْمَوْضُوعَ مِنَ الْكِتَابِ

(١) قد تكون (وتوقير)

لِنَجْمَعَهُمْ فِي صَعِيدٍ (١) وَاحِدٍ وَنَتَحَدَّثَ عَنْهُمْ خَاصَّةً ، وَنُبَيِّنَ مَبَالِغَ صِلَتِهِمْ بِهِ وَأَخْذِهِمْ عَنْهُ وَمُجَاوَرَتِهِمْ لَهُ ، وَنَحْسَبُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَنَأْتِي عَلَى أَخْبَارِهِمْ هُمُ الْأَفْذَاذَ النَّوَابِغَ مِنْ صَحْبِهِ وَالْمُتَفَقِّهِينَ بِهِ ، وَإِنْ كَانَ تَلَامِيذُهُ لَا يُحْصِيهِمُ الْعَدُّ ، وَلَا يُوَفِّيهِمُ الْبَيَانُ .

***

تلاميذ الغزالى

مِنْ تَلَامِيذِ الْغَزَالِيِّ أَبُو نَصْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَمْقَدِيُّ نِسْبَةً إِلَى بَلَدٍ يُدْعَى « خَمْسَ قُدَى » وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِاسْمِ شَيْخِ رَبِّهِ ، وُلِدَ سَنَةَ سِتٍّ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَتَفَقَّهَ بِطُوسَ عَلَى الْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ وَسَمِعَ الْحَدِيثَ مِنْ آخَرِينَ ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ .

وَمِنْهُمُ الْإِمَامُ أَبُو الْفَتْحِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ بَرْهَانَ الْأُصُولِيُّ وَكَانَ حَنْبَلِيًّا ، ثُمَّ انْتَقَلَ ، وَتَفَقَّهَ عَلَى الشَّاشِيِّ ، وَأَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ وَالْكِيَا (٢) وَكَانَ يَدْرُسُ

---

(١) صعيد : مكان ومحل (٢) أبو الحسن على بن محمد بن على الطبرى المعروف بالكيا الهراسى الفقيه الشافعى المتوفى سنة ٥٠٤ و (الكيا) معناه : الكبير القدر المقدم بين الناس

فِي ٱلْمَدْرَسَةِ ٱلنِّظَامِيَّةِ فِي أَنْوَاعِ ٱلْعُلُومِ ، وَكَانَ يَدْرُسُ لِلطُّلَّابِ كِتَابَ ٱلْإِحْيَاءِ فِي نِصْفِ ٱللَّيْلِ ، وُلِدَ سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَوَفَاتُهُ سَنَةَ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ

وَمِنْهُمْ أَبُو مَنْصُورٍ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ ٱبْنِ ٱلْقَاسِمِ ٱلْعَطَّارِيُّ ٱلطُّوسِيُّ ، ٱلْوَاعِظُ ٱلْمُلَقَّبُ بِجُنْدَةَ تُوُفِّيَ سَنَةَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَتَفَقَّهَ عَلَى أَبِي حَامِدٍ فِي طُوسَ ، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ ٱلسَّمْعَانِيِّ فِي « مَرْوَ » وَسَمِعَ مِنَ ٱلْبَغَوِيِّ كُتُبَهُ ، وَمِنْ أَبِي ٱلْفَتْيَانِ ٱلدِّهِشْتَانِيِّ ٱلْحَافِظِ .

وَمِنْهُمُ ٱلشَّدِيدُ[1] أَبُو سَعِيدٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَسْعَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلنَّوْقَانِيُّ ، تَفَقَّهَ عَلَى أَبِي حَامِدٍ ، وَقُتِلَ فِي مَشْهَدِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى ٱلرِّضَى فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ فِي وَاقِعَةِ ٱلثَّغْرِ

وَأَبُو عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ تُومَرْتَ ٱلْمَصْمُودِيُّ ٱلْمُلَقَّبُ بِٱلْمَهْدِيِّ ، صَاحِبُ دَعْوَةِ سُلْطَانِ ٱلْمُسْلِمِينَ عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ مَلِكِ ٱلْغَرْبِ ، دَخَلَ ٱلْمَشْرِقَ فَتَفَقَّهَ عَلَى

(١) لعلها « السديد »

أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ، وَلَهُ أَخْبَارٌ طَوِيلَةٌ وَسِيرَةٌ مُسْتَفَاضَةٌ

وَأَبُو حَامِدٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْجَوْزَقَانِيُّ الْإِسْفِرَايِينِيُّ، تَفَقَّهَ عَلَى الْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ بِبَغْدَادَ، وَسَمِعَ ابْنَ أَبِي عَبْدِ اللهِ الْحُمَيْدِيَّ الْحَافِظَ، لَقِيَهُ ابْنُ السَّمْعَانِيِّ فِي «إِسْفِرَايِينَ» مَوْطِنِهِ

وَأَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْعِرَاقِيُّ الْبَغْدَادِيُّ، تَفَقَّهَ عَلَى الْغَزَالِيِّ وَالْكِيَا وَالشَّاشِيِّ، وَبَقِيَ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

وَأَبُو سَعِيدٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَاوَانِيُّ الْكُرْدِيُّ، حَدَّثَ بِكِتَابِ «إِلْجَامِ الْعَوَامِّ» لِلْغَزَالِيِّ عَنْهُ، وَقَرَأَ الْمَقَامَاتِ الْحَرِيرِيَّةَ عَلَى مُؤَلِّفِهَا

وَالْإِمَامُ أَبُو سَعِيدٍ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ مَنْصُورٍ النَّيْسَابُورِيُّ، وُلِدَ سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَهُوَ مِنْ أَشْهَرِ تَلَامِيذِ الْغَزَالِيِّ، تَفَقَّهَ عَلَيْهِ، وَشَرَحَ كِتَابَهُ، «الْبَسِيطَ» وَسَمِعَ الْحَدِيثَ مِنْ أَبِي حَامِدِ بْنِ عَبْدُوسَ وَنَصْرِ اللهِ الْخُشْنَانِيِّ، وَعَلَيْهِ تَفَقَّهَ الْمُوَفَّقُ الْخُوشَانِيُّ

ٱلْمَدْفُونُ تَحْتَ رِجْلِ ٱلْإِمَامِ ٱلشَّافِعِيِّ بِمِصْرَ، ٱسْتُشْهِدَ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ فِي وَاقِعَةِ ٱلْغُزِّ

وَمِنْهُمْ أَبُو طَاهِرٍ إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلطُّهْرِ ٱلشَّيْبَانِيُّ، حَضَرَ دُرُوسَ إِمَامِ ٱلْحَرَمَيْنِ أَبِي ٱلْمَعَالِي ٱلْجُوَيْنِيِّ فِي نَيْسَابُورَ، ثُمَّ صَحِبَ ٱلْغَزَالِيَّ، وَسَافَرَ مَعَهُ إِلَى ٱلْعِرَاقِ وَٱلْحِجَازِ وَٱلشَّامِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَوْطِنِهِ بِجُرْجَانَ وَأَخَذَ فِي ٱلتَّدْرِيسِ وَٱلْوَعْظِ، وَقُتِلَ شَهِيدًا سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ

وَمِنْهُمْ أَبُو ٱلْفَتْحِ نَصْرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبْرَاهِيمَ ٱلْأَذْرَبِيجَانِيُّ ٱلْمَرَاغِيُّ ٱلصُّوفِيُّ، حَكَى عَنْ أَبِي حَامِدٍ ٱلْغَزَالِيِّ وَغَيْرِهِ، وَحَكَى عَنْهُ أَبُو سَعْدِ بْنُ ٱلسَّمْعَانِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا ٱلْفُتُوحِ نَصْرَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ ٱلْمَرَاغِيِّ إِمْلَاءً بِأَصْلِ طَبَرِسْتَانَ يَقُولُ: أَجْتَمَعَ ٱلْأَئِمَّةُ أَبُو حَامِدٍ ٱلْغَزَالِيُّ، وَإِسْمَاعِيلُ ٱلْحَاكِمِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ ٱلشَّبَّاكِيُّ، وَأَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْبَصْرِيُّ، وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَكَابِرِ ٱلْغُرَبَاءِ فِي مَهْدِ عِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بِبَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ وَأَنْشَدَ فَقَالَ هَذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ:

فَدَيْتُكَ ، لَوْلَا الْحُبُّ كُنْتَ فَدَيْتَنِي

وَلَكِنْ بِسِحْرِ الْمُقْلَتَيْنِ سَبَيْتَنِي (١)

أَتَيْتُكَ لَمَّا ضَاقَ صَدْرِي مِنَ الْهَوَى

وَلَوْ كُنْتَ تَدْرِي كَيْفَ شَوْقِي أَتَيْتَنِي

فَتَوَاجَدَ (٢) أَبُو الْحَسَنِ الْبَصْرِيُّ وَجْدًا أَثَّرَ فِي الْحَاضِرِينَ ، فَدَمِعَتِ الْعُيُونُ ، وَمُزِّقَتِ الْجُيُوبُ ، وَتُوُفِّيَ مُحَمَّدٌ الْكَازَرُونِيُّ مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَةِ فِي الْوَجْدِ ، قَالَ الْمَرَاغِيُّ : وَكُنْتُ مَعَهُمْ حَاضِرًا ذَلِكَ

وَمِنْهُمُ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحُسَيْنُ بْنُ نَصْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ الْجُهَنِيُّ الْمَوْصِلِيُّ ، تَفَقَّهَ عَلَى الْغَزَالِيِّ ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

وَمِنْهُمْ خَلَفُ بْنُ أَحْمَدَ النَّيْسَابُورِيُّ ، تَفَقَّهَ عَلَى الْغَزَالِيِّ ، وَلَهُ عَنْهُ تَعْلِيقَةٌ ، ذَكَرَهُ ابْنُ الصَّلَاحِ فِي « مُشْكِلِ الْوَسِيطِ » وَقَالَ : بَلَغَنِي أَنَّهُ تُوُفِّيَ قَبْلَ الْغَزَالِيِّ

---

(١) سبيتنى : أسرتنى (٢) تواجد : شعر وأحس بقوة باطنية وتكلف الوجد

وَمِنْهُمْ أَبُو الْحَسَنِ سَعْدُ الْخَيْرِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَهْلِ ابْنِ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيُّ الْبَلَنْسِيُّ الْمُحَدِّثُ. أَحَدُ السَّيَّاحِينَ، تَفَقَّهَ بِبَغْدَادَ عَلَى الْغَزَالِيِّ، وَسَمِعَ بِهَا عَنْ طَرَّادٍ وَابْنِ الْبَطِرِ (١) وَرَوَى عَنْهُ السَّمْعَانِيُّ وَابْنُ الْجَوْزِيِّ، وَابْنَتُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ سَعْدٍ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

وَمِنْهُمْ أَبُو عَبْدِ اللهِ شَافِعُ بْنُ عَبْدِ الرَّشِيدِ بْنِ الْقَاسِمِ الْجِيلِيُّ، تَفَقَّهَ عَلَى الْكِيَا وَالْغَزَالِيِّ، وَسَمِعَ الْحَدِيثَ بِالْبَصْرَةِ، وَرَوَى عَنْهُ ابْنُ السَّمْعَانِيِّ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

وَمِنْهُمْ أَبُو عَامِرٍ دَغَشُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي الْعَبَّاسِ النَّعِيمِيُّ الْمُوَفَّقِيُّ، خَرَجَ إِلَى طُوسَ، وَأَقَامَ عِنْدَ الْغَزَالِيِّ مُدَّةً، وَأَخَذَ عَنْهُ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

وَمِنْهُمُ الْأُسْتَاذُ أَبُو طَالِبٍ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ عَلِيِّ

---

(١) هو أبو الخطاب نصر بن أحمد بن عبد الله بن البطر «ككتف» القارئ «المحدث» ولد سنة ٣٩٨ وتوفى فى ١٦ ربيع الاول سنة ٤٩٤هـ

ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ ٱلرَّازِيُّ، تَفَقَّهَ عَلَى ٱلْغَزَالِيِّ بِبَغْدَادَ، وَرَوَى عَنْهُ أَبُو ٱلنَّصْرِ ٱلْفَامِي مُؤَرِّخُ هَرَاةَ، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ يَحْفَظُ كِتَابَ ٱلْإِحْيَاءِ سَرْدًا (١) عَلَى ٱلْقَلْبِ، وَتُوُفِّيَ بِمَرْوَ ٱلرُّوذِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

وَمِنْهُمْ ٱلْإِمَامُ أَبُو مَنْصُورٍ سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ ٱبْنِ مَنْصُورٍ ٱلرَّزَّازُ، وُلِدَ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَتَفَقَّهَ عَلَى ٱلشَّاشِيِّ وَٱلْغَزَالِيِّ وَٱلْمُتَوَلِّي وَٱلطَّبَرِيِّ وَٱلْكِيَا، وَدَرَّسَ فِي ٱلنِّظَامِيَّةِ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَخَمْسِمِائَةٍ

وَمِنْهُمْ أَبُو ٱلْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَمَوَيْهِ ٱلْجُوَيْنِيُّ ٱلصُّوفِيُّ، صَحِبَ ٱلْإِمَامَ ٱلْغَزَالِيَّ بِطُوسَ وَتَفَقَّهَ عَلَيْهِ

وَمِنْهُمْ أَبُو مُحَمَّدٍ صَالِحُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ حَرَازِمَ، لَقَّبَهُ بِالْقَوْسِ، وَصَحِبَهُ، وَٱتَّفَقَتْ لَهُ مَعَهُ غَرِيبَةٌ حَكَاهَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ ٱلْقَاضِي ٱلسِّجِلْمَاسِي فِي كِتَابِهِ « ٱلْإِصْلِيتِ »

---

(١) سردا: بتتابع

وَمِنْهُمْ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْمُطَهَّرِ بْنِ مَكِّيِّ بْنِ مُقْلَاحِي الدِّينَوَرِيُّ مِنْ كِبَارِ تَلَامِيذِ الْغَزَالِيِّ فِي الْفِقْهِ وَسَمِعَ الْحَدِيثَ مِنَ الْبَطِرِ ، وَطَبَقَتِهِ ، وَرَوَى عَنْهُ ابْنُ عَسَاكِرَ ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

وَمِنْهُمْ مَرْوَانُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الطَّنْزِيُّ مِنْ قَرْيَةٍ بِدِيَارِ بَكْرٍ ، وَرَدَ بَغْدَادَ وَتَفَقَّهَ بِهَا عَلَى الْغَزَالِيِّ وَالشَّاشِيِّ ، وَرَوَى عَنْهُ ابْنُ عَسَاكِرَ تُوُفِّيَ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

وَمِنْهُمْ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ السُّلَمِيُّ جَمَالُ الْإِسْلَامِ ، لَازَمَ الْغَزَالِيَّ مُدَّةَ مُقَامِهِ بِدِمَشْقَ وَأَخَذَ عَنْهُ ، وَيُحْكَى أَنَّ الْغَزَالِيَّ قَالَ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الشَّامِ : خَلَّفْتُ بِالشَّامِ شَابًّا إِنْ عَاشَ كَانَ لَهُ شَأْنٌ - يَعْنِي جَمَالَ الْإِسْلَامِ هَذَا - فَكَانَ كَمَا تَفَرَّسَ فِيهِ .

وَقَدْ مَرَّ بِكَ ذِكْرُهُ فِيمَا سَبَقَ مِنَ الْكِتَابِ

***

« قِيمَتُهُ وَأَثَرُهُ بين أَنْصَارِهِ وَخُصُومِهِ »

خلود الغزالى

كَانَ ٱلْغَزَالِيُّ مِنْ أَكْبَرِ أَعْلَامِ ٱلْفِكْرِ ٱلَّذِينَ أَنْجَبَهُمُ (١) ٱلْإِسْلَامُ ، وَٱعْتَزَّ بِإِنْجَابِهِ لَهُمْ ، وَفَخَرَ بِنُبُوغِهِمْ فِيهِ ، وَكَانَ مَحْمَدَةً مِنْ مَحَامِدِهِ ، وَعَلَماً بَارِزاً عَلَى قُوَّتِهِ وَمَجْدِهِ ، فَلَا عَجَبَ إِذَا أَحْدَثَ هَذَا ٱلْمُؤْمِنُ - ٱلَّذِي جَازَ مَرَاحِلَ ٱلشَّكِّ إِلَى أَعْلَى رُبَى ٱلْيَقِينِ ، وَٱسْتَطَاعَ بِقَلْبِهِ ٱلْكَبِيرِ أَنْ يُحْسِنَ أَيَّمَا إِحْسَانٍ إِلَى هَذَا ٱلدِّينِ ٱلْمَكِينِ - دَوِيًّا عَظِيماً فِي ٱلْعَالَمِ ٱلْإِسْلَامِيِّ ، وَأَثَرًا مَحْسُوساً فِي ٱلْغَرْبِ ، وَكَتَبَ ٱللهُ لَهُ ٱلْخُلُودَ فِي ٱلتَّارِيخِ ، وَظَلَّتْ كُتُبُهُ وَتَوَالِيفُهُ إِلَى ٱلْيَوْمِ مَقْرُوءَةً مَدْرُوسَةً مُتَقَصَّاةً ، يُعْنَى بِهَا جُمْهُورُ ٱلْبَاحِثِينَ .

***

الانتصار للدين على الفلسفة

وَأَكْبَرُ فَضْلِ ٱلْغَزَالِيِّ ٱلَّذِي جَدَّدَ نَهْضَةَ ٱلدِّينِ عَلَى

(١) أنجبهم الاسلام : أخرجهم واختارهم .

رَأْسِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ مِنْ تَارِيخِهِ ، حَتَّى عُدَّ حُجَّةَ الْإِسْلَامِ - أَنَّهُ غَلَّبَ الدِّينَ عَلَى الْفَلْسَفَةِ ، وَعَرَفَ كَيْفَ يَتَفَوَّقُ بِمَنْطِقِ قَلْبِهِ عَلَى مَنْطِقِ عُقُولِ الْفَلَاسِفَةِ وَنَظَرِيَّاتِهِمْ ؟ وَعَرَفَ كَيْفَ يَنْتَصِرُ لِلْإِيمَانِ عَلَى زَيْغِ [١] الْمَلَاحِدَةِ ، وَيَدْحَرُ [٢] بِقُوَّةِ الْهَدْيِ الدِّينِيِّ ، وَالْيَقِينِ التَّامِّ الْعَمِيقِ الْغَوْرِ عُلَمَاءَ الطَّبِيعَةِ ، وَالْمَادِّيِّينَ [٣] وَالْعَقْلِيِّينَ ، وَلَمْ يَكُنِ انْتِصَارُهُ بِكُتُبِهِ وَحْدَهَا .

***

شخصية الغزالى

وَلَكِنَّهُ انْتَصَرَ كَذَلِكَ بِشَخْصِيَّتِهِ ، فَقَدْ كَانَ الْإِمَامُ مَثَلًا بَارِزًا عَلَى رِفْعَةِ الْخُلُقِ ، وَكَرَامَةِ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ ، وَلَمْ يَتَّخِذِ الْعِلْمَ سَبِيلًا لِجَاهِ الدُّنْيَا وَسُلْطَانِهَا ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا لِتَفْكِيرِهِ ، وَمُخْلِصًا صَادِقًا لِخَلِيقَتِهِ وَنَفْسِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ ، فَقَنِعَ بِعَيْشِ الْعُزْلَةِ ، وَرَضِيَ الْفَاقَةَ ، وَآثَرَ بَسَاطَةَ الْحَيَاةِ ، فَأَحْدَثَ بِذَلِكَ أَثَرًا عَظِيمًا

(١) الزيغ : الشك والجور عن الحق (٢) يدحر : يدفع ويبعد
(٣) الماديين : المنسوبين للمادة — أو المقابلين للأدبيين والعقليين

فِي نَفْسِيَّةِ عَصْرِهِ ، وَمِزَاجِ جِيلِهِ ، كَمَا زَانَ الْعِلْمَ بِصِدْقِ النَّظَرِ ، وَحُسْنِ الْمَأْخَذِ ، وَاسْتِفَاضَةِ الْمَعِينِ ، وَغَزَارَةِ الْمَوَارِدِ ، وَقُوَّةِ الْحُجَّةِ وَالْإِقْنَاعِ ، وَالْبَدَاهَةِ النَّافِذَةِ ، وَالْخَاطِرِ الْمَصْقُولِ ، وَالْعَقْلِ الْوَضَّاءِ الْمُلْتَمِعِ ، وَالْقَرِيحَةِ الثَّرَّةِ (١) الصَّافِيَةِ .

***

انسان جديد فى عصره

وَقَدْ رَأَيْنَاهُ مِنَ الْحَدَاثَةِ بَعْدَ وَفَاةِ الْوَصِيِّ بِهِ وَالْكَافِلِ لَهُ ، مِنَ الْفَضْلَةِ (٢) النَّزْرِ ، الَّتِي تَرَكَهَا أَبُوهُ لِتَعْلِيمِهِ هُوَ وَأَخِيهِ مُحَمَّدٍ ، يَتَعَلَّمُ فِي الْمَدْرَسَةِ لِتَحْصِيلِ الْقُوتِ ، وَلَوْ أَنَّهُ كَانَ امْرَءًا مِنْ عُرْضِ (٣) النَّاسِ وَمَأْلُوفِ مُسْتَوَى الْخَلْقِ وَأَبْنَاءِ الدُّنْيَا ، لَعَاشَ حَيَاتَهُ مُسْتَغِلًّا (٤) لِلْعِلْمِ ، مُتَوَفِّرًا عَلَى شِرَاءِ الْمُتَعِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِهِ ، مُنْكَمِشًا (٥) فِي الظَّفَرِ بِالْمَادَّةِ وَاكْتِنَازِ الْأَمْوَالِ ، وَبَيْعِ الْعِلْمِ بَيْعَ

(١) الثرة : الغزيرة المليئة (٢) الفضلة : البقية . والنزر : القليل (٣) من عرض الناس : أى من العامة (٤) مستغلا للعلم : مستمدا منه آخذا ثمرته (٥) منكمشا: مسرعا مجتهدا ذا نشاط

السِّلَعِ ، فِي الْفَتَاوَى وَالْمُجَادَلَاتِ الْفِقْهِيَّةِ وَنَحْوِهَا ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْخَلِيقَةِ رَجُلًا اعْتِيَادِيًّا ، وَلَا أَكَّالَ خُبْزٍ ، وَمُلْتَمِسَ قُوتٍ ، وَطَالِبَ مُتَعٍ وَعُرُوضٍ ، بَلْ كَانَ إِنْسَانًا جَدِيدًا ، إِنْسَانًا فَوْقَ الْعَصْرِ ، كَكُلِّ نَابِغَةٍ ، وَأَسْمَى مِنَ الْجِيلِ كَكُلِّ مُصْلِحٍ عَظِيمٍ .

***

فى أكناف السلطان

وَقَدْ شَهِدْنَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَدْ ذَرَّ قَرْنُ (١) نُبُوغِهِ ، وَسَطَعَتْ شَمْسُ ذَكَائِهِ ، وَبُرُوزِهِ وَعِصَامِيَّتِهِ (٢) يَلْتَجِئُ إِلَى ظِلَالِ السُّلْطَانِ ، احْتِمَاءً بِهَا مِنَ الْعَوَادِي ، وَتَفَيُّئًا تَحْتَ وَارِفِهَا مِنَ الْبَأْسَاءِ ، وَإِخْلَادًا إِلَى الْعِلْمِ فِي غَيْرِ مَكْدَحٍ لِلْخُبْزِ ، وَاشْتِغَالٍ بِمَطَالِبِ الْعَيْشِ ، وَحَاجِ الْحَيَاةِ ، وَلَمْ يَكُنِ الْغَزَالِيُّ فِي هَذَا جَدِيدًا وَلَا غَرِيبًا ، وَلَا كَانَ الْتِمَاسُهُ حِمَايَةَ أَهْلِ السُّلْطَانِ عَنْ ضَعْفٍ وَمَذَلَّةٍ وَانْكِسَارٍ ، وَلَكِنْ كَانَ مِثْلُهُ حَقِيقًا بِأَنْ يَجِدَ الْحِمَى الطَّيِّبَ ، وَالْحِصْنَ

(١) ذر قرن نبوغه : طلع وابتدأ نبوغه (٢) عصاميته : شرفه بنفسه لا بآبائه

ٱلْوَاقِيَ ، وَٱلْكِفَالَةَ ٱلْمُؤَمِّنَةَ مِنْ شَرِّ ٱلْحَاجَةِ ، وَأَلَمِ ٱلضُّرِّ وَٱلْبَأْسَاءِ .

***

أرسطو

وَلَقَدْ كَانَ ٱلْمُعَلِّمُ ٱلْأَوَّلُ أَرِسْطو يَعِيشُ فِي أَكْنَافِ فِيلِبْسَ ٱلْمَقْدُونِيِّ وَالِدِ ٱلْإِسْكَنْدَرِ ، ثُمَّ إِذْ رَحَلَ هَذَا عَنِ ٱلدُّنْيَا ، ذَهَبَ يَسْتَظِلُّ بِفَتَاهُ ٱلْفَاتِحِ ٱلْعَظِيمِ ، وَكَأَيِّنْ مِنْ فَيْلَسُوفٍ وَعَالِمٍ وَكَاتِبٍ وَشَاعِرٍ لَمْ يَجِدُوا فِي حَيَاتِهِمْ مَلَاذًا يَعْتَصِمُونَ بِهِ غَيْرَ ٱلْعَيْشِ فِي جِوَارِ أَهْلِ ٱلسُّلْطَانِ ، وَٱلِاحْتِسَابِ عَلَى ٱلْحُكَّامِ وَٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ ؟ وَكَأَيِّنْ مِنْ أَهْلِ مَوَاهِبَ وَإِخْوَانِ نُبُوغٍ ، كَانَ شَأْنُهُمْ حَقِيقًا بِأَنْ يَسْمُوَ ، وَمَكَانُهُمْ قَمِينًا (١) بِأَنْ يَرْتَفِعَ ، لَوْلَا أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا ٱلْمَعَادِينَ (٢) ، وَلَمْ يُصِيبُوا ٱلْأَكْنَافَ ٱلْمُوَطَّأَةَ ، وَٱلظِّلَالَ ٱلْوَارِفَةَ ، وَٱلْمَلَاذَ ٱلْأَمِينَ ، فَخَمَلَ أَمْرُهُمْ ، وَتَقَطَّعَتِ (٣) ٱلْأَسْبَابُ بِهِمْ ، وَشُرِّدُوا فِي ٱلْحَيَاةِ أَيَّ مُشَرَّدٍ ؟

(١) قمينا : جديرا (٢) المعادين : جمع معدن : مكان الشيء فيه أصله ومركزه (٣) تقطعت الأسباب بهم : أى تقطعت بهم الحياة وفرقتهم

***

فضل السلاجقة

فَإِذَا مَاذَكَرْنَا نُبُوغَ ٱلْغَزَالِيِّ وَفَضْلَهُ عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ بِإِعْزَازِ دِينِهِمْ ، وَمُحَارَبَةِ ٱلْعَقَائِدِ ٱلزَّيْفِ[1] ٱلَّتِي أَوْشَكَتْ يَوْمَئِذٍ أَنْ تَغِلَّ[2] عَلَيْهِ ، وَتَتَحَكَّمَ فِيهِ ، وَتَتَسَرَّبَ إِلَيْهِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ نُنْكِرَ فَضْلَ ٱلسَّلَاجِقَةِ ، وَنَجَاحَةَ نِظَامِ ٱلْمُلْكِ ، فَإِنَّ أُولَئِكَ هُمُ ٱلَّذِينَ بَسَطُوا جَنَاحَ ٱلرَّحْمَةِ ، وَحُسْنَ ٱلتَّقْدِيرِ لِهَذَا ٱلْمُصْلِحِ ٱلْمُجَدِّدِ ، فَلَمْ يَجِدْ طَرِيقَهُ إِلَى تَأْدِيَةِ رِسَالَتِهِ ٱلدِّينِيَّةِ وَعْرًا مَسْدُودَ ٱلْمَسَالِكِ ، مَحْفُوفًا بِالْمَكَارِهِ ، مَخُوفًا يَرُدُّ سَالِكَهُ عَنِ ٱلْإِيغَالِ[3] فِيهِ وَٱلْإِغْذَاذِ بِهِ .

***

أنصار الغزالى

وَقَدْ قَامَ بَعْدَ ٱلْغَزَالِيِّ أَنْصَارٌ كَثِيرُونَ لَهُ ، يَنْشُرُونَ آرَاءَهُ ، وَيَبُثُّونَ تَعَالِيمَهُ ، وَيَتَنَاقَلُونَ كُتُبَهُ ، وَيَتَنَاسَخُونَ مُصَنَّفَاتِهِ ، وَيُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ مِنْ تَوَالِيفِهِ ، وَقَدْ صَانُوا

(١) العقائد الزيف : المغشوشة المردودة على أربابها كالدراهم الزائفة
(٢) تغل : بالكسر غلا ، اذا كان ذا غش أوضغن أو حقد (٣) الايغال فى السير ، الاسراع والامعان ـ وكذا الاغذاذ .

ذَلِكَ كُلَّهُ أَحْسَنَ صِيانَةٍ ، وَحَفِظُوهَا مِنَ ٱلنَّاقِمِينَ عَلَيْهَا أَعَزَّ حِفْظٍ ، وَذَادُوا (١) عَنِ ٱلْإِمَامِ ٱلْغَزَالِيِّ أَحَرَّ ذِيَادٍ ، وَنَافَحُوا (٢) عَنْ كُتُبِهِ أَصْدَقَ مُنَافَحَةٍ ، وَنَضَحُوا (٣) عَنْ نَظَرِيَّاتِهِ وَخَوَاطِرِهِ وَمُعْتَقَدَاتِهِ أَوْفَى نَضْحٍ ، وَصَمَدُوا لِخُصُومِهِ يُجَادِلُونَهُمْ ، وَيَدْفَعُونَ أَبَاطِيلَهُمْ ، وَيَرُدُّونَ تُهَمَهُمْ عَنْهُ بِكُلِّ قُوَاهُمْ ، مُخْلِصِينَ لِلْغَزَالِيِّ صَادِقِينَ .

***

التجنى على الغزالى

وَقَدْ أَخَذَ فَرِيقٌ مِنَ ٱلنَّاسِ بَعْدَ وَفَاةِ ٱلْغَزَالِيِّ بِالظِّنَّةِ (٤) فِي أَمْرِهِ ، فَكَانُوا خُصُوماً بِالْبَاطِلِ ، وَٱلتَّجَنِّي (٥) وَٱلشُّبُهَاتِ ، حَتَّى لَقَدْ حَدَّثَنَا ٱلْأَسَانِيدُ كَيْفَ فَعَلَ يُوسُفُ ٱبْنُ تَاشِفِينَ مَلِكُ ٱلْمَغْرِبِ ، إِذْ ظَنَّ أَنَّ كُتُبَ ٱلْغَزَالِيِّ تَبْحَثُ فِي ٱلْفَلْسَفَةِ ، فَأَمَرَ بِهَا فَأُحْرِقَتْ جَمِيعاً ، وَبِأَنْ تُصَادَرَ (٦) حَيْثُمَا ثُقِفَتْ (٧) وَكَانَ لِلْفَلْسَفَةِ مُبْغِضاً شَدِيدَ ٱلْكَرَاهِيَةِ .

---

(١) ذادوا : دافعوا . (٢) نافحوا : كافحوا ودافعوا . (٣) نضحوا : ذبوا ودفعوا . (٤) الظنة : بكسر الظاء ، التهمة . (٥) التجنى : الادعاء بالباطل (٦) بأن تصادر : بأن تؤخذ قهرا (٧) ثقفت : أدركت وظفر بها

***

حساد الغزالى

وَقَدْ نَقَمَ مِنْهُ حُسَّادٌ كُثْرٌ (١) ، وَنَفِسُوا (٢) عَلَيْهِ مَكَانَهُ ٱلَّذِى ٱكْتَسَبَهُ فِى ٱلْعَالَمِ ٱلْإِسْلَامِىِّ ، كَمَا دَسَّ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ كُتُبًا لَمْ يَضَعْهَا ، وَزَيَّفُوا (٣) عَلَيْهِ آرَاءً لَمْ يَذْهَبْ إِلَيْهَا ، وَٱتَّهَمُوهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ صَادِقًا نَزِيهًا فِى تَعَالِيمِهِ .

***

خصومة ابن رشد للغزالى

وَلَا نَظُنُّ أَحَدًا كَانَ أَشَدَّ خُصُومَةً لَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ بِمِائَةِ عَامٍ أَوْ تَزِيدُ مِنَ ٱلْفَيْلَسُوفِ ٱبْنِ رُشْدٍ ، فَقَدْ أَقَامَ نَفْسَهُ بِالنِّسْبَةِ لِلْفَلْسَفَةِ مُقَامَ ٱلْغَزَالِىِّ بِالنِّسْبَةِ لِلدِّينِ ، مُدَافِعًا عَنْهَا ، حَامِيًا لَهَا ، ذَائِدًا عَنْ تَعَالِيمِهَا ، وَقَدْ تَنَاوَلَ كِتَابَ ٱلْغَزَالِىِّ « تَهَافُتَ ٱلْفَلَاسِفَةِ » فَرَدَّ عَلَيْهِ بِكِتَابٍ يُعَارِضُهُ ، سَمَّاهُ « تَهَافُتَ ٱلتَّهَافُتِ » ، وَذَهَبَ يُحَاوِلُ فِيهِ رَدَّ مَا خَطَّأَهُ ٱلْغَزَالِىُّ مِنْ فَلْسَفَةِ ٱلْفَلَاسِفَةِ ، وَمَا ضَرَبَ

(١) كثر : كثير . (٢) نفسوا عليه الخ حسدوه عليه (٣) زيفوا عليه آراء : لفقوها واختلقوها .

بِهِ مِنَ ٱلسِّهَامِ ٱلنَّفَّاذَةِ فِي صَمِيمِهَا ، إِذْ حَكَى فِيهِ مَذَاهِبَ ٱلْفَلَاسِفَةِ ٱلْيُونَانِ عَلَى وُجُوهِهَا ، وَفَنَّدَهَا تَفْنِيدًا وَتَعَرَّضَ لِلرَّدِّ عَلَى تَعَالِيمِهِمْ وَنَظَرِيَّاتِهِمْ ، وَمَأْخَذِ أَبِي نَصْرٍ ٱلْفَارَابِيِّ وَٱبْنِ سِينَا عَنْهُمْ ، وَقَدْ جَاءَ ٱبْنُ رُشْدٍ مُتَعَسِّفًا (١) لِلْفَلْسَفَةِ ، وَمُنْشَقًّا (٢) عَلَى مَذْهَبِ ٱلزُّهْدِ وَٱلتَّصَوُّفِ ، مُحَارِبًا ٱلْغَزَالِيَّ فِي آرَائِهِ ٱلدِّينِيَّةِ ٱلْمُخَالِفَةِ لِلْعَقْلِ ، فَأَثْبَتَ بِذَلِكَ أَنَّهُ أَقَلُّ فَلَاسِفَةِ ٱلْإِسْلَامِ تَصَوُّفًا ، وَأَكْثَرُهُمْ تَأْيِيدًا لِلْعَقْلِ ، وَعَارَضَ وِجْهَةَ ٱلنَّظَرِ ٱلدِّينِيَّةَ فِي كُلِّ رَأْيٍ جَوْهَرِيٍّ ، فَأَنْكَرَ بَعْثَ ٱلْأَجْسَادِ ، وَعَدَّ ٱلْقَوْلَ بِهِ خُرَافَةً - عَلَى نَحْوِ مَا عَدَّهُ سَائِرُ ٱلْمُعَطِّلِينَ (٣) ، وَبَحَثَ مَسْأَلَةَ ٱلْخِيَارِ عَلَى نَحْوٍ عِلْمِيٍّ ، مُعَارِضًا فِيهَا مَذْهَبَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ ٱلْقَائِلِينَ بِأَنَّ إِرَادَةَ ٱللهِ هِيَ مِقْيَاسُ ٱلْحَقِّ ،

---

(١) متعسفا للفلسفة : عاملا لها . (٢) منشقا الخ : خارجا عليه .

(٣) المعطلين : أصحاب مذهب التعطيل الذى ينكر أصحابه صفات المولى سبحانه وتعالى أو لا يثبتونه .

وَلَا مِقْيَاسَ سِوَاهَا ، وَ كَانُوا جَبْرِيَّةً [١] ، كَمَا عَارَضَ أُبْنُ رُشْدٍ مَذْهَبَ ٱلْقَدَرِيِّينَ [٢] .

وَقَدْ كَانَ إِنْكَارُ أَبْنِ رُشْدٍ لِلصُّوفِيَّةِ شَدِيدَ ٱلْوَطْأَةِ ، مُتَنَاهِيًا فِي ٱلْجُرْأَةِ ، بَالِغًا فِي ٱلطَّعْنِ ، إِذْ تَشَدَّدَ فِي ٱلْقَوْلِ بِأَنَّ ٱلِاتِّصَالَ بِالْحَقَائِقِ مَيْسُورٌ بِالْعِلْمِ دُونَ سِوَاهُ ، وَأَنَّ أَعْظَمَ نُقَطِ ٱلْوُصُولِ بُلُوغُ ٱلْعَقْلِ ٱلْإِنْسَانِيِّ أَرْفَعَ دَرَجَاتِ ٱلسُّمُوِّ ٱلْفِكْرِيِّ وَٱلْعِلْمِيِّ ، وَأَنَّ ٱتِّصَالَ ٱلْإِنْسَانِ بِوَاجِبِ ٱلْوُجُودِ مُمْكِنٌ إِذَا ٱسْتَطَاعَ رَفْعَ ٱلنِّقَابِ عَنْ وَجْهِ ٱلْحَقِيقَةِ ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَأْسًا بِغَيْرِ حِجَابٍ .

***

التصوف العقلى

وَقَدْ طَعَنَ فِيهَا كَذَلِكَ مِنْ نَاحِيَةِ أَدَائِهَا إِلَى بُلُوغِ

---

(١) الجبرية : فرقة من الفرق الاسلامية قالوا لا قدرة للعبد أصلا لا مؤثرة ولا كاسبة ، بل هو بمنزلة الجمادات فيما يوجد منها الخ (٢) القدريين : هم القدرية الجاحدون للقدر ، والذين يقولون إن كل عبد خالق لفعله - ولا يرون الكفر والمعاصى بتقدير الله تعالى

ٱلْحَقِيقَةِ ، وَهِيَ ٱلتَّفَرُّغُ وَٱلتَّجَرُّدُ مِنْ مُتَعِ ٱلْحَيَاةِ ، أَوِ ٱلزُّهْدُ فِي شَهَوَاتِهَا ، فَقَالَ : إِنَّ ٱلْغَايَةَ ٱلسَّامِيَةَ ٱلَّتِي يَتَطَلَّعُ ٱلْإِنْسَانُ إِلَيْهَا هِيَ تَغَلُّبُ أَرْقَى أَجْزَاءِ نَفْسِهِ عَلَى حَوَاسِّهِ ، وَهُوَ يُرِيدُ بِذَلِكَ قُوَى ٱلْعَقْلِ وَإِرَادَتَهُ ، كَمَا وَصَفَ هَذَا ٱلِانْتِصَارَ عَلَى ٱلْحَوَاسِّ بِأَنَّهُ أَرْفَعُ مَرَاتِبِ ٱلسَّعَادَةِ ، وَلَكِنَّهُ ٱعْتَرَفَ بِأَنَّ بُلُوغَهَا شَاقٌّ ، وَطَرِيقَهَا وَعْرٌ ، وَإِدْرَاكَهَا نَادِرُ ٱلْحُدُوثِ ، إِذْ جَعَلَهَا مَقْصُورَةً عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَعَمَّقُونَ (١) فِي ٱلْعَقْلِيَّاتِ وَٱلْإِعْرَاضِ عَنِ ٱلْمُتَعِ ٱلزَّائِلَةِ ، وَٱلْقَنَاعَةِ بِمَا يُقِيمُ ٱلْحَيَاةَ ٱلْمَادِّيَّةَ ، وَقَالَ : إِنَّهَا تُدْرَكُ فِي ٱلشَّيْخُوخَةِ مِنْ هَذَا ٱلسَّبِيلِ ، وَإِنَّ خَلْقًا كَثِيرًا مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ وَٱلْفَلَاسِفَةِ قَدْ بَلَغُوهَا قُبَيْلَ ٱلْمَوْتِ ، وَنَعِمُوا بِمَذَاقِهَا ، إِذْ يَنْمُو هَذَا ٱلنَّوْعُ ٱلنَّفْسِيُّ مِنَ ٱلْكَمَالِ عَلَى ٱلنَّقِيضِ مِنَ ٱلنُّمُوِّ ٱلْجُسْمَانِيِّ ، إِذْ كُلَّمَا ضَعُفَ ٱلْجِسْمُ دَنَتِ ٱلنَّفْسُ مِنْ تِلْكَ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلسَّامِيَةِ .

---

(١) يتعمقون الخ : يتنطعون فيها .

وَذَهَبَ ٱبْنُ رُشْدٍ إِلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ ٱلْفَارَابِيُّ قَدْ سَعَى إِلَى تِلْكَ ٱلْمَرْتَبَةِ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ طِيلَةَ حَيَاتِهِ، وَتَرَقَّبَ إِدْرَاكَهَا، ثُمَّ لَمْ يَخْطُ (١) بِهَا، فَحَسْبُهَا وَهْمًا مِنَ ٱلْأَوْهَامِ، فَإِنَّ حِرْمَانَهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَّخَذَ دَلِيلًا عَلَى ٱسْتِحَالَتِهَا، وَإِنَّمَا هُوَ دَلِيلٌ عَلَى إِخْفَاقِهِ وَحِرْمَانِهِ ٱلتَّوْفِيقَ إِلَيْهَا، وَٱلْحُظْوَةَ بِهَا.

وَلَسْنَا نَدْرِي بَعْدَ هَذَا كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ٱبْنُ رُشْدٍ مُنْكِرًا لِلصُّوفِيَّةِ، وَهُوَ فِي هَذَا يَقُولُ بِهَا؟ فَإِنَّ هَذَا هُوَ فِي ٱلْوَاقِعِ نُزُوعٌ صُوفِيٌّ - وَإِنْ أَرَادَهُ ٱبْنُ رُشْدٍ مِنْ جِهَةِ ٱلْعَقْلِ، وَذَهَبَ إِلَيْهِ ٱلْغَزَالِيُّ وَٱلصُّوفِيَّةُ مِنْ جِهَةِ ٱلرُّوحِ.

***

الحكمة والجمهور

وَقَدْ عَابَ ٱبْنُ رُشْدٍ عَلَى ٱلْغَزَالِيِّ مُصَارَحَةَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحِكْمَةِ، وَمُجَاهَرَةَ ٱلْجَمَاهِيرِ بِآرَاءِ ٱلْحُكَمَاءِ، وَأَسْرَارِ ٱلشَّرْعِ، فَقَالَ: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ ٱلْأَخْذَ بِظَاهِرِ ٱلشَّرْعِ هُمُ ٱلْخَوَارِجُ، ثُمَّ ٱلْمُعْتَزِلَةُ بَعْدَهُمْ، ثُمَّ

(١) لم يخط بها: لم يتقدم بها

ٱلْأَشْعَرِيَّةُ ، ثُمَّ ٱلصُّوفِيَّةُ ، ثُمَّ جاءَ أَبُو حامِدٍ ، فَطَمَّ[1] ٱلْوادِى عَلَى ٱلْقَرِىِّ ، وَذٰلِكَ فِى كِتابِهِ ٱلَّذِى سَمَّاهُ « بِالْمَقاصِدِ » ، فَزَعَمَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَلَّفَ ٱلْكِتابَ لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ وَضَعَ كِتابَهُ ٱلْمَعْرُوفَ بِتَهافُتِ ٱلْفَلاسِفَةِ ، فَكَفَّرَهُمْ فِيهِ فِى مَسائِلَ ، وَأَتَى بِحُجَجٍ مُشْكِلَةٍ[2] ، وَشُبَهٍ مُحَيِّرَةٍ ، أَضَلَّتْ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ عَنِ ٱلْحِكْمَةِ وَعَنِ ٱلشَّرِيعَةِ .

ثُمَّ قالَ فِى كِتابِهِ « جَواهِرِ ٱلْقُرْآنِ » إِنَّ ٱلَّذِى أَثْبَتَهُ فِى كِتابِ « ٱلتَّهافُتِ » هِىَ أَقاوِيلُ جَدَلِيَّةٌ ، وَإِنَّمَا ٱلْحَقُّ هُوَ ٱلَّذِى أَثْبَتَهُ فِى كِتابِ « ٱلْمَضْنُونِ بِهِ عَلَى غَيْرِ أَهْلِهِ » ثُمَّ جاءَ فِى كِتابِهِ ٱلْمَعْرُوفِ « بِمِشْكاةِ ٱلْأَنْوارِ » فَذَكَرَ فِيهِ مَراتِبَ ٱلْعارِفِينَ بِاللهِ ، فَقالَ: إِنَّ سائِرَهُمْ

---

(١) طم الوادى الخ : غلب عليه : وقرى الماء مسيله من التلاع ، ومجراه فى الروض ، أو مدفعه من الربو الى الروضة وقرى الطريق سنته ، وأصل العبارة من المثل : جرى الوادى فطم على القرى ـ أى جرى سيل الوادى وعلا حتى أتى على القرى بأن أباده ودفنه وغمره : يضرب عند تجاوز الشىء حده والمراد : تفاقم أمره . (٢) الحجج المشكلة : التى لا ينال المراد منها إلا بالتأمل لغموض مقدماتها .

مَحْجُوبُونَ ، إِلَّا ٱلَّذِينَ ٱعْتَقَدُوا أَنَّ ٱللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - غَيْرُ مُحَرِّكٍ ٱلسَّمَاءَ ٱلْأُولَى ، وَهُوَ ٱلَّذِي صَدَرَ عَنْهُ هَذَا ٱلْمُحَرِّكُ ، وَهَذَا تَصْرِيحٌ مِنْهُ بِاعْتِقَادِ مَذَاهِبِ ٱلْحُكَمَاءِ فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ .

وَقَالَ فِي غَيْرِ مَامَوْضِعٍ : إِنَّ عُلُومَهُمُ ٱلْإِلٰهِيَّةَ هِيَ تَخْمِينَاتٌ ، بِخِلَافِ ٱلْأَمْرِ فِي سَائِرِ عُلُومِهِمْ ، وَأَمَّا فِي كِتَابِهِ ٱلَّذِي سَمَّاهُ « ٱلْمُنْقِذَ مِنَ ٱلضَّلَالِ » فَأَنْحَى (١) فِيهِ عَلَى ٱلْحُكَمَاءِ ، وَأَشَارَ إِلَى أَنَّ ٱلْعِلْمَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالْخَلْوَةِ وَٱلْفِكْرَةِ ، وَأَنَّ هَذِهِ ٱلْمَرْتَبَةَ هِيَ مِنْ جِنْسِ مَرَاتِبِ ٱلْأَنْبِيَاءِ فِي ٱلْعِلْمِ ، وَكَذَلِكَ صَرَّحَ بِذَلِكَ ٱلْقَوْلِ بِعَيْنِهِ فِي كِتَابِهِ ٱلَّذِي سَمَّاهُ « بِكِيمْيَاءِ ٱلسَّعَادَةِ » فَصَارَ ٱلنَّاسُ لِهَذَا ٱلتَّشْوِيشِ وَٱلتَّخْلِيطِ فِرْقَتَيْنِ ؛ فِرْقَةً ٱنْتُدِبَتْ ، لِذَمِّ ٱلْحُكَمَاءِ وَٱلْحِكْمَةِ ، وَفِرْقَةً ٱنْتُدِبَتْ (٣) لِتَأْوِيلِ ٱلشَّرْعِ ، وَرَوْمِ (٢) صَرْفِهِ إِلَى ٱلْحِكْمَةِ ، وَهَذَا كُلُّهُ خَطَأٌ ، بَلْ

(١) فأنحى فيه الخ : لامهم قاصدا . (٢) روم صرفه إلى الحكمة : إرادة رده إلى مذهب الحكماء (٣) وانتدبت بالبناء للفاعل

يَنْبَغِي أَنْ يُفَسَّرَ ٱلشَّرْعُ عَلَى ظَاهِرِهِ ، وَلَا يُصَرَّحَ لِلْجُمْهُورِ بِالْجَمْعِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْحِكْمَةِ ، لِأَنَّ ٱلتَّصْرِيحَ بِذَلِكَ هُوَ تَصْرِيحٌ بِنَتَائِجَ لَهُمْ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُمْ بُرْهَانٌ عَلَيْهَا .

وَفِي كِتَابِهِ ٱلَّذِي سَمَّاهُ « ٱلتَّفْرِقَةَ بَيْنَ ٱلْإِسْلَامِ وَٱلزَّنْدَقَةِ » عَدَّدَ أَصْنَافَ ٱلتَّأْوِيلَاتِ ، وَقَطَعَ فِيهِ بِأَنَّ ٱلْمُؤَوِّلَ لَيْسَ بِكَافِرٍ ، وَأَنْ خَرَقَ ٱلْإِجْمَاعَ فِي ٱلتَّأْوِيلِ ، وَهَذَا ٱلَّذِي فَعَلَهُ هَذَا ٱلرَّجُلُ ضَارٌّ بِالذَّاتِ لِلْحِكْمَةِ وَٱلشَّرِيعَةِ ، ـ وَإِنْ كَانَ نَافِعاً لَهَا بِالْعَرَضِ ـ وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْإِفْصَاحَ بِالْحِكْمَةِ لِمَنْ لَيْسَ بِأَهْلِهَا يَلْزَمُ عَنْ ذَلِكَ بِالذَّاتِ ، إِمَّا إِبْطَالُ ٱلْحِكْمَةِ ، وَإِمَّا إِبْطَالُ ٱلشَّرِيعَةِ ، وَقَدْ يَلْزَمُ عَنْهُ بِالْعَرَضِ ٱلْجَمْعُ بَيْنَهُمَا ، وَٱلصَّوَابُ كَانَ أَلَّا يُصَرَّحَ بِالْحِكْمَةِ لِلْجُمْهُورِ .

***

تناقض ابن رشد

وَمِنْ هَذَا يَتَبَيَّنُ ٱلْبَاحِثُ أَثَرًا مِنَ ٱلتَّنَاقُضِ ،

وَمَسًّا [١] مِنَ ٱلتَّعَارُضِ وَٱلتَّبَايُنِ ، فَإِنَّ ٱبْنَ رُشْدٍ يَعِيبُ عَلَى ٱلْغَزَالِيِّ ٱلْمُصَارَحَةَ بِأَسْرَارِ ٱلشَّرْعِ ، وَمُجَاهَرَةَ ٱلنَّاسِ بِدَقَائِقِهِ وَأَسْرَارِهِ ، وَيَجْعَلُ لِلْعِلْمِ أَرِسْتُقْرَاطِيَّةً [٢] مُتَفَرِّدَةً مُتَجَافِيَةً عَنِ ٱلنَّاسِ ، مُحْتَكِرَةً لِأَسْرَارِهِ وَتَفَاصِيلِهِ فِي تَعْيِيبِ دِيمُقْرَاطِيَّتِهِ عِنْدَ ٱلْغَزَالِيِّ وَتَعْمِيمِهِ وَٱلدَّعْوَةِ لَهُ ، وَٱلتَّنْوِيهِ بِهِ ، ثُمَّ هُوَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ يَتَّهِمُ أَبَا حَامِدٍ فِي ٱلْوَقْتِ ذَاتِهِ بِأَنَّهُ تَرَاوَحَ بَيْنَ ٱلْجَهْرِ وَٱلْإِخْفَاءِ ، وَٱلْإِعْلَانِ وَٱلْكِتْمَانِ ، وَنَافَقَ فِي ٱلْعِلْمِ ، فَطَعَنَ ٱلْفَلْسَفَةَ عَلَى ٱلْمَلَإِ ، ثُمَّ هُوَ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ يُقِرُّهَا وَيَعْتَرِفُ بِهَا ، وَيَضِنُّ بِهَا عَلَى غَيْرِ أَهْلِهَا ، وَهِيَ تُهْمَةٌ لَوْ صَحَّتْ لَجَعَلَتِ ٱلْغَزَالِيَّ دُونَ ٱلْمَنْزِلَةِ ٱلرَّفِيعَةِ ٱلَّتِي ٱحْتَلَّهَا بَيْنَ كِبَارِ ٱلْهُدَاةِ وَعُظَمَاءِ ٱلْمُعَلِّمِينَ .

***

الشرير الجاهل

وَقَدْ أَمْعَنَ ٱبْنُ رُشْدٍ فِي تَعْيِيبِ حُجَّةِ ٱلْإِسْلَامِ مِنْ

(١) مسا من التعارض : قربا منه . (٢) ارستقراطية : كلمة يراد بها التعالى واعتزال الناس والاستبداد فى الأمور .

نَاحِيَةِ ٱلْجَهْرِ بِالْحِكْمَةِ ، حَتَّى سَمَّاهُ ٱلشِّرِّيرَ ٱلْجَاهِلَ فِي قَوْلِهِ فِي كِتَابِهِ « تَهَافُتِ ٱلتَّهَافُتِ » إِنَّ ٱلْكَلَامَ فِي هَذِهِ ٱلدَّقَائِقِ مَعَ ٱلْجُمْهُورِ هُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَسْقِي ٱلسُّمُومَ أَبْدَانَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ ، ٱلَّتِي تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءُ سُمُومٌ لَهَا ، فَإِنَّ ٱلسُّمُومَ إِنَّمَا هِيَ أُمُورٌ مُضَافَةٌ (١) ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ سُمًّا فِي حَقِّ حَيَوَانٍ شَيْءٌ هُوَ غِذَاءٌ فِي حَقِّ حَيَوَانٍ آخَرَ ، وَهَكَذَا ٱلْأَمْرُ فِي ٱلْآرَاءِ مَعَ ٱلْإِنْسَانِ ، أَعْنِي قَدْ يَكُونُ رَأْيٌ هُوَ سُمٌّ فِي حَقِّ نَوْعٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ، وَغِذَاءٌ فِي حَقِّ نَوْعٍ آخَرَ ، فَمَنْ جَعَلَ ٱلْآرَاءَ كُلَّهَا مُلَائِمَةً لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلنَّاسِ ، كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ جَعَلَ ٱلْأَشْيَاءَ كُلَّهَا أَغْذِيَةً لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ ، فَإِذَا تَعَدَّى « ٱلشِّرِّيرُ ٱلْجَاهِلُ » (كَذَا) فَسَقَى ٱلسُّمَّ مَنْ هُوَ فِي حَقِّهِ سُمٌّ عَلَى أَنَّهُ غِذَاءٌ ، فَقَدْ يَنْبَغِي عَلَى ٱلطَّبِيبِ أَنْ يَجْتَهِدَ

(١) امور مضافة : أى نسبية .

بِصِنَاعَتِهِ فِي شِفَائِهِ ، وَلِذَلِكَ اسْتَخَرْنَا [١] نَحْنُ التَّكَلُّمَ فِي مِثْلِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَإِلَّا فَمَا كُنَّا نَرَى أَنَّ ذَلِكَ يَجُوزُ لَنَا بَلْ هُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْمَعَاصِي ، أَوْ مِنْ أَكْبَرِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَعِقَابُ الْمُفْسِدِينَ مَعْلُومٌ بِالشَّرِيعَةِ .

وَلَمْ يَقْتَصِرْ طَعْنُ ابْنِ رُشْدٍ فِي حَقِّ الْغَزَالِيِّ وَمِنْهَاجِ تَفْكِيرِهِ عَلَى مَاوَرَدَ فِي « تَهَافُتِ التَّهَافُتِ » ، وَلَكِنَّهُ عَادَ إِلَيْهِ فِي كُتُبٍ أُخْرَى لَهُ فَرَمَاهُ فِيهَا بِالْجَهْلِ ، وَبِخَاصَّةٍ فِي كِتَابِهِ « الْكَشْفِ عَلَى مَنَاهِجِ الْأَدِلَّةِ » ، فِي عَقَائِدِ الْمِلَّةِ ، وَفِي كِتَابِهِ « فَصْلِ الْمَقَالِ » .

وَهَكَذَا جَعَلَ ابْنُ رُشْدٍ كُلَّ بَابِهِ فِي نَقْدِ الْغَزَالِيِّ وَالتَّعْقِيبِ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ التَّعَرُّضِ لِلْحِكْمَةِ وَالْمُجَاهَرَةِ بِهَا ، وَمُكَاشَفَةِ سَوَادِ [٢] النَّاسِ وَعَوَامِّهِمْ بِدَقَائِقِهَا وَتَفَاصِيلِهَا ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُقْتَنِعاً بِأَنَّ الْغَزَالِيَّ عَدُوُّ الْفَلْسَفَةِ وَخَصِيمُهَا الْأَلَدُّ ، بَيْنَمَا هُوَ يَنْتَصِرُ لَهَا

(١) استخرنا الخ : اخترنا . (٢) سواد الناس : عامتهم .

وَيَذُودُ عَنْهَا ، وَمِنْ هُنَا نَشَأَتِ الْخُصُومَةُ بَيْنَهُمَا ، وَظَهَرَ إِسْرَافُ [١] ابْنِ رُشْدٍ فِي الطَّعْنِ وَالتَّسْفِيهِ ، وَلَوْ أَنَّ الْغَزَالِيَّ حَضَرَهُ وَأَنْسَأَ [٢] اللهُ فِي أَجَلِهِ حَتَّى يُعَاصِرَهُ ، لَشَهِدَ الْعَالَمُ حَرْبًا كَلَامِيَّةً شَعْوَاءَ [٣] ، بَيْنَ نَصِيرِ الْفَلْسَفَةِ وَبَيْنَ نَصِيرِ الدِّينِ .

وَبَقِيَ - بَعْدَ هَذَا - اتِّهَامُ الْغَزَالِيِّ بِالنِّفَاقِ فِي الْعِلْمِ وَالظُّهُورِ بَيْنَ النَّاسِ ، بِتَعَالِيمَ وَآرَاءٍ وَمَذَاهِبَ فِي التَّفْكِيرِ يَغْمُرُ [٤] نَقَائِضَهَا ، وَيُخْفِي غَيْرَهَا ، أَوْ يُبْطِنُ عَكْسَهَا ، وَهِيَ تُهْمَةٌ خَطِيرَةٌ تُجَرِّدُهُ إِذَا صَحَّتْ مِنَ النَّزَاهَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَفَضِيلَةِ الْأَمَانَةِ وَرُوحِ الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ إِلَى عَقْلِهِ وَتَفْكِيرِهِ ، وَتَتَعَارَضُ - كَمَا قُلْنَا - مَعَ اتِّهَامِهِ بِأَنَّهُ أَسَاءَ بِالْمُجَاهَرَةِ بِالْعِلْمِ ، وَدَقَائِقِ الْحِكْمَةِ ، وَإِنْ ظُنَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

---

(١) اسراف ابن رشدا الخ : إكثاره وإسهابه . (٢) أنسأ الله فى أجله : أخره - أى أطاله . (٣) شعواء : مشتعلة متفرقة . أى محتدمة قوية . (٤) يغمر : يغطى

***

تطورات الغزالى النفسية

وَيَكْفِي فِي دَحْضِ[1] هَذَا الزَّعْمِ الْمُنْكَرِ وَالِاتِّهَامِ الْخَطِيرِ الرُّجُوعُ إِلَى مَرَاحِلِ حَيَاةِ الْغَزَالِيِّ فِي سِيرَتِهِ، فَإِنَّ تَطَوُّرَاتِهِ النَّفْسِيَّةَ الَّتِي بَدَتْ فِي حَيَاتِهِ، مُقْنِعَةٌ وَحْدَهَا بِفَسَادِ هَذَا الزَّعْمِ وَفِرْيَةِ ذَلِكَ الِاتِّهَامِ، فَقَدْ أَدْخَلَنَا الْغَزَالِيُّ رِحَابَ صَدْرِهِ، وَأَنْزَلَنَا مَنْزِلَ الشُّقَةِ مِنْ نَدْحِ[2] تَفْكِيرِهِ، وَكَاشَفَنَا بِخَوَالِجِ نَفْسِهِ، وَقَادَنَا خُطْوَةً خُطْوَةً إِلَى شَبَابِهِ وَهُوَ الْمُتَشَكِّكُ، ثُمَّ عَرَّجَ[3] بِنَا إِلَى الْمَهَاوِي الَّتِي تَرَدَّاهَا[4] خِلَالَ هَذَا الدَّوْرِ مِنْ حَيَاتِهِ، وَاصْطَحَبَنَا وَهُوَ يَصْعَدُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى مَشَعِّ[5] النُّورِ وَمُنْبَثَقِ[6] الضِّيَاءِ، وَضِفَافِ[7] الْإِيمَانِ وَسَاحِلِ الْيَقِينِ.

---

(١) دحض هذا الزعم: إبطاله بالادلة (٢) ندح تفكيره: أى سعته.
(٣) عرج بنا الخ: مال بنا ووقف. (٤) ترداها: سقط وهوى فيها
(٥) مشع النور: مكان شعاعه. (٦) منبثق الضياء: مخرجه. أى موضعه. (٧) ضفاف الايمان: جمع ضفة، وهى جانب النهر، والمراد الوصول إلى ما يؤدى إلى الايمان أداء صحيحا

وَقَدْ وَقَفَ بِنَا عِنْدَ كُلِّ مَرْحَلَةٍ شَارِحاً مَا أَحَسَّ ، مُبَيِّناً مَا اخْتَلَجَ فِيهِ ، مُسَبِّباً لِكُلِّ حَالَةٍ ، سَائِقاً بَوَاعِثَ كُلِّ طَوْرٍ عَلَى حِدَتِهِ ، رَابِطاً كُلَّ دَوْرٍ رَبْطَ إِحْكَامٍ بِالدَّوْرِ الَّذِي سَبَقَهُ ، ثُمَّ الدَّوْرِ الَّذِي تَلَاهُ ، إِلَّا فِي اللَّحَظَاتِ الْخَطِيرَةِ ، أَوْ اللَّحَظَاتِ « الْبَسْيُكُولُوجِيَّةِ » أَوِ النَّفْسِيَّةِ ، أَوْ مَا يُسَمُّونَهَا أَزَمَاتِ (١) النَّفْسِ ، وَمَضَايِقَهَا الْمُرْهِقَةَ ، وَمَآزِقَهَا (٢) الْوَعْرَةَ الشَّاقَّةَ ، فَإِنَّ هَذِهِ السِّلْسِلَةَ الْمُفْرَغَةَ (٣) الْحَلَقَاتِ ، قَدْ تَنْقَطِعُ فَجْأَةً وَيَخْتَلُّ رِبَاطُهَا فَجْأَةً ، وَلَكِنْ لَا يَلْبَثُ الْغَزَالِيُّ أَنْ يَعُودَ فَيُحَدِّثَنَا عَنْ رَحْمَةِ اللهِ بِهِ ، كَيْفَ أَعَانَتْهُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ تِلْكَ الْمَضَايِقِ ، وَالْعَوْدَةِ إِلَى مَا انْقَطَعَ مِنْ سِلْسِلَةِ تَفْكِيرِهِ وَحَلَقَاتِ إِيمَانِهِ ؟

---

(١) أزمات النفس : جمع أزمة : الشدة والضيق (٢) مآزقها : جمع مازق : الحرج والضيق (٣) الحلقات المفرغة : أى التى لا يدرى أين طرفاها ؟ كناية عن الاتحاد والوئام

***

وَفِي ٱلْحَقِّ إِنَّ هَذَا لَهُوَ ٱلْوَاقِعُ ، وَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ سِوَاهُ صَادِقاً مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ ، فَإِنَّ بُلُوغَهُ مَضِيقاً (١) كَهَذَا لَا يُجْدِي فِي النَّجَاةِ مِنْهُ جَدَلٌ ، وَلَا يُنْقِذُهُ مِنْهُ بَحْثٌ وَلَا تَعَمُّقٌ فِي تَفْكِيرٍ ، بَلْ هُنَالِكَ رَوْحُ (٢) ٱللهِ تَذْهَبُ بِالْيَأْسِ ، وَتُؤَدِّي إِلَى ٱلنَّجَاةِ ، وَهُنَالِكَ رِيَاحُ ٱلْإِيمَانِ تَهُبُّ فَتَسْفِي (٣) كُلَّ شَكٍّ ، وَتَطْغَى عَلَى كُلِّ تَرَدُّدٍ وَٱضْطِرَابٍ .

وَإِذَا نَحْنُ رَجَعْنَا إِلَى تَحْقِيقِ هَذِهِ ٱلتُّهَمَةِ ٱلَّتِي رُمِيَ ٱلْغَزَالِيُّ بِهَا ، وَجَدْنَاهَا تَتَأَلَّفُ مِنْ دَعْوَيَيْنِ « أُولَاهُمَا » مَا قَالَهُ هُوَ فِي تَعَالِيمِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَهُ لِمَنْ لَا يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ ، كَمَا ذَهَبَ ٱبْنُ رُشْدٍ وَٱلَّذِينَ أَخَذُوا بِرَأْيِهِ « وَٱلثَّانِيَةُ » مَا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْكُتُبِ ، وَٱدُّعِيَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلتَّوَالِيفِ ، وَمُنْتَحَلِ

(١) مضيقا : مكانا ضيقا (٢) روح الله : رحمته (٣) تسفى كل شك : تذريه وتفرقه

ٱلْمُصَنَّفَاتِ ، « بَلْهَ [١] » مَاحَوَتْ تِلْكَ ٱلْكُتُبُ وَٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ .

أَمَّا عَنِ ٱلدَّعْوَةِ ٱلْأُولَى : فَفِي ٱلْحَقِّ أَنَّ ٱلْغَزَالِيَّ نَادَى فِعْلًا بِالْقَصْدِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ ، وَتَجَنُّبِ ٱلْإِسْرَافِ فِي مُكَاشَفَةِ ٱلنَّاسِ بِدَقَائِقِ ٱلْعِلْمِ وَأَسْرَارِهِ ، وَإِنْ زَعَمَ ٱبْنُ رُشْدٍ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ وَعَابَ عَلَيْهِ ٱلْمُجَاهَرَةَ وَٱلْمُكَاشَفَةَ ، وَقَدْ رَأَيْنَاهُ فِي كِتَابِهِ « ٱلْإِمْلَاءِ » ٱلَّذِي أَجَابَ بِهِ عَنْ بَعْضِ مَاٱعْتُرِضَ عَلَيْهِ بِهِ فِي « ٱلْإِحْيَاءِ » يُقَرِّرُ مَبْدَأَ ٱلضَّنِّ بِبَعْضِ أَسْرَارِ ٱلْعِلْمِ عَنِ ٱلَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ سَمَاعَهَا وَفَهْمَهَا وَإِدْرَاكَ مَعَانِيهَا مَخَافَةَ أَنْ تُؤَدِّيَ مُكَاشَفَتُهُمْ إِلَى ٱلتَّشَكُّكِ ، أَوْ إِلَى ٱقْتِرَافِ [٢] ٱلْمُحَرَّمَاتِ وَمُخَالَفَةِ ٱلشَّرْعِ .

وَلَكِنَّا لَانَجِدُ فِي هَذَا شَيْئًا يُنْزِلُ تَعَالِيمَ ٱلْغَزَالِيِّ مَنْزِلَةَ ٱلنِّفَاقِ ، وَٱلْبُعْدِ مِنْ نَزَاهَةِ ٱلْمُعَلِّمِ ٱلْمُصْلِحِ ٱلْهَادِي ،

(١) بله : اسم فعل أمر بمعنى اترك. وهى بمعنى : فضلا عن كذا الخ .
(٢) اقتراف المحرمات : إتيان المنهيات وفعلها

وَلَيْسَ فِي هَذَا الرَّأْيِ الَّذِي قَالَ بِهِ الْغَزَالِيُّ أَدْنَى تَعَارُضٍ مَعَ تَعَالِيمِهِ الْأَهْلِيَّةِ ، وَوَاضِحِ طَرِيقَتِهِ وَمَحَجَّتِهِ (١) ، بَلْ هُوَ فِي الْوَاقِعِ تَطْبِيقٌ لِمَبْدَإِ « بِلَا كَيْفٍ » ، أَعْنِي أَخْذَ التَّعَالِيمِ مَأْخَذَ التَّسْلِيمِ بِلَا اسْتِفْهَامٍ وَلَا اسْتِكْنَاهٍ (٢) وَلَا تَحْقِيقٍ ، وَهُوَ الْمَبْدَأُ الَّذِي تَقَرَّرَ فِي الْبُحُوثِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ قَبْلِهِ ، وَأَخَذَ بِهِ عُلَمَاءُ الْكَلَامِ ، وَذَهَبَ إِلَيْهِ أَوَّلَ مَنْ ذَهَبَ ، الْإِمَامُ الْأَشْعَرِيُّ فِي تَعَالِيمِهِ ، وَقَالَ بِهِ أَيْضًا الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ فِي اسْتِنْكَارِهِ عَلَى الْمُتَكَلِّمِينَ ، حَتَّى لَقَدْ أَشَارَ بِأَنْ يُشَهَّرَ بِالَّذِينَ يَشْتَغِلُونَ بِمَذَاهِبِ الْمُتَكَلِّمَةِ وَطَرِيقَتِهِمْ عَنْ كِتَابِ اللهِ ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ أَذِنَ لِلْآحَادِ وَالْأَفْذَاذِ بِالتَّفَقُّهِ فِي أَسْرَارِ الدِّينِ ، وَتَقَصِّي الْبَحْثِ فِيهَا ، لِيَذُودُوا عَنْهُ عَوَادِيَ الزَّنْدَقَةِ وَهَجَمَاتِ (٣) الْكُفَّارِ وَالْمُنْكِرِينَ ، وَإِنَّمَا اشْتَرَطَ أَلَّا يُجَاهِرُوا بِأَبْحَاثِهِمْ وَيُكَاشِفُوا النَّاسَ بِدِرَاسَتِهِمْ

(١) المحجة : جادة الطريق أى معظمه ووسطه (٢) استكناه : بلوغ الكنه أى الأصل والغاية (٣) هجمات الكفار : حملاتهم ونقاشهم .

وَأَنْ يَكُونَ ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ قَوْمًا أَذْكِيَاءَ ، فُقَهَاءَ وَعُقَلَاءَ ، حُصَفَاءَ (١) ، وَأَبْرَارًا صَالِحِينَ

***

بلا كيف

وَقَدْ كَانَ ٱلْأَشْعَرِيُّ أَوَّلَ مَنْ أَدْخَلَ عُلُومَ ٱلْكَلَامِ كَمَا قَدَّمْنَا لَكَ ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ لِذَلِكَ حُدُودًا ، وَوَضَعَ شُرُوطًا وَقُيُودًا ، فَكَانَ إِذَا مَارَأَى أَنَّ بَحْثَ مَوْضُوعٍ أَوْ دَرْسَ مَسْأَلَةٍ ، أَوْ تَقَصِّيَ مُشْكِلَةٍ خَطَرٌ ، لَا يَحْسُنُ ٱلْإِيغَالُ (٢) فِيهِ ، وَلَا يَنْبَغِي ٱلتَّعَمُّقُ فِي أَغْوَارِهِ (٣) ، عَدَلَ عَنْهُ إِلَى ذَلِكَ ٱلْمَبْدَإِ ٱلَّذِي تَحَدَّثْنَا عَنْهُ وَهُوَ « بِلَا كَيْفٍ » حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا قَالَ بِأَنَّ ٱللهَ تَعَالَى لَهُ « يَدَانِ وَعَيْنَانِ » ، أَرْدَفَ قَائِلًا بِوُجُوبِ ٱعْتِقَادِ ذَلِكَ ، دُونَ مُنَاقَشَةٍ أَوْ سُؤَالٍ عَنْ كَيْفِيَّةِ ذَلِكَ وَمَعْنَاهُ ، وَلَكِنَّهُ أَذِنَ بِالْبَحْثِ فِيهِ لِلَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَهُ دُونَ أَنْ يَضُرُّوا بِأَنْفُسِهِمْ ، أَوْ

---

(١) حصفاء : جمع حصيف ، وهو المستحكم العقل (٢) الايغال : الامعان

(٣) الأغوار : جمع غور : وهو ما انحدر من الارض ، والمراد استيعابه وكثرة البحث والتنقيب فيه .

يُخْشَى عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلزَّيْغِ ، وَٱلَّذِينَ يَجِبُ أَنْ يَدْرُسُوهُ بِالضَّرُورَةِ لِلذَّوْدِ عَنِ ٱلدِّينِ .

وَهَذَا هُوَ مَا فَعَلَهُ ٱلْغَزَالِيُّ وَنَظَرَ إِلَيْهِ وَتَوَخَّاهُ ، فَهُوَ فِي كِتَابِهِ « ٱلْمُنْقِذِ مِنَ ٱلضَّلَالِ » ، يُحَذِّرُ مِنْ دِرَاسَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ ، أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ فِي نَظَرِهِ لَا يَصْلُحُونَ لَهَا وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ يُبِيحُهَا لِلَّذِينَ أُوتُوا مِنَ ٱلذَّكَاءِ وَقُوَّةِ ٱلتَّمْيِيزِ قَدْرًا يُجَنِّبُهُمُ ٱلِاحْتِرَاقَ بِهَا إِذَا هُمْ لَمَسُوهَا .

***

العلم النافع والعلم الضار

وَقَدْ قَالَ ٱلْعَلَّامَةُ « مَاكْدُولَانْدُ » بِسَبِيلِ ٱلدِّفَاعِ عَنِ ٱلْغَزَالِيِّ حِيَالَ مُتَّهِمِيهِ وَخُصُومِهِ فِي هَذَا ٱلْمَعْرِضِ مِنَ ٱلِاتِّهَامِ : إِنَّ ٱلْإِمَامَ أَبَا حَامِدٍ قَسَّمَ ٱلْعِلْمَ فِي كِتَابِهِ « ٱلْإِحْيَاءِ » إِلَى بَابَيْنِ : عِلْمٍ نَافِعٍ ، وَعِلْمٍ ضَارٍّ ، وَقَدْ عَجِبَ ٱلْعَلَّامَةُ « جُوشٌ » مِنَ ٱلْغَزَالِيِّ لِهَذَا ٱلتَّقْسِيمِ ، وَكَانَ « جُوشٌ » يَعْتَبِرُ ٱبْنَ رُشْدٍ بِالنِّسْبَةِ لِلْغَزَالِيِّ أَكْثَرَ حُرِّيَّةً فِي تَقْدِيرِهِ لِلْفَلْسَفَةِ ، وَأَوْسَعَ تَسَامُحًا ، وَلَكِنَّ

ٱلْوَاقِعَ أَنَّ ٱبْنَ رُشْدٍ كَانَ يَرَى هَـذَا ٱلرَّأْىَ بِالذَّاتِ ، مَعَ أَنَّهُ عَجِبَ عَجَبَ « جُوشٍ » وَٱنْدَهَشَ دَهْشَتَهُ ، إِذْ رَأَى أَنَّ ٱلْغَزَالِىَّ لَمْ يَبْلُغْ مِنْ هَذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ مَبْلَغَهُ ، وَلَمْ يَتَشَدَّدْ فِيهِ تَشَدُّدَهُ .

***

سر الخصومة

وَقَدْ أَبَانَ ٱبْنُ رُشْدٍ فِى مَجْمُوعَةِ رَسَائِلِهِ ، مَبْلَغَ شُعُورِهِ مِنْ هَذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ وَٱنْتَقَدَ ٱلْغَزَالِىَّ عَلَى مُجَاهَرَتِهِ بِأَسْرَارِ ٱلْعِلْمِ وَدَقَائِقِهِ لِلْكَافَّةِ - كَمَا مَرَّ بِكَ - وَلَكِنَّ ٱلْعَلَّامَةَ « مَاكْدُولَانْدُ » يَقُولُ بِسَبِيلِ هَذَا ٱلِاتِّجَاهِ (١) ٱلَّذِى ٱتَّجَهَهُ ٱبْنُ رُشْدٍ : إِنَّ ظُرُوفَ ٱلِاعْتِرَاضِ قَدْ يَجْهَلُهَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ ، فَهِىَ بِحَاجَةٍ إِلَى بَيَانٍ وَتَفْصِيلٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ ٱلرَّسَائِلَ كَتَبَهَا ٱبْنُ رُشْدٍ عَامَ خَمْسَةٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَكَانَ ٱبْنُ رُشْدٍ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّبًا مِنْ سُلْطَانِ ٱلْمُوَحِّدِينَ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ ٱلَّذِى تُوُفِّىَ سَنَةَ ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

(١) الاتجاه : القصد والجهة .

وَكَانَ غَرَضُهَا إِدْخَالَ إِصْلَاحٍ عَلَى الدِّينِ ، وَتَعْدِيلَ اتِّجَاهِ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْفِقْهِ فِي التَّدْرِيسِ لِلطُّلَّابِ ، وَبِخَاصَّةٍ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَحْصِيلِ الْفَلْسَفَةِ ، حَتَّى إِنَّ ابْنَ رُشْدٍ فِي رَسَائِلِهِ شَرَحَ مَرَامِيَهُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، وَهِيَ التَّوْفِيقُ بَيْنَ الْفَلْسَفَةِ وَالدِّينِ ، وَالْقَوْلُ بِأَنَّ الدِّينَ لَا يَنْهَى عَنْ تَحْصِيلِ الْفَلْسَفَةِ ، وَلَمْ يَكُنِ ابْنُ رُشْدٍ فِي هَذَا غَيْرَ مُدَافِعٍ عَنْ حَيَاتِهِ ، مُتَشَفِّعٍ لِمَسْلَكِهِ فِي بَحْثِهِ وَمِنْهَاجِهِ فِي دِرَاسَتِهِ .

وَهُوَ يُبَيِّنُ صِلَةَ الْفَلْسَفَةِ بِالْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ إِزَاءَ الدِّينِ وَهُوَ الْحَقُّ الْمُلْهَمُ مِنَ اللهِ ، وَيَقُولُ : إِنَّ هَاتَيْنِ الْحَقِيقَتَيْنِ لَا تَتَعَارَضَانِ وَلَا تَخْتَلِفَانِ ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ أَكْثَرَ فِي مَوَاضِعَ مِنْهُ عَلَى الْحَضِّ فِي التَّأَمُّلِ وَالتَّبَصُّرِ وَالتَّفْكِيرِ فِي الْأَشْيَاءِ ، وَمَعْنَى ذَلِكَ اسْتِخْدَامُ الْبَصِيرَةِ (١) ، وَمُتَابَعَةُ الْقَوَانِينِ وَالنَّوَامِيسِ (٢) ، الَّتِي اهْتَدَى إِلَيْهَا الْقُدَمَاءُ

(١) البصيرة : العقل وعقيدة القلب والفطنة ، واستخدامها: استعمالها

(٢) النواميس : جمع ناموس : وهو الشريعة.

وَدِرَاسَتُهَا حَقَّ ٱلدِّرَاسَةِ ، وَبَحْثُهَا أَوْفَى ٱلْبُحُوثِ .

***

ظاهر الشرع

وَكَانَ ٱبْنُ رُشْدٍ يَقُولُ : إِنَّ فِي ٱلشَّرْعِ مَاهُوَ ظَاهِرُ ٱلْمَعْنَى ، وَمَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى ٱلتَّفْسِيرِ وَٱلتَّأْوِيلِ ، وَإِنَّهُ إِذَا مَاوَجَدْنَا فِي ٱلْقُرْآنِ شَيْئًا يَعْتَرِضُ فِي ٱلظَّاهِرِ تَحْقِيقَاتِ ٱلْفَلْسَفَةِ ، وَجَبَ أَنْ نَثِقَ بِأَنَّ هُنَاكَ تَحْتَ ٱلظَّاهِرِ سِرًّا وَحِكْمَةً خَافِيَةً ، وَكَانَ لِزَامًا عَلَيْنَا أَنْ نَبْحَثَ عَنْ تَأْوِيلٍ مُمْكِنٍ ، وَتَفْسِيرٍ جَائِزٍ فِي ٱلْآيَةِ ٱلْمُتَعَارِضَةِ مَعَ ٱلْفَلْسَفَةِ ، فَإِنَّا وَلَا شَكَّ بِالْبَحْثِ وَاجِدُوهُ .

***

المعنى الظاهر والمعنى المؤول

وَيَقُولُ ٱبْنُ رُشْدٍ فِي ٱلْمَعْنَى ٱلظَّاهِرِ وَٱلْمَعْنَى ٱلْمُؤَوَّلِ مِنْ كِتَابِ ٱللهِ : إِنَّ ٱلْأَوَّلَ هُوَ مِنْ شَأْنِ ٱلْجُمْهُورِ أَوِ ٱلْكَافَّةِ ، وَإِنَّ ٱلثَّانِيَ مِنْ شَأْنِ ٱلطُّلَّابِ وَٱلْبَاحِثِينَ وَأَهْلِ ٱلدَّرْسِ وَٱلِاسْتِقْصَاءِ ، وَمِنْ ثَمَّ وَجَبَ أَنْ يَتَبَايَنَ

النظرُ إلى الشرعِ والكتابِ بتبايُنِ طبقاتِ الناسِ وقُوّاتِ تفكيرِهِمْ، واستعدادِ عُقولِهِمْ، وما على الذينَ لا يستطيعونَ إدراكَ الفلسفةِ، إلّا أنْ يأخذوا بظاهرِ الشرعِ والآياتِ، بلْ ينبغي أنْ يُؤمِنوا بالصُّورِ والتشبيهاتِ والتمثيلِ الذي يحتويهِ القرآنُ كما هوَ بغيرِ تأويلٍ، بينما تُتركُ للفلاسفةِ حريّةُ التفسيرِ وإرادةُ التأويلِ، وليسَ عليهِمْ في ذلكَ قيدٌ ولا حرجٌ إنْ هُمْ فعلوا، بلْ يقولُ ابنُ رُشدٍ، إنَّ الفقهاءَ قدْ عمدُوا إلى التأويلِ أحياناً فيما كانَ ينبغي أنْ يتمسّكوا بالحرفِ، ويرتضوا ظاهرَ المُرادِ، وإنّهُمْ قدْ أخذوا أحياناً أُخرى بظاهرِ المعنى، وكانَ أولى لهُمْ أنْ يعمدُوا إلى التفسيرِ والتأويلِ.

ولمْ يُكفِّرِ ابنُ رُشدٍ في ذلكَ أحداً منهُمْ، وإنّما طلبَ إليهِمْ أنْ يُبيحوهُ هوَ هذا الاختيارَ.

***

براءة الغزالي مما اتهم به

ومنْ ذلكَ كلِّهِ يبدُو لكَ، أنَّ ابنَ رُشدٍ عابَ على

ٱلْغَزَالِيِّ شَيْئًا هُوَ مِنْهُ بَرِيءٌ ، وَقَرَفَهُ [١] بِمَا هُوَ بَعِيدٌ مِنَ ٱلْوَاقِعِ ، فَإِنَّ ٱلْغَزَالِيَّ قَالَ مِنْ قَبْلِهِ بِمَا جَاءَ هُوَ بَعْدَهُ فَتَشَدَّدَ فِيهِ .

وَمَا أَشَارَ ٱبْنُ رُشْدٍ إِلَيْهِ ، كَوَهَمٍ وَقَعَ ٱلْغَزَالِيُّ فِيهِ أَوْ خَطَإٍ ٱرْتَكَبَهُ ، لَايَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَمَّا وَهِمَهُ هُوَ وَأَخْطَأَ مِنْ جِهَتِهِ ، وَقَدْ نَسَبَ ٱبْنُ رُشْدٍ إِلَى ٱلْغَزَالِيِّ أَنَّهُ فِي « ٱلتَّهَافُتِ » قَالَ أَشْيَاءَ ، ثُمَّ عَادَ فِي « ٱلْمَضْنُونِ بِهِ عَلَى غَيْرِ أَهْلِهِ » فَجَاءَ بِعَكْسِهَا ، وَهُوَ قَوْلٌ بَعِيدٌ مِنَ ٱلْحَقِّ ، فَإِنَّ ٱلْغَزَالِيَّ لَمْ يُقِمْ فِي ٱلتَّهَافُتِ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا هَدَمَ مَذَاهِبَ ٱلْفَلَاسِفَةِ ٱلْقُدَمَاءِ جَمِيعًا ، وَظَلَّ صَادِقًا فِي نَزْعَةِ [٢] تَفْكِيرِهِ إِلَى ٱلنِّهَايَةِ .

***

ابن طفيل

وَقَدْ أُقِيمَ ٱلِاتِّهَامُ ٱلْمُوَجَّهُ إِلَى ٱلْغَزَالِيِّ عَلَى مَاجَاءَ فِي كِتَابِ « ٱلْمَضْنُونِ بِهِ عَلَى غَيْرِ أَهْلِهِ » وَٱلْكِتَابُ مَوْجُودٌ

(١) قرفه : اتهمه وعابه (٢) نزعة تفكيره : النزعة الميل والخروج

وَقَدْ طُبِعَ فِي مِصْرَ، وَطُبِعَ مَعَهُ كِتَابٌ آخَرُ مَنْسُوبٌ إِلَى ٱلْغَزَالِيِّ وَهُوَ « ٱلنَّفْخُ وَٱلتَّسْوِيَةُ » ٱلَّذِي تَحَدَّثَ ٱبْنُ طُفَيْلٍ عَنْهُ فِي رِسَالَتِهِ إِذْ قَالَ : إِنَّ لِلْغَزَالِيِّ كُتُبًا مِنْ هَذَا ٱلنَّوْعِ وَلَكِنَّهَا لَمْ تَصِلْ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ جَمِيعًا، وَإِنَّمَا وَصَلَ مِنْهَا كِتَابٌ يُسَمَّى « ٱلْمَعَارِفَ ٱلْعَقْلِيَّةَ » وَآخَرُ يُدْعَى « ٱلنَّفْخَ وَٱلتَّسْوِيَةَ » وَثَالِثٌ يُسَمَّى « مَجْمُوعَةَ ٱلْمَسَائِلِ »، وَلَكِنَّهُ أَيِ ٱبْنَ طُفَيْلٍ، لَمْ يَجِدْ فِيمَا ٱحْتَوَتْهُ هَذِهِ ٱلْمُصَنَّفَاتُ ٱلْأَخِيرَةُ ٱلَّتِي عَثَرَ بِهَا مَا يَنْبُو عَنِ ٱلدِّينِ أَوْ يُقَرِّرُ مَبَادِئَ وَآرَاءً تَسْتَوْجِبُ ٱلرَّدَّ وَٱلْإِنْكَارَ .

***

دفاع ماكدولاند عن الغزالى

وَهُنَا يَقُولُ ٱلْعَلَّامَةُ « مَاكْدُولَانْدُ »، إِنَّنِي لَا أَجِدُ فِي هَذِهِ ٱلْكُتُبِ أَيَّةَ عَلَامَاتٍ أَوْ إِشَارَاتٍ تَنِمُّ عَنِ ٱلْخُرُوجِ أَوْ تَتَعَارَضُ مَعَ ٱلدِّينِ، وَقَدْ كَانَ كِتَابُ « ٱلْمَضْنُونِ بِهِ » حَجَرَ عَثْرَةٍ فِي طَرِيقِ كَثِيرٍ مِنْ كُتَّابِ ٱلْفَرَنْجَةِ وَبَاحِثِيهِمْ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي بَعْدُ أَنْ يَكُونَ جَلِيًّا،

إِنَّ هَذَا ٱلْكِتَابَ ، إِنْ هُوَ إِلَّا تَطَوُّرٌ آخَرُ فِي طَرِيقِ طُلَّابِ ٱلْعِلْمِ ، وَٱلرَّاغِبِينَ فِي ٱلتَّحْصِيلِ ، لِيَكُونُوا بِالْحِرْفَةِ عُلَمَاءَ ، وَبِالصِّنَاعَةِ مُتَفَقِّهِينَ ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْكُتَّابِ ٱلْمُشَارِقَةِ ، يُؤَكِّدُونَ عَلَى ٱلْيَقِينِ ، أَنَّ ٱلْغَزَالِيَّ قَالَ فِيهِ بِأَزَلِيَّةِ (١) ٱلْعَالَمِ ، وَعَدَمِ مَعْرِفَةِ ٱللهِ بِالْجُزْئِيَّاتِ وَجَسَدِيَّةِ ٱلْعَالَمِ ٱلْآخَرِ ، وَهَذِهِ ٱلْقَضَايَا ٱلثَّلَاثُ تَتَعَارَضُ كُلَّ ٱلتَّعَارُضِ مَعَ تَعَالِيمِهِ ٱلَّتِي بَثَّهَا فِي كُتُبِهِ ٱلْأُخْرَى ، وَسَائِرِ مُصَنَّفَاتِهِ ، وَلَسْتُ أَعْجَبُ لِخُصُومِهِ إِذْ يَبْثُّونَ هَذِهِ ٱلدَّعْوَةَ ضِدَّهُ ، فَإِنَّ ٱللَّدَدَ (٢) فِي ٱلْمُنَاقَشَاتِ وَٱلْجَدَلِيَّاتِ غَرِيبٌ عِنْدَ ٱلْمَشَارِقَةِ ، وَإِنْ كَانَ لَا يَخْتَلِفُ كَثِيرًا ، عَمَّا هُوَ لَدَيْنَا نَحْنُ ٱلْغَرْبِيِّينَ ، وَلَسْتُ أَفْهَمُ كَيْفَ ذَهَبَ ٱلسَّيِّدُ مُرْتَضَى صَاحِبُ إِتْحَافِ ٱلسَّادَةِ ٱلْمُتَّقِينَ ، وَقَدْ عَرَفَ أَمْرَ كِتَابِ ٱلْمَضْنُونِ بِهِ ، إِلَى قَبُولِ ٱلْكِتَابِ عَلَى عِلَّاتِهِ (٣)

(١) بأزلية العالم : بقدمه (٢) اللدد : شدة الخصومة (٣) على علاته : على مافيه من الاحوال والشؤون

فَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي ذَلِكَ ٱلْمُصَنَّفِ ٱلَّذِي شَرَحَ فِيهِ « ٱلْإِحْيَاءَ » بَعْدَ أَنْ أَوْرَدَ قَائِمَةً بِأَسْمَاءِ تَآلِيفِ ٱلْغَزَالِيِّ وَمُصَنَّفَاتِهِ ، يُضِيفُ إِلَيْهَا أَرْبَعَةَ كُتُبٍ وَيَقُولُ : إِنَّهَا عُزِيَتْ لَهُ ، وَهِيَ كِتَابُ « ٱلسِّرِّ ٱلْمَكْتُومِ فِي أَسْرَارِ ٱلنُّجُومِ » وَنُسِبَ هَذَا ٱلْكِتَابُ إِلَى ٱلْإِمَامِ ٱلْفَخْرِ ٱلرَّازِيِّ ، وَكِتَابُ « تَحْسِينِ ٱلظُّنُونِ » وَقَدْ صَرَّحَ ٱلشَّيْخُ ٱلْأَكْبَرُ ، أَنَّهُ مَوْضُوعٌ[1] ، عَلَيْهِ وَكِتَابُ « ٱلنَّفْخِ وَٱلتَّسْوِيَةِ » وَهُوَ كَذَلِكَ مَوْضُوعٌ عَلَيْهِ ، وَكِتَابُ « ٱلْمَضْنُونِ بِهِ عَلَى غَيْرِ أَهْلِهِ » . قَالَ ٱبْنُ ٱلسُّبْكِيِّ : ذَكَرَ ٱبْنُ ٱلصَّلَاحِ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، أَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ ، وَقَالَ :- مَعَاذَ ٱللهِ - أَنْ يَكُونَ لَهُ ، وَبَيَّنَ سَبَبَ كَوْنِهِ مُخْتَلَقًا مَوْضُوعًا عَلَيْهِ ، وَٱلْأَمْرُ كَمَا قَالَ ، وَقَدِ ٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلتَّصْرِيحِ بِقِدَمِ ٱلْعَالَمِ وَنَفْيِ عِلْمِ ٱلْقَدِيمِ بِٱلْجُزْئِيَّاتِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ يُكَفِّرُ ٱلْغَزَالِيُّ قَائِلَهَا ، هُوَ وَأَهْلُ ٱلسُّنَّةِ أَجْمَعُونَ ،

(١) موضوع عليه : مكذوب عليه

فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنَّهُ يَقُولُهَا ؟ وَهُوَ عِنْدِى ، وَفِى ٱلْمُسَامَرَةِ أَنَّهُ مِنْ تَأْلِيفِ عَلِيِّ بْنِ ٱلسَّبْتِيِّ ، وَكَذَلِكَ صَرَّحَ صَاحِبُ « تُحْفَةِ ٱلْإِرْشَادِ » بِأَنَّهُ مَوْضُوعٌ عَلَيْهِ ، وَقَدْ صَنَّفَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْمَالَقِيُّ كِتَابًا فِى رَدِّهِ ، وَتُوُفِّىَ سَنَةَ خَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ (١) .

وَيَسْتَطْرِدُ ٱلْعَلَّامَةُ « مَاكْدُولَانْد » فِى هَذَا ٱلْمَوْضِعِ فَيَقُولُ : فَإِذَا كَانَ ٱلْمَضْنُونُ بِهِ ٱلَّذِى تَحَدَّثُوا عَنْهُ فِيمَا نَقَلْتُ إِلَيْكَ ، هُوَ هَذَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمَطْبُوعَ ٱلَّذِى بَيْنَ أَيْدِينَا ، فَلَسْتُ أَفْهَمُ عَلَامَ هَذَا ٱلْخِلَافُ بَيْنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ وَٱلْمُتَّهِمِينَ ؟ إِذْ يَتَحَدَّثُ ٱلْغَزَالِيُّ فِى هَذَا ٱلْكِتَابِ «ص٣» عَنْ خَلْقِ ٱلْمَادَّةِ وَيَقُولُ فِى ٱلصَّفَحَاتِ مِنْ ٣٢ إِلَى ٣٨ : بِعَوْدَةِ ٱلْأَرْوَاحِ إِلَى ٱلْأَبْدَانِ حِينَ ٱلْبَعْثِ ، وَيُسَمِّى ذَلِكَ نَشْأَةً أُخْرَى ، وَأَنَّ نَعِيمَ ٱلْآخِرَةِ سَيَكُونُ حِسِّيًّا وَخَيَالِيًّا

(١) ورد هذا فى الفصل الذى عقدناه للكلام عن تآليفه ، ولكنا أثبتناه هنا حرصا على السياق

وَعَقْلِياً ، وَقَدْ أَهْدَى ٱلْكِتَابَ إِلَى أَخِيهِ أَحْمَدَ وَأَعَدَّهُ لِاطِّلَاعِ ٱلْفُقَهَاءِ ٱلصَّالِحِينَ لِقِرَاءَتِهِ وَفَهْمِهِ ، وَٱتِّبَاعِ مَا فِيهِ ، وَلَمْ أَرَ فِي ٱلْكِتَابِ شَيْئاً يَتَعَارَضُ أَوْ يَتَنَاقَضُ هُوَ وَتَعَالِيمُهُ ٱلْأُخْرَى ، وَإِنَّمَا هُوَ يَتَوَسَّعُ هُنَا فِي ٱلتَّدْلِيلِ ، وَبَيَانِ دَقَائِقِ ٱلْمُعْتَقَدَاتِ ٱلْكَثِيرَةِ ، وَيَبْحَثُ أَيْضاً فِي مَشَاكِلَ وَمَسَائِلَ عَوِيصَةٍ (١) ، قَدْ تَعْرِضُ لِلْمُدَرِّسِينَ وَٱلْمُعَلِّمِينَ ، وَلَمْ أَجِدْ فِي ٱلْكِتَابِ شَيْئاً وَاضِحاً جَلِيّاً قَاطِعاً ، بِالنِّسْبَةِ لِلْقَوْلِ بِنَفْيِ عِلْمِ ٱلْقَدِيمِ بِالْجُزْئِيَّاتِ ، وَإِنَّمَا تَشِفُّ (٢) لَهْجَةُ ٱلْفِقَرَاتِ ٱلَّتِي يَتَحَدَّثُ فِيهَا ٱلْغَزَالِيُّ عَنِ « ٱلصِّفَاتِ » عَنِ ٱعْتِقَادِهِ بِهَذَا ٱلْقَوْلِ .

***

حقيقة كتاب المضنون به

عَلَى أَنَّهُ مِنَ ٱلْمُحْتَمَلِ - وَلَا رَيْبَ - أَنْ يَكُونَ كِتَابٌ آخَرُ بِهَذَا ٱلْعُنْوَانِ ذَاتِهِ « ٱلْمَضْنُونِ بِهِ » قَدْ دُسَّ (٣) عَلَى ٱلْغَزَالِيِّ ، حَاوِياً هَذِهِ ٱلْمُعْتَقَدَاتِ ٱلْخَارِجَةَ عَلَى ٱلدِّينِ ،

(١) مسائل عويصة : مشكلة يصعب استخراج المراد منها (٢) تشف تكشف (٣) دس الخ : أدخل عليه خفية

فَإِنَّ ذَلِكَ أَوْ نَحْوَهُ مُشَاهَدٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَسَائِلِ الْجَدَلِ وَالْمُنَاظَرَةِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، فَكَمْ دُسَّتْ كُتُبٌ وَوُضِعَتْ عَلَى غَيْرِ أَصْحَابِهَا لِمُحَارَبَتِهِمْ وَالتَّشْهِيرِ بِهِمْ؟ كَمَا فَعَلُوا فِي حَقِّ أَبِي بَكْرٍ الرَّازِيِّ، إِذْ زَوَّرُوا عَلَيْهِ كِتَابًا فِي تَكْذِيبِ الِاعْتِقَادِ بِالْأَوْلِيَاءِ، وَقَدْ حَدَثَ مِثْلُ هَذَا فِي حَقِّ الشَّعْرَانِيِّ، إِذْ تَنَاوَلَ أَحَدُ خُصُومِهِ كِتَابَهُ « الْبَحْرَ الْمَوْرُودَ » فَحَذَفَ مِنْهُ فُصُولًا وَوَضَعَ بَدَلَهَا، مَا تُشْتَمُّ (١) مِنْهُ رِيحُ الْكُفْرِ، ثُمَّ نَشَرَهُ مَنْسُوبًا إِلَى الشَّعْرَانِيِّ، بِاعْتِبَارِهِ كِتَابَهُ الْحَقِيقِيَّ، فَاضْطُرَّ الشَّعْرَانِيُّ فِي سَبِيلِ الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ أَمَامَ عُلَمَاءِ الْقَاهِرَةِ، أَنْ يُبْرِزَ النُّسْخَةَ الْأَصْلِيَّةَ الَّتِي لَدَيْهِ عَنْ كِتَابِهِ، وَالَّتِي تَحْوِي تَوَاقِيعَهُمْ، وَقَدْ حَدَثَ هَذَا أَيْضًا فِي حَقِّ ابْنِ عَرَبِيٍّ، وَتَصَدَّى الشَّعْرَانِيُّ لِلدِّفَاعِ عَنْهُ، وَكَانَ بَعْضُ خُصُومِهِ قَدْ دَسَّ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ « الْفُتُوحَاتِ » مَا يَدُلُّ عَلَى

(١) ما تشتم منه الخ: ما يؤخذ منه

ٱلْكُفْرِ ، وَقَدْ قَاسَى ٱلْإِمَامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلرَّازِيُّ شَيْئًا مِنْ هَذَا ٱلْقَبِيلِ ، وَقَدْ تَعَدَّدَتْ هَذِهِ ٱلدَّسَائِسُ ، عَلَى كُتُبِ ٱلْمُؤَلِّفِينَ بِفِعْلِ خُصُومِهِمْ ، وَٱلنَّاقِمِينَ مِنْهُمْ ، حَتَّى وَضَعَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلْمِصْرِيُّ قَائِمَةً بِأَسْمَائِهِمْ. وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ نَعْجَبَ مِنْ وُقُوعِ هَذَا فِي حَقِّ ٱلْغَزَالِيِّ أَيْضًا ، وَقَدْ أَكَّدَ ٱلْمُسْتَشْرِقُ ٱلْأَلْمَانِيُّ « جُولْدِيزْهَرُ » أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ بِالْفِعْلِ .

* * *

أقوال الدكتور مولتر

وَمِمَّنْ تَصَدَّوْا (١) مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْمُسْتَشْرِقِينَ أَخِيرًا لِرَدِّ هَذِهِ ٱلتُّهَمَةِ عَنِ ٱلْإِمَامِ ٱلْغَزَالِيِّ ٱلدُّكْتُورُ « هِنْرِيخْ مُولْتَرُ » إِذْ وَضَعَ كِتَابًا فِي هَذَا ٱلْمَوْضُوعِ خَاصَّةً وَطُبِعَ فِي « فَنْكَفُورْتَ » سَنَةَ سِتٍّ وَتِسْعِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ بَعْدَ ٱلْأَلْفِ .

وَيَدُلُّ ٱلْكِتَابُ عَلَى أَنَّ ٱلْمُؤَلِّفَ ، قَدْ قَرَأَ ٱلنُّسْخَةَ

(١) تصدوا : تعرضوا

ٱلْمَطْبُوعَةَ فِى ٱلْقَاهِرَةِ مِنْ كِتَابِ « ٱلْمَضْنُونِ بِهِ عَلَى غَيْرِ أَهْلِهِ » وَتَبَيَّنَ أَنَّهَا لَاتَحْوِى مَايَصِحُّ أَنْ يُتَّخَذَ أَسَاسًا لِاتِّهَامِ ٱلْغَزَالِىِّ عَلَى ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِى أُتُّهِمَ بِهِ ، فَنَشَرَ رِسَالَةً وَجَدَهَا فِى ٱلْعِبْرِيَّةِ ، وَلَكِنَّهَا تَلُوحُ مُتَرْجَمَةً عَنْ أَصْلٍ عَرَبِىٍّ ، وَهِىَ تُبَيِّنُ تَعَالِيمَ ٱلْغَزَالِىِّ فِى « ٱلْمَضْنُونِ بِهِ » كَمَا عَثَرَ أَيْضًا عَلَى تَعْلِيقٍ وَشَرْحٍ لِمُوسَى ٱلنَّارْبُونِىِّ عَلَى تَرْجَمَةِ كِتَابِ مَقَاصِدِ ٱلْفَلَاسِفَةِ لِلْغَزَالِىِّ بِالْعِبْرِيَّةِ .

وَلَيْسَتْ هَذِهِ ٱلرِّسَالَةُ مَعْرُوفَةً لِمُتَرْجِمِى ٱلْغَزَالِىِّ وَٱلنَّقَلَةِ عَنْهُ ، وَٱلْمُتَحَدِّثِينَ فِى تَعَالِيمِهِ وَسِيرَتِهِ ، عُرْبًا أَوْ عَجَمًا ، مَشَارِقَةً أَوْ مَغَارِبَةً ، وَقَدْ عَقَّبَ ٱلدُّكْتُورُ « مُولْتَرُ » عَلَى هَذَا بِقَوْلِهِ : إِنَّهُ لَا يَقْدَحُ فِى صِحَّةِ ٱلرِّسَالَةِ ، وَلَا يُؤَثِّرُ فِى حَقِيقَتِهَا ، فَكَمْ عَرَفْنَا لِلْغَزَالِىِّ مِنْ كُتُبٍ وَتَآلِيفَ جَهِلَ أَمْرَهَا ، وَضَاعُو (١) ٱلْفَهَارِسِ مِنَ ٱلْعَرَبِ ، وَٱلْأَخْصَائِيُّونَ (٢) بِعِلْمِ ٱلْكُتُبِ .

---

(١) وضاعو الفهارس : منضدوها ومنسقوها (٢) الاخصائيون : جمع أخصائى : المتفرد فى فنه

***

فهرس وستنفيلد

وَكَأَنَّ الدُّكْتُورَ « مُولْتَرَ » فِي هَذَا الَّذِي يَحْتَجُّ بِهِ لَمْ يَعْتَدَّ بِبَيَانِ « وِسْتِنْفِيلْدَ » وَفِهْرِسِهِ ، عَنْ كُتُبِ الْغَزَالِيِّ وَمُصَنَّفَاتِهِ ، وَلَا بِالْقَائِمَةِ الَّتِي جَاءَتْ عَنْهَا فِي كِتَابِ الزَّبِيدِيِّ ، « إِتْحَافِ السَّادَةِ الْمُتَّقِينَ »

***

شمولدرز

وَلَمْ يَكُنْ « شُمُولْدِرْزُ » الْعَلَّامَةُ الْأَلْمَانِيُّ ، الَّذِي بَحَثَ فِي كُتُبِ الْغَزَالِيِّ ، يَعْرِفُ تِلْكَ الْقَائِمَةَ مَعْرِفَةً تَامَّةً ، وَقَدِ اعْتَمَدَ الدُّكْتُورُ « مُولْتَرُ » عَلَى « شُمُولْدِرْزَ » هَذَا فِي دِرَاسَتِهِ لِلْغَزَالِيِّ وَمُصَنَّفَاتِهِ .

وَتَحْتَوِي الرِّسَالَةُ الَّتِي نَحْنُ بِسَبِيلِهَا ، شُذُورًا (١) مِنْ كِتَابِ « الْمَقَاصِدِ » فِي قِدَمِ الْعَالَمِ ، وَأَزَلِيَّةِ الزَّمَنِ وَلَكِنَّهَا مُضْطَرِبَةُ السِّيَاقِ مُشَوَّشَةٌ ، فَاقِدَةُ اللُّحْمَةِ (٢) وَالرِّبَاطِ الَّذِي يَجْعَلُهَا مُتَمَاسِكَةً ، وَهَذَا هُوَ مَا يَحْمِلُ عَلَى

(١) شذورا : قطعا مختارة (٢) اللحمة : القرابة والصلة والرباط : ما يربط به من حبل وغيره

نَفْيِ نِسْبَتِهَا إِلَى ٱلْغَزَالِيِّ ، بَلْ إِنَّهَا لَتَدْعُو إِلَى ٱلشَّكِّ ٱلْمُطْلَقِ فِي صِحَّتِهَا ، وَتَبْعَثُ عَلَى تَغْلِيبِ زَيْفِهَا (١) ، وَٱلْقَطْعِ بِأَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ مَدْخُولَةٌ عَلَى حُجَّةِ ٱلْإِسْلَامِ ، وَبِأَنَّهَا كَانَتْ مَجْهُولَةً عِنْدَ ٱلْمُسْلِمِينَ عَلَى ٱلتَّحْقِيقِ ، فَلَمْ يَذْكُرْهَا أَحَدٌ وَلَمْ يُشِرْ إِلَيْهَا مُؤَرِّخٌ مِنَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ ، وَلَا رَاوِيَةٌ مِنَ ٱلرُّوَاةِ .

وَفِي هَذَا ٱلْمَوْضِعِ يَقُولُ ٱلْعَلَّامَةُ . «مَاكْدُولَانْدْ»: وَلَسْتُ أَشُكُّ فِي أَنَّهُ لَوْ كَانَ ٱلْغَزَالِيُّ بَعْدَ أَنْ وَضَعَ كِتَابَ « ٱلتَّهَافُتِ » قَدْ رَغِبَ حَقًّا فِي ٱلتَّرَاجُعِ عَمَّا ٱعْتَقَدَهُ وَشَرَحَهُ فِي ذَلِكَ ٱلْكِتَابِ ، وَأَبَانَهُ فِي فُصُولِهِ ، وَأَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ تَرَاجُعَهُ (٢) مَكْتُومًا عَنِ ٱلنَّاسِ ، وَلَوْ فِي رِسَالَةٍ خَفِيَّةٍ ، لَكَانَ أَحْرَصَ مِنْ هَذَا فِيمَا يَكْتُبُهُ ، وَأَكْثَرَ عِنَايَةً مِمَّا تَدُلُّ عَلَيْهِ ٱلتَّآلِيفُ ٱلْمَنْسُوبَةُ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ .

---

(١) زيفها : غشها وتدليسها (٢) تراجعه : تقهقره ورجوعه عن رأيه الاول

***

موسى الناربونى

وَلَا يَعْتَدُّ بِتَعْلِيقِ مُوسَى ٱلنَّارْبُونِيِّ مِنْ حَيْثُ قِيمَتُهُ ٱلنَّقْدِيَّةُ أَحَدٌ مِمَّنْ دَرَسَ هَـٰذِهِ ٱلْمَسَائِلَ وَعُنِيَ بِبَحْثِهَا ، وَقَدْ كَانَ مُوسَى هَذَا شَدِيدَ ٱلتَّحَامُلِ (١) عَلَى ٱلْغَزَالِيِّ وَهُوَ فِي ذَلِكَ سَوَاءٌ وَٱبْنُ رُشْدٍ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ ٱلضَّرْبَةِ ٱلْقَاسِيَةِ ٱلَّتِي أَنْزَلَهَا ٱلْغَزَالِيُّ بِٱلْفَلْسَفَةِ ، ٱلَّتِي جَاءَ ٱبْنُ رُشْدٍ وَأَنْصَارُهُ فِيمَا بَعْدُ يُحَاوِلُونَ ٱسْتِنْقَاذَهَا ، وَضَمْدَ (٢) جِرَاحِهَا ، مِمَّا أَصَابَهَا مِنَ بَطْشَتِهِ ٱلْمُدْمِيَةِ .

وَلَقَدِ ٱتَّخَذُوا مِنَ ٱلْأَدِلَّةِ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُمْ فِي حَقِّ ٱلْغَزَالِيِّ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يَعْتَقِدُ سِرًّا عَكْسَ مَا كَانَ يَقُولُ بِهِ جَهْرًا ، ٱسْتِشْهَادَهُ بِكَلِمَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَكَرَّمَ ٱللَّهُ وَجْهَهُ » - خَاطِبُوا ٱلنَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ (٣) » وَلَكِنَّ ٱبْنَ رُشْدٍ نَفْسَهُ تَمَثَّلَ كَذَلِكَ بِهَا فِي ٱلتَّدْلِيلِ

---

(١) التحامل: الميل والجور وعدم الانصاف (٢) ضمد جراحها: كناية عن لأم رتوقها وإصلاح ما فسد منها (٣) ينسب بعضهم هذه الحكمة الى الحديث الشريف ومنهم الغزالى فقد ذكرها فى كتاب الاملاء على أنها كذلك

عَلَى رَأْيِهِ مِنْ وُجُوبِ الِامْتِنَاعِ عَنْ مُصَارَحَةِ الدَّهْمَاءِ [١] وَمُجَاهَرَةِ الْجُمْهُورِ بِأَسْرَارِ الْعِلْمِ وَدَقَائِقِهِ وَمُرَاعَاةِ مُخْتَلِفِ دَرَجَاتِ الْفَهْمِ ، وَمَرَاتِبِ الْعُقُولِ عِنْدَ التَّدْرِيسِ وَالْهِدَايَةِ وَالتَّلْقِينِ ، فَلَيْسَ الِاسْتِشْهَادُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُمْ هَذِهِ ، وَلَا مِصْدَاقًا [٢] لِتُهَمَتِهِمُ الْخَاطِئَةِ .

***

تهمة أخرى للغزالى

وَقَدْ غَلِطَ الدُّكْتُورُ مُولْتَرُ ، بَلْ جَانَبَ شِرْعَةَ [٣] الْإِنْصَافِ فِي وَصْفِهِ لِلْغَزَالِيِّ إِذْ يَقُولُ ، إِنَّ الرَّجُلَ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ عَلَى وِفَاقٍ مَعَ جَمِيعِ النَّاسِ ، وَيَتَرَضَّى كَافَّةَ الْفِرَقِ وَالْأَحْزَابِ ، وَيُصْلِحَ ذَاتَ بَيْنِهِ [٤] ، وَسَائِرَ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ ، فَلَعَلَّ الدُّكْتُورَ مُولْتَرَ أَخَذَ هَذَا الرَّأْيَ فِي الْغَزَالِيِّ عَنِ ابْنِ رُشْدٍ وَتَحَامُلِهِ . لِأَنَّ حَيَاةَ الْغَزَالِيِّ ذَاتَهَا لَا تَتَّفِقُ مَعَ هَذَا الْوَصْفِ الَّذِي وَصَفُوهُ بِهِ ، فَقَدْ رَأَيْنَاهُ فِيمَا بَسَطْنَا مِنْ تَرْجَمَتِهِ ،

---

(١) الدهماء : جماعة الناس (٢) مصداقا : دليلا على صدقه (٣) شرعة الانصاف : شريعة العدل وقانونه (٤) يصلح ذات بينه : أى يعيد صداقته

وَأَدْوَارِ تَطَوُّرِهِ ٱلْفِكْرِيِّ وَمَرَاحِلِ حَيَاتِهِ ، مُحَارِباً فِكْرِيًّا يَشُنُّ ٱلْغَارَةَ ، وَيَهْجُمُ وَيَقْتَحِمُ ، وَيَدُكُّ (١) ٱلْمَعَاقِلَ ، وَيَهْدِمُ ٱلْحُصُونَ ، حَتَّى لَمْ يُبْقِ لَهُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ، وَٱلطَّوَائِفِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ ، عَلَى حَبِيبٍ وَلَا حَلِيفٍ ، إِذْ طُبِعَ ٱلْغَزَالِيُّ مِنَ ٱلنَّشْأَةِ عَلَى هَذَا ٱلرُّوحِ ٱلْمُجَاهِدِ ، وَٱلنُّزُوعِ إِلَى ٱلْهُجُومِ ، وَٱلرَّغْبِ (٢) فِي ٱلتَّحَدِّي ، وَٱلْمُنَاهَضَةِ (٣) لِأَنَّ ٱلْغَيْرَةَ ٱلدِّينِيَّةَ عِنْدَهُ كَانَتْ عَلَى أَشَدِّهَا مُتَسَعِّرَةً فِي صَدْرِهِ ، مُتَأَجِّجَةً فِي خَاطِرِهِ ، فَإِذَا أَوْجَسَ مِنْ نِحْلَةٍ أَوْ مَذْهَبٍ مَسَاساً بِجَوْهَرِ ٱلدِّينِ ، تَصَدَّى لَهَا فَمَا يَزَالُ بِهَا حَتَّى يَرُدَّهَا جَرِيحاً دَامِيَةَ ٱلْكُلُومِ ، وَيَكْفِي أَنَّهُ مِنْ فَتَائِهِ (٤) وَٱبْتِدَاءِ حَيَاتِهِ ٱلْفِكْرِيَّةِ حَمَلَ هَذَا ٱلنُّزُوعَ ذَاتَهُ فِيمَا يَتَّصِلُ بِاعْتِقَادِهِ ، فَٱبْتَدَأَ مُتَشَكِّكًا لِيَنْتَهِيَ عِنْدَ ٱرْفَعِ مَرَاتِبِ ٱلْيَقِينِ .

---

(١) يدك المعاقل : يهدمها وهى الجبال المرتفعة وما يلجأ اليه ، جمع معقل
(٢) الرغب : الرغبة وهى إرادة الشىء مع الحرص عليه لمحبته والتحدى : تعمد الشىء ومنازعته (٣) المناهضة : المقاومة (٤) فتائه : بفتح الفاء أى شبابه

***

فيلسوف مصافح

وَلَقَدْ رَأَيْنَا ٱلْغَزَالِيَّ فِي أُخْرِيَاتِ أَعْوَامِهِ يُعَالِجُ تَسْكِينَ ثَائِرَتِهِ[١] عَلَى خُصُومِ ٱلدِّينِ بِالرِّيَاضَةِ ٱلْكَثِيرَةِ، وَٱلْكَبْحِ ٱلشَّدِيدِ، وَلَكِنَّا لَمْ نَشْهَدْهُ يَوْماً جَنَّاحاً[٢] إِلَى ٱلتَّسْلِيمِ أَوْ نَزَّاعاً إِلَى ٱلْمُصَانَعَةِ[٣] أَوِ ٱلتَّرَاجُعِ، وَقَدْ ٱنْتَصَرَ عَلَى خُصُومِهِ، فَمَا حَاجَتُهُ إِلَى تَرْضِيَتِهِمْ[٤] أَوِ ٱلرَّبْتِ[٥] عَلَى ظُهُورِهِمْ، أَوِ ٱلْمُرَاءَاةِ بِغَيْرِ مَا فِي صَدْرِهِ نَحْوَهُمْ؟ فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ شَأْنَ ٱلْمُنْتَصِرِ ٱلْقَوِيِّ ٱلْمُتَفَوِّقِ، وَإِنَّمَا هُوَ شَأْنُ ٱلْمُنْدَحِرِ[٦] ٱلْمُشْفِقِ ٱلضَّعِيفِ.

لَقَدْ كَانَتْ دَعَاوَى خُصُومِ ٱلْغَزَالِيِّ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ وَقَرَائِنُهَا وَمُحَاوَلَاتُ إِثْبَاتِهَا وَاهِيَةً قَائِمَةً عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ، وَقَدْ جَاءَ ٱلزَّمَنُ فَكَذَّبَهَا أَيَّمَا تَكْذِيبٍ، إِذْ ظَلَّ شَأْنُ ٱلْغَزَالِيِّ بَاقِياً عَلَى جَلَالِهِ، مُتَنَقِّلَ ٱلْأَثَرِ فِي ٱلْأَجْيَالِ، جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، وَلَا تَزَالُ كُتُبُهُ عَلَى جِدَّتِهَا[٧] لَمْ تُخْلِقِ

(١) ثائرته: أي شغبه وضجته (٢) جناحا: ميالا (٣) المصانعة: المداراة والمداهنة (٤) ترضيهم: طلب رضاهم (٥) الربت على ظهورهم: الضرب عليها قليلا ترضية واعتذارا (٦) المندحر: المنهزم، والمشفق: الخائف (٧) على جدتها: على أصلها لم تبل

ٱلْقُرُونُ دِيباجَتَهَا ، وَلَمْ تَذْهَبْ بِهَا ٱلْفَلْسَفَةُ ٱلْحَدِيثَةُ فِي ٱلْغَرْبِ ، وَلَمْ يُؤَثِّرْ فِي قُوَّتِهَا ٱلْخَالِدَةِ ٱتِّسَاعُ دَائِرَةِ ٱلْبُحُوثِ وَٱلدِّرَاسَاتِ فِي ٱلْعَصْرِ ٱلْأَخِيرِ .

***

خلود الغزالى وجدة كتبه وتاليفه

كَانَ ٱلْغَزَالِيُّ حُجَّةَ ٱلْإِسْلَامِ حَقًّا ، وَكَانَ إِمَامًا حَقِيقًا بِمَكَانِهِ فِي جِيلِهِ ، حَرِيًّا بِٱلْخُلُودِ فِي ٱلزَّمَنِ وَمَسِيرِهِ ، لِأَنَّهُ كَانَ عَقْلًا خَصِيبًا (١) كَثِيرَ ٱلثَّمَرِ ، وَكَانَ قَلْبًا طَاهِرًا شَفَّافَ ٱلْإِحْسَاسِ ، قَوِيَّ ٱلْعَاطِفَةِ ، عَظِيمَ ٱلْوِجْدَانِ (٢) فَجَمَعَ بِذَلِكَ عَنَاصِرَ (٣) ٱلْعَبْقَرِيَّةِ ٱلدِّينِيَّةِ ، وَبُطُولَةَ ٱلْإِيمَانِ .

وَسَيَبْقَى فَضْلُ ٱلْغَزَالِيِّ مَا بَقِيَ ٱلْإِسْلَامُ ، لِأَنَّهُ أَحَدُ ٱلْمُنَافِحِينَ (٤) ٱلْكِبَارِ عَنْهُ ، وَفِي صُدُورِ ٱلذَّوَّادِينَ ٱلْمُنْتَصِرِينَ لَهُ ، وَسَتَظَلُّ كُتُبُهُ جَدِيدَةً حَرِيَّةً بِٱلْقِرَاءَةِ ،

(١) عقلا خصيبا : ذا خصب كثير الحذق (٢) الوجدان : بكسر الواو : القوى الباطنة (٣) عناصر العبقرية : أجزاء النبوغ الاصلية (٤) المنافحين : المدافعين

جَدِيرَةً بِالْعِنَايَةِ ، خَلِيقَةً بِالْبَحْثِ وَالدَّرْسِ ، مَا ظَلَّ الْإِيمَانُ بِالدِّينِ ، وَلَنْ تَسْتَغْنِيَ الْإِنْسَانِيَّةُ عَنِ الدِّينِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (١) .

الْغَزَالِيُّ خَالِدٌ فِي الدُّنْيَا بِكُتُبِهِ وَآثَارِهِ ، وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَكُونَ كِتَابُنَا هَذَا عَلَى تَقْصِيرِهِ بَعْضَ التَّحِيَّةِ لِهَذَا الْخُلُودِ .

(١) يوم الدين : هو يوم القيامة

كلمة الختام

والآن يقف بنا القلم ـ لنمضى معك بعد الانتهاء من المجلدين الأول والثانى من « كتابنا الغزالى » الذى هو «مزاج من علوم شتى ، أنضجها البحث، وصقلها التفكير، وأصفتها تجاربه ، وشكوكه القاسية التى عاناها فى نشأته ، والتى وصفها وصفا دقيقا فى مؤلفاته » الى « المجلد الثالث » حيث نطالعك فيه بجملة من مختارات ذلك الفذ الجليل ، والبحاثة القدير ، الاستاذ العلامة الثبت حجة الاسلام الغزالى :

وسيشتمل هذا الجزء على رسالة « أيها الولد » ورسالة « الأدب فى الدين » ورسالة « مراحل السفسطة وجحد العلوم » ورسالة « علم الكلام » ورسالة «الفلسفة» ورسالة « مذهب التعليم وغائلته » ورسالة «طرق الصوفية» ورسالة «حقيقة النبوة» ورسالة «سبب نشر العلم بعد الاعراض عنه » والحمد لله أولا وآخرا ، والصلاة والسلام على من أرسل بالحق منذرا ومبشرا .

احمد فريد رفاعى

دار المأمون { ١٧ من محرم سنة ١٣٥٦
٣٠ من مارس سنة ١٩٣٧

﴿ انتهى الجزء الثانى من كتاب الغزالى ﴾

ويليه الجزء الثالث وهو مشتمل على

(مختـــارات الغزالى)

حقوق الطبع محفوظة للمتزمه

الدكتور أحمد فريد رفاعى بك

جميع النسخ ممهورة بتوقيع ناشره

فهرست

المجلد الثانى من كتاب الغزالى

الصفحة من	الصفحة الى	الموضوع
٣	٤	كلمة العماد الاصفهانى
٥	٦	رسالة الأدب فى الدين
٧	٨	أيها الولد
٩	٩	لورد شستر فلد والغزالى
٩	١٤	الاستفتاء عن العلم الكثير
١٤	١٥	لمع الغزالى الخاطفة
١٥	١٥	أثر الحقد
١٦	١٦	سعة المادة
١٧	١٨	كثرة المؤلفات
١٨	١٨	المدسوس على الغزالى
١٨	٢١	فضل كتاب الأحياء
٢١	٤١	بيان كتب الغزالى
٤١	٤١	الضائع منها والمشهور والمخطوط
٤٢	٤٢	المضنون به على غير أهله
٤٢	٤٣	شرح كتاب احياء علوم الدين كتبت فى الهامش شر الاحياء وهو تحريف
٤٣	٤٥	مختصرو كتاب احياء علوم الدين

الصفحة من	الصفحة الى	الموضـــوع
٤٥	٤٦	اتحاف السادة المتقين
٤٦	٤٨	مقدمة شرحه
٤٨	٤٩	الرد على نقدة الإحياء
٤٩	٥٣	نقد المأزرى
٥٣	٥٤	نقد الطرطوشى
٥٥	٦٧	دفاع ابن السبكى
٦٧	٦٨	الرد على الطرطوشى
٦٩	٦٩	نقدة آخرون
٦٩	٧٢	دفاع السبكى
٧٢	٧٦	رد الغزالى على حسدته وناقديه
٧٧	٧٧	ما أنكر عليه فى الإحياء
٧٧	٨٤	الاعتراض الأول
٨٤	٨٥	الاعتراض الثانى
٨٥	٨٧	الاعتراض الثالث
٨٧	٩٠	الاعتراض الرابع
٩٠	٩١	الاعتراض الخامس
٩١	٩٣	الاعتراض السادس
٩٤	٩٥	الاعتراض السابع
٩٥	٩٦	الاعتراض الثامن
٩٧	٩٧	الاعتراض التاسع
٩٨	٩٩	الاعتراض العاشر
٩٩	١٠٠	الاعتراض الحادى عشر
١٠١	١٠٢	الاعتراض الثانى عشر
١٠٢	١٠٤	الاعتراض الثالث عشر

الصفحة من	الصفحة الى	الموضوع
١٠٤	١٠٥	الاعتراض الرابع عشر
١٠٦	١٠٧	الاعتراض الخامس عشر
١٠٧	١١٠	الاعتراض السادس عشر
١١٠	١١١	الاعتراض السابع عشر
١١١	١١٥	الاعتراض الثامن عشر
١١٥	١١٦	الاعتراض التاسع عشر
١١٦	١٢١	الاعتراض العشرون
١٢٢	١٢٥	الاعتراض الحادى والعشرون
١٢٥	١٢٨	كلمة تقدير
١٢٨	١٢٩	أسلوب الغزالى ورسائله وشعره
١٢٩	١٣٠	أسلوب الترغيب والترهيب
١٣٠	١٣٠	كثرة الامثلة والاستشهاد
١٣٠	١٣٠	السهولة والوضوح
١٣١	١٣١	كثرة الاخيلة والاستعارات وفى الهامش الأخلية وهو تحريف
١٠١	١٣٢	الاغلاط والرد عليها
١٣٢	١٣٢	الترخص فى نقل الحديث
١٣٢	١٣٣	تسويغ ذلك
١٣٣	١٣٦	القائلون بجواز ايراد المعنى دون الالفاظ ذاتها
١٣٦	١٣٧	ماهو مسند وما هو مرسل فى الاحياء
١٣٧	١٣٨	دراسة الحديث فى آخر أيامه
١٣٨	١٣٩	رسائل الغزالى
١٤٠	١٥١	رسالة خاصة

الموضـــوع	الصفحة من	الى
كلمات الغزالى وحكمه	١٥١	١٦٢
شعر الغزالى	١٦٢	١٦٨
أصحاب الغزالى وتلاميذه	١٦٨	١٦٩
تلاميذ الغزالى	١٦٩	١٧٧
خلود الغزالى	١٧٧	١٧٧
الانتصار للدين على الفلسفة	١٧٧	١٧٨
شخصية الغزالى	١٧٨	١٧٩
انسان جديد فى عصره	١٧٩	١٨٠
الغزالى فى أكناف السلطان	١٨٠	١٨١
أرسطو	١٨١	١٨١
فضل السلاجقة	١٨١	١٨٢
أنصار الغزالى	١٨٢	١٨٣
التجنى على الغزالى	١٨٣	١٨٣
حساد الغزالى	١٨٣	١٨٤
خصومة ابن رشد للغزالى	١٨٤	١٨٦
التصوف العقلى	١٨٦	١٨٨
الحكمة والجمهور	١٨٨	١٩١
تناقض ابن رشد	١٩١	١٩٢
الشرير الجاهل	١٩٢	١٩٥
تطورات الغزالى النفسية	١٩٦	١٩٧
نفحات الإيمان	١٩٨	٢ ٢
العلم النافع والعلم الضار	٢٠٢	٢٠٣
سر الخصومة	٢٠٣	٢٠٥
ظاهر الشرع	٢٠٥	٢٠٥

الصفحة من	الى	الموضـــــوع
٢٠٥	٢٠٦	المعنى الظاهر والمعنى المؤول
٢٠٦	٢٠٧	براءة الغزالى مما اتهم به
٢٠٧	٢٠٨	ابن طفيل
٢٠٨	٢١٢	دفاع ما كدولاند عن الغزالى
٢١٢	٢١٤	حقيقة كتاب المضنون به
٢١٤	٢١٥	أقوال الدكتور مولتر
٢١٦	٢١٧	فهرس وستنفيلند
٢١٨	٢١٩	موسى الناربونى
٢١٩	٢٢٠	تهمة أخرى للغزالى
٢٢١	٢٢٢	فيلسوف مصافح
٢٢٢	٢٢٣	خلود الغزالى وجدة كتبه وتآليفه
٢٢٤	٢٢٤	كلمة الختام

تم الفهرست

مجلد الاجزاء الثلاثة معا

مطبوعات دار المأمون

الوقت من ذهب — الدكتور أحمد فريد رفاعي بك

مكتبة القراءة والثقافة — مدير مصلحة الصحافة والنشر والثقافة العامة

الأدبية — المصرية

سلسلة زعماء الفلسفة والأدب والأخلاق

حلقة

الغزالي

في مجلدين

وثالث خصص بالمختارات

مضبوطة ومشروحة ومعلقاً عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

المجلد الثالث

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين أما بعد

فقد قال العماد الأصفهاني

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

العماد الأصفهاني

« رِسَالَةُ أَيُّهَا الْوَلَدُ »

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ .

« إِعْلَمْ » أَنَّ وَاحِدًا مِنَ الطَّلَبَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ لَازَمَ خِدْمَةَ الشَّيْخِ الْإِمَامِ زَيْنِ الدِّينِ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ أَبِي حَامِدٍ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْغَزَالِيِّ ـ قَدَّسَ اللّٰهُ رُوحَهُ ـ وَاشْتَغَلَ بِالتَّحْصِيلِ وَقِرَاءَةِ الْعِلْمِ عَلَيْهِ حَتَّى جَمَعَ دَقَائِقَ الْعُلُومِ ، وَاسْتَكْمَلَ فَضَائِلَ النَّفْسِ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَفَكَّرَ يَوْمًا فِي حَالِ نَفْسِهِ ، وَخَطَرَ عَلَى بَالِهِ ، وَقَالَ : إِنِّي قَرَأْتُ أَنْوَاعًا مِنَ الْعُلُومِ ، وَصَرَفْتُ رَيْعَانَ (١) عُمُرِي عَلَى

---

(١) ريعان العمر : أول الشباب

تَعَلُّمِهَا وَجَمْعِهَا ، وَالْآنَ يَنْبَغِي عَلَيَّ أَنْ أَعْلَمَ أَيُّ نَوْعِهَا يَنْفَعُنِي غَدًا وَيُؤْنِسُنِي فِي قَبْرِي ؟ وَأَيُّهَا لَا يَنْفَعُنِي حَتَّى أَتْرُكَهُ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ » فَاسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الْفِكْرَةُ حَتَّى كَتَبَ إِلَى حَضْرَةِ الشَّيْخِ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدٍ الْغَزَالِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - اسْتِيفَاءً ، وَسَأَلَهُ مَسَائِلَ ، وَالْتَمَسَ نَصِيحَةً وَدُعَاءً . قَالَ : وَإِنْ كَانَ مُصَنَّفَاتُ الشَّيْخِ كَالْإِحْيَاءِ وَغَيْرِهِ ، تَشْتَمِلُ عَلَى جَوَابِ مَسَائِلِي لَكِنَّ مَقْصُودِي أَنْ يَكْتُبَ الشَّيْخُ حَاجَتِي فِي وَرَقَاتٍ تَكُونُ مَعِي مُدَّةَ حَيَاتِي ، وَأَعْمَلَ بِمَا فِيهَا مُدَّةَ عُمُرِي ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى . فَكَتَبَ الشَّيْخُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ إِلَيْهِ فِي جَوَابِهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

***

(بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

نص الرسالة

« إِعْلَمْ » أَيُّهَا ٱلْوَلَدُ وَٱلْمُحِبُّ ٱلْعَزِيزُ - أَطَالَ ٱللَّهُ بَقَاكَ بِطَاعَتِهِ ، وَسَلَكَ بِكَ سَبِيلَ أَحِبَّائِهِ - أَنَّ مَنْشُورَ ٱلنَّصِيحَةِ يُكْتَبُ مِنْ مَعْدِنِ(١) ٱلرِّسَالَةِ إِنْ كَانَ قَدْ بَلَغَكَ مِنْهُ نَصِيحَةٌ ، فَأَيُّ حَاجَةٍ لَكَ فِي نَصِيحَتِي ، وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْكَ فَقُلْ لِي : مَاذَا حَصَّلْتَ فِي هَذِهِ ٱلسِّنِينَ ٱلْمَاضِيَةِ ؟

« أَيُّهَا ٱلْوَلَدُ » مِنْ جُمْلَةِ مَانَصَحَ بِهِ رَسُولُ ٱللَّهِ - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أُمَّتَهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : « عَلَامَةُ إِعْرَاضِ ٱللَّهِ تَعَالَى عَنِ ٱلْعَبْدِ ٱشْتِغَالُهُ بِمَا لَا يَعْنِيهِ وَإِنَّ ٱمْرَأً ذَهَبَتْ سَاعَةٌ مِنْ عُمُرِهِ ، فِي غَيْرِ مَا خُلِقَ لَهُ مِنَ ٱلْعِبَادَةِ ، لَجَدِيرٌ أَنْ تَطُولَ عَلَيْهِ حَسْرَتُهُ ، وَمَنْ جَاوَزَ ٱلْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَغْلِبْ خَيْرُهُ عَلَى شَرِّهِ فَلْيَتَجَهَّزْ إِلَى ٱلنَّارِ » وَفِي هَذِهِ ٱلنَّصِيحَةِ كِفَايَةٌ لِأَهْلِ ٱلْعِلْمِ .

« أَيُّهَا ٱلْوَلَدُ » ٱلنَّصِيحَةُ سَهْلَةٌ ، وَٱلْمُشْكِلُ قَبُولُهَا لِأَنَّهَا فِي مَذَاقِ مُتَّبِعِي ٱلْهَوَى مُرَّةٌ ، إِذِ ٱلْمَنَاهِي مَحْبُوبَةٌ

(١) معدن الرسالة : أصلها و يعنى به كتاب الله وسنة رسوله

فِي قُلُوبِهِمْ ، وَعَلَى ٱلْخُصُوصِ لِمَنْ كَانَ طَالِبَ ٱلْعِلْمِ ٱلرَّسْمِيِّ (١) ، وَمُشْتَغِلًا فِي فَضْلِ ٱلنَّفْسِ ، وَمَنَاقِبِ ٱلدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَحْسَبُ أَنَّ ٱلْعِلْمَ ٱلْمُجَرَّدَ لَهُ سَيَكُونُ نَجَاتُهُ وَخَلَاصُهُ فِيهِ ، وَأَنَّهُ مُسْتَغْنٍ عَنِ ٱلْعَمَلِ - وَهَذَا ٱعْتِقَادُ ٱلْفَلَاسِفَةِ . سُبْحَانَ ٱللهِ ٱلْعَظِيمِ ! لَا يَعْلَمُ هَذَا ٱلْمَغْرُورُ أَنَّهُ حِينَ حَصَّلَ ٱلْعِلْمَ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِهِ تَكُونُ ٱلْحُجَّةُ عَلَيْهِ آكَدَ (٢) كَمَا قَالَ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَشَدُّ ٱلنَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَا يَنْفَعُهُ ٱللهُ بِعِلْمِهِ » وَرُوِيَ أَنَّ ٱلْجُنَيْدَ - قَدَّسَ ٱللهُ سِرَّهُ - رُؤِيَ فِي ٱلْمَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ فَقِيلَ لَهُ : مَا ٱلْخَبَرُ يَا أَبَا ٱلْقَاسِمِ ؟ قَالَ : طَاحَتْ (٣) تِلْكَ ٱلْعِبَارَاتُ (٤) ، وَفَنِيَتْ تِلْكَ ٱلْإِشَارَاتُ (٥) وَمَا نَفَعَنَا إِلَّا رُكَيْعَاتٌ رَكَعْنَاهَا فِي جَوْفِ ٱللَّيْلِ (٦) .

« أَيُّهَا ٱلْوَلَدُ » لَا تَكُنْ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ مُفْلِسًا ، وَلَا مِنَ ٱلْأَحْوَالِ خَالِيًا ، وَتَيَقَّنْ أَنَّ ٱلْعِلْمَ ٱلْمُجَرَّدَ لَا يَأْخُذُ

---

(١) هو ما يكون تحصيله على رسم العادة لا لقصد العمل (٢) أى أقوى وأثبت (٣) ذهبت و بادت (٤) أى ذهبت العلوم الظاهرة (٥) أى العلوم الباطنة (٦) أى لعدم احتمال الرياء وفى رواية : كنا نصليها والناس نيام

بِالْيَدِ [١] : مِثَالُهُ لَوْ كَانَ عَلَى رَجُلٍ فِي بَرِّيَّةٍ عَشَرَةُ أَسْيَافٍ هِنْدِيَّةٍ مَعَ أَسْلِحَةٍ أُخْرَى ، وَكَانَ الرَّجُلُ شُجَاعًا وَأَهْلَ حَرْبٍ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ أَسَدٌ عَظِيمٌ مَهِيبٌ ، فَمَا ظَنُّكَ ؟ هَلْ تَدْفَعُ الْأَسْلِحَةُ شَرَّهُ عَنْهُ بِلَا اسْتِعْمَالِهَا وَضَرْبِهَا ؟ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهَا لَا تَدْفَعُ إِلَّا بِالتَّحْرِيكِ وَالضَّرْبِ . فَكَذَا لَوْ قَرَأَ رَجُلٌ مِائَةَ أَلْفِ مَسْأَلَةٍ عِلْمِيَّةٍ وَتَعَلَّمَهَا وَلَمْ يَعْمَلْ بِهَا لَا تُفِيدُهُ إِلَّا بِالْعَمَلِ . وَمِثْلُهُ أَيْضًا لَوْ كَانَ لِرَجُلٍ حَرَارَةٌ وَمَرَضٌ صَفْرَاوِيٌّ يَكُونُ عِلَاجُهُ « بِالسَّكَنْجَبِينِ [٢] وَالْكَشْكَابِ » فَلَا يَحْصُلُ الْبُرْءُ إِلَّا بِاسْتِعْمَالِهِمَا (شِعْرٌ)

كرمى دو هزار رطل همى پيمائى
تامى نخورى نبا شدت شيدائى [٣]

---

(١) أى لاينجى صاحبه من المخاوف ولا يبلغه مراده (٢) السكنجبين : شراب معرب سركه وأنكبين بالفارسية : ومعناه خل وعسل ويراد به كل حامض وحلو وهو والكشكاب دواءان يتداوى بهما من ذلك الداء (٣) ترجم هذا البيت الشيخ محمد أمين الكردى الى العربية فقال :

لَوْ كِلْتَ أَلْفَىْ رِطْلِ خَمْرٍ لَمْ تَكُنْ لِتَصِيرَ تَشْوَانًا إِذَا لَمْ تَشْرَبِ

يعنى أن كثرة العلم لا تنفع إلا بالعمل

وَلَوْ قَرَأْتَ الْعِلْمَ مِائَةَ سَنَةٍ، وَجَمَعْتَ أَلْفَ كِتَابٍ، لَا تَكُونُ مُسْتَعِدًّا لِرَحْمَةِ اللهِ - تَعَالَى - إِلَّا بِالْعَمَلِ « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا » « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا » وَمَا تَقُولُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ : « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ لِمَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ؟ » وَالْإِيمَانُ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَتَصْدِيقٌ بِالْجَنَانِ (١) وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ، وَدَلِيلُ الْأَعْمَالِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى وَإِنْ كَانَ الْعَبْدُ يَبْلُغُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ اللهِ - تَعَالَى - وَكَرَمِهِ . لَكِنْ بَعْدَ أَنْ يَسْتَعِدَّ

(١) الجنان : بالفتح القلب

بِطَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ، لِأَنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ.

وَلَوْ قِيلَ أَيْضاً : يَبْلُغُ بِمُجَرَّدِ الْإِيمَانِ قُلْنَا : نَعَمْ ، لَكِنْ مَتَى يَبْلُغُ ؟ وَكَمْ مِنْ عَقَبَةٍ كَئُودٍ يَقْطَعُهَا إِلَى أَنْ يَصِلَ ؟ فَأَوَّلُ تِلْكَ الْعَقَبَاتِ عَقَبَةُ الْإِيمَانِ ، وَأَنَّهُ هَلْ يَسْلَمُ مِنْ سَلْبِ الْإِيمَانِ أَمْ لَا ؟ وَإِذَا وَصَلَ هَلْ يَكُونُ خَائِباً مُفْلِساً ؟ وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : « يَقُولُ اللهُ - تَعَالَى - لِعِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ادْخُلُوا يَا عِبَادِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي وَاقْتَسِمُوهَا بِأَعْمَالِكُمْ »

« أَيُّهَا الْوَلَدُ » مَالَمْ تَعْمَلْ لَمْ تَجِدْ الْأَجْرَ ، حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَبَدَ اللهَ - تَعَالَى - سَبْعِينَ سَنَةً فَأَرَادَ اللهُ - تَعَالَى - أَنْ يَجْلُوَهُ (١) عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، فَأَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا يُخْبِرُهُ أَنَّهُ مَعَ تِلْكَ الْعِبَادَةِ لَا يَلِيقُ بِهِ دُخُولُ الْجَنَّةِ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ قَالَ الْعَابِدُ . نَحْنُ خُلِقْنَا لِلْعِبَادَةِ فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَعْبُدَهُ ، فَلَمَّا رَجَعَ الْمَلَكُ

(١) أى يعرض حاله عليهم

قَالَ : إِلٰهِي أَنْتَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ . فَقَالَ اللهُ - تَعَالَى - : « إِذَا هُوَ لَمْ يُعْرِضْ عَنْ عِبَادَتِنَا فَنَحْنُ مَعَ الْكَرَمِ لَا نُعْرِضُ عَنْهُ . إِشْهَدُوا يَا مَلَائِكَتِي أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ » وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا ، وَزِنُوا أَعْمَالَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا (١) » وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ بِدُونِ الْجَهْدِ يَصِلُ فَهُوَ مُتَمَنٍّ (٢) . وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ بِبَذْلِ الْجَهْدِ يَصِلُ فَهُوَ مُسْتَغْنٍ (٣) » وَقَالَ الْحَسَنُ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - : « طَلَبُ الْجَنَّةِ بِلَا عَمَلٍ ذَنْبٌ مِنَ الذُّنُوبِ » وَقَالَ : « عَلَامَةُ الْحَقِيقَةِ تَرْكُ مُلَاحَظَةِ الْعَمَلِ لَا تَرْكُ الْعَمَلِ » وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « الْكَيِّسُ (٤) مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْأَحْمَقُ مَنِ اتَّبَعَ

---

(١) أى توزن أعمالكم يوم القيامة «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين» (٢) أى أقام نفسه فى مقام صاحب الامانى الذى يتمنى ويتكل على أمانيه (٣) معناه انه يرتكن على عمله غير محتاج الى فضل الله ورحمته (٤) أى الحازم ذو العقل

هَوَاهُ وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ تَعَالَى الْأَمَانِيَّ »

« أَيُّهَا الْوَلَدُ » كَمْ مِنْ لَيَالٍ أَحْيَيْتَهَا بِتِكْرَارِ الْعِلْمِ ، وَمُطَالَعَةِ الْكُتُبِ ، وَحَرَّمْتَ عَلَى نَفْسِكَ النَّوْمَ ؟ لَا أَعْلَمُ مَا كَانَ الْبَاعِثُ فِيهِ ؟ إِنْ كَانَ نَيْلَ عَرَضِ الدُّنْيَا وَجَذْبَ حُطَامِهَا وَتَحْصِيلَ مَنَاصِبِهَا وَالْمُبَاهَاةَ (١) عَلَى الْأَقْرَانِ وَالْأَمْثَالِ ، فَوَيْلٌ لَكَ ثُمَّ وَيْلٌ لَكَ . وَإِنْ كَانَ قَصْدُكَ فِيهِ إِحْيَاءَ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَهْذِيبَ أَخْلَاقِكَ وَكَسْرَ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ فَطُوبَى لَكَ ثُمَّ طُوبَى لَكَ (٢) . وَلَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ شِعْرًا :

سَهَرُ الْعُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ ضَائِعٌ

وَبُكَاؤُهُنَّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ بَاطِلُ

« أَيُّهَا الْوَلَدُ » عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ ، وَأَحْبِبْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ .

« أَيُّهَا الْوَلَدُ » أَيُّ شَيْءٍ حَاصِلٌ لَكَ مِنْ تَحْصِيلِ عِلْمِ

---

(١) أى التفاخر والتعالى (٢) أى العاقبة الحميدة والفوز الدائم والسعادة السرمدية

الْكَلَامِ وَالْخِلَافِ [١] وَالطبِّ وَالدَّوَاوِينِ وَالْأَشْعَارِ وَالنُّجُومِ وَالْعَرُوضِ وَالنَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ غَيْرُ تَضْيِيعِ الْعُمُرِ بِخِلَافِ [٢] ذِي الْجَلَالِ . إِنِّي رَأَيْتُ فِي إِنْجِيلِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ : مِنْ سَاعَةِ أَنْ يُوضَعَ الْمَيِّتُ عَلَى الْجِنَازَةِ إِلَى أَنْ يُوضَعَ عَلَى شَفِيرِ [٣] الْقَبْرِ يَسْأَلُ اللهُ بِعَظَمَتِهِ مِنْهُ أَرْبَعِينَ سُؤَالًا . أَوَّلُهَا يَقُولُ : عَبْدِي طَهَّرْتَ مَنْظَرَ الْخَلْقِ سِنِينَ وَمَا طَهَّرْتَ مَنْظَرِي سَاعَةً [٤] . وَكُلَّ يَوْمٍ يَنْظُرُ فِي قَلْبِكَ يَقُولُ : مَا تَصْنَعُ لِغَيْرِي وَأَنْتَ مَحْفُوفٌ بِخَيْرِي أَمَّا أَنْتَ فَأَصَمُّ لَا تَسْمَعُ !

« أَيُّهَا الْوَلَدُ » الْعِلْمُ بِلَا عَمَلٍ جُنُونٌ ، وَالْعَمَلُ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَكُونُ .

« وَاعْلَمْ » أَنَّ الْعِلْمَ لَا يُبْعِدُكَ الْيَوْمَ عَنِ الْمَعَاصِي وَلَا يَحْمِلُكَ عَلَى الطَّاعَةِ وَلَنْ يُبْعِدَكَ غَدًا عَنْ نَارِ

---

(١) الخلاف : أى الترجيح بين أدلة الفروع الفقهية ونصب الادلة لكل مذهب وهو غير علم الفقه (٢) أى بمخالفة (٣) شفير القبر : أى طرفه وحافته (٤) يريد تزيين الجوارح بما يرضى الناس و يعجبهم أو تطهير الظواهر دون الباطن

جَهَنَّمَ ، وَإِذَا لَمْ تَعْمَلِ الْيَوْمَ وَلَمْ تَدَارَكِ (١) الْأَيَّامَ الْمَاضِيَةَ تَقُولُ غَدا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : « فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا » فَيُقَالُ (٢) يَا أَحْمَقُ أَنْتَ مِنْ هُنَاكَ تَجِيءُ .

« أَيُّهَا الْوَلَدُ » اجْعَلْ الْهِمَّةَ فِي الرُّوحِ ، وَالْهَزِيمَةَ فِي النَّفْسِ ، وَالْمَوْتَ فِي الْبَدَنِ لِأَنَّ مَنْزِلَكَ الْقَبْرُ ، وَأَهْلُ الْمَقَابِرِ يَنْتَظِرُونَكَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مَتَى تَصِلُ إِلَيْهِمْ ؟ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِمْ بِلَا زَادٍ (٣) . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ : هَذِهِ الْأَجْسَادُ قَفَصُ الطُّيُورِ وَإِصْطَبْلُ الدَّوَابِّ ، فَتَفَكَّرْ فِي نَفْسِكَ ، مِنْ أَيِّهِمَا أَنْتَ ؟ إِنْ كُنْتَ مِنَ الطُّيُورِ الْعُلْوِيَّةِ فَحِينَ تَسْمَعُ طَنِينَ (٤) طَبْلِ « ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ » تَطِيرُ صَاعِدًا إِلَى أَنْ تَقْعُدَ فِي أَعَالِي بُرُوجِ الْجِنَانِ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ مِنْ مَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ » وَالْعِيَاذُ بِاللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الدَّوَابِّ (٥) كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى « أُولَئِكَ

---

(١) أى ولم تتلافه بالاعمال الصالحة (٢) القائل الملائكة (٣) يعنى به العمل الصالح
(٤) أى صوت (٥) أى بارسال النفس على هواها وتركها مسترسلة فى شهواتها

كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ » فَلَا تَأْمَنِ انْتِقَالَكَ مِنْ زَاوِيَةِ الدَّارِ إِلَى هَاوِيَةِ النَّارِ . وَرُوِيَ أَنَّ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - أُعْطِيَ شَرْبَةَ مَاءٍ بَارِدٍ ، فَأَخَذَ الْقَدَحَ وَغُشِيَ عَلَيْهِ وَسَقَطَ مِنْ يَدِهِ ، فَلَمَّا أَفَاقَ قِيلَ مَالَكَ يَا أَبَا سَعِيدٍ . قَالَ : ذَكَرْتُ أُمْنِيَّةَ (١) أَهْلِ النَّارِ حِينَ يَقُولُونَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ « أَنْ أَفِيضُوا (٢) عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ »

« أَيُّهَا الْوَلَدُ » لَوْ كَانَ الْعِلْمُ الْمُجَرَّدُ كَافِيًا لَكَ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى عَمَلٍ سِوَاهُ لَكَانَ نِدَاءُ : « هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ » ضَائِعًا بِلَا فَائِدَةٍ . وَرُوِيَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - ذَكَرُوا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : نِعْمَ الرَّجُلُ هُوَ ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ (٣) . وَقَالَ عَلَيْهِ

(١) أى طلبهم حينئذ (٢) أى صبوا (٣) يريد التهجد

ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ : (يَا فُلَانُ لَا تُكْثِرِ ٱلنَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَإِنَّ كَثْرَةَ ٱلنَّوْمِ بِاللَّيْلِ يَدَعُ صَاحِبَهُ فَقِيرًا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ)

« أَيُّهَا ٱلْوَلَدُ » (وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ) أَمْرٌ (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) شُكْرٌ ، وَٱلْمُسْتَغْفِرُونَ بِالْأَسْحَارِ ذِكْرٌ . قَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (ثَلَاثَةُ أَصْوَاتٍ يُحِبُّهَا ٱللهُ تَعَالَى صَوْتُ ٱلدِّيكِ ، وَصَوْتُ ٱلَّذِي يَقْرَأُ ٱلْقُرْآنَ ، وَصَوْتُ ٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) قَالَ سُفْيَانُ ٱلثَّوْرِيُّ رَحْمَةُ ٱللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ : (إِنَّ ٱللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ رِيحًا تَهُبُّ بِالْأَسْحَارِ تَحْمِلُ ٱلْأَذْكَارَ وَٱلِاسْتِغْفَارَ إِلَى ٱلْمَلِكِ ٱلْجَبَّارِ وَقَالَ أَيْضًا : إِذَا كَانَ أَوَّلُ ٱللَّيْلِ يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ ٱلْعَرْشِ أَلَا لِيَقُمِ ٱلْعَابِدُونَ فَيَقُومُونَ وَيُصَلُّونَ مَاشَاءَ ٱللهُ . ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ فِي شَطْرِ ٱللَّيْلِ : أَلَا لِيَقُمِ ٱلْقَانِتُونَ [1] فَيَقُومُونَ وَيُصَلُّونَ إِلَى ٱلسَّحَرِ .

(١) القانتون : أى المطيعون المصلون الخاشعون

فَإِذَا كَانَ السَّحَرُ نَادَى مُنَادٍ : أَلَا لِيَقُمِ الْمُسْتَغْفِرُونَ فَيَقُومُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ . فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ نَادَى مُنَادٍ : أَلَا لِيَقُمِ الْغَافِلُونَ فَيَقُومُونَ مِنْ فُرُشِهِمْ كَالْمَوْتَى نُشِرُوا مِنْ قُبُورِهِمْ .

« أَيُّهَا الْوَلَدُ » رُوِيَ فِي وَصَايَا لُقْمَانَ الْحَكِيمِ لِابْنِهِ أَنَّهُ قَالَ : يَا بُنَيَّ : لَا يَكُونَنَّ الدِّيكُ أَكْيَسَ مِنْكَ يُنَادِي بِالْأَسْحَارِ وَأَنْتَ نَائِمٌ . وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ شِعْرًا :

لَقَدْ هَتَفَتْ فِي جُنْحِ لَيْلٍ حَمَامَةٌ
عَلَى فَنَنٍ وَهْنًا (١) وَإِنِّي لَنَائِمُ
كَذَبْتُ وَبَيْتِ اللهِ لَوْ كُنْتُ عَاشِقًا
لَمَا سَبَقَتْنِي بِالْبُكَاءِ الْحَمَائِمُ
وَأَزْعُمُ أَنِّي هَائِمٌ ذُو صَبَابَةٍ
لِرَبِّي فَلَا أَبْكِي وَتَبْكِي الْبَهَائِمُ

(١) الافنان : هي الاغصان كما قال الله تعالى ذواتا أفنان . والوهن نصف الليل . أو ما بعده بساعة

« أَيُّهَا الْوَلَدُ » خُلَاصَةُ الْعِلْمِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الطَّاعَةَ وَالْعِبَادَةَ مَاهِيَ .

(إِعْلَمْ) أَنَّ الطَّاعَةَ وَالْعِبَادَةَ مُتَابَعَةُ الشَّارِعِ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ . يَعْنِي : كُلُّ مَاتَقُولُ وَتَفْعَلُ وَتَتْرُكُ يَكُونُ بِاقْتِدَاءِ الشَّرْعِ كَمَا لَوْ صُمْتَ يَوْمَ الْعِيدِ وَأَيَّامَ التَّشْرِيقِ تَكُونُ عَاصِيًا أَوْ صَلَّيْتَ فِي ثَوْبٍ مَغْصُوبٍ ، وَإِنْ كَانَتْ صُورَةَ عِبَادَةٍ تَأْثَمُ

« أَيُّهَا الْوَلَدُ » يَنْبَغِي لَكَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُكَ وَفِعْلُكَ مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ إِذِ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ بِلَا اقْتِدَاءِ الشَّرْعِ ضَلَالَةٌ ، وَيَنْبَغِي لَكَ أَلَّا تَغْتَرَّ بِالشَّطْحِ وَطَامَّاتِ (١) الصُّوفِيَّةِ ، لِأَنَّ سُلُوكَ هَذَا الطَّرِيقِ يَكُونُ بِالْمُجَاهَدَةِ وَقَطْعِ شَهْوَةِ النَّفْسِ وَقَتْلِ هَوَاهَا بِسَيْفِ الرِّيَاضَةِ لَا بِالطَّامَّاتِ وَالتُّرَّهَاتِ (٢)

---

(١) الطامات الخ : جمع طامة أى بلية ولعل المراد بها هنا أقاويلهم المتجاوزة حد الشرع وما أحدثوا من تلقاء أنفسهم (٢) الترهات : الاباطيل جمع ترهة

(وَاعْلَمْ) أَنَّ اللِّسَانَ الْمُطْلَقَ ، وَالْقَلْبَ الْمُطْبَقَ الْمَمْلُوءَ بِالْغَفْلَةِ وَالشَّهْوَةِ عَلَامَةُ الشَّقَاوَةِ فَإِذَا لَمْ تَقْتُلِ النَّفْسَ بِصِدْقِ الْمُجَاهَدَةِ فَلَنْ يَحْيَا قَلْبُكَ بِأَنْوَارِ الْمَعْرِفَةِ

(وَاعْلَمْ) أَنَّ بَعْضَ مَسَائِلِكَ الَّتِي سَأَلْتَنِي عَنْهَا لَا يَسْتَقِيمُ جَوَابُهَا بِالْكِتَابَةِ وَالْقَوْلِ ، إِنْ تَبْلُغْ تِلْكَ الْحَالَةَ تَعْرِفْ مَاهِيَ ، وَإِلَّا فَعِلْمُهَا مِنَ الْمُسْتَحِيلَاتِ لِأَنَّهَا ذَوْقِيَّةٌ ، وَكُلُّ مَا يَكُونُ ذَوْقِيًّا لَا يَسْتَقِيمُ وَصْفُهُ بِالْقَوْلِ كَحَلَاوَةِ الْحُلْوِ وَمَرَارَةِ الْمُرِّ لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِالذَّوْقِ .

كَمَا حُكِيَ أَنَّ عِنِّينًا كَتَبَ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ أَنْ عَرِّفْنِي لَذَّةَ الْمُجَامَعَةِ كَيْفَ تَكُونُ . فَكَتَبَ لَهُ فِي جَوَابِهِ : يَا فُلَانُ إِنِّي كُنْتُ حَسِبْتُكَ عِنِّينًا فَقَطْ - وَالْآنَ عَرَفْتُ أَنَّكَ عِنِّينٌ وَأَحْمَقُ - لِأَنَّ هَذِهِ اللَّذَّةَ ذَوْقِيَّةٌ إِنْ تَصِلْ إِلَيْهَا تَعْرِفْ وَإِلَّا لَا يَسْتَقِيمُ وَصْفُهَا بِالْقَوْلِ وَالْكِتَابَةِ .

« أَيُّهَا الْوَلَدُ » بَعْضُ مَسَائِلِكَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ،

وَأَمَّا ٱلْبَعْضُ ٱلَّذِى يَسْتَقِيمُ لَهُ ٱلْجَوَابُ فَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِى « إِحْيَاءِ ٱلْعُلُومِ » وَغَيْرِهِ ، وَنَذْكُرُ هَاهُنَا نُبَذًا مِنْهُ وَنُشِيرُ إِلَيْهِ فَنَقُولُ : قَدْ وَجَبَ عَلَى ٱلسَّالِكِ أَرْبَعَةُ أُمُورٍ : (ٱلْأَمْرُ ٱلْأَوَّلُ) إِعْتِقَادٌ صَحِيحٌ لَا يَكُونُ فِيهِ بِدْعَةٌ (وَٱلثَّانِى) تَوْبَةٌ نَصُوحٌ لَا يُرْجَعُ بَعْدَهَا إِلَى ٱلزَّلَّةِ (وَٱلثَّالِثُ) إِسْتِرْضَاءُ ٱلْخُصُومِ حَتَّى لَا يَبْقَى لِأَحَدٍ عَلَيْكَ حَقٌّ (وَٱلرَّابِعُ) تَحْصِيلُ عِلْمِ ٱلشَّرِيعَةِ قَدْرَ مَا تُؤَدَّى بِهِ أَوَامِرُ ٱللهِ تَعَالَى ثُمَّ مِنْ عُلُومِ ٱلْآخِرَةِ مَا تَكُونُ بِهِ ٱلنَّجَاةُ . حُكِىَ أَنَّ ٱلشِّبْلِىَّ رَحِمَهُ ٱللهُ خَدَمَ أَرْبَعِمِائَةِ أُسْتَاذٍ ، وَقَالَ قَرَأْتُ أَرْبَعَةَ آلَافِ حَدِيثٍ ، ثُمَّ ٱخْتَرْتُ مِنْهَا حَدِيثًا وَاحِدًا وَعَمِلْتُ بِهِ ، وَخَلَّيْتُ مَا سِوَاهُ ، لِأَنِّى تَأَمَّلْتُهُ فَوَجَدْتُ خَلَاصِى وَنَجَاتِى فِيهِ ، وَكَانَ عِلْمُ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ كُلُّهُ مُنْدَرِجًا فِيهِ فَٱكْتَفَيْتُ بِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ : (إِعْمَلْ لِدُنْيَاكَ بِقَدْرِ مُقَامِكَ

فِيهَا ، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ بِقَدْرِ بَقَائِكَ [1] فِيهَا ، وَاعْمَلْ لِلّٰهِ بِقَدْرِ حَاجَتِكَ إِلَيْهِ ، وَاعْمَلْ لِلنَّارِ بِقَدْرِ صَبْرِكَ عَلَيْهَا)

« أَيُّهَا الْوَلَدُ » إِذَا عَلِمْتَ هَذَا الْحَدِيثَ لَا حَاجَةَ إِلَى الْعِلْمِ الْكَثِيرِ وَتَأَمَّلْ فِي حِكَايَاتٍ أُخْرَى ، وَذَلِكَ أَنَّ حَاتِمًا الْأَصَمَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّقِيقِ الْبَلْخِيِّ رَحْمَةُ اللّٰهِ تَعَالَى عَلَيْهِمَا ، فَسَأَلَهُ يَوْمًا قَالَ : صَاحَبْتَنِي مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً مَا حَصَّلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : حَصَّلْتُ ثَمَانِيَ فَوَائِدَ مِنَ الْعِلْمِ ، وَهِيَ تَكْفِينِي مِنْهُ ، لِأَنِّي أَرْجُو خَلَاصِي وَنَجَاتِي فِيهَا . فَقَالَ شَقِيقٌ مَا هِيَ ؟ قَالَ حَاتِمٌ الْأَصَمُّ (الْفَائِدَةُ الْأُولَى) أَنِّي نَظَرْتُ إِلَى الْخَلْقِ فَرَأَيْتُ لِكُلٍّ مِنْهُمْ مَحْبُوبًا وَمَعْشُوقًا يُحِبُّهُ وَيَعْشَقُهُ [2] ، وَبَعْضُ ذَلِكَ الْمَحْبُوبِ يُصَاحِبُهُ إِلَى مَرَضِ الْمَوْتِ ، وَبَعْضُهُ إِلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ ، ثُمَّ يَرْجِعُ كُلُّهُ وَيَتْرُكُهُ فَرِيدًا وَحِيدًا وَلَا يَدْخُلُ مَعَهُ

(١) البقاء فيها غير متناه ، وهو يقتضى المداومة على الطاعة والتقوى

(٢) وذلك كالاولاد والازواج والاموال والمناصب والاحباء

فِي قَبْرِهِ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، فَتَفَكَّرْتُ وَقُلْتُ : أَفْضَلُ مَحْبُوبِ الْمَرْءِ مَا يَدْخُلُ فِي قَبْرِهِ وَيُؤَانِسُهُ فِيهِ ، فَمَا وَجَدْتُهُ غَيْرَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَأَخَذْتُهَا مَحْبُوبًا لِي لِتَكُونَ سِرَاجًا لِي فِي قَبْرِي ، وَتُؤَانِسَنِي فِيهِ وَلَا تَتْرُكَنِي فَرِيدًا (الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ) أَنِّي رَأَيْتُ الْخَلْقَ يَقْتَدُونَ بِأَهْوَائِهِمْ وَيُبَادِرُونَ إِلَى مُرَادَاتِ أَنْفُسِهِمْ فَتَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى [1] فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) وَتَيَقَّنْتُ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ صَادِقٌ فَبَادَرْتُ إِلَى خِلَافِ نَفْسِي وَتَشَمَّرْتُ لِمُجَاهَدَتِهَا وَمَا مَتَّعْتُهَا بِهَوَاهَا حَتَّى رَضِيَتْ بِطَاعَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَانْقَادَتْ (الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ) أَنِّي رَأَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ يَسْعَى فِي جَمْعِ حُطَامِ الدُّنْيَا ثُمَّ يُمْسِكُهُ قَابِضًا يَدَهُ عَلَيْهِ فَتَأَمَّلْتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ) فَبَذَلْتُ مَحْصُولِي مِنَ الدُّنْيَا لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى فَفَرَّقْتُهُ بَيْنَ الْمَسَاكِينِ

(١) الهوى ميل النفس إلى مقتضيات الطبع

لِيَكُونَ ذُخْرًا لِى عِنْدَ اللهِ تَعَالَى (الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ)
أَنِّى رَأَيْتُ بَعْضَ الْخَلْقِ ظَنَّ شَرَفَهُ وَعِزَّهُ فِى كَثْرَةِ
الْأَقْوَامِ وَالْعَشَائِرِ فَاغْتَرَّ بِهِمْ ، وَزَعَمَ آخَرُونَ أَنَّهُ فِى ثَرْوَةِ
الْأَمْوَالِ وَكَثْرَةِ الْأَوْلَادِ فَافْتَخَرُوا بِهَا وَحَسِبَ بَعْضُهُمْ
الشَّرَفَ وَالْعِزَّ فِى غَصْبِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَظُلْمِهِمْ وَسَفْكِ
دِمَائِهِمْ . وَاعْتَقَدَتْ طَائِفَةٌ أَنَّهُ فِى إِتْلَافِ الْمَالِ وَإِسْرَافِهِ
وَتَبْذِيرِهِ وَتَأَمَّلْتُ فِى قَوْلِهِ تَعَالَى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ
اللهِ أَتْقَاكُمْ (١)) فَاخْتَرْتُ التَّقْوَى وَاعْتَقَدْتُ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ
صَادِقٌ وَظَنُّهُمْ وَحِسْبَانُهُمْ كُلُّهَا بَاطِلٌ زَائِلٌ (الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ)
أَنِّى رَأَيْتُ النَّاسَ يَذُمُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَغْتَابُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا
فَوَجَدْتُ ذَلِكَ مِنَ الْحَسَدِ فِى الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْعِلْمِ فَتَأَمَّلْتُ فِى
قَوْلِهِ تَعَالَى (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ (٢) فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)
فَعَلِمْتُ أَنَّ الْقِسْمَةَ كَانَتْ مِنَ اللهِ تَعَالَى فِى الْأَزَلِ فَمَا
حَسَدْتُ أَحَدًا وَرَضِيتُ بِقِسْمَةِ اللهِ تَعَالَى « الْفَائِدَةُ

(١) التقوى: الكف عن جميع المحظورات وتجنب الشبهات والبعد عن كل مريب (٢) أى قدرناها فى الازل وفقا لما اقتضته حكمتنا و إرادتنا

السَّادِسَةُ » أَنِّى رَأَيْتُ النَّاسَ يُعَادِى بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِغَرَضٍ وَسَبَبٍ فَتَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا تَجُوزُ عَدَاوَةُ أَحَدٍ غَيْرِ الشَّيْطَانِ (الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ) أَنِّى رَأَيْتُ كُلَّ أَحَدٍ يَسْعَى بِجِدٍّ وَيَجْتَهِدُ بِمُبَالَغَةٍ لِطَلَبِ الْقُوتِ وَالْمَعَاشِ بِحَيْثُ يَقَعُ بِهِ فِى شُبْهَةٍ وَحَرَامٍ ، وَيُذِلُّ نَفْسَهُ ، وَيَنْقُصُ قَدْرَهُ ، فَتَأَمَّلْتُ فِى قَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) فَعَلِمْتُ أَنَّ رِزْقِى عَلَى اللهِ تَعَالَى وَقَدْ ضَمِنَهُ فَاشْتَغَلْتُ بِعِبَادَتِهِ وَقَطَعْتُ طَمَعِى عَمَّنْ سِوَاهُ (الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ) أَنِّى رَأَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مُعْتَمِدًا عَلَى شَىْءٍ مَخْلُوقٍ : بَعْضُهُمْ إِلَى الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ ، وَبَعْضُهُمْ إِلَى الْمَالِ وَالْمُلْكِ ، وَبَعْضُهُمْ إِلَى الْحِرْفَةِ وَالصِّنَاعَةِ ، وَبَعْضُهُمْ إِلَى مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ : فَتَأَمَّلْتُ فِى قَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَىْءٍ

قَدَرًا) فَتَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللهِ تَعَالَى فَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . فَقَالَ شَقِيقٌ : - وَفَّقَكَ ٱللهُ تَعَالَى - إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَٱلزَّبُورَ وَٱلْفُرْقَانَ فَوَجَدْتُ ٱلْكُتُبَ ٱلْأَرْبَعَةَ تَدُورُ عَلَى هَذِهِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلثَّمَانِيَةِ . فَمَنْ عَمِلَ بِهَا كَانَ عَامِلًا بِهَذِهِ ٱلْكُتُبِ ٱلْأَرْبَعَةِ .

« أَيُّهَا ٱلْوَلَدُ » قَدْ عَلِمْتَ مِنْ هَاتَيْنِ ٱلْحِكَايَتَيْنِ أَنَّكَ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَكْثِيرِ ٱلْعِلْمِ . وَٱلْآنَ أُبَيِّنُ لَكَ مَا يَجِبُ عَلَى سَالِكِ سَبِيلِ ٱلْحَقِّ « ٱعْلَمْ » أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلسَّالِكِ شَيْخٌ مُرْشِدٌ مُرَبٍّ لِيُخْرِجَ ٱلْأَخْلَاقَ ٱلسَّيِّئَةَ مِنْهُ بِتَرْبِيَتِهِ وَيَجْعَلَ مَكَانَهَا خُلُقًا حَسَنًا ، وَمَعْنَى ٱلتَّرْبِيَةِ يُشْبِهُ فِعْلَ ٱلْفَلَّاحِ ٱلَّذِي يَقْلَعُ ٱلشَّوْكُ وَيُخْرِجُ ٱلنَّبَاتَاتِ ٱلْأَجْنَبِيَّةَ مِنْ بَيْنَ ٱلزَّرْعِ لِيَحْسُنَ نَبَاتُهُ وَيَكْمُلَ رِيعُهُ[1] ، وَلَا بُدَّ لِلسَّالِكِ مِنْ شَيْخٍ يُؤَدِّبُهُ وَيُرْشِدُهُ إِلَى سَبِيلِ ٱللهِ تَعَالَى لِأَنَّ ٱللهَ أَرْسَلَ لِلْعِبَادِ رَسُولًا لِلْإِرْشَادِ إِلَى سَبِيلِهِ . فَإِذَا

(١) أي يقوى و يشتد و ينضج

ٱرْتَحَلَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ خَلَّفَ ٱلْخُلَفَاءَ فِي مَكَانِهِ حَتَّى يُرْشِدُوا إِلَى ٱللهِ تَعَالَى . وَشَرْطُ ٱلشَّيْخِ ٱلَّذِي يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ نَائِبًا لِرَسُولِ ٱللهِ - صَلَوَاتُ ٱللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - أَنْ يَكُونَ عَالِمًا وَلَكِنْ لَا كُلُّ عَالِمٍ يَصْلُحُ لِلْخِلَافَةِ . وَإِنِّي أُبَيِّنُ لَكَ بَعْضَ عَلَامَاتِهِ عَلَى سَبِيلِ ٱلْإِجْمَالِ حَتَّى لَا يَدَّعِيَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُ مُرْشِدٌ . فَنَقُولُ : مَنْ يُعْرِضْ عَنْ حُبِّ ٱلدُّنْيَا (١) وَحُبِّ ٱلْجَاهِ ، وَكَانَ قَدْ تَابَعَ لِشَخْصٍ بَصِيرٍ تَتَسَلْسَلُ مُتَابَعَتُهُ إِلَى سَيِّدِ ٱلْمُرْسَلِينَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ مُحْسِنًا رِيَاضَةَ نَفْسِهِ بِقِلَّةِ ٱلْأَكْلِ (٢) وَٱلْقَوْلِ وَٱلنَّوْمِ ، وَكَثْرَةِ ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّدَقَةِ وَٱلصَّوْمِ . وَكَانَ بِمُتَابَعَتِهِ ذَلِكَ ٱلشَّيْخَ ٱلْبَصِيرَ جَاعِلًا مَحَاسِنَ ٱلْأَخْلَاقِ لَهُ سِيرَةً كَالصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ وَٱلشُّكْرِ وَٱلتَّوَكُّلِ وَٱلْيَقِينِ وَٱلْقَنَاعَةِ وَطُمَأْنِينَةِ ٱلنَّفْسِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلتَّوَاضُعِ وَٱلْعِلْمِ

(١) لانه رأس كل خطيئة إذ جميع المحظورات متولدة من حب الدنيا فمن شاء السلامة فليقلع عنه (٢) من أقوال ذى النون المصرى لا تسكن الحكمة معدة ملئت طعاما

وَالصِّدْقِ وَالْحَيَاءِ وَالْوَفَاءِ وَالْوَقَارِ وَالسُّكُونِ وَالتَّأَنِّي وَأَمْثَالِهَا ، فَهُوَ إِذًا نُورٌ مِنْ أَنْوَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْلُحُ لِلْإِقْتِدَاءِ بِهِ ، وَلَكِنَّ وُجُودَ مِثْلِهِ نَادِرٌ أَعَزُّ مِنَ الْكِبْرِيتِ الْأَحْمَرِ . وَمَنْ سَاعَدَتْهُ السَّعَادَةُ فَوَجَدَ شَيْخًا كَمَا ذَكَرْنَا وَقَبِلَهُ الشَّيْخُ يَنْبَغِي أَنْ يَحْتَرِمَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا . أَمَّا إِحْتِرَامُ الظَّاهِرِ فَهُوَ أَلَّا يُجَادِلَهُ وَلَا يَشْتَغِلَ بِالِاحْتِجَاجِ مَعَهُ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ ، وَإِنْ عَلِمَ خَطَأَهُ ، وَلَا يُلْقِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَجَّادَتَهُ إِلَّا وَقْتَ أَدَاءِ الصَّلَاةِ فَإِذَا فَرَغَ يَرْفَعُهَا . وَلَا يُكْثِرَ نَوَافِلَ الصَّلَاةِ بِحَضْرَتِهِ ، وَيَعْمَلَ مَا يَأْمُرُهُ الشَّيْخُ مِنَ الْعَمَلِ بِقَدْرِ وُسْعِهِ وَطَاقَتِهِ . وَأَمَّا إِحْتِرَامُ الْبَاطِنِ فَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَا يَسْمَعُ وَيَقْبَلُ مِنْهُ فِي الظَّاهِرِ لَا يُنْكِرُهُ فِي الْبَاطِنِ ، لَا فِعْلًا وَلَا قَوْلًا ، لِئَلَّا يَتَّسِمَ بِالنِّفَاقِ ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ يَتْرُكْ صُحْبَتَهُ إِلَى أَنْ يُوَافِقَ بَاطِنُهُ ظَاهِرَهُ . وَيَحْتَرِزُ عَنْ مُجَالَسَةِ صَاحِبِ السُّوءِ لِيَقْصُرَ

وِلَايَةَ شَيَاطِينِ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ عَنْ صَحْنِ [١] قَلْبِهِ فَيُصَفَّى مِنْ لَوْثِ [٢] ٱلشَّيْطَنَةِ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ يَخْتَارُ ٱلْفَقْرَ عَلَى ٱلْغِنَى « ثُمَّ ٱعْلَمْ » أَنَّ ٱلتَّصَوُّفَ لَهُ خَصْلَتَانِ : ٱلِاسْتِقَامَةُ وَٱلسُّكُونُ عَنِ ٱلْخَلْقِ . فَمَنِ ٱسْتَقَامَ وَأَحْسَنَ خُلُقَهُ بِالنَّاسِ وَعَامَلَهُمْ بِالْحِلْمِ فَهُوَ صُوفِيٌّ . وَٱلِاسْتِقَامَةُ أَنْ يَفْدِيَ حَظَّ نَفْسِهِ [٣] لِنَفْسِهِ . وَحُسْنُ ٱلْخُلُقِ مَعَ ٱلنَّاسِ أَلَّا تَحْمِلَ ٱلنَّاسَ عَلَى مُرَادِ نَفْسِكَ بَلْ تَحْمِلَ نَفْسَكَ عَلَى مُرَادِهِمْ مَا لَمْ يُخَالِفُوا ٱلشَّرْعَ . ثُمَّ إِنَّكَ سَأَلْتَنِي عَنِ ٱلْعُبُودِيَّةِ وَهِيَ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ (أَحَدُهَا) مُحَافَظَةُ أَمْرِ ٱلشَّرْعِ (وَثَانِيهَا) ٱلرِّضَاءُ بِٱلْقَضَاءِ [٤] وَٱلْقَدَرِ وَقِسْمَةِ ٱللهِ تَعَالَى (وَثَالِثُهَا) تَرْكُ رِضَاءِ نَفْسِكَ فِي طَلَبِ رِضَاءِ ٱللهِ تَعَالَى . وَسَأَلْتَنِي عَنِ ٱلتَّوَكُّلِ وَهُوَ أَنْ تَسْتَحْكِمَ ٱعْتِقَادُكَ بِاللهِ تَعَالَى فِيمَا وَعَدَ ، يَعْنِي تَعْتَقِدَ أَنَّ مَا قُدِّرَ لَكَ سَيَصِلُ

---

(١) أى وسطه (٢) أى خبث (٣) أن يفدى : أى يحمى . وحظ نفسه ميولها وشهواتها (٤) أى الحكم الالهى الذى لا محيد عنه ولا مفر منه

إِلَيْكَ لَا مَحَالَةَ وَإِنِ اجْتَهَدَ كُلُّ مَنْ فِي الْعَالَمِ عَلَى صَرْفِهِ عَنْكَ ، وَمَالَمْ يُكْتَبْ لَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ وَإِنْ سَاعَدَكَ جَمِيعُ الْعَالَمِ ، وَسَأَلْتَنِي عَنِ الْإِخْلَاصِ وَهُوَ أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُكَ كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَى وَلَا يَرْتَاحَ قَلْبُكَ بِمَحَامِدِ النَّاسِ وَلَا تُبَالِيَ بِمَذَمَّتِهِمْ (وَاعْلَمْ) أَنَّ الرِّيَاءَ يَتَوَلَّدُ مِنْ تَعْظِيمِ الْخَلْقِ . وَعِلَاجُهُ أَنْ تَرَاهُمْ مُسَخَّرِينَ تَحْتَ الْقُدْرَةِ وَتَحْسَبُهُمْ كَالْجَمَادَاتِ فِي عَدَمِ قُدْرَةِ إِيصَالِ الرَّاحَةِ وَالْمَشَقَّةِ لِتَخْلُصَ مِنْ مُرَاءَاتِهِمْ . وَمَتَى تَحْسَبُهُمْ ذَوِي قُدْرَةٍ وَإِرَادَةٍ لَنْ يَبْعُدَ عَنْكَ الرِّيَاءُ

« أَيُّهَا الْوَلَدُ » وَالْبَاقِي مِنْ مَسَائِلِكَ بَعْضُهَا مَسْطُورٌ فِي مُصَنَّفَاتِي فَاطْلُبْهُ ثَمَّةَ وَكِتَابَةُ بَعْضِهَا حَرَامٌ اِعْمَلْ أَنْتَ بِمَا تَعْلَمُ لِيَنْكَشِفَ لَكَ مَالَمْ تَعْلَمْ .

« أَيُّهَا الْوَلَدُ » بَعْدَ الْيَوْمِ ، لَاتَسْأَلْنِي مَا أُشْكِلَ عَلَيْكَ إِلَّا بِلِسَانِ الْجَنَانِ قَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) وَأَقْبَلْ نَصِيحَةَ الْخَضِرِ

عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حِينَ قَالَ (فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) وَلَا تَسْتَعْجِلْ حَتَّى تَبْلُغَ أَوَانَهُ يُكْشَفُ لَكَ وَتَرَاهُ (سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) فَلَا تَسْأَلْنِي قَبْلَ ٱلْوَقْتِ ، وَتَيَقَّنْ أَنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَّا بِالسَّيْرِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا) .

« أَيُّهَا ٱلْوَلَدُ » بِاللهِ إِنْ تَسِرْ تَرَ ٱلْعَجَائِبَ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ ، وَٱبْذُلْ رُوحَكَ فَإِنَّ رَأْسَ هَذَا ٱلْأَمْرِ بَذْلُ ٱلرُّوحِ كَمَا قَالَ ذُو ٱلنُّونِ ٱلْمِصْرِيُّ - رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى - لِأَحَدِ تَلَامِذَتِهِ : إِنْ قَدَرْتَ عَلَى بَذْلِ ٱلرُّوحِ فَتَعَالَ وَإِلَّا فَلَا تَشْتَغِلْ بِتُرَّهَاتِ ٱلصُّوفِيَّةِ .

« أَيُّهَا ٱلْوَلَدُ » إِنِّي أَنْصَحُكَ بِثَمَانِيَةِ أَشْيَاءَ . اِقْبَلْهَا مِنِّي لِئَلَّا يَكُونَ عِلْمُكَ خَصْمًا عَلَيْكَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . تَعْمَلُ مِنْهَا أَرْبَعَةً ، وَتَدَعُ مِنْهَا أَرْبَعَةً . أَمَّا ٱللَّوَاتِي تَدَعُ (فَأَحَدُهَا) أَلَّا تُنَاظِرَ أَحَدًا فِي مَسْأَلَةٍ مَا ٱسْتَطَعْتَ لِأَنَّ

فِيهَا آفَاتٍ كَثِيرَةً فَإِثْمُهَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهَا إِذْ هِيَ مَنْبَعُ كُلِّ خُلُقٍ ذَمِيمٍ كَالرِّيَاءِ وَالْحَسَدِ وَالْكِبْرِ وَالْحِقْدِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْمُبَاهَاةِ وَغَيْرِهَا ، نَعَمْ لَوْ وَقَعَ مَسْأَلَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَخْصٍ أَوْ قَوْمٍ وَكَانَتْ إِرَادَتُكَ فِيهَا أَنْ يَظْهَرَ الْحَقُّ وَلَا يَضِيعَ ، جَازَ الْبَحْثُ لَكِنْ لِتِلْكَ الْإِرَادَةِ عَلَامَتَانِ : (إِحْدَاهُمَا) أَلَّا تُفَرِّقَ بَيْنَ أَنْ يَنْكَشِفَ الْحَقُّ عَلَى لِسَانِكَ أَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِكَ (وَالثَّانِيَةُ) أَنْ يَكُونَ الْبَحْثُ فِي الْخَلَاءِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي الْمَلَإِ وَاسْمَعْ إِنِّي أَذْكُرُ لَكَ هَاهُنَا فَائِدَةً « وَاعْلَمْ » أَنَّ السُّؤَالَ عَنِ الْمُشْكِلَاتِ عَرْضُ مَرَضِ الْقَلْبِ إِلَى الطَّبِيبِ ، وَالْجَوَابُ لَهُ سَعْيٌ لِإِصْلَاحِ مَرَضِهِ « وَاعْلَمْ » أَنَّ الْجَاهِلِينَ الْمَرْضَى قُلُوبُهُمْ ، وَالْعُلَمَاءَ الْأَطِبَّاءُ ، وَالْعَالِمَ النَّاقِصَ لَا يُحْسِنُ الْمُعَالَجَةَ . وَالْعَالِمَ الْكَامِلَ (١) لَا يُعَالِجُ كُلَّ مَرِيضٍ بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرْجُو فِيهِ قَبُولَ الْمُعَالَجَةِ وَالصَّلَاحِ ، وَإِذَا

(١) يريد العارف علل القلوب وما ينتابها من الأمراض النفسية

كانت العلة مزمنة (١) أو عقيماً لا تقبل العلاج فحذاقة الطبيب فيه أن يقول هذا لا يقبل العلاج فلا تشتغل فيه بمداواته لأن فيه تضييع العمر « ثم اعلم » أن مرض الجهل على أربعة أنواع: (أحدها) يقبل العلاج والباقي لا يقبل . أما الذي لا يقبل (أحدها) من كان سؤاله وإعراضه عن حسده وبغضه ، فكلما تجيبه بأحسن الجواب وأفصحه وأوضحه ، فلا يزيد له ذلك إلا بغضاً وعداوة وحسداً . فالطريق ألا تشتغل بجوابه فقد قيل :

كل العداوة قد ترجى إزالتها
إلا عداوة من عاداك عن حسد

فينبغي أن تعرض عنه وتتركه مع مرضه . قال الله تعالى « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » والحسود بكل ما يقول ويفعل يوقد النار

(١) أى لا يفلح فيها طب ولا دواء

فِي زَرْعِ عَمَلِهِ [١] . اَلْحَسَدُ يَأْكُلُ اَلْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ اَلنَّارُ اَلْحَطَبَ (وَالثَّانِي) أَنْ تَكُونَ عِلَّتُهُ مِنَ اَلْحَمَاقَةِ وَهُوَ أَيْضاً لَا يَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ ، كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ : « إِنِّي مَا عَجَزْتُ عَنْ إِحْيَاءِ اَلْمَوْتَى وَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ مُعَالَجَةِ اَلْأَحْمَقِ » . وَذَلِكَ رَجُلٌ يَشْتَغِلُ بِطَلَبِ اَلْعِلْمِ زَمَناً قَلِيلًا وَيَتَعَلَّمُ شَيْئاً مِنَ اَلْعِلْمِ [٢] اَلْعَقْلِيِّ وَالشَّرْعِيِّ فَيَسْأَلُ وَيَعْتَرِضُ مِنْ حَمَاقَتِهِ عَلَى اَلْعَالِمِ اَلْكَبِيرِ اَلَّذِي مَضَى عُمُرُهُ فِي اَلْعُلُومِ اَلْعَقْلِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ ، وَهَذَا اَلْأَحْمَقُ لَا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ أَنَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضاً مُشْكِلٌ عَلَى اَلْعَالِمِ [٣] اَلْكَبِيرِ . فَإِذَا لَمْ يَعْلَمْ هَذَا اَلْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ مِنَ اَلْحَمَاقَةِ . فَيَنْبَغِي أَلَّا تَشْتَغِلَ بِجَوَابِهِ (وَالثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِداً ، وَكُلُّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ اَلْأَكَابِرِ يُحْمَلُ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ ، وَكَانَ سُؤَالُهُ لِلِاسْتِفَادَةِ ، لَكِنْ يَكُونُ بَلِيداً لَا يُدْرِكُ اَلْحَقَائِقَ ، فَلَا يَنْبَغِي اَلِاشْتِغَالُ

---

(١) فى الأصل : فى زرع علمه (٢) فى الاصل : العلوم (٣) فى الاصل : للعالم .

بِجَوَابِهِ أَيْضاً كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ ». وَأَمَّا الْمَرَضُ الَّذِي يَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا عَاقِلًا فَهِماً، لَا يَكُونُ مَغْلُوبَ (١) الْحَسَدِ وَالْغَضَبِ وَحُبِّ الشَّهْوَةِ وَالْجَاهِ وَالْمَالِ. وَيَكُونَ طَالِبَ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ وَاعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدٍ وَتَعَنُّتٍ وَامْتِحَانٍ. وَهَذَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَيَجُوزُ أَنْ تَشْتَغِلَ بِجَوَابِ سُؤَالِهِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ إِجَابَتُهُ.

(وَالثَّانِي) مِمَّا تَدَعُ وَهُوَ أَنْ تَحْذَرَ مِنْ أَنْ تَكُونَ وَاعِظًا وَمُذَكِّرًا لِأَنَّ فِيهِ آفَةً كَثِيرَةً (٢) إِلَّا أَنْ تَعْمَلَ بِمَا تَقُولُ أَوَّلًا ثُمَّ تَعِظَ بِهِ النَّاسَ. فَتَفَكَّرْ فِيمَا قِيلَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ « يَا ابْنَ مَرْيَمَ عِظْ نَفْسَكَ فَإِنِ اتَّعَظَتْ فَعِظِ النَّاسَ وَإِلَّا فَاسْتَحِ مِنْ رَبِّكَ (٣) ». وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِهَذَا الْعَمَلِ فَاحْتَرِزْ عَنْ خَصْلَتَيْنِ. (الْأُولَى) عَنِ التَّكَلُّفِ فِي

(١) أى مقهورا ومستذلا (٢) آفته الرياء والتباهى والعجب والتمدح
(٣) ولهذا قيل أحسن العظات مابدأت به نفسك وأجريت به أمرك

ٱلْكَلَامِ بِالْعِبَارَاتِ وَالْإِشَارَاتِ وَالطَّامَاتِ [1] وَالْأَبْيَاتِ وَالْأَشْعَارِ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُبْغِضُ الْمُتَكَلِّفِينَ، وَالْمُتَكَلِّفُ الْمُتَجَاوِزُ عَنِ الْحَدِّ يَدُلُّ عَلَى خَرَابِ الْبَاطِنِ وَغَفْلَةِ الْقَلْبِ، وَمَعْنَى التَّذْكِيرِ أَنْ يَذْكُرَ الْعَبْدُ نَارَ الْآخِرَةِ وَتَقْصِيرَ نَفْسِهِ فِي خِدْمَةِ الْخَالِقِ. وَيَتَفَكَّرَ فِي عُمُرِهِ الْمَاضِي الَّذِي أَفْنَاهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَيَتَفَكَّرَ فِيمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْعَقَبَاتِ مِنْ عَدَمِ سَلَامَةِ الْإِيمَانِ فِي الْخَاتِمَةِ، وَكَيْفِيَّةِ حَالِهِ فِي قَبْضِ مَلَكِ الْمَوْتِ، وَهَلْ يَقْدِرُ عَلَى جَوَابِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ، وَيَهْتَمَّ بِحَالِهِ فِي الْقِيَامَةِ وَمَوَاقِفِهَا، وَهَلْ يَعْبُرُ عَنِ الصِّرَاطِ سَالِمًا أَمْ يَقَعُ فِي الْهَاوِيَةِ؟ وَيَسْتَمِرَّ ذِكْرُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِي قَلْبِهِ فَيُزْعِجَهُ عَنْ قَرَارِهِ. فَغَلَيَانُ هَذِهِ النِّيرَانِ، وَنَوْحَةُ هَذِهِ الْمَصَائِبِ يُسَمَّى تَذْكِيرًا، وَإِعْلَامُ الْخَلْقِ، وَإِطْلَاعُهُمْ عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَتَنْبِيهُهُمْ عَلَى تَقْصِيرِهِمْ وَتَفْرِيطِهِمْ وَتَبْصِيرُهُمْ بِعُيُوبِ أَنْفُسِهِمْ لِتَمَسَّ حَرَارَةُ هَذِهِ النِّيرَانِ أَهْلَ الْمَجْلِسِ وَتُجْزِعَهُمْ تِلْكَ

(١) الاصطلاحات الصوفية المتعارفة بينهم الخفية عن غيرهم

ٱلْمَصَائِبُ ، لِيَتَدَارَكُوا ٱلْعُمُرَ ٱلْمَاضِيَ بِقَدْرِ ٱلطَّاقَةِ وَيَتَحَسَّرُوا عَلَى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ ٱللهِ تَعَالَى . وَهَذِهِ ٱلْجُمْلَةُ عَلَى هَذَا ٱلطَّرِيقِ يُسَمَّى وَعْظًا ، كَمَا لَوْ رَأَيْتَ أَنَّ ٱلسَّيْلَ قَدْ هَجَمَ عَلَى دَارِ أَحَدٍ وَكَانَ هُوَ وَأَهْلُهُ فِيهَا فَتَقُولُ : ٱلْحَذَرَ ٱلْحَذَرَ ، فِرُّوا مِنَ ٱلسَّيْلِ ، وَهَلْ يَشْتَهِي قَلْبُكَ فِي هَذِهِ ٱلْحَالَةِ أَنْ تُخْبِرَ صَاحِبَ ٱلدَّارِ خَبَرَكَ بِتَكَلُّفِ ٱلْعِبَارَاتِ وَٱلنُّكَتِ وَٱلْإِشَارَاتِ فَلَا تَشْتَهِي ٱلْبَتَّةَ ، فَكَذَلِكَ حَالُ ٱلْوَاعِظِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَجْتَنِبَهَا .

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلثَّانِيَةُ) أَلَّا تَكُونَ هِمَّتُكَ فِي وَعْظِكَ أَنْ يَنْفُرَ ٱلْخَلْقُ فِي مَجْلِسِكَ أَوْ يُظْهِرُوا ٱلْوَجْدَ ، وَيَشُقُّوا ٱلثِّيَابَ لِيُقَالَ : نِعْمَ ٱلْمَجْلِسُ هَذَا ، لِأَنَّ كُلَّهُ مَيْلٌ لِلدُّنْيَا ، وَهُوَ يَتَوَلَّدُ مِنَ ٱلْغَفْلَةِ بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَزْمُكَ وَهِمَّتُكَ أَنْ تَدْعُوَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلدُّنْيَا إِلَى ٱلْآخِرَةِ ، وَمِنَ ٱلْمَعْصِيَةِ إِلَى ٱلطَّاعَةِ ، وَمِنَ ٱلْحِرْصِ إِلَى ٱلزُّهْدِ ، وَمِنَ ٱلْبُخْلِ إِلَى ٱلسَّخَاءِ ، وَمِنَ ٱلْغُرُورِ إِلَى ٱلتَّقْوَى ، وَتُحَبِّبَ

إِلَيْهِمُ ٱلْآخِرَةَ وَتُبَغِّضَ إِلَيْهِمُ ٱلدُّنْيَا ، وَتُعَلِّمَهُمْ عِلْمَ ٱلْعِبَادَةِ وَٱلزُّهْدِ (١) لِأَنَّ ٱلْغَالِبَ فِي طِبَاعِهِمُ ٱلزَّيْغُ عَنْ مَنْهَجِ ٱلشَّرْعِ ، وَٱلسَّعْيُ فِيمَا لَا يَرْضَى ٱللهُ تَعَالَى بِهِ ، وَٱلِاسْتِعْثَارُ (٢) بِٱلْأَخْلَاقِ ٱلرَّدِيَّةِ ، فَأَلْقِ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ وَرَوِّعْهُمْ وَحَذِّرْهُمْ عَمَّا يَسْتَقْبِلُونَ مِنَ ٱلْمَخَاوِفِ ، وَلَعَلَّ صِفَاتِ بَاطِنِهِمْ تَتَغَيَّرُ وَمُعَامَلَةَ ظَاهِرِهِمْ تَتَبَدَّلُ ، وَيَتَظَهَّرُوا ٱلْحِرْصَ وَٱلرَّغْبَةَ فِي ٱلطَّاعَةِ ، وَٱلرُّجُوعَ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ . وَهَذَا طَرِيقُ ٱلْوَعْظِ وَٱلنَّصِيحَةِ ، وَكُلُّ وَعْظٍ لَا يَكُونُ هَكَذَا فَهُوَ وَبَالٌ (٣) عَلَى مَنْ قَالَ وَسَمِعَ ، بَلْ قِيلَ : إِنَّهُ غُولٌ وَشَيْطَانٌ يَذْهَبُ بِٱلْخَلْقِ عَنِ ٱلطَّرِيقِ وَيُهْلِكُهُمْ ، فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفِرُّوا مِنْهُ لِأَنَّ مَا يُفِيدُ هَذَا ٱلْقَائِلُ مِنْ دِينِهِمْ لَا يَسْتَطِيعُ بِمِثْلِهِ ٱلشَّيْطَانُ . وَمَنْ كَانَتْ لَهُ يَدٌ وَقُدْرَةٌ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُنْزِلَهُ عَنْ مَنَابِرِ ٱلْمَوَاعِظِ ، وَيَمْنَعَهُ عَمَّا بَاشَرَ فَإِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ

(١) أى الاعراض عن الدنيا والاقبال على ماتصلح به الآخرة
(٢) الاستعثار : الزلل (٣) أى وزر واساءة ومضرة

ٱلْمُنْكَرِ (وَٱلثَّالِثُ) مِمَّا تَدَعُ أَلَّا تُخَالِطَ ٱلْأُمَرَاءَ وَٱلسَّلَاطِينَ وَلَا تَرَاهُمْ لِأَنَّ رُؤْيَتَهُمْ وَمُجَالَسَتَهُمْ وَمُخَالَطَتَهُمْ آفَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلَوِ ٱبْتُلِيتَ بِهَا دَعْ عَنْكَ مَدْحَهُمْ وَثَنَاءَهُمْ، لِأَنَّ ٱللهَ تَعَالَى يَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ ٱلْفَاسِقُ وَٱلظَّالِمُ. وَمَنْ دَعَا لِطُولِ بَقَائِهِمْ فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَى ٱللهُ فِي أَرْضِهِ (وَٱلرَّابِعُ) مِمَّا تَدَعُ أَلَّا تَقْبَلَ شَيْئًا مِنْ عَطَاءِ ٱلْأُمَرَاءِ وَهَدَايَاهُمْ، وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهَا مِنَ ٱلْحَلَالِ، لِأَنَّ ٱلطَّمَعَ مِنْهُمْ يُفْسِدُ ٱلدِّينَ، لِأَنَّهُ يَتَوَلَّدُ مِنْهُ ٱلْمُدَاهَنَةُ، وَمُرَاعَاةُ جَانِبِهِمْ وَٱلْمُوَافَقَةُ فِي ظُلْمِهِمْ. وَهَذَا كُلُّهُ فَسَادٌ فِي ٱلدِّينِ، وَأَقَلُّ مَضَرَّتِهِ أَنَّكَ إِذَا قَبِلْتَ عَطَايَاهُمْ وَٱنْتَفَعْتَ مِنْ دُنْيَاهُمْ أَحْبَبْتَهُمْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَحَدًا يُحِبُّ طُولَ عُمُرِهِ وَبَقَائِهِ بِالضَّرُورَةِ، وَفِي مَحَبَّةِ بَقَاءِ ٱلظَّالِمِ إِرَادَةٌ فِي ٱلظُّلْمِ عَلَى عِبَادِ ٱللهِ تَعَالَى، وَإِرَادَةُ خَرَابِ ٱلْعَالَمِ. فَأَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ أَضَرَّ مِنْ هَذَا لِلدِّينِ وَٱلْعَاقِبَةِ؟ وَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ يَخْدَعَكَ ٱسْتِهْوَاءُ (١) ٱلشَّيَاطِينِ، أَوْ قَوْلُ بَعْضِ ٱلنَّاسِ لَكَ بِأَنَّ

(١) أى تزيينهم له هواه

الأفضل والأولى أن تأخذ الدينار والدرهم منهم وتفرقها بين الفقراء والمساكين فإنهم ينفقون في الفسق والمعصية ، وإنفاقك على ضعفاء الناس خير من إنفاقهم ، فإن اللعين قد قطع أعناق كثير من الناس بهذه الوسوسة ، وقد ذكرناه في إحياء العلوم فاطلبه ثمة . وأما الأربعة التي ينبغي لك أن تفعلها : « الأول » أن تجعل معاملتك مع الله تعالى بحيث لو عامل معك بها عبدك ترضى بها منه ، ولا يضيق خاطرك عليه ولا تغضب ، والذي لا ترضى لنفسك من عبدك المجازي فلا ترضى أيضاً لله تعالى وهو سيدك الحقيقي « والثاني » كلما عملت بالناس اجعله كما ترضى لنفسك منهم لأنه لا يكمل إيمان عبد حتى يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه [1] « والثالث » إذا قرأت العلم أو طالعته ينبغي أن يكون علمك يصلح قلبك ، ويزكي نفسك ، كما لو علمت أن عمرك ما يبقى

(١) هذا مضمون حديث في الصحيحين من رواية أنس رضي الله عنه : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»

غَيْرَ أُسْبُوعٍ فَبِالضَّرُورَةِ لَا تَشْتَغِلُ فِيهَا بِعِلْمِ الْفِقْهِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأُصُولِ وَالْكَلَامِ وَأَمْثَالِهَا ، لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ لَاتُغْنِيكَ . بَلْ تَشْتَغِلُ بِمُرَاقَبَةِ الْقَلْبِ وَمَعْرِفَةِ صِفَاتِ النَّفْسِ ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ عَلَائِقِ الدُّنْيَا ، وَتُزَكِّي نَفْسَكَ عَنِ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ ، وَتَشْتَغِلُ بِمَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ ، وَالِاتِّصَافِ بِالْأَوْصَافِ الْحَسَنَةِ ، وَلَا يَمُرُّ عَلَى عَبْدٍ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إِلَّا وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَوْتُهُ فِيهِ .

« أَيُّهَا الْوَلَدُ » إِسْمَعْ مِنِّي كَلَامًا آخَرَ وَتَفَكَّرْ فِيهِ حَتَّى تَجِدَ خَلَاصًا : لَوْ أَنَّكَ أُخْبِرْتَ أَنَّ السُّلْطَانَ بَعْدَ أُسْبُوعٍ يَخْتَارُكَ وَزِيرًا « اعْلَمْ » أَنَّكَ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ لَا تَشْتَغِلُ إِلَّا بِإِصْلَاحِ مَاعَلِمْتَ أَنَّ نَظَرَ السُّلْطَانِ سَيَقَعُ عَلَيْهِ مِنَ الثِّيَابِ وَالْبَدَنِ وَالدَّارِ وَالْفِرَاشِ وَغَيْرِهَا، وَالْآنَ تَفَكَّرْ إِلَى مَا أَشَرْتُ بِهِ فَإِنَّكَ فَهِمٌ ، وَالْكَلَامُ الْفَرْدُ

يَكْفِي ٱلْكَيِّسَ ، قَالَ رَسُولُ ٱللهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ « إِنَّ ٱللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَا إِلَى أَعْمَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَنِيَّاتِكُمْ » وَإِنْ أَرَدْتَ عِلْمَ أَحْوَالِ ٱلْقَلْبِ فَانْظُرْ إِلَى ٱلْإِحْيَاءِ وَغَيْرِهِ مِنْ مُصَنَّفَاتِي . وَهَذَا ٱلْعِلْمُ فَرْضُ عَيْنٍ (١) وَغَيْرُهُ فَرْضُ كِفَايَةٍ إِلَّا مِقْدَارَ مَا يُؤَدَّى بِهِ فَرَائِضُ ٱللهِ تَعَالَى ، وَهُوَ يُوَفِّقُكَ حَتَّى تُحَصِّلَهُ « وَٱلرَّابِعُ » أَلَّا تَجْمَعَ مِنَ ٱلدُّنْيَا أَكْثَرَ مِنْ كِفَايَةِ سَنَةٍ كَمَا كَانَ رَسُولُ ٱللهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُعِدُّ ذَلِكَ لِبَعْضِ حُجُرَاتِهِ وَقَالَ : « ٱللَّهُمَّ ٱجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا » وَلَمْ يَكُنْ يُعِدُّ ذَلِكَ لِكُلِّ حُجُرَاتِهِ بَلْ كَانَ يُعِدُّهُ لِمَنْ عَلِمَ أَنَّ فِي قَلْبِهَا ضَعْفًا . وَأَمَّا مَنْ كَانَتْ صَاحِبَةَ يَقِينٍ مَا كَانَ يُعِدُّ لَهَا أَكْثَرَ مِنْ قُوتِ يَوْمٍ وَنِصْفٍ .

« أَيُّهَا ٱلْوَلَدُ » إِنِّي كَتَبْتُ فِي هَذَا ٱلْفَصْلِ مُلْتَمَسَاتِكَ

(١) أى على كل إنسان حتم أن يعلمه بخلاف فرض الكفاية الذى يكفى أن يقوم به البعض عن الكل

فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْمَلَ بِهَا وَلَا تَنْسَانِي فِيهِ مِنْ أَنْ تَذْكُرَنِي فِي صَالِحِ دُعَائِكَ . وَأَمَّا الدُّعَاءُ الَّذِي سَأَلْتَ مِنِّي فَاطْلُبْهُ مِنْ دَعَوَاتِ الصِّحَاحِ ، وَاقْرَأْ هَذَا الدُّعَاءَ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِكَ خُصُوصاً أَعْقَابَ صَلَوَاتِكَ :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ النِّعْمَةِ تَمَامَهَا ، وَمِنَ الْعِصْمَةِ (١) دَوَامَهَا ، وَمِنَ الرَّحْمَةِ شُمُولَهَا ، وَمِنَ الْعَافِيَةِ حُصُولَهَا ، وَمِنَ الْعَيْشِ أَرْغَدَهُ ، وَمِنَ الْعُمُرِ أَسْعَدَهُ ، وَمِنَ الْإِحْسَانِ أَتَمَّهُ ، وَمِنَ الْإِنْعَامِ أَعَمَّهُ ، وَمِنَ الْفَضْلِ أَعْذَبَهُ ، وَمِنَ اللُّطْفِ أَقْرَبَهُ . اللَّهُمَّ كُنْ لَنَا وَلَا تَكُنْ عَلَيْنَا . اللَّهُمَّ اخْتِمْ بِالسَّعَادَةِ آجَالَنَا ، وَحَقِّقْ بِالزِّيَادَةِ آمَالَنَا ، وَاقْرِنْ بِالْعَافِيَةِ غُدُوَّنَا وَآصَالَنَا ، وَاجْعَلْ إِلَى رَحْمَتِكَ مَصِيرَنَا وَمَآلَنَا ، وَاصْبُبْ سِجَالَ (٢) عَفْوِكَ عَلَى ذُنُوبِنَا ، وَمُنَّ عَلَيْنَا بِإِصْلَاحِ عُيُوبِنَا ، وَاجْعَلِ التَّقْوَى زَادَنَا (٣) ، وَفِي

(١) أى الوقاية والحفظ من كل سوء ومكروه (٢) السجل : الدلو العظيمية إذا كان فيها ماء قل أو كثر - مذكر . كناية عن محو ذنوبهم والعفو عنهم (٣) أى ذخرنا فى سفرنا

دِينِكَ اجْتِهَادَنَا [1] ، وَعَلَيْكَ تَوَكُّلَنَا وَاعْتِمَادَنَا . اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلَى نَهْجِ الاسْتِقَامَةِ ، وَأَعِذْنَا فِي الدُّنْيَا مِنْ مُوجِبَاتِ النَّدَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَخَفِّفْ عَنَّا ثِقْلَ الْأَوْزَارِ ، وَارْزُقْنَا عِيشَةَ الْأَبْرَارِ ، وَاكْفِنَا وَاصْرِفْ عَنَّا شَرَّ الْأَشْرَارِ ، وَاعْتِقْ رِقَابَنَا وَرِقَابَ آبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَإِخْوَانِنَا وَأَخَوَاتِنَا مِنَ النَّارِ ، بِرَحْمَتِكَ يَاعَزِيزُ يَاغَفَّارُ يَا كَرِيمُ يَاسَتَّارُ يَاعَلِيمُ يَاجَبَّارُ يَاأَللهُ يَاأَللهُ يَاأَللهُ بِرَحْمَتِكَ يَاأَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، وَيَاأَوَّلَ الْأَوَّلِينَ ، وَيَا آخِرَ الْآخِرِينَ ، وَيَاذَا الْقُوَّةِ الْمَتِينِ ، وَيَارَاحِمَ الْمَسَاكِينِ ، وَيَاأَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

---

(١) يعنى اجعل سعينا وجدنا ومجاهدتنا فى طاعتك ورضائك

« ٱلْأَدَبُ فِى ٱلدِّينِ »

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِى خَلَقَنَا ، فَأَكْمَلَ خَلْقَنَا ، وَأَدَّبَنَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَنَا ، وَشَرَّفَنَا بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَحْسَنَ تَشْرِيفَنَا ، ثُمَّ أَقُولُ وَبِٱللهِ ٱلتَّوْفِيقُ : إِنَّ أَكْمَلَ ٱلْأَخْلَاقِ وَأَعْلَاهَا ، وَأَحْسَنَ ٱلْأَفْعَالِ وَأَبْهَاهَا ، هُوَ ٱلْأَدَبُ فِى ٱلدِّينِ وَمَا يَقْتَدِى بِهِ ٱلْمُؤْمِنُ مِنْ فِعْلِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ . وَأَخْلَاقِ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلْمُرْسَلِينَ ، وَقَدْ أَدَّبَنَا ٱللهُ تَعَالَى فِى ٱلْقُرْآنِ بِمَا أَرَانَا فِيهِ مِنَ ٱلْبَيَانِ . وَأَدَّبَنَا بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِى ٱلسُّنَّةِ بِمَا أَوْجَبَ عَلَيْنَا . فَلَهُ ٱلْمِنَّةُ ، وَكَذَلِكَ بِٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَدَبِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَوْجَبَ عَلَيْنَا مِنَ ٱلِاقْتِدَاءِ بِهِمْ . وَذَلِكَ جَلِيلٌ[1] خَطَرُهُ

(١) جليل : أى عظيم قدره

كَثِيرٌ عَدَدُهُ . نَذْكُرُ بَعْضَهُ لِئَلَّا يَطُولَ شَرْحُهُ فَيَعْسُرَ فَهْمُهُ .

***

الآداب كما يراها الغزالى

« أَدَبُ ٱلْمُؤْمِنِ بَيْنَ يَدَيِ ٱللهِ تَعَالَى » إِطْرَاقُ ٱلطَّرْفِ ، وَجَمْعُ ٱلْهَمِّ وَدَوَامُ ٱلصَّمْتِ ، وَسُكُونُ ٱلْجَوَارِحِ وَمُبَادَرَةُ ٱمْتِثَالِ ٱلْأَوَامِرِ ، وَٱجْتِنَابِ ٱلْمَنَاهِي ، وَقِلَّةُ ٱلِاعْتِرَاضِ ، وَحُسْنُ ٱلْخُلُقِ ، وَدَوَامُ ٱلذِّكْرِ ، وَتَنْزِيهُ ٱلْفِكْرِ ، وَتَقْيِيدُ ٱلْجَوَارِحِ ، وَسُكُونُ ٱلْقَلْبِ ، وَتَعْظِيمُ ٱلرَّبِّ ، وَقِلَّةُ ٱلْغَضَبِ ، وَكِتْمَانُ ٱلْحُبِّ ، وَدَوَامُ ٱلْإِخْلَاصِ وَتَرْكُ ٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلْأَشْخَاصِ ، وَإِيثَارُ ٱلْحَقِّ ، وَٱلْيَأْسُ مِنْ جَمِيعِ ٱلْخَلْقِ ، وَإِخْلَاصُ ٱلْعَمَلِ ، وَصِدْقُ ٱلْقَوْلِ ، وَتَنْزِيهُ ٱلِاطِّلَاعِ ، وَإِحْيَاءُ ٱلْقُرُبَاتِ [1] ، وَقِلَّةُ ٱلْإِشَارَةِ ، وَكِتْمَانُ ٱلْفَائِدَةِ ، وَٱلْغَيْرَةُ عَلَى تَبْدِيلِ ٱلِاسْمِ ، وَٱلْغَضَبُ عِنْدَ ٱنْتِهَاكِ ٱلْمَحَارِمِ ، وَدَوَامُ ٱلْهَيْبَةِ ، وَٱسْتِشْعَارُ ٱلْحَيَاءِ

(١) هى مايتقرب به العبد من ربه

وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْخَوْفِ ، وَٱلسُّكُونُ ثِقَةً بِالضَّمَانِ ، وَٱلتَّوَكُّلُ مَعْرِفَةً بِحُسْنِ ٱلِاخْتِيَارِ ، وَإِسْبَاغُ [1] ٱلْوُضُوءِ عَلَى ٱلْمَكَارِهِ وَٱنْتِظَارُ ٱلصَّلَاةِ بَعْدَ ٱلصَّلَاةِ ، وَٱرْتِعَاشُ ٱلْقَلْبِ خَوْفَ فَوْتِ ٱلْفَرْضِ ، وَدَوَامُ ٱلتَّوْبَةِ خَوْفَ ٱلْإِصْرَارِ ، وَدَوَامُ ٱلتَّصْدِيقِ بِمَا غَابَ ، وَوَجَلُ ٱلْقَلْبِ عِنْدَ ٱلذِّكْرِ ، وَزِيَادَةُ ٱلْأَنْوَارِ عِنْدَ ٱلْوَعْظِ ، وَٱسْتِشْعَارُ ٱلتَّوَكُّلِ عِنْدَ ٱلْفَاقَةِ ، وَإِخْرَاجُ ٱلصَّدَقَةِ مِنْ غَيْرِ بُخْلٍ مَعَ ٱلْإِمْكَانِ .

* * *

آداب العالم

« آدَابُ ٱلْعَالِمِ » لُزُومُ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعَمَلِ بِهِ ، وَدَوَامُ ٱلْوَقَارِ ، وَمَنْعُ ٱلتَّكَبُّرِ ، وَتَرْكُ ٱلدُّعَاءِ بِهِ ، وَٱلرِّفْقُ بِٱلْمُتَعَلِّمِ وَٱلتَّأَنِّي بِٱلْمُتَعَجْرِفِ [3] ، وَإِصْلَاحُ ٱلْمَسْأَلَةِ لِلْبَلِيدِ ، وَتَرْكُ ٱلْأَنَفَةِ [4] مِنْ قَوْلِ لَا أَدْرِي ، وَتَكُونُ هِمَّتُهُ عِنْدَ ٱلسُّؤَالِ خَلَاصُهُ مِنَ ٱلسَّائِلِ لَا خَلَاصُ ٱلسَّائِلِ

(١) إسباغ الوضوء : تمامه ، وسبغت النعمة ، اتسعت (٢) المتعجرف : المتكبر الذى لا يهاب شيئا ، الجافى فى الكلام (٣) الأنفة هى الكراهة وعلو النفس

وَتَرْكُ ٱلتَّكَلُّفِ ، وَٱسْتِمَاعُ ٱلْحُجَّةِ وَٱلْقَبُولُ لَهَا وَإِنْ كَانَتْ مِنَ ٱلْخَصْمِ .

***

آداب المتعلم مع العالم

« آدابُ ٱلْمُتَعَلِّمِ مَعَ ٱلْعَالِمِ » يَبْدَؤُهُ بِالسَّلَامِ وَيُقِلُّ بَيْنَ يَدَيْهِ ٱلْكَلَامَ وَيَقُومُ لَهُ إِذَا قَامَ ، وَلَا يَقُولُ لَهُ قَالَ فُلَانٌ خِلَافَ مَاقُلْتَ ، وَلَا يَسْأَلُ جَلِيسَهُ فِي مَجْلِسِهِ ، وَلَا يَبْتَسِمُ عِنْدَ مُخَاطَبَتِهِ ، وَلَا يُشِيرُ عَلَيْهِ بِخِلَافِ رَأْيِهِ ، وَلَا يَأْخُذُ بِثَوْبِهِ إِذَا قَامَ ، وَلَا يَسْتَفْهِمُهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِي طَرِيقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَلَا يُكْثِرُ عَلَيْهِ عِنْدَ مَلَلِهِ .

***

آداب المقرىء

« آدَابُ ٱلْمُقْرِئِ » يَجْلِسُ جِلْسَةَ ٱلْخَشْيَةِ ، وَٱسْتِمَاعُ ٱلْأَمْرِ ، وَإِنْصَاتُ ٱلْفَهِمِ ، وَٱنْتِظَارُ ٱلرَّحْمَةِ ، وَٱلْإِصْغَاءُ إِلَى ٱلْمُتَشَابِهِ ، وَإِشَارَةُ ٱلْوَقْفِ ، وَتَعْرِيفُ ٱلِابْتِدَاءِ ، وَبَيَانُ ٱلْهَمْزَةِ ، وَتَعْلِيمُ ٱلْعَدَدِ ، وَتَجْوِيدُ ٱلْحَرْفِ وَفَائِدَةُ ٱلْخَاتِمِ

وَالرِّفْقُ بِالْبَادِئِ ، وَالسُّؤَالُ عَنِ الْمُتَعَلِّمِ إِذَا غَابَ ، وَالْحَثُّ لَهُ إِذَا حَضَرَ ، وَتَرْكُ الْحَدِيثِ ، وَيَبْدَأُ بِالْمُتَلَقِّنِ يُلَقِّنُهُ مَا يُصَلِّي لِنَفْسِهِ أَوْ إِذَا احْتَاجَ إِلَى أَنْ يَؤُمَّ غَيْرَهُ .

***

آداب القارىء

« آدَابُ الْقَارِئِ » يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْهِ جِلْسَةَ التَّوَاضُعِ وَجَمْعُ الْفَهْمِ ، وَخَفْضُ الرَّأْسِ ، وَالِاسْتِئْذَانُ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ ، ثُمَّ الِاسْتِعَاذَةُ وَالتَّسْمِيَةُ وَالدُّعَاءُ عِنْدَ الْفَرَاغِ .

***

آداب معلم الصبيان

« آدَابُ مُعَلِّمِ الصِّبْيَانِ » يَبْدَأُ بِصَلَاحِ نَفْسِهِ فَإِنَّ أَعْيُنَهُمْ إِلَيْهِ نَاظِرَةٌ ، وَآذَانَهُمْ إِلَيْهِ مُصْغِيَةٌ . فَمَا اسْتَحْسَنَهُ فَهُوَ عِنْدَهُمُ الْحَسَنُ ، وَمَا اسْتَقْبَحَهُ فَهُوَ عِنْدَهُمُ الْقَبِيحُ . وَيَلْزَمُ الصَّمْتَ فِي جِلْسَتِهِ وَالتَّزَرَ[1] فِي نَظَرِهِ ، وَيَكُونُ مُعْظَمُ تَأْدِيبِهِ بِالرَّهْبَةِ ، وَلَا يُكْثِرُ الضَّرْبَ وَالتَّعْذِيبَ وَلَا يُحَادِثُهُمْ فَيَجْتَرِئُونَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَدَعُهُمْ يَتَحَدَّثُونَ

(١) أى النظر بمؤخر العين شأن الغاضب

فَيَنْبَسِطُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَا يُمَازِحُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَحَدًا ، وَيَتَنَزَّهُ (١) عَمَّا يُعْطُونَهُ ، وَيَتَوَرَّعُ (٢) عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ يَطْرَحُونَهُ ، وَيَمْنَعُهُمْ مِنَ التَّحْرِيشِ (٣) ، وَيَكُفُّهُمْ مِنَ التَّفْتِيشِ ، وَيُقَبِّحُ عِنْدَهُمُ الْغِيبَةَ ، وَيُوَحِّشُ عِنْدَهُمُ الْكَذِبَ وَالنَّمِيمَةَ ، وَلَا يَسْأَلُهُمْ عَنْ أَمْرِ بُيُوتِهِمْ فَيَسْتَثْقِلُوهُ ، وَلَا يُكْثِرُ الطَّلَبَ مِنْ أَهْلِهِمْ فَيَمَلُّوهُ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الطَّهَارَةَ وَالصَّلَاةَ ، وَيُعَرِّفُهُمْ مَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ النَّجَاسَةِ .

***

آداب المحدث

« آدَابُ الْمُحَدِّثِ » يَقْصِدُ الصِّدْقَ ، وَيَجْتَنِبُ الْكَذِبَ ، وَيُحَدِّثُ بِالْمَشْهُورِ ، وَيَرْوِي عَنِ الثِّقَاتِ ، وَيَتْرُكُ الْمَنَاكِيرَ ، وَلَا يَذْكُرُ مَا جَرَى بَيْنَ السَّلَفِ ، وَيَعْرِفُ الزَّمَانَ ، وَيَتَحَفَّظُ مِنَ الزَّلَلِ وَالتَّصْحِيفِ وَاللَّحْنِ وَالتَّحْرِيفِ ، وَيَدَعُ الْمُدَاعَبَةَ ، وَيُقِلُّ الْمُشَاغَبَةَ وَيَشْكُرُ النِّعْمَةَ إِذْ جُعِلَ فِي مَقَامِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

(١) أى يترفع ويأبى (٢) أى يمتنع عفة (٣) أى الاغراء بين الناس

وَسَلَّمَ ، وَيَلْزَمُ ٱلتَّوَاضُعَ ، وَيَكُونُ مُعْظَمُ مَا يُحَدِّثُ بِهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنْ فَرَائِضِهِمْ وَسُنَنِهِمْ وَآدَابِهِمْ مِنْ مَعَانِي كِتَابِ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلَا يَحْمِلُ عِلْمَهُ إِلَى ٱلْوُزَرَاءِ ، وَلَا يَغْشَى أَبْوَابَ ٱلْأُمَرَاءِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُزْرِي بِالْعُلَمَاءِ ، وَيَذْهَبُ بَهَاءَ عِلْمِهِمْ إِذَا حَمَلُوهُ إِلَى مُلُوكِهِمْ وَمَيَاسِيرِهِمْ (١) ، وَلَا يُحَدِّثُ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ فِي أَصْلِهِ ، وَلَا يَقْرَأُ عَلَيْهِمْ مَا لَا يَرَاهُ فِي كِتَابِهِ ، وَلَا يَتَحَدَّثُ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ ، وَيَحْذَرُ أَنْ يُدْخِلَ حَدِيثًا فِي حَدِيثٍ .

***

آداب طالب الحديث

« آدَابُ طَالِبِ ٱلْحَدِيثِ » يَكْتُبُ ٱلْمَشْهُورَ ، وَلَا يَكْتُبُ ٱلْغَرِيبَ ، وَلَا يَكْتُبُ ٱلْمَنَاكِيرَ ، وَيَكْتُبُ عَنِ ٱلثِّقَاتِ ، وَلَا تَغْلِبُهُ شُهْرَةُ ٱلْحَدِيثِ عَلَى قَرِينِهِ ، وَلَا يَشْغَلُهُ طَلَبُهُ عَنْ مُرُوءَتِهِ وَصَلَاتِهِ ، يَجْتَنِبُ ٱلْغِيبَةَ وَيُنْصِتُ لِلسَّمَاعِ ، وَيَلْزَمُ ٱلصَّمْتَ بَيْنَ يَدَيْ مُحَدِّثِهِ ،

(١) مياسيرهم : جمع ميسور : مايسر وهو مصدر على مفعول بمعنى اليسر كالمعقول . يقال : خذ ميسوره ودع معسوره

وَيُكْثِرُ ٱلتَّلَفُّتَ عِنْدَ إِصْلاحِ نُسْخَتِهِ ، وَلَا يَقُولُ سَمِعْتُ وَهُوَ مَا سَمِعَ ، وَلَا يَنْشُرُهُ لِطَلَبِ ٱلْعُلُوِّ فَيَكْتُبُ مِنْ غَيْرِ ثِقَةٍ ، وَيَلْزَمُ أَهْلَ ٱلْمَعْرِفَةِ بِالْحَدِيثِ مِنْ أَهْلِ ٱلدِّينِ ، وَلَا يَكْتُبُ عَمَّنْ لَا يَعْرِفُ ٱلْحَدِيثَ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ .

***

آداب الكاتب

« آدابُ ٱلْكَاتِبِ » حُسْنُ ٱلْخَطِّ ، وَجَوْدَةُ ٱلْبَرْيِ وَإِعْرَابُ ٱللَّفْظِ ، وَمَعْرِفَةُ ٱلْحِسَابِ وَسَدَادُ ٱلرَّأْيِ ، وَحُسْنُ ٱللِّبَاسِ ، وَطِيبُ ٱلرَّائِحَةِ ، وَٱلْمَعْرِفَةُ بِأَخْبَارِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ ٱلْوُزَرَاءِ ٱلْمُتَصَرِّفِينَ ، وَٱلتَّخَوُّفُ مِنَ ٱلْمُصَادَرَاتِ ، وَٱلْعِلْمُ بِأَمْرِ ٱلْخَرَاجِ ، وَٱلْمُسَامَحَةُ وَٱلْخِبْرَةُ فِي ٱلسَّوَادَاتِ (١) وَتَرْكُ ٱلِانْخِرَامِ (٢) ، وَٱلتَّنَزُّهُ عَنِ ٱلْحَرَامِ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْمُرُوءَةِ ، وَحُسْنُ ٱلْعِشْرَةِ ، وَٱلتَّحَفُّظُ عَنِ ٱلذِّلَّةِ ، وَتَرْكُ ٱلرَّفَثِ (٣) فِي ٱلْمَجَالِسِ ، وَنَفْيُ ٱلْمُدَاعَبَةِ وَٱلْمُحَادَثَةِ وَٱلْمُدَارَاةِ لِلْحَاشِيَةِ .

---

(١) السوادات : القرى والريف حول البلد (٢) الانخرام : الركوب بالظلم والحمق (٣) الفحش فى القول .

***

« آدَابُ ٱلْوَاعِظِ » تَرْكُ ٱلتَّكَبُّرِ ، وَدَوَامُ ٱلْحَيَاءِ مِنْ سَيِّدِهِ [1] وَإِظْهَارُ ٱلْفَاقَةِ إِلَى خَالِقِهِ ، وَشَهْوَةُ ٱلْمَنْفَعَةِ لِمُسْتَمِعِهِ ، وَٱلْإِزْرَاءُ [2] عَلَى نَفْسِهِ لِمَعْرِفَةِ عَيْبِهِ ، وَٱلنَّظَرُ إِلَى ٱلْمُسْتَمِعِينَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ ٱلسَّلَامَةِ ، وَحُسْنُ ٱلظَّنِّ بِهِمْ بِبَاطِنِ ٱلدِّيَانَةِ ، وَٱلْإِيْئَاسُ مِنْهُمْ طَلَبًا لِلصِّيَانَةِ ، وَٱلرِّفْقُ بِالتَّأْدِيبِ ، وَٱلْعَطْفُ عَلَى ٱلْمُبْتَدِئِ ، وَٱعْتِقَادُ فِعْلِ مَا يَقُولُ لِيَنْتَفِعَ ٱلنَّاسُ بِمَا يَقُولُ . آداب الواعظ

***

« آدَابُ ٱلْمُسْتَمِعِ » إِظْهَارُ ٱلْخُشُوعِ ، وَدَوَامُ ٱلْخُضُوعِ وَسَلَامَةُ ٱلصَّدْرِ ، وَحُسْنُ ٱلظَّنِّ ، وَٱعْتِقَادُ ٱلْقَوْلِ ، وَدَوَامُ ٱلسُّكُوتِ ، وَقِلَّةُ ٱلتَّقَلُّبِ ، وَجَمْعُ ٱلْهَمِّ ، وَتَرْكُ ٱلتُّهَمَةِ . آداب المستمع

***

« آدَابُ ٱلنَّاسِكِ » يَكُونُ وَقْتُهُ مَعْلُومًا ، وَوِرْدُهُ آداب الناسك

(١) أى خالقه سبحانه وتعالى (٢) أى الاستخفاف بها

مَفْهُومًا ، و كَلَامُهُ مَقْسُومًا ، وَدَمْعُهُ مَسْجُومًا [١] . دَائِمًا خُشُوعُهُ ، لَازِمًا خُضُوعُهُ ، غَاضًّا لِطَرْفِهِ ، عَافًّا لِقَلْبِهِ ، مُفَكِّرًا فِي دِينِهِ ، مُرَاقِبًا لِوَقْتِهِ ، مُدَاوِمًا لِصَوْمِهِ ، سَاهِرًا فِي لَيْلِهِ ، مُتَوَرِّعًا فِي مَسْكَنِهِ ، مُتَقَلِّلًا فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ ، مُتَوَقِّعًا لِنُزُولِ أَجَلِهِ ، مُجَانِبًا لِقُرَنَائِهِ ، تَارِكًا لِشَهَوَاتِهِ ، مُحَافِظًا عَلَى صَلَوَاتِهِ ، عَالِمًا بِزِيَادَةِ حَالِهِ وَنُقْصَانِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى عِلْمِ غَيْرِهِ مَعَ عِلْمِهِ بِحَالِهِ .

***

آداب اعتزال الناس

« آدَابُ اعْتِزَالِ النَّاسِ » يَكُونُ فَقِيهًا فِي دِينِهِ ، عَارِفًا بِأَمْرِ صَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ وَحَجِّهِ ، يَعْتَقِدُ فِي اعْتِزَالِهِمْ دَفْعَ شَرِّهِ عَنْهُمْ ، وَيَحْضُرُ الْجُمَعَ وَالْجَمَاعَاتِ ، وَيَشْهَدُ الْجَنَائِزَ وَيَعُودُ الْمَرْضَى ، وَلَا يَخُوضُ فِي حَدِيثِهِمْ وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا يُفْسِدُ قَلْبَهُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ ، وَلَا يُطْمِعُ نَفْسَهُ فِي نَائِلِهِمْ [٢] حَتَّى لَا تَكُونَ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى جِيرَانِهِ ،

(١) أى سائلا منحدرا (٢) نائلهم : عطائهم

تَكُونُ أَوْقَاتُهُ ثَلَاثَةٍ : إِمَّا أَنْ يُصَلِّيَ وَيَدْرُسَ فَيَغْنَمَ ، أَوْ يَنْظُرَ فِي كُتُبِهِ فَيَتَعَلَّمَ ، أَوْ يَنَامَ فَيَسْلَمَ ، يُدْمِنُ الذِّكْرَ وَيُكْثِرُ الشُّكْرَ ، حَتَّى يَتِمَّ لَهُ الْأَمْرُ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ يَتَحَدَّثُ مَعَهُمْ ، وَيَجْتَهِدُ فِي خَلْوَتِهِ حَتَّى يَرَى مِيزَانَ عُزْلَتِهِ .

***

آداب الصوفي

« آدَابُ الصُّوفِيِّ » قِلَّةُ الْإِشَارَةِ ، وَتَرْكُ الشَّطْحِ فِي الْعِبَارَةِ ، وَالتَّمَسُّكُ بِعِلْمِ الشَّرِيعَةِ ، وَدَوَامُ الْكَدِّ ، وَاسْتِعْمَالُ الْجِدِّ ، وَالِاسْتِيحَاشُ (١) مِنَ النَّاسِ ، وَتَرْكُ الشُّهْرَةِ فِي اللِّبَاسِ ، وَإِظْهَارُ التَّجَمُّلِ ، وَاسْتِشْعَارُ التَّوَكُّلِ وَاخْتِيَارُ الْفَقْرِ ، وَدَوَامُ الذِّكْرِ ، وَكِتْمَانُ الْمَحَبَّةِ ، وَحُسْنُ الْعِشْرَةِ فِي الصُّحْبَةِ ، وَالْغَضُّ عَنِ الْمُرْدَانِ (٢) وَتَرْكُ مُؤَاخَاةِ النِّسْوَانِ ، وَدَوَامُ دَرْسِ الْقُرْآنِ .

---

(١) أى استشعار الوحشة منهم وترك مخالطتهم (٢) جمع أمرد وهو الشاب طر شاربه ولم تنبت لحيته

***

آداب الشريف

« آدَابُ ٱلشَّرِيفِ » يَصُونُ شَرَفَهُ وَلَا يَأْكُلُ بِنَسَبِهِ وَلَا يَتَعَدَّى بِحَسَبِهِ ، هِمَّتُهُ ٱلتَّوَاضُعُ لِرَبِّهِ وَٱلْخَوْفُ مِنْ سَيِّدِهِ ، وَيَأْخُذُ بِالْفَضْلِ عَلَى مَنْ دُونَهُ ، وَلَا يُنَاوِئُ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ ، يَعْرِفُ ٱلْفَضْلَ لِأَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَإِنْ كَانَ مِثْلَهُمْ فِي ٱلْعِلْمِ أَوْ أَعْلَمَ ، يُلَازِمُ أَهْلَ ٱلدِّينِ مِنْ أَهْلِ ٱلْفِقْهِ وَٱلْقُرْآنِ ، وَيُهَذِّبُ أَخْلَاقَهُ ، وَيَتَحَفَّظُ فِي أَلْفَاظِهِ عِنْدَ غَضَبِهِ وَخِطَابِهِ ، يُكْرِمُ جُلَسَاءَهُ ، وَيُوَاصِلُ إِخْوَانَهُ ، وَيَصُونُ أَقَارِبَهُ ، وَيُعِينُ جِيرَانَهُ ، وَيُزَيِّنُ بِنَفْسِهِ أَخْدَانَهُ .

***

اداب النوم

« آدَابُ ٱلنَّوْمِ » يَتَطَهَّرُ قَبْلَ ٱلنَّوْمِ ، وَيَنَامُ عَلَى يَمِينِهِ ، وَيَذْكُرُ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَأْخُذَهُ ٱلنَّوْمُ ، وَيَدْعُو إِذَا ٱسْتَيْقَظَ ، وَيَحْمَدُ ٱللهَ تَعَالَى .

***

آداب التهجد

« آدابُ ٱلتَّهَجُّدِ » تَقْلِيلُ ٱلْغِذَاءِ ، وَنُقْصَانُ ٱلْمَاءِ ، وَإِصْلَاحُ ٱلنَّهَارِ بِاجْتِنَابِ ٱلْغِيبَةِ [١] وَٱلْكَذِبِ وَٱللَّغْوِ ، وَتَرْكُ ٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلْمُحَرَّمَاتِ ، وَٱلْقِيَامُ مِنَ ٱلنَّوْمِ بِفَزَعٍ وَخَوْفٍ ، وَإِسْبَاغُ [٢] ٱلْوُضُوءِ ، وَٱلنَّظَرُ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَوَاتِ ، وَٱلدُّعَاءُ وَٱلْحُضُورُ [٣] فِي ٱلصَّلَاةِ لِفَهْمِ ٱلتِّلَاوَةِ .

***

آداب الخلاء

« آدَابُ ٱلْخَلَاءِ » ٱلتَّسْمِيَةُ ثُمَّ ٱلِاسْتِعَاذَةُ قَبْلَ ٱلدُّخُولِ وَكَشْفُ ٱلثَّوْبِ بِرِفْقٍ بَعْدَ قُرْبِهِ مِنَ ٱلْأَرْضِ ، وَمَسْحُ ٱلْيَدِ بِالتُّرَابِ بَعْدَ ٱلِاسْتِنْجَاءِ مَعَ ٱلْغَسْلِ ، وَٱلِاسْتِتَارُ قَبْلَ ٱلْخُرُوجِ ، وَٱلْحَمْدُ وَٱلشُّكْرُ بَعْدَ ٱلْخُرُوجِ .

***

آداب الحمام

« آدَابُ ٱلْحَمَّامِ » سَتْرُ ٱلْعَوْرَةِ ، وَغَضُّ ٱلْبَصَرِ

---

(١) هى ذكر غيرك بما يكره (٢) أى اتمامه واكماله (٣) أى اتمام التوجه الى الله والانصراف عن كل شاغل

عَنِ ٱلْعَوْرَاتِ ، وَطَلَبُ ٱلْخَلْوَةِ ، وَتَرْكُ ٱلتَّكَلُّمِ ، وَقِلَّةُ ٱلتَّلَفُّتِ وَمَنْعُ ٱلسَّلَامِ ، وَقِلَّةُ ٱلْجُلُوسِ ، وَغُسْلُ ٱلْجَنَابَةِ مِنْ قَبْلِ ٱلدُّخُولِ ، وَغَسْلُ ٱلْقَدَمَيْنِ إِذَا خَرَجَ بِٱلْمَاءِ ٱلْبَارِدِ فَإِنَّهُ يُذْهِبُ ٱلصُّدَاعَ .

***

آداب الوضوء

« آدَابُ ٱلْوُضُوءِ » ٱلسِّوَاكُ وَدَوَامُ ٱلذِّكْرِ مَعَ ٱلْغَسْلِ ، وَٱسْتِشْعَارُ ٱلْهَيْبَةِ مِمَّنْ يَقْصِدُ ، وَٱلتَّوْبَةُ مِمَّا كَانَ وَٱلسُّكُوتُ بَعْدَ ٱلطَّهَارَةِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي ٱلصَّلَاةِ ، وَٱلطَّهَارَةُ فِي إِثْرِ ٱلطَّهَارَةِ ، وَأَخْذُ (١) ٱلشَّارِبِ وَنَتْفُ ٱلْإِبِطِ وَحَلْقُ ٱلْعَانَةِ وَتَقْلِيمُ ٱلْأَظَافِرِ وَٱلِاخْتِتَانُ . وَغَسْلُ ٱلْبَرَاجِمِ (٢) وَتَعَاهُدُ ٱلْأَنْفِ وَنَظَافَةُ ٱلثَّوْبِ وَٱلْبَدَنِ .

***

اداب دخول المسجد

« آدَابُ دُخُولِ ٱلْمَسْجِدِ » يَبْدَأُ بِٱلْيُمْنَى ، وَيُزِيلُ مَا فِي نَعْلِهِ مِنَ ٱلْأَذَى ، وَيَذْكُرُ ٱسْمَ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ ،

(١) أخذ الشارب : القص منه (٢) البراجم : جمع برجمة : المفصل الظاهر أو الباطن من الاصابع

وَيُسَلِّمُ عَلَى مَنْ حَضَرَ ، فَإِنْ كَانَ خَالِياً سَلَّمَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَفْتَحَ لَهُ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ ، وَيَجْلِسُ فِي مُوَاجَهَةِ الْقِبْلَةِ ، وَيَلْزَمُ الْمُرَاقَبَةَ ، وَيُقِلُّ الْمُخَاطَبَةَ ، وَيَتْرُكُ الْمُلَاعَنَةَ ، وَلَا يَرْفَعُ فِيهِ صَوْتَهُ ، وَلَا يَشْهَرُ فِيهِ سَيْفَهُ ، وَيُمْسِكُ بِنِصَالِ [1] نَبْلِهِ ، وَلَا يَصْنَعُ صَنْعَةً ، وَلَا يَنْشُدُ ضَالَّةً ، وَلَا يُبَايِعُ وَلَا يُشَارِي وَلَا يُمَانِعُ ، فَإِذَا انْصَرَفَ بَدَأَ بِالْيُسْرَى ، وَسَأَلَ اللهَ تَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ مَا يُعْطِي .

***

آداب الاعتكاف

« آدَابُ الِاعْتِكَافِ » دَوَامُ الذِّكْرِ وَجَمْعُ الْهَمِّ وَتَرْكُ الْحَدِيثِ ، وَلُزُومُ الْمَوْضِعِ ، وَتَرْكُ التَّنَقُّلَاتِ ، وَحَبْسُ النَّفْسِ عَنْ مُرَادِهَا ، وَمَنْعُهَا مِنْ مَحَابِّهَا ، وَجَبْرُهَا عَلَى طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

***

آداب الأذان

« آدَابُ الْأَذَانِ » يَكُونُ الْمُؤَذِّنُ عَارِفاً بِوَقْتِهِ

(١) هذه الجملة معطوفة على ماقبلها أى : ولا يمسك بنصال نبله

فِي ٱلصَّيْفِ وَفِي ٱلشِّتَاءِ، غَاضًّا لِطَرْفِهِ عِنْدَ صُعُودِ ٱلْمَنَارَةِ، وَيَلْتَفِتُ فِي أَذَانِهِ عِنْدَ ٱلنِّدَاءِ بِالصَّلَاةِ وَٱلْفَلَاحِ، وَيُرَتِّلُ ٱلْأَذَانَ وَيَنْحَدِرُ فِي ٱلْإِقَامَةِ.

***

آداب الامام

«آدَابُ ٱلْإِمَامِ» يَكُونُ عَارِفًا بِالصَّلَاةِ وَفَرَائِضِهَا وَسُنَنِهَا. فَقِيهًا بِمَا يَحْدُثُ لَهُ فِي صَلَاتِهِ وَمَا يُفْسِدُهَا، لَا يَؤُمُّ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، يَجْعَلُ مَنْ يَلِيهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَيَأْمُرُهُمْ بِتَسْوِيَةِ ٱلصُّفُوفِ، وَيُشِيرُ إِلَيْهِمْ بِلُطْفٍ وَلَا يَقْرَأُ بِطِوَالِ (١) ٱلسُّوَرِ فَيَضْجَرُوا، وَلَا يُطِيلُ ٱلتَّسْبِيحَ فَيَمَلُّوا، وَلَا يُخَفِّفُ بِحَيْثُ يَفُوتُ ٱلْكَمَالُ بَلْ يُرَتِّبُ ٱلصَّلَاةَ عَلَى قَدْرِ قُوَّةِ ضَعْفِهِمْ، وَيَتَرَفَّقُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ حَتَّى يَطْمَئِنُّوا، وَيَسْكُتُ سَكْتَةً قَبْلَ ٱلْحَمْدِ وَبَعْدَ ٱلْحَمْدِ، وَإِذَا فَرَغَ مِنَ ٱلسُّورَةِ يَنْتَظِرُ فِي

(١) طوال السور سبع: البقرة. وآل عمران. والنساء. والمائدة. والأنعام. والأعراف. ويونس أو الأنفال والبراءة جميعا لانهما سورة واحدة عند بعضهم.

رُكُوعِهِ مَنْ أَحَسَّ بِهِ مَالَمْ يُجْحِفْ بِمَنْ وَرَاءَهُ ، وَيَنْتَظِرُ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَنْ فَقَدَ مِنْ جِيرَانِهِ مَالَمْ يَخَفْ فَوْتَ وَقْتِهِ ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ التَّسْلِيمَتَيْنِ بِوَقْفَةٍ خَفِيفَةٍ ، وَإِذَا فَرَغَ نَظَرَ إِلَى سَتْرِ اللهِ عَلَيْهِ وَمِنَّتِهِ ، وَازْدَادَ شُكْرًا لِسَيِّدِهِ وَأَدَامَ لَهُ فِي كُلِّ حَالَاتِهِ الذِّكْرَ .

***

آداب الصلاة

« آدابُ الصَّلَاةِ » خَفْضُ الْجَنَاحِ ، وَلُزُومُ الْخُشُوعِ وَإِظْهَارُ التَّذَلُّلِ ، وَحُضُورُ الْقَلْبِ ، وَنَفْيُ الْوَسْوَاسِ ، وَتَرْكُ التَّقَلُّبِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَهُدُوُّ الْجَوَارِحِ وَإِطْرَاقُ الطَّرْفِ ، وَوَضْعُ الْيَمِينِ عَلَى الشِّمَالِ ، وَالتَّفَكُّرُ فِي التِّلَاوَةِ وَالتَّكْبِيرُ بِالْهَيْبَةِ ، وَالرُّكُوعُ بِالْخُضُوعِ ، وَالسُّجُودُ بِالْخُشُوعِ ، وَالتَّسْبِيحُ بِالتَّعْظِيمِ ، وَالتَّشَهُّدُ بِالْمُشَاهَدَةِ ، وَالتَّسْلِيمُ بِالْإِشْفَاقِ ، وَالِانْصِرَافُ بِالْخَوْفِ ، وَالسَّعْيُ (١) بِطَلَبِ الرِّضَا .

(١) يريد السعي إلى الصلاة عند دخول وقتها « فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع »

***

آداب القراءة

« آدَابُ ٱلْقِرَاءَةِ » مُدَاوَمَةُ ٱلْوَقَارِ وَٱلْحَيَاءِ ، وَمُجَانَبَةُ ٱلْعَبَثِ وَٱلْخَنَاءِ [١] ، وَلُزُومُ ٱلتَّوَاضُعِ وَٱلْبُكَاءِ .

***

آداب الدعاء

« آدَابُ ٱلدُّعَاءِ » خُشُوعُ ٱلْقَلْبِ ، وَجَمْعُ ٱلْهَمِّ ، وَإِظْهَارُ ٱلذُّلِّ ، وَحُسْنُ ٱلنَّظَرِ ، وَخَفْضُ ٱلْجَنَاحِ ، وَسُؤَالُ ٱلْفَاقَةِ ، وَلَجَأُ ٱلْغَرِيقِ ، وَمَعْرِفَتُهُ بِقَدْرِ نَفْسِهِ ، وَعَظِيمِ حُرْمَةِ ٱلْمَسْئُولِ ، وَبَسْطُ ٱلْكَفِّ عِنْدَ ٱلرَّغْبَةِ ، وَٱلْيَقِينُ بِالْإِجَابَةِ وَٱلْخَوْفُ مِنَ ٱلْخَيْبَةِ ، وَٱنْتِظَارُ ٱلْفَرَجِ ، وَتَرْكُ ٱلْعُدْوَانِ ، وَصِحَّةُ ٱلْقَصْدِ وَٱللَّجَإِ [٢] ، وَمَسْحُ ٱلْوَجْهِ بِبَاطِنِ ٱلْكَفِّ بَعْدَ ٱلدُّعَاءِ .

***

آداب الجمعة

« آدَابُ ٱلْجُمُعَةِ » ٱلتَّأَهُّبُ لِلْوَقْتِ قَبْلَ دُخُولِهِ ، وَٱلطَّهَارَةُ عِنْدَ حُضُورِهِ ، وَٱلْبُكُورُ ، وَغَسْلُ ٱلْجَسَدِ

---

(١) أى الفحش فى الكلام (٢) اللجأ : مصدر لجأ

وَنَظَافَةُ الثَّوْبِ، وَطِيبُ الرَّائِحَةِ، وَتَرْكُ التَّخَطِّي ، وَقِلَّةُ الْكَلَامِ ، وَدَوَامُ الذِّكْرِ ، وَالْقُرْبُ مِنَ الْإِمَامِ ، وَالْإِنْصَاتُ لِلْخَطِيبِ ، وَالِانْتِشَارُ لِطَلَبِ الْعِلْمِ ، وَالْمَشْيُ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ ، وَتَرْكُ تَشْبِيكِ الْأَصَابِعِ ، وَيُقَارِبُ[1] الْخُطَى وَدَوَامُ الْإِطْرَاقِ ، وَكَثْرَةُ الشُّكْرِ لِلرَّازِقِ ، وَدُخُولُ الْمَسْجِدِ بِالْخُشُوعِ ، وَرَدُّ السَّلَامِ ، وَتَرْكُ الصَّلَاةِ بَعْدَ جُلُوسِ الْخَطِيبِ عَلَى الْمِنْبَرِ ، وَرَدُّ السَّلَامِ عَلَيْهِ بَعْدَ إِشَارَتِهِ ، وَتَرْكُ الْكَلَامِ ، وَاعْتِقَادُ الْقَبُولِ لِلْمَوْعِظَةِ ، وَتَرْكُ الِالْتِفَاتِ عِنْدَ إِقْبَالِهِ وَمُخَاطَبَتِهِ ، وَتَرْكُ الْقِيَامِ إِلَى الصَّلَاةِ حَتَّى يَنْزِلَ مِنَ الْمِنْبَرِ ، وَيَفْرَغَ الْمُؤَذِّنُ مِنَ الْإِقَامَةِ .

***

آداب الخطيب

« آدَابُ الْخَطِيبِ » يَأْتِي الْمَسْجِدَ وَعَلَيْهِ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ ، وَيَبْدَأُ بِالتَّحِيَّةِ وَيَجْلِسُ وَعَلَيْهِ الْهَيْبَةُ وَيَمْتَنِعُ مِنَ التَّخَاطُبِ ، وَيَنْتَظِرُ الْوَقْتَ ، ثُمَّ يَخْطُو إِلَى الْمِنْبَرِ وَعَلَيْهِ

(١) يقارب الخطى : أى يسدد فى مشيه ولا يغلو

الْوَقَارُ كَأَنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَعْرِضَ مَا يَقُولُ عَلَى الْجَبَّارِ ثُمَّ يَصْعَدُ بِالْخُشُوعِ وَيَقِفُ عَلَى الْمِرْقَاةِ بِالْخُضُوعِ، وَيَرْتَقِي بِالذِّكْرِ، وَيَلْتَفِتُ إِلَى مُسْتَمِعِيهِ بِاجْتِمَاعِ الْفِكْرِ، ثُمَّ يُشِيرُ إِلَيْهِمْ بِالسَّلَامِ لِيَسْتَمِعُوا مِنْهُ الْكَلَامَ، ثُمَّ يَجْلِسُ لِلْأَذَانِ فَزِعًا مِنَ الدَّيَّانِ، ثُمَّ يَخْطُبُ بِالتَّوَاضُعِ وَلَا يُشِيرُ بِالْأَصَابِعِ، وَيَعْتَقِدُ مَا يَقُولُهُ لِيَنْتَفِعَ بِهِ، ثُمَّ يُشِيرُ إِلَيْهِمْ بِالدُّعَاءِ، وَيَنْزِلُ إِذَا أَخَذَ الْمُؤَذِّنُ فِي الْإِقَامَةِ وَلَا يُكَبِّرُ حَتَّى يَسْكُتُوا ثُمَّ يَفْتَتِحُ الصَّلَاةَ وَيُرَتِّلُ مَا يَقْرَأُ.

***

آداب العيد

« آدَابُ الْعِيدِ » إِحْيَاءُ لَيْلَتِهِ وَالِاغْتِسَالُ فِي صَبِيحَةِ يَوْمِهِ وَنَظَافَةُ الْبَدَنِ، وَطِيبُ الرَّائِحَةِ، وَإِدَامَةُ التَّكْبِيرِ وَكَثْرَةُ الذِّكْرِ، وَاسْتِعْمَالُ الْخُشُوعِ، وَالتَّسْبِيحُ وَالْحَمْدُ بَيْنَ تَضَاعِيفِ التَّكْبِيرِ، وَالْإِنْصَاتُ لِلْخُطْبَةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَأَكْلُ الْيَسِيرِ قَبْلَ الْخُرُوجِ إِنْ كَانَ فِطْرًا، وَالذَّهَابُ فِي طَرِيقٍ وَالرُّجُوعُ فِي أُخْرَى، وَالِانْصِرَافُ بِالْإِشْفَاقِ خَوْفَ الْغِيبَةِ.

***

آداب الخسوف

« آدَابُ ٱلْخُسُوفِ » دَوَامُ ٱلْفَزَعِ وَإِظْهَارُ ٱلْجَزَعِ وَمُبَادَرَةُ ٱلتَّوْبَةِ وَتَرْكُ ٱلْمَلَلِ ، وَسُرْعَةُ ٱلْقِيَامِ إِلَى ٱلصَّلَاةِ وَطُولُ ٱلْقِيَامِ فِيهَا وَٱسْتِشْعَارُ ٱلْحَذَرِ .

***

آداب الاستسقاء

« آدَابُ ٱلِاسْتِسْقَاءِ » ٱلصِّيَامُ قَبْلَهُ وَتَقْدِيمُ ٱلتَّوْبَةِ وَرَدُّ ٱلْمَظَالِمِ وَبَذْلُ ٱلْهِمَّةِ وَتَرْكُ ٱلْمُفَاخَرَةِ وَٱلِاغْتِسَالُ قَبْلَ ٱلْخُرُوجِ وَدَوَامُ ٱلصَّمْتِ وَرُؤْيَةُ ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي أُوجَبَتِ ٱلْمَنْعَ ، وَٱلِاعْتِرَافُ بِالذَّنْبِ ٱلَّذِي نَزَلَتْ بِهِ ٱلْعُقُوبَةُ ، وَٱعْتِقَادُ تَرْكِ ٱلْعَوْدِ وَٱلْإِنْصَاتُ لِلْخُطْبَةِ وَٱلتَّسْبِيحُ بَيْنَ ٱلتَّكْبِيرِ وَكَثْرَةُ ٱلِاسْتِغْفَارِ وَتَحْوِيلُ [1] ٱلْإِزَارِ مَعَ ٱلدُّعَاءِ .

***

آداب المريض

« آدَابُ ٱلْمَرِيضِ » ٱلْإِكْثَارُ مِنْ ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ

(١) أى قلبه وجعل أعلاه أسفله

وَالِاسْتِعْدَادُ لَهُ بِالتَّوْبَةِ وَدَوَامُ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ لِلّٰهِ وَاسْتِعْمَالُ التَّضَرُّعِ وَإِظْهَارُ الْعَجْزِ وَالْفَاقَةِ وَالتَّدَاوِي مَعَ الِاسْتِعَانَةِ بِخَالِقِ الدَّوَاءِ وَإِظْهَارُ الشُّكْرِ عِنْدَ الْقُوَّةِ، وَقِلَّةُ الشَّكْوَى وَإِكْرَامُ الْجُلَسَاءِ وَتَرْكُ الْمُصَافَحَةِ.

***

آداب المعزى

« آدَابُ الْمُعَزِّي » خَفْضُ الْجَنَاحِ وَإِظْهَارُ الْحُزْنِ وَقِلَّةُ الْحَدِيثِ وَتَرْكُ التَّبَسُّمِ فَإِنَّهُ يُورِثُ الْحِقْدَ.

***

آداب المشي مع الجنازة

« آدَابُ الْمَشْيِ مَعَ الْجَنَازَةِ » دَوَامُ الْخُشُوعِ وَغَضُّ الْبَصَرِ وَتَرْكُ الْحَدِيثِ وَمُلَاحَظَةُ الْمَيِّتِ بِالِاعْتِبَارِ، وَالتَّفَكُّرُ فِيمَا يُجِيبُ بِهِ مِنَ السُّؤَالِ وَالْعَزْمُ عَلَى الْمُبَادَرَةِ فِيمَا يَخَافُ بِهِ مِنَ الْمُطَالَبَةِ، وَخَوْفُ حَسْرَةِ الْفَوْتِ عِنْدَ هُجُومِ الْمَوْتِ.

***

آداب المتصدق

« آدَابُ الْمُتَصَدِّقِ » يَنْبَغِي لَهُ أَدَاؤُهَا قَبْلَ الْمَسْأَلَةِ

وَإِخْفَاءُ الصَّدَقَةِ عِنْدَ الْعَطَاءِ ، وَكِتْمَانُهَا بَعْدَ الْعَطَاءِ ، وَالرِّفْقُ بِالسَّائِلِ وَلَا يَبْدَؤُهُ بِرَدِّ الْجَوَابِ ، وَيَرُدُّ عَلَيْهِ فِي الْوَسْوَسَةِ ، وَيَمْنَعُ نَفْسَهُ الْبُخْلَ ، وَيُعْطِيهِ مَا سَأَلَ أَوْ يَرُدُّهُ رَدًّا جَمِيلًا ، فَإِنْ عَارَضَهُ الْعَدُوُّ إِبْلِيسُ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ أَنَّ السَّائِلَ لَيْسَ يَسْتَحِقُّ فَلَا يَرْجِعْ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ بَلْ هُوَ مُسْتَحِقٌّ لَهَا .

***

آداب السائل

« آدَابُ السَّائِلِ » يُبْدِي الْفَاقَةَ بِصِدْقِ الْحَقِيقَةِ وَيُظْهِرُ السُّؤَالَ بِلَطَافَةِ الْقَوْلِ ، وَيَأْخُذُ مَا أُعْطِيَ بِمُقَابَلَةِ الشُّكْرِ وَإِنْ قَلَّ وَحُسْنِ الدُّعَاءِ ، فَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ رَجَعَ بِجَمِيلِ قَبُولِ الْعُذْرِ ، وَتَرْكَ الْمُعَاوَدَةَ وَالْإِلْحَاحَ .

***

آداب الغنى

« آدَابُ الْغَنِيِّ » لُزُومُ التَّوَاضُعِ ، وَنَفْيُ التَّكَبُّرِ ، وَدَوَامُ الشُّكْرِ ، وَالتَّوَصُّلُ إِلَى أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْبَشَاشَةُ بِالْفَقِيرِ وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ وَرَدُّ السَّلَامِ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ .

وَإِظْهَارُ ٱلْكِفَايَةِ وَلَطَافَةُ ٱلْكَلِمَةِ وَطِيبُ ٱلْمُؤَانَسَةِ وَٱلْمُسَاعَدَةُ عَلَى ٱلْخَيْرَاتِ .

***

آداب الفقير

« آدَابُ ٱلْفَقِيرِ » لُزُومُ ٱلْقَنَاعَةِ وَكِتْمَانُ ٱلْفَاقَةِ وَتَرْكُ ٱلْبَذَالَةِ (١) وَٱلتَّضَعْضُعِ وَٱتِّقَاءُ ٱلطَّمَعِ وَإِيثَارُ (٢) ٱلصِّيَانَةِ وَإِظْهَارُ ٱلْكِفَايَةِ لِأَهْلِ ٱلْمُرُوءَةِ مِنْ أَهْلِ ٱلدِّيَانَةِ وَإِجْلَالُ ٱلْأَغْنِيَاءِ مَعَ قِلَّةِ ٱلِاسْتِبْشَارِ لَهُمْ ، وَإِظْهَارُ ٱلْكِفَايَةِ لَهُمْ مَعَ ٱلْإِيَاسِ مِنْهُمْ ، وَتَرْكُ ٱلْكِبْرِ عَلَيْهِمْ مَعَ نَفْيِ ٱلتَّذَلُّلِ وَحِفْظُ ٱلْقَلْبِ عِنْدَ رُؤْيَتِهِمْ وَٱلتَّمَسُّكُ بِالدِّينِ عِنْدَ مُشَاهَدَتِهِمْ .

***

آداب المهدى

« آدَابُ ٱلْمُهْدِي » رُؤْيَةُ ٱلْفَضْلِ لِلْمُهْدَى إِلَيْهِ وَإِظْهَارُ ٱلسُّرُورِ بِالْقَبُولِ لَهَا ، وَٱلشُّكْرِ عِنْدَ رُؤْيَةِ ٱلْمُهْدَى

---

(١) أى الامتهان : يقال ابتذل نفسه فى كذا اذا امتهنها قال الشاعر :
ومن يبتذل عينيه فى الناس لايزل يرى حاجة محجوبة لاينالها

(٢) أى تفضيلها والتزامها

إِلَيْهِ ، وَالِاسْتِقْلَالُ لَهَا وَإِنْ كَثُرَتْ .

***

آداب المهدى اليه

« آدَابُ الْمُهْدَى إِلَيْهِ » إِظْهَارُ السُّرُورِ بِهَا وَإِنْ قَلَّتْ ، وَالدُّعَاءُ لِصَاحِبِهَا إِذَا غَابَ ، وَالْبَشَاشَةُ إِذَا حَضَرَ وَالْمُكَافَأَةُ إِذَا قَدَرَ ، وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ إِنْ أَمْكَنَ ، وَتَرْكُ الْخُضُوعِ لَهُ وَالتَّحَفُّظُ مِنْ ذَهَابِ الدِّينِ مَعَهُ وَنَفْيُ الطَّمَعِ ثَانِياً .

***

آداب اصطناع المعروف

« آدَابُ اصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ » الْبُدَاءَةُ قَبْلَ السُّؤَالِ وَالْمُبَادَرَةُ بِهِ عِنْدَ الْوَعْدِ ، وَالتَّوْقِيرُ لَهُ عِنْدَ الْعَطَاءِ ، وَالسَّتْرُ لَهُ بَعْدَ الْأَخْذِ ، وَتَرْكُ الْمِنَّةِ بَعْدَ الْقَبُولِ ، وَالْمُدَاوَمَةُ عَلَى اصْطِنَاعِهِ ، وَالْحَذَرُ مِنَ انْقِطَاعِهِ .

***

آداب الصيام

« آدَابُ الصِّيَامِ » طِيبُ الْغِذَاءِ ، وَتَرْكُ الْمِرَاءِ ،

وَمُجَانَبَةُ ٱلْغِيبَةِ ، وَرَفْضُ ٱلْكَذِبِ ، وَتَرْكُ ٱلْأَذَى ، وَصَوْنُ ٱلْجَوَارِحِ عَنِ ٱلْقَبَائِحِ .

***

« آدَابُ ٱلْحَجِّ »

آداب الطريق

« آدَابُ ٱلطَّرِيقِ » طِيبُ ٱلنَّفَقَةِ وَٱلْإِحْسَانُ إِلَى ٱلْمُكَارِي وَمُعَاوَنَةُ ٱلرُّفْقَةِ [1] ، وَٱلرِّفْقُ بِالْمُنْقَطِعِ ، وَبَذْلُ ٱلزَّادِ وَحُسْنُ ٱلْخُلُقِ وَطِيبُ ٱلْكَلِمَةِ وَٱلْمِزَاحُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَٱخْتِيَارُ ٱلصَّدِيقِ وَٱلِاسْتِبْشَارُ بِهِ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ وَٱلْإِصْغَاءُ عِنْدَ مُحَادَثَتِهِ ، وَقِلَّةُ ٱلْمُمَارَاةِ [2] لَهُ عِنْدَ ضَجَرِهِ ، وَٱلتَّغَافُلُ عَنْ زَلَّتِهِ ، وَٱلشُّكْرُ لَهُ عِنْدَ خِدْمَتِهِ وَٱلتَّوَصُّلُ إِلَى إِيثَارِهِ وَمُسَاعَدَتِهِ .

***

آداب الاحرام

« آدَابُ ٱلْإِحْرَامِ » غَسْلُ ٱلْجَسَدِ وَنَظَافَةُ ٱلْإِزَارَيْنِ وَطِيبُ ٱلرَّائِحَةِ وَتَعَاهُدُ ٱلْجِيَاعِ ، وَٱلتَّلْبِيَةُ [3] بِالْهَيْبَةِ

(١) الرفقة : مثلثة الراء ، الجماعة ترافقهم فى سفرك (٢) أى المجادلة
(٣) أى قوله لبيك اللهم لبيك الخ

وَرَفْعُ الصَّوْتِ بِحَلَاوَةِ الْإِجَابَةِ وَالطَّوَافُ بِتَعْظِيمِ الْحُرْمَةِ وَالسَّعْيُ بِطَلَبِ الرِّضَاءِ ، وَالْوُقُوفُ بِمُشَاهَدَةِ الْقِيَامَةِ ، وَشُهُودُ الْمَشْعَرِ بِرُؤْيَةِ الرَّحْمَةِ وَالْحَلْقُ بِرُؤْيَةِ الْعِتْقِ وَالذَّبْحُ بِرُؤْيَةِ الْكَفَّارَةِ وَالرَّمْيُ بِرُؤْيَةِ الطَّاعَةِ ، وَطَوَافُ الزِّيَارَةِ بِمُشَاهَدَةِ الْمُرُورِ وَهُوَ مِنْ غَيْرِ حَدٍّ وَالرَّدُّ بِحَقِيقَةِ الْأَسَفِ وَالِانْصِرَافُ بِمَحَبَّةِ الرُّجُوعِ .

***

آداب دخول مكة

« آدَابُ دُخُولِ مَكَّةَ » دُخُولُ الْحَرَمِ بِالتَّعْظِيمِ وَالنَّظَرُ إِلَى مَكَّةَ بِالتَّحَسُّرِ ، وَرُؤْيَةُ الْمَسْجِدِ بِالتَّفْضِيلِ وَنَظَرُ الْبَيْتِ بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ ، وَدَوَامُ الطَّوَافِ وَمُوَاصَلَةُ الْعُمْرَةِ ، وَدُخُولُ الْبَيْتِ بِتَعْظِيمِ الْحُرْمَةِ ، وَدَوَامُ التَّوْبَةِ بَعْدَ دُخُولِهِ .

***

آداب دخول المدينة

« آدَابُ دُخُولِ الْمَدِينَةِ » يَدْخُلُهَا بِالْوَقَارِ مَعَ السَّكِينَةِ ، وَالْمُشَاهَدَةُ لِمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الشَّرِيعَةِ ، وَالنَّظَرُ إِلَيْهَا بِالْعَيْنِ الرَّفِيعَةِ ، ثُمَّ يَأْتِي مَسْجِدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْبَرَهُ كَأَنَّهُ مُشَاهِدٌ لِصَلَاتِهِ وَخُطْبَتِهِ ، ثُمَّ يَأْتِي قَبْرَهُ وَكَأَنَّهُ نَاظِرٌ إِلَى شَخْصِهِ الْكَرِيمِ ، وَمُخَاطَبَتُهُ مَعَ خَفْضِ الصَّوْتِ بِحَضْرَتِهِ كَأَنَّهُ مُعَايِنٌ لِجَلْسَتِهِ ، فَيَبْدَؤُهُ بِالسَّلَامِ ثُمَّ يُسَلِّمُ عَلَى ضَجِيعَيْهِ[1] وَيُشَاهِدُ مَحَبَّتَهُمَا لَهُ ، وَمِشْيَتُهُ بَيْنَهُمَا ، وَإِقْبَالُهُ عَلَيْهِمَا ، وَإِذَا وَدَّعَ الْقَبْرَ ، فَلَا يُوَلِّيهِ الظَّهْرَ .

***

آداب التاجر

« آدَابُ التَّاجِرِ » لَا يَجْلِسُ فِي طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ فَيُضَيِّقَ عَلَيْهِمْ ، وَيَسْتَعْمِلُ غُلَامًا كَيِّسًا لَا يَبْخَسُ فِي كَيْلِهِ ، وَلَا يُنْقِصُ فِي وَزْنِهِ ، يَأْمُرُهُ بِالرُّجْحَانِ ، وَتَرْكِ الْعَجَلَةِ فِي الْمِيزَانِ ، يَكُونُ مِيزَانُ دَرَاهِمِهِ فِي حِدَّتِهِ كَالطَّيَّارِ[2] ، وَمِنَ اعْتِدَالِهِ كَالْمِعْيَارِ ، طَوِيلَةٌ خُيُوطُهُ ، دَقِيقَةٌ ذَوَائِبُهُ ، مُعَيَّرَةٌ[3] صَنَجَاتُهُ ، مُعْتَدِلَةٌ حَبَّاتُهُ ، يَبْتَدِئُ كُلَّ يَوْمٍ بِمَسْحِ

(١) هما : أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . (٢) الطيار : لسان الميزان
(٣) معيرة صنجاته : أى موزونة . والصنجات : القطع النحاسية المدورة التى يوزن بها .

مِيزَانِهِ ، وَيَتَعَاهَدُ نَقْصَ أَرْطَالِهِ وَصَنَجَاتِهِ ، يَأْمُرُ غُلَامَهُ بِالتَّوَقُّفِ فِي كَيْلِ الْأَدْهَانِ ، وَإِذَا وَقَفَ عَلَيْهِ شَرِيفٌ أَكْرَمَهُ ، أَوْ جَارٌ فَضَّلَهُ ، أَوْ ضَعِيفٌ رَحِمَهُ ، أَوْ غَيْرُ هَؤُلَاءِ أَنْصَفَهُ ، يَبِيعُ عَلَى قَدْرِ أَسْعَارِهِ ، إِنْ نَقَصَ سِعْرُهُ زَادَ زَبُونُهُ (١) ، كَمَا أَنَّهُ إِنْ زَادَ سِعْرُهُ نَقَصَ زَبُونُهُ ، وَيَكُونُ هِمَّتُهُ فِي جُلُوسِهِ دَرْسَ الْقُرْآنِ وَغَضَّ الطَّرْفِ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْغِلْمَانِ ، يَشْتَرِي عِرْضَهُ بِالْيَسِيرِ مِنْ سَفِيهٍ يَقِفُ عَلَيْهِ ، لَا يَرُدُّ السَّائِلَ وَلَا يَمْنَعُ الْبِشْرَ مِنَ النَّائِلِ فَإِنْ كَانَ هُوَ الْمُتَوَلِّي لِأَمْرِهِ كَانَ مَا يَلْزَمُ غُلَامَهُ هُوَ أَوْلَى بِهِ ، وَيَشْتَرِي الْأَرْطَالَ وَالصَّنَجَاتِ وَالْمِكْيَالَ مِنَ الثِّقَاتِ مُعَيَّرَاتٍ وَيَتْرُكُ الْمَدْحَ لِلسِّلْعَةِ عِنْدَ الْبَيْعِ ، وَالذَّمَّ لَهَا عِنْدَ الشِّرَاءِ ، وَيَلْزَمُ الصِّدْقَ عِنْدَ الْإِخْبَارِ ، وَيَحْذَرُ الْفُحْشَ عِنْدَ الْمُزَايَدَةِ ، وَالْكَذِبَ عِنْدَ الْمُحَادَثَةِ ، وَيُقِلُّ الْخَوْضَ مَعَ أَهْلِ السُّوقِ وَمُدَاعَبَةَ الْأَحْدَاثِ وَيُقْصِرُ فِي الْخُصُومَاتِ .

(١) الزبون : عند أهل البصرة المشترى

***

آداب الصيرفي

« آدَابُ ٱلصَّيْرَفِيِّ » يَعْتَقِدُ ٱلصِّحَّةَ وَيُؤَدِّى ٱلْامَانَةَ وَيَحْذَرُ ٱلرِّبَا وَيُقَرِّبُ ٱلنَّسِيئَةَ وَلَا يُنَفِّقُ (١) ٱلرَّدِيئَةَ ، وَيُوفِى ٱلْوَزْنَ ، وَلَا يَعْتَقِدُ ٱلْغِشَّ وَٱلْغَبْنَ ، مُتَفَقِّدًا لِمِعْيَارِهِ خَائِفًا مِنْ نُقْصَانِ صَنَجَاتِهِ وَمَثَاقِيلِهِ .

***

آداب الصائغ

« آدَابُ ٱلصَّائِغِ » ٱسْتِعْمَالُ ٱلنَّصِيحَةِ وَٱلِاجْتِهَادُ فِى ٱلْجَوْدَةِ ، وَقِلَّةُ ٱلْمَطْلِ (٢) وَوَفَاءُ ٱلْوَعْدِ وَتَرْكُ ٱلتَّعَدِّى فِى ٱلْأُجْرَةِ .

***

آداب الأكل

« آدَابُ ٱلْأَكْلِ » غَسْلُ ٱلْيَدَيْنِ قَبْلَ ٱلطَّعَامِ وَبَعْدَهُ وَٱلتَّسْمِيَةُ ، وَٱلْأَكْلُ بِٱلْيَمِينِ وَمِمَّا يَلِيهِ ، وَيُصَغِّرُ ٱللُّقْمَةَ وَإِجَادَةُ ٱلْمَضْغِ وَقِلَّةُ ٱلنَّظَرِ إِلَى وُجُوهِ ٱلْحَاضِرِينَ ، وَلَا يَأْكُلُ مُتَّكِئًا وَلَا يَأْكُلُ فَوْقَ ٱلشِّبَعِ وَفَوْقَ ٱلْجُوعِ ،

(١) أى لا يروجها (٢) أى التسويف

وَيَعْتَذِرُ إِذَا شَبِعَ حَتَّى لَا يَخْجَلَ الضَّيْفُ أَوْ مَنْ بِهِ حَاجَةٌ ، وَيَا كُلُ مِنْ جَوَانِبِ ٱلْقَصْعَةِ وَلَا يَأْكُلُ مِنْ ذِرْوَتِهَا ، وَلَا يَلْعَقُ ٱلْأَصَابِعَ بَعْدَ ٱلْفَرَاغِ وَيَحْمَدُ ٱللهَ وَلَا يَذْكُرُ ٱلْمَوْتَ عِنْدَ ٱلْأَكْلِ لِئَلَّا يُنَغِّصَ عَلَى ٱلْحَاضِرِينَ .

***

آداب الشرب

« آدَابُ ٱلشُّرْبِ » يَنْظُرُ فِي إِنَائِهِ قَبْلَ شُرْبِهِ ، وَيُسَمِّي ٱللهَ تَعَالَى قَبْلَهُ وَيَحْمَدُهُ بَعْدَهُ ، وَيَمُصُّهُ مَصًّا ، وَلَا يَعُبُّهُ عَبًّا (١) ، وَيَتَنَفَّسُ فِي شُرْبِهِ ثَلَاثًا يُتْبِعُهُ بِالتَّحْمِيدِ ، وَيَرُدُّ بِالتَّسْمِيَةِ ، وَلَا يَشْرَبُ قَائِمًا ، وَيُنَاوِلُ مَنْ كَانَ عَلَى يَمِينِهِ إِنْ كَانَ مَعَهُ غَيْرُهُ .

***

آداب الرجل اذا أراد النكاح

« آدَابُ ٱلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ ٱلنِّكَاحَ » يَطْلُبُ ٱلدِّينَ ثُمَّ بَعْدَهُ ٱلْجَمَالَ وَٱلْمَالَ إِنْ أَرَادَهُ ، وَلَا يُشَارِطُ عَلَى مَا يَأْتِيهِ وَلَا يُضْمِرُهُ وَلَا يَخْطُبُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ ، وَلَا يَأْذَنُ

(١) أى لا يشربه دفعة واحدة كرعا بلا تنفس

فِي إِمْلَاكِهِ وَعُرْسِهِ بِمَا يُبَاعِدُهُ مِنْ رَبِّهِ وَيُزْرِيهِ وَلَا يَجْلِسُ فِي خَلَوَاتِهِ حَيْثُ يَرَى غَيْرُهُ حُرْمَتَهُ ، وَلَا يُقَبِّلُهَا بَيْنَ أَهْلِهِ وَأَهْلِهَا ، وَيَبْدَؤُهَا إِذَا خَلَا فِي سُؤَالِهِ ، وَلَا يَكُونُ سَفِيرُهُ (١) كَذَّابًا ، وَلَا الْمُخْبِرُ لَهُ نَمَّامًا بَلْ مِنْ خَاصَّتِهَا وَيَسْأَلُهُ عَنْ دِينِهَا هُوَ وَمُوَاظَبَتِهَا عَلَى صَلَاتِهَا وَمُرَاعَاتِهَا لِصِيَامِهَا ، وَعَنْ حَيَائِهَا وَنَظَافَتِهَا وَحُسْنِ أَلْفَاظِهَا وَقُبْحِهَا وَلُزُومِ عُقْرِ بَيْتِهَا وَبِرِّهَا بِوَالِدَيْهَا ، وَيَتَلَطَّفُ قَبْلَ الْعَقْدِ فِي النَّظَرِ إِلَيْهَا ، وَبَعْدَهُ بِمَا يَبْلُغُهَا مِنَ الْكَلَامِ الْجَمِيلِ وَيَبْحَثُ عَنْ خِصَالِ وَالِدِهَا وَدِينِهِ وَحَالِ وَالِدَتِهَا وَدِينِهَا وَأَعْمَالِهَا .

***

آداب المرأة اذا خطبها الرجل

« آدَابُ الْمَرْأَةِ إِذَا خَطَبَهَا الرَّجُلُ » تَأْمُرُ مَنْ تَأْمَنُ (٢) بِهِ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ صَدُوقًا أَنْ يَسْأَلَ عَنْ مَذْهَبِ الْخَاطِبِ وَدِينِهِ وَاعْتِقَادِهِ وَمُرُوءَتِهِ فِي نَفْسِهِ ،

(١) أى رسوله . والسفير : الرسول الذى يصلح بين القوم
(٢) أى تثق به

وَصِدْقِهِ فِي وَعْدِهِ ، وَتَنْظُرُ مَنْ أَقْرَبَاؤُهُ وَمَنْ يَغْشَاهُ فِي بَيْتِهِ ، وَعَنْ مُوَاظَبَتِهِ عَلَى صَلَوَاتِهِ وَجَمَاعَتِهِ وَنَصِيحَتِهِ فِي تِجَارَتِهِ وَضَيْعَتِهِ ، وَتَكُونُ رَغْبَتُهَا فِي دِينِهِ دُونَ مَالِهِ أَوْ فِي سِيرَتِهِ دُونَ شُهْرَتِهِ ، تَعْزِمُ مَعَهُ عَلَى ٱلْقَنَاعَةِ . وَتَكُونُ لِأَوَامِرِهِ مُطِيعَةً فَهُوَ آكَدُ لِلْأُلْفَةِ وَأَثْبَتُ لِلْمَوَدَّةِ .

***

آداب الجماع

« آدَابُ ٱلْجِمَاعِ » طِيبُ ٱلرَّائِحَةِ وَلَطَافَةُ ٱلْكَلِمَةِ وَإِظْهَارُ ٱلْمَوَدَّةِ وَتَقْبِيلُ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْتِزَامُ ٱلْمَحَبَّةِ . ثُمَّ ٱلتَّسْمِيَةُ وَتَرْكُ ٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلْفَرْجِ فَإِنَّهُ يُورِثُ ٱلْعَمَى ، وَٱلسَّتْرُ تَحْتَ ٱلْإِزَارِ وَتَرْكُ ٱسْتِقْبَالِ ٱلْقِبْلَةِ .

***

آداب الرجل مع الزوجة

« آدَابُ ٱلرَّجُلِ مَعَ ٱلزَّوْجَةِ » حُسْنُ ٱلْعِشْرَةِ وَلَطَافَةُ ٱلْكَلِمَةِ وَإِظْهَارُ ٱلْمَوَدَّةِ وَٱلْبَسْطُ فِي ٱلْخَلْوَةِ وَٱلتَّغَافُلُ عَنِ ٱلزَّلَّةِ ، وَإِقَالَةُ ٱلْعَثْرَةِ ، وَصِيَانَةُ عِرْضِهَا ، وَقِلَّةُ

(١) أى الصفح عن الهفوة والسقطة

مُجَادَلَتِهَا ، وَبَذْلُ ٱلْمَئُونَةِ بِلَا بُخْلٍ لَهَا ، وَإِكْرَامُ أَهْلِهَا وَدَوَامُ ٱلْوَعْدِ ٱلْجَمِيلِ ، وَشِدَّةُ ٱلْغَيْرَةِ عَلَيْهَا .

***

آداب المرأة مع زوجها

« آدَابُ ٱلْمَرْأَةِ مَعَ زَوْجِهَا » دَوَامُ ٱلْحَيَاءِ مِنْهُ وَقِلَّةُ ٱلْمُمَارَاةِ لَهُ وَلُزُومُ ٱلطَّاعَةِ لِأَمْرِهِ وَٱلسُّكُونُ عِنْدَ كَلَامِهِ وَٱلْحِفْظُ لَهُ فِي غَيْبَتِهِ وَتَرْكُ ٱلْخِيَانَةِ فِي مَالِهِ ، وَطِيبُ ٱلرَّائِحَةِ ، وَتَعَهُّدُ ٱلْفَمِ ، وَنَظَافَةُ ٱلثَّوْبِ ، وَإِظْهَارُ ٱلْقَنَاعَةِ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلشَّفَقَةِ وَدَوَامُ ٱلزِّينَةِ وَإِكْرَامُ أَهْلِهِ وَقَرَابَتِهِ وَرُؤْيَةُ حَالِهِ بِٱلْفَضْلِ وَقَبُولُ فِعْلِهِ بِٱلشُّكْرِ وَإِظْهَارُ ٱلْحُبِّ لَهُ عِنْدَ ٱلْقُرْبِ مِنْهُ ، وَإِظْهَارُ ٱلسُّرُورِ عِنْدَ ٱلرُّؤْيَةِ لَهُ .

***

آداب الرجل فى نفسه

« آدَابُ ٱلرَّجُلِ فِي نَفْسِهِ » لُزُومُ ٱلْجُمُعَةِ وَٱلْجَمَاعَةِ وَنَظَافَةُ ٱلْمَلْبَسِ وَإِدَامَةُ ٱلسِّوَاكِ ، وَلَا يَلْبَسُ ٱلْمَشْهُورَ وَلَا ٱلْمَحْقُورَ ، وَلَا يُطِيلُ ثِيَابَهُ تَكَبُّرًا وَلَا يُقَصِّرُهَا

تَمَسْكُناً ، وَلَا يُكْثِرُ ٱلتَّلَفُّتَ فِي مِشْيَتِهِ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَى غَيْرِ حُرْمَتِهِ ، وَلَا يَبْصُقُ فِي حَالِ مُحَادَثَتِهِ ، وَلَا يُكْثِرُ ٱلْقُعُودَ عَلَى بَابِ دَارِهِ مَعَ جِيرَانِهِ وَلَا يُكْثِرُ لِإِخْوَانِهِ ٱلْحَدِيثَ عَنْ زَوْجَتِهِ وَمَا فِي بَيْتِهِ .

***

آداب المرأة فى نفسها

« آدَابُ ٱلْمَرْأَةِ فِي نَفْسِهَا » لَازِمَةٌ لِمَنْزِلِهَا ، قَاعِدَةٌ فِي قَعْرِ (١) بَيْتِهَا لَا تُكْثِرُ صُعُودَهَا وَلَا إِطْلَاعَهَا ٱلْكَلَامَ لِجِيرَانِهَا ، وَلَا تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ إِلَّا فِي حَالٍ يُوجِبُ ٱلدُّخُولَ تَسُرُّ بَعْلَهَا فِي نَظَرِهِ ، وَتَحْفَظُهُ فِي غَيْبَتِهِ ، وَلَا تَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ وَإِنْ خَرَجَتْ فَمُخْتَبِئَةً تَطْلُبُ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلْخَالِيَةَ مَصُونَةً فِي حَاجَاتِهَا ، بَلْ تَتَنَاكَرُ مِمَّنْ يَعْرِفُهَا . هِمَّتُهَا إِصْلَاحُ نَفْسِهَا وَتَدْبِيرُ بَيْتِهَا ، مُقْبِلَةٌ عَلَى صَلَاتِهَا وَصَوْمِهَا نَاظِرَةٌ فِي عَيْبِهَا ، مُتَفَكِّرَةٌ فِي دِينِهَا ، دَائِمَةٌ صَمْتَهَا غَاضَّةٌ طَرْفَهَا ، مُرَاقِبَةٌ لِرَبِّهَا ، كَثِيرَةُ ٱلذِّكْرِ لَهُ ، طَائِعَةٌ

(١) كناية عن ملازمتها للبيت

لبعلها ، تحثه على طلب الحلال ، ولا تطلب منه الكثير من النوال . ظاهرة الحياء ، قليلة الخفاء ، صبور شكور ، مؤثرة في نفسها مواسية من حالها وقوتها ، وإذا استأذن ببابها صديق لبعلها وليس بعلها حاضرا لم تستفهمه ، ولا في الكلام تعاوده ، غيرة منها على نفسها وبعلها منه .

***

آداب الاستئذان

« آداب الاستئذان » المشي بجانب الجدار ، ولا يقابل الباب ، والتسبيح والتحميد قبل الدق ، والسلام بعده ، وترك السمع إلى من في المنزل والاستئذان بعد السلام فإن أذن له وإلا رجع ولم يقف ، ولا يقول : أنا : بل يقول : فلان ، إذا استفهم

***

آداب الجلوس على الطريق

« آداب الجلوس على الطريق » غض البصر ، ونصر المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وإعانة الضعيف

وَإِرْشَادُ الضَّالِّ ، وَرَدُّ السَّلَامِ ، وَإِعْطَاءُ السَّائِلِ وَتَرْكُ التَّلَفُّتِ ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ بِالرِّفْقِ وَاللُّطْفِ ، فَإِنْ أَصَرَّ فَبِالرَّهْبَةِ وَالْعُنْفِ ، وَلَا يُصْغِي إِلَى السَّاعِي إِلَّا بِبَيِّنَةٍ وَلَا يَتَجَسَّسُ (١) وَلَا يَظُنُّ بِالنَّاسِ إِلَّا خَيْرًا .

***

آداب المعاشرة

« آدَابُ الْمُعَاشَرَةِ » إِذَا دَخَلَ مَجْلِساً أَوْ جَمَاعَةً سَلَّمَ وَجَلَسَ حَيْثُ الْمُتَّسَعُ ، وَتَرَكَ التَّخَطِّيَ ، وَخَصَّ بِالسَّلَامِ مَنْ قَرُبَ مِنْهُ إِذَا جَلَسَ ، وَإِنْ بُلِيَ بِمُجَالَسَةِ الْعَامَّةِ تَرَكَ الْخَوْضَ مَعَهُمْ وَلَا يُصْغِي إِلَى أَرَاجِيفِهِمْ (٢) وَيَتَغَافَلُ عَمَّا يَجْرِي مِنْ سُوءِ أَلْفَاظِهِمْ ، وَيُقِلُّ اللِّقَاءَ لَهُمْ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَلَا يَسْتَصْغِرُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ فَيَهْلِكَ ، وَلَا يَدْرِي لَعَلَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَطْوَعُ لِلَّهِ مِنْهُ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ

(١) لا يتجسس : لا يبحث عن عورات الناس ، و بواطن أمورهم .
(٢) الأراجيف : أخبار الفتن والشر ـ واحدها إرجاف .

بِعَيْنِ ٱلتَّعْظِيمِ فِي دُنْيَاهُمْ لِأَنَّ ٱلدُّنْيَا صَغِيرَةٌ عِنْدَ ٱللهِ صَغِيرٌ مَا فِيهَا وَلَا يُعَظِّمُ قَدْرَ ٱلدُّنْيَا فِي نَفْسِهِ فَيُعَظِّمَ أَهْلَهَا لِأَجْلِهَا فَيَسْقُطَ مِنْ عَيْنِ ٱللهِ ، وَلَا يَبْذُلُ لَهُمْ دِينَهُ لِيَنَالَ مِنْ دُنْيَاهُمْ فَيَصْغُرَ فِي أَعْيُنِهِمْ ، وَلَا يُعَادِيهِمْ فَتَظْهَرَ لَهُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَلَا يُطِيقَ ذَلِكَ وَلَا يَصْبِرَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مُعَادَاةً فِي ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَيُعَادِيَ أَفْعَالَهُمُ ٱلْقَبِيحَةَ ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ ٱلشَّفَقَةِ وَٱلرَّحْمَةِ ، وَلَا يَشْكُرُ إِلَيْهِمْ فِي مَوَدَّتِهِمْ لَهُ ، وَإِكْرَامِهِمْ إِيَّاهُ وَحُسْنِ بَشَاشَتِهِمْ فِي وَجْهِهِ وَثَنَائِهِمْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ حَقِيقَةَ ذَلِكَ لَمْ يَجِدْهُ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ، وَإِنْ سَكَنَ (١) إِلَيْهِمْ وَكَلَهُ ٱلْحَقُّ إِلَيْهِمْ فَهَلَكَ ، وَلَا يَطْمَعُ أَنْ يَكُونُوا لَهُ فِي ٱلْغَيْبِ كَمَا هُمْ لَهُ فِي ٱلْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ ذَلِكَ أَبَدًا . وَلَا يَطْمَعُ فِيمَا فِي أَيْدِيهِمْ فَيَذِلَّ لَهُمْ وَيَذْهَبَ دِينُهُ مَعَهُمْ ، وَلَا يَتَكَبَّرُ عَلَيْهِمْ . وَإِذَا سَأَلَ أَحَدًا مِنْهُمْ حَاجَةً فَقَضَاهَا فَهُوَ أَخٌ مُسْتَفَادٌ ،

(١) سكن إليهم : ارتاح إليهم

وَإِنْ لَمْ يَقْضِهَا فَلَا يَذُمُّهُ فَيَكْتَسِبَ عَدَاوَتَهُ ، وَلَا يَعِظُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يَرَى فِيهِ أَثَرَ ٱلْقَبُولِ وَإِلَّا عَادَاهُ وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ . وَإِذَا رَأَى مِنْهُمْ خَيْرًا أَوْ كَرَامَةً أَوْ ثَنَاءً فَلْيَرْجِعْ بِذَلِكَ إِلَى ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَحْمَدْهُ وَيَسْأَلْهُ أَلَّا يَكِلَهُ إِلَيْهِمْ ، وَإِذَا رَأَى مِنْهُمْ شَرًّا أَوْ كَلَامًا قَبِيحًا أَوْ غِيبَةً أَوْ شَيْئًا يَكْرَهُهُ ، فَلْيَكِلِ ٱلْأَمْرَ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى، وَيَسْتَعِيذُ بِهِ مِنْ شَرِّهِمْ وَيَسْتَعِينُهُ عَلَيْهِمْ وَلَا يُعَاتِبُهُمْ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ عِنْدَهُمْ لِلْعِتَابِ مَوْضِعًا وَيَصِيرُونَ لَهُ أَعْدَاءً وَلَا يَشْفِي غَيْظَهُ بَلْ يَتُوبُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى مِنَ ٱلذَّنْبِ ٱلَّذِي بِهِ سَلَّطَهُمْ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَغْفِرُ ٱللهَ مِنْهُ . وَلْيَكُنْ سَمِيعًا لِحَقِّهِمْ أَصَمَّ عَنْ بَاطِلِهِمْ .

***

آداب الولد مع والديه

« آدابُ ٱلْوَلَدِ مَعَ وَالِدَيْهِ » يَسْمَعُ كَلَامَهُمَا وَيَقُومُ لِقِيَامِهِمَا وَيَمْتَثِلُ لِأَمْرِهِمَا وَيُلَبِّي دَعْوَتَهُمَا ، وَيَخْفِضُ لَهُمَا جَنَاحَ (١) ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَلَا يُبْرِمُهُمَا (٢) بِالْإِلْحَاحِ

(١) يخفض لهما جناح الذل الخ : أى يستكين لهما ويخضع لاوامرهما

(٢) ولا يبرمهما الخ : ولا يضجرهما بالالحاح قاصدا افحامهما

وَلَا يَمُنُّ[1] عَلَيْهِمَا بِالْبِرِّ لَهُمَا وَلَا بِالْقِيَامِ بِأَمْرِهِمَا ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا شَزْرًا[2] وَلَا يَعْصِي لَهُمَا أَمْرًا .

***

آداب الوالد مع أولاده

« آدَابُ الْوَالِدِ مَعَ أَوْلَادِهِ » يُعِينُهُمْ عَلَى بِرِّهِ وَلَا يُكَلِّفُهُمْ مِنَ الْبِرِّ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ ، وَلَا يُلِحُّ عَلَيْهِمْ فِي وَقْتِ ضَجَرِهِمْ ، وَلَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ طَاعَةِ رَبِّهِ ، وَلَا يَمُنُّ عَلَيْهِمْ بِتَرْبِيَتِهِ .

***

آداب الاخوان

« آدَابُ الْإِخْوَانِ » الِاسْتِبْشَارُ بِهِمْ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، وَالِابْتِدَاءُ بِالسَّلَامِ ، وَالْمُؤَانَسَةُ وَالتَّوْسِعَةُ عِنْدَ الْجُلُوسِ ، وَالتَّشْيِيعُ[3] عِنْدَ اللِّقَاءِ ، وَالْإِنْصَاتُ عِنْدَ الْكَلَامِ ، وَتُكْرَهُ الْمُجَادَلَةُ فِي الْمَقَالِ وَحُسْنُ الْقَوْلِ لِلْحِكَايَاتِ ، وَتَرْكُ الْجَوَابِ عِنْدَ انْقِضَاءِ الْخِطَابِ وَالنِّدَاءُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ.

---

(١) ولا يمن عليهما الخ: ولا يعد عليهما ما فعله من الصنائع لهما (٢) شزرا: أى نظرا فيه اعراض ، أو نظر الغضبان (٣) التشييع: التوديع والخروج مع الضعيف حتى يبلغه منزله

***

« آدَابُ ٱلْجَارِ » اِبْتِدَاؤُهُ بِالسَّلَامِ ،وَلَا يُطِيلُ مَعَهُ ٱلْكَلَامَ وَلَا يُكْثِرُ عَلَيْهِ ٱلسُّؤَالَ ، وَيَعُودُهُ فِي مَرَضِهِ وَيُعَزِّيهِ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ وَيُهَنِّئُهُ عِنْدَ فَرَحِهِ وَيَتَلَطَّفُ لِوَلَدِهِ وَعَبْدِهِ فِي ٱلْكَلَامِ ، وَيَصْفَحُ عَنْ زَلَّتِهِ ، وَمُعَاتَبَتُهُ بِرِفْقٍ عِنْدَ هَفْوَتِهِ ، وَيَغُضُّ عَنْ حُرْمَتِهِ وَيُعِينُهُ عِنْدَ صَرْخَتِهِ (١) وَلَا يُدِيمُ ٱلنَّظَرَ إِلَى خَادِمَتِهِ . آداب الجار

***

« آدَابُ ٱلسَّيِّدِ مَعَ عَبْدِهِ » لَا يُكَلِّفُهُ مَا لَا يُطِيقُ مِنْ خِدْمَتِهِ ، وَيَرْفُقُ بِهِ عِنْدَ ضَجَرِهِ ، وَلَا يُكْثِرُ ضَرْبَهُ وَلَا يُدِيمُ سَبَّهُ فَيَجْرُؤَ عَلَيْهِ وَيَصْفَحُ عَنْ زَلَّتِهِ وَيَقْبَلُ مَعْذِرَتَهُ وَإِذَا أَصْلَحَ لَهُ طَعَامًا أَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى مَائِدَتِهِ أَوْ أَعْطَاهُ لُقَمًا مِنْ طَعَامِهِ . آداب السيد مع عبده

***

« آدَابُ ٱلْعَبْدِ مَعَ سَيِّدِهِ » يَأْتَمِرُ لِأَمْرِهِ وَيَنْصَحُهُ آداب العبد مع سيده

(١) صرخته : استغاثته

فِي غَيْبَتِهِ ، وَيَبْذُلُ لَهُ خِدْمَتَهُ وَيَحْفَظُهُ فِي حُرْمَتِهِ وَيَرِقُّ عَلَى وَلَدِهِ وَلَا يَخُونُهُ فِي مَالِهِ .

***

آداب السلطان مع الرعية

« آدَابُ السُّلْطَانِ مَعَ الرَّعِيَّةِ » اسْتِعْمَالُ الرِّفْقِ وَتَرْكُ التَّعْنِيفِ وَالْفِكْرُ قَبْلَ الْأَمْرِ ، وَتَرْكُ التَّكَبُّرِ عَلَى الْخَاصَّةِ مَعَ مَنْعِ الْعُدْوَانِ مِنْهُمْ ، وَالتَّوَدُّدُ إِلَى الْعَامَّةِ مَعَ مَزْجِ الرَّهْبَةِ لَهُمْ ، وَالتَّطَلُّعُ عَلَى أُمُورِ الْحَاشِيَةِ[1] وَاسْتِعْمَالُ الْمُرُوءَةِ مَعَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّوْسِعَةُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الْأَصْحَابِ وَالْأَقَارِبِ ، وَالرِّفْقُ فِي الْجِنَايَةِ وَدَوَامُ الْحِمَايَةِ .

***

آداب الرعية مع السلطان

« آدَابُ الرَّعِيَّةِ مَعَ السُّلْطَانِ » قِلَّةُ الْغِشْيَانِ لِبَابِهِ وَتَرْكُ الِاسْتِعَانَةِ بِهِ إِلَّا بِشَيْءٍ يَلْزَمُ أَمْرَهُ ، وَدَوَامُ الْهَيْبَةِ لَهُ وَإِنْ كَانَ ذَا رِفْقٍ ، وَتَرْكُ الِاسْتِجْرَاءِ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ ذَا لِينٍ ، وَقِلَّةُ السُّؤَالِ وَإِنْ كَانَ مُجِيبًا ، وَالدُّعَاءُ لَهُ

(١) الحاشية : الصغار من الناس

إِذَا ظَهَرَ ، وَتَرْكُ ٱلْكَلَامِ فِيهِ ، وَٱلْإِنْشَادُ إِذَا غَابَ .

***

آداب القاضى

« آدابُ ٱلْقَاضِى » إِدْمَانُ ٱلسُّكُوتِ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْوَقَارِ وَهُدُوُّ ٱلْجَوَارِحِ وَمَنْعُ ٱلْحَاشِيَةِ مِنَ ٱلْفَسَادِ وَٱلطُّغْيَانِ ، وَٱلرِّفْقُ بِالْأَرَامِلِ وَٱلِاحْتِيَاطُ لِلْيَتِيمِ وَٱلتَّوَقُّفُ فِى ٱلْجَوَابِ وَٱلرِّفْقُ بِالْخُصُومِ ، وَمَنْعُ ٱلْمَيْلِ إِلَى أَحَدِ ٱلْخَصْمَيْنِ وَٱلْمَوْعِظَةُ لِلْمُخَالِفِ وَدَوَامُ ٱللَّجَإِ إِلَى ٱللهِ فِى صَوَابِ ٱلْقَضَاءِ (١) .

***

آداب الشاهد

« آدَابُ ٱلشَّاهِدِ » ٱسْتِشْعَارُ ٱلْأَمَانَةِ وَإِظْهَارُ ٱلصِّيَانَةِ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلدِّيَانَةِ وَتَرْكُ ٱلْخِيَانَةِ وَٱلتَّثَبُّتُ فِى ٱلشَّهَادَةِ وَٱلتَّحَفُّظُ مِنَ ٱلنِّسْيَانِ وَقِلَّةُ ٱلْمُجَادَلَةِ لِلسُّلْطَانِ .

***

آداب الجهاد

« آدَابُ ٱلْجِهَادِ » صِدْقُ ٱلنِّيَّةِ وَٱلْغِيرَةُ لِلهِ تَعَالَى

(١) القضاء : الحكم

وَبَذْلُ ٱلْمَجْهُودِ وَٱلسَّخَاءُ بِالْمُهْجَةِ وَنَفْيُ شَهْوَةِ ٱلرُّجُوعِ وَٱلْقَصْدُ فِي أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ ٱللهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَتَرْكُ ٱلْغُلُولِ[1] وَقَضَاءُ دَيْنِهِ قَبْلَ ٱلْخُرُوجِ وَٱسْتِصْحَابُ ذِكْرِ ٱللهِ عِنْدَ ٱلْقِتَالِ وَفِي كُلِّ حَالٍ .

***

آداب الاسير

« آدَابُ ٱلْأَسِيرِ » لَا يُؤَمِّلُ فَرَجاً[2] مِنْ غَيْرِ ٱللهِ تَعَالَى ، وَلَا يُذِلُّ نَفْسَهُ فِي مَعْصِيَةِ ٱللهِ تَعَالَى ، وَلَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ[3] ٱللهِ تَعَالَى وَيَجْمَعُ هَمَّهُ بَيْنَ يَدَيِ ٱللهِ تَعَالَى ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ بِعَيْنِ[4] ٱللهِ ، وَلَا يَنْبَسِطُ فِي مَالِ ٱلْعَدُوِّ بِمَا لَا يُبِيحُهُ ٱللهُ وَلَا يَفْزَعُ[5] إِلَى غَيْرِ ٱللهِ تَعَالَى .

***

« آدَابٌ جَامِعَةٌ »

آداب جامعة

قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ مِنَ ٱلْأَدَبِ : ٱلْقَ صَدِيقَكَ

---

(١) الغلول : الخيانة فى المغنم (٢) فرجا : خلاصا ومخرجا (٣) روح الله رحمته ونصرته (٤) بعين الله . برعايته وحفظه (٥) لا يفزع . لا يلجأ

وَعَدُوَّكَ بِوَجْهِ ٱلرِّضَاءِ مِنْ غَيْرِ ذِلَّةٍ لَهُمْ وَلَا هَيْبَةٍ مِنْهُمْ وَتَوَقَّرْ مِنْ غَيْرِ كِبْرٍ ، وَكُنْ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ فِي أَوْسَاطِهَا ، وَلَا تَنْظُرْ فِي عِطْفَيْكَ (١) ، وَلَا تُكْثِرْ ٱلِالْتِفَاتَ وَلَا تَقِفْ عَلَى ٱلْجَمَاعَاتِ ، وَإِذَا جَلَسْتَ فَتَرَفَّعْ وَتَحَذَّرْ مِنْ تَشْبِيكِ أَصَابِعِكَ وَٱلْعَبَثِ بِخَاتَمِكَ وَتَخْلِيلِ أَسْنَانِكَ وَإِدْخَالِ يَدِكَ فِي أَنْفِكَ وَتَرْكِ (٢) ٱلذُّبَابِ عَلَى وَجْهِكَ وَكَثْرَةِ ٱلتَّمَطِّي (٣) وَٱلتَّثَاؤُبِ . وَلْيَكُنْ مَجْلِسُكَ هَادِئًا وَكَلَامُكَ مَقْسُومًا وَٱصْغَ إِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْحَسَنِ مِمَّنْ يُحَدِّثُكَ بِغَيْرِ إِظْهَارِ عُجْبٍ مِنْكَ وَلَا مَسْكَنَةٍ وَلَا إِعَادَةٍ ، وَغُضَّ عَنْ (٤) ٱلْمَضَاحِكِ وَٱلْحِكَايَاتِ وَلَا تُحَدِّثْ عَنْ إِعْجَابِكَ بِوَلَدِكَ وَلَا جَارِيَتِكَ وَلَا تَتَصَنَّعْ (٥) كَمَا تَتَصَنَّعُ ٱلْمَرْأَةُ . وَلَا تَتَبَذَّلْ كَمَا يَتَبَذَّلُ ٱلْعَبْدُ . وَكُنْ مُعْتَدِلًا فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ ، وَتَوَقَّ كَثْرَةَ ٱلْكُحْلِ وَٱلْإِسْرَافَ فِي

(١) لا تنظر فى عطفيك . العطف بالكسر الجانب ـ أى لا تتكبر معرضا (٢) فى الاصل : وطرد الذباب عن وجهك (٣) التمطى . التبختر ومد اليدين فى المشى (٤) فى الاصل : من (٥) لا تتصنع . لاتتزين

الدُّهْنِ وَلَا تُلِجَّ فِي الْحِكَايَاتِ وَلَا تُعْلِمْ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمْ عَنْ مَالِكَ فَإِنَّهُمْ إِنْ رَأَوْهُ قَلِيلًا هُنْتَ عَلَيْهِمْ ، وَإِنْ رَأَوْهُ كَثِيرًا لَمْ تَبْلُغْ إِلَى رِضَاهُمْ ، وَأَجِبْهُمْ مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ ، وَلِنْ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ ، وَإِذَا خَاصَمْتَ فَتَوَقَّرْ . وَتَفَكَّرْ فِي حُجَّتِكَ ، وَلَا تُكْثِرِ الْإِشَارَةَ بِيَدِكَ ، وَلَا تَجْثُ عَلَى رُكْبَتَيْكَ ، وَإِذَا هَدَأَ غَضَبُكَ فَتَكَلَّمْ . وَإِنْ بُلِيتَ بِصُحْبَةِ السُّلْطَانِ فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ ، وَلَا تَأْمَنْ مِنِ انْقِلَابِهِ عَلَيْكَ ، وَارْفُقْ بِهِ رِفْقَكَ بِالصَّبِيِّ وَكَلِّمْهُ بِمَا يَشَاءُ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَدْخُلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَحَشَمِهِ [1] وَلَوْ كَانَ مُسْتَمِعًا لِذَلِكَ . وَإِيَّاكَ وَصَدِيقَ الْعَافِيَةِ فَإِنَّهُ أَحَدُ الْأَعْدَاءِ لَكَ وَلَا تَجْعَلْ مَالَكَ أَكْرَمَ عَلَيْكَ مِنْ عِرْضِكَ . وَإِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الْبُصَاقِ بَيْنَ النَّاسِ فَإِنَّ صَاحِبَهُ يُنْسَبُ إِلَى التَّأْنِيثِ . وَلَا تُظْهِرْ لِصَدِيقِكَ كُلَّ مَا يُؤْذِيكَ فَإِنَّهُ مَتَى رَأَى مِنْكَ

(١) الحشم . الخدم

وَقْعَةً أَعْقَبَكَ ٱلْعَدَاوَةَ . وَلَا تُمَازِحْ لَبِيباً فَيَحْقِدَ عَلَيْكَ وَلَا سَفِيهاً فَيَجْتَرِئَ عَلَيْكَ ، لِأَنَّ ٱلْمُزَاحَ يَخْرِقُ ٱلْهَيْبَةَ وَيُسْقِطُ ٱلْمَنْزِلَةَ وَيُذْهِبُ مَاءَ ٱلْوَجْهِ وَيُعْقِبُ ٱلْحَزَنَ وَيُزِيلُ حَلَاوَةَ ٱلْوُدِّ . يُثِيرُ فِقْهَ (١) ٱلْفَقِيهِ وَيُجَرِّئُ ٱلسَّفِيهَ وَيُمِيتُ ٱلْقَلْبَ وَيُبَاعِدُ مِنَ ٱلرَّبِّ . وَيُعْقِبُ ٱلذَّمَّ ، وَيَفْسَخُ ٱلْعَزْمَ ، وَيُظْلِمُ ٱلسَّرَائِرَ (٢) وَيُمِيتُ ٱلْخَوَاطِرَ ، وَيُكْثِرُ ٱلذُّنُوبَ ، وَيُبَيِّنُ ٱلْعُيُوبَ ، نَسْأَلُ ٱللهَ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَنَا فِيمَنْ هَدَى ، وَيُعَافِيَنَا فِيمَنْ عَافَى ، وَيَتَوَلَّانَا فِيمَنْ تَوَلَّى ، وَيُبَارِكَ لَنَا فِيمَا أَعْطَى ، وَيَقِيَنَا شَرَّ مَاقَضَى ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَى ، وَلَا يَذِلُّ مَنْ وَالَى ، تَبَارَكَ رَبُّنَا وَتَعَالَى ، نَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ بِأَفْضَلِ ٱلصَّلَوَاتِ كُلِّهَا عَلَى عَبْدِهِ ٱلْمُصْطَفَى ،

---

(١) يثير فقه الفقيه : أى يهيج فهمه و يغضبه .

(٢) و يظلم السرائر : السرائر : الضمائر : و إظلامها . إشابتها وجعلها غير مخلصة وافسادها .

وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَعْلَامِ الْهُدَى ، وَسَلَّمْ تَسْلِيماً كَثِيرًا

وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ

النَّبِيِّ الْأَمِينِ ، آمِينَ .

« رسالة المنقذ من الضلال »

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِى يُفْتَتَحُ بِحَمْدِهِ كُلُّ رِسَالَةٍ وَمَقَالَةٍ ، وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ - اَلْمُصْطَفَى - صَاحِبِ اَلنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ اَلْهَادِينَ مِنَ اَلضَّلَالَةِ .

أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ سَأَلْتَنِى أَيُّهَا اَلْأَخُ فِى اَلدِّينِ ، أَنْ أَبُثَّ (١) إِلَيْكَ غَايَةَ اَلْعُلُومِ وَأَسْرَارَهَا ، وَغَائِلَةَ (٢) اَلْمَذَاهِبِ وَأَغْوَارَهَا (٣) ، وَأَحْكِىَ لَكَ مَاقَاسَيْتُهُ فِى اَسْتِخْلَاصِ اَلْحَقِّ مِنْ بَيْنِ اَضْطِرَابِ اَلْفِرَقِ ، مَعَ تَبَايُنِ اَلْمَسَالِكِ وَالطُّرُقِ ، وَمَا اَسْتَجْرَأْتُ عَلَيْهِ مِنَ اَلِارْتِفَاعِ عَنْ حَضِيضِ اَلتَّقْلِيدِ ، إِلَى يَفَاعِ (٤) اَلِاسْتِبْصَارِ ، وَمَا اَسْتَفَدْتُهُ أَوَّلًا مِنْ

(١) أى أشرح وأظهر (٢) الغائلة : مؤنث الغائل وهى فى الأصل الداهية والشر (٣) الغور : القعر من كل شىء ، وغار الماء فى الارض ذهب ، وفلان بعيد الغور ، أى متعمق النظر : يريد ماتشعب من المذاهب وشرورها وما بعدت مسالكه واستعصى فهمه (٤) اليفاع : التل وما ارتفع من الارض

عِلْمِ ٱلْكَلَامِ ، وَمَا ٱجْتَوَيْتُهُ [١] ثَانِيًا مِنْ طُرُقِ أَهْلِ ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْقَاصِرِينَ لِدَرْكِ ٱلْحَقِّ عَلَى تَقْلِيدِ ٱلْإِمَامِ ، وَمَا أَزْدَرَيْتُهُ [٢] ثَالِثًا مِنْ طُرُقِ ٱلتَّفَلْسُفِ ، وَمَا ٱرْتَضَيْتُهُ آخِرًا مِنْ طَرِيقَةِ ٱلتَّصَوُّفِ ، وَمَا ٱنْجَلَى لِي فِي تَضَاعِيفِ تَفْتِيشِي عَنْ أَقَاوِيلِ ٱلْخَلْقِ مِنْ لُبَابِ ٱلْحَقِّ ، وَمَا صَرَفَنِي عَنْ نَشْرِ ٱلْعِلْمِ بِبَغْدَادَ ، مَعَ كَثْرَةِ ٱلطَّلَبَةِ ، وَمَا دَعَانِي إِلَى مُعَاوَدَتِي بِنَيْسَابُورَ [٣] بَعْدَ طُولِ ٱلْمُدَّةِ ، فَٱبْتَدَرْتُ لِإِجَابَتِكَ إِلَى طَلَبِكَ ، بَعْدَ ٱلْوُقُوفِ عَلَى صِدْقِ رَغْبَتِكَ ، وَقُلْتُ مُسْتَعِينًا بِٱللهِ وَمُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ ، وَمُسْتَوْفِقًا [٤] مِنْهُ ، وَمُلْتَجِئًا إِلَيْهِ .

ٱعْلَمُوا ـ أَحْسَنَ ٱللهُ إِرْشَادَكُمْ ، وَأَلَانَ لِلْحَقِّ قِيَادَكُمْ ـ أَنَّ ٱخْتِلَافَ ٱلْخَلْقِ فِي ٱلْأَدْيَانِ وَٱلْمِلَلِ ، ثُمَّ ٱخْتِلَافَ

---

(١) أى كرهته (٢) أى احتقرته وكرهته (٣) بلدة عظيمة من بلاد فارس فتحت فى أيام عمر وانتقض أهلها فأعاد فتحها عبد الله بن عامر فى أيام عثمان وأنجبت كثيرين من أعلام العلماء وكانت بها مجالس للعلم مشهورة (٤) أى مستمدا منه التوفيق

ٱلْأَئِمَّةِ فِى ٱلْمَذَاهِبِ عَلَى كَثْرَةِ ٱلْفِرَقِ وَتَبَايُنِ ٱلطُّرُقِ ، بَحْرٌ عَمِيقٌ غَرِقَ فِيهِ ٱلْأَكْثَرُونَ ، وَمَا نَجَا مِنْهُ إِلَّا ٱلْأَقَلُّونَ ، وَكُلُّ فَرِيقٍ يَزْعُمُ أَنَّهُ ٱلنَّاجِى ، وَكُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ، وَهُوَ ٱلَّذِى وَعَدَنَا بِهِ سَيِّدُ ٱلْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ ٱلصَّادِقُ ٱلصَّدُوقُ حَيْثُ قَالَ : « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِى ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، ٱلنَّاجِيَةُ مِنْهَا وَاحِدَةٌ » ، فَقَدْ كَادَ مَاعَدَّ أَنْ يَكُونَ .

وَلَمْ أَزَلْ فِى عُنْفُوَانِ شَبَابِى ، مُنْذُ رَاهَقْتُ ٱلْبُلُوغَ قَبْلَ بُلُوغِ ٱلْعِشْرِينَ إِلَى ٱلْآنَ ، وَقَدْ أَنَافَ[1] ٱلسِّنُّ عَلَى ٱلْخَمْسِينَ ، أَقْتَحِمُ[2] لُجَّةَ هَذَا ٱلْبَحْرِ ٱلْعَمِيقِ وَأَخُوضُ غَمَرَاتِهِ خَوْضَ ٱلْجُسُورِ ، لَاخَوْضَ ٱلْجَبَانِ ٱلْحَذُورِ ، وَأَتَوَغَّلُ فِى كُلِّ مُظْلِمَةٍ ، وَأَتَهَجَّمُ عَلَى كُلِّ مُشْكِلَةٍ ، وَأَتَقَحَّمُ كُلَّ وَرْطَةٍ ، وَأَتَفَحَّصُ[3] عَنْ عَقِيدَةِ كُلِّ فِرْقَةٍ ، وَأَسْتَكْشِفُ أَسْرَارَ مَذْهَبِ كُلِّ طَائِفَةٍ لِأُمَيِّزَ بَيْنَ مُحِقٍّ

(١) أى أشرف (٢) ألقى بنفسى بشدة ومشقة (٣) أبحث بامعان

وَمُبْطِلٍ وَمُتَسَنِّنٍ وَمُبْتَدِعٍ [١] ، لَا أُغَادِرُ بَاطِنِيًّا إِلَّا وَأُحِبُّ أَنْ أَطَّلِعُ عَلَى بَطَانَتِهِ [٢] ، وَلَا ظَاهِرِيًّا إِلَّا وَأُرِيدُ أَنْ أَعْلَمَ حَاصِلَ ظَهَارَتِهِ [٣] ، وَلَا فَلْسَفِيًّا إِلَّا وَأَقْصِدُ الْوُقُوفَ عَلَى كُنْهِ فَلْسَفَتِهِ ، وَلَا مُتَكَلِّمًا إِلَّا وَأَجْتَهِدُ فِي الِاطِّلَاعِ عَلَى غَايَةِ كَلَامِهِ وَمُجَادَلَتِهِ ، وَلَا صُوفِيًّا إِلَّا وَأَحْرِصُ عَلَى الْعُثُورِ عَلَى سِرِّ صَفْوَتِهِ ، وَلَا مُتَعَبِّدًا إِلَّا وَأَتَرَصَّدُ [٤] مَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَاصِلُ عِبَادَتِهِ ، وَلَا زِنْدِيقًا [٥] مُعَطِّلًا [٦] إِلَّا وَأَتَجَسَّسُ وَرَاءَهُ لِلتَّنَبُّهِ لِأَسْبَابِ جُرْأَتِهِ فِي تَعْطِيلِهِ وَزَنْدَقَتِهِ .

وَقَدْ كَانَ التَّعَطُّشُ إِلَى دَرْكِ حَقَائِقِ الْأُمُورِ رَأْيِي وَدَيْدَنِي مِنْ أَوَّلِ أَمْرِي وَرَيْعَانِ [٧] عُمُرِي ، غَرِيزَةً وَفِطْرَةً

---

(١) أى مخترع ، وقد غلب الابتداع على الحدث المكروه فى الدين . ومنه كل بدعة ضلالة (٢) العقيدة الباطنية (٣) الظاهرية : فرقة تنسب الى داود الظاهرى تأخذ بظاهر لفظ القرآن والحديث دون تكلف تأويل أو تفسير بعيد (٤) الترصد : الترقب (٥) الزنديق : من يخفى الكفر و يظهر الايمان كالمنافق — والفرق بينهما أن المنافق يظهر الاسلام خالصا ، والزنديق تظهر على أقواله وأفعاله بواطن عقيدته (٦) التعطيل : انكار صفات الخالق (٧) ريعان كل شىء : أوله ، ومنه ريعان الشباب

مِنَ اللهِ وُضِعتَا فِي جِبلَّتِي ، لَا بِاخْتِيَارِي وَحِيلَتِي ، حَتَّى انْحَلَّتْ عَنِّي رَابِطَةُ التَّقْيِيدِ ، وَانْكَسَرَتْ عَلَيَّ الْعَقَائِدُ الْمَوْرُوثَةُ ، عَلَى قُرْبِ عَهْدِ سِنِّ الصِّبَا ، إِذْ رَأَيْتُ صِبْيَانَ [1] النَّصَارَى لَا يَكُونُ لَهُمْ نُشُوءٌ إِلَّا عَلَى التَّنَصُّرِ وَصِبْيَانَ الْيَهُودِ لَا نُشُوءَ لَهُمْ إِلَّا عَلَى التَّهَوُّدِ ، وَصِبْيَانَ الْمُسْلِمِينَ لَا نُشُوءَ لَهُمْ إِلَّا عَلَى الْإِسْلَامِ . وَسَمِعْتُ الْحَدِيثَ الْمَرْوِيَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ قَالَ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ [2] فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ » فَتَحَرَّكَ بَاطِنِي إِلَى حَقِيقَةِ الْفِطْرَةِ الْأَصْلِيَّةِ ، وَحَقِيقَةِ الْعَقَائِدِ الْعَارِضَةِ بِتَقْلِيدِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأُسْتَاذَيْنِ ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ هَذِهِ التَّقْلِيدَاتِ ، وَأَوَائِلُهَا تَلْقِينَاتٌ . وَفِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنْهَا عَنِ الْبَاطِلِ اخْتِلَافَاتٌ

(١) صبيان وصبية : جمع صبي . وهو الطفل قبل المراهقة

(٢) الفطرة : بالكسر الخلقة ومثلها الجبلة . والمراد من الحديث أنه يولد على الدين الحق جبلة وفطرة

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : أَوَّلًا ، إِنَّمَا مَطْلُوبِي ٱلْعِلْمُ بِحَقَائِقِ ٱلْأُمُورِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ طَلَبِ حَقِيقَةِ ٱلْعِلْمِ مَاهِيَ ؟ فَظَهَرَ لِي أَنَّ ٱلْعِلْمَ ٱلْيَقِينِيَّ هُوَ ٱلَّذِي يَنْكَشِفُ فِيهِ ٱلْمَعْلُومُ ٱنْكِشَافًا لَا يَبْقَى مَعَهُ رَيْبٌ ، وَلَا يُقَارِنُهُ إِمْكَانُ ٱلْغَلَطِ وَٱلْوَهَمِ ، وَلَا يَتَّسِعُ ٱلْقَلْبُ لِتَقْدِيرِ ذَلِكَ ، بَلِ ٱلْأَمَانُ مِنَ ٱلْخَطَإِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُقَارِنًا لِلْيَقِينِ مُقَارَنَةً لَوْ تَحَدَّى بِإِظْهَارِ بُطْلَانِهِ مَثَلًا مَنْ يَقْلِبُ ٱلْحَجَرَ ذَهَبًا وَٱلْعَصَا ثُعْبَانًا ، لَمْ يُورِثْ [1] ذَلِكَ شَكًّا وَإِنْكَارًا ، فَإِنِّي إِذَا عَلِمْتُ أَنَّ ٱلْعَشَرَةَ أَكْثَرُ مِنَ ٱلثَّلَاثَةِ ، فَلَوْ قَالَ لِي قَائِلٌ : لَا ، بَلِ ٱلثَّلَاثَةُ أَكْثَرُ بِدَلِيلٍ أَنِّي أَقْلِبُ هَذِهِ ٱلْعَصَا ثُعْبَانًا وَقَلَبَهَا ، وَشَاهَدْتُ ذَلِكَ مِنْهُ ، لَمْ أَشُكَّ بِسَبَبِهِ فِي مَعْرِفَتِي ، وَلَمْ يَحْصُلْ لِي مِنْهُ إِلَّا ٱلتَّعَجُّبُ مِنْ كَيْفِيَّةِ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ ! فَأَمَّا ٱلشَّكُّ فِيمَا عَلِمْتُهُ ، فَلَا .

---

(١) يحدث .

ثُمَّ عَلِمْتُ أَنَّ كُلَّ مَا لَا أَعْلَمُهُ عَلَى هَذَا ٱلْوَجْهِ وَلَا أَتَيَقَّنُهُ هَـذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْيَقِينِ ، فَهُوَ عِلْمٌ لَا ثِقَةَ بِهِ ، وَلَا أَمَانَ مَعَهُ ، وَكُلُّ عِلْمٍ لَا أَمَانَ مَعَهُ فَلَيْسَ بِعِلْمٍ يَقِينِيٍّ .

السفسطة وجحد العلوم

﴿ مَدَاخِلُ ٱلسَّفْسَطَةِ [١] وَجَحْدُ ٱلْعُلُومِ ﴾

ثُمَّ فَتَّشْتُ عَنْ عُلُومِي فَوَجَدْتُ نَفْسِي عَاطِلًا مِنْ عِلْمٍ مَوْصُوفٍ بِهَذِهِ ٱلصِّفَةِ إِلَّا فِي ٱلْحِسِّيَّاتِ وَٱلضَّرُورِيَّاتِ فَقُلْتُ : ٱلْآنَ بَعْدَ حُصُولِ ٱلْيَأْسِ ، لَا مَطْمَعَ فِي ٱقْتِبَاسِ ٱلْمُشْكِلَاتِ إِلَّا مِنَ ٱلْجَلِيَّاتِ وَهِيَ ٱلْحِسِّيَّاتُ وَٱلضَّرُورِيَّاتُ ، فَلَا بُدَّ مِنْ إِحْكَامِهَا أَوَّلًا لِأَتَيَقَّنَ أَثِقَ بِالْمَحْسُوسَاتِ وَأَمَانِي مِنَ ٱلْغَلَطِ فِي ٱلضَّرُورِيَّاتِ ، مِنْ جِنْسِ أَمَانِ ٱلَّذِي كَانَ مِنْ قَبْلُ فِي ٱلتَّقْلِيدِيَّاتِ ، وَمِنْ جِنْسِ أَمَانِ أَكْثَرِ ٱلْخَلْقِ فِي ٱلنَّظَرِيَّاتِ ، أَمْ هُوَ أَمَانٌ مُحَقَّقٌ لَا غَدْرَ فِيهِ وَلَا غَائِلَةَ لَهُ ؟ فَأَقْبَلْتُ بِجِدٍّ بَلِيغٍ أَتَأَمَّلُ فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ وَٱلضَّرُورِيَّاتِ ، وَأَنْظُرُ : هَلْ يُمْكِنُنِي أَنْ أُشَكِّكَ نَفْسِي فِيهَا ؟ فَانْتَهَى بِي طُولُ ٱلتَّشْكِيكِ إِلَى أَنْ لَمْ تَسْمَحْ نَفْسِي بِتَسْلِيمِ ٱلْأَمَانِ فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ أَيْضًا ،

(١) السفسطة : كلمة تطلق على من دأبهم المغالطة بالقضايا الفاسدة والأقاويل الخلابة ابتغاء الغلب دون اعتبار للحق

وَأَخَذَ يَتَّسِعَ هَذَا الشَّكُّ فِيهَا وَيَقُولُ : مِنْ أَيْنَ الثِّقَةُ بِالْمَحْسُوسَاتِ ، وَأَقْوَاهَا حَاسَّةُ الْبَصَرِ ، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى الظِّلِّ فَتَرَاهُ وَاقِفًا غَيْرَ مُتَحَرِّكٍ ، وَتَحْكُمُ بِنَفْيِ الْحَرَكَةِ ؟ ثُمَّ بِالتَّجْرِبَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ ، بَعْدَ سَاعَةٍ ، تَعْرِفُ أَنَّهُ مُتَحَرِّكٌ وَأَنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكْ دَفْعَةً بَغْتَةً ، بَلْ عَلَى التَّدْرِيجِ ذَرَّةً ذَرَّةً ، حَتَّى لَمْ تَكُنْ لَهُ حَالَةُ وُقُوفٍ ، وَتَنْظُرُ إِلَى الْكَوْكَبِ فَتَرَاهُ صَغِيرًا فِي مِقْدَارِ دِينَارٍ ، ثُمَّ الْأَدِلَّةُ الْهَنْدَسِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الْأَرْضِ فِي الْمِقْدَارِ. هَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ يَحْكُمُ فِيهَا حَاكِمُ الْحِسِّ بِأَحْكَامِهِ ، وَيُكَذِّبُهُ حَاكِمُ الْعَقْلِ وَيُخَوِّنُهُ تَكْذِيبًا لَا سَبِيلَ إِلَى مُدَافَعَتِهِ. فَقُلْتُ : قَدْ بَطَلَتِ الثِّقَةُ بِالْمَحْسُوسَاتِ أَيْضًا ، فَلَعَلَّهُ لَا ثِقَةَ إِلَّا بِالْعَقْلِيَّاتِ الَّتِي هِيَ مِنَ الْأَوَّلِيَّاتِ [1] ، كَقَوْلِنَا : الْعَشَرَةُ أَكْثَرُ مِنَ الثَّلَاثَةِ وَالنَّفْيُ وَالْإِثْبَاتُ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ ،

(١) أى التى لا تحتاج إلى نظر ولا إلى استدلال كالضروريات والبديهيات

وَالشَّيْءُ الْوَاحِدُ لَا يَكُونُ حَادِثًا قَدِيمًا ، مَوْجُودًا مَعْدُومًا وَاجِبًا مُحَالًا . فَقَالَتِ الْمَحْسُوسَاتُ : لِمَ[1] تَأْمَنُ أَنْ تَكُونَ ثِقَتُكَ بِالْعَقْلِيَّاتِ كَثِقَتِكَ بِالْمَحْسُوسَاتِ ، وَقَدْ كُنْتَ وَاثِقًا بِي ، فَجَاءَ حَاكِمُ الْعَقْلِ فَكَذَّبَنِي ، وَلَوْلَا حَاكِمُ الْعَقْلِ لَكُنْتَ تَسْتَمِرُّ عَلَى تَصْدِيقِي ؟ فَلَعَلَّ وَرَاءَ إِدْرَاكِ الْعَقْلِ حَاكِمًا آخَرَ ، إِذَا تَجَلَّى كَذَّبَ الْعَقْلَ فِي حُكْمِهِ كَمَا تَجَلَّى حَاكِمُ الْعَقْلِ فَكَذَّبَ الْحِسَّ فِي حُكْمِهِ ، وَعَدَمُ تَجَلِّي ذَلِكَ الْإِدْرَاكِ ، لَا يَدُلُّ عَلَى اسْتِحَالَتِهِ ، فَتَوَقَّفَتِ النَّفْسُ فِي جَوَابِ ذَلِكَ قَلِيلًا ، وَأَيَّدَتْ إِشْكَالَهَا بِالْمَنَامِ وَقَالَتْ : أَمَا تَرَاكَ تَعْتَقِدُ فِي النَّوْمِ أُمُورًا وَتَتَخَيَّلُ أَحْوَالًا وَتَعْتَقِدُ لَهَا ثَبَاتًا وَاسْتِقْرَارًا ، وَلَا تَشُكُّ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ فِيهَا ، ثُمَّ تَسْتَيْقِظُ فَتَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِجَمِيعِ مُتَخَيَّلَاتِكَ وَمُعْتَقَدَاتِكَ أَصْلٌ وَطَائِلٌ ؟ فَبِمَ تَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ مَا تَعْتَقِدُهُ فِي يَقَظَتِكَ بِحِسٍّ أَوْ عَقْلٍ هُوَ حَقٌّ بِالْإِضَافَةِ إِلَى حَالَتِكَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا ، لَكِنْ يُمْكِنُ أَنْ تَطْرَأَ عَلَيْكَ

---

(١) فى الاصل : ثم

حَالَةٌ تَكُونُ نِسْبَتُهَا إِلَى يَقَظَتِكَ ، كَنِسْبَةِ يَقَظَتِكَ إِلَى مَنَامِكَ ، وَتَكُونُ يَقَظَتُكَ نَوْمًا بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهَا ! فَإِذَا وَرَدَتْ تِلْكَ الْحَالَةُ تَيَقَّنْتَ أَنَّ جَمِيعَ مَاتَوَهَّمْتَ بِعَقْلِكَ خَيَالَاتٌ لَا حَاصِلَ لَهَا ، وَلَعَلَّ تِلْكَ الْحَالَةَ مَا تَدَّعِيهِ الصُّوفِيَّةُ أَنَّهَا حَالَتُهُمْ : إِذْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُشَاهِدُونَ فِي أَحْوَالِهِمُ الَّتِي لَهُمْ إِذَا غَاصُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَغَابُوا عَنْ حَوَاسِّهِمْ أَحْوَالًا لَاتُوَافِقُ هَذِهِ الْمَعْقُولَاتِ . وَلَعَلَّ تِلْكَ الْحَالَةَ هِيَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « النَّاسُ نِيَامٌ إِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا » فَلَعَلَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا نَوْمٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْآخِرَةِ ، فَإِذَا مَاتَ ظَهَرَتْ لَهُ الْأَشْيَاءُ عَلَى خِلَافِ مَا يُشَاهِدُهُ الْآنَ ، وَيُقَالُ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ : « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » فَلَمَّا خَطَرَتْ لِي هَذِهِ الْخَوَاطِرُ وَانْقَدَحَتْ فِي النَّفْسِ حَاوَلْتُ لِذَلِكَ عِلَاجًا فَلَمْ يَتَيَسَّرْ إِذْ لَمْ يَكُنْ دَفْعُهُ إِلَّا بِالدَّلِيلِ وَلَمْ يُمْكِنْ نَصْبُ دَلِيلٍ إِلَّا مِنْ تَرْكِيبِ الْعُلُومِ

ٱلْأَوَّلِيَّةِ . فَإِذَا لَمْ تَكُنْ مُسَلَّمَةً لَمْ يُمْكِنْ تَرْتِيبُ ٱلدَّلِيلِ ، فَأَعْضَلَ هَذَا ٱلدَّاءُ[1] ، وَدَامَ قَرِيباً مِنْ شَهْرَيْنِ أَنَا فِيهِمَا عَلَى مَذْهَبِ ٱلسَّفْسَطَةِ بِحُكْمِ ٱلْحَالِ ، لَا بِحُكْمِ ٱلنُّطْقِ وَٱلْمَقَالِ ، حَتَّى شَفَى ٱللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ ٱلْمَرَضِ ، وَعَادَتِ ٱلنَّفْسُ إِلَى ٱلصِّحَّةِ وَٱلِاعْتِدَالِ وَرَجَعَتِ ٱلضَّرُورِيَّاتُ ٱلْعَقْلِيَّةُ مَقْبُولَةً مَوْثُوقًا بِهَا عَلَى أَمْنٍ وَيَقِينٍ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِنَظْمِ دَلِيلٍ وَتَرْتِيبِ كَلَامٍ ، بَلْ بِنُورٍ قَذَفَهُ ٱللهُ تَعَالَى فِي ٱلصَّدْرِ ، وَذَلِكَ ٱلنُّورُ هُوَ مِفْتَاحُ أَكْثَرِ ٱلْمَعَارِفِ فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ ٱلْكَشْفَ مَوْقُوفٌ عَلَى ٱلْأَدِلَّةِ ٱلْمُحَرَّرَةِ فَقَدْ ضَيَّقَ رَحْمَةَ ٱللهِ تَعَالَى ٱلْوَاسِعَةَ . وَلَمَّا سُئِلَ رَسُولُ ٱللهِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : عَنِ « ٱلشَّرْحِ » وَمَعْنَاهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « فَمَنْ يُرِدِ ٱللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ » قَالَ : « هُوَ نُورٌ يَقْذِفُهُ ٱللهُ تَعَالَى فِي ٱلْقَلْبِ » فَقِيلَ : « وَمَا عَلَامَتُهُ ؟ » فَقَالَ : « ٱلتَّجَافِي عَنْ دَارِ ٱلْغُرُورِ ، وَٱلْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ ٱلْخُلُودِ » وَهُوَ ٱلَّذِي قَالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

(١) عز دواءه

فِيهِ : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ » فَمَنْ ذَلِكَ النُّورِ يَنْبَغِي أَنْ يُطْلَبَ الْكَشْفُ وَذَلِكَ النُّورُ يَنْبَجِسُ (١) مِنَ الْجُودِ الْإِلٰهِيِّ فِي بَعْضِ الْأَحَايِينِ ، وَيَجِبُ التَّرَصُّدُ لَهُ ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا »

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هٰذِهِ الْحِكَايَاتِ أَنْ يُعْمَلَ كَمَالُ الْجِدِّ فِي الطَّلَبِ ، حَتَّى يُنْتَهَى إِلَى طَلَبِ مَالَا يُطْلَبُ . فَإِنَّ الْأَوَّلِيَّاتِ لَيْسَتْ مَطْلُوبَةً ، فَإِنَّهَا حَاضِرَةٌ ، وَالْحَاضِرَ إِذَا طُلِبَ فُقِدَ وَاخْتَفَى . وَمَنْ طَلَبَ مَالَا (٢) يُطْلَبُ ، فَلَا يُتَّهَمُ بِالتَّقْصِيرِ فِي طَلَبِ مَا يُطْلَبُ .

(١) ينبجس : يتفجر (٢) فى الاصل : ما يطلب

أَصْنَافُ الطَّالِبِينَ

أصناف الطالبين

وَلَمَّا شَفَانِي اللهُ تَعَالَى مِنْ هَذَا الْمَرَضِ بِفَضْلِهِ وَسَعَةِ جُودِهِ، انْحَصَرَتْ أَصْنَافُ الطَّالِبِينَ عِنْدِي فِي أَرْبَعِ فِرَقٍ:

١ — الْمُتَكَلِّمُونَ: وَهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الرَّأْيِ وَالنَّظَرِ.

٢ — الْبَاطِنِيَّةُ: وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ التَّعْلِيمِ وَالْمَخْصُوصُونَ بِالِاقْتِبَاسِ مِنَ الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ.

٣ — الْفَلَاسِفَةُ: وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْمَنْطِقِ وَالْبُرْهَانِ.

٤ — الصُّوفِيَّةُ: وَهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ خَوَاصُّ الْحَضْرَةِ وَأَهْلُ الْمُشَاهَدَةِ وَالْمُكَاشَفَةِ.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: الْحَقُّ لَا يَعْدُو هَذِهِ الْأَصْنَافَ الْأَرْبَعَةَ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ السَّالِكُونَ سُبُلَ طَلَبِ الْحَقِّ، فَإِنْ شَذَّ الْحَقُّ عَنْهُمْ فَلَا يَبْقَى فِي دَرْكِ الْحَقِّ مَطْمَعٌ، وَلَا[1] مَطْمَعَ فِي الرُّجُوعِ إِلَى التَّقْلِيدِ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ، إِذْ مِنْ

(١) فى الاصل: اذ لامطمع الخ

شَرْطِ ٱلْمُقَلِّدِ أَلَّا يَعْلَمَ أَنَّهُ مُقَلِّدٌ، فَإِذَا عَلِمَ ذَلِكَ ٱنْكَسَرَتْ زُجَاجَةُ تَقْلِيدِهِ، وَهُوَ شَعْبٌ لَا يُرْأَبُ (١)، وَشَعَثٌ لَا يُلَمُّ (٢) بِالتَّلْفِيقِ وَٱلتَّأْلِيفِ، إِلَّا أَنْ يُذَابَ بِالنَّارِ، وَيُسْتَأْنَفَ لَهُ صَنْعَةٌ أُخْرَى مُسْتَجَدَّةٌ. فَابْتَدَرْتُ (٣) بِسُلُوكِ هَذِهِ ٱلطُّرُقِ، وَٱسْتِقْصَاءِ (٤) مَا عِنْدَ هَذِهِ ٱلْفِرَقِ، مُبْتَدِئًا بِعِلْمِ ٱلْكَلَامِ، وَمُثَنِّيًا بِعِلْمِ ٱلْفَلْسَفَةِ، وَمُثَلِّثًا بِتَعْلِيمِ ٱلْبَاطِنِيَّةِ وَمُرَبِّعًا بِطَرِيقِ ٱلصُّوفِيَّةِ.

(١) لا يرأب : لا يصلح (٢) شعث : بفتح العين : مصدر . ويقال فى الدعاء « لم الله شعثكم » أى أمركم . لا يلم : أى لا يجمع (٣) فابتدرت : أى بادرت وأسرعت (٤) الاستقصاء : التتبع والاستقراء

١ - عِلْمُ الْكَلَامِ

علم الكلام ومقصوده

مَقْصُودُهُ وَحَاصِلُهُ

ثُمَّ إِنِّي ابْتَدَأْتُ بِعِلْمِ الْكَلَامِ [١]، فَحَصَّلْتُهُ وَعَقَلْتُهُ وَطَالَعْتُ كُتُبَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْهُمْ وَصَنَّفْتُ فِيهِ مَا أَرَدْتُ أَنْ أُصَنِّفَ، فَصَادَفْتُهُ عِلْمًا وَافِيًا بِمَقْصُودِهِ، غَيْرَ وَافٍ بِمَقْصُودِي، وَإِنَّمَا مَقْصُودُهُ حِفْظُ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ «عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ»، وَحِرَاسَتُهَا عَنْ تَشْوِيشِ أَهْلِ الْبِدْعَةِ، فَقَدْ أَلْقَى اللهُ تَعَالَى إِلَى عِبَادِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ عَقِيدَةً هِيَ الْحَقُّ، عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، كَمَا نَطَقَ بِمَعْرِفَتِهِ الْقُرْآنُ وَالْأَخْبَارُ. ثُمَّ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي وَسَاوِسِ الْمُبْتَدِعَةِ أُمُورًا مُخَالِفَةً لِلسُّنَّةِ، فَلَهِجُوا [٢] بِهَا وَكَادُوا يُشَوِّشُونَ عَقِيدَةَ الْحَقِّ عَلَى أَهْلِهَا. فَأَنْشَأَ اللهُ تَعَالَى طَائِفَةَ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَحَرَّكَ دَوَاعِيَهُمْ لِنُصْرَةِ السُّنَّةِ بِكَلَامٍ

---

(١) هو العلم الذى يتضمن الحجاج والدفاع عن العقائد الدينية بالأدلة العقلية والرد على الخارجين عن مذاهب أهل السنة (٢) لهجوا بها: أغروا بها فثابروا عليها

مُرَتَّبٍ ، يَكْشِفُ عَنْ تَلْبِيسَاتِ أَهْلِ ٱلْبِدْعَةِ ٱلْمُحْدَثَةِ ، عَلَى خِلَافِ ٱلسُّنَّةِ ٱلْمَأْثُورَةِ ، فَمِنْهُ نَشَأَ عِلْمُ ٱلْكَلَامِ وَأَهْلُهُ . فَلَقَدْ قَامَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِمَا نَدَبَهُمُ ٱللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ، فَأَحْسَنُوا ٱلذَّبَّ[1] عَنِ ٱلسُّنَّةِ ، وَٱلنِّضَالَ عَنِ ٱلْعَقِيدَةِ ٱلْمُتَلَقَّاةِ بِالْقَبُولِ مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ ، وَٱلتَّغْيِيرَ فِي وَجْهِ مَا أُحْدِثَ مِنَ ٱلْبِدْعَةِ ، وَلَكِنَّهُمُ ٱعْتَمَدُوا فِي ذَلِكَ عَلَى مُقَدِّمَاتٍ تَسَلَّمُوهَا مِنْ خُصُومِهِمْ وَٱضْطَرَّهُمْ إِلَى تَسْلِيمِهَا ، إِمَّا ٱلتَّقْلِيدُ ، أَوْ إِجْمَاعُ ٱلْأُمَّةِ ، أَوْ مُجَرَّدُ ٱلْقَبُولِ مِنَ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْأَخْبَارِ . وَكَانَ أَكْثَرُ خَوْضِهِمْ فِي ٱسْتِخْرَاجِ مُنَاقَضَاتِ ٱلْخُصُومِ ، وَمُؤَاخَذَتِهِمْ بِلَوَازِمِ مُسَلَّمَاتِهِمْ . وَهَذَا قَلِيلُ ٱلنَّفْعِ فِي حَقِّ مَنْ لَا يُسَلِّمُ سِوَى ٱلضَّرُورِيَّاتِ شَيْئًا أَصْلًا . فَلَمْ يَكُنِ ٱلْكَلَامُ فِي حَقِّي كَافِيًا ، وَلَا لِدَائِي ٱلَّذِي كُنْتُ أَشْكُوهُ شَافِيًا . نَعَمْ : لَمَّا نَشَأَتْ صَنْعَةُ ٱلْكَلَامِ وَكَثُرَ ٱلْخَوْضُ فِيهِ وَطَالَتِ ٱلْمُدَّةُ ، تَشَوَّقَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ إِلَى مُحَاوَلَةِ ٱلذَّبِّ عَنِ ٱلسُّنَّةِ بِالْبَحْثِ عَنْ حَقَائِقِ ٱلْأُمُورِ ،

(١) أى الدفاع

وَخَاضُوا فِي ٱلْبَحْثِ عَنِ ٱلْجَوَاهِرِ وَٱلْأَعْرَاضِ وَأَحْكَامِهَا.
وَلَكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَقْصُودَ عِلْمِهِمْ ، لَمْ يَبْلُغْ كَلَامُهُمْ فِيهِ ٱلْغَايَةَ ٱلْقُصْوَى ، فَلَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ مَا يَمْحُو بِالْكُلِيَّةِ ظُلُمَاتِ ٱلْحَيْرَةِ فِي ٱخْتِلَافَاتِ ٱلْخَلْقِ ، وَلَا أُبْعِدُ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَصَلَ ذَلِكَ لِغَيْرِي ! بَلْ لَسْتُ أَشُكُّ فِي حُصُولِ ذَلِكَ لِطَائِفَةٍ ، وَلَكِنْ حُصُولًا مَشُوبًا (١) بِالتَّقْلِيدِ فِي بَعْضِ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ مِنَ ٱلْأَوَّلِيَّاتِ .

وَٱلْغَرَضُ ٱلْآنَ حِكَايَةُ حَالِي ، لَا ٱلْإِنْكَارُ عَلَى مَنِ ٱسْتَشْفَى بِهِ ، فَإِنَّ أَدْوِيَةَ ٱلشِّفَاءِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ ٱلدَّاءِ وَكَمْ مِنْ دَوَاءٍ يَنْتَفِعُ بِهِ مَرِيضٌ وَيَسْتَضِرُّ بِهِ آخَرُ .

(١) مشوبا : مخلوطا

٢ — ٱلْفَلْسَفَةُ

الفلسفة

أَحَاصِيلُهَا - مَا يُذَمُّ مِنْهَا وَمَا لَا يُذَمُّ ، وَمَا يَكْفُرُ قَائِلُهُ وَمَا لَا يَكْفُرُ ، وَمَا يُبْدِعُ فِيهِ وَمَا لَا يُبْدِعُ ، وَبَيَانُ مَا سَرَقُوهُ مِنْ كَلَامِ أَهْلِ ٱلْحَقِّ وَمَزَجُوهُ بِكَلَامِهِمْ لِتَرْوِيجِ بَاطِلِهِمْ فِي دَرْجِ ذَلِكَ ، وَكَيْفِيَّةُ حُصُولِ نُفْرَةِ ٱلنُّفُوسِ مِنْ ذَلِكَ ٱلْحَقِّ ، وَكَيْفِيَّةُ ٱسْتِخْلَاصِ صَرَّافِ ٱلْحَقَائِقِ ٱلْحَقَّ ٱلْخَالِصَ مِنَ ٱلزَّيْفِ وَٱلْبَهْرَجِ[1] مِنْ جُمْلَةِ كَلَامِهِمْ .

ثُمَّ إِنِّي ٱبْتَدَأْتُ ، بَعْدَ ٱلْفَرَاغِ مِنْ عِلْمِ ٱلْكَلَامِ ، بِعِلْمِ ٱلْفَلْسَفَةِ . وَعَلِمْتُ يَقِينًا أَنَّهُ لَا يَقِفُ عَلَى فَسَادِ نَوْعٍ مِنَ ٱلْعُلُومِ مَنْ لَا يَقِفُ عَلَى مُنْتَهَى ذَلِكَ ٱلْعِلْمِ ، حَتَّى يُسَاوِيَ أَعْلَمَهُمْ فِي أَصْلِ ذَلِكَ ٱلْعِلْمِ ، ثُمَّ يَزِيدَ عَلَيْهِ وَيُجَاوِزَ دَرَجَتَهُ ، فَيَطَّلِعَ عَلَى مَا لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ صَاحِبُ ٱلْعِلْمِ مِنْ غَوْرٍ وَغَائِلَةٍ . وَإِذْ ذَاكَ ، يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَا يَدَّعِيهِ

(١) يقال درهم بهرج ومبهرج : رديء الفضة . ثم استعير للكلام الباطل .

مِنْ فَسَادِهِ حَقًّا ، وَلَمْ أَرَ أَحَدًا مِنْ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ صَرَفَ عِنَايَتَهُ وَهِمَّتَهُ إِلَى ذَلِكَ :

وَلَمْ يَكُنْ فِي كُتُبِ « الْمُتَكَلِّمِينَ » مِنْ كَلَامِهِمْ حَيْثُ اشْتَغَلُوا بِالرَّدِّ عَلَيْهِمْ ، إِلَّا كَلِمَاتٌ مُعَقَّدَةٌ مُبَدَّدَةٌ ، ظَاهِرَةُ التَّنَاقُضِ وَالْفَسَادِ ، لَا يُظَنُّ الِاغْتِرَارُ بِهَا بِعَاقِلٍ عَامِّيٍّ ، فَضْلًا عَمَّنْ يَدَّعِي دَقَائِقَ الْعُلُومِ . فَعَلِمْتُ أَنَّ رَدَّ الْمَذْهَبِ قَبْلَ فَهْمِهِ وَالِاطِّلَاعِ عَلَى كُنْهِهِ (١) رَدٌّ فِي عَمَايَةٍ (٢) فَشَمَّرْتُ عَنْ سَاقِ الْجِدِّ ، فِي تَحْصِيلِ ذَلِكَ الْعِلْمِ مِنَ الْكُتُبِ ، بِمُجَرَّدِ الْمُطَالَعَةِ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ بِأُسْتَاذٍ ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَوْقَاتٍ فَرَاغِي مِنَ التَّصْنِيفِ وَالتَّدْرِيسِ فِي الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَأَنَا مَمْنُوٌّ (٣) بِالتَّدْرِيسِ وَالْإِفَادَةِ لِثَلَثِمِائَةِ نَفْسٍ مِنَ الطَّلَبَةِ بِبَغْدَادَ ، فَأَطْلَعَنِي اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، بِمُجَرَّدِ الْمُطَالَعَةِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الْمُخْتَلَسَةِ (٤) عَلَى مُنْتَهَى عُلُومِهِمْ فِي أَقَلَّ مِنْ سَنَتَيْنِ . ثُمَّ لَمْ أَزَلْ أُوَاظِبُ

(١) كنه الشيء : حقيقته (٢) أي على غير استبصار (٣) ممنو : مبتلى (٤) المستلبة

عَلَى ٱلتَّفَكُّرِ فِيهِ بَعْدَ فَهْمِهِ قَرِيباً مِنْ سَنَةٍ ، أُعَاوِدُهُ وَأُرَدِّدُهُ وَأَتَفَقَّدُ غَوَائِلَهُ (١) وَأَغْوَارَهُ (٢) حَتَّى ٱطَّلَعْتُ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ خِدَاعٍ وَتَلْبِيسٍ ، وَتَحْقِيقٍ وَتَخْيِيلٍ ، ٱطِّلَاعًا لَمْ أَشُكَّ فِيهِ .

فَاسْمَعِ ٱلْآنَ حِكَايَتَهُ وَحِكَايَةَ حَاصِلِ عُلُومِهِمْ ، فَإِنِّي رَأَيْتُهُمْ أَصْنَافاً ، وَرَأَيْتُ عُلُومَهُمْ أَقْسَامًا ، وَهُمْ عَلَى كَثْرَةِ أَصْنَافِهِمْ يَلْزَمُهُمْ وَصْمَةُ (٣) ٱلْكُفْرِ وَٱلْإِلْحَادِ ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَ ٱلْقُدَمَاءِ مِنْهُمْ وَٱلْأَقْدَمِينَ ، وَبَيْنَ ٱلْأَوَاخِرِ مِنْهُمْ وَٱلْأَوَائِلِ ، تَفَاوُتٌ عَظِيمٌ فِي ٱلْبُعْدِ عَنِ ٱلْحَقِّ وَٱلْقُرْبِ مِنْهُ .

(١) مايغتال العقول (٢) غور كل شئ نهايته (٣) الوصمة : العار والعيب

***

أَصْنَافُ ٱلْفَلَاسِفَةِ

وَشُمُولُ وَصْمَةِ ٱلْكُفْرِ كَافَّتَهُمْ

اِعْلَمْ : أَنَّهُمْ عَلَى كَثْرَةِ فِرَقِهِمْ وَٱخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ ، يَنْقَسِمُونَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : ٱلدَّهْرِيُّونَ ، وَٱلطَّبِيعِيُّونَ ، وَٱلْإِلٰهِيُّونَ .

***

الدهريون

ٱلصِّنْفُ ٱلْأَوَّلُ - ٱلدَّهْرِيُّونَ - وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْأَقْدَمِينَ جَحَدُوا ٱلصَّانِعَ ٱلْمُدَبِّرَ ، ٱلْعَالِمَ ٱلْقَادِرَ ، وَزَعَمُوا أَنَّ ٱلْعَالَمَ لَمْ يَزَلْ مَوْجُودًا كَذٰلِكَ بِنَفْسِهِ وَبِلَا صَانِعٍ ، وَلَمْ يَزَلِ ٱلْحَيَوَانُ مِنَ ٱلنُّطْفَةِ ، وَٱلنُّطْفَةُ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ ، كَذٰلِكَ كَانَ ، وَكَذٰلِكَ يَكُونُ أَبَدًا . - وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلزَّنَادِقَةُ -

الطبيعيون

وَٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي - ٱلطَّبِيعِيُّونَ - وَهُمْ قَوْمٌ أَكْثَرُوا بَحْثَهُمْ عَنْ عَالَمِ ٱلطَّبِيعَةِ ، وَعَنْ عَجَائِبِ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ وَأَكْثَرُوا ٱلْخَوْضَ فِي عِلْمِ تَشْرِيحِ أَعْضَاءِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ،

فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر[1] حكيم، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها. ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع، إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان، ولا سيما بنية الإنسان، إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به. فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه[2] أيضا، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم. ثم إذا انعدم، فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا. فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود، فجحدوا الآخرة وأنكروا الجنة والنار، والحشر والنشر والقيامة والحساب، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب، فانحل عنهم اللجام، وانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام.

---

(١) الفطر: الابتداء والاختراع (٢) مزاج البدن ما ركب عليه من الطبائع ومزاج الشراب ما يخلط به

وَهؤُلَاءِ أَيْضاً زَنَادِقَةٌ : لِأَنَّ أَصْلَ الْإِيمَانِ هُوَ الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . وَهؤُلَاءِ جَحَدُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَإِنْ آمَنُوا بِاللهِ وَصِفَاتِهِ .

***

الالهيون

الصِّنْفُ الثَّالِثُ - الْإِلٰهِيُّونَ - وَهُمُ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْهُمْ مِثْلُ : سُقْرَاطَ ، وَهُوَ أُسْتَاذُ أَفْلَاطُونَ ، وَأَفْلَاطُونُ أُسْتَاذُ أَرِسْطَاطَالِيسَ ، وَأَرِسْطَاطَالِيسُ هُوَ الَّذِي رَتَّبَ لَهُمُ الْمَنْطِقَ ، وَهَذَّبَ لَهُمُ الْعُلُومَ ، وَحَرَّرَ لَهُمْ مَالَمْ يَكُنْ مُحَرَّرًا مِنْ قَبْلُ ، وَأَنْضَجَ لَهُمْ مَا كَانَ فِجًّا [1] مِنْ عُلُومِهِمْ وَهُمْ بِجُمْلَتِهِمْ رَدُّوا عَلَى الصِّنْفَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ مِنَ الدَّهْرِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ . وَأَوْرَدُوا فِي الْكَشْفِ عَنْ فَضَائِحِهِمْ مَاأَغْنَوْا بِهِ غَيْرَهُمْ ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، بِتَقَاتُلِهِمْ ثُمَّ رَدَّ أَرِسْطَاطَالِيسُ عَلَى أَفْلَاطُونَ وَسُقْرَاطَ ، وَمَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْإِلٰهِيِّينَ ، رَدًّا لَمْ يُقَصِّرْ فِيهِ حَتَّى تَبَرَّأَ عَنْ جَمِيعِهِمْ . إِلَّا أَنَّهُ اسْتَبْقَى أَيْضاً مِنْ رَذَائِلِ كُفْرِهِمْ وَبِدْعَتِهِمْ

(١) الفج بكسر الفاء من الفاكهة مالم ينضج

بقايا لم يوفق للنزوع عنها، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين، كابن سينا (١) والفارابي (٢) وغيرهما. على أنه لم يقم بنقل علم أرسطاطاليس أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين، وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تخبيط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم، ومالا يفهم كيف يرد أو يقبل؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس بحسب نقل هذين الرجلين، ينحصر في ثلاثة أقسام

١ - قسم يجب التفكير به. ٢ - وقسم يجب التبديع به. ٣ - وقسم لا يجب إنكاره أصلا فلنفصله ...

---

(١) من أكبر فلاسفة المسلمين ومن كتبه « القانون » ظل قانون أوربا الطبي عدة قرون ومن كتبه أيضا « الشفاء » و « النجاة » ولد سنة ٣٧٠ وتوفى سنة ٤٢٨

(٢) هو الملقب بالمعلم الثانى اذ كان أرسطو معروفا بأنه المعلم الأول ولد عام ٢٦٠ وتوفى عام ٣٣٩ هـ. وهو أحد أعلام الفلسفة الاسلامية وأصله فارسى.

***

أَقْسَامُ عُلُومِهِمْ

أقسام علومهم

اِعْلَمْ: أَنَّ عُلومَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْغَرَضِ الَّذِي نَطْلُبُهُ سِتَّةُ أَقْسَامٍ: رِيَاضِيَّةٌ، وَمَنْطِقِيَّةٌ، وَطَبِيعِيَّةٌ، وَإِلٰهِيَّةٌ وَسِيَاسِيَّةٌ، وَخُلُقِيَّةٌ.

ـ أَمَّا الرِّيَاضِيَّةُ: فَتَتَعَلَّقُ بِعِلْمِ الْحِسَابِ وَالْهَنْدَسَةِ وَعِلْمِ هَيْئَةِ الْعَالَمِ وَلَيْسَ يَتَعَلَّقُ شَيْءٌ مِنْهَا بِالْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا بَلْ هِيَ أُمُورٌ بُرْهَانِيَّةٌ لَا سَبِيلَ إِلَى مُجَاحَدَتِهَا بَعْدَ فَهْمِهَا وَمَعْرِفَتِهَا، وَقَدْ تَوَلَّدَتْ مِنْهَا آفَتَانِ:

الْأُولَى: مَنْ يَنْظُرُ فِيهَا يَتَعَجَّبُ مِنْ دَقَائِقِهَا وَمِنْ ظُهُورِ بَرَاهِينِهَا، فَيُحَسِّنُ بِسَبَبِ ذَلِكَ اعْتِقَادَهُ فِي الْفَلَاسِفَةِ فَيَحْسَبُ أَنَّ جَمِيعَ عُلُومِهِمْ فِي الْوُضُوحِ وَفِي وَثَاقَةِ الْبُرْهَانِ كَهٰذَا الْعِلْمِ. ثُمَّ يَكُونُ قَدْ سَمِعَ مِنْ كُفْرِهِمْ وَتَعْطِيلِهِمْ وَتَهَاوُنِهِمْ بِالشَّرْعِ مَا تَدَاوَلَتْهُ الْأَلْسِنَةُ، فَيَكْفُرُ بِالتَّقْلِيدِ الْمَحْضِ وَيَقُولُ: لَوْ كَانَ الدِّينُ حَقًّا لَمَا اخْتَفَى عَلَى هٰؤُلَاءِ مَعَ تَدْقِيقِهِمْ فِي هٰذَا الْعِلْمِ! فَإِذَا عَرَفَ بِالتَّسَامُعِ كُفْرَهُمْ

وَجَحْدَهُمْ ، فَيَسْتَدِلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْحَقَّ هُوَ ٱلْجَحْدُ وَٱلْإِنْكَارُ لِلدِّينِ . وَكَمْ رَأَيْتُ مَنْ يَضِلُّ عَنِ ٱلْحَقِّ بِهَذَا ٱلْقَدْرِ وَلَا مُسْتَنَدَ لَهُ سِوَاهُ ! وَإِذَا قِيلَ لَهُ : ٱلْحَاذِقُ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ لَيْسَ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ حَاذِقًا فِي كُلِّ صِنَاعَةٍ ، فَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ ٱلْحَاذِقُ فِي ٱلْفِقْهِ وَٱلْكَلَامِ حَاذِقًا فِي ٱلطِّبِّ ، وَلَا أَنْ يَكُونَ ٱلْجَاهِلُ بِالْعَقْلِيَّاتِ جَاهِلًا بِالنَّحْوِ ، بَلْ لِكُلِّ صِنَاعَةٍ أَهْلٌ بَلَغُوا فِيهَا رُتْبَةَ ٱلْبَرَاعَةِ وَٱلسَّبْقِ ، وَإِنْ كَانَ ٱلْحُمْقُ وَٱلْجَهْلُ قَدْ يَلْزَمُهُمْ فِي غَيْرِهَا فَكَلَامُ ٱلْأَوَائِلِ فِي ٱلرِّيَاضِيَّاتِ بُرْهَانِيٌّ ، وَفِي ٱلْإِلٰهِيَّاتِ تَخْمِينِيٌّ ، لَا يَعْرِفُ ذٰلِكَ إِلَّا مَنْ جَرَّبَهُ وَخَاضَ فِيهِ . فَهٰذَا إِذَا قُرِّرَ عَلَى هٰذَا ٱلَّذِي ٱتُّخِذَ بِالتَّقْلِيدِ ، لَمْ يَقَعْ مِنْهُ مَوْقِعَ ٱلْقَبُولِ ، بَلْ تَحْمِلُهُ غَلَبَةُ ٱلْهَوَى ، وَشَهْوَةُ ٱلْبَطَالَةِ وَحُبُّ ٱلتَّكَايُسِ [1] عَلَى أَنْ يُصِرَّ عَلَى تَحْسِينِ ٱلظَّنِّ بِهِمْ فِي ٱلْعُلُومِ كُلِّهَا .

---

(١) التكايس : مأخوذ من الكيس وهو ضد الحمق . ورجل كيس ومكيس أى ظريف ، فالمتكايس من يريد أن يظهر للناس عقله وعلمه وظرفه

فَهَذِهِ آفَةٌ عَظِيمَةٌ لِأَجْلِهَا يَجِبُ زَجْرُ كُلِّ مَنْ يَخُوضُ فِي تِلْكَ الْعُلُومِ فَإِنَّهَا وَإِنْ لَمْ تَتَعَلَّقْ بِأَمْرِ الدِّينِ ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَتْ مِنْ مَبَادِئِ الْعُلُومِ ، يَسْرِي إِلَيْهِ شَرُّهُمْ وَشُؤْمُهُمْ ، فَقَلَّ مَنْ يَخُوضُ فِيهِ إِلَّا وَيَنْخَلِعُ مِنَ الدِّينِ وَيَنْحَلُّ عَنْ رَأْسِهِ لِجَامُ التَّقْوَى .

الْآفَةُ الثَّانِيَةُ : نَشَأَتْ مِنْ صَدِيقٍ لِلْإِسْلَامِ جَاهِلٍ ظَنَّ أَنَّ الدِّينَ يَنْبَغِي أَنْ يُنْصَرَ بِإِنْكَارِ كُلِّ عِلْمٍ مَنْسُوبٍ إِلَيْهِمْ : فَأَنْكَرَ جَمِيعَ عُلُومِهِمْ وَادَّعَى جَهْلَهُمْ فِيهَا ، حَتَّى أَنْكَرَ قَوْلَهُمْ فِي الْكُسُوفِ وَالْخُسُوفِ ، وَزَعَمَ أَنَّ مَاقَالُوهُ عَلَى خِلَافِ الشَّرْعِ ، فَلَمَّا قَرَعَ ذَلِكَ سَمْعَ مَنْ عَرَفَ ذَلِكَ بِالْبُرْهَانِ الْقَاطِعِ ، لَمْ يَشُكَّ فِي بُرْهَانِهِ ، لَكِنِ اعْتَقَدَ أَنَّ الْإِسْلَامَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْجَهْلِ وَإِنْكَارِ الْبُرْهَانِ الْقَاطِعِ ، فَازْدَادَ لِلْفَلْسَفَةِ حُبًّا وَلِلْإِسْلَامِ بُغْضًا ، وَلَقَدْ عَظُمَ عَلَى الدِّينِ جِنَايَةُ مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْإِسْلَامَ يُنْصَرُ بِإِنْكَارِ هَذِهِ الْعُلُومِ ، وَلَيْسَ فِي الشَّرْعِ تَعَرُّضٌ لِهَذِهِ

ٱلْعُلُومِ بِالنَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ ، وَلَا فِي ٱلْعُلُومِ تَعَرُّضٌ لِلْأُمُورِ ٱلدِّينِيَّةِ ، وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : « إِنَّ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ ٱللهِ تَعَالَى لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ . فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ ٱللهِ تَعَالَى وَإِلَى ٱلصَّلَاةِ » لَيْسَ فِي هَذَا مَا يُوجِبُ إِنْكَارَ عِلْمِ ٱلْحِسَابِ ٱلْمُعَرِّفِ بِمَسِيرِ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ وَٱجْتِمَاعِهِمَا أَوْ مُقَابَلَتِهِمَا عَلَى وَجْهٍ مَخْصُوصٍ . أَمَّا قَوْلُهُ - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - لَكِنَّ ٱللهَ إِذَا تَجَلَّى لِشَيْءٍ خَضَعَ لَهُ ، فَلَيْسَ تُوجَدُ هَذِهِ ٱلزِّيَادَةُ فِي ٱلصِّحَاحِ [1] أَصْلًا .

فَهَذَا حُكْمُ ٱلرِّيَاضِيَّاتِ وَآفَتُهَا .

٢ - وَأَمَّا ٱلْمَنْطِقِيَّاتُ : فَلَا يَتَعَلَّقُ شَيْءٌ مِنْهَا بِالدِّينِ نَفْيًا أَوْ إِثْبَاتًا ، بَلْ هُوَ ٱلنَّظَرُ فِي طُرُقِ ٱلْأَدِلَّةِ [2] وَٱلْمَقَايِيسِ [3] وَشُرُوطِ مُقَدِّمَاتِ ٱلْبُرْهَانِ [4] وَكَيْفِيَّةِ

(١) الأحاديث الصحيحة التى لامطعن فى أسانيدها أو كتب الحديث الصحيحة ،وهى مشهورة لدى العلماء (٢) الدليل فى الاصطلاح هو ما يلزم من العلم به العلم بشىء آخر (٣) القياس:قول مؤلف من قضايا اذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر (٤) البرهان : القياس المؤلف من اليقينيات

تَرْكِيبِهَا ، وَشُرُوطِ الْحَدِّ الصَّحِيحِ وَكَيْفِيَّةِ تَرْتِيبِهِ .

وَأَنَّ الْعِلْمَ إِمَّا تَصَوُّرٌ(١) ، وَسَبِيلُ مَعْرِفَتِهِ الْحَدُّ(٢) ، وَإِمَّا تَصْدِيقٌ ، وَسَبِيلُ مَعْرِفَتِهِ الْبُرْهَانُ ، وَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْكَرَ ، بَلْ هُوَ مِنْ جِنْسِ مَا ذَكَرَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ وَأَهْلُ النَّظَرِ فِي الْأَدِلَّةِ ، وَإِنَّمَا يُفَارِقُونَهُمْ بِالْعِبَارَاتِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ ، وَبِزِيَادَةِ الِاقْتِصَادِ فِي التَّعْرِيفَاتِ وَالتَّشْعِيبَاتِ ، وَمِثَالُ كَلَامِهِمْ فِيهَا قَوْلُهُمْ : إِذَا ثَبَتَ أَنَّ كُلَّ « ا » « ب » لَزِمَ أَنَّ بَعْضَ « ب » « ا » أَيْ إِذَا ثَبَتَ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ لَزِمَ أَنَّ بَعْضَ الْحَيَوَانِ إِنْسَانٌ ، وَيُعَبِّرُونَ عَنْ هَذَا بِأَنَّ الْمُوجِبَةَ الْكُلِّيَّةَ تَنْعَكِسُ مُوجِبَةً جُزْئِيَّةً ، وَأَيُّ تَعَلُّقٍ لِهَذَا بِمُهِمَّاتِ الدِّينِ حَتَّى يُجْحَدَ وَيُنْكَرَ ؟ فَإِذَا أُنْكِرَ لَمْ يَحْصُلْ مِنْ إِنْكَارِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَنْطِقِ إِلَّا سُوءُ الِاعْتِقَادِ فِي عَقْلِ الْمُنْكِرِ بَلْ فِي دِينِهِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ

---

(١) التصور : هو ادراك الماهية بدون أن يحكم عليها بنفي أو اثبات

(٢) الحد: قول دال على ماهية الشيء بتركبه من جنس الشيء وفصله القريبين كقولهم : الانسان حيوان ناطق

مَوْقُوفٌ عَلَى مِثْلِ هَذَا ٱلْإِنْكَارِ ، نَعَمْ ، لَهُمْ نَوْعٌ مِنَ ٱلظُّلْمِ فِي هَذَا ٱلْعِلْمِ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يَجْمَعُونَ لِلْبُرْهَانِ شُرُوطًا يُعْلَمُ أَنَّهَا تُورِثُ ٱلْيَقِينَ لَا مَحَالَةَ ، لَكِنَّهُمْ عِنْدَ ٱلِانْتِهَاءِ إِلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلدِّينِيَّةِ مَا أَمْكَنَهُمُ ٱلْوَفَاءُ بِتِلْكَ ٱلشُّرُوطِ ، بَلْ تَسَاهَلُوا غَايَةَ ٱلتَّسَاهُلِ ، وَرُبَّمَا يَنْظُرُ فِي ٱلْمَنْطِقِ أَيْضًا مَنْ يَسْتَحْسِنُهُ وَيَرَاهُ وَاضِحًا ، فَيَظُنُّ أَنَّ مَا يُنْقَلُ عَنْهُمْ مِنَ ٱلْكُفْرِيَّاتِ مُؤَيَّدَةٌ بِمِثْلِ تِلْكَ ٱلْبَرَاهِينِ ، فَٱسْتَعْجَلَ بِٱلْكُفْرِ قَبْلَ ٱلِانْتِهَاءِ إِلَى ٱلْعُلُومِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ .

فَهٰذِهِ ٱلْآفَةُ أَيْضًا مُتَطَرِّقَةٌ إِلَيْهِ .

٣ - وَأَمَّا عِلْمُ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ : فَهُوَ بَحْثٌ عَنْ عَالَمِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَكَوَاكِبِهَا وَمَا تَحْتَهَا مِنَ ٱلْأَجْسَامِ ٱلْمُفْرَدَةِ : كَٱلْمَاءِ وَٱلْهَوَاءِ وَٱلتُّرَابِ وَٱلنَّارِ ، وَمِنَ ٱلْأَجْسَامِ ٱلْمُرَكَّبَةِ كَٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ وَٱلْمَعَادِنِ ، وَعَنْ أَسْبَابِ تَغَيُّرِهَا وَٱسْتِحَالَتِهَا [1] وَٱمْتِزَاجِهَا . وَذٰلِكَ يُضَاهِي بَحْثَ ٱلطِّبِّ

(١) الاستحالة : التحول والتغير من حال الى حال

عَنْ جِسْمِ الْإِنْسَانِ وَأَعْضَائِهِ الرَّئِيسِيَّةِ وَالْخَادِمَةِ ، وَأَسْبَابِ اسْتِحَالَةِ مِزَاجِهَا . وَكَمَا لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الدِّينِ إِنْكَارُ عِلْمِ الطِّبِّ فَلَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ أَيْضاً إِنْكَارُ ذَلِكَ الْعِلْمِ ، إِلَّا فِي مَسَائِلَ مُعَيَّنَةٍ ذَكَرْنَاهَا فِي كِتَابِ « تَهَافُتِ الْفَلَاسِفَةِ » وَمَا عَدَاهَا مِمَّا يَجِبُ الْمُخَالَفَةُ فِيهَا ، فَعِنْدَ التَّأَمُّلِ يَتَبَيَّنُ أَنَّهَا مُنْدَرِجَةٌ تَحْتَهَا ، وَأَصْلُ جُمْلَتِهَا أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ مُسَخَّرَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، لَا تَعْمَلُ بِنَفْسِهَا ، بَلْ هِيَ مُسْتَعْمَلَةٌ مِنْ جِهَةِ فَاطِرِهَا . وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ لَا فِعْلَ لِشَيْءٍ مِنْهَا بِذَاتِهِ عَنْ ذَاتِهِ .

٤ - وَأَمَّا الْإِلٰهِيَّاتُ : فَفِيهَا أَكْثَرُ أَغَالِيطِهِمْ ، فَمَا قَدَرُوا عَلَى الْوَفَاءِ بِالْبَرَاهِينِ عَلَى مَا شَرَطُوهُ فِي الْمَنْطِقِ وَلِذَلِكَ كَثُرَ الِاخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ فِيهَا ، وَلَقَدْ قَرُبَ مَذْهَبَ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِيهَا مِنْ مَذَاهِبِ الْإِسْلَامِيِّينَ ، عَلَى مَا نَقَلَهُ الْفَارَابِيُّ وَابْنُ سِينَا . وَلَكِنْ مَجْمُوعُ مَا غَلِطُوا فِيهَا يَرْجِعُ

إِلَى عِشْرِينَ أَصْلًا ، يَجِبُ تَكْفِيرُهُمْ فِي ثَلَاثَةٍ مِنْهَا ، وَتَبْدِيعُهُمْ فِي سَبْعَةَ عَشَرَ . وَلِإِبْطَالِ مَذْهَبِهِمْ فِي هَذِهِ ٱلْمَسَائِلِ ٱلْعِشْرِينَ ، صَنَّفْنَا كِتَابَ « ٱلتَّهَافُتِ » . أَمَّا ٱلْمَسَائِلُ ٱلثَّلَاثُ ، فَقَدْ خَالَفُوا فِيهَا كَافَّةَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِمْ :

١ — إِنَّ ٱلْأَجْسَادَ لَا تُحْشَرُ ، وَإِنَّمَا ٱلْمُثَابُ وَٱلْمُعَاقَبُ هِيَ ٱلْأَرْوَاحُ ٱلْمُجَرَّدَةُ ، وَٱلْمَثُوبَاتُ وَٱلْعُقُوبَاتُ رُوحَانِيَّةٌ لَا جِسْمَانِيَّةٌ .

وَلَقَدْ صَدَقُوا فِي إِثْبَاتِ ٱلرُّوحَانِيَّةِ ، فَإِنَّهَا كَائِنَةٌ أَيْضًا ، وَلَكِنْ كَذَبُوا فِي إِنْكَارِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ ، وَكَفَرُوا بِالشَّرِيعَةِ فِيمَا نَطَقُوا بِهِ .

٢ — وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى يَعْلَمُ ٱلْكُلِّيَّاتِ دُونَ ٱلْجُزْئِيَّاتِ » . وَهَذَا أَيْضًا كُفْرٌ صَرِيحٌ ، بَلِ ٱلْحَقُّ أَنَّهُ : « لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ »

٣ — وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِقِدَمِ الْعَالَمِ وَأَزَلِيَّتِهِ ، فَلَمْ يَذْهَبْ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَائِلِ .

٤ — وَأَمَّا مَاوَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ نَفْيِهِمُ الصِّفَاتِ وَقَوْلِهِمْ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِالذَّاتِ لَا بِعِلْمٍ زَائِدٍ عَلَى الذَّاتِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ ، فَمَذْهَبُهُمْ فِيهَا قَرِيبٌ مِنْ مَذْهَبِ الْمُعْتَزِلَةِ[1] وَلَا يَجِبُ تَكْفِيرُ الْمُعْتَزِلَةِ بِمِثْلِ ذَلِكَ . وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي كِتَابِ « فَيْصَلِ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالزَّنْدَقَةِ » مَايَتَبَيَّنُ فِيهِ فَسَادُ رَأْيِ مَنْ يَتَسَارَعُ إِلَى التَّكْفِيرِ فِي كُلِّ مَا يُخَالِفُ مَذْهَبَهُ .

٥ — وَأَمَّا السِّيَاسِيَّاتُ : فَجَمِيعُ كَلَامِهِمْ فِيهَا يَرْجِعُ إِلَى الْحِكَمِ الْمَصْلَحِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْإِيَالَةِ[2] السُّلْطَانِيَّةِ، وَإِنَّمَا أَخَذُوهَا مِنْ كُتُبِ اللهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَمِنَ الْحِكَمِ الْمَأْثُورَةِ عَنْ سَلَفِ الْأَنْبِيَاءِ .

---

(١) شبهة المعتزلة فى نفى صفات المعانى « تعدد القدماء » وهى شبهة مردودة واهية لأن الصفات لا تنفك عن الذات فلا تعدد إذن (٢) الايالة: السياسة ، أو البلد يحكمها أمير

٦ — وَأَمَّا ٱلْخُلُقِيَّةُ : فَجَمِيعُ كَلَامِهِمْ فِيهَا يَرْجِعُ إِلَى حَصْرِ صِفَاتِ ٱلنَّفْسِ وَأَخْلَاقِهَا ، وَذِكْرِ أَجْنَاسِهَا وَأَنْوَاعِهَا وَكَيْفِيَّةِ مُعَالَجَتِهَا وَمُجَاهَدَتِهَا ، وَإِنَّمَا أَخَذُوهَا مِنْ كَلَامِ ٱلصُّوفِيَّةِ ، وَهُمُ ٱلْمُتَأَهِّلُونَ (١) ٱلْمُثَابِرُونَ عَلَى ذِكْرِ ٱللهِ تَعَالَى ، وَعَلَى مُخَالَفَةِ ٱلْهَوَى وَسُلُوكِ ٱلطَّرِيقِ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى بِالْإِعْرَاضِ عَنْ مَلَاذِّ ٱلدُّنْيَا . وَقَدِ ٱنْكَشَفَ لَهُمْ فِي مُجَاهَدَتِهِمْ مِنْ أَخْلَاقِ ٱلنَّفْسِ وَعُيُوبِهَا ، وَآفَاتِ أَعْمَالِهَا مَا صَرَّحُوا بِهَا ، فَأَخَذَهَا ٱلْفَلَاسِفَةُ وَمَزَجُوهَا بِكَلَامِهِمْ ، تَوَسُّلًا بِالتَّجَمُّلِ بِهَا إِلَى تَرْوِيجِ بَاطِلِهِمْ . وَلَقَدْ كَانَ فِي عَصْرِهِمْ ، بَلْ فِي كُلِّ عَصْرٍ ، جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْمُتَأَلِّهِينَ ، لَا يُخْلِي ٱللهُ — سُبْحَانَهُ — ٱلْعَالَمَ عَنْهُمْ ، فَإِنَّهُمْ أَوْتَادُ (٢) ٱلْأَرْضِ ، بِبَرَكَاتِهِمْ تَنْزِلُ ٱلرَّحْمَةُ إِلَى أَهْلِ ٱلْأَرْضِ كَمَا وَرَدَ فِي ٱلْخَبَرِ حَيْثُ قَالَ — عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ — : « بِهِمْ تُمْطَرُونَ وَبِهِمْ تُرْزَقُونَ ، وَمِنْهُمْ كَانَ أَصْحَابُ ٱلْكَهْفِ » .

---

(١) تأله : تعبد وتنسك (٢) أوتاد الارض : جبالها، وأعلامها فالاطلاق هنا مجازى

وَكَانُوا فِي سَالِفِ الْأَزْمِنَةِ ، عَلَى مَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ فَتَوَلَّدَ مِنْ مَزْجِهِمْ كَلَامَ النُّبُوَّةِ وَكَلَامَ الصُّوفِيَّةِ بِكُتُبِهِمْ آفَتَانِ ، آفَةٌ فِي حَقِّ الْقَابِلِ ، وَآفَةٌ فِي حَقِّ الرَّادِّ .

١ — أَمَّا الْآفَةُ الَّتِي فِي حَقِّ الرَّادِّ فَعَظِيمَةٌ ، إِذْ ظَنَّتْ طَائِفَةٌ مِنَ الضُّعَفَاءِ أَنَّ ذَلِكَ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ مُدَوَّنًا فِي كُتُبِهِمْ ، وَمَمْزُوجًا بِبَاطِلِهِمْ ، يَنْبَغِي أَنْ يُهْجَرَ وَلَا يُذْكَرَ ، بَلْ يُنْكَرَ عَلَى كُلِّ مَنْ يَذْكُرُهُ ، إِذْ لَمْ يَسْمَعُوهُ أَوَّلًا ، إِلَّا مِنْهُمْ ، فَسَبَقَ إِلَى عُقُولِهِمُ الضَّعِيفَةِ أَنَّهُ بَاطِلٌ ، لِأَنَّ قَائِلَهُ مُبْطِلٌ ، كَالَّذِي يَسْمَعُ مِنَ النَّصْرَانِيِّ قَوْلَ « لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ عِيسَى رَسُولُ اللّٰهِ » ، فَيُنْكِرُهُ وَيَقُولُ . « هَذَا كَلَامُ النَّصْرَانِيِّ » ، وَلَا يَتَوَقَّفُ رَيْثَمَا يَتَأَمَّلُ أَنَّ النَّصْرَانِيَّ كَافِرٌ بِاعْتِبَارِ هَذَا الْقَوْلِ ، أَوْ بِاعْتِبَارِ إِنْكَارِهِ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا إِلَّا بِاعْتِبَارِ إِنْكَارِهِ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُخَالِفَ فِي غَيْرِ مَا هُوَ بِهِ كَافِرٌ مِمَّا هُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِهِ ، وَإِنْ كَانَ أَيْضًا حَقًّا عِنْدَهُ ،

وَهَذِهِ عَادَةُ ضُعَفَاءِ الْعُقُولِ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ بِالرِّجَالِ ، لَا الرِّجَالَ بِالْحَقِّ . وَالْعَاقِلُ يَقْتَدِي بِقَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَيْثُ قَالَ : « لَا تَعْرِفِ الْحَقَّ بِالرِّجَالِ بَلِ اعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ » وَالْعَارِفُ الْعَاقِلُ يَعْرِفُ الْحَقَّ ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِي نَفْسِ الْقَوْلِ ، فَإِنْ كَانَ حَقًّا قَبِلَهُ ، سَوَاءٌ كَانَ قَائِلُهُ مُبْطِلًا أَوْ مُحِقًّا ، بَلْ رُبَّمَا يَحْرِصُ عَلَى انْتِزَاعِ الْحَقِّ مِنْ أَقَاوِيلِ أَهْلِ الضَّلَالِ ، عَالِمًا بِأَنَّ مَعْدِنَ الذَّهَبِ الرَّغَامُ (١) . وَلَا بَأْسَ عَلَى الصَّرَّافِ إِنْ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي كِيسِ الْقَلَّابِ (٢) ، وَانْتَزَعَ الْإِبْرِيزَ الْخَالِصَ مِنَ الزَّيْفِ وَالْبَهْرَجِ ، مَهْمَا كَانَ وَاثِقًا بِبَصِيرَتِهِ وَإِنَّمَا يُزْجَرُ عَنْ مُعَامَلَةِ الْقَلَّابِ الْقَرَوِيُّ ، دُونَ الصَّيْرَفِيِّ الْبَصِيرِ وَيُمْنَعُ مِنْ سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْزَقُ (٣) ، دُونَ السَّبَّاحِ الْحَاذِقِ ، وَيُصَدُّ عَنْ مَسِّ الْحَيَّةِ الصَّبِيُّ دُونَ الْمُعَزِّمِ (٤) الْبَارِعِ .

---

(١) الرغام بالفتح التراب (٢) يريد بالقلاب هنا المزيف (٣) يقصد من لايحسن السباحة (٤) الذى يتلو الرقى

وَلَعَمْرِى ! لَمَّا غَلَبَ عَلَى أَكْثَرِ الْخَلْقِ ظَنُّهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ الْحَذَاقَةَ وَالْبَرَاعَةَ وَكَمَالَ الْعَقْلِ وَتَمَامَ الْآلَةِ، فِى تَمْيِيزِ الْحَقِّ عَنِ الْبَاطِلِ، وَالْهُدَى عَنِ الضَّلَالَةِ، وَجَبَ حَسْمُ الْبَابِ فِى زَجْرِ الْكَافَّةِ عَنْ مُطَالَعَةِ كُتُبِ أَهْلِ الضَّلَالَةِ مَاأَمْكَنَ، إِذْ لَايَسْلَمُونَ مِنَ الْآفَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِى سَنَذْكُرُهَا أَصْلًا، وَإِنْ سَلِمُوا مِنْ هَذِهِ الْآفَةِ الَّتِى ذَكَرْنَاهَا.

وَلَقَدِ اعْتَرَضَ عَلَى بَعْضِ الْكَلِمَاتِ الْمَبْثُوثَةِ فِى تَصَانِيفِنَا فِى أَسْرَارِ عُلُومِ الدِّينِ طَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ لَمْ تَسْتَحْكِمْ فِى الْعُلُومِ سَرَائِرُهُمْ، وَلَمْ تَنْفَتِحْ إِلَى أَقْصَى غَايَاتِ الْمَذَاهِبِ بَصَائِرُهُمْ، وَزَعَمَتْ أَنَّ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ مِنْ كَلَامِ الْأَوَائِلِ، مَعَ أَنَّ بَعْضَهَا مِنْ مُوَلَّدَاتِ الْخَوَاطِرِ، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَقَعَ الْخَاطِرُ عَلَى الْخَاطِرِ، وَبَعْضُهَا يُوجَدُ فِى الْكُتُبِ الشَّرْعِيَّةِ، وَأَكْثَرُهَا مَوْجُودٌ مَعْنَاهُ فِى كُتُبِ الصُّوفِيَّةِ. وَهَبْ أَنَّهَا لَمْ تُوجَدْ إِلَّا فِى كُتُبِهِمْ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الْكَلَامُ مَعْقُولًا فِى نَفْسِهِ، مُؤَيَّدًا بِالْبُرْهَانِ وَلَمْ يَكُنْ عَلَى مُخَالَفَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَلِمَ يَنْبَغِى أَنْ

يُهْجَرَ وَيُتْرَكَ ؟ فَلَوْ فَتَحْنَا هَذَا الْبَابَ ، وَتَطَرَّفْنَا إِلَى أَنْ نَهْجُرَ كُلَّ حَقٍّ سَبَقَ إِلَيْهِ خَاطِرٌ مُبْطِلٌ ، لَزِمَنَا أَنْ نَهْجُرَ كَثِيرًا مِنَ الْحَقِّ ، وَلَزِمَنَا أَنْ نَهْجُرَ جُمْلَةَ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، وَأَخْبَارِ الرَّسُولِ وَحِكَايَاتِ السَّلَفِ ، وَكَلِمَاتِ الْحُكَمَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ ، لِأَنَّ صَاحِبَ كِتَابِ « إِخْوَانِ الصَّفَا [1] » أَوْرَدَهَا فِي كِتَابِهِ مُسْتَشْهِدًا بِهَا ، وَمُسْتَدْرِجًا قُلُوبَ الْحَمْقَى بِوَاسِطَتِهَا إِلَى بَاطِلِهِ ، وَيَتَدَاعَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَسْتَخْرِجَ الْمُبْطِلُونَ الْحَقَّ مِنْ أَيْدِينَا بِإِيدَاعِهِمْ إِيَّاهُ فِي كُتُبِهِمْ . وَأَقَلُّ دَرَجَاتِ الْعَالِمِ : أَنْ يَتَمَيَّزَ عَنِ الْعَامِّيِّ الْغُمْرِ [2] ، فَلَا يَعَافَ الْعَسَلَ وَإِنْ وَجَدَهُ فِي مِحْجَمَةِ الْحَجَّامِ ، وَيَتَحَقَّقَ أَنَّ الْمِحْجَمَةَ لَا تُغَيِّرُ ذَاتَ الْعَسَلِ ، فَإِنَّ نُفْرَةَ الطَّبْعِ مِنْهُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى جَهْلٍ عَامِّيٍّ مَنْشَؤُهُ أَنَّ

---

(١) رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا وضعتها جماعة سرية ظهرت فى منتصف القرن الرابع فى البصرة وتعد هذه الرسائل موسوعة فلسفية علمية وهى مصوغة فى قالب أدبى بديع وقد طبعت فى مصر سنة ١٩٢٨

(٢) الغمر : الجاهل

ٱلْمِحْجَمَةَ ، إِنَّمَا صُنِعَتْ لِلدَّمِّ ٱلْمُسْتَقْذَرِ ، فَيُظَنُّ أَنَّ ٱلدَّمَ مُسْتَقْذَرٌ لِكَوْنِهِ فِي ٱلْمِحْجَمَةِ ، وَلَا يُدْرَى أَنَّهُ مُسْتَقْذَرٌ لِصِفَةٍ فِي ذَاتِهِ ، فَإِذَا عُدِمَتْ هَذِهِ ٱلصِّفَةُ فِي ٱلْعَسَلِ ، فَكَوْنُهُ فِي ظَرْفِهِ لَا يُكْسِبُهُ تِلْكَ ٱلصِّفَةَ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُوجِبَ لَهُ ٱلِاسْتِقْذَارَ ، وَهَذَا وَهْمٌ بَاطِلٌ ، وَهُوَ غَالِبٌ عَلَى أَكْثَرِ ٱلْخَلْقِ ، فَمَهْمَا نَسَبْتَ ٱلْكَلَامَ وَأَسْنَدْتَهُ إِلَى قَائِلٍ حَسُنَ فِيهِ ٱعْتِقَادُهُمْ ، قَبِلُوهُ وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا ، وَإِنْ أَسْنَدْتَهُ إِلَى مَنْ سَاءَ فِيهِ ٱعْتِقَادُهُمْ ، رَدُّوهُ وَإِنْ كَانَ حَقًّا فَأَبَدًا يَعْرِفُونَ ٱلْحَقَّ بِالرِّجَالِ وَلَا يَعْرِفُونَ ٱلرِّجَالَ بِٱلْحَقِّ وَهُوَ غَايَةُ ٱلضَّلَالِ !

هَذِهِ آفَةُ ٱلرَّدِّ .

***

آفة القبول

٢ — آفَةُ ٱلْقَبُولِ : إِنَّ مَنْ نَظَرَ فِي كُتُبِهِمْ « كَإِخْوَانِ ٱلصَّفَا » وَغَيْرِهِ ، فَرَأَى مَا مَزَجُوهُ بِكَلَامِهِمْ مِنَ ٱلْحِكَمِ ٱلنَّبَوِيَّةِ ، وَٱلْكَلِمَاتِ ٱلصُّوفِيَّةِ ، رُبَّمَا ٱسْتَحْسَنَهَا وَقَبِلَهَا ، وَحَسُنَ ٱعْتِقَادُهُ فِيهَا ، فَيُسَارِعُ إِلَى

قَبُولِ بَاطِلِهِمُ ٱلْمَمْزُوجِ بِهِ لِحُسْنِ ظَنٍّ حَصَلَ فِيمَا رَآهُ وَٱسْتَحْسَنَهُ ، وَذَلِكَ نَوْعُ ٱسْتِدْرَاجٍ إِلَى ٱلْبَاطِلِ .

وَلِاجْلِ هَذِهِ ٱلْآفَةِ يَجِبُ ٱلزَّجْرُ عَنْ مُطَالَعَةِ كُتُبِهِمْ لِمَا فِيهَا مِنَ ٱلْغَدْرِ وَٱلْخَطَرِ ، وَكَمَا يَجِبُ صَوْنُ مَنْ لَا يُحْسِنُ ٱلسِّبَاحَةَ عَنْ مَزَالِقِ ٱلشُّطُوطِ (١) ، يَجِبُ صَوْنُ ٱلْخَلْقِ عَنْ مُطَالَعَةِ تِلْكَ ٱلْكُتُبِ ، وَكَمَا يَجِبُ صَوْنُ ٱلصِّبْيَانِ عَنْ مَسِّ ٱلْحَيَّاتِ ، يَجِبُ صَوْنُ ٱلْأَسْمَاعِ مِنْ مُخْتَلِطِ تِلْكَ ٱلْكَلِمَاتِ ، وَكَمَا يَجِبُ عَلَى ٱلْمُعَزِّمِ أَلَّا يَمَسَّ ٱلْحَيَّةَ بَيْنَ يَدَيْ وَلَدِهِ ٱلطِّفْلِ ، إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ سَيَقْتَدِي بِهِ وَيَظُنُّ أَنَّهُ مِثْلُهُ ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُحَذِّرَهُ مِنْهُ بِأَنْ يَحْذَرَ هُوَ فِي نَفْسِهِ وَلَا يَمَسَّهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَى ٱلْعَالِمِ ٱلرَّاسِخِ مِثْلُهُ وَكَمَا أَنَّ ٱلْمُعَزِّمَ ٱلْحَاذِقَ إِذَا أَخَذَ ٱلْحَيَّةَ وَمَيَّزَ بَيْنَ ٱلتِّرْيَاقِ (٢) وَٱلسُّمِّ ، فَٱسْتَخْرَجَ مِنْهُ ٱلتِّرْيَاقَ وَأَبْطَلَ ٱلسُّمَّ ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَشِحَّ بِٱلتِّرْيَاقِ

(١) الشطوط جمع شط (٢) الترياق دواء يبطل فعل السموم

عَلَى ٱلْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ . وَكَذَلِكَ ٱلصَّرَّافُ ٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ ، إِذَا أَدْخَلَ يَدَهُ فِي كِيسِ ٱلْقَلَّابِ ، وَأَخْرَجَ مِنْهُ ٱلْإِبْرِيزَ ٱلْخَالِصَ ، وَٱطَّرَحَ ٱلزَّيْفَ وَٱلْبَهْرَجَ ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَشِحَّ بِٱلْجَيِّدِ ٱلْمَرْضِيِّ عَلَى مَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، كَذَلِكَ ٱلْعَالِمُ . وَكَمَا أَنَّ ٱلْمُحْتَاجَ إِلَى ٱلتِّرْيَاقِ ، إِذَا ٱشْمَأَزَّتْ نَفْسُهُ مِنْهُ حَيْثُ عَلِمَ أَنَّهُ مُسْتَخْرَجٌ مِنَ ٱلْحَيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ مَرْكَزُ ٱلسُّمِّ وَجَبَ تَعْرِيفُهُ . وَٱلْفَقِيرُ ٱلْمُضْطَرُّ إِلَى ٱلْمَالِ ، إِذَا نَفَرَ عَنْ قَبُولِ ٱلذَّهَبِ ٱلْمُسْتَخْرَجِ مِنْ كِيسِ ٱلْقَلَّابِ ، وَجَبَ تَنْبِيهُهُ عَلَى أَنَّ نُفْرَتَهُ جَهْلٌ مَحْضٌ ، هُوَ سَبَبُ حِرْمَانِهِ ٱلْفَائِدَةَ ٱلَّتِي هِيَ مَطْلَبُهُ ، وَيَخْتِمُ تَعْرِيفَهُ أَنَّ قُرْبَ ٱلْجِوَارِ بَيْنَ ٱلزَّيْفِ وَٱلْجَيِّدِ لَا يَجْعَلُ ٱلْجَيِّدَ زَيْفًا ، كَمَا لَا يَجْعَلُ ٱلزَّيْفَ جَيِّدًا . فَكَذَلِكَ قُرْبُ ٱلْجِوَارِ بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ ، لَا يَجْعَلُ ٱلْحَقَّ بَاطِلًا ، كَمَا لَا يَجْعَلُ ٱلْبَاطِلَ حَقًّا .

فَهَذَا مِقْدَارُ مَا أَرَدْنَا ذِكْرَهُ مِنْ آفَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ وَغَائِلَتِهَا

***

٣ — مَذْهَبُ ٱلتَّعْلِيمِ [1] وَغَائِلَتُهُ

مذهب التعليم وغائلته

ثُمَّ إِنِّي لَمَّا فَرَغْتُ مِنْ عِلْمِ ٱلْفَلْسَفَةِ وَتَحْصِيلِهِ وَتَفْهِيمِهِ وَتَزْيِيفِ مَا يُزَيَّفُ مِنْهُ ، عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ أَيْضاً غَيْرُ وَافٍ بِكَمَالِ ٱلْغَرَضِ ، وَأَنَّ ٱلْعَقْلَ لَيْسَ مُسْتَقِلًّا بِالْإِحَاطَةِ بِجَمِيعِ ٱلْمَطَالِبِ ، وَلَا كَاشِفاً لِلْغِطَاءِ عَنْ جَمِيعِ ٱلْمُعْضِلَاتِ وَكَانَ قَدْ نَبَغَتْ نَابِغَةُ ٱلتَّعْلِيمِيَّةِ ، وَشَاعَ بَيْنَ ٱلْخَلْقِ تَحَدُّثُهُمْ بِمَعْرِفَةِ مَعْنَى ٱلْأُمُورِ مِنْ جِهَةِ ٱلْإِمَامِ ٱلْمَعْصُومِ ٱلْقَائِمِ بِالْحَقِّ ، عَنَّ لِي أَنْ أَبْحَثَ عَنْ مَقَالَاتِهِمْ ، لِأَطَّلِعَ عَلَى مَا فِي كُتُبِهِمْ . ثُمَّ ٱتَّفَقَ أَنْ وَرَدَ عَلَيَّ أَمْرٌ جَازِمٌ مِنْ حَضْرَةِ ٱلْخِلَافَةِ ، بِتَصْنِيفِ كِتَابٍ يَكْشِفُ عَنْ حَقِيقَةِ مَذْهَبِهِمْ . فَلَمْ يَسَعْنِي مُدَافَعَتُهُ ، وَصَارَ ذَلِكَ مُسْتَحِثًّا مِنْ خَارِجٍ ، ضَمِيمَةً لِلْبَاعِثِ ٱلْأَصْلِيِّ مِنَ ٱلْبَاطِلِ ، فَابْتَدَأْتُ بِطَلَبِ كُتُبِهِمْ وَجَمْعِ مَقَالَاتِهِمْ . وَكَانَ قَدْ بَلَغَنِي بَعْضُ

---

(١) مذهب التعليم ، ويدعى الباطنية وهو عقيدة إحدى الفرق التى تنسب نفسها إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ولذلك يسمون أنفسهم الاسماعيلية وكان بدء ظهورهم دينيا محضا، ثم اصطبغوا صبغة سياسية حتى خشى منهم على مركز الخلافة فأخذ فى مناهضتهم .

كَلِمَاتِهِمْ ٱلْمُسْتَحْدَثَةِ ٱلَّتِي وَلَّدَتْهَا خَوَاطِرُ أَهْلِ ٱلْعَصْرِ ، لَا عَلَى ٱلْمِنْهَاجِ ٱلْمَعْهُودِ مِنْ سَلَفِهِمْ . فَجَمَعْتُ تِلْكَ ٱلْكَلِمَاتِ ، وَرَتَّبْتُهَا تَرْتِيباً مُحْكَماً مُقَارِناً لِلتَّحْقِيقِ ، وَٱسْتَوْفَيْتُ ٱلْجَوَابَ عَنْهَا ، حَتَّى أَنْكَرَ بَعْضُ أَهْلِ ٱلْحَقِّ مِنِّي مُبَالَغَتِي فِي تَقْرِيرِ حُجَّتِهِمْ ، وَقَالَ : « هَذَا سَعْيٌ لَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَعْجِزُونَ عَنْ نُصْرَةِ مَذْهَبِهِمْ لِمِثْلِ هَذِهِ ٱلشُّبُهَاتِ لَوْلَا تَحْقِيقُكَ لَهَا ، وَتَرْتِيبُكَ إِيَّاهَا » وَهَذَا ٱلْإِنْكَارُ مِنْ وَجْهٍ حَقٌّ ، فَلَقَدْ أَنْكَرَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ (١) عَلَى ٱلْحَارِثِ ٱلْمُحَاسِبِيِّ - رَحِمَهُمَا ٱللهُ - تَصْنِيفَهُ فِي ٱلرَّدِّ عَلَى ٱلْمُعْتَزِلَةِ ، فَقَالَ ٱلْحَارِثُ : « ٱلرَّدُّ عَلَى ٱلْبِدْعَةِ فَرْضٌ » فَقَالَ أَحْمَدُ : « نَعَمْ ، وَلَكِنْ حَكَيْتَ شُبْهَتَهُمْ أَوَّلًا ، ثُمَّ أَجَبْتَ عَنْهَا ، فَبِمَ تَأْمَنُ أَنْ يُطَالِعَ ٱلشُّبْهَةَ مَنْ يَعْلَقُ ذَلِكَ بِفَهْمِهِ ، وَلَا يَلْتَفِتَ إِلَى ٱلْجَوَابِ ، أَوْ يَنْظُرَ إِلَى

(١) هو أحد الأئمة الأربعة كان شديدا على المعتزلة فعذب من أجل ذلك أيام المأمون ابان سطوتهم وسلطانهم ، ولد سنة ١٦٤ هـ . وتوفى سنة ٢٤١ .

ٱلْجَوَابِ ، وَلَا يَفْهَمَ كُنْهَهُ ؟ »

وَمَاذَ كَرَهُ أَحْمَدُ حَقٌّ ، وَلَـكِنْ فِى شُبْهَـةٍ لَمْ تَنْتَشِرْ وَلَمْ تَشْتَهِرْ ، فَأَمَّا إِذَا ٱنْتَشَرَتْ ، فَٱلْجَوَابُ عَنْهَا وَاجِبٌ وَلَا يُمْكِنُ ٱلْجَوَابُ عَنْهَا إِلَّا بَعْدَ ٱلْحِكَايَةِ . نَعَمْ ، يَنْبَغِى أَلَّا يَتَكَلَّفَ لَهُمْ شُبْهَةً لَمْ يُتَكَلَّفْ إِيرَادُهَا ، وَلَمْ أَتَكَلَّفْ أَنَا ذَلِكَ ، بَلْ كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ تِلْكَ ٱلشُّبْهَةَ مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِى ٱلْمُخْتَلِفِينَ [1] إِلَىَّ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ قَدِ ٱلْتَحَقَ بِهِمْ ، وَٱنْتَحَلَ مَذْهَبَهُمْ ، وَحَكَى أَنَّهُمْ يَضْحَكُونَ عَلَى تَصَانِيفِ ٱلْمُصَنِّفِينَ فِى ٱلرَّدِّ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا بَعْدُ حُجَّتَهُمْ ، وَذَكَرَ تِلْكَ ٱلْحُجَّةَ وَحَكَاهَا عَنْهُمْ ، فَلَمْ أَرْضَ لِنَفْسِى أَنْ يُظَنَّ بِىَ ٱلْغَفْلَةُ عَنْ أَصْلِ حُجَّتِهِمْ ، فَلِذَلِكَ أَوْرَدْتُهَا ، وَلَا أَنْ يُظَنَّ بِى أَنِّى وَإِنْ سَمِعْتُهَا فَلَمْ أَفْهَمْهَا ، فَلِذَلِكَ قَرَّرْتُهَا .

وَٱلْمَقْصُودُ ، أَنِّى قَرَّرْتُ شُبْهَتَهُمْ إِلَى أَقْصَى ٱلْإِمْكَانِ ثُمَّ أَظْهَرْتُ فَسَادَهَا بِغَايَةِ ٱلْبُرْهَانِ .

---

(١) المختلفين إلى : أى المترددين

وَالْحَاصِلُ : أَنَّهُ لَا حَاصِلَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ وَلَا طَائِلَ لِكَلَامِهِمْ . وَلَوْلَا سُوءُ نَصْرَةِ الصَّدِيقِ الْجَاهِلِ ، لَمَا انْتَهَتْ تِلْكَ الْبِدْعَةُ مَعَ ضَعْفِهَا إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ ، وَلَكِنَّ شِدَّةَ التَّعَصُّبِ ، دَعَتِ الذَّابِّينَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى تَطْوِيلِ النِّزَاعِ مَعَهُمْ فِي مُقَدِّمَاتِ كَلَامِهِمْ ، وَإِلَى مُجَاحَدَتِهِمْ فِي كُلِّ مَا نَطَقُوا بِهِ ، فَجَاحَدُوهُمْ فِي دَعْوَاهُمْ : « الْحَاجَةُ إِلَى التَّعْلِيمِ وَالْمُعَلِّمِ »، وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُ : « لَا يَصْلُحُ كُلُّ مُعَلِّمٍ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مُعَلِّمٍ مَعْصُومٍ » . وَظَهَرَتْ حُجَّتُهُمْ فِي إِظْهَارِ الْحَاجَةِ إِلَى التَّعْلِيمِ وَالْمُعَلِّمِ ، وَضَعْفُ قَوْلِ الْمُنْكِرِينَ فِي مُقَابَلَتِهِ ، فَاغْتَرَّ بِذَلِكَ جَمَاعَةٌ ، وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ قُوَّةِ مَذْهَبِهِمْ وَضَعْفِ مَذْهَبِ الْمُخَالِفِينَ لَهُمْ ، وَلَمْ يَفْهَمُوا أَنَّ ذَلِكَ لِضَعْفِ نَاصِرِ الْحَقِّ وَجَهْلِهِ بِطَرِيقِهِ بَلِ الصَّوَابُ الِاعْتِرَافُ بِالْحَاجَةِ إِلَى الْمُعَلِّمِ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ الْمُعَلِّمُ مَعْصُومًا[1]

(١) المعصوم : من لا يرتكب الخطأ . والعصمة : صفة توجب لصاحبها التنزه عن الخطايا ، ولا تكون إلا للأنبياء عليهم السلام ، وهل تثبت لهم بعد النبوة أو قبلها قولان ، ثالثها أنهم معصومون قبل النبوة عن الكبائر جميعها وعن الصغائر الخسيسة المزرية بالشرف ، وأما بعدها فمعصومون مطلقا عن كل صغيرة وكبيرة ، وهذا هو الأرجح من أقوال أهل السنة

وَلَـكِنَّ مُعَلِّمَنَا ٱلْمَعْصُومَ هُوَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ . فَإِذَا قَالُوا « هُوَ مَيِّتٌ » . فَنَقُولُ : « فَمُعَلِّمُكُمْ غَائِبٌ » . فَإِذَا قَالُوا : « مُعَلِّمُنَا قَدْ عَلَّمَ ٱلدُّعَاةَ وَبَثَّهُمْ فِي ٱلْبِلَادِ ، وَهُوَ يَنْتَظِرُ مُرَاجَعَتَهُمْ إِنِ ٱخْتَلَفُوا أَوْ أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مُشْكِلٌ » . فَنَقُولُ : « وَمُعَلِّمُنَا قَدْ عَلَّمَ ٱلدُّعَاةَ وَبَثَّهُمْ فِي ٱلْبِلَادِ وَأَكْمَلَ ٱلتَّعْلِيمَ ، إِذْ قَالَ ٱللهُ تَعَالَى : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » . وَبَعْدَ كَمَالِ ٱلتَّعْلِيمِ لَا يَضُرُّ مَوْتُ ٱلْمُعَلِّمِ ، كَمَا لَا يَضُرُّ غَيْبَتُهُ .

فَبَقِيَ قَوْلُهُمْ : « كَيْفَ تَحْكُمُونَ فِيمَا لَمْ تَسْمَعُوهُ ؟ أَبِالنَّصِّ وَلَمْ تَسْمَعُوهُ ؟ أَمْ بِالِاجْتِهَادِ وَٱلرَّأْيِ وَهُوَ مَظِنَّةُ ٱلْخِلَافِ ؟ » فَنَقُولُ : « نَفْعَلُ مَا فَعَلَهُ مُعَاذٌ (١) إِذْ بَعَثَهُ

(١) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى ، كان أبيض وضيء الوجه جميلا ، شهد بدرا وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، وأمره النبي صلى الله عليه وسلم على اليمن وأوصاه بوصيته المشهورة ، كان من أفضل شباب الأنصار حلما وحياء وسخاء ، وعن عمر ، « عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ولولا معاذ لهلك عمر » وكانت وفاته بالطاعون سنة سبع عشرة ولم يبلغ الأربعين

رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْيَمَنِ : أَنْ تَحْكُمَ بِالنَّصِّ عِنْدَ وُجُودِ النَّصِّ ، وَبِالِاجْتِهَادِ عِنْدَ عَدَمِهِ . بَلْ كَمَا يَفْعَلُهُ دُعَاتُهُمْ إِذَا بَعُدُوا عَنِ الْإِمَامِ إِلَى أَقَاصِي الْبِلَادِ ، إِذْ لَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَحْكُمُوا بِالنَّصِّ ، فَإِنَّ النُّصُوصَ الْمُتَنَاهِيَةَ لَا تَسْتَوْعِبُ الْوَقَائِعَ الْغَيْرَ الْمُتَنَاهِيَةِ ، وَلَا يُمْكِنُهُ الرُّجُوعُ فِي كُلِّ وَاقِعَةٍ إِلَى بَلْدَةِ الْإِمَامِ ، وَإِلَى أَنْ يَقْطَعَ الْمَسَافَةَ وَيَرْجِعَ فَيَكُونَ الْمُسْتَفْتِي قَدْ مَاتَ ، وَفَاتَ الِانْتِفَاعُ بِالرُّجُوعِ . فَمَنْ أُشْكِلَتْ عَلَيْهِ الْقِبْلَةُ لَيْسَ لَهُ طَرِيقٌ إِلَّا أَنْ يُصَلِّيَ بِالِاجْتِهَادِ ، إِذْ لَوْ سَافَرَ إِلَى بَلْدَةِ الْإِمَامِ لِمَعْرِفَةِ الْقِبْلَةِ ، لَفَاتَ وَقْتُ الصَّلَاةِ ، فَإِذَنْ جَازَتِ الصَّلَاةُ إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ بِنَاءً عَلَى الظَّنِّ . وَيُقَالُ : « إِنَّ الْمُخْطِئَ فِي الِاجْتِهَادِ لَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ وَلِلْمُصِيبِ أَجْرَانِ » ، فَكَذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْمُجْتَهَدَاتِ ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ صَرْفِ الزَّكَاةِ إِلَى الْفَقِيرِ ، وَرُبَّمَا يَظُنُّهُ فَقِيرًا بِاجْتِهَادِهِ وَهُوَ غَنِيٌّ بَاطِنًا بِإِخْفَائِهِ مَالَهُ ، وَلَا يَكُونُ

هُوَ مُؤَاخَذًا بِهِ وَإِنْ أَخْطَأَ ، لِأَنَّهُ لَمْ يُؤَاخَذْ إِلَّا بِمُوجَبِ ظَنِّهِ ، فَإِنْ قَالَ : « ظَنُّ مُخَالِفِهِ كَظَنِّهِ » . فَنَقُولُ : « هُوَ مَأْمُورٌ بِاتِّبَاعِ ظَنِّ نَفْسِهِ ، كَالْمُجْتَهِدِ فِي الْقِبْلَةِ يَتَّبِعُ ظَنَّ نَفْسِهِ وَإِنْ خَالَفَهُ غَيْرُهُ » . وَإِنْ قَالَ : « فَالْمُقَلِّدُ يَتَّبِعُ أَبَا حَنِيفَةَ (١) وَالشَّافِعِيَّ (٢) - رَحِمَهُمَا اللهُ - أَوْ غَيْرَهُمَا » فَأَقُولُ : « فَالْمُقَلِّدُ فِي الْقِبْلَةِ عِنْدَ الِاشْتِبَاهِ ، إِذَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ الْمُجْتَهِدُونَ ، كَيْفَ يَصْنَعُ بِهِ » فَيَقُولُ : « لَهُ مَعَ نَفْسِهِ اجْتِهَادٌ فِي مَعْرِفَةِ الْأَفْضَلِ الْأَعْلَمِ بِدَلَائِلِ الْقِبْلَةِ ، فَيَتَّبِعُ ذَلِكَ الِاجْتِهَادَ ، فَكَذَلِكَ فِي الْمَذَاهِبِ » .

فَرَدَّ الْخَلْقَ إِلَى الِاجْتِهَادِ - ضَرُورَةً - الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئِمَّةُ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُمْ قَدْ يُخْطِئُونَ ، بَلْ قَالَ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَنَا أَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ وَاللهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ (٣) »

---

(١) هو الامام الأعظم فارسى الأصل نشأ بالكوفة وعاصر بعض الصحابة . رضى أن يعيش تاجر خز ورغب عن القضاء ووظائف الملوك والأمراء ولد سنة ٨٠ وتوفى عام ١٥٠ (٢) هو الامام المعروف ولد بغزة سنة ١٥٠ ومات سنة ٢٠٤ وهو أنبغ سلالة قريش بعد عصر الصحابة كان واسع العلم بالكتاب والسنة ضليعا باللغة العربية (٣) ليس فى كتب السنة هذا القول وإن ذكره الفقهاء

أَىْ أَنَا أَحْكُمُ بِغَالِبِ الظَّنِّ الْحَاصِلِ مِنْ قَوْلِ الشُّهُودِ ، وَرُبَّمَا أَخْطَئُوا فِيهِ . وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْأَمْنِ مِنَ الْخَطَإِ لِلْأَنْبِيَاءِ فِى مِثْلِ هَذِهِ الْمُجْتَهَدَاتِ فَكَيْفَ نَطْمَعُ فِى ذَلِكَ ؟

وَلَهُمْ هٰهُنَا سُؤَالَانِ : أَحَدُهُمَا قَوْلُهُمْ هَذَا ، وَإِنْ صَحَّ فِى الْمُجْتَهَدَاتِ فَلَا يَصِحُّ فِى قَوَاعِدِ الْعَقَائِدِ ، إِذِ الْمُخْطِئُ فِيهِ غَيْرُ مَعْذُورٍ ، فَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَيْهِ ؟ فَأَقُولُ : « قَوَاعِدُ الْعَقَائِدِ يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ التَّفْصِيلِ ، وَالْمُتَنَازَعُ فِيهِ ، يُعْرَفُ الْحَقُّ فِيهِ بِالْوَزْنِ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَهِىَ الْمَوَازِينُ الَّتِى ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِى كِتَابِهِ ، وَهِىَ خَمْسَةٌ ذَكَرْتُهَا فِى كِتَابِ « الْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ » . فَإِنْ قَالَ : « خُصُومُكَ يُخَالِفُونَكَ فِى ذَلِكَ الْمِيزَانِ » . فَأَقُولُ : « لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُفْهِمَ ذَلِكَ الْمِيزَانُ ثُمَّ يُخَالَفُ فِيهِ إِذْ لَا يُخَالِفُ فِيهِ أَهْلُ التَّعْلِيمِ ، لِأَنِّى اسْتَخْرَجْتُهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَتَعَلَّمْتُهُ مِنْهُ وَلَا يُخَالِفُ فِيهِ أَهْلُ الْمَنْطِقِ ، لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا شَرَطُوهُ

فِي ٱلْمَنْطِقِ ، غَيْرُ مُخَالِفٍ لَهُ ، وَلَا يُخَالِفُ فِيهِ ٱلْمُتَكَلِّمُ لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا يَذْكُرُهُ فِي أَدِلَّةِ ٱلنَّظَرِيَّاتِ ، وَبِهِ يُعْرَفُ ٱلْحَقُّ فِي ٱلْكَلَامِيَّاتِ . فَإِنْ قَالَ : « فَإِنْ كَانَ فِي يَدِكَ مِثْلُ هَذَا ٱلْمِيزَانِ ، فَلِمَ لَا تَرْفَعُ ٱلْخِلَافَ بَيْنَ ٱلْخَلْقِ ؟ » فَأَقُولُ : « لَوْ أَصْغَوْا إِلَيَّ لَرَفَعْتُ ٱلْخِلَافَ بَيْنَهُمْ ، وَذَكَرْتُ طَرِيقَ رَفْعِ ٱلْخِلَافِ فِي كِتَابِ « ٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ » فَتَأَمَّلْهُ لِتَعْلَمَ أَنَّهُ حَقٌّ وَأَنَّهُ يَرْفَعُ ٱلْخِلَافَ قَطْعًا لَوْ أَصْغَوْا ، وَلَا يُصْغُونَ إِلَيْهِ بِأَجْمَعِهِمْ ! بَلْ قَدْ أَصْغَى إِلَيَّ طَائِفَةٌ ، فَرَفَعْتُ ٱلْخِلَافَ بَيْنَهُمْ . وَإِمَامُكَ يُرِيدُ رَفْعَ ٱلْخِلَافِ بَيْنَهُمْ مَعَ عَدَمِ إِصْغَائِهِمْ ، فَلِمَ لَمْ يَرْفَعْ إِلَى ٱلْآنِ ؟ وَلِمَ لَمْ يَرْفَعْ (١) عَلِيٌّ - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ رَأْسُ ٱلْأَئِمَّةِ ؟ أَوْ يَدَّعِي أَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى حَمْلِ كَافَّتِهِمْ عَلَى ٱلْإِصْغَاءِ قَهْرًا ، فَلِمَ لَمْ يَحْمِلْهُمْ إِلَى ٱلْآنِ ؟ وَلِأَيِّ يَوْمٍ أَجَّلَهُ ؟ وَهَلْ حَصَلَ بَيْنَ ٱلْخَلْقِ بِسَبَبِ دَعْوَتِهِ إِلَّا زِيَادَةُ خِلَافٍ وَزِيَادَةُ

(١) لم لم يرفع : هكذا بالاصل ، والاصل يرفعه ليعود الضمير إلى الخلاف

مُخَالِفٍ ؟ نَعَمْ ! كَانَ يُخْشَى مِنَ ٱلْخِلَافِ نَوْعٌ مِنَ ٱلضَّرَرِ لَا يَنْتَهِي إِلَى سَفْكِ ٱلدِّمَاءِ ، وَتَخْرِيبِ ٱلْبِلَادِ ، وَإِيتَامِ ٱلْأَوْلَادِ ، وَقَطْعِ ٱلطُّرُقِ ، وَٱلْإِغَارَةِ عَلَى ٱلْأَمْوَالِ . وَقَدْ حَدَثَ فِي ٱلْعَالَمِ مِنْ بَرَكَاتٍ فَيُعْلَمُ ٱلْخِلَافُ مِنَ ٱلْخِلَافِ مَا لَمْ يَكُنْ بِمِثْلِهِ عَهْدٌ » . فَإِنْ قَالَ : « أَدَّعَيْتَ أَنَّكَ تَرْفَعُ ٱلْخِلَافَ بَيْنَ ٱلْخَلْقِ وَلَكِنَّ ٱلْمُتَحَيِّرَ بَيْنَ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْمُتَعَارِضَةِ ، وَٱلِاخْتِلَافَاتِ ٱلْمُتَقَابِلَةِ ، لَمْ يَلْزَمْهُ ٱلْإِصْغَاءُ إِلَيْكَ دُونَ خَصْمِكَ وَأَكْثَرُ ٱلْخُصُومِ يُخَالِفُونَكَ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ » ، وَهَذَا هُوَ سُؤَالُهُمُ ٱلثَّانِي ، فَأَقُولُ : « هَذَا أَوَّلًا يَنْقَلِبُ عَلَيْكَ ، فَإِنَّكَ إِذَا دَعَوْتَ هَذَا ٱلْمُتَحَيِّرَ إِلَى نَفْسِكَ ، فَيَقُولُ ٱلْمُتَحَيِّرُ : بِمَ صِرْتَ أَوْلَى مِنْ مُخَالِفِيكَ ، وَأَكْثَرُ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ يُخَالِفُونَكَ ؟ فَلَيْتَ شِعْرِي ! بِمَاذَا تُجِيبُ ؟ أَتُجِيبُ بِأَنْ تَقُولَ : إِمَامِي مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ ؟ فَمَنْ يُصَدِّقُكَ فِي دَعْوَى ٱلنَّصِّ ، وَهُوَ لَمْ يَسْمَعِ ٱلنَّصَّ مِنَ ٱلرَّسُولِ ؟ وَإِنَّمَا يَسْمَعُ دَعْوَاكَ مَعَ تَطَابُقِ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ

عَلَى اخْتِرَاعِكَ وَتَكْذِيبِكَ . ثُمَّ هَبْ أَنَّهُ سَلَّمَ لَكَ النَّصَّ فَإِنْ كَانَ مُتَحَيِّرًا فِي أَصْلِ النُّبُوَّةِ ، فَقَالَ : هَبْ أَنَّ إِمَامَكَ يُدْلِي بِمُعْجِزَةِ عِيسَى فَيَقُولُ : الدَّلِيلُ عَلَى صِدْقِي أَنِّي أُحْيِي أَبَاكَ ، وَأَحْيَاهُ ، فَنَاطَقَنِي بِأَنَّهُ مُحِقٌّ ، فَبِمَاذَا أَعْلَمُ صِدْقَهُ ؟ وَلَمْ يَعْرِفْ كَافَّةُ الْخَلْقِ صِدْقَ عِيسَى بِهَذِهِ الْمُعْجِزَةِ ، بَلْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْئِلَةِ الْمُشْكِلَةِ مَالَا يُدْفَعُ إِلَّا بِدَقِيقِ النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ ، وَالنَّظَرُ الْعَقْلِيُّ لَا يُوثَقُ بِهِ عِنْدَكَ ، وَلَا يَعْرِفُ دِلَالَةَ الْمُعْجِزَةِ عَلَى الصِّدْقِ مَالَمْ يَعْرِفِ السِّحْرَ وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُعْجِزَةِ ، وَمَالَمْ يَعْرِفْ أَنَّ اللهَ لَا يُضِلُّ عِبَادَهُ - وَسُؤَالُ الْإِضْلَالِ وَعُسْرُ تَحْرِيرِ الْجَوَابِ عَنْهُ مَشْهُورٌ - فَبِمَاذَا تَدْفَعُ جَمِيعَ ذَلِكَ ؟ وَلَمْ يَكُنْ إِمَامُكَ أَوْلَى بِالْمُتَابَعَةِ مِنْ مُخَالِفِهِ ! فَيَرْجِعُ إِلَى الْأَدِلَّةِ النَّظَرِيَّةِ الَّتِي يُنْكِرُهَا وَخَصْمُهُ يُدْلِي بِمِثْلِ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ وَأَوْضَحَ مِنْهَا . وَهَذَا السُّؤَالُ قَدِ انْقَلَبَ عَلَيْهِمُ انْقِلَابًا عَظِيمًا ، لَوِ اجْتَمَعَ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ عَلَى أَنْ يُجِيبُوا عَنْهُ جَوَابًا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ .

وَإِنَّمَا نَشَأَ ٱلْفَسَادُ مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلضَّعَفَةِ نَاظَرُوهُمْ ، فَلَمْ يَشْتَغِلُوا بِالْقَلْبِ ، بَلْ بِالْجَوَابِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ فِيهِ ٱلْكَلَامُ ، وَلَا يَسْبِقُ سَرِيعًا إِلَى ٱلْأَفْهَامِ ، فَلَا يَصْلُحُ لِلْإِفْحَامِ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : « فَهَذَا هُوَ ٱلْقَلْبُ ، فَهَلْ عَنْهُ جَوَابٌ ؟ » فَأَقُولُ : « نَعَمْ ! جَوَابُهُ أَنَّ ٱلْمُتَحَيِّرَ لَوْ قَالَ أَنَا مُتَحَيِّرٌ ، وَلَمْ يُعَيِّنِ ٱلْمَسْأَلَةَ ٱلَّتِي هُوَ مُتَحَيِّرٌ فِيهَا ، يُقَالُ لَهُ : أَنْتَ كَمَرِيضٍ يَقُولُ : أَنَا مَرِيضٌ ، وَلَا يَذْكُرُ عَيْنَ مَرَضِهِ ، وَيَطْلُبُ عِلَاجَهُ » فَيُقَالُ لَهُ : « لَيْسَ فِي ٱلْوُجُودِ عِلَاجٌ لِلْمَرَضِ ٱلْمُطْلَقِ ، بَلْ لِمَرَضٍ مُعَيَّنٍ : مِنْ صُدَاعٍ أَوْ إِسْهَالٍ أَوْ غَيْرِهِمَا » . فَكَذَلِكَ ٱلْمُتَحَيِّرُ يَنْبَغِي أَنْ يُعَيِّنَ مَاهُوَ مُتَحَيِّرٌ فِيهِ ، فَإِنْ عَيَّنَ ٱلْمَسْأَلَةَ عَرَّفْتُهُ ٱلْحَقَّ فِيهَا بِالْوَزْنِ بِالْمَوَازِينِ ٱلْخَمْسَةِ ، ٱلَّتِي لَا يَفْهَمُهَا أَحَدٌ إِلَّا وَيَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ ٱلْمِيزَانُ ٱلْحَقُّ ، ٱلَّذِي يُوثَقُ بِكُلِّ مَا يُوزَنُ بِهِ ، فَيَفْهَمُ ٱلْمِيزَانَ ، وَيَفْهَمُ أَيْضًا مِنْ صِحَّةِ ٱلْوَزْنِ ، كَمَا يَفْهَمُ مُتَعَلِّمُ ٱلْحِسَابِ نَفْسَ ٱلْحِسَابِ ،

وَكَوْنَ ٱلْمُحَاسِبِ ٱلْمُعَلِّمِ عَالِمًا بِالْحِسَابِ وَصَادِقًا فِيهِ .
وَقَدْ أَوْضَحْتُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ « ٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ »
فِي مِقْدَارِ عِشْرِينَ وَرَقَةً ، فَلْيُتَأَمَّلْ .

وَلَيْسَ ٱلْمَقْصُودُ ٱلْآنَ بَيَانَ فَسَادِ مَذْهَبِهِمْ ، فَقَدْ
ذَكَرْتُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ « ٱلْمُسْتَظْهِرِيِّ » أَوَّلًا ، وَفِي
كِتَابِ « حُجَّةِ ٱلْحَقِّ » ثَانِيًا ، وَهُوَ جَوَابُ كَلَامٍ لَهُمْ
عُرِضَ عَلَيَّ بِبَغْدَادَ ، وَفِي كِتَابِ « مُفَصِّلِ ٱلْخِلَافِ »
ٱلَّذِي هُوَ ٱثْنَا عَشَرَ فَصْلًا ثَالِثًا ، وَهُوَ جَوَابُ كَلَامٍ عُرِضَ
عَلَيَّ بِهَمَذَانَ ، وَفِي كِتَابِ « ٱلدَّرَجِ » ٱلْمَرْقُومِ « بِالْجَدَاوِلِ »
رَابِعًا ، وَهُوَ مِنْ رَقِيقِ كَلَامِهِمْ ٱلَّذِي عُرِضَ عَلَيَّ بِطُوسٍ
وَفِي كِتَابِ « ٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ » خَامِسًا ، وَهُوَ كِتَابٌ
مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ ، مَقْصُودُهُ بَيَانُ مِيزَانِ ٱلْعُلُومِ ، وَإِظْهَارُ
ٱلِاسْتِغْنَاءِ عَنِ ٱلْإِمَامِ ٱلْمَعْصُومِ لِمَنْ أَحَاطَ بِهِ .

بَلِ ٱلْمَقْصُودُ أَنَّ هَؤُلَاءِ ، لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ مِنَ ٱلشِّفَاءِ
ٱلْمُنْجِي مِنْ ظُلُمَاتِ ٱلْآرَاءِ ، بَلْ هُمْ مَعَ عَجْزِهِمْ عَنْ

إِقَامَةِ ٱلْبُرْهَانِ عَلَى تَعْيِينِ ٱلْإِمَامِ ، طَالَمَا جَارَيْنَاهُمْ فَصَدَّقْنَاهُمْ فِي ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلتَّعْلِيمِ ، وَإِلَى ٱلْمُعَلِّمِ ٱلْمَعْصُومِ ، وَأَنَّهُ ٱلَّذِي عَيَّنُوهُ ، ثُمَّ سَأَلْنَاهُمْ عَنِ ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِي تَعَلَّمُوهُ مِنْ هٰذَا ٱلْمَعْصُومِ ، وَعَرَضْنَا عَلَيْهِمْ إِشْكَالَاتٍ فَلَمْ يَفْهَمُوهَا ، فَضْلًا عَنِ ٱلْقِيَامِ بِحَلِّهَا ! فَلَمَّا عَجَزُوا أَحَالُوا عَلَى ٱلْإِمَامِ ٱلْغَائِبِ ، وَقَالُوا : « إِنَّهُ لَابُدَّ مِنَ ٱلسَّفَرِ إِلَيْهِ » . وَٱلْعَجَبُ أَنَّهُمْ ضَيَّعُوا عُمُرَهُمْ فِي طَلَبِ ٱلْمُعَلِّمِ ، وَفِي ٱلتَّبَجُّحِ بِالظَّفَرِ بِهِ وَلَمْ يَتَعَلَّمُوا مِنْهُ شَيْئًا أَصْلًا ، كَالْمُتَضَمِّخِ بِالنَّجَاسَةِ يَتْعَبُ فِي طَلَبِ ٱلْمَاءِ حَتَّى إِذَا وَجَدَهُ لَمْ يَسْتَعْمِلْهُ ، وَبَقِيَ مُتَضَمِّخًا بِالْخَبَائِثِ .

وَمِنْهُمْ مَنِ ٱدَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِهِمْ ، فَكَانَ حَاصِلُ مَاذَكَرَهُ شَيْئًا مِنْ رَكِيكِ فَلْسَفَةِ فِيثَاغُورْسَ[1] ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ قُدَمَاءِ ٱلْأَوَائِلِ ، وَمَذْهَبُهُ أَرَكُّ مَذَاهِبِ ٱلْفَلَاسِفَةِ وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِ أَرِسْطَاطَالِيسُ ، بَلِ ٱسْتَرَكَّ كَلَامَهُ وَٱسْتَرْذَلَهُ ،

(١) أحد فلاسفة الاغريق

وَهُوَ ٱلْمَحْكِيُّ فِي كِتَابِ « إِخْوَانِ ٱلصَّفَا » ، وَهُوَ عَلَى ٱلتَّحْقِيقِ حَشْوُ ٱلْفَلْسَفَةِ .

فَٱلْعَجَبُ مِمَّنْ يَتْعَبُ طُولَ ٱلْعُمُرِ فِي طَلَبِ ٱلْعِلْمِ ثُمَّ يَقْنَعُ بِمِثْلِ ذَلِكَ ٱلْعِلْمِ ٱلرَّكِيكِ ٱلْمُسْتَغَثِّ ، وَيَظُنُّ بِأَنَّهُ ظَفِرَ بِأَقْصَى مَقَاصِدِ ٱلْعُلُومِ ! فَهَؤُلَاءِ أَيْضًا جَرَّبْنَاهُمْ وَسَبَرْنَا ظَاهِرَهُمْ وَبَاطِنَهُمْ ؛ فَرَجَعَ حَاصِلُهُمْ إِلَى ٱسْتِدْرَاجِ ٱلْعَوَامِّ ، وَضُعَفَاءِ ٱلْعُقُولِ بِبَيَانِ ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْمُعَلِّمِ وَمُجَادَلَتِهِمْ فِي إِنْكَارِهِمُ ٱلْحَاجَةَ إِلَى ٱلتَّعْلِيمِ بِكَلَامٍ قَوِيٍّ مُفْحِمٍ ، حَتَّى إِذَا سَاعَدَهُمْ عَلَى ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْمُعَلِّمِ مُسَاعِدٌ ، وَقَالَ : « هَاتِ عِلْمَهُ وَأَفِدْنَا مِنْ تَعْلِيمِهِ ! » وَقَفَ وَقَالَ : « ٱلْآنَ إِذَا سَلَّمْتَ لِي هَذَا فَاطْلُبْهُ ، فَإِنَّمَا غَرَضِي هَذَا ٱلْقَدْرُ فَقَطْ » إِذْ عُلِمَ أَنَّهُ لَوْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ لَافْتَضَحَ وَلَعَجَزَ عَنْ حَلِّ أَدْنَى ٱلْإِشْكَالَاتِ ، بَلْ عَجَزَ عَنْ فَهْمِهِ ، فَضْلًا عَنْ جَوَابِهِ .

فَهَذِهِ حَقِيقَةُ حَالِهِمْ ، فَاخْبُرْهُمْ تَقْلُهُمْ (١) . فَلَمَّا خَبَرْنَاهُمْ نَفَضْنَا ٱلْيَدَ عَنْهُمْ أَيْضًا .

(١) أى تبغضهم وتكرههم

***

طريق الصوفية

٤ — طُرُقُ ٱلصُّوفِيَّةِ (١)

ثُمَّ إِنِّى لَمَّا فَرَغْتُ مِنْ هَذِهِ ٱلْعُلُومِ ، أَقْبَلْتُ بِهِمَّتِى عَلَى طَرِيقِ ٱلصُّوفِيَّةِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ طَرِيقَهُمْ إِنَّمَا يَتِمُّ بِعِلْمٍ وَعَمَلٍ ، وَكَانَ حَاصِلُ عَمَلِهِمْ قَطْعَ عَقَبَاتِ ٱلنَّفْسِ ، وَٱلتَّنَزُّهَ عَنْ أَخْلَاقِهَا ٱلْمَذْمُومَةِ وَصِفَاتِهَا ٱلْخَبِيثَةِ ، حَتَّى يُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى تَخْلِيَةِ ٱلْقَلْبِ عَنْ غَيْرِ ٱللهِ تَعَالَى ، وَتَحْلِيَتِهِ بِذِكْرِ ٱللهِ .

وَكَانَ ٱلْعِلْمُ أَيْسَرَ عَلَىَّ مِنَ ٱلْعَمَلِ ، فَابْتَدَأْتُ بِتَحْصِيلِ عِلْمِهِمْ مِنْ مُطَالَعَةِ كُتُبِهِمْ ، مِثْلُ : « قُوتِ ٱلْقُلُوبِ »

---

(١) الصوفية : أهل التصوف ، والصوفى فى عرفهم ، من فنى بنفسه ، وبقى بالله تعالى ، مستخلصا من الطبائع ، متصلا بحقيقة الحقائق ، وهو نسبة إلى الصوف ، لأنه كان شعارهم ، أو نسبة إلى الصفاء ، وعليه قوله : صافى فصوفى لهذا سمى الصوفى . أو نسبة إلى « سوقوس » بمعنى حكمة كلمة يونانية ، وعلم التصوف ، يبحث عن كيفية تطهير النفس والقلب من أدوائهما ، وإزالة كل مافيهما من العلل بأدوية الشرع الشريف وحكمه وأسراره وما اشتمل عليه من عبادات ومعاملات .

(لِأَبِي طَالِبٍ ٱلْمَكِّيِّ) - رَحِمَهُ ٱللهُ - وَكُتُبِ (ٱلْحَارِثِ ٱلْمُحَاسِبِيِّ)، وَٱلْمُتَفَرِّقَاتِ ٱلْمَأْثُورَةِ عَنِ (ٱلْجُنَيْدِ) وَ(ٱلشِّبْلِيِّ) وَ(أَبِي يَزِيدَ ٱلْبَسْطَامِيِّ) - قَدَّسَ ٱللهُ أَرْوَاحَهُمْ -، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ مَشَايِخِهِمْ، حَتَّى ٱطَّلَعْتُ عَلَى كُنْهِ مَقَاصِدِهِمُ ٱلْعِلْمِيَّةِ، وَحَصَّلْتُ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُحَصَّلَ مِنْ طَرِيقِهِمْ بِالتَّعَلُّمِ وَٱلسَّمَاعِ. فَظَهَرَ لِي أَنَّ أَخَصَّ خَوَاصِّهِمْ، مَالَا يُمْكِنُ ٱلْوُصُولُ إِلَيْهِ بِالتَّعَلُّمِ بَلْ بِالذَّوْقِ وَٱلْحَالِ وَتَبَدُّلِ ٱلصِّفَاتِ، وَكَمْ مِنَ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ أَنْ يُعْلَمَ حَدُّ ٱلصِّحَّةِ وَحَدُّ ٱلشِّبَعِ، وَأَسْبَابُهُمَا وَشُرُوطُهُمَا، وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَشَبْعَانَ! وَبَيْنَ أَنْ يُعْرَفَ حَدُّ ٱلسُّكْرِ، وَأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ حَالَةٍ تَحْصُلُ مِنْ ٱسْتِيلَاءِ أَبْخِرَةٍ تَتَصَاعَدُ مِنَ ٱلْمَعِدَةِ عَلَى مَعَادِنِ ٱلْفِكْرِ، وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ سَكْرَانَ! بَلِ ٱلسَّكْرَانُ لَا يَعْرِفُ حَدَّ ٱلسُّكْرِ، وَعِلْمُهُ وَهُوَ سَكْرَانُ وَمَا مَعَهُ مِنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ! وَٱلصَّاحِي يَعْرِفُ حَدَّ ٱلسُّكْرِ وَأَرْكَانَهُ وَمَامَعَهُ مِنَ ٱلسُّكْرِ شَيْءٌ؛

وَالطَّبِيبُ فِي حَالَةِ الْمَرَضِ يَعْرِفُ حَدَّ الصِّحَّةِ وَأَسْبَابَهَا وَأَدْوِيَتَهَا ، وَهُوَ فَاقِدُ الصِّحَّةِ . فَكَذَلِكَ فَرْقٌ بَيْنَ أَنْ تَعْرِفَ حَقِيقَةَ الزُّهْدِ وَشُرُوطَهَا وَأَسْبَابَهَا ، وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ حَالُكَ الزُّهْدَ ، وَعُزُوفَ النَّفْسِ عَنِ الدُّنْيَا !

فَعَلِمْتُ يَقِيناً أَنَّهُمْ أَرْبَابُ الْأَحْوَالِ ، لَا أَصْحَابُ الْأَقْوَالِ . وَأَنَّ مَا يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ بِطَرِيقِ الْعِلْمِ فَقَدْ حَصَّلْتُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ بِالسَّمَاعِ وَالتَّعَلُّمِ بَلْ بِالذَّوْقِ وَالسُّلُوكِ . وَكَانَ قَدْ حَصَلَ مَعِي مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي مَارَسْتُهَا ، وَالْمَسَالِكِ الَّتِي سَلَكْتُهَا ، فِي التَّفْتِيشِ عَنْ صِنْفَيِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ إِيمَانٌ يَقِينِيٌّ بِاللهِ تَعَالَى ، وَبِالنُّبُوَّةِ ، وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ .

فَهَذِهِ الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ مِنَ الْإِيمَانِ كَانَتْ رَسَخَتْ فِي نَفْسِي ، بِدَلِيلٍ مُعَيَّنٍ مُحَرَّرٍ ، بَلْ بِأَسْبَابٍ وَقَرَائِنَ وَتَجَارِيبَ لَا تَدْخُلُ تَحْتَ الْحَصْرِ تَفَاصِيلُهَا .

وَكَانَ قَدْ ظَهَرَ عِنْدِي أَنَّهُ لَا مَطْمَعَ لِي فِي سَعَادَةِ

ٱلْآخِرَةِ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، وَكَفِّ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلْهَوَى ، وَأَنَّ رَأْسَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، قَطْعُ عَلَاقَةِ ٱلْقَلْبِ عَنِ ٱلدُّنْيَا : بِالتَّجَافِي عَنْ دَارِ ٱلْغُرُورِ ، وَٱلْإِنَابَةِ إِلَى دَارِ ٱلْخُلُودِ ، وَٱلْإِقْبَالِ بِكُنْهِ ٱلْهِمَّةِ عَلَى ٱللهِ تَعَالَى . وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِعْرَاضِ عَنِ ٱلْجَاهِ وَٱلْمَالِ ، وَٱلْهَرَبِ مِنَ ٱلشَّوَاغِلِ وَٱلْعَلَائِقِ .

ثُمَّ لَاحَظْتُ أَحْوَالِي ، فَإِذَا أَنَا مُنْغَمِسٌ فِي ٱلْعَلَائِقِ ، وَقَدْ أَحْدَقَتْ بِي مِنَ ٱلْجَوَانِبِ ، وَلَاحَظْتُ أَعْمَالِي - وَأَحْسَنُهَا ٱلتَّدْرِيسُ وَٱلتَّعْلِيمُ - فَإِذَا أَنَا فِيهَا مُقْبِلٌ عَلَى عُلُومٍ غَيْرِ مُهِمَّةٍ وَلَا نَافِعَةٍ فِي طَرِيقِ ٱلْآخِرَةِ .

ثُمَّ تَفَكَّرْتُ فِي نِيَّتِي فِي ٱلتَّدْرِيسِ ، فَإِذَا هِيَ غَيْرُ خَالِصَةٍ لِوَجْهِ ٱللهِ تَعَالَى ، بَلْ بَاعِثُهَا وَمُحَرِّكُهَا طَلَبُ ٱلْجَاهِ وَٱنْتِشَارُ ٱلصِّيتِ . فَتَيَقَّنْتُ أَنِّي عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ ، وَأَنِّي قَدْ أَشْفَيْتُ (١) عَلَى ٱلنَّارِ ، إِنْ لَمْ أَشْتَغِلْ بِتَلَافِي (٢) ٱلْأَحْوَالِ .

---

(١) أشرفت (٢) أى يتداركها .

فَلَمْ أَزَلْ أَتَفَكَّرُ فِيهِ مُدَّةً ، وَأَنَا بَعْدُ عَلَى مُقَامِ الِاخْتِيَارِ ، أُصَمِّمُ الْعَزْمَ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَغْدَادَ وَمُفَارَقَةِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ يَوْمًا ، وَأَحُلُّ الْعَزْمَ يَوْمًا ، وَأُقَدِّمُ فِيهِ رِجْلًا وَأُؤَخِّرُ عَنْهُ أُخْرَى . لَا تَصْدُقُ لِي رَغْبَةٌ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ بُكْرَةً ، إِلَّا وَتَحْمِلُ عَلَيْهَا جُنْدُ الشَّهْوَةِ حَمْلَةً فَتُفَتِّرُهَا عَشِيَّةً : فَصَارَتْ شَهَوَاتُ الدُّنْيَا تُجَاذِبُنِي بِسَلَاسِلِهَا إِلَى الْمُقَامِ ، وَمُنَادِي الْإِيمَانِ يُنَادِي : الرَّحِيلَ ! الرَّحِيلَ ! فَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْعُمُرِ إِلَّا قَلِيلٌ ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ السَّفَرُ الطَّوِيلُ ، وَجَمِيعُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ رِيَاءٌ مُتَخَيَّلٌ ! فَإِنْ لَمْ تَسْتَعِدَّ الْآنَ لِلْآخِرَةِ ، فَمَتَى تَسْتَعِدُّ ؟ وَإِنْ لَمْ تَقْطَعِ الْآنَ هَذِهِ الْعَلَائِقَ فَمَتَى تَقْطَعُ ؟ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْبَعِثُ الدَّاعِيَةُ ، وَيَنْجَزِمُ الْعَزْمُ عَلَى الْهَرَبِ وَالْفِرَارِ !

ثُمَّ يَعُودُ الشَّيْطَانُ وَيَقُولُ : « هَذِهِ حَالٌ عَارِضَةٌ ، إِيَّاكَ أَنْ تُطَاوِعَهَا ، فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ الزَّوَالِ ، فَإِنْ أَذْعَنْتَ لَهَا

وَتَرَكْتَ هَذَا الْجَاهَ الْعَرِيضَ ، وَالشَّأْنَ الْمَنْظُومَ الْخَالِيَ عَنِ التَّكْدِيرِ وَالتَّنْغِيصِ ، وَالْأَمْنَ الْمُسَلَّمَ الصَّافِيَ عَنْ مُنَازَعَةِ الْخُصُومِ ، رُبَّمَا الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ نَفْسُكَ ، وَلَا يَتَيَسَّرُ لَكَ الْمُعَاوَدَةُ » .

فَلَمْ أَزَلْ أَتَرَدَّدُ بَيْنَ تَجَاذُبِ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا ، وَدَوَاعِي الْآخِرَةِ ، قَرِيباً مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ أَوَّلُهَا رَجَبُ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَفِي هَذَا الشَّهْرِ جَاوَزَ الْأَمْرُ حَدَّ الِاخْتِيَارِ إِلَى الِاضْطِرَارِ ، إِذْ أَقْفَلَ اللهُ عَلَى لِسَانِي حَتَّى اعْتُقِلَ عَنِ التَّدْرِيسِ ، فَكُنْتُ أُجَاهِدُ نَفْسِي أَنْ أُدَرِّسَ يَوْمًا وَاحِدًا تَطْيِيباً لِقُلُوبِ الْمُخْتَلِفَةِ إِلَيَّ ، فَكَانَ لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَا أَسْتَطِيعُهَا أَلْبَتَّةَ ، حَتَّى أَوْرَثَتْ هَذِهِ الْعُقْلَةُ فِي اللِّسَانِ حُزْناً فِي الْقَلْبِ ، بَطَلَتْ مَعَهُ قُوَّةُ الْهَضْمِ وَمَرَاءَةُ (١) الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، فَكَانَ لَا يَنْسَاغُ لِي ثَرِيدٌ ، وَلَا تَنْهَضِمُ لِي لُقْمَةٌ ، وَتَعَدَّى إِلَى ضَعْفِ الْقُوَى ،

(١) مراءة الطعام مصدر مرؤ : أى صار مريئا وساغ من غير غصص

حَتَّى قَطَعَ ٱلْأَطِبَّاءُ طَمَعَهُمْ مِنَ ٱلْعِلَاجِ ، وَقَالُوا : « هَذَا أَمْرٌ نَزَلَ بِالْقَلْبِ ، وَمِنْهُ سَرَى إِلَى ٱلْمِزَاجِ ، فَلَا سَبِيلَ إِلَيْهِ بِالْعِلَاجِ ، إِلَّا بِأَنْ يُتَرَوَّحَ ٱلسِّرُّ عَنِ ٱلْهَمِّ ٱلْمُلِمِّ .

ثُمَّ لَمَّا أَحْسَسْتُ بِعَجْزِى ، وَسَقَطَ بِالْكُلِّيَّةِ ٱخْتِيَارِى ٱلْتَجَأْتُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى ٱلْتِجَاءَ ٱلْمُضْطَرِّ ٱلَّذِى لَا حِيلَةَ لَهُ ، فَأَجَابَنِى ٱلَّذِى « يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ » ، وَسَهَّلَ عَلَى قَلْبِى ٱلْإِعْرَاضَ عَنْ ٱلْجَاهِ وَٱلْمَالِ وَٱلْأَوْلَادِ وَٱلْأَصْحَابِ ، وَأَظْهَرْتُ عَزْمَ ٱلْخُرُوجِ إِلَى مَكَّةَ ، وَأَنَا أُدَبِّرُ فِى نَفْسِى سَفَرَ ٱلشَّامِ ، حَذَرًا أَنْ يَطَّلِعَ ٱلْخَلِيفَةُ وَجُمْلَةُ ٱلْأَصْحَابِ عَلَى عَزْمِى فِى ٱلْمُقَامِ بِالشَّامِ ؛ فَتَلَطَّفْتُ بِلَطَائِفِ ٱلْحِيَلِ فِى ٱلْخُرُوجِ مِنْ بَغْدَادَ عَلَى عَزْمِ أَلَّا أُعَاوِدَهَا أَبَدًا ، وَٱسْتَهْدَفْتُ لِأَئِمَّةِ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ كَافَّةً إِذْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنْ يُجَوِّزُ أَنْ يَكُونَ ٱلْإِعْرَاضُ عَمَّا كُنْتُ فِيهِ سَبَبًا دِينِيًّا ، إِذْ ظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ ٱلْمَنْصِبُ ٱلْأَعْلَى فِى ٱلدِّينِ ، وَكَانَ ذَلِكَ مَبْلَغَهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ .

ثُمَّ ٱرْتَبَكَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلِاسْتِنْبَاطَاتِ ، وَظَنَّ مَنْ بَعُدَ عَنِ ٱلْعِرَاقِ ، أَنَّ ذَلِكَ كَانَ لِاسْتِشْعَارٍ مِنْ جِهَةِ ٱلْوُلَاةِ ؛ وَأَمَّا مَنْ قَرُبَ مِنَ ٱلْوُلَاةِ وَكَانَ يُشَاهِدُ إِلْحَاحَهُمْ فِي ٱلتَّعَلُّقِ بِي ، وَٱلِانْكِبَابَ عَلَيَّ ، وَإِعْرَاضِي عَنْهُمْ ، وَعَنِ ٱلِالْتِفَاتِ إِلَى قَوْلِهِمْ ، فَيَقُولُونَ : « هَذَا أَمْرٌ سَمَاوِيٌّ ، وَلَيْسَ لَهُ سَبَبٌ إِلَّا عَيْنٌ أَصَابَتْ أَهْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَزُمْرَةَ ٱلْعِلْمِ » .

***

انتقال الغزالي الى الشام

فَفَارَقْتُ بَغْدَادَ ، وَفَرَّقْتُ مَا كَانَ مَعِي مِنَ ٱلْمَالِ ، وَلَمْ أَدَّخِرْ إِلَّا قَدْرَ ٱلْكِفَافِ ، وَقُوتَ ٱلْأَطْفَالِ ، تَرَخُّصاً بِأَنَّ مَالَ ٱلْعِرَاقِ مُرْصَدٌ لِلْمَصَالِحِ ، لِكَوْنِهِ وَقْفاً عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ . فَلَمْ أَرَ فِي ٱلْعَالَمِ مَالًا يَأْخُذُهُ ٱلْعَالِمُ لِعِيَالِهِ أَصْلَحَ مِنْهُ .

ثُمَّ دَخَلْتُ ٱلشَّأْمَ ، وَأَقَمْتُ بِهِ قَرِيباً مِنْ سَنَتَيْنِ لَا شُغْلَ لِي إِلَّا ٱلْعُزْلَةُ وَٱلْخَلْوَةُ ، وَٱلرِّيَاضَةُ وَٱلْمُجَاهَدَةُ [1] ،

(١) حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى .

اشْتِغَالًا بِتَزْكِيَةِ النَّفْسِ ، وَتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ ، وَتَصْفِيَةِ الْقَلْبِ لِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى ، كَمَا كُنْتُ حَصَّلْتُهُ مِنْ عِلْمِ الصُّوفِيَّةِ ، فَكُنْتُ أَعْتَكِفُ مُدَّةً فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ ، أَصْعَدُ مَنَارَةَ الْمَسْجِدِ طُولَ النَّهَارِ ، وَأُغْلِقُ بَابَهَا عَلَى نَفْسِي .

***

رحلة الغزالى الى بيت المقدس والحجاز

ثُمَّ رَحَلْتُ مِنْهَا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، أَدْخُلُ كُلَّ يَوْمٍ الصَّخْرَةَ وَأُغْلِقُ بَابَهَا عَلَى نَفْسِي .

ثُمَّ تَحَرَّكَتْ فِيَّ دَاعِيَةُ فَرِيضَةِ الْحَجِّ ، وَالِاسْتِمْدَادِ مِنْ بَرَكَاتِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، وَزِيَارَةِ رَسُولِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ زِيَارَةِ الْخَلِيلِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ ، فَسِرْتُ إِلَى الْحِجَازِ .

***

عودة الغزالى الى وطنه

ثُمَّ جَذَبَتْنِي الْهِمَمُ وَدَعَوَاتُ الْأَطْفَالِ إِلَى الْوَطَنِ ، فَعَاوَدْتُهُ بَعْدَ أَنْ كُنْتُ أَبْعَدَ الْخَلْقِ عَنِ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ . فَآثَرْتُ الْعُزْلَةَ بِهِ أَيْضًا حِرْصًا عَلَى الْخَلْوَةِ ، وَتَصْفِيَةِ الْقَلْبِ لِلذِّكْرِ .

وَكَانَتْ حَوَادِثُ الزَّمَانِ، وَمُهِمَّاتُ الْعِيَالِ، وَضَرُورَاتُ الْمَعَاشِ تُغَيِّرُ فِيَّ وَجْهَ الْمُرَادِ، وَتُشَوِّشُ صَفْوَةَ الْخَلْوَةِ وَكَانَ لَا يَصْفُو لِي الْحَالُ إِلَّا فِي أَوْقَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ. لَكِنِّي مَعَ ذَلِكَ لَا أَقْطَعُ طَمَعِي مِنْهَا، فَتَدْفَعُنِي عَنْهَا الْعَوَائِقُ، وَأَعُودُ إِلَيْهَا.

وَدُمْتُ عَلَى ذَلِكَ مِقْدَارَ عَشْرِ سِنِينَ، وَانْكَشَفَتْ لِي فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْخَلَوَاتِ أُمُورٌ لَا يُمْكِنُ إِحْصَاؤُهَا وَاسْتِقْصَاؤُهَا؛ وَالْقَدْرُ الَّذِي أَذْكُرُهُ لِيُنْتَفَعَ بِهِ: أَنِّي عَلِمْتُ يَقِينًا أَنَّ الصُّوفِيَّةَ هُمُ السَّالِكُونَ لِطَرِيقِ اللهِ تَعَالَى خَاصَّةً، وَأَنَّ سِيرَتَهُمْ أَحْسَنُ السِّيَرِ، وَطَرِيقَهُمْ أَصْوَبُ الطُّرُقِ، وَأَخْلَاقَهُمْ أَزْكَى الْأَخْلَاقِ. بَلْ لَوْ جُمِعَ عَقْلُ الْعُقَلَاءِ، وَحِكْمَةُ الْحُكَمَاءِ، وَعِلْمُ الْوَاقِفِينَ عَلَى أَسْرَارِ الشَّرْعِ مِنَ الْعُلَمَاءِ، لِيُغَيِّرُوا شَيْئًا مِنْ سِيَرِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَيُبَدِّلُوهُ بِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، لَمْ يَجِدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا. فَإِنَّ جَمِيعَ حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، فِي ظَاهِرِهِمْ

وَبَاطِنِهِمْ مُقْتَبَسَةٌ مِنْ نُورِ مِشْكَاةِ ٱلنُّبُوَّةِ . وَلَيْسَ وَرَاءَ نُورِ ٱلنُّبُوَّةِ عَلَى وَجْهِ ٱلْأَرْضِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ .

وَبِالْجُمْلَةِ ، فَمَاذَا يَقُولُ ٱلْقَائِلُونَ فِي طَرِيقَةِ طَهَارَتُهَا - وَهِيَ أَوَّلُ شُرُوطِهَا - تَطْهِيرُ ٱلْقَلْبِ بِالْكُلِّيَّةِ عَمَّا سِوَى ٱللهِ تَعَالَى ، وَمِفْتَاحُهَا ٱلْجَارِي مِنْهَا مَجْرَى ٱلتَّحْرِيمِ مِنَ ٱلصَّلَاةِ [1] ، ٱسْتِغْرَاقُ ٱلْقَلْبِ بِالْكُلِّيَّةِ بِذِكْرِ ٱللهِ ، وَآخِرُهَا ٱلْفَنَاءُ بِالْكُلِّيَّةِ فِي ٱللهِ ؟ وَهَذَا آخِرُهَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا يَكَادُ يَدْخُلُ تَحْتَ ٱلِاخْتِيَارِ وَٱلْكَسْبِ مِنْ أَوَائِلِهَا . وَهِيَ عَلَى ٱلتَّحْقِيقِ أَوَّلُ ٱلطَّرِيقَةِ ، وَمَا قَبْلَ ذَلِكَ كَالدِّهْلِيزِ لِلسَّالِكِ إِلَيْهِ .

وَمِنْ أَوَّلِ ٱلطَّرِيقَةِ تَبْتَدِئُ ٱلْمُكَاشَفَاتُ وَٱلْمُشَاهَدَاتُ حَتَّى إِنَّهُمْ فِي يَقَظَتِهِمْ يُشَاهِدُونَ ٱلْمَلَائِكَةَ ، وَأَرْوَاحَ

(١) يعنى أن أول شرط للصلاة هو طهارة الجسد والثوب والمكان الذى لا تصح الصلاة الا به ، كذلك أول شرط فى الطريقة هو طهارة القلب ، ثم ان مفتاح الصلاة هو تكبيرة الاحرام التى تبدأ بها فتحرم على المصلى كل شىء ، كذلك مفتاح الطريقة استغراق القلب بالكلية بذكر الله

الْأَنْبِيَاءِ ، وَيَسْمَعُونَ مِنْهُمْ أَصْوَاتًا ، وَيَقْتَبِسُونَ مِنْهُمْ فَوَائِدَ ثُمَّ يَتَرَقَّى الْحَالُ مِنْ مُشَاهَدَةِ الصُّوَرِ وَالْأَمْثَالِ ، إِلَى دَرَجَاتٍ يَضِيقُ عَنْهَا نِطَاقُ النُّطْقِ ، فَلَا يُحَاوِلُ مُعَبِّرٌ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهَا إِلَّا اشْتَمَلَ لَفْظُهُ عَلَى خَطَإٍ صَرِيحٍ لَا يُمْكِنُهُ الِاحْتِرَازُ عَنْهُ .

وَعَلَى الْجُمْلَةِ ، يَنْتَهِي الْأَمْرُ إِلَى قُرْبٍ ، يَكَادُ يَتَخَيَّلُ مِنْهُ طَائِفَةٌ الْحُلُولَ ، وَطَائِفَةٌ الِاتِّحَادَ ، وَطَائِفَةٌ الْوُصُولَ وَكُلُّ ذَلِكَ خَطَأٌ . وَقَدْ بَيَّنَّا وَجْهَ الْخَطَإِ فِيهِ فِي كِتَابِ « الْمَقْصِدِ الْأَسْنَى » بَلِ الَّذِي لَابَسَتْهُ تِلْكَ الْحَالَةُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَزِيدَ عَلَى أَنْ يَقُولَ :

وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ

فَظُنَّ خَيْرًا وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ !

وَبِالْجُمْلَةِ فَمَنْ لَمْ يُرْزَقْ مِنْهُ شَيْئًا بِالذَّوْقِ ، فَلَيْسَ يُدْرِكُ مِنْ حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الِاسْمَ ، وَكَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى التَّحْقِيقِ هِيَ بِدَايَاتُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ حَالِ

رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ أَقْبَلَ إِلَى جَبَلِ «حِرَاءَ[1]» وَحِينَ كَانَ يَخْلُو فِيهِ بِرَبِّهِ وَيَتَعَبَّدُ، حَتَّى قَالَتِ الْعَرَبُ «إِنَّ مُحَمَّدًا عَشِقَ رَبَّهُ!».

وَهَذِهِ حَالَةٌ، يَتَحَقَّقُهَا بِالذَّوْقِ مَنْ سَلَكَ سَبِيلَهَا، فَمَنْ لَمْ يُرْزَقِ الذَّوْقَ، فَيَتَيَقَّنُهَا بِالتَّجْرِبَةِ وَالتَّسَامُعِ، إِنْ أَكْثَرَ مَعَهُمُ الصُّحْبَةَ حَتَّى يَفْهَمَ ذَلِكَ بِقَرَائِنِ الْأَحْوَالِ يَقِينًا، وَمَنْ جَالَسَهُمُ اسْتَفَادَ مِنْهُمْ هَذَا الْإِيمَانَ، فَهُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ. وَمَنْ لَمْ يُرْزَقْ صُحْبَتَهُمْ، فَلْيَعْلَمْ إِمْكَانَ ذَلِكَ يَقِينًا بِشَوَاهِدِ الْبُرْهَانِ، عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِ «عَجَائِبِ الْقَلْبِ» مِنْ كُتُبِ «إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ».

وَالتَّحْقِيقُ بِالْبُرْهَانِ عِلْمٌ، وَمُلَابَسَتُهُ عَيْنُ تِلْكَ الْحَالَةِ ذَوْقٌ، وَالْقَبُولُ مِنَ التَّسَامُعِ وَالتَّجْرِبَةِ بِحُسْنِ الظَّنِّ إِيمَانٌ.

---

(١) أحد جبال مكة وهو على ثلاثة أميال منها وفيه هبط الوحى على محمد صلوات الله عليه بالرسالة العظمى

فَهَذِهِ ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ : « يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » .

وَوَرَاءَ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ جُهَّالٌ ، هُمُ الْمُنْكِرُونَ لِأَصْلِ ذَلِكَ ، الْمُتَعَجِّبُونَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ، يَسْتَمِعُونَ وَيَسْخَرُونَ وَيَقُولُونَ : الْعَجَبَ ! إِنَّهُمْ كَيْفَ يَهْذُونَ ! وَفِيهِمْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » « فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ »

وَمِمَّا بَانَ لِي بِالضَّرُورَةِ مِنْ مُمَارَسَةِ طَرِيقَتِهِمْ ، « حَقِيقَةُ النُّبُوَّةِ وَخَاصِّيَّتُهَا » ، وَلَا بُدَّ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى أَصْلِهَا ، لِشِدَّةِ مَسِيسِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا .

***

حقيقة النبوة

حَقِيقَةُ ٱلنُّبُوَّةِ

وَٱضْطِرَارُ كَافَّةِ ٱلْخَلْقِ إِلَيْهَا

اِعْلَمْ: أَنَّ جَوْهَرَ ٱلْإِنْسَانِ فِي أَصْلِ ٱلْفِطْرَةِ، خُلِقَ خَالِياً سَاذَجًا لَا خَبَرَ مَعَهُ مِنْ عَوَالِمِ ٱللهِ تَعَالَى؛ وَٱلْعَوَالِمُ كَثِيرَةٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا ٱللهُ تَعَالَى كَمَا قَالَ: « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ »، وَإِنَّمَا جُنْدُهُ فِي ٱلْعَالَمِ بِوَاسِطَةِ ٱلْإِدْرَاكِ، وَكُلُّ إِدْرَاكٍ مِنَ ٱلْإِدْرَاكَاتِ خُلِقَ لِيَطَّلِعَ ٱلْإِنْسَانُ بِهِ عَلَى ٱلْمَوْجُودَاتِ؛ وَنَعْنِي بِالْعَوَالِمِ، أَجْنَاسَ ٱلْمَوْجُودَاتِ.

فَأَوَّلُ مَا يُخْلَقُ فِي ٱلْإِنْسَانِ حَاسَّةُ ٱللَّمْسِ، فَيُدْرِكُ بِهَا أَجْنَاسًا مِنَ ٱلْمَوْجُودَاتِ: كَالْحَرَارَةِ وَٱلْبُرُودَةِ، وَٱلرُّطُوبَةِ وَٱلْيُبُوسَةِ، وَٱللِّينِ وَٱلْخُشُونَةِ، وَغَيْرِهَا. وَٱللَّمْسُ قَاصِرٌ عَنِ ٱلْأَلْوَانِ وَٱلْأَصْوَاتِ قَطْعًا، بَلْ هِيَ كَٱلْمَعْدُومِ فِي حَقِّ ٱللَّمْسِ.

ثُمَّ تُخْلَقُ لَهُ حَاسَّةُ الْبَصَرِ فَيُدْرِكُ بِهَا الْأَلْوَانَ وَالْأَشْكَالَ ، وَهُوَ أَوْسَعُ عَوَالِمِ الْمَحْسُوسَاتِ .

ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ السَّمْعُ ، فَيَسْمَعُ الْأَصْوَاتَ وَالنَّغَمَاتِ .

ثُمَّ يُخْلَقُ لَهُ الذَّوْقُ ، وَكَذَلِكَ إِلَى أَنْ يُجَاوِزَ عَالَمَ الْمَحْسُوسَاتِ ، فَيُخْلَقُ فِيهِ التَّمْيِيزُ ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ سَبْعِ سِنِينَ ، وَهُوَ طَوْرٌ آخَرُ مِنْ أَطْوَارِ وُجُودِهِ : فَيُدْرِكُ فِيهِ أُمُورًا زَائِدَةً عَلَى عَالَمِ الْمَحْسُوسَاتِ ، لَا يُوجَدُ مِنْهَا شَيْءٌ فِي عَالَمِ الْحِسِّ .

ثُمَّ يَتَرَقَّى إِلَى طَوْرٍ آخَرَ فَيُخْلَقُ لَهُ الْعَقْلُ ، فَيُدْرِكُ الْوَاجِبَاتِ وَالْجَائِزَاتِ وَالْمُسْتَحِيلَاتِ ، وَأُمُورًا لَا تُوجَدُ فِي الْأَطْوَارِ الَّتِي قَبْلَهُ .

وَوَرَاءَ الْعَقْلِ طَوْرٌ آخَرُ تَنْفَتِحُ فِيهِ عَيْنٌ أُخْرَى يُبْصِرُ بِهَا الْغَيْبَ وَمَا سَيَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَأُمُورًا أُخَرَ ، الْعَقْلُ مَعْزُولٌ عَنْهَا كَعَزْلِ قُوَّةِ التَّمْيِيزِ عَنْ إِدْرَاكِ الْمَعْقُولَاتِ ، وَكَعَزْلِ قُوَّةِ الْحِسِّ عَنْ مُدْرَكَاتِ التَّمْيِيزِ .

وَكَمَا أَنَّ ٱلْمُمَيِّزَ لَوْ عُرِضَتْ عَلَيْهِ مُدْرَكَاتُ ٱلْعَقْلِ لَأَبَاهَا وَٱسْتَبْعَدَهَا ، فَكَذَلِكَ بَعْضُ ٱلْعُقَلَاءِ أَبَوْا مُدْرَكَاتِ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱسْتَبْعَدُوهَا ، وَذَلِكَ عَيْنُ ٱلْجَهْلِ ، إِذْ لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ إِلَّا أَنَّهُ طَوْرٌ لَمْ يَبْلُغْهُ وَلَمْ يُوجَدْ فِي حَقِّهِ ، فَيُظَنُّ أَنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي نَفْسِهِ . وَٱلْأَكْمَهُ لَوْ لَمْ يَعْلَمْ بِالتَّوَاتُرِ وَٱلتَّسَامُعِ ٱلْأَلْوَانَ وَٱلْأَشْكَالَ ، وَحُكِيَ لَهُ ذَلِكَ ٱبْتِدَاءً لَمْ يَفْهَمْهَا وَلَمْ يُقِرَّ بِهَا . وَقَدْ قَرَّبَ ٱللهُ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ بِأَنْ أَعْطَاهُمْ أُنْمُوذَجاً مِنْ خَاصِّيَّةِ ٱلنُّبُوَّةِ ، وَهُوَ ٱلنَّوْمُ ، إِذِ ٱلنَّائِمُ يُدْرِكُ مَا سَيَكُونُ مِنَ ٱلْغَيْبِ إِمَّا صَرِيحًا وَإِمَّا فِي كُسْوَةِ مِثَالٍ يَكْشِفُ عَنْهُ ٱلتَّعْبِيرُ ، وَهَذَا إِذَا لَمْ يُجَرِّبْهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ - وَقِيلَ لَهُ : « إِنَّ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَسْقُطُ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ كَٱلْمَيِّتِ وَيَزُولُ عَنْهُ إِحْسَاسُهُ وَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ فَيُدْرِكُ ٱلْغَيْبَ » - أَنْكَرَهُ - وَأَقَامَ ٱلْبُرْهَانَ عَلَى ٱسْتِحَالَتِهِ ، وَقَالَ : « ٱلْقُوَى ٱلْحَسَّاسَةُ أَسْبَابُ ٱلْإِدْرَاكِ ، فَمَنْ لَا يُدْرِكُ ٱلْأَشْيَاءَ مَعَ وُجُودِهَا وَحُضُورِهَا

فَبِأَنْ لَا يُدْرِكَ مَعَ رُكُودِهَا ، أَوْلَى وَأَحَقُّ » . وَهَذَا نَوْعُ قِيَاسٍ يُكَذِّبُهُ الْوُجُودُ وَالْمُشَاهَدَةُ . فَكَمَا أَنَّ الْعَقْلَ طَوْرٌ مِنْ أَطْوَارِ الْآدَمِيِّ ، يَحْصُلُ فِيهِ عَيْنٌ يُبْصِرُ بِهَا أَنْوَاعًا مِنَ الْمَعْقُولَاتِ ، وَالْحَوَاسُّ مَعْزُولَةٌ عَنْهَا ، فَالنُّبُوَّةُ أَيْضًا عِبَارَةٌ عَنْ طَوْرٍ يَحْصُلُ فِيهِ عَيْنٌ لَهَا نُورٌ يَظْهَرُ فِي نُورِهَا الْغَيْبُ ، وَأُمُورٌ لَا يُدْرِكُهَا الْعَقْلُ .

وَالشَّكُّ فِي النُّبُوَّةِ ، إِمَّا أَنْ يَقَعَ : فِي إِمْكَانِهَا ، أَوْ فِي وُجُودِهَا وَوُقُوعِهَا ، أَوْ فِي حُصُولِهَا لِشَخْصٍ مُعَيَّنٍ .

وَدَلِيلُ إِمْكَانِهَا وُجُودُهَا ، وَدَلِيلُ وُجُودِهَا وُجُودُ مَعَارِفَ فِي الْعَالَمِ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ تُنَالَ بِالْعَقْلِ ، كَعِلْمِ الطِّبِّ وَالنُّجُومِ ، فَإِنَّ مَنْ بَحَثَ عَنْهَا عَلِمَ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهَا لَا تُدْرَكُ إِلَّا بِإِلْهَامٍ إِلَهِيٍّ وَتَوْفِيقٍ مِنْ جِهَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَلَا سَبِيلَ إِلَيْهَا بِالتَّجْرِبَةِ . فَمِنَ الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ مَا لَا يَقَعُ إِلَّا فِي كُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ مَرَّةً ، فَكَيْفَ يُنَالُ ذَلِكَ بِالتَّجْرِبَةِ ؟ وَكَذَلِكَ خَوَاصُّ الْأَدْوِيَةِ . فَتَبَيَّنَ بِهَذَا الْبُرْهَانِ أَنَّ

فِي ٱلْإِمْكَانِ وُجُودَ طَرِيقٍ لِإِدْرَاكِ هَذِهِ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي لَا يُدْرِكُهَا ٱلْعَقْلُ ، وَهُوَ ٱلْمُرَادُ بِالنُّبُوَّةِ ، لَا أَنَّ ٱلنُّبُوَّةَ عِبَارَةٌ عَنْهَا فَقَطْ ، بَلْ إِدْرَاكُ هَذَا ٱلْجِنْسِ ٱلْخَارِجِ عَنْ مُدْرَكَاتِ ٱلْعَقْلِ إِحْدَى خَوَاصِّ ٱلنُّبُوَّةِ ، وَلَهَا خَوَاصُّ كَثِيرَةٌ سِوَاهَا . وَمَا ذَكَرْنَا فَقَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِهَا ، إِنَّمَا ذَكَرْنَاهَا لِأَنَّ مَعَكَ أُنْمُوذَجًا مِنْهَا ، وَهُوَ مُدْرَكَاتُكَ فِي ٱلنَّوْمِ ، وَمَعَكَ عُلُومٌ مِنْ جِنْسِهَا فِي ٱلطِّبِّ وَٱلنُّجُومِ ، وَهِيَ مُعْجِزَاتُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَيْهَا لِلْعُقَلَاءِ بِبِضَاعَةِ ٱلْعَقْلِ أَصْلًا .

وَأَمَّا مَا عَدَا هَذَا مِنْ خَوَاصِّ ٱلنُّبُوَّةِ ، فَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالذَّوْقِ ، مِنْ سُلُوكِ طَرِيقِ ٱلتَّصَوُّفِ ، لِأَنَّ هَذَا إِنَّمَا فَهِمْتَهُ بِأُنْمُوذَجٍ رُزِقْتَهُ ، وَهُوَ ٱلنَّوْمِ ، وَلَوْلَاهُ لَمَا صَدَّقْتَ بِهِ . فَإِنْ كَانَ لِلنَّبِيِّ خَاصَّةٌ لَيْسَ لَكَ مِنْهَا أُنْمُوذَجٌ ، وَلَا تَفْهَمُهَا أَصْلًا ، فَكَيْفَ تُصَدِّقُ بِهَا ؟ وَإِنَّمَا ٱلتَّصْدِيقُ بَعْدَ ٱلْفَهْمِ ، وَذَلِكَ ٱلْأُنْمُوذَجُ يَحْصُلُ فِي أَوَائِلِ طَرِيقِ ٱلتَّصَوُّفِ ،

فَيَحْصُلُ بِهِ نَوْعٌ مِنَ الذَّوْقِ بِالْقَدْرِ الْحَاصِلِ ، وَنَوْعٌ مِنَ التَّصْدِيقِ بِمَا لَمْ يَحْصُلْ بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِ . فَهَذِهِ الْخَاصِّيَّةُ الْوَاحِدَةُ تَكْفِيكَ لِلْإِيمَانِ بِأَصْلِ النُّبُوَّةِ .

فَإِنْ وَقَعَ لَكَ الشَّكُّ فِي شَخْصٍ مُعَيَّنٍ ، أَنَّهُ نَبِيٌّ أَمْ لَا ، فَلَا يَحْصُلُ الْيَقِينُ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِ ، إِمَّا بِالْمُشَاهَدَةِ أَوْ بِالتَّوَاتُرِ وَالتَّسَامُعِ ، فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ الطِّبَّ وَالْفِقْهَ يُمْكِنُكَ أَنْ تَعْرِفَ الْفُقَهَاءَ وَالْأَطِبَّاءَ بِمُشَاهَدَةِ أَحْوَالِهِمْ ، وَسَمَاعِ أَقْوَالِهِمْ ، وَإِنْ لَمْ تُشَاهِدْهُمْ ، وَلَا تَعْجِزْ أَيْضًا عَنْ مَعْرِفَةِ كَوْنِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ فَقِيهًا ، وَكَوْنِ جَالِينُوسَ[1] طَبِيبًا ، مَعْرِفَةً بِالْحَقِيقَةِ لَا بِالتَّقْلِيدِ عَنِ الْغَيْرِ : بَلْ بِأَنْ تَتَعَلَّمَ شَيْئًا مِنَ الْفِقْهِ وَالطِّبِّ ، وَتُطَالِعَ كُتُبَهُمَا وَتَصَانِيفَهُمَا فَيَحْصُلُ لَكَ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ بِحَالِهِمَا . فَكَذَلِكَ إِذَا فَهِمْتَ مَعْنَى النُّبُوَّةِ فَأَكْثَرْتَ النَّظَرَ فِي الْقُرْآنِ وَالْأَخْبَارِ ، يَحْصُلُ لَكَ الْعِلْمُ الضَّرُورِيُّ بِكَوْنِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) من أطباء الاغريق سادت آراؤه فى الطب حتى أوائل القرن السابع عشر

عَلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ النُّبُوَّةِ ، وَاعْضُدْ ذَلِكَ بِتَجْرِبَةِ مَاقَالَهُ فِي الْعِبَادَاتِ وَتَأْثِيرِهَا فِي تَصْفِيَةِ الْقُلُوبِ ، وَكَيْفَ صَدَقَ فِي قَوْلِهِ : « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَالَمْ يَعْلَمْ » وَكَيْفَ صَدَقَ فِي قَوْلِهِ : « مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا سَلَّطَهُ اللهُ عَلَيْهِ » وَكَيْفَ صَدَقَ فِي قَوْلِهِ : « مَنْ أَصْبَحَ وَهُمُومُهُ هَمٌّ وَاحِدٌ كَفَاهُ اللهُ تَعَالَى هُمُومَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » ، فَإِذَا جَرَّبْتَ ذَلِكَ فِي أَلْفٍ وَأَلْفَيْنِ وَآلَافٍ حَصَلَ لَكَ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ لَا تَتَمَارَى [1] فِيهِ .

فَمِنْ هَذَا الطَّرِيقِ اطْلُبِ الْيَقِينَ بِالنُّبُوَّةِ ، لَا مِنْ قَلْبِ الْعَصَا ثُعْبَانًا ، وَشَقِّ الْقَمَرِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ ، وَلَمْ تَنْضَمَّ إِلَيْهِ الْقَرَائِنُ الْكَثِيرَةُ الْخَارِجَةُ عَنِ الْحَصْرِ ، رُبَّمَا ظَنَنْتَ أَنَّهُ سِحْرٌ وَتَخْيِيلٌ ، وَأَنَّهُ مِنَ اللهِ إِضْلَالٌ ، فَإِنَّهُ « يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

وَتَرِدُ عَلَيْكَ أَسْئِلَةُ الْمُعْجِزَاتِ ، فَإِنْ كَانَ مُسْتَنَدُ

(١) لاتتمارى فيه : أى لاتتشكك

إِيمَانِكَ إِلَى كَلَامٍ مَنْظُومٍ فِي وَجْهِ دِلَالَةِ ٱلْمُعْجِزَةِ، فَيَنْجَزِمُ إِيمَانُكَ بِكَلَامٍ مُرَتَّبٍ فِي وَجْهِ ٱلْإِشْكَالِ وَٱلشُّبْهَةِ عَلَيْهَا فَلْيَكُنْ مِثْلَ هَذِهِ ٱلْخَوَارِقِ إِحْدَى ٱلدَّلَائِلِ وَٱلْقَرَائِنِ فِي جُمْلَةِ نَظَرِكَ، حَتَّى يَحْصُلَ لَكَ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ لَا يُمْكِنُكَ ذِكْرُ مُسْتَنَدِهِ عَلَى ٱلتَّعْيِينِ، كَالَّذِي يُخْبِرُ جَمَاعَةً بِخَبَرٍ مُتَوَاتِرٍ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَذْكُرَ أَنَّ ٱلْيَقِينَ مُسْتَفَادٌ مِنْ قَوْلِ وَاحِدٍ مُعَيَّنٍ، بَلْ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ وَلَا بِتَعْيِينِ ٱلْآحَادِ. فَهَذَا هُوَ ٱلْإِيمَانُ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعِلْمِيُّ

وَأَمَّا ٱلذَّوْقُ فَهُوَ كَٱلْمُشَاهَدَةِ وَٱلْأَخْذِ بِٱلْيَدِ، وَلَا يُوجَدُ إِلَّا فِي طَرِيقِ ٱلصُّوفِيَّةِ.

فَهَذَا ٱلْقَدْرُ مِنْ حَقِيقَةِ ٱلنُّبُوَّةِ، كَافٍ فِي ٱلْغَرَضِ ٱلَّذِي أَقْصِدُهُ ٱلْآنَ، وَسَأَذْكُرُ وَجْهَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ.

***

سبب نشر العلم

سَبَبُ نَشْرِ الْعِلْمِ بَعْدَ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ

ثُمَّ إِنِّي لَمَّا وَاظَبْتُ عَلَى الْعُزْلَةِ وَالْخَلْوَةِ قَرِيبًا مِنْ عَشْرِ سِنِينَ ، وَبَانَ لِي فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ عَلَى الضَّرُورَةِ مِنْ أَسْبَابٍ لَا أُحْصِيهَا ، مَرَّةً بِالذَّوْقِ ، وَمَرَّةً بِالْعِلْمِ الْبُرْهَانِيِّ وَمَرَّةً بِالْقَبُولِ الْإِيمَانِيِّ : أَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ مِنْ بَدَنٍ وَقَلْبٍ وَأَعْنِي بِالْقَلْبِ حَقِيقَةَ رُوحِهِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ مَعْرِفَةِ اللهِ دُونَ اللَّحْمِ وَالدَّمِ الَّذِي يُشَارِكُ فِيهِ الْمَيِّتَ وَالْبَهِيمَةَ ، وَأَنَّ الْبَدَنَ لَهُ صِحَّةٌ بِهَا سَعَادَتُهُ وَمَرَضٌ فِيهِ هَلَاكُهُ ، وَأَنَّ الْقَلْبَ كَذَلِكَ لَهُ صِحَّةٌ وَسَلَامَةٌ ، وَلَا يَنْجُو « إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » وَلَهُ مَرَضٌ فِيهِ هَلَاكُهُ الْأَبَدِيُّ الْأُخْرَوِيُّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : « فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » وَأَنَّ الْجَهْلَ بِاللهِ سُمٌّ مُهْلِكٌ ، وَأَنَّ مَعْصِيَةَ اللهِ بِمُتَابَعَةِ الْهَوَى دَاؤُهُ الْمُمْرِضُ ، وَأَنَّ مَعْرِفَةَ اللهِ تَعَالَى تِرْيَاقُهُ الْمُحْيِي ؛

وَطَاعَتَهُ بِمُخَالَفَةِ ٱلْهَوَى ، دَوَاؤُهُ ٱلشَّافِي ، وَأَنَّهُ لَاسَبِيلَ إِلَى مُعَالَجَتِهِ بِإِزَالَةِ مَرَضِهِ وَكَسْبِ صِحَّتِهِ ، إِلَّا بِأَدْوِيَةٍ كَمَا لَاسَبِيلَ إِلَى مُعَالَجَةِ ٱلْبَدَنِ إِلَّا بِذَلِكَ . وَكَمَا أَنَّ أَدْوِيَةَ ٱلْبَدَنِ تُؤَثِّرُ فِي كَسْبِ ٱلصِّحَّةِ بِخَاصِّيَّةٍ فِيهَا ، لَا يُدْرِكُهَا ٱلْعُقَلَاءُ بِبِضَاعَةِ ٱلْعَقْلِ ، بَلْ يَجِبُ فِيهَا تَقْلِيدُ ٱلْأَطِبَّاءِ ٱلَّذِينَ أَخَذُوهَا مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ ، ٱلَّذِينَ أُطْلِعُوا بِخَاصِّيَّةِ ٱلنُّبُوَّةِ عَلَى خَوَاصِّ ٱلْأَشْيَاءِ ، فَكَذَلِكَ بَانَ لِي ، عَلَى ٱلضَّرُورَةِ ، أَنَّ أَدْوِيَةَ ٱلْعِبَادَاتِ بِحُدُودِهَا ، وَمَقَادِيرِهَا ٱلْمَحْدُودَةِ ٱلْمُقَدَّرَةِ مِنْ جِهَةِ ٱلْأَنْبِيَاءِ ، لَا يُدْرَكُ وَجْهُ تَأْثِيرِهَا بِبِضَاعَةِ عَقْلِ ٱلْعُقَلَاءِ ، بَلْ يَجِبُ فِيهَا تَقْلِيدُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ٱلَّذِينَ أَدْرَكُوا تِلْكَ ٱلْخَوَاصَّ بِنُورِ ٱلنُّبُوَّةِ ، لَا بِبِضَاعَةِ ٱلْعَقْلِ . وَكَمَا أَنَّ ٱلْأَدْوِيَةَ تُرَكَّبُ مِنْ أَخْلَاطٍ مُخْتَلِفَةِ ٱلنَّوْعِ وَٱلْمِقْدَارِ ، وَبَعْضُهَا ضِعْفُ ٱلْبَعْضِ فِي ٱلْوَزْنِ وَٱلْمِقْدَارِ ، فَلَا يَخْلُو ٱخْتِلَافُ مَقَادِيرِهَا عَنْ سِرٍّ هُوَ مِنْ قَبِيلِ ٱلْخَوَاصِّ ، فَكَذَلِكَ ٱلْعِبَادَاتُ ٱلَّتِي هِيَ أَدْوِيَةُ دَاءِ ٱلْقَلْبِ ، مُرَكَّبَةٌ مِنْ أَفْعَالٍ

مُخْتَلِفَةِ النَّوْعِ وَالْمِقْدَارِ ، حَتَّى إِنَّ السُّجُودَ ضِعْفُ الرُّكُوعِ وَصَلَاةَ الصُّبْحِ نِصْفُ صَلَاةِ الْعَصْرِ فِي الْمِقْدَارِ ، وَلَا يَخْلُو عَنْ سِرٍّ مِنَ الْأَسْرَارِ ، هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْخَوَاصِّ الَّتِي لَا يُطَّلَعُ عَلَيْهَا إِلَّا بِنُورِ النُّبُوَّةِ ، وَلَقَدْ تَحَامَقَ وَتَجَاهَلَ جِدًّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْتَنْبِطَ ، بِطَرِيقِ الْعَقْلِ ، لَهَا حِكْمَةً ، أَوْ ظَنَّ أَنَّهَا ذُكِرَتْ عَلَى الِاتِّفَاقِ ، لَا عَنْ سِرٍّ إِلٰهِيٍّ فِيهَا ، يَقْتَضِيهَا بِطَرِيقِ الْخَاصِّيَّةِ . وَكَمَا أَنَّ فِي الْأَدْوِيَةِ أُصُولًا هِيَ أَرْكَانُهَا ، وَزَوَائِدَ هِيَ مُتَمِّمَاتُهَا ، لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا خُصُوصُ تَأْثِيرٍ فِي أَعْمَالِ أُصُولِهَا ، كَذَلِكَ النَّوَافِلُ وَالسُّنَنُ مُتَمِّمَاتٌ لِتَكْمِيلِ آثَارِ أَرْكَانِ الْعِبَادَاتِ .

وَعَلَى الْجُمْلَةِ : فَالْأَنْبِيَاءُ أَطِبَّاءُ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ ، وَإِنَّمَا فَائِدَةُ الْعَقْلِ وَتَصَرُّفُهُ ، أَنْ عَرَّفَنَا ذَلِكَ ، وَيَشْهَدُ لِلنُّبُوَّةِ بِالتَّصْدِيقِ وَلِنَفْسِهِ بِالْعَجْزِ عَنْ دَرْكِ مَا يُدْرِكُهُ بِعَيْنِ النُّبُوَّةِ ، وَأَخَذَ بِأَيْدِينَا وَسَلَّمَنَا إِلَيْهَا تَسْلِيمَ الْعُمْيَانِ إِلَى الْقَائِدِينَ ، وَتَسْلِيمَ الْمَرْضَى الْمُتَحَيِّرِينَ إِلَى الْأَطِبَّاءِ الشَّافِينَ

وَإِلَى هٰهُنَا مَجْرَى ٱلْعَقْلِ وَمَخْطَاهُ وَهُوَ مَعْزُولٌ عَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ ، إِلَّا عَنْ تَفَهُّمِ مَا يُلْقِيهِ ٱلطَّبِيبُ إِلَيْهِ (١).

فَهٰذِهِ أُمُورٌ عَرَفْنَاهَا بِالضَّرُورَةِ ٱلْجَارِيَةِ مَجْرَى ٱلْمُشَاهَدَةِ ، فِي مُدَّةِ ٱلْخَلْوَةِ وَٱلْعُزْلَةِ .

ثُمَّ رَأَيْنَا فُتُورَ ٱلِاعْتِقَادَاتِ فِي أَصْلِ ٱلنُّبُوَّةِ ، ثُمَّ فِي حَقِيقَةِ ٱلنُّبُوَّةِ ، ثُمَّ فِي ٱلْعَمَلِ بِمَا شَرَحَتْهُ ٱلنُّبُوَّةُ ، وَتَحَقَّقْنَا شُيُوعَ ذَلِكَ بَيْنَ ٱلْخَلْقِ ، فَنَظَرْتُ إِلَى أَسْبَابِ فُتُورِ ٱلْخَلْقِ ، وَضَعْفِ إِيمَانِهِمْ ، فَإِذَا هِيَ أَرْبَعَةٌ :

١ — سَبَبٌ مِنَ ٱلْخَائِضِينَ فِي عِلْمِ ٱلْفَلْسَفَةِ .

٢ — وَسَبَبٌ مِنَ ٱلْخَائِضِينَ فِي طَرِيقِ ٱلتَّصَوُّفِ .

٣ — وَسَبَبٌ مِنَ ٱلْمُنْتَسِبِينَ إِلَى دَعْوَى ٱلتَّعْلِيمِ .

٤ — وَسَبَبٌ مِنْ مُعَامَلَةِ ٱلْمَوْسُومِينَ بِٱلْعِلْمِ فِيمَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ .

فَإِنِّي تَتَبَّعْتُ مُدَّةً آحَادَ ٱلْخَلْقِ ، أَسْأَلُ مَنْ يُقَصِّرُ

(١) يقصد الغزالى بهذا كله أن يقول : ان نطاق العقل محدود

مِنْهُمْ فِي مُتَابَعَةِ الشَّرْعِ ، وَأَسْأَلُهُ عَنْ شُبْهَتِهِ وَأَبْحَثُ عَنْ عَقِيدَتِهِ وَسِرِّهِ ، وَقُلْتُ لَهُ : « مَالَكَ تُقَصِّرُ فِيهَا ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ وَلَسْتَ مُسْتَعِدًّا لَهَا وَتَبِيعُهَا بِالدُّنْيَا فَهَذِهِ حَمَاقَةٌ ! فَإِنَّكَ لَاتَبِيعُ الِاثْنَيْنِ بِوَاحِدٍ ، فَكَيْفَ تَبِيعُ مَالَانِهَايَةَ لَهُ بِأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ ؟ وَإِنْ كُنْتَ لَاتُؤْمِنُ فَأَنْتَ كَافِرٌ ! فَدَبِّرْ نَفْسَكَ فِي طَلَبِ الْإِيمَانِ ، وَانْظُرْ مَاسَبَبُ كُفْرِكَ الْخَفِيِّ الَّذِي هُوَ مَذْهَبُكَ بَاطِنًا ، وَهُوَ سَبَبُ جُرْأَتِكَ ظَاهِرًا ، وَإِنْ كُنْتَ لَا تُصَرِّحُ بِهِ تَجَمُّلًا بِالْإِيمَانِ وَتَشَرُّفًا بِذِكْرِ الشَّرْعِ ! » .

فَقَائِلٌ يَقُولُ : « هَذَا أَمْرٌ لَوْ وَجَبَتِ الْمُحَافَظَةُ عَلَيْهِ لَكَانَ الْعُلَمَاءُ أَجْدَرَ بِذَلِكَ ، وَفُلَانٌ مِنَ الْمَشَاهِيرِ بَيْنَ الْفُضَلَاءِ لَايُصَلِّي ، وَفُلَانٌ يَشْرَبُ الْخَمْرَ ، وَفُلَانٌ يَأْكُلُ أَمْوَالَ الْأَوْقَافِ وَأَمْوَالَ الْيَتَامَى ، وَفُلَانٌ يَأْكُلُ إِدْرَارَ السُّلْطَانِ وَلَايَحْتَرِزُ عَنِ الْحَرَامِ ، وَفُلَانٌ يَأْخُذُ الرَّشْوَةَ عَلَى الْقَضَاءِ وَالشَّهَادَةِ ! » وَهَلُمَّ جَرًّا إِلَى أَمْثَالِهِ . . .

وَقَائِلٌ ثَانٍ يَدَّعِي عِلْمَ ٱلتَّصَوُّفِ ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ مَبْلَغاً تَرَقَّى عَنِ ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْعِبَادَةِ ! .

وَقَائِلٌ ثَالِثٌ يَتَعَلَّلُ بِشُبْهَةٍ أُخْرَى مِنْ شُبُهَاتِ أَهْلِ ٱلْإِبَاحَةِ !

وَهَؤُلَاءِ هُمُ ٱلذِينَ ضَلُّوا عَنِ ٱلتَّصَوُّفِ .

وَقَائِلٌ رَابِعٌ لَقِيَ أَهْلَ ٱلتَّعْلِيمِ فَيَقُولُ : « ٱلْحَقُّ مُشْكِلٌ ، وَٱلطَّرِيقُ إِلَيْهِ مُسْتَوْعِرٌ ، وَٱلِاخْتِلَافُ فِيهِ كَثِيرٌ ، وَلَيْسَ بَعْضُ ٱلْمَذَاهِبِ أَوْلَى مِنْ بَعْضٍ ، وَأَدِلَّةُ ٱلْعُقُولِ مُتَعَارِضَةٌ ، فَلَا ثِقَةَ بِرَأْيِ أَهْلِ ٱلرَّأْيِ ، وَٱلدَّاعِي إِلَى ٱلتَّعْلِيمِ مُتَحَكِّمٌ لَا حُجَّةَ لَهُ ، فَكَيْفَ أَدَعُ ٱلْيَقِينَ بِالشَّكِّ » .

وَقَائِلٌ خَامِسٌ يَقُولُ : « لَسْتُ أَفْعَلُ هَذَا تَقْلِيداً ، وَلَكِنِّي قَرَأْتُ عِلْمَ ٱلْفَلْسَفَةِ ، وَأَدْرَكْتُ حَقِيقَةَ ٱلنُّبُوَّةِ وَأَنَّ حَاصِلَهَا يَرْجِعُ إِلَى ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَصْلَحَةِ ، وَأَنَّ ٱلْمَقْصُودَ مِنْ تَعَبُّدَاتِهَا : ضَبْطُ عَوَامِّ ٱلْخَلْقِ وَتَقْيِيدُهُمْ عَنِ ٱلتَّقَاتُلِ وَٱلتَّنَازُعِ وَٱلِاسْتِرْسَالِ فِي ٱلشَّهَوَاتِ ، فَمَا أَنَا

مِنَ ٱلْعَوَامِّ ٱلْجُهَّالِ حَتَّى أَدْخُلَ فِي حَجْرِ ٱلتَّكْلِيفِ ، وَإِنَّمَا أَنَا مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ أَتَّبِعُ ٱلْحِكْمَةَ وَأَنَا بَصِيرٌ بِهَا ، مُسْتَغْنٍ فِيهَا عَنِ ٱلتَّقْلِيدِ ! » .

هَذَا مُنْتَهَى إِيمَانِ مَنْ قَرَأَ مَذْهَبَ فَلْسَفَةِ ٱلْإِلٰهِيِّينَ مِنْهُمْ ، وَتَعَلَّمَ ذَلِكَ مِنْ كُتُبِ ٱبْنِ سِينَا [1] وَأَبِي نَصْرٍ ٱلْفَارَابِيِّ .

وَهَؤُلَاءِ هُمُ ٱلْمُتَجَمِّلُونَ بِالْإِسْلَامِ .

وَرُبَّمَا تَرَى ٱلْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَقْرَأُ ٱلْقُرْآنَ ، وَيَحْضُرُ ٱلْجَمَاعَاتِ وَٱلصَّلَوَاتِ ، وَيُعَظِّمُ ٱلشَّرِيعَةَ بِلِسَانِهِ ، وَلٰكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَا يَتْرُكُ شُرْبَ ٱلْخَمْرِ ، وَأَنْوَاعًا مِنَ ٱلْفِسْقِ وَٱلْفُجُورِ ! وَإِذَا قِيلَ لَهُ : « إِنْ كَانَتِ ٱلنُّبُوَّةُ غَيْرَ صَحِيحَةٍ فَلِمَ تُصَلِّي ؟ » فَرُبَّمَا يَقُولُ : « لِرِيَاضَةِ ٱلْجِسْمِ ، وَلِعَادَةِ أَهْلِ ٱلْبَلَدِ ، وَحِفْظِ ٱلْمَالِ وَٱلْوَلَدِ ! » وَرُبَّمَا قَالَ : « ٱلشَّرِيعَةُ صَحِيحَةٌ ، وَٱلنُّبُوَّةُ حَقٌّ » فَيُقَالُ : « فَلِمَ تَشْرَبُ ٱلْخَمْرَ ؟ »

---

(١) الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا الحكيم المشهور وكان نادرة عصره ، في علمه وذكائه ، وتصانيفه ، وهو أحد فلاسفة المسلمين ؟ وكانت ولادته في سنة سبعين وثلاثمائة ، في شهر صفر ، وتوفي بهمذان يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة على الأشهر ، ودفن بها

فيقولُ : « إنَّما نُهِيَ عَنِ الْخَمْرِ لِأَنَّهَا تُورِثُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ، وَأَنَا بِحِكْمَتِي مُحْتَرِزٌ عَنْ ذَلِكَ ، وَإِنِّي أَقْصِدُ بِهِ تَشْحِيذَ خَاطِرِي » . حَتَّى إِنَّ ابْنَ سِينَا ذَكَرَ فِي وَصِيَّةٍ لَهُ مَانَصُّهُ : « أَنَّهُ عَاهَدَ اللهَ عَلَى كَذَا وَكَذَا ، وَأَنْ يُعَظِّمَ الْأَوْضَاعَ الشَّرْعِيَّةَ ، وَلَا يُقَصِّرَ فِي الْعِبَادَاتِ الدِّينِيَّةِ ، وَلَا يَشْرَبَ تَلَهِّيًا بَلْ تَدَاوِيًا وَتَشَافِيًا » . فَكَانَ مُنْتَهَى حَالَتِهِ فِي صَفَاءِ الْإِيمَانِ ، وَالْتِزَامِ الْعِبَادَاتِ ، أَنِ اسْتَثْنَى شُرْبَ الْخَمْرِ لِغَرَضِ التَّشَافِي .

فَهَذَا إِيمَانُ مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ مِنْهُمْ ، وَقَدِ انْخَدَعَ بِهِمْ جَمَاعَةٌ ، زَادَهُمُ انْخِدَاعَهُمْ ضَعْفُ اعْتِرَاضِ الْمُعْتَرِضِينَ عَلَيْهِمْ ، إِذَا اعْتَرَضُوا بِمُجَاحَدَةِ عِلْمِ الْهَنْدَسَةِ وَالْمَنْطِقِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ ضَرُورِيٌّ لَهُمْ ، عَلَى مَا بَيَّنَّا عِلَّتَهُ مِنْ قَبْلُ .

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَصْنَافَ الْخَلْقِ مِمَّنْ ضَعُفَ إِيمَانُهُمْ إِلَى هَذَا الْحَدِّ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ ، وَرَأَيْتُ نَفْسِي مُكِبَّةً [1] عَلَى كَشْفِ

(١) أكب على الأمر : لزمه

هَذِهِ ٱلشُّبْهَةِ ، حَتَّى كَانَ إِفْضَاحُ هَؤُلَاءِ أَيْسَرَ عِنْدِى مِنْ شَرْبَةِ مَاءٍ ، لِكَثْرَةِ خَوْضِى فِى عُلُومِهِمْ وَطُرُقِهِمْ ، أَعْنِى طُرُقَ ٱلصُّوفِيَّةِ وَٱلْفَلَاسِفَةِ وَٱلتَّعْلِيمِيَّةِ وَٱلْمُتَوَسِّمِينَ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ ، ٱنْقَدَحَ فِى نَفْسِى أَنَّ ذَلِكَ مُتَعَيِّنٌ فِى هَذَا ٱلْوَقْتِ مَحْتُومٌ . فَمَاذَا تُغْنِيكَ (١) ٱلْخَلْوَةُ وَٱلْعُزْلَةُ ، وَقَدْ عَمَّ ٱلدَّاءُ ؟ وَمَرِضَ ٱلْأَطِبَّاءُ ، وَأَشْرَفَ ٱلْخَلْقُ عَلَى ٱلْهَلَاكِ ؟ ثُمَّ قُلْتُ فِى نَفْسِى : « مَتَى تَشْتَغِلُ أَنْتَ بِكَشْفِ هَذِهِ ٱلْغُمَّةِ وَمُصَادَمَةِ هَذِهِ ٱلظُّلْمَةِ ، وَٱلزَّمَانُ زَمَانُ ٱلْفَتْرَةِ ، وَٱلدَّوْرُ دَوْرُ ٱلْبَاطِلِ وَلَوِ ٱشْتَغَلْتَ بِدَعْوَةِ ٱلْخَلْقِ ، عَنْ طُرُقِهِمْ إِلَى ٱلْحَقِّ ، لَعَادَاكَ أَهْلُ ٱلزَّمَانِ بِأَجْمَعِهِمْ ، وَأَنَّى تُقَاوِمُهُمْ ، فَكَيْفَ تُعَايِشُهُمْ ، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِزَمَانٍ مُسَاعِدٍ ، وَسُلْطَانٍ مُتَدَيِّنٍ قَاهِرٍ ؟ » .

فَتَرَخَّصْتُ بَيْنِى وَبَيْنَ ٱللهِ تَعَالَى بِٱلِاسْتِمْرَارِ عَلَى ٱلْعُزْلَةِ وَتَعَلُّلًا بِٱلْعَجْزِ عَنْ إِظْهَارِ ٱلْحَقِّ بِٱلْحُجَّةِ ، تَقَدَّرَ ٱللهُ تَعَالَى أَنْ حَرَّكَ دَاعِيَةَ سُلْطَانِ ٱلْوَقْتِ ، مِنْ نَفْسِهِ ، لَا بِتَحْرِيكٍ

(١) كانت فى الاصل : تعنيك بالعين المهملة . عمر

مِنْ خَارِجٍ . فَأَمَرَ أَمْرَ إِلْزَامٍ بِالنُّهُوضِ إِلَى نَيْسَابُورَ ، لِتَدَارُكِ هَذِهِ ٱلْفَتْرَةِ ، وَبَلَغَ ٱلْإِلْزَامُ حَدًّا كَانَ يَنْتَهِي ، لَوْ أَصْرَرْتُ عَلَى ٱلْخِلَافِ ، إِلَى حَدِّ ٱلْوَحْشَةِ . فَخَطَرَ لِي أَنَّ سَبَبَ ٱلرُّخْصَةِ قَدْ ضَعُفَ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَاعِثُكَ عَلَى مُلَازَمَةِ ٱلْعُزْلَةِ ٱلْكَسَلَ وَٱلِاسْتِرَاحَةَ ، وَطَلَبَ عِزِّ ٱلنَّفْسِ وَصَوْنَهَا عَنْ أَذَى ٱلْخَلْقِ ، وَلِمَ تُرَخِّصُ لِنَفْسِكَ لِعُسْرِ مُعَانَاةِ (١) ٱلْخَلْقِ ؟ وَٱللهُ تَعَالَى يَقُولُ : « بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . آلٓمٓ . أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » ٱلْآيَةَ . وَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ وَهُوَ أَعَزُّ خَلْقِهِ : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا ، حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ؛ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ . وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ ٱلْمُرْسَلِينَ » . وَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ : « بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . يٰسٓ . وَٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ »

(١) كانت هذه الكلمة فى الاصل : معافاة بالفاء . وكانت كلمة لنفسك فى الاصل بغير اللام . عمر عبد الخالق

إِلَى قَوْلِهِ : إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ » . فَشَاوَرْتُ فِي ذَلِكَ جَمَاعَةً مِنْ أَرْبَابِ الْقُلُوبِ وَالْمُشَاهَدَاتِ ، فَاتَّفَقُوا عَلَى الْإِشَارَةِ بِتَرْكِ الْعُزْلَةِ ، وَالْخُرُوجِ مِنَ الزَّاوِيَةِ ، وَانْضَافَ إِلَى ذَلِكَ مَنَامَاتٌ مِنَ الصَّالِحِينَ كَثِيرَةٌ مُتَوَاتِرَةٌ ، تَشْهَدُ بِأَنَّ هَذِهِ الْحَرَكَةَ مَبْدَأُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، قَدَّرَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْمِائَةِ ، وَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِإِحْيَاءِ دِينِهِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ . فَاسْتَحْكَمَ الرَّجَاءُ ، وَغَلَبَ حُسْنُ الظَّنِّ بِسَبَبِ هَذِهِ الشَّهَادَاتِ ، وَيَسَّرَ اللَّهُ تَعَالَى الْحَرَكَةَ إِلَى نَيْسَابُورَ ، لِلْقِيَامِ بِهَذَا الْمُهِمِّ فِي ذِي الْقَعْدَةِ ، سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ . وَكَانَ الْخُرُوجُ مِنْ بَغْدَادَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ . وَبَلَغَتْ مُدَّةُ الْعُزْلَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً . وَهَذِهِ حَرَكَةٌ قَدَّرَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَهِيَ مِنْ عَجَائِبِ تَقْدِيرَاتِهِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ لَهَا انْقِدَاحٌ فِي الْقَلْبِ فِي هَذِهِ الْعُزْلَةِ ، كَمَا لَمْ يَكُنِ الْخُرُوجُ مِنْ بَغْدَادَ ، وَالنُّزُوعُ عَنْ تِلْكَ الْأَحْوَالِ مِمَّا خَطَرَ إِمْكَانُهُ أَصْلًا بِالْبَالِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُقَلِّبُ

ٱلْقُلُوبِ وَٱلْأَحْوَالِ وَ « قَلْبُ ٱلْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ ٱلرَّحْمٰنِ » وَأَنَا أَعْلَمُ أَنِّى ، وَإِنْ رَجَعْتُ إِلَى نَشْرِ ٱلْعِلْمِ ، فَمَا رَجَعْتُ ! فَإِنَّ ٱلرُّجُوعَ عَوْدٌ إِلَى مَا كَانَ ، وَكُنْتُ فِى ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ أَنْشُرُ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِى بِهِ يُكْتَسَبُ ٱلْجَاهُ ، وَأَدْعُو إِلَيْهِ بِقَوْلِى وَعَمَلِى ، وَكَانَ ذٰلِكَ قَصْدِى وَنِيَّتِى . وَأَمَّا ٱلْآنَ ، فَأَدْعُو إِلَى ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِى بِهِ يُتْرَكُ ٱلْجَاهُ ، وَتُعْرَفُ بِهِ سُقُوطُ رُتْبَةِ ٱلْجَاهِ . هٰذَا هُوَ ٱلْآنَ نِيَّتِى وَقَصْدِى وَأُمْنِيَّتِى ، يَعْلَمُ ٱللّٰهُ ذٰلِكَ مِنِّى ، وَأَنَا أَبْغِى أَنْ أُصْلِحَ نَفْسِى وَغَيْرِى ، وَلَسْتُ أَدْرِى أَأَصِلُ إِلَى مُرَادِى أَمْ أُخْتَرَمُ [1] دُونَ غَرَضِى ؟ إِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللّٰهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْعَظِيمِ ، وَإِنِّى لَمْ أَتَحَرَّكْ ، لٰكِنَّهُ حَرَّكَنِى ، وَإِنِّى لَمْ أَعْمَلْ ، لٰكِنَّهُ ٱسْتَعْمَلَنِى ، فَأَسْأَلُهُ أَنْ يُصْلِحَنِى أَوَّلًا ، ثُمَّ يُصْلِحَ بِى ، وَيَهْدِيَنِى ، ثُمَّ يَهْدِىَ بِى ، وَأَنْ يُرِيَنِى ٱلْحَقَّ حَقًّا ، وَيَرْزُقَنِى ٱتِّبَاعَهُ ، وَيُرِيَنِى ٱلْبَاطِلَ بَاطِلًا ، وَيَرْزُقَنِى ٱجْتِنَابَهُ .

(١) اخترمه الدهر : اقتطعه واستأصله يريد الموت قبل بلوغ المراد

وَنَعُودُ ٱلْآنَ إِلَى مَاذَكَرْنَاهُ مِنْ أَسْبَابِ ضَعْفِ ٱلْإِيمَانِ بِذِكْرِ طَرِيقِ إِرْشَادِهِمْ وَإِنْقَاذِهِمْ مِنْ مَهَالِكِهِمْ :

أَمَّا ٱلَّذِينَ ٱدَّعَوُا ٱلْحَيْرَةَ بِمَا سَمِعُوهُ مِنْ أَهْلِ ٱلتَّعْلِيمِ ، فَعِلَاجُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي رِسَالَةِ « ٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ » وَسَتَأْتِي بِنَصِّهَا ، وَلَا نُطَوِّلُ بِذِكْرِهَا فِي هَذِهِ ٱلرِّسَالَةِ .

وَأَمَّا مَا تَوَهَّمَهُ أَهْلُ ٱلْإِبَاحَةِ ، فَقَدْ حَصَرْنَا شُبَهَهُمْ فِي سَبْعَةِ أَنْوَاعٍ وَكَشَفْنَاهَا فِي كِتَابِ « كِيمِيَاءِ ٱلسَّعَادَةِ . »

وَأَمَّا مَنْ فَسَدَ إِيمَانُهُ بِطَرِيقِ ٱلْفَلْسَفَةِ ، حَتَّى أَنْكَرَ أَصْلَ ٱلنُّبُوَّةِ ، فَقَدْ ذَكَرْنَا حَقِيقَةَ ٱلنُّبُوَّةِ وَوُجُودَهَا بِالضَّرُورَةِ ، بِدَلِيلِ وُجُودِ عِلْمِ خَوَاصِّ ٱلْأَدْوِيَةِ وَٱلنُّجُومِ وَغَيْرِهِمَا . وَإِنَّمَا قَدَّمْنَا هَذِهِ ٱلْمُقَدِّمَةَ لِأَجْلِ ذَلِكَ . وَإِنَّمَا أَوْرَدْنَا ٱلدَّلِيلَ مِنْ خَوَاصِّ ٱلطِّبِّ وَٱلنُّجُومِ ، لِأَنَّهُ مِنْ نَفْسِ عِلْمِهِمْ . وَنَحْنُ نُبَيِّنُ لِكُلِّ عَالِمٍ بِفَنٍّ مِنَ ٱلْعُلُومِ كَٱلنُّجُومِ وَٱلطِّبِّ وَٱلطَّبِيعَةِ وَٱلسِّحْرِ وَٱلظُّلْمَاتِ مَثَلًا مِنْ نَفْسِ عِلْمِهِ ، بُرْهَانَ ٱلنُّبُوَّةِ :

وَأَمَّا مَنْ أَثْبَتَ ٱلنُّبُوَّةَ بِلِسَانِهِ ، وَسَوَّى أَوْضَاعَ ٱلشَّرْعِ عَلَى ٱلْحِكْمَةِ ، فَهُوَ عَلَى ٱلتَّحْقِيقِ كَافِرٌ بِالنُّبُوَّةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ بِحُكْمٍ لَهُ طَالِعٌ مَخْصُوصٌ ، يَقْتَضِي طَالِعُهُ أَنْ يَكُونَ مَتْبُوعاً ؛ وَلَيْسَ هَذَا مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ فِي شَيْءٍ . بَلِ ٱلْإِيمَانُ بِالنُّبُوَّةِ : أَنْ يُقِرَّ بِإِثْبَاتِ طَوْرٍ وَرَاءَ ٱلْعَقْلِ ، تَنْفَتِحُ فِيهِ عَيْنٌ يُدْرَكُ بِهَا مُدْرَكَاتٌ خَاصَّةٌ ، وَٱلْعَقْلُ مَعْزُولٌ عَنْهَا ، كَعَزْلِ ٱلسَّمْعِ عَنْ إِدْرَاكِ ٱلْأَلْوَانِ ، وَٱلْبَصَرِ عَنْ إِدْرَاكِ ٱلْأَصْوَاتِ ، وَجَمِيعِ ٱلْحَوَاسِّ عَنْ إِدْرَاكِ ٱلْمَعْقُولَاتِ . فَإِنْ لَمْ يُجَوِّزْ هَذَا ، فَقَدْ أَقَمْنَا ٱلْبُرْهَانَ عَلَى إِمْكَانِهِ ، بَلْ عَلَى وُجُودِهِ . وَإِنْ جَوَّزَ هَذَا فَقَدْ أَثْبَتَ ، أَنَّ هٰهُنَا أُمُوراً تُسَمَّى خَوَاصَّ ، لَا يَدُورُ تَصَرُّفُ ٱلْعَقْلِ حَوَالَيْهَا أَصْلاً ، بَلْ يَكَادُ ٱلْعَقْلُ يُكَذِّبُهَا وَيَقْضِي بِاسْتِحَالَتِهَا . فَإِنَّ وَزْنَ دَانِقٍ [1] مِنَ ٱلْأَفْيُونِ ؛ سُمٌّ قَاتِلٌ لِأَنَّهُ يُجَمِّدُ ٱلدَّمَ فِي ٱلْعُرُوقِ لِفَرْطِ بُرُودَتِهِ .

(١) الدانق : سدس الدرهم

وَالَّذِي يَدَّعِي عِلْمَ الطَّبِيعَةِ ، يَزْعُمُ أَنَّ مَا يَبْرُدُ مِنَ الْمُرَكَّبَاتِ ، إِنَّمَا يَبْرُدُ بِعُنْصُرَيِ الْمَاءِ وَالتُّرَابِ ؛ فَهُمَا الْعُنْصُرَانِ الْبَارِدَانِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَرْطَالًا مِنَ الْمَاءِ وَالتُّرَابِ لَا يَبْلُغُ تَبْرِيدُهُمَا فِي الْبَاطِنِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ . فَلَوْ أُخْبِرَ طَبِيعِيٌّ بِهَذَا وَلَمْ يُجَرِّبْهُ ، لَقَالَ : « هَذَا مُحَالٌ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى اسْتِحَالَتِهِ أَنَّ فِيهِ نَارِيَّةً وَهَوَائِيَّةً ، وَالْهَوَائِيَّةُ وَالنَّارِيَّةُ لَا تَزِيدُ بِهَا بُرُودَةٌ ؛ فَنُقَدِّرُ الْكُلَّ مَاءً وَتُرَابًا ، فَلَا يُوجِبُ هَذَا الْإِفْرَاطَ بِالتَّبْرِيدِ ، فَإِنِ انْضَمَّ إِلَيْهِ حَارَّانِ فَبِأَنْ لَا يُوجِبَ أَوْلَى » وَيُقَدِّرُ هَذَا بُرْهَانًا ! وَأَكْثَرُ بَرَاهِينِ الْفَلَاسِفَةِ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلٰهِيَّاتِ مَبْنِيٌّ عَلَى هَذَا الْجِنْسِ ! فَإِنَّهُمْ تَصَوَّرُوا الْأُمُورَ عَلَى قَدْرِ مَا وَجَدُوهُ وَعَقَلُوهُ ، وَمَا لَمْ يَأْلَفُوهُ قَدَّرُوا اسْتِحَالَتَهُ . وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ مَأْلُوفَةً ، وَادَّعَى مُدَّعٍ ، أَنَّهُ عِنْدَ رُكُودِ الْحَوَاسِّ ، يَعْلَمُ الْغَيْبَ ، لَأَنْكَرَهُ الْمُتَّصِفُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْعُقُولِ . وَلَوْ قِيلَ لِوَاحِدٍ : « هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ ، هُوَ

بِمِقْدَارِ حَبَّةٍ ، يُوضَعُ فِي بَلْدَةٍ ، فَيَأْكُلُ تِلْكَ ٱلْبَلْدَةَ بِجُمْلَتِهَا ثُمَّ يَأْكُلُ نَفْسَهُ فَلَا يُبْقِي شَيْئًا مِنَ ٱلْبَلْدَةِ وَمَا فِيهَا ، وَلَا يَبْقَى هُوَ فِي نَفْسِهِ ؟ لَقَالَ : « هَذَا مُحَالٌ وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْخُرَافَاتِ ! » وَهَذِهِ حَالَةُ ٱلنَّارِ ، يُنْكِرُهَا مَنْ لَمْ يَرَ ٱلنَّارَ إِذَا سَمِعَهَا . وَأَكْثَرُ إِنْكَارِ عَجَائِبِ ٱلْآخِرَةِ هُوَ مِنْ هَذَا ٱلْقَبِيلِ . فَنَقُولُ لِلطَّبِيعِيِّ : « قَدِ ٱضْطُرِرْتَ إِلَى أَنْ تَقُولَ : فِي ٱلْأَفْيُونِ خَاصِّيَّةٌ فِي ٱلتَّبْرِيدِ ، لَيْسَ عَلَى قِيَاسِ ٱلْمَعْقُولِ بِالطَّبِيعَةِ . فَلِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْأَوْضَاعِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلْخَوَاصِّ ، فِي مُدَاوَاةِ ٱلْقُلُوبِ وَتَصْفِيَتِهَا ، مَا لَا يُدْرَكُ بِالْحِكْمَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ، بَلْ لَا يُبْصَرُ ذَلِكَ إِلَّا بِعَيْنِ ٱلنُّبُوَّةِ ؟ » بَلْ قَدِ ٱعْتَرَفُوا بِخَوَاصَّ هِيَ أَعْجَبُ مِنْ هَذَا فِيمَا أَوْرَدُوهُ فِي كُتُبِهِمْ ، وَهِيَ مِنَ ٱلْخَوَاصِّ ٱلْعَجِيبَةِ ٱلْمُجَرَّبَةِ فِي مُعَالَجَةِ ٱلْحَامِلِ ٱلَّتِي عَسُرَ عَلَيْهَا ٱلطَّلْقُ بِهَذَا ٱلشَّكْلِ :

ب	ط	د
ز	ه	ج
و	ا	ح

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

يُكْتَبُ عَلَى خِرْقَتَيْنِ لَمْ يُصِبْهُمَا مَاءٌ ، وَتَنْظُرُ إِلَيْهِمَا الْحَامِلُ بِعَيْنِهَا ، وَتَضَعُهُمَا تَحْتَ قَدَمَيْهَا ، فَيُسْرِعُ الْوَلَدُ فِي الْحَالِ إِلَى الْخُرُوجِ . وَقَدْ أَقَرُّوا بِإِمْكَانِ ذَلِكَ وَأَوْرَدُوهُ فِي كِتَابِ « عَجَائِبِ الْخَوَاصِّ » وَهُوَ شَكْلٌ فِيهِ تِسْعَةُ بُيُوتٍ ، يُرَقَّمُ فِيهَا رُقُومٌ مَخْصُوصَةٌ ، يَكُونُ مَجْمُوعُ مَا فِي جَدْوَلٍ وَاحِدٍ خَمْسَةَ عَشَرَ ، قَرَأْتَهُ فِي طُولِ الشَّكْلِ أَوْ فِي عَرْضِهِ أَوْ عَلَى التَّأْرِيبِ (١) .

فَيَالَيْتَ شِعْرِي ! مَنْ يُصَدِّقُ بِذَلِكَ ، كَيْفَ (٢) لَا يَتَّسِعُ عَقْلُهُ لِلتَّصْدِيقِ ، بِأَنَّ تَقْدِيرَ صَلَاةِ الصُّبْحِ بِرَكْعَتَيْنِ ، وَالظُّهْرِ بِأَرْبَعٍ ، وَالْمَغْرِبِ بِثَلَاثٍ ، هِيَ لِخَوَاصَّ غَيْرِ مَعْلُومَةٍ بِنَظَرِ الْحِكْمَةِ ؟ وَسَبَبُهَا اخْتِلَافُ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ وَإِنَّمَا تُدْرَكُ هَذِهِ الْخَوَاصُّ بِنُورِ النُّبُوَّةِ . وَالْعَجَبُ أَنَّا لَوْ غَيَّرْنَا الْعِبَارَةَ إِلَى عِبَارَةِ الْمُنَجِّمِينَ ، لَعَقَلُوا اخْتِلَافَ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ ، فَنَقُولُ : « أَلَيْسَ يَخْتَلِفُ الْحُكْمُ فِي الطَّالِعِ

(١) يقصد بالتأريب : قراءة ما فى المربع من إحدى زواياه إلى الزاوية المقابلة لها ويلوح لى أن أصلها التأويب بالواو ومعناه الرجوع . عمر

(٢) كانت هذه الكلمة فى الأصل : ثم

بِأَنْ تَكُونَ الشَّمْسُ فِي وَسَطِ السَّمَاءِ ، أَوْ فِي الطَّالِعِ ، أَوْ فِي الْغَارِبِ ، حَتَّى يَبْنُوا عَلَى هَذَا فِي تَسْيِيرَاتِهِمُ اخْتِلَافَ الْعِلَاجِ ، وتَفَاوُتَ الْأَعْمَارِ وَالْآجَالِ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الزَّوَالِ وَبَيْنَ كَوْنِ الشَّمْسِ فِي وَسَطِ السَّمَاءِ ، وَلَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَبَيْنَ كَوْنِ الشَّمْسِ فِي الْغَارِبِ ، فَهَلْ لِتَصْدِيقِهِ سَبِيلٌ ؟ » إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ يَسْمَعُهُ بِعِبَارَةِ مُنَجِّمٍ ، لَعَلَّهُ جَرَّبَ كَذِبَهُ مِائَةَ مَرَّةٍ ، وَلَا يَزَالُ يُعَاوِدُ تَصْدِيقَهُ ، حَتَّى لَوْ قَالَ الْمُنَجِّمُ لَهُ : « إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ فِي وَسَطِ السَّمَاءِ ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا الْكَوْكَبُ الْفُلَانِيُّ ، وَالطَّالِعُ هُوَ الْبُرْجُ الْفُلَانِيُّ ، فَلَبِسْتَ ثَوْبًا جَدِيدًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ قُتِلْتَ فِي ذَلِكَ الثَّوْبِ ! » فَإِنَّهُ لَا يَلْبَسُ الثَّوْبَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ؛ وَرُبَّمَا يُقَاسِي فِيهِ الْبَرْدَ الشَّدِيدَ ، وَرُبَّمَا سَمِعَهُ مِنْ مُنَجِّمٍ وَقَدْ عَرَفَ كَذِبَهُ مَرَّاتٍ ! .

فَلَيْتَ شِعْرِي ! مَنْ يَتَّسِعُ عَقْلُهُ لِقَبُولِ هَذِهِ الْبَدَائِعِ وَيُضْطَرُّ إِلَى الِاعْتِرَافِ بِأَنَّهَا خَوَاصُّ ـ مَعْرِفَتُهَا مُعْجِزَةٌ

لِبَعْضِ ٱلْأَنْبِيَاءِ - فَكَيْفَ يُنْكِرُ مِثْلَ ذَلِكَ ، فِيمَا يَسْمَعُهُ مِنْ قَوْلِ نَبِيٍّ صَادِقٍ مُؤَيَّدٍ بِٱلْمُعْجِزَاتِ ، لَمْ يُعْرَفْ قَطُّ بِٱلْكَذِبِ ؟ .

فَإِنْ أَنْكَرَ فَلْسَفِيٌّ إِمْكَانَ هَذِهِ ٱلْخَوَاصِّ فِي أَعْدَادِ الرَّكَعَاتِ ، وَرَمْيِ ٱلْجِمَارِ ، وَعَدَدِ أَرْكَانِ الْحَجِّ ، وَسَائِرِ تَعَبُّدَاتِ ٱلشَّرْعِ ، لَمْ يَجِدْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَوَاصِّ ٱلْأَدْوِيَةِ وَٱلنُّجُومِ فَرْقًا أَصْلًا . فَإِنْ قَالَ : « قَدْ جَرَّبْتُ شَيْئًا مِنَ ٱلنُّجُومِ وَشَيْئًا مِنَ ٱلطِّبِّ ، فَوَجَدْتُ بَعْضَهُ صَادِقًا ، فَٱنْقَدَحَ فِي نَفْسِي تَصْدِيقُهُ ، وَسَقَطَ مِنْ قَلْبِي ٱسْتِبْعَادُهُ وَنُفْرَتُهُ ، وَهَذَا لَمْ أُجَرِّبْهُ ، فَبِمَ أَعْلَمُ وُجُودَهُ وَتَحْقِيقَهُ ؟ وَإِنْ أَقْرَرْتُ بِإِمْكَانِهِ » فَأَقُولُ : « إِنَّكَ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى تَصْدِيقِ مَا جَرَّبْتَهُ بَلْ سَمِعْتَ أَخْبَارَ ٱلْمُجَرِّبِينَ وَقَلَّدْتَهُمْ ، فَٱسْمَعْ أَقْوَالَ ٱلْأَنْبِيَاءِ فَقَدْ جَرَّبُوا وَشَاهَدُوا ٱلْحَقَّ فِي جَمِيعِ مَا وَرَدَ بِهِ ٱلشَّرْعُ ، وَٱسْلُكْ سَبِيلَهُمْ تُدْرِكْ بِٱلْمُشَاهَدَةِ بَعْضَ ذَلِكَ » .

عَلَى أَنِّى أَقُولُ : « وَإِنْ لَمْ تُجَرِّبْهُ ، فَيَقْضِى عَقْلُكَ بِوُجُوبِ ٱلتَّصْدِيقِ وَٱلِاتِّبَاعِ قَطْعًا . فَإِنَّا لَوْ فَرَضْنَا رَجُلًا بَلَغَ وَعَقَلَ وَلَمْ يُجَرِّبِ ٱلْمَرَضَ ، فَمَرِضَ ، وَلَهُ وَالِدٌ مُشْفِقٌ حَاذِقٌ بِالطِّبِّ ، يَسْمَعُ دَعْوَاهُ فِى مَعْرِفَةِ ٱلطِّبِّ مُذْ عَقَلَ ، فَعَجَنَ لَهُ وَالِدُهُ دَوَاءً فَقَالَ : « هَذَا يَصْلُحُ لِمَرَضِكَ وَيَشْفِيكَ مِنْ سَقَمِكَ » . فَمَاذَا يَقْتَضِيهِ عَقْلُهُ ، وَإِنْ كَانَ ٱلدَّوَاءُ مُرًّا كَرِيهَ ٱلْمَذَاقِ ، أَيَتَنَاوَلُ ؟ أَوْ يُكَذِّبُ وَيَقُولُ : « أَنَا لَا أَعْقِلُ مُنَاسَبَةَ هَذَا ٱلدَّوَاءِ لِتَحْصِيلِ ٱلشِّفَاءِ ، وَلَمْ أُجَرِّبْهُ ! » فَلَا شَكَّ أَنَّكَ تَسْتَحْمِقُهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ ! وَكَذَلِكَ يَسْتَحْمِقُكَ أَهْلُ ٱلْبَصَائِرِ فِى تَوَقُّفِكَ ! فَإِنْ قُلْتَ : « فَبِمَ أَعْرِفُ شَفَقَةَ ٱلنَّبِىِّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، وَمَعْرِفَتَهُ بِهَذَا ٱلطِّبِّ . فَأَقُولُ : « وَبِمَ عَرَفْتَ شَفَقَةَ أَبِيكَ وَلَيْسَ ذَلِكَ أَمْرًا مَحْسُوسًا ، بَلْ عَرَفْتَهَا بِقَرَائِنِ أَحْوَالِهِ وَشَوَاهِدِ أَعْمَالِهِ فِى مَصَادِرِهِ وَمَوَارِدِهِ عِلْمًا ضَرُورِيًّا لَا تَتَمَارَى فِيهِ . »

وَمَنْ نَظَرَ فِي أَقْوَالِ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَا وَرَدَ مِنَ الْأَخْبَارِ فِي اهْتِمَامِهِ بِإِرْشَادِ الْخَلْقِ وَتَلَطُّفِهِ فِي جَرِّ النَّاسِ بِأَنْوَاعِ الرِّفْقِ وَاللُّطْفِ، إِلَى تَحْسِينِ الْأَخْلَاقِ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَبِالْجُمْلَةِ إِلَى مَا لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِهِ دِينُهُمْ وَدُنْيَاهُمْ، حَصَلَ لَهُ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ، بِأَنَّ شَفَقَتَهُ عَلَى أُمَّتِهِ أَعْظَمُ مِنْ شَفَقَةِ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ.

وَإِذَا نَظَرَ إِلَى عَجَائِبِ مَا ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَفْعَالِ، وَإِلَى عَجَائِبِ الْغَيْبِ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى لِسَانِهِ وَفِي الْأَخْبَارِ، وَإِلَى مَا ذَكَرَهُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فَظَهَرَ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرَهُ، عَلِمَ عِلْمًا ضَرُورِيًّا أَنَّهُ بَلَغَ الطَّوْرَ الَّذِي وَرَاءَ الْعَقْلِ، وَانْفَتَحَتْ لَهُ الْعَيْنُ الَّتِي يَنْكَشِفُ مِنْهَا الْغَيْبُ الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا الْخَوَاصُّ، وَالْأُمُورُ الَّتِي لَا يُدْرِكُهَا الْعَقْلُ.

فَهَذَا هُوَ مِنْهَاجُ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ بِتَصْدِيقِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَجَرِّبْ وَتَأَمَّلِ الْقُرْآنَ وَطَالِعِ الْأَخْبَارَ تَعْرِفْ ذَلِكَ بِالْعِيَانِ.

وَهَذَا ٱلْقَدْرُ يَكْفِي فِي تَنْبِيهِ ٱلْمُتَفَلْسِفَةِ ، ذَكَرْنَاهُ لِشِدَّةِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ فِي هَذَا ٱلزَّمَانِ .

وَأَمَّا ٱلسَّبَبُ ٱلرَّابِعُ - وَهُوَ ضَعْفُ ٱلْإِيمَانِ بِسَبَبِ سُوءِ سِيرَةِ ٱلْعُلَمَاءِ - فَيُدَاوَى هَذَا ٱلْمَرَضُ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ :

أَحَدُهَا : أَنْ تَقُولَ : « إِنَّ ٱلْعَالِمَ ٱلَّذِي تَزْعُمُ أَنَّهُ يَأْكُلُ ٱلْحَرَامَ ، مَعْرِفَتُهُ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ ٱلْحَرَامِ ، كَمَعْرِفَتِكَ بِتَحْرِيمِ ٱلْخَمْرِ وَلَحْمِ ٱلْخِنْزِيرِ وَٱلرِّبَا ، بَلْ بِتَحْرِيمِ ٱلْغِيبَةِ وَٱلْكَذِبِ وَٱلنَّمِيمَةِ ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ ذَلِكَ وَتَفْعَلُهُ ، لَا لِعَدَمِ إِيمَانِكَ بِأَنَّهُ مَعْصِيَةٌ ، بَلْ لِشَهْوَتِكَ ٱلْغَالِبَةِ عَلَيْكَ ، فَشَهْوَتُهُ كَشَهْوَتِكَ ، وَقَدْ غَلَبَتْهُ كَمَا غَلَبَتْكَ ، فَعِلْمُهُ بِمَسَائِلَ وَرَاءَ هَذَا يَتَمَيَّزُ بِهَا عَنْكَ ، لَا يُنَاسِبُ زِيَادَةَ زَجْرٍ عَنْ هَذَا ٱلْمَحْظُورِ ٱلْمُعَيَّنِ .

« وَكَمْ مِنْ مُؤْمِنٍ بِالطِّبِّ لَا يَصْبِرُ عَنِ ٱلْفَاكِهَةِ وَعَنِ ٱلْمَاءِ ٱلْبَارِدِ ، وَإِنْ زَجَرَهُ ٱلطَّبِيبُ عَنْهُ ! وَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ ضَارٍّ ، أَوْ عَلَى أَنَّ ٱلْإِيمَانَ بِالطِّبِّ غَيْرُ

صَحِيحٍ ، فَهَذَا مَحْمَلُ هَفَوَاتِ ٱلْعُلَمَاءِ » .

ٱلثَّانِي : أَنْ يُقَالَ لِلْعَامِيِّ : « يَنْبَغِي أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّ ٱلْعَالِمَ ٱتَّخَذَ عِلْمَهُ ذُخْرًا لِنَفْسِهِ فِي ٱلْآخِرَةِ ، وَيَظُنُّ أَنَّ عِلْمَهُ يُنْجِيهِ ، وَيَكُونُ لَهُ شَفِيعًا ، حَتَّى يُتَسَاهَلَ مَعَهُ فِي أَعْمَالِهِ ، لِفَضِيلَةِ عِلْمِهِ . وَإِنْ جَازَ أَنْ يَكُونَ زِيَادَةَ حُجَّةٍ عَلَيْهِ ، فَهُوَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ زِيَادَةَ دَرَجَةٍ لَهُ ، وَهُوَ مُمْكِنٌ . فَهُوَ ، وَإِنْ تَرَكَ ٱلْعَمَلَ ، يُدْلِي بِالْعِلْمِ ، وَأَنْتَ أَيُّهَا ٱلْعَامِيُّ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ وَتَرَكْتَ ٱلْعَمَلَ وَأَنْتَ عَنِ ٱلْعِلْمِ عَاطِلٌ ، فَتَهْلِكُ بِسُوءِ عَمَلِكَ وَلَا شَفِيعَ لَكَ ! » .

ٱلثَّالِثُ : وَهُوَ ٱلْحَقِيقَةُ ، أَنَّ ٱلْعَالِمَ ٱلْحَقِيقِيَّ ، لَا يُقَارِفُ مَعْصِيَةً إِلَّا عَلَى سَبِيلِ ٱلْهَفْوَةِ ، وَلَا يَكُونُ مُصِرًّا عَلَى ٱلْمَعَاصِي أَصْلًا . إِذِ ٱلْعِلْمُ ٱلْحَقِيقِيُّ مَا يُعَرِّفُ أَنَّ ٱلْمَعْصِيَةَ سُمٌّ مُهْلِكٌ ، وَأَنَّ ٱلْآخِرَةَ خَيْرٌ مِنَ ٱلدُّنْيَا . وَمَنْ عَرَفَ ذَلِكَ لَا يَبِيعُ ٱلْخَيْرَ بِمَا هُوَ أَدْنَى مِنْهُ .

وَهَذَا الْعِلْمُ لَا يَحْصُلُ بِأَنْوَاعِ الْعُلُومِ الَّتِي يَشْتَغِلُ بِهَا أَكْثَرُ النَّاسِ . فَلِذَلِكَ لَا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ الْعِلْمُ إِلَّا جُرْأَةً عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى . وَأَمَّا الْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ ، فَيَزِيدُ صَاحِبَهُ خَشْيَةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً ، وَهَذَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعَاصِي إِلَّا الْهَفَوَاتِ الَّتِي لَا يَنْفَكُّ عَنْهَا الْبَشَرُ فِي الْفَتَرَاتِ ، وَذَلِكَ لَا يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ الْإِيمَانِ . فَالْمُؤْمِنُ مُفْتَنٌ (١) تَوَّابٌ ، وَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ الْإِصْرَارِ وَالْإِكْبَابِ .

هَذَا مَا أَرَدْتُ أَنْ أَذْكُرَهُ فِي ذَمِّ الْفَلْسَفَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَآفَاتِهِمَا وَآفَاتِ مَنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمَا ، لَا بِطَرِيقِهِ .

وَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ آثَرَهُ وَاجْتَبَاهُ ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى الْحَقِّ وَهَدَاهُ ، وَأَلْهَمَهُ ذِكْرَهُ حَتَّى لَا يَنْسَاهُ ، وَعَصَمَهُ عَنْ شَرِّ نَفْسِهِ حَتَّى لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهِ سِوَاهُ ، وَاسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِهِ حَتَّى لَا يَعْبُدَ إِلَّا إِيَّاهُ .

---

(١) الاصوب مفتون

رِسَالَةُ ٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

توطئة

أَحْمَدُ ٱللهَ تَعَالَى أَوَّلًا ، وَأُصَلِّي عَلَى نَبِيِّهِ ٱلْمُصْطَفَى ثَانِيًا ، وَأَقُولُ :

إِخْوَانِي ، هَلْ فِيكُمْ مَنْ يُعِيرُنِي سَمْعَهُ لِأُحَدِّثَهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَسْمَارِي[1] ، فَقَدِ ٱسْتَقْبَلَنِي فِي بَعْضِ أَسْفَارِي ، رَفِيقٌ مِنْ رُفَقَاءِ أَهْلِ ٱلتَّعْلِيمِ ، وَغَافَصَنِي[2] بِالسُّؤَالِ وَٱلْجِدَالِ ، مُغَافَصَةَ مَنْ يَتَحَدَّى[3] بِالْيَدِ ٱلْبَيْضَاءِ وَٱلْحُجَّةِ ٱلْغَرَّاءِ ، وَقَالَ لِي : أَرَاكَ تَدَّعِي كَمَالَ ٱلْمَعْرِفَةِ فَبِأَيِّ مِيزَانٍ تَزِنُ حَقِيقَةَ ٱلْمَعْرِفَةِ ؟ أَبِمِيزَانِ الرَّأْيِ وَٱلْقِيَاسِ ؟ وَذَلِكَ فِي غَايَةِ ٱلتَّعَارُضِ وَٱلِالْتِبَاسِ ، وَلِأَجْلِهِ ثَارَ ٱخْتِلَافُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ، أَمْ بِمِيزَانِ ٱلتَّعْلِيمِ ؟ فَيَلْزَمُكَ ٱتِّبَاعُ ٱلْإِمَامِ

---

(١) أسمارى : جمع قله لسمر وهو الحديث ليلا (٢) غافصنى : فاجأنى وأخذنى على غرة (٣) يتحدى : يبرز و يتعمد و ينازع الغلبة

ٱلْمَعْصُومِ ٱلْمُعَلِّمِ وَمَا أَرَاكَ تَحْرِصُ عَلَى طَلَبِهِ . فَقُلْتُ : أَمَّا مِيزَانُ ٱلرَّأْيِ وَٱلْقِيَاسِ ، فَحَاشَ لِلّٰهِ أَنْ أَعْتَصِمَ بِهِ فَإِنَّهُ مِيزَانُ ٱلشَّيْطَانِ ، وَمَنْ زَعَمَ مِنْ أَصْحَابِي أَنَّ ذٰلِكَ مِيزَانُ ٱلْمَعْرِفَةِ ، فَأَسْأَلُ ٱللّٰهَ تَعَالَى أَنْ يَكْفِيَنِي شَرَّهُ عَلَى[1] ٱلدِّينِ ، فَإِنَّهُ لِلدِّينِ صَدِيقٌ جَاهِلٌ ، وَهُوَ شَرٌّ مِنْ عَدُوٍّ عَاقِلٍ ، وَلَوْ رُزِقَ سَعَادَةَ مَذْهَبِ أَهْلِ ٱلتَّعْلِيمِ ، لَتَعَلَّمَ أَوَّلًا ٱلْجِدَالَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ ، حَيْثُ قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » . وَعَلِمَ أَنَّ ٱلْمَدْعُوَّ إِلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى بِالْحِكْمَةِ قَوْمٌ وَبِالْمُجَادَلَةِ قَوْمٌ ، فَإِنَّ ٱلْحِكْمَةَ إِنْ غُذِّيَ بِهَا أَهْلُ ٱلْمَوْعِظَةِ ، أَضَرَّتْ بِهِمْ كَمَا تَضُرُّ بِالطِّفْلِ ٱلرَّضِيعِ ٱلتَّغْذِيَةُ بِلَحْمِ ٱلطَّيْرِ ، وَإِنَّ ٱلْمُجَادَلَةَ إِنِ ٱسْتُعْمِلَتْ مَعَ أَهْلِ ٱلْحِكْمَةِ ، ٱشْمَأَزُّوا مِنْهَا كَمَا يَشْمَئِزُّ طَبْعُ ٱلرَّجُلِ ٱلْقَوِيِّ مِنَ ٱلِارْتِضَاعِ بِلَبَنِ ٱلْآدَمِيِّ ، وَإِنَّ مَنِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْجِدَالَ مَعَ أَهْلِ ٱلْجِدَالِ لَا بِالطَّرِيقِ ٱلْأَحْسَنِ كَمَا تَعَلَّمَ مِنَ

(١) كانت هذه الكلمة فى الأصل : عن. عمر

ٱلْقُرْآنِ ، كَانَ كَمَنْ غَذَّى ٱلْبَدَوِيَّ بِخُبْزِ ٱلْبُرِّ وَهُوَ لَمْ يَأْلَفْ إِلَّا ٱلتَّمْرَ ، أَوِ ٱلْبَلَدِيَّ بِالتَّمْرِ وَهُوَ لَمْ يَأْلَفْ إِلَّا ٱلْبُرَّ ، وَلَيْتَهُ كَانَتْ لَهُ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ كَمَا تَعَلَّمَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ فِي إِبْرَاهِيمَ ٱلْخَلِيلِ ـ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ ـ حَيْثُ حَاجَّ خَصْمَهُ فَقَالَ : « رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ » فَلَمَّا رَأَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يُنَاسِبُهُ وَلَيْسَ حَسَناً عِنْدَهُ حِينَ قَالَ : أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، عَدَلَ إِلَى ٱلْأَوْفَقِ لِطَبْعِهِ وَٱلْأَقْرَبِ إِلَى فَهْمِهِ فَقَالَ : إِنَّ ٱللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ، فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ . وَلَمْ يَرْكَبِ ٱلْخَلِيلُ ظَهْرَ ٱللَّجَاجِ فِي تَحْقِيقِ عَجْزِهِ عَنْ إِحْيَاءِ ٱلْمَوْتَى ، إِذْ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ يَعْسُرُ عَلَيْهِ فَهْمُهُ ، فَإِنَّهُ ظَنَّ أَنَّ ٱلْقَتْلَ إِمَاتَةٌ مِنْ جِهَتِهِ ، وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ لَا يُلَائِمُ قَرِيحَتَهُ (١) وَلَا يُنَاسِبُ حَدَّهُ فِي ٱلْبَصِيرَةِ وَدَرَجَتَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَصْدِ ٱلْخَلِيلِ إِفْنَاؤُهُ بَلْ إِحْيَاؤُهُ ، وَٱلتَّغْذِيَةُ بِالْغِذَاءِ ٱلْمُوَافِقِ إِحْيَاءٌ ، وَٱللَّجَاجُ

(١) القريحة : طبيعة الانسان التي جبل عليها ، والضمير راجع الى نمرود

بِالْإِرْهَاقِ إِلَى مَالَا يُوَافِقُ إِفْنَاءَ ، فَهَذِهِ دَقَائِقُ لَا تُدْرَكُ إِلَّا بِنُورِ التَّعْلِيمِ الْمُقْتَبَسِ مِنْ إِشْرَاقِ عَالَمِ النُّبُوَّةِ . فَلِذَلِكَ حُرِمُوا التَّفَطُّنَ لَهُ ، إِذْ حُرِمُوا مِنْ سِرِّ مَذْهَبِ التَّعْلِيمِ فَقَالَ : إِذَا اسْتَوْعَرْتَ (١) سَبِيلَهُمْ ، وَاسْتَوْهَنْتَ دَلِيلَهُمْ ، فَبِمَاذَا تَزِنُ مَعْرِفَتَكَ ؟ فَقُلْتُ : أَزِنُهَا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ لِيَظْهَرَ إِلَيَّ حَقُّهَا وَبَاطِلُهَا ، وَمُسْتَقِيمُهَا وَمَائِلُهَا ، اتِّبَاعًا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَتَعْلِيمًا مِنَ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الصَّادِقِ حَيْثُ قَالَ : « وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ » فَقَالَ : وَمَا الْقِسْطَاسُ الْمُسْتَقِيمُ ؟ قُلْتُ : هِيَ الْمَوَازِينُ الْخَمْسُ ، الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ، وَعَلَّمَ أَنْبِيَاءَهُ الْوَزْنَ بِهَا . فَمَنْ تَعَلَّمَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَوَزَنَ بِمِيزَانِ اللَّهِ فَقَدِ اهْتَدَى ، وَمَنْ ضَلَّ عَنْهَا إِلَى الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ فَقَدْ ضَلَّ وَتَرَدَّى . فَقَالَ : أَيْنَ الْمَوَازِينُ فِي الْقُرْآنِ ، وَهَلْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ وَبُهْتَانٌ ؟ قُلْتُ : أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَى

(١) استوعر : استصعب والسبيل : الطريق

فِي سُورَةِ الرَّحْمنِ : « الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » إِلَى قَوْلِهِ : « وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ » أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » أَتَظُنُّ أَنَّ الْمِيزَانَ الْمَقْرُونَ بِالْكِتَابِ هُوَ مِيزَانُ الْبُرِّ وَالشَّعِيرِ ، وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ؟ أَتَتَوَهَّمُ أَنَّ الْمِيزَانَ الْمُقَابَلَ وَضْعُهُ بِرَفْعِ السَّمَاءِ فِي قَوْلِهِ : « وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ » هُوَ الطَّيَّارُ وَالْقَبَّانُ . مَا أَبْعَدَ هَذَا الْحُسْبَانَ . وَأَعْظَمَ هَذَا الْبُهْتَانَ ، فَاتَّقِ اللهَ وَلَا تَتَعَسَّفْ فِي التَّأْوِيلِ ، وَاعْلَمْ يَقِينًا أَنَّ هَذَا الْمِيزَانَ ، هُوَ مِيزَانُ مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَمَعْرِفَةِ مَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَمُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ ، لِتَتَعَلَّمَ كَيْفِيَّةَ الْوَزْنِ بِهِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ ، كَمَا تَعَلَّمُوا هُمْ مِنْ مَلَائِكَتِهِ . فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْمُعَلِّمُ الْأَوَّلُ ، وَالثَّانِي جِبْرِيلُ ، وَالثَّالِثُ الرَّسُولُ - صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ يَتَعَلَّمُونَ مِنَ الرُّسُلِ مَالَيْسَ لَهُمْ طَرِيقٌ إِلَى الْمَعْرِفَةِ بِهِ إِلَّا بِهِمْ . فَقَالَ : فَبِمَ عَرَفْتَ أَنَّ ذٰلِكَ الْمِيزَانَ صَادِقٌ أَمْ كَاذِبٌ ؟ أَبِعَقْلِكَ وَنَظَرِكَ فَالْعُقُولُ مُتَعَارِضَةٌ ؟ ! أَمْ بِالْإِمَامِ الْمَعْصُومِ الصَّادِقِ الْقَائِمِ بِالْحَقِّ فِي الْعَالَمِ ؟ وَهُوَ مَذْهَبِي الَّذِي أَدْعُو إِلَيْهِ . فَقُلْتُ : ذٰلِكَ أَيْضًا أَعْرِفُهُ بِالتَّعْلِيمِ وَلٰكِنْ مِنْ إِمَامِ الْأَئِمَّةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ لَا أَرَاهُ فَإِنِّي أَسْمَعُ تَعْلِيمَهُ الَّذِي تَوَاتَرَ إِلَيَّ تَوَاتُرًا لَا أَشُكُّ فِيهِ ، وَإِنَّمَا تَعْلِيمُهُ الْقُرْآنُ . وَبَيَانُ صِدْقِ مَوَازِينِ الْقُرْآنِ ، مَعْلُومٌ مِنْ نَفْسِ الْقُرْآنِ . فَقَالَ : هَاتِ بُرْهَانَكَ وَأَخْرِجْ مِنَ الْقُرْآنِ مِيزَانَكَ ، وَأَظْهِرْ لِي كَيْفَ فَهِمْتَ مِنْ نَفْسِ الْقُرْآنِ صِدْقَهُ وَصِحَّتَهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : حَدِّثْنِي أَنْتَ بِمَ تَعْرِفُ صِحَّةَ مِيزَانِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَصِدْقَهُ ؟ وَمَعْرِفَةُ ذٰلِكَ فَرْضُ دَيْنِكَ إِذَا كَانَ عَلَيْكَ دَيْنٌ حَتَّى تَقْضِيَهُ تَامًّا مِنْ غَيْرِ نُقْصَانٍ ، أَوْ كَانَ لَكَ عَلَى غَيْرِكَ

دَيْنٌ حَتَّى تَأْخُذَهُ عَدْلًا مِنْ غَيْرِ رُجْحَانٍ ، فَإِذَا دَخَلْتَ سُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَخَذْتَ مِيزَانًا مِنَ الْمَوَازِينِ ، وَقَضَيْتَ أَوِ اسْتَقْضَيْتَ بِهِ الدَّيْنَ ، فَبِمَ تَعْرِفُ أَنَّكَ لَمْ تُظْلَمْ بِنُقْصَانٍ فِي الْأَدَاءِ أَوْ بِرُجْحَانٍ فِي الِاسْتِيفَاءِ ؟ فَقَالَ : أُحْسِنُ الظَّنَّ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَأَقُولُ : إِنَّهُمْ لَا يَشْتَغِلُونَ بِالْمُعَامَلَةِ إِلَّا بَعْدَ تَعْدِيلِ الْمَوَازِينِ ، فَإِنْ عَرَضَ لِي شَكٌّ فِي بَعْضِ الْمَوَازِينِ أَخَذْتُهُ وَرَفَعْتُهُ وَنَظَرْتُ إِلَى كِفَّتَيِ الْمِيزَانِ وَلِسَانِهِ ، فَإِذَا اسْتَوَى انْتِصَابُ اللِّسَانِ مِنْ غَيْرِ مَيْلٍ إِلَى أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ ، وَرَأَيْتُ مَعَ ذَلِكَ تَقَابُلَ الْكِفَّتَيْنِ عَرَفْتُ أَنَّهُ مِيزَانٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ ، قُلْتُ : « هَبْ أَنَّ اللِّسَانَ قَدِ انْتَصَبَ عَلَى الِاسْتِوَاءِ وَأَنَّ الْكِفَّتَيْنِ مُتَحَاذِيَتَانِ عَلَى السَّوَاءِ . فَمِنْ أَيْنَ تَعْلَمُ أَنَّ الْمِيزَانَ صَادِقٌ ؟ فَقَالَ : أَعْلَمُ ذَلِكَ عِلْمًا ضَرُورِيًّا يَحْصُلُ لِي مِنْ مُقَدِّمَتَيْنِ . إِحْدَاهُمَا تَجْرِيبِيَّةٌ ، وَالْأُخْرَى حِسِّيَّةٌ .

أَمَّا التَّجْرِبِيَّةُ . فَهِيَ أَنِّي عَلِمْتُ بِالتَّجْرِبَةِ أَنَّ الثَّقِيلَ

يَهْوِى إِلَى أَسْفَلَ ، وَأَنَّ ٱلْأَثْقَلَ أَشَدُّ هُوِيًّا ، فَأَقُولُ : لَوْ كَانَتْ إِحْدَى ٱلْكَفَّتَيْنِ أَثْقَلَ ، لَكَانَتْ أَشَدَّ هُوِيًّا . فَهَذِهِ مُقَدَّمَةٌ كُلِّيَّةٌ تَجْرِيبِيَّةٌ حَاصِلَةٌ عِنْدِى ضَرُورَةً ، وَٱلْمُقَدَّمَةُ ٱلثَّانِيَةُ . هِيَ أَنَّ هَذَا ٱلْمِيزَانَ بِعَيْنِهِ رَأَيْتُهُ لَمْ تَهْوِ إِحْدَى كَفَّتَيْهِ بَلْ حَاذَتِ ٱلْأُخْرَى مُحَاذَاةَ مُسَاوَاةٍ . وَهَذِهِ مُقَدِّمَةٌ حِسِّيَّةٌ شَاهَدْتُهَا بِٱلْبَصَرِ ، فَلَا أَشُكُّ لَا فِى ٱلْمُقَدِّمَةِ ٱلْحِسِّيَّةِ ، وَلَا فِى ٱلْأُولَى ، وَهِيَ مُقَدَّمَةُ ٱلتَّجْرِبَةِ فَيَلْزَمُ فِى قَلْبِى مِنْ هَاتَيْنِ ٱلْمُقَدَّمَتَيْنِ نَتِيجَةٌ ضَرُورِيَّةٌ ، وَهِيَ ٱلْعِلْمُ بِٱسْتِوَاءِ ٱلْمِيزَانِ . إِذْ أَقُولُ : لَوْ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا أَثْقَلَ لَكَانَتْ أَهْوَى ، وَمَحْسُوسٌ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِأَهْوَى . فَمَعْلُومٌ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِأَثْقَلَ . قُلْتُ لَهُ : فَهَلْ هٰذَا إِلَّا رَأْىٌ وَقِيَاسٌ عَقْلِىٌّ ؟ قَالَ : هَيْهَاتَ ، فَإِنَّ هَذَا عِلْمٌ ضَرُورِىٌّ لَزِمَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةٍ حَصَلَ ٱلْيَقِينُ بِهَا مِنَ ٱلتَّجْرِبَةِ وَٱلْحِسِّ ، فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا رَأْيًا وَقِيَاسًا ؟ وَٱلرَّأْىُ وَٱلْقِيَاسُ حَدْسٌ وَتَخْمِينٌ لَا يُفِيدَانِ بَرْدَ ٱلْيَقِينِ ؟ وَأَنَا أُحِسُّ

فِي هٰذَا بَرْدَ ٱلْيَقِينِ . قُلْتُ : فَإِنَّ عَرَفْتَ صِحَّةَ ٱلْمِيزَانِ بِهٰذَا ٱلْبُرْهَانِ ، فَبِمَ عَرَفْتَ ٱلصَّنْجَةَ (١) وَٱلْمِثْقَالَ ؟ فَلَعَلَّهُ أَخَفُّ وَأَثْقَلُ مِنَ ٱلْمِثْقَالِ ٱلصَّحِيحِ . فَقَالَ : إِنْ شَكَكْتُ فِي هٰذَا أَخَذْتُ عِيَارَةً مِنْ صَنْجَةٍ مَعْلُومَةٍ عِنْدِي فَأُقَابِلُهَا بِهَا ، فَإِذَا سَاوَى عَلِمْتُ أَنَّ ٱلذَّهَبَ إِذَا سَاوَاهُ كَانَ مُسَاوِيًا لِصِنْجَتِي ، فَإِنَّ ٱلْمُسَاوِيَ لِلْمُسَاوِي مُسَاوٍ . قُلْتُ : وَهَلْ تَعْلَمُ وَاضِعَ ٱلْمِيزَانِ فِي ٱلْأَصْلِ مَنْ هُوَ ؟ وَهَلْ هُوَ ٱلْوَاضِعُ ٱلْأَوَّلُ ؟ وَٱلَّذِي وَضَعَهُ مِنْهُ يَعْلَمُ هٰذَا ٱلْوَزْنَ ؟ قَالَ : لَا ، وَمِنْ أَيْنَ أَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَقَدْ عَرَفْتُ صِحَّةَ ٱلْمِيزَانِ بِٱلْمُشَاهَدَةِ وَٱلْعِيَانِ ؟ بَلْ آكُلُ ٱلْبَقْلَ مِنْ حَيْثُ يُؤْتَى بِهِ ، وَلَا أَسْأَلُ عَنِ ٱلْمَبْقَلَةِ فَإِنَّ وَاضِعَ ٱلْمِيزَانِ لَا يُرَادُ لِعَيْنِهِ بَلْ يُرَادُ لِيُعْرَفَ مِنْهُ صِحَّةُ ٱلْمِيزَانِ وَكَيْفِيَّةُ ٱلْوَزْنِ بِهِ وَأَنَا قَدْ عَرَفْتُهُ كَمَا حَكَيْتُهُ ، وَعَرَفْتُهُ فَٱسْتَغْنَيْتُ عَنْ مُرَاجَعَةِ صَاحِبِ ٱلْمِيزَانِ عِنْدَ كُلِّ وَزْنٍ . فَإِنَّ ذٰلِكَ يَطُولُ

(١) الصنجة : للميزان عياره أو معياره وهى فارسية معربة

وَلا يُظْفَرُ بِهِ فِي كُلِّ حِينٍ مَعَ أَنِّي فِي غُنْيَةٍ عَنْهُ . قُلْتُ : فَإِنْ أَتَيْتُكَ بِمِيزَانٍ فِي الْمَعْرِفَةِ مِثْلِ هٰذَا وَأَوْضَحَ مِنْهُ ، وَأَزِيدُ عَلَيْهِ بِأَنِّي أَعْرِفُ وَاضِعَهُ وَمُعَلِّمَهُ وَمُسْتَعْمِلَهُ ، فَيَكُونُ وَاضِعُهُ هُوَ اللهُ تَعَالَى ، وَمُعَلِّمُهُ جِبْرِيلُ ، وَمُسْتَعْمِلُهُ الْخَلِيلُ وَمُحَمَّدٌ وَسَائِرُ النَّبِيِّينَ ـ عَلَيْهِمُ السَّلامُ أَجْمَعِينَ ـ .

وَقَدْ شَهِدَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ فِي ذٰلِكَ بِالصِّدْقِ ، فَهَلْ تَقْبَلُ ذٰلِكَ مِنِّي ؟ وَهَلْ تُصَدِّقُ بِهِ ؟ فَقَالَ : إِي وَاللهِ . وَكَيْفَ لا أُصَدِّقُ بِهِ إِنْ كَانَ فِي الظُّهُورِ مِثْلَ مَا حَكَيْتَهُ لِي ؟ فَقُلْتُ : الآنَ أَتَوَسَّمُ فِيكَ شَمَائِلَ الْكِيَاسَةِ ، وَقَدْ صَدَقَ رَجَائِي فِي تَقْوِيمِكَ وَتَفْهِيمِكَ حَقِيقَةَ مَذْهَبِكَ فِي تَعْلِيمِكَ ، فَأَكْشِفُ لَكَ عَنِ الْمَوَازِينِ الْخَمْسِ الْمُنَزَّلَةِ فِي الْقُرْآنِ لِتَسْتَغْنِيَ بِهِ عَنْ كُلِّ إِمَامٍ وَتُجَاوِزَ حَدَّ الْعِيَانِ ، فَيَكُونَ إِمَامُكَ الْمُصْطَفَى ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَقَائِدُكَ الْقُرْآنَ وَمِعْيَارُكَ الْمُشَاهَدَةَ وَالْعِيَانَ .

فَاعْلَمْ أَنَّ مَوَازِينَ ٱلْقُرْآنِ فِي ٱلْأَصْلِ ثَلَاثَةٌ :

مِيزَانُ ٱلتَّعَادُلِ .

مِيزَانُ ٱلتَّلَازُمِ .

مِيزَانُ ٱلتَّعَانُدِ .

لَكِنَّ مِيزَانَ ٱلتَّعَادُلِ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِلَى ٱلْأَكْبَرِ ، وَٱلْأَوْسَطِ ، وَٱلْأَصْغَرِ ، فَيَصِيرُ ٱلْجَمِيعُ خَمْسَةً .

***

ميزان التعادل الأكبر

« ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْمِيزَانِ ٱلْأَكْبَرِ »

مِنْ مَوَازِينِ ٱلتَّعَادُلِ

ثُمَّ قَالَ لِي هَذَا ٱلرَّفِيقُ ٱلْكَيِّسُ مِنْ رُفَقَاءِ أَهْلِ ٱلتَّعْلِيمِ : ٱشْرَحْ لِي ٱلْمِيزَانَ ٱلْأَكْبَرَ مِنْ مَوَازِينِ ٱلتَّعَادُلِ أَوَّلًا ، وَٱشْرَحْ لِي مَعْنَى هَذِهِ ٱلْأَلْقَابِ ، وَهِيَ ٱلتَّعَادُلُ ، وَٱلتَّلَازُمُ ، وَٱلتَّعَانُدُ ، وَٱلْأَكْبَرُ ، وَٱلْأَوْسَطُ ، وَٱلْأَصْغَرُ فَإِنَّهَا أَلْقَابٌ عَجِيبَةٌ غَرِيبَةٌ .

وَلَا أَشُكُّ فِي أَنَّ تَحْتَهَا مَعَانِيَ دَقِيقَةً . فَقُلْتُ : أَمَّا مَعْنَى هٰذِهِ ٱلْأَلْقَابِ ، فَلَا تَفْهَمُهَا إِلَّا بَعْدَ شَرْحِهَا وَفَهْمِ مَعَانِيهَا، لِتُدْرِكَ بَعْدَ ذٰلِكَ مُنَاسَبَةَ أَلْقَابِهَا لِحَقَائِقِهَا ، وَأُعْلِمُكَ أَوَّلًا أَنَّ هٰذَا ٱلْمِيزَانَ يُشْبِهُ ٱلْمِيزَانَ ٱلَّذِي حَكَيْتَهُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱلصُّورَةِ ، فَإِنَّهُ مِيزَانٌ رُوحَانِيٌّ فَلَا يُسَاوِي ٱلْجُسْمَانِيَّ . وَمِنْ أَيْنَ يَلْزَمُ أَنْ يُسَاوِيَهُ ، وَٱلْمَوَازِينُ ٱلْجُسْمَانِيَّةَ أَيْضًا تَخْتَلِفُ ؟ فَإِنَّ ٱلْقَلَسْطُونَ (١) مِيزَانٌ وَٱلطَّيَّارَ مِيزَانٌ ، بَلِ ٱلْأَصْطُرْلَابَ مِيزَانٌ لِمَقَادِيرِ حَرَكَاتِ ٱلْفَلَكِ ، وَٱلْمِسْطَرَةَ مِيزَانٌ لِمَقَادِيرِ ٱلْأَبْعَادِ فِي ٱلْخُطُوطِ ، وَٱلشَّاتُولَ مِيزَانٌ لِتَحْقِيقِ ٱلِاسْتِقَامَةِ وَٱلِانْحِنَاءِ ، وَهِيَ وَإِنِ ٱخْتَلَفَتْ صُوَرُهَا مُشْتَرِكَةٌ فِي أَنَّهَا تُعْرَفُ بِهَا ٱلزِّيَادَةُ وَٱلنُّقْصَانُ . بَلِ ٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ يُعْرَفُ بِهِ أَوْزَانُ ٱلشِّعْرِ لِيَتَمَيَّزَ مُنْزَحِفُهُ عَنْ مُسْتَقِيمِهِ ، وَهُوَ أَشَدُّ رُوحَانِيَّةً

(١) القلسطون والطيار : هما ميزانان من أنواع الموازين الجسمانية واسمها اصطلاحى فى عصر المؤلف و بعضهم فسر القلسطون بالقبان

مِنَ ٱلْمَوَازِينِ ٱلْمُجَسَّمَةِ ، وَلَـٰكِنَّهُ غَيْرُ مُتَجَرِّدٍ عَنْ عَلَائِقِ ٱلْأَجْسَامِ ، لِأَنَّهُ مِيزَانُ ٱلْأَصْوَاتِ ، وَلَا يَنْفَصِلُ الصَّوْتُ عَنِ ٱلْجِسْمِ ، وَأَشَدُّ ٱلْمَوَازِينِ رُوحَانِيَّةً مِيزَانُ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ، إِذْ بِهِ تُوزَنُ أَعْمَالُ ٱلْعِبَادِ وَعَقَائِدُهُمْ وَمَعَارِفُهُمْ وَٱلْمَعْرِفَةُ وَٱلْإِيمَانُ لَا تَعَلُّقَ لَهُمَا بِٱلْأَجْسَامِ ، وَلِذَٰلِكَ كَانَ مِيزَانُهُمَا رُوحَانِيًّا صِرْفًا - وَكَذَٰلِكَ مِيزَانُ ٱلْقُرْآنِ لِلْمَعْرِفَةِ رُوحَانِيٌّ لَـٰكِنْ يَرْتَبِطُ تَعْرِيفُهُ فِي عَالَمِ ٱلشَّهَادَةِ بِغِلَافٍ لِذَٰلِكَ ٱلْغِلَافِ ٱلْتِصَاقٌ بِٱلْأَجْسَامِ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ جِسْمًا ، فَإِنَّ تَعْرِيفَ ٱلْغَيْرِ فِي هَٰذَا ٱلْعَالَمِ لَا يُمْكِنُ إِلَّا مُشَافَهَةً وَذَٰلِكَ بِٱلْأَصْوَاتِ . وَٱلصَّوْتُ جُسْمَانِيٌّ ، أَوْ بِٱلْمُكَاتَبَةِ وَهِيَ ٱلرُّقُومُ ، وَهِيَ أَيْضًا نَقْشٌ فِي وَجْهِ ٱلْقِرْطَاسِ وَهُوَ جِسْمٌ ، هَٰذَا حُكْمُ غِلَافِهِ ٱلَّذِي يَعْرِضُ فِيهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ رُوحَانِيٌّ مَحْضٌ لَا عَلَاقَةَ لَهُ مَعَ ٱلْأَجْسَامِ ، إِذْ تُوزَنُ بِهِ مَعْرِفَةُ ٱللهِ ٱلْخَارِجَةُ عَنْ عَالَمِ ٱلْأَجْسَامِ ٱلْمُقَدَّسِ ، عَنْ أَنْ يُنَاسِبَ ٱلْجِهَاتِ وَٱلْاقْطَارَ

فَضْلًا عَنْ نَفْسِ ٱلْأَجْسَامِ ، وَلَـٰكِنَّهُ مَعَ ذَٰلِكَ ذُو عَمُودٍ وَكِفَّتَيْنِ ، وَٱلْكِفَّتَانِ مُتَعَلِّقَتَانِ بِالْعَمُودِ ، فَالْعَمُودُ مُشْتَرَكٌ فِي ٱلْكِفَّتَيْنِ لِارْتِبَاطِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِهِ ، هَٰذَا فِي مِيزَانِ ٱلتَّعَادُلِ .

***

ميزان التلازم

وَأَمَّا مِيزَانُ ٱلتَّلَازُمِ فَهُوَ بِالْقَبَّانِ أَشْبَهُ لِأَنَّهُ ذُو كِفَّةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَـٰكِنْ يُقَابِلُهَا مِنَ ٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ ٱلرُّمَّانَةُ ، وَبِهَا يَظْهَرُ ٱلتَّفَاوُتُ وَٱلتَّقْدِيرُ ، فَقَالَ : هَذِهِ حَنْطَنَةٌ عَظِيمَةٌ فَأَيْنَ ٱلْمَعْنَى ؟ فَإِنِّي « أَسْمَعُ جَعْجَعَةً (١) وَلَا أَرَى طِحْنًا » . فَقُلْتُ لَهُ : ٱصْبِرْ « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْعَجَلَةَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ، وَٱلتَّأَنِّيَ مِنَ ٱللهِ ، وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمِيزَانَ ٱلْأَكْبَرَ هُوَ مِيزَانُ ٱلْخَلِيلِ - صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - ٱلَّذِي ٱسْتَعْمَلَهُ مَعَ نُمْرُودَ ، فَمِنْهُ تَعَلَّمْنَا هَٰذَا ٱلْمِيزَانَ ، لَـٰكِنْ بِوَسَاطَةِ ٱلْقُرْآنِ ، وَذَٰلِكَ

(١) مثل : يضرب فيمن يعد ولا يفى

أَنَّ نُمْرُودَ ادَّعَى الْإِلٰهِيَّةَ وَكَانَتِ الْإِلٰهِيَّةُ عِنْدَهُ بِالِاتِّفَاقِ عِبَارَةً عَنِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : الْإِلٰهُ إِلٰهِي لِأَنَّهُ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَيْهِ ، وَأَنْتَ لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ يَعْنِي أَنَّهُ يُحْيِي النُّطْفَةَ بِالْوِقَاعِ وَيُمِيتُ بِالْقَتْلِ فَعَلِمَ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّ ذَلِكَ يَعْسُرُ عَلَيْهِ فَهْمُ بُطْلَانِهِ فَعَدَلَ إِلَى مَا هُوَ أَوْضَحُ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : « إِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ[1] الَّذِي كَفَرَ » وَقَدْ أَثْنَى اللهُ عَلَيْهِ . فَقَالَ : « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ » فَعَلِمْتُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْحُجَّةَ وَالْبُرْهَانَ فِي قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ وَمِيزَانِهِ ، فَنَظَرْتُ فِي كَيْفِيَّةِ وَزْنِهِ ، كَمَا نَظَرْتَ أَنْتَ فِي مِيزَانِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، فَرَأَيْتُ فِي هَذِهِ الْحُجَّةِ أَصْلَيْنِ قَدِ ازْدَوَجَا ، فَتَوَلَّدَ مِنْهُمَا نَتِيجَةٌ هِيَ الْمَعْرِفَةُ ، إِذِ الْقُرْآنُ مَبْنَاهُ عَلَى الْحَذْفِ وَالْإِيجَازِ . وَكَمَالُ صُورَةِ هَذَا الْمِيزَانِ أَنْ تَقُولَ : كُلُّ مَنْ يَقْدِرُ

(١) بهت : بالبناء للمجهول أى ندم ولم يحر جوابا

عَلَى إِطْلَاعِ الشَّمْسِ فَهُوَ الْإِلٰهُ فَهٰذَا أَصْلٌ . وَإِلٰهِي هُوَ الْقَادِرُ عَلَى الْإِطْلَاعِ وَهٰذَا أَصْلٌ آخَرُ فَلَزِمَ مِنْ مَجْمُوعِهِمَا أَنَّ إِلٰهِي هُوَ الْإِلٰهُ دُونَكَ يَانُمْرُودُ . فَانْظُرِ الْآنَ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَرِفَ بِالْأَصْلَيْنِ مُعْتَرِفٌ ثُمَّ يَشُكَّ فِي النَّتِيجَةِ ؟ أَوْ هَلْ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَشُكَّ فِي هٰذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ شَاكٌّ ؟ فَإِنَّ قَوْلَنَا : الْإِلٰهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِطْلَاعِ الشَّمْسِ لَا يُشَكُّ فِيهِ ، لِأَنَّ الْإِلٰهَ كَانَ عِنْدَهُمْ وَعِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ عِبَارَةً عَنِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَإِطْلَاعُ الشَّمْسِ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ ، وَهٰذَا أَصْلٌ مَعْلُومٌ بِالْوَضْعِ وَالِاتِّفَاقِ وَقَوْلُنَا الْقَادِرُ عَلَى الْإِطْلَاعِ هُوَ اللّٰهُ تَعَالَى دُونَكَ ، مَعْلُومٌ بِالْمُشَاهَدَةِ ، فَإِنَّ عَجْزَ نُمْرُودَ وَعَجْزَ كُلِّ أَحَدٍ سِوَى مَنْ يُحَرِّكُ الشَّمْسَ مُشَاهَدٌ بِالْحِسِّ ، وَنَعْنِي بِالْإِلٰهِ مُحَرِّكَ الشَّمْسِ وَمُطْلِعَهَا ، فَيَلْزَمُنَا مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَصْلِ الْأَوَّلِ الْمَعْلُومِ بِالْوَضْعِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ وَمِنَ الْأَصْلِ الثَّانِي الْمَعْلُومِ بِالْمُشَاهَدَةِ ، أَنَّ نُمْرُودَ لَيْسَ هُوَ الْقَادِرَ عَلَى تَحْرِيكِ

الشَّمْسِ . فَنَعْلَمُ بَعْدَ مَعْرِفَةِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ أَنَّ نُمْرُودَ لَيْسَ بِإِلٰهٍ ، وَإِنَّمَا الْإِلٰهُ هُوَ اللهُ تَعَالَى . فَرَاجِعْ نَفْسَكَ الْآنَ، هَلْ تَرَى هَذَا أَوْضَحَ مِنَ الْمُقَدَّمَةِ التَّجْرِيبِيَّةِ وَالْحِسِّيَّةِ اللَّتَيْنِ بَنَيْتَ عَلَيْهِمَا صِحَّةَ مِيزَانِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ؟؟ فَقَالَ : هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ لَازِمَةٌ مِنْهُ بِالضَّرُورَةِ وَلَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَشُكَّ فِي الْأَصْلَيْنِ ، وَلَا أَنْ أَشُكَّ فِي لُزُومِ هَذِهِ النَّتِيجَةِ مِنْهُمَا، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَنْفَعُنِي إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَعَلَى الْوَجْهِ الَّذِي اسْتَعْمَلَهُ الْخَلِيلُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَذَلِكَ فِي نَفْيِ إِلٰهِيَّةِ نُمْرُودَ وَإِقْرَارِ الْإِلٰهِيَّةِ لِمَنْ تَفَرَّدَ بِإِطْلَاعِ الشَّمْسِ، فَكَيْفَ إِذَنْ أَعْرِفُ بِهَا سَائِرَ الْمَعَارِفِ الَّتِي تُشْكِلُ عَلَيَّ ، وَأَحْتَاجُ إِلَى تَمْيِيزِ الْحَقِّ فِيهَا عَنِ الْبَاطِلِ ؟ فَقُلْتُ : مَنْ وَزَنَ الذَّهَبَ بِمِيزَانٍ يُمْكِنُهُ أَنْ يَزِنَ بِهِ الْفِضَّةَ وَسَائِرَ الْجَوَاهِرِ ، لِأَنَّ الْمَوْزُونَ عُرِفَ مِقْدَارُهُ ، لَا لِأَنَّهُ ذَهَبٌ بَلْ لِأَنَّهُ ذُو مِقْدَارٍ ، وَلِذَلِكَ هَذَا الْبُرْهَانُ كَشَفَ لَنَا عَنْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ لَا لِعَيْنِهَا بَلْ لِأَنَّهَا حَقِيقَةٌ

مِنَ ٱلْحَقَائِقِ ، وَمَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِى ، فَنَتَأَمَّلُ أَنَّهُ لِمَ لَزِمَتْ مِنْهُ هَذِهِ ٱلنَّتِيجَةُ وَنَأْخُذُ رُوحَهُ وَنُجَرِّدُهُ عَنْ هَذَا ٱلْمِثَالِ ٱلْخَاصِّ حَتَّى نَنْتَفِعَ بِهِ حَيْثُ أَرَدْنَا . وَإِنَّمَا لَزِمَ هَذَا لِأَنَّ ٱلْحُكْمَ عَلَى ٱلصِّفَةِ حُكْمٌ عَلَى ٱلْمَوْصُوفِ بِالضَّرُورَةِ ، وَبَيَانُهُ أَنَّ إِيجَازَ هَذِهِ ٱلْحُجَّةِ ، إِنَّ رَبِّى مُطْلِعٌ وَٱلْمُطْلِعُ ٱلْإِلٰهُ ، فَيَلْزَمُ مِنْهُ إِنَّ رَبِّى إِلٰهٌ ، فَٱلْمُطْلِعُ صِفَةُ ٱلرَّبِّ وَقَدْ حَكَمْنَا عَلَى ٱلْمُطْلِعِ ٱلَّذِى هُوَ صِفَتُهُ بِالْإِلٰهِيَّةِ ، فَلَزِمَ مِنْهُ ٱلْحُكْمُ عَلَى رَبِّى بِالْإِلٰهِيَّةِ ، وَكَذٰلِكَ فِى كُلِّ مَقَامٍ حَصَلَتْ لِى مَعْرِفَةٌ بِصِفَةِ ٱلشَّىْءِ وَحَصَلَتْ مَعْرِفَةٌ أُخْرَى بِثُبُوتِ حُكْمٍ لِتِلْكَ ٱلصِّفَةِ ، فَيَتَوَلَّدُ مِنْهُمَا مَعْرِفَةٌ ثَالِثَةٌ بِثُبُوتِ ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْمَوْصُوفِ بِالضَّرُورَةِ . فَقَالَ : هَذَا يَكَادُ دَرْكُهُ يَدِقُّ عَلَى فَهْمِى ، فَإِنْ تَشَكَّكْتُ فِيهِ فَمَاذَا أَصْنَعُ حَتَّى يَزُولَ ٱلشَّكُّ ؟ . قُلْتُ : خُذْ عِيَارَهُ مِنَ ٱلصَّنْجَةِ ٱلْمَعْرُوفَةِ عِنْدَكَ كَمَا فَعَلْتَ فِى مِيزَانِ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ . فَقَالَ : كَيْفَ آخُذُ عِيَارَهَا ؟ وَأَيْنَ ٱلصَّنْجَةُ

ٱلْمَعْرُوفَةُ فِي هَذَا ٱلْفَنِّ . قُلْتُ : ٱلصَّنْجَةُ ٱلْمَعْرُوفَةُ هِيَ ٱلْعُلُومُ (١) ٱلْاوَّلِيَّةُ ٱلضَّرُورِيَّةُ ٱلْمُسْتَفَادَةُ إِمَّا مِنَ ٱلْحِسِّ أَوِ ٱلتَّجْرِبَةِ أَوْ غَرِيزَةِ ٱلْعَقْلِ ، فَانْظُرْ فِي ٱلْأَوَّلِيَّاتِ هَلْ تَتَصَوَّرُ أَنْ يَثْبُتَ ٱلْحُكْمُ عَلَى صِفَةٍ إِلَّا وَيَتَعَدَّى إِلَى ٱلْمَوْصُوفِ ؟ فَإِذَا مَرَّ بَيْنَ يَدَيْكَ ـ مَثَلًا ـ حَيَوَانٌ مُنْتَفِخُ ٱلْبَطْنِ وَهُوَ بَغْلٌ ، فَقَالَ قَائِلٌ : هَذَا حَامِلٌ ، فَقُلْتَ لَهُ : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱلْبَغْلَ عَقِيمٌ لَا يَلِدُ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ أَعْلَمُ هَذَا بِالتَّجْرِبَةِ ، فَقُلْتُ لَهُ : فَهَلْ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا بَغْلٌ ؟ فَنَظَرَ فَقَالَ : نَعَمْ قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ بِالْحِسِّ وَٱلْإِبْصَارِ ، فَقُلْتَ : فَٱلْآنَ هَلْ تَعْرِفُ أَنَّهُ لَيْسَ بِحَامِلٍ ؟ فَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَشُكَّ فِيهِ بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْأَصْلَيْنِ ٱللَّذَيْنِ أَحَدُهُمَا تَجْرِيبِيٌّ وَٱلْآخَرُ حِسِّيٌّ ، بَلْ يَكُونُ ٱلْعِلْمُ بِأَنَّهُ لَيْسَ بِحَامِلٍ عِلْمًا ضَرُورِيًّا مُتَوَلِّدًا مِنْ بَيْنِ ٱلْعِلْمَيْنِ ٱلسَّابِقَيْنِ ، كَمَا تَوَلَّدَ عِلْمُكَ فِي ٱلْمِيزَانِ مِنَ ٱلْعِلْمِ ٱلتَّجْرِيبِيِّ بِأَنَّ ٱلثَّقِيلَ هَاوٍ ، وَٱلْعِلْمِ ٱلْحِسِّيِّ

(١) يعنى بالعلوم الأولية اليقينيات المؤلفة للقياس

بِأَنَّ إِحْدَى ٱلْكِفَّتَيْنِ لَيْسَتْ هَاوِيَةً بِالْإِضَافَةِ إِلَى ٱلْأُخْرَى فَقَالَ : قَدْ فَهِمْتُ هَذَا فَهْمًا وَاضِحًا ، وَلَكِنْ لَمْ يَظْهَرْ لِي أَنَّ سَبَبَ لُزُومِهِ أَنَّ ٱلْحُكْمَ عَلَى ٱلصِّفَةِ حُكْمٌ عَلَى ٱلْمَوْصُوفِ . فَقُلْتُ : تَأَمَّلْ فَإِنَّ قَوْلَكَ : هَذَا بَغْلٌ ، وَصْفٌ وَٱلصِّفَةُ هُوَ ٱلْبَغْلُ ، وَقَوْلَكَ : كُلُّ بَغْلٍ عَقِيمٌ حُكْمٌ عَلَى ٱلْبَغْلِ ٱلَّذِي هُوَ صِفَةٌ بِالْعُقْمِ ، فَلَزِمَ ٱلْحُكْمُ بِالْعُقْمِ عَلَى ٱلْحَيَوَانِ ٱلْمَوْصُوفِ بِأَنَّهُ بَغْلٌ ، وَكَذَلِكَ إِذَا ظَهَرَ لَكَ مَثَلًا أَنَّ كُلَّ حَيَوَانٍ حَسَّاسٌ ، ثُمَّ ظَهَرَ لَكَ فِي ٱلدُّودِ أَنَّهُ حَيَوَانٌ ، فَلَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَشُكَّ فِي أَنَّهُ حَسَّاسٌ ، وَمِنْهَاجُهُ أَنْ تَقُولَ : كُلُّ دُودٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ حَيَوَانٍ حَسَّاسٌ ، فَكُلُّ دُودٍ حَسَّاسٌ لِأَنَّ قَوْلَكَ كُلُّ دُودٍ حَيَوَانٌ وَصْفُ ٱلدُّودِ بِأَنَّهُ حَيَوَانٌ ، وَٱلْحَيَوَانُ صِفَتُهُ فَإِذَا حَكَمْتَ عَلَى ٱلْحَيَوَانِ بِأَنَّهُ حَسَّاسٌ أَوْ جِسْمٌ أَوْ غَيْرُهُ دَخَلَ فِيهِ ٱلدُّودُ لَا مَحَالَةَ ، وَهَذَا ضَرُورِيٌّ لَا يُمْكِنُ ٱلشَّكُّ فِيهِ . نَعَمْ ، شَرْطُ هَذَا أَنْ تَكُونَ ٱلصِّفَةُ مُسَاوِيَةً لِلْمَوْصُوفِ أَوْ أَعَمَّ

مِنْهُ ، حَتَّى يَكُونَ ٱلْحُكْمُ عَلَيْهِ يَشْمَلُ ٱلْمَوْصُوفَ بِهِ بِالضَّرُورَةِ ، وَكَذَلِكَ مَنْ سَلَّمَ فِي ٱلنَّظَرِ ٱلْفِقْهِيِّ أَنَّ كُلَّ نَبِيذٍ مُسْكِرٌ . وَكُلَّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَشُكَّ فِي أَنَّ كُلَّ نَبِيذٍ حَرَامٌ ، لِأَنَّ ٱلْمُسْكِرَ وَصْفُ ٱلنَّبِيذِ ، فَٱلْحُكْمُ عَلَيْهِ بِالتَّحْرِيمِ يَتَنَاوَلُ ٱلنَّبِيذَ إِذْ يَدْخُلُ فِيهِ ٱلْمَوْصُوفُ لَا مَحَالَةَ ، فَكَذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ ٱلنَّظَرِيَّاتِ . فَقَالَ : قَدْ فَهِمْتُ فَهْمًا ضَرُورِيًّا أَنَّ إِيقَاعَ ٱلِازْدِوَاجِ بَيْنَ أَصْلَيْنِ عَلَى هَذَا ٱلْوَجْهِ مُوَلِّدٌ لِنَتِيجَةٍ ضَرُورِيَّةٍ ، وَأَنَّ بُرْهَانَ ٱلْخَلِيلِ ـ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ ـ بُرْهَانٌ صَحِيحٌ ، وَمِيزَانَهُ مِيزَانٌ صَادِقٌ ، وَتَعَلَّمْتُ حَدَّهُ وَحَقِيقَتَهُ وَعَرَفْتُ عِيَارَهُ مِنَ ٱلصَّنْجَاتِ ٱلْمَعْرُوفَةِ عِنْدِي ، وَلَكِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَعْرِفَ مِثَالًا لِاسْتِعْمَالِ هَذَا ٱلْمِيزَانِ فِي مَظَانِّ [1] ٱلْإِشْكَالِ فِي ٱلْعُلُومِ ، فَإِنَّ هَذِهِ ٱلْأَمْثِلَةَ وَاضِحَةٌ بِأَنْفُسِهَا لَا يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى مِيزَانٍ وَبُرْهَانٍ . فَقُلْتُ :

(١) مظان : مراجع وأماكن

هَيْهَاتَ (١) فَبَعْضُ هَذِهِ ٱلْأَمْثِلَةِ لَيْسَتْ مَعْلُومَةً بِأَنْفُسِهَا ، بَلْ هِيَ مُتَوَلِّدَةٌ مِنِ ٱزْدِوَاجِ ٱلْأَصْلَيْنِ إِذْ لَا يَعْرِفُ كَوْنَ هَذَا ٱلْحَيَوَانِ مَثَلًا عَقِيمًا إِلَّا مَنْ عَرَفَ بِالْحِسِّ أَنَّهُ بَغْلٌ وَبِالتَّجْرِبَةِ أَنَّ ٱلْبَغْلَ لَا يَلِدُ . وَإِنَّمَا ٱلْوَاضِحُ بِنَفْسِهِ هُوَ ٱلْأَوَّلُ . فَأَمَّا ٱلْمُتَوَلِّدُ مِنْ أَصْلَيْنِ فَلَهُ أَبٌ وَأُمٌّ فَلَا يَكُونُ أَوَّلِيًّا وَاضِحًا بِنَفْسِهِ بَلْ بِغَيْرِهِ وَلَكِنَّ ذَلِكَ ٱلْغَيْرَ أَعْنِي ٱلْأَصْلَيْنِ قَدْ يَكُونُ وَاضِحًا فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ ٱلتَّجْرِبَةِ وَبَعْدَ ٱلْإِبْصَارِ ، وَكَذَلِكَ كَوْنُ ٱلنَّبِيذِ حَرَامًا لَيْسَ وَاضِحًا بِنَفْسِهِ ، بَلْ يُعْرَفُ بِأَصْلَيْنِ (أَحَدُهُمَا) أَنَّهُ مُسْكِرٌ وَهَذَا يُعْلَمُ بِالتَّجْرِبَةِ (وَٱلثَّانِي) أَنَّ كُلَّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، وَهَذَا بِالْخَبَرِ ٱلْوَارِدِ عَنِ ٱلشَّارِعِ - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَهَذَا يُعَرِّفُكَ كَيْفِيَّةَ ٱلْوَزْنِ بِهَذَا ٱلْمِيزَانِ وَكَيْفِيَّةَ ٱسْتِعْمَالِهِ . وَإِنْ أَرَدْتَ مِثَالًا أَغْمَضَ مِنْ هَذَا ، فَأَمْثِلَةُ ذَلِكَ عِنْدَنَا لَا تَنْحَصِرُ وَلَا تَتَنَاهَى . بَلْ بِهَذَا ٱلْمِيزَانِ عَرَفْنَا أَكْثَرَ ٱلْغَوَامِضِ فَاقْنَعْ مِنْهُ بِمِثَالٍ وَاحِدٍ .

(١) هيهات : اسم فعل ماض بمعنى بعد

فَمِنَ ٱلْغَوَامِضِ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَيْسَ حَادِثًا بِنَفْسِهِ ، إِذْ لَهُ مُسَبِّبٌ وَصَانِعٌ وَكَذَلِكَ ٱلْعَالَمُ . فَإِذَا رَاجَعْنَا هَذَا ٱلْمِيزَانَ عَرَفْنَا أَنَّ لَهُ صَانِعًا وَأَنَّ صَانِعَهُ عَالِمٌ . فَإِنَّا نَقُولُ : كُلُّ جَائِزٍ فَلَهُ سَبَبٌ ، وَٱخْتِصَاصُ ٱلْعَالَمِ أَوِ ٱلْإِنْسَانِ بِمِقْدَارِهِ ٱلَّذِي ٱخْتُصَّ بِهِ جَائِزٌ . فَإِذَنْ يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ لَهُ سَبَبًا ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ٱلتَّشَكُّكِ فِي هَذِهِ ٱلنَّتِيجَةِ مَنْ سَلَّمَ ٱلْأَصْلَيْنِ وَعَرَفَهُمَا ، لَكِنْ إِنْ شَكَّ فِي ٱلْأَصْلَيْنِ فَيَسْتَنْتِجُ أَيْضًا مَعْرِفَتَهُمَا مِنْ أَصْلَيْنِ آخَرَيْنِ وَاضِحَيْنِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْعُلُومِ ٱلْأَوَّلِيَّةِ ٱلَّتِي لَا يُمْكِنُ ٱلتَّشْكِيكُ فِيهَا ، فَإِنَّ ٱلْعُلُومَ ٱلْجَلِيَّةَ ٱلْأَوَّلِيَّةَ ، هِيَ أُصُولُ ٱلْعُلُومِ ٱلْغَامِضَةِ ٱلْخَفِيَّةِ وَهِيَ بُذُورُهَا ، وَلَكِنْ يَسْتَثْمِرُهَا مِنْهَا مَنْ يُحْسِنُ ٱلِاسْتِثْمَارَ بِٱلْحِرَاثَةِ وَٱلِاسْتِنْتَاجِ بِإِيقَاعِ ٱلِازْدِوَاجِ بَيْنَهُمَا .

فَإِنْ قُلْتَ : أَنَا شَاكٌّ فِي ٱلْأَصْلَيْنِ جَمِيعًا ، فَلِمَ قُلْتَ : إِنَّ كُلَّ جَائِزٍ فَلَهُ سَبَبٌ ؟ وَلِمَ قُلْتَ : إِنَّ ٱخْتِصَاصَ ٱلْإِنْسَانِ بِمِقْدَارٍ مَخْصُوصٍ جَائِزٌ وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ ؟ فَأَقُولُ :

أَمَّا قَوْلِي : كُلُّ جَائِزٍ لَهُ سَبَبٌ فَوَاضِحٌ إِذَا فَهِمْتَ مَعْنَى الْجَائِزِ ، لِأَنِّي أَعْنِي بِالْجَائِزِ مَا يَتَرَدَّدُ بَيْنَ قِسْمَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ ، فَإِذَا تَسَاوَى شَيْئَانِ لَمْ يَخْتَصَّ أَحَدُهُمَا بِوُجُودٍ وَعَدَمٍ مِنْ ذَاتِهِ ، لِأَنَّ مَا ثَبَتَ لِلشَّيْءِ ثَبَتَ لِمِثْلِهِ بِالضَّرُورَةِ ، وَهَذَا أَوَّلِيٌّ . وَأَمَّا قَوْلِي اخْتِصَاصُ الْإِنْسَانِ بِهَذَا الْمِقْدَارِ مَثَلاً جَائِزٌ وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ ، كَقَوْلِي : إِنَّ الْخَطَّ الَّذِي يَكْتُبُهُ الْكَاتِبُ وَلَهُ مِقْدَارٌ مَخْصُوصٌ جَائِزٌ ، إِذِ الْخَطُّ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ خَطٌّ لَا يَتَعَيَّنُ لَهُ مِقْدَارٌ وَاحِدٌ ، بَلْ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ أَطْوَلَ وَأَقْصَرَ . فَاخْتِصَاصُهُ بِمِقْدَارٍ عَمَّا هُوَ أَطْوَلُ وَأَقْصَرُ ، سَبَبُهُ الْفَاعِلُ لَا مَحَالَةَ إِذْ نِسْبَةُ الْمَقَادِيرِ إِلَى قَبُولِ الْخَطِّ لَهَا مُتَسَاوِيَةٌ . وَهَذَا ضَرُورِيٌّ ، كَذَلِكَ نِسْبَةُ الْمَقَادِيرِ إِلَى شَكْلِ الْإِنْسَانِ وَأَطْرَافِهِ مُتَسَاوِيَةٌ ، فَتَخْصِيصُهَا لَا مَحَالَةَ بِفَاعِلٍ . ثُمَّ أَتَرَقَّى مِنْهُ وَأَقُولُ : فَاعِلُهُ عَالِمٌ لِأَنَّ كُلَّ فِعْلٍ مُرَتَّبٍ مُحْكَمٍ فَيُسْنَدُ إِلَى عِلْمِ فَاعِلِهِ ، وَبِنْيَةُ الْإِنْسَانِ بِنْيَةٌ مُرَتَّبَةٌ مُحْكَمَةٌ فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَنِدَ تَرْتِيبُهَا

وَتَدْبِيرُهَا إِلَى عِلْمٍ فَاعِلٍ بِهَا. فَهَاهُنَا أَصْلَانِ إِذَا عَرَفْتَهُمَا لَمْ تَشُكَّ فِي النَّتِيجَةِ. أَحَدُهُمَا: إِنَّ بِنْيَةَ الْآدَمِيِّ بِنْيَةٌ مُرَتَّبَةٌ مُحْكَمَةٌ هَذَا يُعْرَفُ بِالْمُشَاهَدَةِ مِنْ تَنَاسُبِ أَعْضَائِهِ وَاسْتِعْدَادِ كُلِّ وَاحِدٍ لِمَقْصُودٍ خَاصٍّ، كَالْيَدِ لِلْبَطْشِ، وَالرِّجْلِ لِلْمَشْيِ. وَمَعْرِفَةُ تَشْرِيحِ الْأَعْضَاءِ يُورِثُ عِلْمًا ضَرُورِيًّا بِهِ. وَأَمَّا افْتِقَارُ الْمُرَتَّبِ الْمَنْظُومِ إِلَى عِلْمٍ فَهُوَ وَاضِحٌ أَيْضًا، فَلَا يَشُكُّ الْعَاقِلُ فِي أَنَّ الْخَطَّ الْمَنْظُومَ لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنْ عَالِمٍ بِالْكِتَابَةِ وَإِنْ كَانَ بِوَاسِطَةِ الْقَلَمِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ، وَأَنَّ الْبِنَاءَ الصَّالِحَ لِإِفَادَةِ مَقَاصِدِ الِاكْتِنَانِ كَالْبَيْتِ وَالْحَمَّامِ وَالطَّاحُونَةِ وَغَيْرِهَا، لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنْ عَالِمٍ بِالْبِنَاءِ. فَإِنْ أَمْكَنَ التَّشَكُّكُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا، فَطَرِيقُهُ أَنْ يَتَرَقَّى مِنْهُ إِلَى أَوْضَحَ مِنْهُ، حَتَّى يَتَرَقَّى إِلَى الْأَوَّلِيَّاتِ وَشَرْحُ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ غَرَضِنَا، بَلِ الْغَرَضُ أَنْ نُبَيِّنَ أَنَّ ازْدِوَاجَ الْأَوَّلِيَّاتِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَوْقَعَهُ الْخَلِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِيزَانٌ صَادِقٌ مُفِيدٌ لِمَعْرِفَةِ

حَقِيقِيَّةٍ . وَلَا قَائِلَ بِإِبْطَالِ هَـذَا فَإِنَّهُ إِبْطَالٌ لِتَعْلِيمِ اللهِ تَعَالَى أَنْبِيَاءَهُ ، وَإِبْطَالٌ لِمَا أَثْنَى اللهُ عَلَيْهِ إِذْ قَالَ « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ » وَالتَّعْلِيمُ لَا مَحَالَةَ حَقٌّ إِنْ لَمْ يَكُنِ الرَّأْيُ حَقًّا وَفِي إِبْطَالِ هَذَا إِبْطَالُ الرَّأْيِ وَالتَّعْلِيمُ جَمِيعًا وَلَا قَائِلَ بِهِ أَصْلًا .

***

الميزان الأوسط

(ٱلْقَوْلُ فِى ٱلْمِيزَانِ ٱلْأَوْسَطِ)

قَالَ : قَدْ فَهِمْتُ ٱلْمِيزَانَ ٱلْأَكْبَرَ وَحْدَهُ وَعِيَارَه وَمَظِنَّتَهُ وَحَقِيقَةَ ٱسْتِعْمَالِهِ ، فَٱشْرَحْ لِى ٱلْمِيزَانَ ٱلْأَوْسَطَ مَاهُوَ وَمِنْ أَيْنَ حَصَلَ تَعْلِيمُهُ وَمَنْ وَضَعَهُ وَمَنِ ٱسْتَعْمَلَهُ. فَقُلْتُ : ٱلْمِيزَانُ ٱلْأَوْسَطُ أَيْضًا لِلْخَلِيلِ ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ حَيْثُ قَالَ : « لَا أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ[1] » وَكَمَالُ صُورَةِ هَذَا ٱلْمِيزَانِ أَنَّ ٱلْقَمَرَ آفِلٌ وَٱلْإِلٰهُ لَيْسَ بِآفِلٍ ، فَٱلْقَمَرُ لَيْسَ بِإِلٰهٍ . وَلٰكِنَّ ٱلْقُرْآنَ مَبْنَاهُ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِضْمَارِ لٰكِنَّ ٱلْعِلْمَ بِنَفْيِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ عَنِ ٱلْقَمَرِ لَايَصْدُرُ ضَرُورِيًّا إِلَّا بِمَعْرِفَةِ هٰذَيْنِ ٱلْأَصْلَيْنِ ، وَهُوَ أَنَّ ٱلْقَمَرَ آفِلٌ وَأَنَّ ٱلْإِلٰهَ لَيْسَ بِآفِلٍ ، فَإِذَا عَرَفْتَ ٱلْأَصْلَيْنِ صَارَ ٱلْعِلْمُ بِنَفْيِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ عَنِ ٱلْقَمَرِ ضَرُورِيًّا . فَقَالَ : أَنَا لَا أَشُكُّ فِى أَنَّ نَفْىَ ٱلْإِلٰهِيَّةِ عَنِ ٱلْقَمَرِ يَتَوَلَّدُ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْأَصْلَيْنِ إِنْ عُرِفَا

(١) أفل النجم : اذا غاب واحتجب عن الانظار

جَمِيعًا، لَـكِنِّى أَعْرِفُ أَنَّ ٱلْقَمَرَ آفِلٌ، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالْحِسِّ أَمَّا ٱلْإِلٰهُ لَيْسَ بِآفِلٍ ، فَلَا أَعْلَمُهُ ضَرُورَةً وَلَا حِسًّا ، قُلْتُ : وَلَيْسَ غَرَضِى مِنْ حِـكَايَةِ هَذَا ٱلْمِيزَانِ أَنْ أُعَرِّفَكَ أَنَّ ٱلْقَمَرَ لَيْسَ بِآفِلٍ ، بَلْ إِنِّى أُعْلِمُكَ أَنَّ هَذَا ٱلْمِيزَانَ صَادِقٌ وَٱلْمَعْرِفَةَ ٱلْحَاصِلَةَ مِنْهُ بِهَذَا الطَّرِيقِ مِنَ ٱلْوَزْنِ ضَرُورِيَّةٌ ، وَإِنَّمَا حَصَلَ ٱلْعِلْمُ بِهِ فِى حَقِّ ٱلْخَلِيلِ - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - إِذْ كَانَ مَعْلُومًا عِنْـدَهُ أَنَّ ٱلْإِلٰهَ لَيْسَ بِآفِلٍ ، وَإِنْ لَمْ يَـكُنْ ذٰلِكَ ٱلْعِلْمُ أَوَّلِيًّا لَهُ بَلْ مُسْتَفَادًا مِنْ أَصْلَيْنِ آخَرَيْنِ يُنْتِجَانِ ٱلْعِلْمَ بِأَنَّ ٱلْإِلٰهَ لَيْسَ بِمُتَغَيِّرٍ وَكُلُّ مُتَغَيِّرٍ حَادِثٌ وَٱلْأَفُولُ هُوَ ٱلتَّغَيُّرُ فَبَنَى ٱلْوَزْنَ عَلَى ٱلْمَعْلُومِ عِنْدَهُ ، فَخُذْ أَنْتَ ٱلْمِيزَانَ وَٱسْتَعْمِلْهُ حَيْثُ يَحْصُلُ لَكَ ٱلْعِلْمُ بِالْاَصْلَيْنِ . قَالَ : فَهِمْتُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ هَـذَا ٱلْمِيزَانَ صَادِقٌ ، وَأَنَّ هٰذِهِ ٱلْمَعْرِفَةَ تَلْزَمُ مِنَ ٱلْأَصْلَيْنِ إِذْ صَارَا مَعْلُومَيْنِ ، وَلَـكِنْ أُرِيدُ أَنْ تَشْرَحَ حَدَّ هَذَا ٱلْمِيزَانِ وَحَقِيقَتَهُ ، ثُمَّ تَشْرَحَ لِى عِيَارَهُ وَمِنَ ٱلصَّنْجَةِ

ٱلْمَعْرُوفَةِ عِنْدِى ، ثُمَّ مِثَالَ ٱسْتِعْمَالِهِ فِى مَظَانِّ ٱلْغُمُوضِ ، فَإِنَّ نَفْىَ ٱلْإِلٰهِيَّةِ عَنِ ٱلْقَمَرِ كَالْوَاضِحِ عِنْدِى. قُلْتُ : أَمَّا حَدُّهُ فَهُوَ أَنَّ كُلَّ مِثْلَيْنِ وُصِفَ أَحَدُهُمَا بِوَصْفٍ فَسُلِبَ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفُ عَنِ ٱلْآخَرِ فَهُمَا مُتَبَايِنَانِ أَىْ أَنَّ أَحَدَهُمَا يُسْلَبُ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفَ ٱلَّذِى فِى ٱلْآخَرِ وَلَا يُوصَفُ بِهِ ، وَلَمَّا كَانَ حَدُّ ٱلْمِيزَانِ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱلْحُكْمَ عَلَى ٱلْأَعَمِّ حُكْمٌ عَلَى ٱلْأَخَصِّ ، وَيَنْدَرِجُ فِيهِ لَا مَحَالَةَ ، فَحَدُّ هٰذَا أَنَّ ٱلَّذِى يُنْفَى عَنْهُ مَا يَثْبُتُ لِغَيْرِهِ مُبَايِنٌ لِذٰلِكَ ٱلْغَيْرِ ، فَٱلْإِلٰهُ يُنْفَى عَنْهُ ٱلْأُفُولُ ، وَٱلْقَمَرُ يَثْبُتُ لَهُ ٱلْأُفُولُ ، فَهٰذَا يُوجِبُ ٱلتَّبَايُنَ بَيْنَ ٱلْإِلٰهِ وَٱلْقَمَرِ ، وَهُوَ لَا يَكُونُ ٱلْقَمَرُ إِلٰهًا وَلَا ٱلْإِلٰهُ قَمَرًا ، وَقَدْ عَلَّمَ ٱللّٰهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ٱلْوَزْنَ بِهٰذَا ٱلْمِيزَانِ فِى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْقُرْآنِ ، ٱقْتِدَاءً بِأَبِيهِ ٱلْخَلِيلِ - صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِمَا - فَاكْتَفِ بِالتَّنْبِيهِ عَلَى مَوْضِعَيْنِ أَوِ ٱطْلُبِ ٱلْبَاقِىَ مِنْ آيَاتِ ٱلْقُرْآنِ (أَحَدُهُمَا) قَوْلُهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ « قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ

بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ » وَذَلِكَ أَنَّهُمْ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ فَعَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ إِظْهَارِ خَطَئِهِمْ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، فَقَالَ : قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ . وَكَمَالُ صُورَةِ هَذَا الْمِيزَانِ أَنَّ الْبَنِينَ لَا يُعَذَّبُونَ وَأَنْتُمْ مُعَذَّبُونَ ، فَإِذَا لَسْتُمْ أَبْنَاءً ، فَهُنَا أَصْلَانِ أَمَّا أَنَّ الْبَنِينَ لَا يُعَذَّبُونَ فَيُعْرَفُ بِالتَّجْرِبَةِ ، وَأَمَّا أَنْتُمْ مُعَذَّبُونَ فَيُعْرَفُ بِالْمُشَاهَدَةِ ، وَيَلْزَمُ مِنْهُمَا ضَرُورَةُ نَفْيِ الْبُنُوَّةِ (وَثَانِيهِمَا) قَوْلُهُ تَعَالَى : « قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » وَذَلِكَ أَنَّهُمُ ادَّعَوُا الْوِلَايَةَ ، وَكَانَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْوَلِيَّ يَتَمَنَّى لِقَاءَ وَلِيِّهِ ، وَكَانَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَا يَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ الَّذِي هُوَ سَبَبُ اللِّقَاءِ ، فَلَزِمَ ضَرُورَةً أَنَّهُمْ لَيْسُوا أَوْلِيَاءَ اللهِ . وَكَمَالُ صُورَةِ هَذَا الْمِيزَانِ أَنْ يُقَالَ : كُلُّ وَلِيٍّ يَتَمَنَّى لِقَاءَ وَلِيِّهِ ، وَالْيَهُودِيُّ لَيْسَ يَتَمَنَّى لِقَاءَ اللهِ ، فَلَزِمَ مِنْهُ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَلِيٍّ لِلهِ . وَحَدُّهُ أَنَّ التَّمَنِّيَ يُوصَفُ بِهِ الْوَلِيُّ وَيُنْفَى عَنِ الْيَهُودِيِّ ،

فَيَكُونُ ٱلْوَلِيُّ وَٱلْيَهُودِيُّ مُتَبَايِنَيْنِ لِسَلْبِ أَحَدِهِمَا عَنِ ٱلْآخَرِ، فَلَا يَكُونُ ٱلْوَلِيُّ يَهُودِيًّا، وَلَا ٱلْيَهُودِيُّ وَلِيًّا. وَأَمَّا عِيَارُهُ مِنَ ٱلصَّنْجَةِ ٱلْمَعْلُومَةِ فَمَا عِنْدِي أَنَّكَ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَعَ وُضُوحِهِ، وَلَكِنْ إِنْ أَرَدْتَ ٱسْتِظْهَاراً فَانْظُرْ إِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ ٱلْحَجَرَ جَمَادٌ، ثُمَّ عَرَفْتَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَيْسَ بِجَمَادٍ، كَيْفَ يَلْزَمُكَ مِنْهُ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَيْسَ بِحَجَرٍ، لِأَنَّ ٱلْجَمَادِيَّةَ تَثْبُتُ لِلْحَجَرِ وَتُنْفَى عَنِ ٱلْإِنْسَانِ، فَلَا جَرَمَ يَكُونُ ٱلْإِنْسَانُ مَسْلُوباً عَنِ ٱلْحَجَرِ وَٱلْحَجَرُ مَسْلُوباً عَنِ ٱلْإِنْسَانِ فَلَا ٱلْإِنْسَانُ حَجَرًا وَلَا ٱلْحَجَرُ إِنْسَانًا. وَأَمَّا مَظِنَّةُ ٱسْتِعْمَالِهِ فِي مَوَاضِعِ ٱلْغُمُوضِ فَكَثِيرٌ، وَأَحَدُ شَطْرَيِ ٱلْمَعْرِفَةِ مَعْرِفَةُ ٱلتَّقْدِيسِ، وَهُوَ مَا يَتَقَدَّسُ عَنْهُ ٱلرَّبُّ تَعَالَى عُلُوًّا كَبِيرًا، وَجَمِيعُ مَعَارِفِهِ تُوزَنُ بِهَذَا ٱلْمِيزَانِ، إِذِ ٱلْخَلِيلُ - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - ٱسْتَعْمَلَ هَذَا ٱلْمِيزَانَ فِي ٱلتَّقْدِيسِ وَعَلَّمَنَا كَيْفِيَّةَ ٱلْوَزْنِ بِهِ إِذْ عَرَفَ بِهَذَا ٱلْمِيزَانِ نَفْيَ ٱلْجِسْمِيَّةِ عَنِ ٱللهِ تَعَالَى. وَكَذَلِكَ تَقُولُ: إِنَّ ٱلْإِلٰهَ لَيْسَ

بِجَوْهَرٍ مُتَحَيِّزٍ لِأَنَّ الْإِلٰهَ لَيْسَ بِمَعْلُولٍ ، وَكُلُّ مُتَحَيِّزٍ فَاخْتِصَاصُهُ بِحَيِّزِهِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ مَعْلُولٌ ، فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ لَيْسَ بِجَوْهَرٍ وَتَقُولُ لَيْسَ بِعَرَضٍ لِأَنَّ الْعَرَضَ لَيْسَ بِحَيٍّ عَالِمٍ ، وَالْإِلٰهُ حَيٌّ عَالِمٌ فَلَيْسَ بِعَرَضٍ . وَكَذٰلِكَ سَائِرُ أَبْوَابِ التَّقْدِيسِ تَتَوَلَّدُ مَعْرِفَتُهَا أَيْضًا مِنِ ازْدِوَاجِ أَصْلَيْنِ عَلَى هٰذَا الْوَجْهِ (أَحَدُهُمَا) أَصْلٌ سَالِبٌ مَضْمُونُهُ النَّفْيُ (ثَانِيهِمَا) أَصْلٌ مُوجِبٌ مَضْمُونُهُ الْإِثْبَاتُ ، وَتَتَوَلَّدُ مِنْهُمَا مَعْرِفَةُ النَّفْيِ وَالتَّقْدِيسِ .

***

(ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْمِيزَانِ ٱلْأَصْغَرِ)

الميزان الأصغر

قَالَ : قَدْ فَهِمْتُ هَذَا أَيْضاً فَهْماً ضَرُورِيًّا فَاشْرَحْ لِي ٱلْمِيزَانَ ٱلْأَصْغَرَ وَحَدَّهُ وَعِيَارَهُ وَمِظَنَّةَ ٱسْتِعْمَالِهِ مِنَ ٱلْغَوَامِضِ . قُلْتُ : ٱلْمِيزَانُ ٱلْأَصْغَرُ تَعَلَّمْنَاهُ مِنَ ٱللهِ تَعَالَى حَيْثُ عَلَّمَهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي ٱلْقُرْآنِ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « وَمَا قَدَرُوا ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ » إِذْ قَالُوا : « مَا أَنْزَلَ ٱللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ » . وَوَجْهُ ٱلْوَزْنِ بِهَذَا ٱلْمِيزَانِ ، أَنْ تَقُولَ : قَوْلُهُمْ بِنَفْيِ إِنْزَالِ ٱلْوَحْيِ عَلَى ٱلْبَشَرِ قَوْلٌ بَاطِلُ ٱلِازْدِوَاجِ ٱلْمُنْتِجِ بَيْنَ ٱلْأَصْلَيْنِ (أَحَدُهُمَا) أَنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - بَشَرٌ (وَٱلثَّانِي) أَنَّ مُوسَى أُنْزِلَ عَلَيْهِ ٱلْكِتَابُ ، فَيَلْزَمُ مِنْهُ بِالضَّرُورَةِ قَضِيَّةٌ خَاصَّةٌ وَهُوَ أَنَّ بَعْضَ ٱلْبَشَرِ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ٱلْكِتَابُ وَتَبْطُلُ بِهِ ٱلدَّعْوَى ٱلْعَامَّةُ بِأَنَّهُ لَا يُنَزَّلُ كِتَابٌ

عَلَى بَشَرٍ أَصْلاً . أَمَّا الْأَصْلُ الْأَوَّلُ وَهُوَ قَوْلُنَا : مُوسَى بَشَرٌ فَمَعْلُومٌ بِالْحِسِّ . وَأَمَّا الثَّانِي وَهُوَ أَنَّ مُوسَى مُنْزَلٌ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَكَانَ مَعْلُومًا بِاعْتِرَافِهِمْ إِذْ كَانُوا يُخْفُونَ بَعْضَهُ وَيُظْهِرُونَ بَعْضَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : « يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا » وَإِنَّمَا ذُكِرَ هَذَا فِي مَعْرِضِ الْمُجَادَلَةِ بِالْأَحْسَنِ وَمِنْ خَاصِّيَّةِ الْمُجَادَلَةِ أَنَّهُ يَكْفِي فِيهِ أَنْ يَكُونَ الْأَصْلَانِ مُسَلَّمَيْنِ مِنَ الْخَصْمِ مَشْهُورَيْنِ عِنْدَهُ ، وَإِنْ أَمْكَنَ الشَّكُّ فِيهِ لِغَيْرِهِ فَإِنَّ النَّتِيجَةَ تَلْزَمُهُ ، إِذْ كَانَ هُوَ مُعْتَرِفًا بِهِ ، وَأَكْثَرُ أَدِلَّةِ الْقُرْآنِ تَجْرِي عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ، فَإِنْ صَادَفْتَ مِنْ نَفْسِكَ إِمْكَانَ الشَّكِّ فِي بَعْضِ أُصُولِهَا وَمُقَدِّمَاتِهَا فَاعْلَمْ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِهَا مُحَاجَّةُ مَنْ لَمْ يَشُكَّ فِيهِ . وَأَمَّا أَنْتَ فَالْمَقْصُودُ فِي حَقِّكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ مِنْهُ كَيْفِيَّةَ الْوَزْنِ فِي سَائِرِ الْمَوَاضِعِ . وَأَمَّا عِيَارُ هَذَا الْمِيزَانِ أَنَّ مَنْ يَقُولُ : لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَمْشِيَ الْحَيَوَانُ بِغَيْرِ رِجْلٍ فَيُعْلَمُ مِنْكَ إِذَا قُلْتَ الْحَيَّةُ حَيَوَانٌ وَالْحَيَّةُ

تَمْشِي بِغَيْرِ رِجْلٍ ، فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ بَعْضَ ٱلْحَيَوَانِ يَمْشِي بِغَيْرِ رِجْلٍ وَأَنَّ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ لَا يَمْشِي ٱلْحَيَوَانُ إِلَّا بِرِجْلٍ قَوْلٌ بَاطِلٌ مَنْقُوضٌ . وَأَمَّا مَوْضِعُ إِسْتِعْمَالِهِ مِنَ ٱلْغَوَامِضِ فَكَثِيرٌ ، فَإِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ مَثَلًا يَقُولُ : كُلُّ كَذِبٍ فَهُوَ قَبِيحٌ لِعَيْنِهِ . فَنَقُولُ : مَنْ رَأَى نَبِيًّا مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ أَوْ وَلِيًّا مِنَ ٱلْأَوْلِيَاءِ قَدِ ٱخْتَفَى مِنْ ظَالِمٍ فَسَأَلَهُ ٱلظَّالِمُ عَنْ مَوْضِعِهِ فَأَخْفَاهُ فَقَوْلُهُ هَلْ هُوَ كَذِبٌ ؟ . قَالَ : نَعَمْ قُلْنَا فَهَلْ هُوَ قَبِيحٌ ؟ قَالَ لَا ، بَلِ ٱلْقَبِيحُ ٱلصِّدْقُ ٱلْمُفْضِي إِلَى هَلَاكِهِ ، فَنَقُولُ لَهُ : ٱنْظُرْ إِلَى ٱلْمِيزَانِ فَإِنَّا نَقُولُ : قَوْلُهُ فِي إِخْفَاءِ مَحَلِّهِ كَذِبٌ فَهُوَ أَصْلٌ مَعْلُومٌ ، وَهَذَا ٱلْقَوْلُ لَيْسَ بِقَبِيحٍ وَهُوَ ٱلْأَصْلُ ٱلثَّانِي ، فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ كُلَّ كَذِبٍ لَيْسَ بِقَبِيحٍ ، فَتَأَمَّلِ ٱلْآنَ هَلْ يُتَصَوَّرُ ٱلشَّكُّ فِي هَذِهِ ٱلنَّتِيجَةِ بَعْدَ ٱلِاعْتِرَافِ بِٱلْأَصْلَيْنِ ؟ وَهَلْ هَذَا أَوْضَحُ مِمَّا ذَكَرْتُهُ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَةِ ٱلتَّجْرِيبِيَّةِ وَٱلْحِسِّيَّةِ بَعْدَ ٱلِاعْتِرَافِ بِٱلْأَصْلَيْنِ ؟ وَهَلْ هَذَا أَوْضَحُ مِمَّا ذَكَرْتُهُ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَةِ

التَّجْرِيبِيَّةِ وَالْحِسِّيَّةِ فِي مَعْرِفَةِ مِيزَانِ التَّقْدِيسِ. وَأَمَّا حَدُّ هَذَا الْمِيزَانِ فَهُوَ أَنَّ كُلَّ وَصْفَيْنِ اجْتَمَعَا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، فَبَعْضُ آحَادِ الْوَصْفَيْنِ لَابُدَّ وَأَنْ يُوصَفَ بِالْآخَرِ بِالضَّرُورَةِ وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يُوصَفَ بِهِ كُلُّهُ لُزُومًا ضَرُورِيًّا، بَلْ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ وَقَدْ لَا يَكُونُ فَلَا يُوثَقُ بِهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الْوَصْفُ بِأَنَّهُ حَيَوَانٌ وَأَنَّهُ جِسْمٌ، فَيَلْزَمُ مِنْهُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ بَعْضَ الْجِسْمِ حَيَوَانٌ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ كُلَّ جِسْمٍ حَيَوَانٌ، وَلَا يَغُرَّنَّكَ إِمْكَانُ وَصْفِ كُلِّ حَيَوَانٍ بِأَنَّهُ جِسْمٌ فَإِنَّ وَصْفَ كُلِّ وَصْفٍ بِالْآخَرِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ ضَرُورِيًّا فِي كُلِّ حَالٍ، لَمْ تَكُنِ الْمَعْرِفَةُ الْحَاصِلَةُ بِهِ ضَرُورِيَّةً.

ثُمَّ قَالَ الرَّفِيقُ: قَدْ فَهِمْتُ هَذِهِ الْمَوَازِينَ الثَّلَاثَةَ وَلَكِنْ لِمَ خَصَّصْتَ الْأَوَّلَ بِاسْمِ الْأَكْبَرِ وَالثَّانِي بِالْأَوْسَطِ وَالثَّالِثَ بِالْأَصْغَرِ؟ قُلْتُ: لِأَنَّ الْأَكْبَرَ هُوَ الَّذِي يَتَّسِعُ لِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، وَالْأَصْغَرَ خِلَافُهُ، وَالْأَوْسَطَ بَيْنَهُمَا

وَالْمِيزَانُ الْأَوَّلُ أَوْسَعُ الْمَوَازِينِ إِذْ يُمْكِنُ أَنْ تُسْتَفَادَ مِنْهُ الْمَعْرِفَةُ بِالْإِثْبَاتِ الْعَامِّ وَالْإِثْبَاتِ الْخَاصِّ وَالنَّفْيِ الْعَامِّ وَالنَّفْيِ الْخَاصِّ ، فَقَدْ أَمْكَنَ أَنْ يُوزَنَ بِهِ أَرْبَعَةُ أَجْنَاسٍ مِنَ الْمَعَارِفِ ، وَأَمَّا الثَّانِي فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوزَنَ بِهِ إِلَّا النَّفْيُ وَلَكِنْ يُوزَنُ بِهِ النَّفْيُ الْعَامُّ وَالْخَاصُّ جَمِيعاً . وَأَمَّا الثَّالِثُ فَلَا يُوزَنُ بِهِ إِلَّا الْخَاصُّ ، كَمَا ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ بَعْضَ أَحَدِ الْوَصْفَيْنِ يُوصَفُ بِهِ الْآخَرُ لِاجْتِمَاعِهِمَا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ ، وَمَا لَا يَتَّسِعُ إِلَّا لِلْحُكْمِ الْوَاحِدِ الْجُزْئِيِّ فَهُوَ أَصْغَرُ لَا مَحَالَةَ . نَعَمْ وَزْنُ الْحُكْمِ الْعَامِّ بِهِ مِنْ مَوَازِينِ الشَّيْطَانِ وَقَدْ وَزَنَ بِهِ أَهْلُ التَّعْلِيمِ بَعْضَ مَعَارِفِهِمْ ، وَأَلْقَاهُ فِي أُمْنِيَّةِ الْخَلِيلِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - فِي قَوْلِهِ : هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ . وَسَأَتْلُو عَلَيْكَ قِصَّتَهُ بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ .

***

(ٱلْقَوْلُ فِى مِيزَانِ ٱلتَّلَازُمِ [1])

ميزان التلازم

قَالَ : فَاشْرَحْ لِى مِيزَانَ ٱلتَّلَازُمِ فَقَدْ فَهِمْتُ ٱلْأَقْسَامَ ٱلثَّلَاثَةَ مِنْ مَوَازِينِ ٱلتَّعَادُلِ ، قُلْتُ هَذَا ٱلْمِيزَانُ مُسْتَفَادٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا » وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى « قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا » . وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: « لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَاوَرَدُوهَا » وَتَحْقِيقُ صُورَةِ هَذَا ٱلْمِيزَانِ أَنْ تَقُولَ : لَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ إِلٰهَانِ لَفَسَدَ ، فَهَذَا أَصْلٌ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَفْسُدْ ، وَهَذَا أَصْلٌ آخَرُ . فَيَلْزَمُ عَنْهُمَا نَتِيجَةٌ ضَرُورِيَّةٌ وَهِىَ نَفْىُ أَحَدِ ٱلْإِلٰهَيْنِ ، وَلَوْ كَانَ مَعَ ذِى ٱلْعَرْشِ آلِهَةٌ لَابْتَغَوْا إِلَى ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ لَمْ يَبْتَغُوا ، فَيَلْزَمُ نَفْىُ آلِهَةٍ سِوَى ذِى ٱلْعَرْشِ . وَأَمَّا عِيَارُ هَذَا ٱلْمِيزَانِ بِالصَّنْجَةِ ٱلْمَعْلُومَةِ

---

(١) التلازم : هو أن يلزم من وجود الشىء وجود شىء آخر

فَقَوْلُكَ : إِنْ كَانَتِ الشَّمْسُ طَالِعَةً فَالْكَوَاكِبُ خَفِيَّةٌ .
وَهَذَا يُعْلَمُ بِالتَّجْرِبَةِ ، ثُمَّ تَقُولُ : وَمَعْلُومٌ أَنَّ الشَّمْسَ
طَالِعَةٌ وَهَذَا يُعْلَمُ بِالْحِسِّ ، فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ الْكَوَاكِبَ
خَفِيَّةٌ ، وَتَقُولُ : إِنْ لَمْ يَأْكُلْ فُلَانٌ فَهُوَ شَبْعَانُ وَهَذَا يُعْلَمُ
بِالتَّجْرِبَةِ ، ثُمَّ تَقُولُ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ أَكَلَ وَهَذَا يُعْلَمُ بِالْحِسِّ ،
فَيَلْزَمُ مِنَ الْأَصْلِ التَّجْرِيبِيِّ وَالْأَصْلِ الْحِسِّيِّ بِالضَّرُورَةِ
أَنَّهُ غَيْرُ شَبْعَانَ . وَأَمَّا مَوْضِعُ اسْتِعْمَالِهِ فِي الْغَوَامِضِ
فَكَثِيرٌ حَتَّى يَقُولَ الْفَقِيهُ : إِنْ كَانَ بَيْعُ الْغَائِبِ صَحِيحًا
فَيَلْزَمُ بِتَصْرِيحِ الْإِلْزَامِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ بِتَصْرِيحِ
الْإِلْزَامِ فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ لَيْسَ بِصَحِيحٍ ، وَيُعْلَمُ الْأَصْلُ
الْأَوَّلُ بِالِاسْتِقْرَاءِ الشَّرْعِيِّ الْمُفِيدِ لِلظَّنِّ وَإِنْ لَمْ يُفِدِ الْعِلْمَ ،
وَالثَّانِي بِتَسْلِيمِ الْخَصْمِ وَمُسَاعَدَتِهِ . وَنَقُولُ فِي النَّظَرِيَّاتِ :
إِنْ كَانَ صَنْعَةُ الْعَالَمِ وَتَرْكِيبُ الْآدَمِيِّ مُرَتَّبًا عَجِيبًا
مُحْكَمًا فَصَانِعُهُ عَالِمٌ وَهَذَا فِي الْعَقْلِ أَوْلَى ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ
عَجِيبٌ مُرَتَّبٌ وَهَذَا مُدْرَكٌ بِالْعِيَانِ فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ صَانِعَهُ

عَالِمٌ ثُمَّ نَتَرَقَّى فَنَقُولُ : إِنْ كَانَ صَانِعُهُ عَالِمًا فَهُوَ حَيٌّ وَمَعْلُومٌ بِالْمِيزَانِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ عَالِمٌ فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ حَيٌّ ، ثُمَّ نَقُولُ : إِنْ كَانَ حَيًّا عَالِمًا فَهُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَلَيْسَ بِعَرَضٍ ، وَمَعْلُومٌ بِالْمِيزَانَيْنِ السَّابِقَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ أَنَّهُ حَيٌّ عَالِمٌ ، فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ ، وَكَذَلِكَ تَعْرُجُ مِنْ صِفَةِ تَرْكِيبِ الْآدَمِيِّ إِلَى صِفَةِ صَانِعِهِ وَهُوَ الْعِلْمُ ثُمَّ تَعْرُجُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَى الْحَيَاةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الذَّاتِ ، وَهَذَا هُوَ الْمِعْرَاجُ الرُّوحَانِيُّ ، وَهَذِهِ الْمَوَازِينُ سَلَالِيمُ الْعُرُوجِ إِلَى السَّمَاءِ ، ثُمَّ إِلَى خَالِقِ السَّمَاءِ ، وَهَذِهِ الْأُصُولُ دَرَجَاتُ السَّلَالِيمِ - وَأَمَّا الْمِعْرَاجُ الْجِسْمَانِيُّ فَلَا تَفِي بِهِ كُلُّ قُوَّةٍ بَلْ يَخْتَصُّ ذَلِكَ بِقُوَّةِ النُّبُوَّةِ - وَأَمَّا حَدُّ هَذَا الْمِيزَانِ ، فَإِنَّ كُلَّ مَا هُوَ لَازِمٌ لِلشَّيْءِ فَهُوَ تَابِعٌ لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ ، فَنَفْيُ اللَّازِمِ يُوجِبُ بِالضَّرُورَةِ نَفْيَ الْمَلْزُومِ ، وَوُجُودُ الْمَلْزُومِ يُوجِبُ بِالضَّرُورَةِ وُجُودَ اللَّازِمِ - أَمَّا نَفْيُ الْمَلْزُومِ وَوُجُودُ اللَّازِمِ فَلَا نَتِيجَةَ لَهُمَا ، بَلْ هُمَا مِنْ

مَوَازِينِ الشَّيْطَانِ وَقَدْ يَزِنُ بِهِ بَعْضُ أَهْلِ التَّعْلِيمِ مَعْرِفَتَهُ أَمَا تَرَى أَنَّ صِحَّةَ الصَّلَاةِ يَلْزَمُهَا لَا مَحَالَةَ كَوْنُ الْمُصَلِّي مُتَطَهِّرًا ، فَلَا جَرَمَ يَصِحُّ أَنْ تَقُولَ : إِنْ كَانَتْ صَلَاةُ زَيْدٍ صَحِيحَةً ، فَهُوَ مُتَطَهِّرٌ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَطَهِّرٍ ، وَهُوَ نَفْيُ اللَّازِمِ ، فَلَزِمَ مِنْهُ أَنَّ صَلَاتَهُ غَيْرُ صَحِيحَةٍ ، وَهُوَ نَفْيُ الْمَلْزُومِ ، وَكَذَلِكَ إِنْ قُلْتَ : وَمَعْلُومٌ أَنَّ صَلَاتَهُ صَحِيحَةٌ وَهَذَا وُجُودُ الْمَلْزُومِ ، فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ مُتَطَهِّرٌ وَهُوَ وُجُودُ اللَّازِمِ . أَمَّا إِنْ قُلْتَ : وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ مُتَطَهِّرٌ فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ صَلَاتَهُ صَحِيحَةٌ فَهَذَا خَطَأٌ ، لِأَنَّهُ رُبَّمَا بَطَلَتْ صَلَاتُهُ بِعِلَّةٍ أُخْرَى فَهَذَا وُجُودُ اللَّازِمِ وَلَمْ يَدُلَّ عَلَى وُجُودِ الْمَلْزُومِ ، وَكَذَلِكَ إِنْ قُلْتَ : وَمَعْلُومٌ أَنَّ صَلَاتَهُ لَيْسَتْ بِصَحِيحَةٍ فَهُوَ إِذَا كَانَ غَيْرَ مُتَطَهِّرٍ وَهَذَا خَطَأٌ غَيْرُ لَازِمٍ ، لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَدَمُ صِحَّةِ الصَّلَاةِ لِفِقْدَانِ شَرْطٍ آخَرَ سِوَى الطَّهَارَةِ . فَهَذَا نَفْيُ الْمَلْزُومِ وَلَمْ يَدُلَّ عَلَى نَفْيِ اللَّازِمِ .

***

(ٱلْقَوْلُ فِي مِيزَانِ ٱلتَّعَانُدِ)

ميزان التعاند

ثُمَّ قَالَ : ٱشْرَحْ لِي مِيزَانَ ٱلتَّعَانُدِ وَٱذْكُرْ لِي مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَوْضِعَهُ وَعِيَارَهُ وَمَحَلَّ ٱسْتِعْمَالِهِ . قُلْتُ أَمَّا مَوْضِعُهُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي تَعْلِيمِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ قَوْلَهُ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ فِي مَعْرِضِ ٱلتَّسْوِيَةِ وَٱلتَّشْكِيكِ بَلْ فِيهِ إِضْمَارُ أَصْلٍ آخَرَ وَهُوَ لَسْنَا عَلَى ضَلَالٍ فِي قَوْلِنَا : إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ فَإِنَّهُ ٱلَّذِي يَرْزُقُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِإِنْزَالِ ٱلْمَاءِ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ بِإِنْبَاتِ ٱلنَّبَاتِ ، فَإِذَا أَنْتُمْ ضَالُّونَ بِإِنْكَارِ ذَلِكَ . وَكَمَالُ صُورَةِ هَذَا ٱلْمِيزَانِ ، إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى ضَلَالٍ مُبِينٍ وَهَذَا أَصْلٌ . ثُمَّ نَقُولُ : وَمَعْلُومٌ أَنَّا لَسْنَا فِي ضَلَالٍ ، وَهَذَا أَصْلٌ آخَرُ فَيَلْزَمُ مِنْ ٱزْدِوَاجِهِمَا

نَتِيجَةٌ ضَرُورِيَّةٌ وَهُوَ أَنَّكُمْ فِي ضَلَالٍ . وَأَمَّا عِيَارُهُ مِنَ الصَّنْجَاتِ الْمَعْرُوفَةِ فَهُوَ إِنَّ مَنْ دَخَلَ دَارًا لَيْسَ فِيهَا إِلَّا بَيْتَانِ ثُمَّ دَخَلْنَا أَحَدَهُمَا فَلَمْ نَرَهُ فِيهِ فَنَعْلَمُ عِلْمًا ضَرُورِيًّا أَنَّهُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي . وَهَذَا الِازْدِوَاجُ مِنْ أَصْلَيْنِ أَحَدُهُمَا قَوْلُهُ : إِنَّهُ فِي أَحَدِ الْبَيْتَيْنِ قَطْعًا ، وَالثَّانِي أَنَّهُ لَيْسَ فِي هَذَا الْبَيْتِ أَصْلًا ، فَيَلْزَمُ مِنْهُمَا أَنَّهُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي فَإِذًا نَعْلَمُ أَنَّهُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي ، فَإِذَا نَعْلَمُ كَوْنَهُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي تَارَةً بِأَنْ نَرَاهُ فِيهِ ، وَتَارَةً بِأَنْ نَرَى الْبَيْتَ الْأَوَّلَ خَالِيًا عَنْهُ فَإِنْ عَلِمْنَاهُ بِرُؤْيَتِنَا إِيَّاهُ فِي الثَّانِي كَانَ عِلْمًا عِيَانِيًا ، وَإِنْ عَرَفْنَاهُ بِأَنْ لَمْ نَرَهُ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ كَانَ هَذَا عِلْمًا مِيزَانِيًا ، وَيَكُونُ هَذَا الْعِلْمُ الْمِيزَانِيُّ قَطْعِيًّا كَالْعِيَانِ . وَأَمَّا حَدُّ هَذَا الْمِيزَانِ فَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَا انْحَصَرَ فِي قِسْمَيْنِ فَيَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ أَحَدِهِمَا نَفْيُ الْآخَرِ وَمِنْ نَفْيِ أَحَدِهِمَا ثُبُوتُ الْآخَرِ وَلَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ تَكُونَ الْقِسْمَةُ مُنْحَصِرَةً لَا مُنْتَشِرَةً ، فَالْوَزْنُ بِالْقِسْمَةِ الْمُنْتَشِرَةِ وَزْنُ الشَّيْطَانِ ، وَبِهِ

وَزَنَ بَعْضُ أَهْلِ التَّعْلِيمِ كَلَامَهُمْ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ ذَكَرْنَاهَا فِي الْقَوَاصِمِ، وَفِي جَوَابِ مُفَصِّلِ الْخِلَافِ وَالْكِتَابِ الْمُسْتَظْهِرِيِّ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْكُتُبِ الْمُسْتَعْمَلَةِ. وَأَمَّا مَوْضِعُ اسْتِعْمَالِ هَذَا مِنَ الْغَوَامِضِ فَلَا يَنْحَصِرُ، وَلَعَلَّ أَكْثَرَ النَّظَرِيَّاتِ تَدُورُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ مَنْ أَنْكَرَ مَوْجُوداً قَدِيمًا فَنَقُولُ لَهُ الْمَوْجُودَاتُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ كُلُّهَا حَادِثَةً أَوْ بَعْضُهَا حَادِثٌ وَبَعْضُهَا قَدِيمٌ، وَهَذَا حَاصِرٌ لِأَنَّهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ دَائِرٌ. ثُمَّ نَقُولُ: وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّهَا لَيْسَتْ بِحَادِثَةٍ فَيَلْزَمُ أَنَّ فِيهَا قَدِيمًا. فَإِنْ قِيلَ فَلِمَ قِيلَ إِنَّ كُلَّهَا لَيْسَتْ حَادِثَةً، فَنَقُولُ: لِأَنَّ كُلَّهَا لَوْ كَانَتْ حَادِثَةً لَكَانَ حُدُوثُهَا بِأَنْفُسِهَا مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ فَبَطَلَ أَنْ تَكُونَ كُلُّهَا حَادِثَةً فَثَبَتَ أَنَّ فِيهَا مَوْجُودًا قَدِيمًا.

وَنَظَائِرُ اسْتِعْمَالِ هَذَا الْمِيزَانِ لَا تَنْحَصِرُ، فَقَالَ: قَدْ فَهِمْتُ بِالْحَقِيقَةِ صِدْقَ هَذِهِ الْمَوَازِينِ الْخَمْسَةِ وَلَكِنْ أَشْتَهِي أَنْ أَعْرِفَ مَعْنَى أَلْقَابِهَا وَلِمَ خَصَّصْتَ الْأَوَّلَ بِأَنَّهُ

مِيزَانُ ٱلتَّعَادُلِ وَٱلثَّانِي بِٱلتَّلَازُمِ وَٱلثَّالِثَ بِٱلتَّعَانُدِ قُلْتُ : سَمَّيْتُ ٱلْأَوَّلَ مِيزَانَ ٱلتَّعَادُلِ لِأَنَّ فِيهِ أَصْلَيْنِ مُتَعَادِلَيْنِ كَأَنَّهُمَا كِفَّتَانِ مُتَحَاذِيَتَانِ ، وَسَمَّيْتُ ٱلثَّانِيَ مِيزَانَ ٱلتَّلَازُمِ لِأَنَّ أَحَدَ ٱلْأَصْلَيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى جُزْأَيْنِ أَحَدُهُمَا لَازِمٌ وَٱلْآخَرُ مَلْزُومٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا » فَإِنَّ قَوْلَهُ لَفَسَدَتَا لَازِمٌ وَٱلْمَلْزُومُ قَوْلُهُ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ ، وَلَزِمَتْ ٱلنَّتِيجَةُ مِنْ نَفْيِ ٱللَّازِمِ . وَسَمَّيْتُ ٱلثَّالِثَ مِيزَانَ ٱلتَّعَانُدِ لِأَنَّهُ رَجَعَ إِلَى حَصْرِ قِسْمَيْنِ بَيْنَ ٱلنَّفْيِ وَٱلْإِثْبَاتِ يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ أَحَدِهِمَا نَفْيُ ٱلْآخَرِ وَمِنْ نَفْيِ أَحَدِهِمَا ثُبُوتُ ٱلْآخَرِ فَبَيْنَ ٱلْقِسْمَيْنِ تَعَانُدٌ وَتَضَادٌّ فَقَالَ : هَذِهِ ٱلْأَسَامِي أَنْتَ ٱبْتَدَعْتَهَا وَهَذِهِ ٱلْمَوَازِينُ أَنْتَ ٱنْفَرَدْتَ بِٱسْتِخْرَاجِهَا أَمْ سُبِقْتَ إِلَيْهَا ؟ قُلْتُ : أَمَّا هَذِهِ ٱلْأَسَامِي فَإِنِّي ٱبْتَدَعْتُهَا وَأَمَّا ٱلْمَوَازِينُ فَأَنَا ٱسْتَخْرَجْتُهَا مِنَ ٱلْقُرْآنِ وَمَا عِنْدِي أَنِّي سُبِقْتُ إِلَى ٱسْتِخْرَاجِهَا مِنَ ٱلْقُرْآنِ لَكِنَّ أَصْلَ

ٱلْمَوَازِينِ قَدْ سُبِقَتْ إِلَى ٱسْتِخْرَاجِهَا وَلَهَا عِنْدَ مُسْتَخْرِجِهَا مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ أَسْمَاءٌ أُخَرُ سِوَى مَاذَكَرْتُهُ ، وَعِنْدَ بَعْضِ ٱلْأُمَمِ ٱلسَّابِقَةِ عَلَى بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ وَعِيسَى - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ - أَسَامٍ أُخَرُ كَانُوا قَدْ تَعَلَّمُوهَا مِنْ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى - عَلَيْهِمَا ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - وَلَكِنْ بَعَثَنِي عَلَى إِبْدَالِ كُسْوَتِهَا بِأَسَامٍ أُخَرَ غَيْرَ مَا سَمَّوْهَا بِهِ مَا عَرَفْتُ مِنْ ضَعْفِ قَرِيحَتِكَ وَطَاعَةِ نَفْسِكَ إِلَى ٱلْأَوْهَامِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُكَ مِنَ ٱلِاغْتِرَارِ بِالظَّوَاهِرِ بِحَيْثُ لَوْ سُقِيتَ عَسَلًا أَحْمَرَ فِي قَارُورَةِ حَجَّامٍ لَمْ تُطِقْ تَنَاوُلَهُ لِنُفُورِ طَبْعِكَ عَنِ ٱلْمِحْجَمَةِ ، وَضَعْفِ عَقْلِكَ عَنْ أَنْ يُعَرِّفَكَ أَنَّ ٱلْعَسَلَ طَاهِرٌ فِي أَيِّ زُجَاجَةٍ كَانَ ، بَلْ تَرَى ٱلتُّرْكِيَّ يَلْبَسُ ٱلْمُرَقَّعَةَ وَٱلدُّرَّاعَةَ فَتَحْكُمُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ صُوفِيٌّ أَوْ فَقِيهٌ ، وَلَوْ لَبِسَ ٱلصُّوفِيُّ ٱلْقَبَاءَ وَٱلْقَلَنْسُوَةَ حَكَمَ عَلَيْهِ وَهْمُكَ بِأَنَّهُ تُرْكِيٌّ ، فَأَبَدًا يَتَحَرَّكُ وَهْمُكَ إِلَى مُلَاحَظَةِ غِلَافِ ٱلْأَشْيَاءِ دُونَ ٱللُّبَابِ وَكَذَلِكَ لَا تَنْظُرُ إِلَى ٱلْقَوْلِ مِنْ نَفْسِ ٱلْقَوْلِ

وَذَاتِهِ بَلْ مِنْ حُسْنِ صَنْعَتِهِ أَوْ حُسْنِ ظَنِّكَ بِقَائِلِهِ ، فَإِذَا كَانَتْ عِبَارَتُهُ مُسْتَكْرَهَةً عِنْدَكَ أَوْ قَائِلُهُ قَبِيحَ الْحَالِ فِي اعْتِقَادِكَ رَدَدْتَ الْقَوْلَ ، وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ حَسَنًا وَحَقًّا فَلَوْ قِيلَ لَكَ : قُلْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ عِيسَى رَسُولُ اللّٰهِ ، نَفَرَ عَنْ ذَلِكَ ، طَبْعُكَ وَقُلْتَ : هَذَا قَوْلُ النَّصَارَى فَكَيْفَ أَقُولُهُ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ مِنَ الْعَقْلِ مَا تَعْرِفُ بِهِ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ فِي نَفْسِهِ حَقٌّ ، وَأَنَّ النَّصْرَانِيَّ مَا مُقِتَ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَلَا لِسَائِرِ الْكَلِمَاتِ بَلْ لِكَلِمَتَيْنِ فَقَطْ إِحْدَاهُمَا قَوْلُهُ : اللّٰهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ . وَالثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : مُحَمَّدٌ لَيْسَ بِرَسُولِ اللّٰهِ وَسَائِرُ أَقْوَالِهِ وَرَاءَ ذَلِكَ حَقٌّ ، فَلَمَّا رَأَيْتُكَ وَرَأَيْتُ رُفَقَاءَكَ مِنْ أَهْلِ التَّعْلِيمِ ضُعَفَاءَ الْعُقُولِ لَا تَخْدَعُهُمْ إِلَّا الظَّوَاهِرُ نَزَلْتُ إِلَى حَدِّكَ فَسَقَيْتُكَ الدَّوَاءَ فِي كُوزِ الْمَاءِ وَسُقْتُكَ بِهِ إِلَى الشِّفَاءِ وَتَلَطَّفْتُ بِكَ تَلَطُّفَ الطَّبِيبِ بِمَرِيضٍ ، وَلَوْ ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّهُ دَوَاءٌ وَعَرَضْتُهُ فِي قَدَحِ الدَّوَاءِ لَكَانَ يَشْمَئِزُّ عَنْ قَبُولِهِ طَبْعُكَ ، وَلَوْ قَبِلْتَهُ لَكُنْتَ تَتَجَرَّعُهُ وَلَا تَكَادُ

تُسِيغُهُ ، فَهَذَا غَرَضِى فِى إِبْدَالِ تِلْكَ ٱلْأَسَامِى وَإِبْدَاعِ هَذِهِ يَعْرِفُهُ مَنْ يَعْرِفُهُ وَيَجْهَلُهُ مَنْ يَجْهَلُهُ وَيُنْكِرُهُ مَنْ يُنْكِرُهُ .فَقَالَ : لَقَدْ فَهِمْتُ هَذَا كُلَّهُ وَلَكِنْ أَيْنَ مَا كُنْتَ وَعَدْتَّ بِهِ مِنْ أَنَّ هَذَا ٱلْمِيزَانَ لَهُ كِفَّتَانِ وَعَمُودٌ وَاحِدٌ تَتَعَلَّقُ بِهِ ٱلْكِفَّتَانِ جَمِيعًا .

وَلَسْتُ أَرَى فِى هَذَا ٱلْمِيزَانِ ٱلْكِفَّةَ وَٱلْعَمُودَ وَأَيْنَ مَا ذَكَرْتَهُ مِنَ ٱلْمَوَازِينِ ٱلَّتِى هِىَ أَشْبَهُ بِالْقَبَّانِ قُلْتُ : هَذِهِ ٱلْمَعَارِفُ ٱلسِّتُّ قَدْ ٱسْتَفَدْتُّهَا مِنْ أَصْلَيْنِ فَكُلُّ أَصْلٍ كِفَّةٌ وَٱلْجُزْءُ ٱلْمُشْتَرَكُ بَيْنَ ٱلْأَصْلَيْنِ ٱلدَّاخِلُ فِيهَا عَمُودٌ وَأَضْرِبْ لَكَ مَثَلًا مِنَ ٱلْفِقْهِيَّاتِ فَلَعَلَّهُ أَقْرَبُ إِلَى فَهْمِكَ فَأَقُولُ : قَوْلُنَا كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ كِفَّةٌ وَقَوْلُنَا كُلُّ نَبِيذٍ مُسْكِرٌ كِفَّةٌ أُخْرَى وَٱلنَّتِيجَةُ أَنَّ كُلَّ نَبِيذٍ حَرَامٌ فَهَاهُنَا فِى ٱلْأَصْلَيْنِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ فَقَطْ : ٱلنَّبِيذُ وَٱلْمُسْكِرُ وَٱلْحَرَامُ .

أَمَّا ٱلنَّبِيذُ فَإِنَّهُ يُوجَدُ فِى أَحَدِ ٱلْأَصْلَيْنِ فَقَطْ فَهُوَ كِفَّةٌ

وَأَمَّا ٱلْحَرَامُ فَيُوجَدُ فِى ٱلْأَصْلِ ٱلثَّانِى فَقَطْ فَهُوَ ٱلْكِفَّةُ ٱلثَّانِيَةُ .

وَأَمَّا ٱلْمُسْكِرُ فَمَذْكُورٌ فِى ٱلْأَصْلَيْنِ جَمِيعًا وَهُوَ مُكَرَّرٌ فِيهِمَا مُشْتَرَكٌ بَيْنَهُمَا فَهُوَ ٱلْعَمُودُ وَٱلْكِفَّتَانِ مُتَعَلِّقَتَانِ بِهِ إِذْ يَتَعَلَّقُ بِهِ أَحَدُهُمَا تَعَلُّقَ ٱلْمَوْصُوفُ بِالصِّفَةِ ،وَهُوَ قَوْلُكَ: كُلُّ نَبِيذٍ مُسْكِرٌ فَإِنَّ ٱلنَّبِيذَ مَوْصُوفٌ بِٱلْمُسْكِرِ وَٱلْآخَرُ مُتَعَلَّقٌ بِهِ تَعَلُّقَ ٱلصِّفَةِ بِالْمَوْصُوفِ وَهُوَ قَوْلُكَ: وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ حَتَّى تَعْرِفَ فَإِنَّ فَسَادَ هَذَا ٱلْمِيزَانِ تَارَةً يَكُونُ مِنَ ٱلْكِفَّةِ وَتَارَةً يَكُونُ مِنَ ٱلْعَمُودِ وَتَارَةً يَكُونُ مِنْ تَعَلُّقِ ٱلْكِفَّةِ بِالْعَمُودِ عَلَى مَا أُنَبِّهُكَ عَلَى رَمْزٍ يَسِيرٍ مِنْهُ فِى مِيزَانِ ٱلشَّيْطَانِ .

***

ميزان التلازم

وَأَمَّا ٱلْمُشَبَّهُ بِالْقَبَّانِ فَهُوَ مِيزَانُ ٱلتَّلَازُمِ إِذْ أَحَدُ طَرَفَيْهِ أَطْوَلُ مِنَ ٱلْآخَرِ كَثِيرًا فَإِنَّكَ تَقُولُ لَوْ كَانَ بَيْعُ ٱلْغَائِبِ صَحِيحًا لَلَزِمَ بِصَرِيحِ ٱلْإِلْزَامِ وَهَذَا أَصْلٌ طَوِيلٌ

مُشْتَمِلٌ عَلَى جُزْأَيْنِ لَازِمٍ وَمَلْزُومٍ، وَالثَّانِي وَهُوَ قَوْلُكَ: وَلَيْسَ يَلْزَمُ بِصَرِيحِ الْإِلْزَامِ وَهَذَا أَصْلٌ آخَرُ أَقْصَرُ مِنْهُ فَكَانَ أَشْبَهَ بِالرُّمَانَةِ الْقَصِيرَةِ الْمُقَابِلَةِ لِكَفَّةِ الْقَبَّانِ.

***

ميزان التعادل

وَأَمَّا مِيزَانُ التَّعَادُلِ فَتَتَعَادَلُ فِيهِ كِفَّتَانِ لَيْسَتْ إِحْدَاهُمَا أَطْوَلَ مِنَ الْأُخْرَى بَلْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَشْتَمِلُ عَلَى صِفَةٍ وَمَوْصُوفٍ فَقَطْ فَافْهَمْ؛ هَذَا مَعَ مَاعَرَّفْتُكَ مِنْ أَنَّ الْمِيزَانَ الرُّوحَانِيَّ لَا يَكُونُ كَالْمِيزَانِ الْجُسْمَانِيِّ بَلْ يُنَاسِبُهُ مُنَاسَبَةً مَّا وَلِذَلِكَ يُمْكِنُ تَشْبِيهُهُ بِتَوَلُّدِ النَّتِيجَةِ مِنَ ازْدِوَاجِ الْأَصْلَيْنِ إِذْ يَجِبُ أَنْ يَدْخُلَ شَيْءٌ مِنْ أَحَدِ الْأَصْلَيْنِ فِي الْآخَرِ وَهُوَ الْمُنْكَرُ الْمَوْجُودُ فِي الْأَصْلَيْنِ حَتَّى تَتَوَلَّدُ النَّتِيجَةُ، فَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ جُزْءٌ مِنْ أَحَدِ الْأَصْلَيْنِ فِي آخَرَ لَمْ تَتَوَلَّدْ نَتِيجَةٌ، كَمَا لَمْ تَتَوَلَّدْ مِنْ قَوْلِكَ كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ وَكُلُّ مَغْصُوبٍ مَضْمُونٌ نَتِيجَةٌ أَصْلًا وَهُمَا أَصْلَانِ لَكِنْ لَمْ يَجْرِ بَيْنَهُمَا نِكَاحٌ وَازْدِوَاجٌ إِذْ لَيْسَ يَدْخُلُ جُزْءٌ مِنْ أَحَدِهِمَا فِي الْآخَرِ، وَإِنَّمَا النَّتِيجَةُ تَتَوَلَّدُ

مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْمُشْتَرَكِ ٱلدَّاخِلِ مِنْ أَحَدِهِمَا فِى ٱلْآخَرِ وَهُوَ ٱلَّذِى سَمَّيْنَاهُ عَمُودَ ٱلْمِيزَانِ، وَلَوْ فُتِحَ بَابُ ٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ ٱلْمَحْسُوسِ وَٱلْمَعْقُولِ لَانْفَتَحَ لَكَ بَابٌ عَظِيمٌ فِى مَعْرِفَةِ ٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ عَالَمِ ٱلْمُلْكِ وَٱلْمَلَكُوتِ، وَبَيْنَ عَالَمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ وَتَحْتَهُ أَسْرَارٌ عَظِيمَةٌ، مَنْ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهَا حُرِمَ ٱلِاقْتِبَاسَ مِنْ أَنْوَارِ ٱلْقُرْآنِ وَٱلتَّعَلُّمَ مِنْهُ وَلَمْ يُحِطْ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِٱلْقُشُورِ، فَكَمَا أَنَّ فِى ٱلْقُرْآنِ مَوَازِينَ كُلِّ ٱلْعُلُومِ فَكَذَلِكَ فِيهِ مَفَاتِيحُ كُلِّ ٱلْعُلُومِ كَمَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فِى كِتَابِ جَوَاهِرِ ٱلْقُرْآنِ فَاطْلُبْهُ مِنْهُ. وَلَيْسَتْ ٱلْمُوَازَنَةُ بَيْنَ عَالَمِ ٱلْمُلْكِ وَٱلْمَلَكُوتِ وَعَالَمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ إِلَّا بِمَا يَتَجَلَّى بَعْضُهُ فِى ٱلْمَنَامِ مِنَ ٱلْحَقَائِقِ ٱلْمَعْنَوِيَّةِ فِى ٱلْأَمْثِلَةِ ٱلْخَيَالِيَّةِ لِأَنَّ ٱلرُّؤْيَا جُزْءٌ مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ وَفِى عَالَمِ ٱلنُّبُوَّةِ يَتَجَلَّى تَمَامُ ٱلْمُلْكِ وَٱلْمَلَكُوتِ، وَمِثَالُهُ مِنَ ٱلنَّوْمِ رَجُلٌ رَأَى فِى مَنَامِهِ كَأَنَّ فِى يَدِهِ خَاتَمًا يَخْتِمُ بِهِ أَفْوَاهَ ٱلرِّجَالِ وَفُرُوجَ ٱلنِّسَاءِ فَقَصَّ رُؤْيَاهُ عَلَى ٱبْنِ سِيرِينَ فَقَالَ: إِنَّكَ

مُؤَذِّنٌ تُؤَذِّنُ فِي رَمَضَانَ قَبْلَ الصُّبْحِ . فَقَالَ هُوَ كَذَلِكَ فَانْظُرْ الْآنَ لِمَ تَجَلَّى لَهُ حَالُهُ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ فِي هَذَا الْمِثَالِ وَاطْلُبْ الْمُوَازَنَةَ بَيْنَ هَذَا الْمِثَالِ وَالْأَذَانِ قَبْلَ الصُّبْحِ فِي رَمَضَانَ ، وَرُبَّمَا يَرَى هَذَا الْمُؤَذِّنُ نَفْسَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِي يَدِهِ خَاتَمٌ مِنْ نَارٍ وَيُقَالُ لَهُ هَذَا هُوَ الْخَاتَمُ الَّذِي كُنْتَ تَخْتِمُ بِهِ أَفْوَاهَ الرِّجَالِ وَفُرُوجَ النِّسَاءِ. فَيَقُولُ: وَاللهِ مَا فَعَلْتُ هَذَا، فَيُقَالُ: نَعَمْ كُنْتَ تَفْعَلُهُ وَلَكِنْ تَجْهَلُهُ لِأَنَّ هَذَا رُوحُ فِعْلِكَ وَلَا تَتَجَلَّى حَقَائِقُ الْأَشْيَاءِ وَأَرْوَاحُهَا إِلَّا فِي عَالَمِ الْأَرْوَاحِ وَيَكُونُ الرُّوحُ فِي غِطَاءٍ مِنَ الصُّوَرِ فِي عَالَمِ التَّلْبِيسِ عَالَمِ الْحِسِّ وَالْخَيَالِ ، وَالْآنَ قَدْ كَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ، وَكَذَلِكَ يَفْتَضِحُ كُلُّ مَنْ تَرَكَ حَدًّا مِنْ حُدُودِ الشَّرْعِ وَإِنْ أَرَدْتَ لَهُ حَقِيقَةً فَاطْلُبْهُ مِنْ بَابِ حَقِيقَةِ الْمَوْتِ فِي الْإِحْيَاءِ أَوْ مِنْ كِتَابِ جَوَاهِرِ الْقُرْآنِ فَتَرَى فِيهِ الْعَجَائِبَ وَأَطِلِ التَّأَمُّلَ فِيهِ فَعَسَاكَ يَنْفَتِحُ لَكَ بَابُ رُؤْيَةٍ إِلَى عَالَمِ الْمَلَكُوتِ تَسْتَرِقُ مِنْهَا

ٱلسَّمْعَ فَإِنِّى مَا أَرَاكَ يَنْفَتِحُ لَكَ بَابُهَا . وَأَنْتَ إِنَّمَا تَنْتَظِرُ مَعْرِفَةَ ٱلْحَقَائِقِ مِنْ مُعَلِّمٍ غَائِبٍ لَا تَرَاهُ وَلَوْ رَأَيْتَهُ لَوَجَدْتَهُ أَضْعَفَ مِنْكَ فِى ٱلْمَعْرِفَةِ كَثِيرًا فَخُذْهَا مِمَّنْ سَافَرَ وَتَعَرَّفَ وَبَحَثَ فَعَلَى ٱلْخَبِيرِ سَقَطَتَ فَتَنَبَّهْ . فَقَالَ هَذَا ٱلْآنَ حَدِيثٌ آخَرُ يَطُولُ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ٱللَّجَاجُ فِيهِ فَإِنَّ هَذَا ٱلْمُعَلِّمَ ٱلْغَائِبَ وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنْظَرَهُ فَقَدْ سَمِعْتُ خَبَرَهُ كَاللَّيْثِ إِنْ لَمْ أَرَهُ فَقَدْ رَأَيْتُ أَثَرَهُ وَلَقَدْ رَأَيْتُ وَالِدَتِى إِلَى أَنْ مَاتَتْ وَمَوْلَانَا (١) صَاحِبَ قَلْعَةِ ٱلْمَوْتِ يُثْنِيَانِ عَلَيْهِ ثَنَاءً بَالِغًا حَتَّى قَالَا إِنَّهُ ٱلْمُطَّلِعُ عَلَى كُلِّ مَا يَجْرِى فِى ٱلْعَالَمِ وَلَوْ عَلَى أَلْفِ فَرْسَخٍ أَفَأُكَذِّبُ وَالِدَتِى وَهِىَ ٱلْعَجُوزُ ٱلْعَفِيفَةُ ٱلسِّيِّرَةِ أَوْ مَوْلَانَا وَهُوَ ٱلْإِمَامُ ٱلْحَسَنُ ٱلسِّيرَةِ

جاء فى تاريخ ابن الوردى عن مولانا المذكور مايأتى :

(١) هو الحسن بن الصباح مقدم الاسماعيلية صاحب قلعة الموت وهو الذى أظهر بدعة الطائفة الاسماعيلية قال الشهرستانى: واستظهر المذكور بالرجال وتحصن بالقلاع، وكان بدء صعوده على قلعة الموت، فى شعبان سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، وهوالذى دعا الناس إلى تعيين إمام صادق، ومنع العوام من الخوض فى العلوم، ومنع الخواص عن مطالعة الكتب المتقدمة. توفى سنة ثمانى عشرة وخمسمائة

وَالسَّرِيرَةِ ؟ كَلَّا بَلْ هُمَا شَاهِدَانِ صَادِقَانِ ، كَيْفَ وَقَدْ طَابَقَهُمَا عَلَى ذَلِكَ جَمِيعُ رُفَقَائِي مِنْ أَهْلِ دَامَغَانَ وَأَصْبَهَانَ وَلَهُمُ الْأَمْرُ الْمُطَاعُ وَفِي حُكْمِهِمْ سُكَّانُ الْقِلَاعِ ، أَفَتَرَى أَنَّهُمْ مُنْخَدِعُونَ وَهُمُ الْأَذْكِيَاءُ؟أَوْ مُتَنَمِّسُونَ وَهُمُ الْأَتْقِيَاءُ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ دَعْ عَنْكَ الْغِيبَةَ فَإِنَّ مَوْلَانَا يَطَّلِعُ عَلَى مَايَجْرِي بَيْنَنَا مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ ، إِذْ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ فَأَخْشَى أَنْ أَتَعَرَّضَ لِمَقْتِهِ بِمُجَرَّدِ السَّمَاعِ وَالْإِصْغَاءِ فَاطْوِ طُومَارَ الْهَذَيَانِ ، وَارْجِعْ إِلَى حَدِيثِ الْمِيزَانِ، وَاشْرَحْ لِي مِيزَانَ الشَّيْطَانِ وَكَيْفِيَّةَ وَزْنِ أَهْلِ التَّعْلِيمِ بِهِ .

***

ميزان الشيطان

(ٱلْقَوْلُ فِى مَوَازِينِ ٱلشَّيْطَانِ)

وَ كَيْفِيَّةِ أَهْلِ ٱلتَّعْلِيمِ بِهَا

فَقُلْتُ ٱسْمَعْ ٱلْآنَ يَامِسْكِينُ شَرْحَ مِيزَانِ رُفَقَائِكَ فَإِنَّكَ بَعْدُ فِى غُلَوَائِكَ . وَٱعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مِيزَانٍ ذَكَرْتَهُ مِنْ مَوَازِينِ ٱلْقُرْآنِ فَلِلشَّيْطَانِ فِى جَانِبِهِ مِيزَانٌ مُلْصَقٌ بِهِ يُمَثِّلُهُ بِالْمِيزَانِ ٱلْحَقِّ لِيُوزَنَ بِهِ فَيَغْلَطَ لَكِنَّ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّمَا يَدْخُلُ مِنْ مَوَاقِعِ ٱلثُّلَمِ فَمَنْ سَدَّ ٱلثُّلَمَ وَأَحْكَمَهَا أَمِنَ ٱلشَّيْطَانَ .

وَمَوَاقِعُ ثُلَمِهِ عَشَرَةٌ قَدْ جَمَعْتُهَا وَشَرَحْتُهَا فِى كِتَابِ مَحَكِّ ٱلنَّظَرِ وَ كِتَابِ مِعْيَارِ ٱلْعِلْمِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ ٱلدَّقَائِقِ فِى شُرُوطِ ٱلْمِيزَانِ لَمْ أَذْكُرْهَا ٱلْآنَ لِقُصُورِ فَهْمِكَ عَنْ إِدْرَاكِهَا ، فَإِنْ أَرَدْتَ مَعَاقِدَ جُمَلِهَا أَلْفَيْتَهَا فِى كِتَابِ ٱلْمَحَكِّ ، وَإِنْ أَرَدْتَ شَرْحَ تَفَاصِيلِهَا وَجَدْتَهَا فِى كِتَابِ ٱلْمِعْيَارِ ، لَكِنْ أُقَدِّمُ ٱلْآنَ أُنْمُوذَجًا وَاحِدًا وَذَلِكَ هُوَ

ٱلَّذِى أَلْقَاهُ ٱلشَّيْطَانُ فِى خَاطِرِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْخَلِيلِ - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - إِذْ قَالَ ٱللهُ تَعَالَى « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ ٱللهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللهُ آيَاتِهِ » وَإِنَّمَا ذَلِكَ فِى مُبَادَرَتِهِ إِلَى ٱلشَّمْسِ وَقَوْلِهِ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ، لِأَجْلِ أَنَّهُ أَكْبَرُ، أَرَادَ أَنْ يَخْدَعَهُ بِهِ : وَكَيْفِيَّةُ ٱلْوَزْنِ بِهِ أَنَّ ٱلْإِلٰهَ هُوَ ٱلْأَكْبَرُ فَهَذَا أَصْلٌ مَعْلُومٌ بِالِاتِّفَاقِ وَٱلشَّمْسُ هِىَ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْكَوَاكِبِ وَهَذَا أَصْلٌ آخَرُ مَعْلُومٌ بِالْحِسِّ فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ الشَّمْسَ إِلٰهٌ وَهِىَ ٱلنَّتِيجَةُ، وَهَذَا مِيزَانٌ أَلْصَقَهُ ٱلشَّيْطَانُ بِالْمِيزَانِ ٱلْأَصْغَرِ مِنْ مَوَازِينِ ٱلتَّعَادُلِ لِأَنَّ ٱلْأَكْبَرَ وَصْفٌ وُجِدَ لِلْإِلٰهِ وَوُجِدَ لِلشَّمْسِ فَيُوهِمُ أَنَّ أَحَدَهُمَا يُوصَفُ بِالْآخَرِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْمِيزَانِ ٱلْأَصْغَرِ، وَحَدُّ ذَلِكَ ٱلْمِيزَانِ أَنْ يُوجَدَ شَيْئَانِ لِشَيْءٍ وَاحِدٍ لَا أَنْ يُوجَدَ شَىْءٌ وَاحِدٌ لِشَيْئَيْنِ فَإِنَّهُ إِنْ وُجِدَ شَيْئَانِ لِشَىْءٍ وَاحِدٍ وُصِفَ بَعْضُ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ كَمَا سَبَقَ ذِكْرُهُ . أَمَّا إِذَا وُجِدَ شَىْءٌ وَاحِدٌ لِشَيْئَيْنِ فَلَا يُوصَفُ

أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ بِالْآخَرِ ، فَانْظُرْ كَيْفَ يُلْبِسُ الشَّيْطَانُ بِالْعَكْسِ . وَعِيَارُ هَذَا الْمِيزَانِ الْبَاطِلِ مِنَ الصَّنْجَةِ الظَّاهِرَةِ الْبُطْلَانِ اللَّوْنُ فَإِنَّهُ يُوجَدُ لِلسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ جَمِيعاً ثُمَّ لَا يَلْزَمُ أَنْ يُوصَفَ الْبَيَاضُ بِالسَّوَادِ أَوِ السَّوَادُ بِالْبَيَاضِ، بَلْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الْبَيَاضُ لَوْنٌ وَالسَّوَادُ لَوْنٌ، فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ السَّوَادَ بَيَاضٌ كَانَ خَطَأً بَاطِلاً، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: الْإِلٰهُ أَكْبَرُ وَالشَّمْسُ أَكْبَرُ فَالشَّمْسُ إِلٰهٌ فَهَذَا خَطَأٌ إِذْ يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ الْمُتَضَادَّانِ بِوَصْفٍ وَاحِدٍ فَاتِّصَافُ شَيْئَيْنِ بِوَصْفٍ وَاحِدٍ لَا يُوجِبُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ اتِّصَالاً، أَمَّا اتِّصَافُ شَيْءٍ وَاحِدٍ بِشَيْئَيْنِ فَيُوجِبُ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ اتِّصَالاً ، وَكُلُّ مَنْ فَهِمَهُ أَدْرَكَ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ اتِّصَافِ شَيْءٍ وَاحِدٍ بِشَيْئَيْنِ وَبَيْنَ اتِّصَافِ شَيْئَيْنِ بِشَيْءٍ وَاحِدٍ . فَقَالَ : قَدِ اتَّضَحَ لِي بُطْلَانُ هَذَا لَكِنْ مَتَى وَزَنَ أَهْلُ التَّعْلِيمِ كَلَامَهُمْ بِهِ ؟ قُلْتُ : وَزَنُوا بِهِ كَلَامًا كَثِيراً أَشِحُّ عَلَى أَوْقَاتِي أَنْ أُضِيعَهَا بِحِكَايَتِهِ لَكِنْ أُرِيكَ أُنْمُوذَجًا وَاحِدًا فَلَقَدْ سَمِعْتُ كَثِيراً

مِنْ قَوْلِهِمْ إِنَّ الْحَقَّ مَعَ الْوَحْدَةِ وَالْبَاطِلَ مَعَ الْكَثْرَةِ وَمَذْهَبُ الرَّأْيِ يُفْضِي إِلَى الْكَثْرَةِ وَمَذْهَبُ التَّعْلِيمِ يُفْضِي إِلَى الْوَحْدَةِ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ فِي مَذْهَبِ التَّعْلِيمِ. قَالَ: نَعَمْ سَمِعْتُ هَذَا كَثِيرًا وَاعْتَقَدْتُ هَذَا بُرْهَانًا وَأَعْرِفُهُ بُرْهَانًا قَاطِعًا لَا أَشُكُّ فِيهِ. فَقُلْتُ: هَذَا مِيزَانُ الشَّيْطَانِ فَانْظُرْ كَيْفَ انْتَكَسَ رُفَقَاؤُكَ وَاسْتَعْمَلُوا قِيَاسَ الشَّيْطَانِ وَمِيزَانَهُ فِي إِبْطَالِ مِيزَانِ الْخَلِيلِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - وَسَائِرِ الْمَوَازِينِ. قَالَ: وَمَا وَجْهُ تَخْرِيجِهِ عَلَيْهِ؟ فَقُلْتُ الشَّيْطَانُ إِنَّمَا يَلْبِسُ فِي الْمَوَازِينِ بِتَكْثِيرِ الْكَلَامِ فِيهِ وَتَشْوِيشِهِ حَتَّى لَا يُعْلَمَ مِنْهُ مَوْضِعُ التَّلْبِيسِ وَهَذَا الْكَلَامُ كَثِيرٌ حَاصِلُهُ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّ الْحَقَّ يُوصَفُ بِالْوَحْدَةِ فَهَذَا أَصْلٌ وَأَنَّ مَذْهَبَ التَّعْلِيمِ يُوصَفُ بِالْوَحْدَةِ فَهَذَا أَصْلٌ آخَرُ فَلَزِمَ مِنْهُ أَنَّ مَذْهَبَ التَّعْلِيمِ يُوصَفُ بِالْوَحْدَةِ وَصْفَ وَاحِدٍ بِالْحَقِّ لِأَنَّ الْوَحْدَةَ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ فَاتَّصَفَ بِهِ شَيْئَانِ فَيَجِبُ اتِّصَافُ أَحَدِ الشَّيْئَيْنِ

بِالْآخَرِ ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ : اللَّوْنُ وَصْفٌ وَاحِدٌ اتَّصَفَ بِهِ الْبَيَاضُ وَالسَّوَادُ جَمِيعًا فَيَلْزَمُ اتِّصَافُ الْبَيَاضِ بِالسَّوَادِ وَكَقَوْلِ الشَّيْطَانِ الْأَكْبَرِ وَصْفٌ وَاحِدٌ يَتَّصِفُ بِهِ الْإِلٰهُ وَالشَّمْسُ فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ تَتَّصِفَ الشَّمْسُ بِالْإِلٰهِ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ هٰذِهِ الْمَوَازِينِ الثَّلَاثَةِ أَعْنِي وُجُودَ اللَّوْنِ لِلسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ ، وَوُجُودَ الْأَكْبَرِ لِلْإِلٰهِ وَالشَّمْسِ ، وَوُجُودَ الْوَحْدَةِ لِلتَّعْلِيمِ وَالْحَقِّ فَتَأَمَّلْ لِتَفْهَمَ ذٰلِكَ . فَقَالَ : قَدْ فَهِمْتُ هٰذَا قَطْعًا وَلٰكِنِّي لَا أَقْنَعُ بِمِثَالٍ وَاحِدٍ فَاذْكُرْ لِي مِثَالًا آخَرَ مِنْ مَوَازِينَ رُفَقَائِي لِيَزْدَادَ قَلْبِي سُكُونًا إِلَى مَعْرِفَةِ انْخِدَاعِهِمْ بِمَوَازِينِ الشَّيْطَانِ ، قُلْتُ : أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُمْ إِنَّ الْحَقَّ إِمَّا أَنْ يُعْرَفَ بِالرَّأْيِ الْمَحْضِ ، أَوْ بِالتَّعْلِيمِ الْمَحْضِ ، وَإِذَا بَطَلَ أَحَدُهُمَا ثَبَتَ الْآخَرُ وَبَاطِلٌ أَنْ يَكُونَ مُدْرَكًا بِالرَّأْيِ الْعَقْلِيِّ الْمَحْضِ لِتَعَارُضِ الْعُقُولِ وَالْمَذَاهِبِ فَثَبَتَ أَنَّهُ بِالتَّعْلِيمِ فَقَالَ إِي وَاللّٰهِ قَدْ سَمِعْتُ ذٰلِكَ كَثِيرًا وَهُوَ مِفْتَاحُ دَعْوَتِهِمْ وَعُنْوَانُ حُجَّتِهِمْ . قُلْتُ : فَهٰذَا وُزِنَ

بِمِيزَانِ الشَّيْطَانِ الَّذِي أَلْصَقَهُ بِمِيزَانِ التَّعَانُدِ، فَإِنَّ إِبْطَالَ أَحَدِ الْقِسْمَيْنِ يُنْتِجُ ثُبُوتَ الْآخَرِ، وَلَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ تَكُونَ الْقِسْمَةُ مُنْحَصِرَةً لَا مُنْتَشِرَةً، وَالشَّيْطَانُ يُلْبِسُ الْمُنْتَشِرَةَ بِالْمُنْحَصِرَةِ فَهَذِهِ مُنْتَشِرَةٌ، إِذْ لَيْسَتْ دَائِرَةً بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ بَلْ يُمْكِنُ بَيْنَهُمَا قِسْمٌ ثَالِثٌ وَهُوَ أَنْ يُدْرَكَ بِالْعَقْلِ وَالتَّعْلِيمِ جَمِيعًا وَعِيَارُهُ مِنَ الصَّنَجَاتِ الْمَعْلُومِ بُطْلَانُهَا قَوْلُ الْقَائِلِ: الْأَلْوَانُ لَا تُدْرَكُ بِالْعَيْنِ بَلْ بِنُورِ الشَّمْسِ فَقُلْنَا: لِمَ؟ فَقَالَ: لَا تَخْلُو إِمَّا أَنْ تُدْرَكَ بِالْعَيْنِ أَوْ بِنُورِ الشَّمْسِ وَبَاطِلٌ أَنْ تُدْرَكَ بِالْعَيْنِ لِأَنَّهُ لَا يُدْرَكُ بِاللَّيْلِ فَثَبَتَ أَنَّهُ يُدْرَكُ بِنُورِ الشَّمْسِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا مِسْكِينُ ثَمَّ قِسْمٌ ثَالِثٌ وَهُوَ أَنْ يُدْرَكَ بِالْعَيْنِ وَلَكِنْ عِنْدَ نُورِ الشَّمْسِ فَقَالَ: قَدْ فَهِمْتُ هَذَا أَيْضًا، لَكِنْ أُرِيدُ أَنْ تَزِيدَنِي شَرْحًا لِلْغَلَطِ الْوَاقِعِ فِي الْأُنْمُوذَجِ الْأَوَّلِ وَهُوَ حَدِيثُ الْحَقِّ وَالْوَحْدَةِ فَإِنَّ التَّفَطُّنَ لِمَوْضِعِ الْغَلَطِ مِنْهُ لَطِيفٌ جِدًّا.

قُلْتُ: وَجْهُ الْغَلَطِ مَا ذَكَرْتُ وَهُوَ الْتِبَاسُ اتِّصَافِ

شَيْءٍ وَاحِدٍ بِشَيْئَيْنِ بِاتِّصَافِ شَيْئَيْنِ بِشَيْءٍ وَاحِدٍ وَلَكِنَّ أَصْلَ هَذَا الْغَلَطِ إِيهَامُ الْعَكْسِ فَإِنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ حَقٌّ رُبَّمَا يَظُنُّ أَنَّ كُلَّ حَقٍّ وَاحِدٌ . وَلَيْسَ يَلْزَمُ هَذَا الْعَكْسُ بَلْ اللَّازِمُ مِنْهُ عَكْسٌ خَاصٌّ ، وَهُوَ أَنَّ بَعْضَ الْوَاحِدِ حَقٌّ ، فَإِنَّ قَوْلَكَ كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ عَكْسٌ عَامٌّ ، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ حَيَوَانٍ إِنْسَانٌ بَلْ اللَّازِمُ أَنَّ بَعْضَ الْحَيَوَانِ إِنْسَانٌ ، وَلَا يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ بِحِيَلِهِ عَلَى الضُّعَفَاءِ بِأَشَدَّ وَأَكْثَرَ مِنْ تَخْيِيلِهِ بِإِيهَامِ الْعَكْسِ الْعَامِّ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَحْسُوسَاتِ حَتَّى إِنَّ مَنْ رَأَى حَبْلًا أَسْوَدَ مُبَرْقَشَ اللَّوْنِ يَرْتَاعُ مِنْهُ لِشَبَهِهِ بِالْحَيَّةِ وَسَبَبُهُ مَعْرِفَتُهُ أَنَّ كُلَّ حَيَّةٍ طَوِيلٌ مُتَبَرْقِشُ اللَّوْنِ فَيَسْبِقُ وَهْمُهُ إِلَى عَكْسِهِ الْعَامِّ وَيَحْكُمُ بِأَنَّ كُلَّ طَوِيلٍ مُتَبَرْقِشُ اللَّوْنِ فَهُوَ حَيَّةٌ فَيَظُنُّ مِنْهُ عَكْسًا عَامًّا ، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ طَوِيلٍ مُتَبَرْقِشِ اللَّوْنِ أَسْوَدَ فَهُوَ حَيَّةٌ ، وَإِنَّمَا اللَّازِمُ مِنْهُ عَكْسٌ خَاصٌّ وَهُوَ أَنَّ بَعْضَ الطَّوِيلِ الْمُتَبَرْقِشِ حَيَّةٌ لِأَنَّ كُلَّهُ

كَذَلِكَ ، وَفِي ٱلْعَكْسِ وَٱلنَّقِيضِ دَقَائِقُ كَثِيرَةٌ لَا تَفْهَمُهَا إِلَّا مِنْ كِتَابِ مَحَكِّ ٱلنَّظَرِ وَمِعْيَارِ ٱلْعِلْمِ . فَقَالَ : إِنِّي أَجِدُ بِكُلِّ مِثَالٍ تَذْكُرُهُ طُمَأْنِينَةً أُخْرَى لِمَعْرِفَةِ مَوَازِينِ ٱلشَّيْطَانِ فَلَا تَبْخَلْ عَلَيَّ بِمِثَالٍ آخَرَ مِنْ مَوَازِينِ ٱلشَّيْطَانِ قُلْتُ : إِنَّ فَسَادَ ذَلِكَ ٱلْمِيزَانِ تَارَةً يَكُونُ مِنْ سُوءِ ٱلتَّرْكِيبِ بِأَلَّا يَكُونَ تَعَلُّقُ ٱلْكِفَّتَيْنِ بِالْعَمُودِ تَعَلُّقًا مُسْتَقِيمًا ، وَتَارَةً يَكُونُ مِنْ نَفْسِ ٱلْكِفَّةِ وَفَسَادِ طِينَتِهَا ٱلَّتِي مِنْهَا ٱتُّخِذَتْ ، فَإِنَّهَا إِمَّا أَنْ تُتَّخَذَ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ نُحَاسٍ أَوْ جِلْدِ حَيَوَانٍ ، فَلَوْ ٱتُّخِذَتْ مِنَ ٱلثَّلْجِ أَوْ ٱلْقُطْنِ لَمْ يُمْكِنِ ٱلْوَزْنُ بِهِ ، وَٱلسَّيْفُ تَارَةً يَفْسُدُ لِخَلَلِ شَكْلِهِ بِأَنْ يَكُونَ عَلَى هَيْئَةِ ٱلْعَصَا غَيْرَ مُعْتَرِضٍ وَلَا حَادٍّ ، وَتَارَةً يَكُونُ مِنْ فَسَادِ طِينَتِهِ وَمَادَّتِهِ ٱلَّتِي مِنْهَا ٱتُّخِذَ ، بِأَنْ يَكُونَ مُتَّخَذًا مِنْ خَشَبٍ أَوْ طِينٍ ، وَكَذَلِكَ مِيزَانُ ٱلشَّيْطَانِ قَدْ يَكُونُ فَسَادُهُ لِفَسَادِ تَرْكِيبِهِ كَمَا ذَكَرْتُهُ فِي مِثَالِ كِبَرِ ٱلشَّمْسِ وَوَحْدَةِ ٱلْحَقِّ ، فَإِنْ صُورَتُهُمَا مُخْتَلَّةٌ مَعْكُوسَةٌ

كَالَّذِي يَجْعَلُ الْكِفَّتَيْنِ فَوْقَ الْعَمُودِ فَيُرِيدُ أَنْ يَزِنَ بِهِ وَتَارَةً يَكُونُ لِفَسَادِ الْمَادَّةِ كَقَوْلِ إِبْلِيسَ: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» فِي جَوَابِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ» وَقَدْ أَدْرَجَ إِبْلِيسُ فِي هَذَا مِيزَانَيْنِ إِذْ عَلَّلَ مَنْعَ السُّجُودِ بِكَوْنِهِ خَيْرًا مِنْهُ، ثُمَّ أَثْبَتَ الْخَيْرِيَّةَ بِأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ نَارٍ، وَإِذَا صَرَّحَ بِجَمِيعِ أَجْزَاءِ حُجَّتِهِ وَجَدَ مِيزَانَهُ مُسْتَقِيمَ التَّرْكِيبِ لَكِنْ فَاسِدَ الْمَادَّةِ، وَكَمَالُ صُورَتِهِ أَنْ يَقُولَ: مَا خُلِقَ مِنْ نَارٍ خَيْرٌ وَالْخَيْرُ لَا يَسْجُدُ فَأَنَا إِذًا لَا أَسْجُدُ هَذَا الْقِيَاسَ مَمْنُوعٌ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَعْلُومٍ، وَالْعُلُومُ الْخَفِيَّةُ تُوزَنُ بِالْعُلُومِ الْجَلِيَّةِ وَمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ جَلِيٍّ وَلَا مُسَلَّمٍ، إِذْ نَقُولُ لَهُ: لَا نُسَلِّمُ أَنَّكَ خَيْرٌ مِنْهُ وَهَذَا مَنْعُ الْأَصْلِ الْأَوَّلِ وَالْآخَرُ أَنَّا لَا نُسَلِّمُ أَنَّ الْخَيْرَ لَا يَلْزَمُهُ السُّجُودُ لِأَنَّ اللُّزُومَ وَالِاسْتِحْقَاقَ بِالْأَمْرِ لَا بِالْخَيْرِيَّةِ، لَكِنْ تَرَكَ إِبْلِيسُ الدَّلَالَةَ عَلَى الْأَصْلِ الثَّانِي

وَهُوَ أَنَّ اللُّزُومَ وَالِاسْتِحْقَاقَ بِالْأَمْرِ لَا بِالْخَيْرِيَّةِ، وَاشْتَغَلَ بِإِقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ خَيْرٌ لِأَنِّي خُلِقْتُ مِنْ نَارٍ، وَهَذِهِ دَعْوَى الْخَيْرِيَّةِ بِالنَّسَبِ، وَكَمَالُ صُورَةِ دَلِيلِهِ وَمِيزَانِهِ أَنْ يَقُولَ: الْمَنْسُوبُ إِلَى الْخَيْرِ خَيْرٌ وَأَنَا مَنْسُوبٌ إِلَى الْخَيْرِ فَإِذًا أَنَا خَيْرٌ، وَكِلْتَا هَاتَيْنِ الْكِفَّتَيْنِ أَيْضًا فَاسِدَةٌ فَإِنَّا لَا نُسَلِّمُ أَنَّ الْمَنْسُوبَ إِلَى الْخَيْرِ خَيْرٌ بَلِ الْخَيْرِيَّةُ بِصِفَاتِ الذَّاتِ لَا بِالنَّسَبِ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْحَدِيدُ خَيْرًا مِنَ الزُّجَاجِ ثُمَّ يُتَّخَذُ مِنَ الزُّجَاجِ بِحُسْنِ الصَّنْعَةِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمُتَّخَذِ مِنَ الْحَدِيدِ، وَكَذَلِكَ نَقُولُ: إِبْرَاهِيمُ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ - خَيْرٌ مِنْ وَلَدِ نُوحٍ وَإِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ مَخْلُوقًا مِنْ آزَرَ وَهُوَ كَافِرٌ وَوَلَدُ نُوحٍ مِنْ نَبِيٍّ. وَأَمَّا أَصْلُهُ الثَّانِي وَهُوَ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ خَيْرٍ لِأَنَّ النَّارَ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ فَهَذَا أَيْضًا غَيْرُ مُسَلَّمٍ بَلِ الطِّينُ خَيْرٌ لِأَنَّهُ مِنَ التُّرَابِ وَالْمَاءِ. وَرُبَّمَا يُقَالُ: إِنَّ بِامْتِزَاجِهِمَا قِوَامَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَبِهِمَا يَحْصُلُ النُّشُوءُ وَالنُّمُوُّ.

وَأَمَّا ٱلنَّارُ فَمُفْسِدَةٌ وَمُهْلِكَةٌ لِلْجَمِيعِ . فَقَوْلُهُ :

إِنَّ ٱلنَّارَ خَيْرٌ بَاطِلٌ .

فَهَذِهِ ٱلْمَوَازِينُ صَحِيحَةُ ٱلصُّورَةِ فَاسِدَةُ ٱلْمَادَّةِ تَشْبِيهًا بِالسَّيْفِ ٱلْمُتَّخَذِ مِنَ ٱلْخَشَبِ بَلْ هِيَ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ ٱللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ،

وَكَذَا يَرَى أَهْلُ ٱلتَّعْلِيمِ أَحْوَالَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِذَا كُشِفَتْ لَهُمْ حَقَائِقُ مَوَازِينِهِمْ . وَهَذَا أَيْضًا مَدْخَلٌ مِن مَدَاخِلِ ٱلشَّيْطَانِ يَنْبَغِي أَنْ يُسَدَّ بَلْ ٱلْمَادَّةُ ٱلصَّحِيحَةُ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلنَّظَرِ كُلُّ أَصْلٍ مَعْلُومٍ قَطْعًا ، إِمَّا بِالْحِسِّ ، وَإِمَّا بِالتَّجْرِبَةِ ، وَإِمَّا بِالتَّوَاتُرِ ٱلْكَامِلِ ، أَوْ بِأَوَّلِ ٱلْعَقْلِ ، أَوْ بِالِاسْتِنْتَاجِ مِنْ هَذِهِ ٱلْجُمْلَةِ .

أَمَّا ٱلَّذِي يُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْمُحَاجَّةِ ، وَٱلْمُجَادَلَةِ فَمَا يَعْتَرِفُ بِهِ ٱلْخَصْمُ وَيُسَلِّمُهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا

فِي نَفْسِهِ فَإِنَّهُ تَصِيرُ حُجَّتُهُ عَلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ تَجْرِي بَعْضُ أَدِلَّةِ ٱلْقُرْآنِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تُنْكِرَ أَدِلَّةَ ٱلْقُرْآنِ إِذَا أَمْكَنَكَ ٱلتَّشْكِيكُ فِي أُصُولِهَا لِأَنَّهَا أُورِدَتْ عَلَى طَوَائِفَ كَانُوا مُعْتَرِفِينَ بِهَا .

***

الاستغناء بمحمد ﷺ

(اَلْقَوْلُ فِى اَلِاسْتِغْنَاءِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَ بِعُلَمَاءِ أُمَّتِهِ عَنْ إِمَامٍ مَعْصُومٍ آخَرَ وَ بَيَانُ مَعْرِفَةِ صِدْقِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اَللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِطَرِيقٍ أَوْضَحَ مِنَ اَلنَّظَرِ فِى اَلْمُعْجِزَاتِ وَأَوْثَقَ مِنْهُ وَهُوَ طَرِيقُ اَلْعَارِفِينَ)

فَقَالَ: لَقَدْ أَكْمَلْتَ اَلشِّفَاءَ وَ كَشَفْتَ اَلْغِطَاءَ وَأَتَيْتَ بِاَلْيَدِ اَلْبَيْضَاءِ لَكِنْ بَنَيْتَ قَصْرًا وَهَدَمْتَ مِصْرًا فَإِنِّى إِلَى اَلْآنَ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ أَتَعَلَّمَ مِنْكَ اَلْوَزْنَ بِالْمِيزَانِ وَأَسْتَغْنِى بِكَ وَبِالْقُرْآنِ عَنِ اَلْإِمَامِ اَلْمَعْصُومِ فَالْآنَ إِذْ ذَكَرْتَ هَذِهِ اَلدَّقَائِقَ فِى مَدَاخِلِ اَلْغَلَطِ فَقَدْ آيَسْتَ مِنَ اَلِاسْتِقْلَالِ بِهِ، فَإِنِّى لَا آمَنُ أَنْ أَغْلَطَ لَوِ اشْتَغَلْتُ بِالْوَزْنِ وَقَدْ عَرَفْتُ اَلْآنَ لِمَ اخْتَلَفَ اَلنَّاسُ فِى هَذِهِ اَلْمَذَاهِبِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَفَطَّنُوا لِهَذِهِ اَلدَّقَائِقِ كَمَا فَطِنْتَ فَغَلِطَ بَعْضُهُمْ وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ فَإِذًا أَقْرَبُ اَلطُّرُقِ لِى أَنْ أُعَوِّلَ

عَلَى ٱلْإِمَامِ ٱلْمَعْصُومِ حَتَّى أَتَخَلَّصَ مِنْ هَذِهِ ٱلدَّقَائِقِ .

فَقُلْتُ : يَامِسْكِينُ ! مَعْرِفَتُكَ بِالْإِمَامِ ٱلصَّادِقِ لَيْسَتْ ضَرُورِيَّةً فَهِيَ إِمَّا أَنْ تَكُونَ تَقْلِيداً لِلْوَالِدَيْنِ ، أَوْ مَوْزُونَةً بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ ٱلْمَوَازِينِ فَإِنَّ كُلَّ عِلْمٍ لَيْسَ أَوَّلِيًّا فَبِالضَّرُورَةِ يَكُونُ حَاصِلًا عِنْدَ صَاحِبِهِ بِقِيَامِ هَذِهِ ٱلْمَوَازِينِ فِي نَفْسِهِ وَإِنْ كَانَ هُوَ لَايَشْعُرُ بِهِ ، فَإِنَّكَ عَرَفْتَ صِحَّةَ مِيزَانِ ٱلتَّقْدِيرِ بِانْتِظَامِ ٱلْأَصْلَيْنِ فِي ذِهْنِكَ ٱلتَّجْرِيبِيِّ وَٱلْحِسِّيِّ وَكَذَلِكَ سَائِرُ ٱلنَّاسِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِهِ وَمَنْ يَعْرِفُ مَثَلًا أَنَّ هَذَا ٱلْحَيَوَانَ غَيْرُ حَامِلٍ لِأَنَّهُ بَغْلٌ عَرَفَهُ بِانْتِظَامِ ٱلْأَصْلَيْنِ ٱللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا فِي صَدْرِ ٱلْكِتَابِ وَإِنْ كَانَ لَايَشْعُرُ بِمَصْدَرِ عِلْمِهِ . وَكَذَلِكَ ، كُلُّ عِلْمٍ فِي ٱلْعَالَمِ يَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ فَيَكُونُ كَذَلِكَ فَأَنْتَ إِنْ أَخَذْتَ أَعْتِقَادَ ٱلْعِصْمَةِ فِي ٱلْإِمَامِ ٱلصَّادِقِ بَلْ فِي مُحَمَّدٍ - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَقْلِيداً لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلرُّفَقَاءِ لَمْ تَتَمَيَّزْ عَنِ ٱلْيَهُودِ وَٱلنَّصَارَى وَٱلْمَجُوسِ فَإِنَّهُمْ كَذَلِكَ فَعَلُوا ، وَإِنْ أَخَذْتَهُ مِنَ

ٱلْوَزْنِ بِشَىْءٍ مِنَ هَذِهِ ٱلْمَوَازِينَ فَلَعَلَّكَ غَلِطْتَ فِى دَقِيقَةٍ مِنْ دَقَائِقِهِ فَيَنْبَغِى عَلَى زَعْمِكَ أَلَّا تَثِقَ بِهِ فَقَالَ: صَدَقْتَ فَأَيْنَ ٱلطَّرِيقُ فَلَقَدْ سَدَدْتَ عَلَىَّ طَرِيقَ ٱلتَّعْلِيمِ وَٱلْوَزْنِ جَمِيعًا. قُلْتُ: هَيْهَاتَ رَاجِعْ ٱلْقُرْآنَ فَقَدْ عَلَّمَكَ ٱلطَّرِيقَ إِذْ قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» وَلَمْ يَقُلْ سَافَرُوا إِلَى ٱلْإِمَامِ ٱلْمَعْصُومِ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ، فَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَعَارِفَ كَثِيرَةٌ فَلَوْ ٱبْتَدَأْتَ فِى كُلِّ مُشْكِلَةٍ سَفَرًا إِلَى ٱلْإِمَامِ ٱلْمَعْصُومِ بِزَعْمِكَ طَالَ عَنَاؤُكَ وَقَلَّ عِلْمُكَ، لَكِنَّ طَرِيقَكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ مِنِّى كَيْفِيَّةَ ٱلْوَزْنِ وَتَسْتَوْفِىَ شُرُوطَهُ فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَىْءٌ عَرَضْتَهُ عَلَى ٱلْمِيزَانِ وَتَفَكَّرْتَ فِى شُرُوطِهِ بِفِكْرٍ صَافٍ وَجِدٍّ وَافٍ فَإِذَا أَنْتَ مُبْصِرٌ وَهَذَا كَمَا لَوْ حَسِبْتَ مَالِلْبَقَّالِ عَلَيْكَ أَوْ لَكَ عَلَيْهِ أَوْ قَسَمْتَ فِى مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ ٱلْفَرَائِضِ وَشَكَكْتَ فِى ٱلْإِصَابَةِ وَٱلْخَطَإِ فَيَطُولُ عَلَيْكَ أَنْ تُسَافِرَ إِلَى ٱلْإِمَامِ ٱلْمَعْصُومِ وَلَكِنْ

تُحْكِمُ عِلْمَ الْحِسَابِ وَتَتَذَكَّرُهُ وَلَا تَزَالُ تُعَاوِدُهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى تَسْتَيْقِنَ قَطْعاً أَنَّكَ مَاغَلِطْتَ فِي دَقِيقَةٍ مِنْ دَقَائِقِهَا، وَهَذَا يَعْرِفُهُ مَنْ يَعْرِفُ عِلْمَ الْحِسَابِ وَكَذَلِكَ مَنْ يَعْرِفُ الْوَزْنَ بِهِ كَمَا أَعْرِفُهُ فَيَنْتَهِي بِهِ التَّذَكُّرُ وَالتَّفَكُّرُ وَالْمُعَاوَدَةُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى إِلَى الْيَقِينِ الضَّرُورِيِّ بِأَنَّهُ مَاغَلِطَ فَإِنْ لَمْ تَسْلُكْ هَذِهِ الطَّرِيقَ لَمْ تُفْلِحْ قَطُّ وَصِرْتَ تَشَكَّكُ بِلَعَلَّ وَعَسَى، وَلَعَلَّكَ قَدْ غَلِطْتَ فِي تَقْلِيدِكَ لِإِمَامِكَ بَلْ لِلنَّبِيِّ الَّذِي آمَنْتَ بِهِ فَإِنَّ مَعْرِفَةَ صِدْقِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَيْسَتْ ضَرُورِيَّةً فَقَالَ : لَقَدْ سَاعَدْتَنِي عَلَى أَنَّ التَّعْلِيمَ حَقٌّ وَأَنَّ الْإِمَامَ هُوَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاعْتَرَفْتَ بِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَأْخُذَ الْعِلْمَ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دُونَ مَعْرِفَةِ الْمِيزَانِ وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ مَعْرِفَةُ تَمَامِ الْمِيزَانِ إِلَّا مِنْكَ، فَكَأَنَّكَ ادَّعَيْتَ الْإِمَامَةَ لِنَفْسِكَ خَاصَّةً فَمَا بُرْهَانُكَ وَمُعْجِزَتُكَ فَإِنَّ إِمَامِي إِمَّا

أَنْ يُقِيمَ مُعْجِزَةً وَإِمَّا أَنْ يَحْتَجَّ بِالنَّصِّ الْمُتَعَاقِبِ مِنْ آبَائِهِ إِلَيْهِ، فَأَيْنَ نَصُّكَ وَأَيْنَ مُعْجِزَتُكَ؟؟ فَقُلْتُ: أَمَّا قَوْلُكَ إِنَّكَ تَدَّعِي الْإِمَامَةَ لِنَفْسِكَ خَاصَّةً فَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُشَارِكَنِي غَيْرِي فِي هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ فَيُمْكِنُ أَنْ يُتَعَلَّمَ مِنْهُ كَمَا يُتَعَلَّمُ مِنِّي فَلَا أَجْعَلُ التَّعْلِيمَ وَقْفًا عَلَى نَفْسِي. وَأَمَّا قَوْلُكَ تَدَّعِي الْإِمَامَةَ لِنَفْسِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْإِمَامَ قَدْ نَعْنِي بِهِ الَّذِي يَتَعَلَّمُ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ وَهَذَا لَا أَدَّعِيهِ لِنَفْسِي وَقَدْ نَعْنِي بِهِ الَّذِي يَتَعَلَّمُ مِنَ اللهِ بِغَيْرِ جِبْرِيلَ أَوْ مِنْ جِبْرِيلَ بِوَاسِطَةِ الرَّسُولِ وَلِهَذَا سُمِّيَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - إِمَامًا فَإِنَّهُ تَعَلَّمَ مِنَ الرَّسُولِ لَا مِنْ جِبْرِيلَ وَأَنَا بِهَذَا الْمَعْنَى أَدَّعِي الْإِمَامَةَ لِنَفْسِي. أَمَّا بُرْهَانِي عَلَيْهِ فَأَوْضَحُ مِنَ النَّصِّ وَمِمَّا تَعْتَقِدُهُ مُعْجِزَةً، فَإِنَّ ثَلَاثَةَ أَنْفُسٍ لَوِ ادَّعَوْا عِنْدَكَ أَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ. فَقُلْتَ: مَا بُرْهَانُكُمْ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمْ بُرْهَانِي أَنَّهُ نَصَّ عَلَيَّ الْكِسَائِيُّ أُسْتَاذُ الْمُقْرِئِينَ إِذْ نَصَّ عَلَى أُسْتَاذِي وَأُسْتَاذِي نَصَّ عَلَيَّ

فَكَأَنَّ ٱلْكِسَائِيَّ نَصَّ عَلَيَّ . فَقَالَ ٱلثَّانِي : إِنِّي أَقْلِبُ ٱلْعَصَا حَيَّةً فَقَلَبَ ٱلْعَصَا حَيَّةً . وَقَالَ ٱلثَّالِثُ : بُرْهَانِي أَنِّي أَقْرَأُ جَمِيعَ ٱلْقُرْآنَ بَيْنَ يَدَيْكَ مِنْ غَيْرِ مُصْحَفٍ فَلَيْتَ شِعْرِي أَيُّ هَذِهِ ٱلْبَرَاهِينِ أَوْضَحُ عِنْدَكَ وَقَلْبُكَ بِأَيِّهَا أَشَدُّ تَصْدِيقاً فَقَالَ : بِالَّذِي قَرَأَ ٱلْقُرْآنَ فَهُوَ غَايَةُ ٱلْبَرَاهِينِ إِذْ لَا يُخَالِجُنِي فِيهِ رَيْبٌ . أَمَّا نَصُّ أُسْتَاذِهِ عَلَيْهِ وَنَصُّ ٱلْكِسَائِيِّ عَلَى أُسْتَاذِهِ فَيُتَصَوَّرُ أَنْ تَقَعَ فِيهِ أَغَالِيطُ لَاسِيَّمَا عِنْدَ طُولِ ٱلْأَسْفَارِ . وَأَمَّا قَلْبُ ٱلْعَصَا حَيَّةً فَلَعَلَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ بِحِيلَةٍ وَتَلْبِيسٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَلْبِيساً فَغَايَتُهُ أَنَّهُ فِعْلٌ عَجِيبٌ وَمِنْ أَيْنَ يَلْزَمُ أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى فِعْلٍ عَجِيبٍ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَافِظاً لِلْقُرْآنِ . قُلْتُ : فَبُرْهَانِي إِذاً أَيْضاً أَنِّي كَمَا عَرَفْتُ هَذِهِ ٱلْمَوَازِينَ فَقَدْ عَرَفْتُ وَأَفْهَمْتُ وَأَزَلْتُ ٱلشَّكَّ عَنْ قَلْبِكَ فِي صِحَّتِهِ فَيَلْزَمُكَ ٱلْإِيمَانُ بِإِمَامَتِي كَمَا أَنَّكَ إِذَا تَعَلَّمْتَ ٱلْحِسَابَ وَعَلِمْتَهُ مِنْ أُسْتَاذٍ فَإِنَّهُ إِذَا عَلَّمَكَ ٱلْحِسَابَ حَصَلَ لَكَ عِلْمٌ بِالْحِسَابِ وَعِلْمٌ آخَرُ ضَرُورِيٌّ بِأَنَّ أُسْتَاذَكَ

حاسبٌ وعالمٌ بالحساب كذلك ، فقد علمت من تعليمه علمه وصحة دعواه أيضاً في أنه حاسبٌ وكذلك آمنتُ أنا بصدق محمدٍ - صلى الله عليه وسلم - وصدق موسى - عليه السلام - لا بشق القمر ولا بقلب العصا حيةً بمجردهما فإن ذلك يتطرق إليه حينئذٍ التباسٌ كثيرٌ فلا يوثق به بل من يؤمن بقلب العصا حيةً يكفر بخوار العجل . فإن التعارض في عالم الحس والشهادة كثيرٌ جداً لكني تعلمت الموازين من القرآن ثم وزنت بها جميع المعارف الإلهية بل أحوال المعاد ، وعذاب القبر وعذاب أهل الفجور وثواب أهل الطاعة ، كما ذكرته في كتاب جواهر القرآن فوجدتُ جميعها موافقةً لما في القرآن ولما في الأخبار فتيقنت أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - صادقٌ وأن القرآن حقٌ وفعلتُ كما قال عليٌ - رضي الله عنه - إذ قال : (لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله) فكانت معرفتي بصدق

ٱلنَّبِيِّ - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - ضَرُورِيَّةً كَمَعْرِفَتِكَ إِذَا رَأَيْتَ رَجُلًا غَرِيباً يُنَاظِرُ فِي مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ ٱلْفِقْهِ وَيُحْسِنُ فِيهَا وَيَأْتِي بِالْفِقْهِ ٱلصَّحِيحِ ٱلصَّرِيحِ فَإِنَّكَ لَا تَتَمَارَى فِي أَنَّهُ فَقِيهٌ وَيَقِينُكَ ٱلْحَاصِلُ بِهِ أَوْضَحُ مِنَ ٱلْيَقِينِ ٱلْحَاصِلِ بِفِقْهِهِ لَوْ قَلَبَ أَلْفَ عَصاً ثُعْبَاناً لِأَنَّ ذَلِكَ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ ٱحْتِمَالُ ٱلسِّحْرِ وَٱلتَّلْبِيسِ وَٱلطِّلِّسْمِ (١) وَغَيْرِهَا وَلَا يَحْصُلُ ٱلْعِلْمُ بِٱلْقُرْآنِ وَٱلتَّفْرِيقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَكَوْنُهَا مُعْجِزَةً إِلَّا بَعْدَ بَحْثٍ طَوِيلٍ وَنَظَرٍ دَقِيقٍ وَيَحْصُلُ بِهِ إِيمَانٌ ضَعِيفٌ هُوَ إِيمَانُ ٱلْعَوَامِّ وَٱلْمُتَكَلِّمِينَ ، فَأَمَّا إِيمَانُ أَرْبَابِ ٱلْمُشَاهَدَةِ ٱلنَّاظِرِينَ مِنْ مِشْكَاةِ ٱلرُّبُوبِيَّةِ فَكَذَلِكَ يَكُونُ فَقَالَ : فَأَنَا أَيْضاً أَشْتَهِي أَنْ أَعْرِفَ ٱلنَّبِيَّ - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا عَرَفْتَهُ وَقَدْ ذَكَرْتَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِأَنْ تُوزَنَ جَمِيعُ ٱلْمَعَارِفِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ بِهَذَا ٱلْمِيزَانِ وَمَا ٱتَّضَحَ عِنْدِي أَنَّ جَمِيعَ

(١) الطلسم : بكسر الطاء وفتح اللام المشددة ، عبارة عن تخريج القوى السماوية الفعالة بالقوى الأرضية المنفعلة ، بواسطة خطوط مخصوصة

ٱلْمَعَارِفِ ٱلدِّينِيَّةِ يُمْكِنُ وَزْنُهَا بِهَذِهِ ٱلْمَوَازِينِ فَبِمَ أَعْلَمُ ذَلِكَ ؟ قُلْتُ : هَيْهَاتَ لَا أَدَّعِي أَنِّي أَزِنُ بِهَا ٱلْمَعَارِفَ ٱلدِّينِيَّةَ فَقَطْ بَلْ أَزِنُ بِهَا ٱلْعُلُومَ ٱلْحِسَابِيَّةَ وَٱلْهَنْدَسِيَّةَ وَٱلطَّبِيعِيَّةَ وَٱلْفِقْهِيَّةَ وَٱلْكَلَامِيَّةَ وَكُلَّ عِلْمٍ حَقِيقِيٍّ غَيْرِ وَضْعِيٍّ فَإِنِّي أُمَيِّزُ حَقَّهُ عَنْ بَاطِلِهِ بِهَذِهِ ٱلْمَوَازِينِ وَكَيْفَ لَا وَهُوَ ٱلْقِسْطَاسُ ٱلْمُسْتَقِيمُ وَٱلْمِيزَانُ ٱلَّذِي هُوَ رَفِيقُ ٱلْكِتَابِ وَٱلْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِالْقِسْطِ » وَأَمَّا مَعْرِفَتُكَ بِقُدْرَتِي عَلَى هَذَا فَلَا تَحْصُلُ بِنَصٍّ وَلَا بِقَلْبِ ٱلْعَصَا ثُعْبَانًا وَلَكِنْ تَحْصُلُ بِأَنْ تَسْتَكْشِفَ ذَلِكَ تَجْرِبَةً وَٱمْتِحَانًا فَمُدَّعِي ٱلْفُرُوسِيَّةِ لَا يَنْكَشِفُ صِدْقُهُ حَتَّى يَرْكَبَ فَرَسًا وَيَرْكُضَ مَيْدَانًا فَسَلْنِي عَمَّا شِئْتَ مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱلدِّينِيَّةِ لِأَكْشِفَ لَكَ ٱلْغِطَاءَ عَنِ ٱلْحَقِّ فِيهِ وَاحِدًا وَاحِدًا وَأَزِنَهُ بِهَذَا ٱلْمِيزَانِ وَزْنًا يَحْصُلُ لَكَ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ بِأَنَّ ٱلْوَزْنَ صَحِيحٌ وَأَنَّ ٱلْعِلْمَ

ٱلْمُسْتَفَادَ مِنْهُ مُسْتَيْقَنٌ وَمَنْ لَمْ يُجَرِّبْ لَمْ يَعْرِفْ . فَقَالَ : وَهَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تُعَرِّفَ جَمِيعَ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْمَعَارِفِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ جَمِيعَ ٱلْخَلْقِ فَتَرْفَعَ ٱلْإِخْتِلَافَاتِ ٱلْوَاقِعَةَ بَيْنَهُمْ .

قُلْتُ : هَيْهَاتَ لَاأَقْدِرُ عَلَيْهِ وَكَأَنَّ إِمَامَكَ ٱلْمَعْصُومَ إِلَى ٱلْآنِ قَدْ رَفَعَ ٱلِاخْتِلَافَاتِ بَيْنَ ٱلْخَلَائِقِ ، وَأَزَالَ ٱلْإِشْكَالَاتِ عَنِ ٱلْقُلُوبِ . بَلْ ٱلْأَنْبِيَاءُ مَتَى رَفَعُوا ٱلِاخْتِلَافَ وَمَتَى قَدَرُوا عَلَيْهِ ؟ بَلْ ٱخْتِلَافُ ٱلْخَلْقِ حُكْمٌ ضَرُورِيٌّ أَزَلِيٌّ . «وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ» ، أَفَأَدَّعِي أَنْ أَرُدَّ قَضَاءَ ٱللهِ ٱلَّذِي قَضَى بِهِ فِي ٱلْأَزَلِ ، أَوْ يَقْدِرُ إِمَامُكَ أَنْ يَدَّعِيَ ذَلِكَ ؟ فَإِنْ كَانَ يَدَّعِيهِ فَلِمَ ٱدَّخَرَهُ إِلَى ٱلْآنَ ؟ وَٱلدُّنْيَا طَافِحَةٌ بِالِاخْتِلَافَاتِ . وَلَيْتَ شِعْرِي رَئِيسُ ٱلْأُمَّةِ عَلِيُّ ٱبْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ - كَانَ سَبَبَ رَفْعِ ٱلِاخْتِلَافَاتِ بَيْنَ ٱلْخَلْقِ أَوْ سَبَبَ تَأْسِيسِ ٱخْتِلَافَاتٍ لَا تَنْقَطِعُ أَبَدَ ٱلدَّهْرِ ؟

***

نجاة الخلق من ظلمات الاختلافات

(اَلْقَوْلُ فِي طَرِيقِ نَجَاةِ اَلْخَلْقِ)

مِنْ ظُلُمَاتِ اَلِاخْتِلَافَاتِ

فَقَالَ : كَيْفَ نَجَاةُ اَلْخَلْقِ مِنْ هَذِهِ اَلِاخْتِلَافَاتِ ؟

قُلْتُ : إِنْ أَصْغَوْا إِلَيَّ رَفَعْتُ اَلِاخْتِلَافَاتِ بَيْنَهُمْ بِكِتَابِ اَللهِ تَعَالَى وَلَكِنْ لَاحِيلَةَ فِي إِصْغَائِهِمْ . فَإِنَّهُمْ لَمْ يَصْغَوْا بِأَجْمَعِهِمْ إِلَى اَلْأَنْبِيَاءِ وَلَا إِلَى إِمَامِكَ . فَكَيْفَ يَصْغَوْنَ إِلَيَّ ؟ وَكَيْفَ يَجْتَمِعُونَ عَلَى اَلْإِصْغَاءِ ؟ وَقَدْ حُكِمَ عَلَيْهِمْ فِي اَلْأَزَلِ بِأَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَكَوْنُ اَلْخِلَافِ بَيْنَهُمْ ضَرُورِيًّا تَعْرِفُهُ مِنْ كِتَابِ جَوَابِ مُفَصَّلِ اَلْخِلَافِ ، وَهُوَ اَلْفُصُولُ اَلْإِثْنَا عَشَرَ . فَقَالَ : فَلَوْ أَصْغَوْا كَيْفَ كُنْتَ تَفْعَلُ . قُلْتُ : كُنْتُ أُعَامِلُهُمْ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ كِتَابِ اَللهِ تَعَالَى إِذْ قَالَ : « وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ اَلْكِتَابَ وَاَلْمِيزَانَ لِيَقُومَ اَلنَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا اَلْحَدِيدَ » اَلْآيَةَ وَإِنَّمَا أَنْزَلَ هَذِهِ اَلثَّلَاثَ لِأَنَّ اَلنَّاسَ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ ،

وَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلْحَدِيدِ وَٱلْمِيزَانِ عِلَاجُ قَوْمٍ.

فَقَالَ : فَمَنْ هُمْ ؟ وَ كَيْفَ عِلَاجُهُمْ ؟ قُلْتُ : ٱلنَّاسُ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ عَوَامُّ، وَهُمْ أَهْلُ ٱلسَّلَامَةِ ، ٱلْبُلْهُ ، وَهُمْ أَهْلُ ٱلْجَنَّةِ، وَخَوَاصُّ ، وَهُمْ أَهْلُ ٱلذَّكَاءِ وَٱلْبَصِيرَةِ . وَيَتَوَلَّدُ بَيْنَهُمْ طَائِفَةٌ هُمْ أَهْلُ ٱلْجَدَلِ وَٱلشَّغَبِ ، فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنَ ٱلْكِتَابِ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ .

***

معالجة الخواص

أَمَّا ٱلْخَوَاصُّ فَإِنِّي أُعَالِجُهُمْ بِأَنْ أُعَلِّمَهُمُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ وَ كَيْفِيَّةَ ٱلْوَزْنِ بِهَا ، فَيَرْتَفِعُ ٱلْخِلَافُ بَيْنَهُمْ عَلَى قُرْبٍ ، وَهَؤُلَاءِ قَوْمٌ ٱجْتَمَعَ فِيهِمْ ثَلَاثُ خِصَالٍ :

« إِحْدَاهَا » : ٱلْقَرِيحَةُ ٱلنَّافِذَةُ ، وَٱلْفِطْنَةُ ٱلْقَوِيَّةُ ، وَهَذِهِ عَطِيَّةٌ فِطْرِيَّةٌ ، وَغَرِيزَةٌ جِبِلِّيَّةٌ لَا يُمْكِنُ كَسْبُهَا

«وَٱلثَّانِيَةُ» : خُلُوُّ بَاطِنِهِمْ مِنْ تَقْلِيدٍ وَتَعَصُّبٍ لِمَذْهَبٍ مَوْرُوثٍ وَمَسْمُوعٍ ، فَإِنَّ ٱلْمُقَلِّدَ لَا يُصْغِي وَٱلْبَلِيدَ وَإِنْ أَصْغَى فَلَا يَفْهَمُ .

« التَّالِثَةُ » : أَنْ يَعْتَقِدَ فِي أَنِّي مِنْ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ بِالْمِيزَانِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِأَنَّكَ تَعْرِفُ الْحِسَابَ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْكَ ...

***

معالجة البله

« وَالصِّنْفُ الثَّانِي الْبُلْهُ » وَهُمْ جَمِيعُ الْعَوَامِّ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِطْنَةٌ لِفَهْمِ الْحَقَائِقِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ فِطْنَةٌ فِطْرِيَّةٌ فَلَيْسَ لَهُمْ دَاعِيَةُ الطَّلَبِ، بَلْ شَغَلَتْهُمُ الصِّنَاعَاتُ وَالْحِرَفُ، وَلَيْسَ فِيهِمْ أَيْضاً دَاعِيَةُ الْجَدَلِ بِخِلَافِ الْمُتَكَايِسِينَ فِي الْعِلْمِ مَعَ قُصُورِ الْفَهْمِ عَنْهُ ، فَهَؤُلَاءِ لَا يَخْتَلِفُونَ وَلَكِنْ يَتَحَيَّرُونَ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ الْمُخْتَلِفِينَ ، فَأَدْعُو هَؤُلَاءِ إِلَى اللهِ بِالْمَوْعِظَةِ ، كَمَا أَدْعُو أَهْلَ الْبَصِيرَةِ بِالْحِكْمَةِ ، وَأَدْعُو أَهْلَ الشَّغَبِ بِالْمُجَادَلَةِ ، وَقَدْ جَمَعَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكَ أَوَّلًا ، فَأَقُولُ لَهُمْ : مَا قَالَهُ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لِأَعْرَابِيٍّ جَاءَهُ فَقَالَ : عَلِّمْنِي مِنْ غَرَائِبِ

ٱلْعِلْمِ فَعَلِمَ رَسُولُ ٱللهِ - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ لَيْسَ أَهْلًا لِذَلِكَ ، فَقَالَ : وَمَاذَا عَمِلْتَ فِي رَأْسِ ٱلْعِلْمِ أَيِ ٱلْإِيمَانِ وَٱلتَّقْوَى وَٱلِاسْتِمْدَادِ لِلْآخِرَةِ ، اُذْهَبْ فَأَحْكِمْ رَأْسَ ٱلْعِلْمِ ثُمَّ اُرْجِعْ لِأُعَلِّمَكَ مِنْ غَرَائِبِهِ . فَأَقُولُ لِلْعَامِيِّ : لَيْسَ ٱلْخَوْضُ فِي ٱلِاخْتِلَافَاتِ مِنْ عُشِّكَ فَادْرُجْ ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَخُوضَ فِيهِ ، أَوْ تَصْغَى إِلَيْهِ فَتَهْلِكَ ، فَإِنَّكَ إِذَا صَرَفْتَ عُمُرَكَ فِي صِنَاعَةِ ٱلصِّيَاغَةِ لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِ ٱلْحِيَاكَةِ ، وَقَدْ صَرَفْتَ عُمُرَكَ فِي غَيْرِ ٱلْعِلْمِ ، فَكَيْفَ تَكُونُ مِنْ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ ، وَمِنْ أَهْلِ ٱلْخَوْضِ فِيهِ ، فَإِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَنْ تُهْلِكَ نَفْسَكَ فَكُلُّ كَبِيرَةٍ تَجْرِي عَلَى ٱلْعَامِّيِّ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ يَخُوضَ فِي ٱلْعِلْمِ فَيَكْفُرَ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي . فَإِنْ قَالَ : لَا بُدَّ مِنْ دِينٍ أَعْتَقِدُهُ وَأَعْمَلُ بِهِ لِأَصِلَ بِهِ إِلَى ٱلْمَغْفِرَةِ ، وَٱلنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي ٱلْأَدْيَانِ ، فَبِأَيِّ دِينٍ تَأْمُرُنِي أَنْ آخُذَ أَوْ أُعَوِّلَ عَلَيْهِ ؟ فَأَقُولُ لَهُ : لِلدِّينِ أُصُولٌ وَفُرُوعٌ وَٱلِاخْتِلَافُ إِنَّمَا يَقَعُ فِيهِمَا . أَمَّا ٱلْأُصُولُ

فَلَيْسَ عَلَيْكَ أَنْ تَعْتَقِدَ فِيهَا إِلَّا مَا فِي الْقُرْآنِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَسْتُرْ عَنْ عِبَادِهِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَاءَهُ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَعْتَقِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ اللهَ حَيٌّ عَالِمٌ قَادِرٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ جَبَّارٌ مُتَكَبِّرٌ قُدُّوسٌ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، إِلَى جَمِيعِ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ الْأَئِمَّةُ، فَذَلِكَ كَافٍ فِي صِحَّةِ الدِّينِ، وَإِنْ تَشَابَهَ عَلَيْكَ شَيْءٌ فَقُلْ آمَنَّا كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَاعْتَقِدْ كُلَّ مَا وَرَدَ فِي إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ وَنَفْيِهَا عَلَى غَايَةِ التَّعْظِيمِ وَالتَّقْدِيسِ مَعَ نَفْيِ الْمُمَاثَلَةِ وَاعْتِقَادِ أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَبَعْدَ هَذَا لَا تَلْتَفِتْ إِلَى الْقِيلِ وَالْقَالِ فَإِنَّكَ غَيْرُ مَأْمُورٍ بِهِ، وَلَا هُوَ عَلَى حَدِّ طَاقَتِكَ، فَإِنْ أَخَذَ يَتَحَذْلَقُ[1] وَيَقُولُ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ عَالِمٌ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّهُ عَالِمٌ بِالذَّاتِ، أَوْ بِعِلْمٍ زَائِدٍ عَلَيْهِ، وَقَدِ اخْتَلَفَ فِيهِ الْأَشْعَرِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ، فَقَدْ خَرَجَ بِهَذَا عَنْ حَدِّ الْعَوَامِّ، إِذِ الْعَامِّيُّ لَا يَلْتَفِتُ قَلْبُهُ إِلَى مِثْلِ هَذَا مَا لَمْ يُحَرِّكْهُ

(١) تحذلق: أظهر الحذق وادعى بأكثر مما عنده

شَيْطَانُ ٱلْجَدَلِ ، فَإِنَّ ٱللهَ لَا يُهْلِكُ قَوْمًا إِلَّا يُؤْتِيهِمُ ٱلْجَدَلَ ذَلِكَ وَرَدَ ٱلْخَبَرُ ، وَإِذَا ٱلْتَحَقَ بِأَهْلِ ٱلْجَدَلِ فَسَأَذْكُرُ عِلَاجَهُمْ ، هَذَا مَا أَعِظُ بِهِ فِي ٱلْأُصُولِ وَهُوَ ٱلْإِحَالَةُ عَلَى كِتَابِ ٱللهِ ، فَإِنَّ ٱللهَ أَنْزَلَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ وَٱلْحَدِيدَ ، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ ٱلْإِحَالَةِ عَلَى ٱلْكِتَابِ .

وَأَمَّا ٱلْفُرُوعُ فَأَقُولُ : لَا تَشْغَلْ قَلْبَكَ بِمَوَاقِعِ ٱلْخِلَافِ مَا لَمْ تَفْرُغْ مِنْ جَمِيعِ ٱلْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ ، فَقَدِ ٱتَّفَقَتِ ٱلْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ زَادَ ٱلْآخِرَةِ هُوَ ٱلتَّقْوَى وَٱلْوَرَعُ ، وَأَنَّ ٱلْكَسْبَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْمَالَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْغِيبَةَ وَٱلنَّمِيمَةَ وَٱلزِّنَا وَٱلسَّرِقَةَ وَٱلْخِيَانَةَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ ٱلْمَحْظُورَاتِ حَرَامٌ ، وَٱلْفَرَائِضُ كُلُّهَا وَاجِبَةٌ ، فَإِنْ فَرَغْتَ مِنْ جَمِيعِهَا عَلَّمْتُكَ طَرِيقَ ٱلْخَلَاصِ مِنَ ٱلْخِلَافِ فَإِنْ هُوَ طَالَبَنِي بِهَا قَبْلَ ٱلْفَرَاغِ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، فَهُوَ جَدَلِيٌّ وَلَيْسَ بِعَامِيٍّ . وَمَتَى تَفَرَّغَ ٱلْعَامِّيُّ مِنْ هَذَا إِلَى مَوَاضِعِ ٱلْخِلَافِ ؟ أَفَرَأَيْتَ رُفَقَاءَكَ قَدْ فَرَغُوا مِنْ جَمِيعِ هَذَا ، ثُمَّ أَخَذَ إِشْكَالُ ٱلْخِلَافِ

بِمَخْنَقِهِمْ (١) . هَيْهَاتَ مَا أَشْبَهُ ضَعْفَ عُقُولِهِمْ فِي خِلَافِهِمْ إِلَّا بِعَقْلِ مَرِيضٍ بِهِ مَرَضٌ أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ لَهُ عِلَاجٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْأَطِبَّاءِ، وَهُوَ يَقُولُ: قَدِ اخْتَلَفَ الْأَطِبَّاءُ فِي بَعْضِ الْأَدْوِيَةِ أَنَّهَا حَارَّةٌ أَوْ بَارِدَةٌ، وَرُبَّمَا افْتَقَرْتُ إِلَيْهِ يَوْمًا، فَأَنَا لَا أُعَالِجُ نَفْسِي حَتَّى أَجِدَ مَنْ يُعَلِّمُنِي رَفْعَ الْخِلَافِ فِيهِ . نَعَمْ لَوْ رَأَيْتُمْ صَالِحًا قَدْ فَرَغَ مِنْ حُدُودِ التَّقْوَى كُلِّهَا . وَقَالَ هَأَنَا تُشْكِلُ عَلَيَّ مَسَائِلُ فَإِنِّي لَا أَدْرِي أَأَتَوَضَّأُ مِنَ اللَّمْسِ وَالْقَيْءِ وَالرُّعَافِ وَأَنْوِي الصَّوْمَ بِاللَّيْلِ فِي رَمَضَانَ أَوْ بِالنَّهَارِ؟ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ . فَأَقُولُ لَهُ: إِنْ كُنْتَ تَطْلُبُ الْأَمَانَ فِي طَرِيقِ الْآخِرَةِ فَاسْلُكْ سَبِيلَ الِاحْتِيَاطِ وَخُذْ بِمَا يَتَّفِقُ عَلَيْهِ الْجَمِيعُ فَتَوَضَّأْ مِنْ كُلِّ مَا فِيهِ خِلَافٌ فَإِنَّ كُلَّ مَنْ لَا يُوجِبُهُ يَسْتَحِبُّهُ وَانْوِ الصَّوْمَ بِاللَّيْلِ فِي رَمَضَانَ فَإِنَّ مَنْ لَا يُوجِبُهُ يَسْتَحِبُّهُ . فَإِنْ قَالَ: هُوَ ذَا يَثْقُلُ عَلَيَّ الِاحْتِيَاطُ، وَيَعْرِضُ لِي مَسَائِلَ تَدُورُ بَيْنَ النَّفْيِ

(١) المخنق: موضع حبل الخنق من العنق

وَالْإِثْبَاتِ وَقَالَ: لَا أَدْرِي، أَأَقْنُتُ فِي الصُّبْحِ أَمْ لَا؟؟ وَأَجْهَرُ بِالتَّسْمِيَةِ أَمْ لَا؟ فَأَقُولُ لَهُ: الْآنَ اجْتَهِدْ مَعَ نَفْسِكَ، وَانْظُرْ إِلَى الْأَئِمَّةِ أَيُّهُمْ أَفْضَلُ عِنْدَكَ؟ وَصَوَابُهُ أَغْلَبُ عَلَى قَلْبِكَ. كَمَا لَوْ كُنْتَ مَرِيضًا وَفِي الْبَلَدِ أَطِبَّاءُ، فَإِنَّكَ تَخْتَارُ بَعْضَ الْأَطِبَّاءِ بِاجْتِهَادِكَ لَا بِهَوَاكَ وَطَبْعِكَ، فَيَكْفِيكَ مِثْلُ ذَلِكَ الِاجْتِهَادِ فِي أَمْرِ دِينِكَ، فَمَنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّكَ أَنَّهُ الْأَفْضَلُ فَاتَّبِعْهُ، فَإِنْ أَصَابَ فِيمَا قَالَ عِنْدَ اللَّهِ فَلَهُ فِي ذَلِكَ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ عِنْدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَكَذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذْ قَالَ: «مَنِ اجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَمَنِ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ» وَرَدَّ اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْرَ إِلَى أَهْلِ الِاجْتِهَادِ، وَقَالَ تَعَالَى «لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ» وَارْتَضَى الِاجْتِهَادَ لِأَهْلِهِ إِذْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِمُعَاذٍ «بِمَ تَحْكُمُ؟ قَالَ: بِكِتَابِ اللَّهِ، قَالَ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟ قَالَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: فَإِنْ لَمْ

تَجِدْ ؟ قَالَ أَجْتَهِدُ بِرَأْيِي قَالَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ أَمَرَهُ بِهِ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَذِنَ لَهُ فِيهِ . فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يَرْضَاهُ رَسُولُ اللهِ » فَفُهِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّه مَرْضِيٌّ بِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِمُعَاذٍ وَغَيْرِهِ كَمَا قَالَ الْأَعْرَابِيُّ : إِنِّي هَلَكْتُ وَأَهْلَكْتُ ، وَاقَعْتُ أَهْلِي فِي نَهَارِ رَمَضَانَ فَقَالَ أَعْتِقْ رَقَبَةً فَفُهِمَ أَنَّ التُّرْكِيَّ أَوِ الْهِنْدِيَّ لَوْ جَامَعَ أَيْضًا لَزِمَهُ الْإِعْتَاقُ وَهَذَا لِأَنَّ الْخَلْقَ مَا كُلِّفُوا الصَّوَابَ عِنْدَ اللهِ فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مَقْدُورٍ عَلَيْهِ وَلَا تَكْلِيفَ بِمَا لَا يُطَاقُ بَلْ كُلِّفُوا مَا يَظُنُّونَهُ صَوَابًا كَمَا لَمْ يُكَلَّفُوا الصَّلَاةَ بِثَوْبٍ طَاهِرٍ ، بَلْ بِثَوْبٍ يَظُنُّونَهُ أَنَّهُ طَاهِرٌ ، فَلَوْ تَذَكَّرُوا نَجَاسَتَهُ لَمْ يَلْزَمْهُمُ الْقَضَاءُ ، إِذْ نَزَعَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَعْلَهُ فِي أَثْنَاءِ الصَّلَاةِ لَمَّا أَنْبَأَهُ جِبْرِيلُ أَنَّ عَلَيْهِ قَذَرًا ، وَلَمْ يُعِدِ الصَّلَاةَ وَلَمْ يَسْتَأْنِفْ ، وَكَذَلِكَ لَمْ

يُكَلَّفْ أَنْ يُصَلِّيَ إِلَى الْقِبْلَةِ بَلْ إِلَى جِهَةٍ يَظُنُّ أَنَّهَا الْقِبْلَةُ بِالِاسْتِدْلَالِ بِالْجِبَالِ وَالْكَوَاكِبِ وَالشَّمْسِ ، فَإِنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِلَّا فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ ، وَلَمْ يُكَلَّفُوا أَدَاءَ الزَّكَاةِ إِلَى الْفَقِيرِ بَلْ إِلَى مَنْ ظَنُّوا فَقْرَهُ ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُعْرَفُ بَاطِنُهُ وَلَمْ يُكَلَّفِ الْقُضَاةُ فِي سَفْكِ الدِّمَاءِ وَإِبَاحَةِ الْفُرُوجِ طَلَبَ شُهُودٍ يَعْلَمُونَ صِدْقَهُمْ ، بَلْ مَنْ يَظُنُّونَ صِدْقَهُ ، وَإِذَا جَازَ سَفْكُ دَمٍ بِظَنٍّ يَحْتَمِلُ الْخَطَأَ وَهُوَ ظَنُّ صِدْقِ الشُّهُودِ ، فَلِمَ لَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ بِظَنِّ شَهَادَةِ الْأَدِلَّةِ عِنْدَ الِاجْتِهَادِ . وَلَيْتَ شِعْرِي مَاذَا يَقُولُ رُفَقَاؤُكَ فِي هَذَا ؟ يَقُولُونَ إِذَا اشْتَبَهَتْ عَلَيْهِ الْقِبْلَةُ يُؤَخِّرُ الصَّلَاةَ حَتَّى يُسَافِرَ إِلَى الْإِمَامِ وَيَسْأَلَهُ أَوْ يُكَلِّفَهُ الْإِصَابَةَ الَّتِي لَا يُطِيقُهَا أَوْ يَقُولَ اجْتَهِدْ لِمَنْ لَا يُمْكِنُهُ الِاجْتِهَادُ إِذْ لَا يَعْرِفُ أَدِلَّةَ الْقِبْلَةِ ، وَكَيْفِيَّةَ الِاسْتِدْلَالِ بِالْكَوَاكِبِ وَالْجِبَالِ وَالرِّيَاحِ ، قَالَ : لَا أَشُكُّ فِي أَنَّهُ يَأْذَنُ لَهُ فِي الِاجْتِهَادِ ، ثُمَّ لَا يُؤَثِّمُهُ إِذَا بَذَلَ كُنْهَ مَجْهُودِهِ ، وَإِنْ

أَخْطَأَ أَوْ صَلَّى إِلَى غَيْرِ ٱلْقِبْلَةِ . قُلْتُ : فَإِذَا كَانَ مَنْ جَعَلَ ٱلْقِبْلَةَ خَلْفَهُ مَعْذُورًا مَأْجُورًا ، فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ مَنْ أَخْطَأَ فِي سَائِرِ ٱلِاجْتِهَادَاتِ مَعْذُورًا ، فَٱلْمُجْتَهِدُونَ وَمُقَلِّدُوهُمْ كُلُّهُمْ مَعْذُورُونَ ، بَعْضُهُمْ يُصِيبُونَ مَا عِنْدَ ٱللهِ ، وَبَعْضُهُمْ يُشَارِكُونَ ٱلْمُصِيبِينَ فِي أَحَدِ ٱلْأَجْرَيْنِ ، فَمَنَاصِبُهُمْ مُتَقَارِبَةٌ وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَتَعَانَدُوا ، وَأَنْ يَتَعَصَّبَ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ ، لَاسِيَّمَا وَٱلْمُصِيبُ لَا يَتَعَيَّنُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّهُ مُصِيبٌ ، كَمَا لَوِ ٱجْتَهَدَ مُسَافِرَانِ فِي ٱلْقِبْلَةِ فَٱخْتَلَفَا فِي ٱلِاجْتِهَادِ ، فَحَقُّهُمَا أَنْ يُصَلِّيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى ٱلْجِهَةِ ٱلَّتِي غَلَبَتْ عَلَى ظَنِّهِ وَأَنْ يَكُفَّ إِنْكَارَهُ وَإِعْرَاضَهُ وَٱعْتِرَاضَهُ عَلَى صَاحِبِهِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يُكَلَّفْ إِلَّا ٱسْتِعْمَالَ مُوجَبِ ظَنِّهِ .

أَمَّا ٱسْتِقْبَالُ عَيْنِ ٱلْقِبْلَةِ عِنْدَ ٱللهِ فَلَا يُقْدَرُ عَلَيْهِ وَكَذَلِكَ كَانَ مُعَاذٌ فِي ٱلْيَمَنِ يَجْتَهِدُ لَا عَلَى ٱعْتِقَادِ أَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ مِنْهُ ٱلْخَطَأُ ، لَكِنْ عَلَى ٱعْتِقَادِ أَنَّهُ إِنْ أَخْطَأَ كَانَ مَعْذُورًا ، وَهَذَا لِأَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلْوَضْعِيَّةَ ٱلشَّرْعِيَّةَ ٱلَّتِي

يُتَصَوَّرُ أَنْ تَخْتَلِفَ بِهَا ٱلشَّرَائِعُ يَقْرُبُ فِيهَا ٱلشَّيْءُ مِنْ نَقِيضِهِ بَعْدَ كَوْنِهِ مَظْنُونًا فِي سِرِّ ٱلِاسْتِبْصَارِ .

وَأَمَّا مَالَا تَتَغَيَّرُ فِيهِ ٱلشَّرَائِعُ فَلَيْسَ فِيهِ ٱخْتِلَافٌ ، وَحَقِيقَةُ هَذَا ٱلْفَصْلِ تَعْرِفُهُ مِنْ أَسْرَارِ ٱتِّبَاعِ ٱلسُّنَّةِ وَقَدْ ذَكَرْتُهُ فِي ٱلْأَصْلِ ٱلْعَاشِرِ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلظَّاهِرَةِ مِنْ كِتَابِ « جَوَاهِرِ ٱلْقُرْآنِ ».

***

الصنف الثالث أهل الجدل

« وَأَمَّا ٱلصِّنْفُ ٱلثَّالِثُ » وَهُمْ أَهْلُ ٱلْجَدَلِ فَإِنِّي أَدْعُوهُمْ بِالتَّلَطُّفِ إِلَى ٱلْحَقِّ وَأَعْنِي بِالتَّلَطُّفِ، أَلَّا أَتَعَصَّبَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا أُعَنِّفَهُمْ ، لَكِنْ أَرْفُقُ وَأُجَادِلُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، وَكَذَلِكَ أَمَرَ ٱللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ، وَمَعْنَى ٱلْمُجَادَلَةِ بِالْأَحْسَنِ أَنْ آخُذَ ٱلْأُصُولَ ٱلَّتِي يُسَلِّمُهَا ٱلْجَدَلِيُّ ، وَأَسْتَنْتِجُ مِنْهَا ٱلْحَقَّ بِالْمِيزَانِ ٱلْمُحَقِّقِ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي أَوْرَدْتُهُ فِي كِتَابِ « ٱلِاقْتِصَادِ فِي ٱلِاعْتِقَادِ » وَإِلَى ذَلِكَ ٱلْحَدِّ فَإِنْ لَمْ يُقْنِعْهُ ذَلِكَ ، لِتَشَوُّفِهِ بِفِطْنَتِهِ إِلَى مَزِيدِ كَشْفٍ رَغَّبْتُهُ

فِي تَعَلُّمِ ٱلْمَوَازِينِ ، فَإِنْ لَمْ يُقْنِعْهُ لِبَلَادَتِهِ وَإِصْرَارِهِ عَلَى تَعَصُّبِهِ وَلَجَاجِهِ وَعِنَادِهِ، عَالَجْتُهُ بِالْحَدِيدِ ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ ٱلْحَدِيدَ وَٱلْمِيزَانَ قَرِينَيِ ٱلْكِتَابِ، لِيُفْهِمَ مِنْهُ أَنَّ جَمِيعَ ٱلْخَلَائِقِ لَا يَقُومُونَ بِالْقِسْطِ إِلَّا بِهَذِهِ ٱلثَّلَاثِ فَٱلْكِتَابُ لِلْعَوَامِّ ، وَٱلْمِيزَانُ لِلْخَوَاصِّ ، وَٱلْحَدِيدُ ٱلَّذِي فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنَ ٱلْكِتَابِ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللهُ وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ دُونَ أَهْلِ ٱلْجَدَلِ ، وَأَعْنِي بِأَهْلِ ٱلْجَدَلِ طَائِفَةً فِيهِمْ كِيَاسَةٌ تَرَقَّوْا بِهَا عَنِ ٱلْعَوَامِّ ، وَلَكِنَّ كِيَاسَتَهُمْ نَاقِصَةٌ ، إِذْ كَانَتْ ٱلْفِطْرَةُ كَامِلَةً ، لَكِنْ فِي بَاطِنِهِمْ خُبْثٌ وَعِنَادٌ وَتَعَصُّبٌ وَتَقْلِيدٌ ، فَذَلِكَ يَمْنَعُهُمْ عَنْ إِدْرَاكِ ٱلْحَقِّ ، وَتَكُونُ هَذِهِ ٱلصِّفَاتُ أَكِنَّةً عَلَى قُلُوبِهِمْ ، أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا[1] ، لَكِنْ لَمْ تُهْلِكْهُمْ إِلَّا كِيَاسَتُهُمْ

(١) وقرت أذنه : ثقلت أو ذهب سمعه كله وصم

النَّاقِصَةُ فَإِنَّ الْفِطْنَةَ الْبَتْرَاءَ وَالْكِيَاسَةَ النَّاقِصَةَ شَرٌّ مِنَ الْبَلَاهَةِ بِكَثِيرٍ .

وَفِي الْخَبَرِ، أَنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ، وَأَنَّ عِلِّيِّينَ لِذَوِي الْأَلْبَابِ، وَيَخْرُجُ مِنْ جُمْلَةِ الْفَرِيقَيْنِ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، وَيَزَعُ (١) اللهُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ ، وَهَؤُلَاءِ يَنْبَغِي أَنْ يُمْنَعُوا مِنَ الْجِدَالِ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ ، كَمَا فَعَلَ عُمَرُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - بِرَجُلٍ إِذْ سَأَلَهُ عَنْ آيَتَيْنِ مُتَشَابِهَتَيْنِ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى فَعَلَاهُ بِالدِّرَّةِ وَكَمَا قَالَ مَالِكٌ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - لَمَّا سُئِلَ عَنِ الْاِسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ فَقَالَ : الْاِسْتِوَاءُ حَقٌّ ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ ، وَالْكَيْفِيَّةُ مَجْهُولَةٌ ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ ، وَحَسَمَ بِذَلِكَ بَابَ الْجِدَالِ . وَكَذَلِكَ فَعَلَ السَّلَفُ كُلُّهُمْ وَفِي فَتْحِ بَابِ الْجِدَالِ ضَرَرٌ عَظِيمٌ عَلَى عِبَادِ اللهِ تَعَالَى ، فَهَذَا مَذْهَبِي فِي دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الْحَقِّ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْحَقِّ ، وَذَلِكَ بِأَنَّ دَعْوَةَ الْخَوَاصِّ إِلَى

(١) يزع : يكف ويمنع ويحبس

ٱلْحِكْمَةِ بِتَعْلِيمِ ٱلْمِيزَانِ حَتَّى إِذَا تَعَلَّمَ ٱلْمِيزَانَ ٱلْقِسْطَ لَمْ يَقْدِرْ بِهِ عَلَى عِلْمٍ وَاحِدٍ بَلْ عَلَى عُلُومٍ كَثِيرَةٍ ، فَإِنَّ مَنْ مَعَهُ مِيزَانٌ فَإِنَّهُ يَعْرِفُ بِهِ مَقَادِيرَ أَعْيَانٍ لَا نِهَايَةَ لَهَا كَذَلِكَ مَنْ مَعَهُ ٱلْقِسْطَاسُ ٱلْمُسْتَقِيمُ فَمَعَهُ ٱلْحِكْمَةُ ٱلَّتِي مَنْ أُوتِيهَا فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا لَا نِهَايَةَ لَهُ ، وَلَوْلَا ٱسْتِعْمَالُ ٱلْقُرْآنِ عَلَى ٱلْمَوَازِينِ لَمَا صَحَّ تَسْمِيَةُ ٱلْقُرْآنِ نُورًا لِأَنَّ ٱلنُّورَ مَا يُبْصَرُ بِنَفْسِهِ وَيُبْصَرُ بِهِ غَيْرُهُ ، وَهُوَ نَعْتُ ٱلْمِيزَانِ وَلَمَا صَدَقَ قَوْلُهُ «وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» فَإِنَّ جَمِيعَ ٱلْعُلُومِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي ٱلْقُرْآنِ بِٱلتَّصْرِيحِ وَلَكِنْ مَوْجُودَةٌ فِيهِ بِٱلْقُوَّةِ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْمَوَازِينِ ٱلْقِسْطِ ٱلَّتِي بِهَا تُفْتَحُ أَبْوَابُ ٱلْحِكْمَةِ ٱلَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا ، فَبِهَذَا أَدْعُو ٱلْخَوَاصَّ وَدَعَوْتُ ٱلْعَوَامَّ بِٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ بِٱلْإِحَالَةِ عَلَى ٱلْكِتَابِ وَٱلِاقْتِصَارِ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ ٱلصِّفَاتِ ٱلثَّابِتَةِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَدَعَوْتُ أَهْلَ ٱلْجَدَلِ بِٱلْمُجَادَلَةِ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِنْ أَبَى أَعْرَضْتُ عَنْ مُخَاطَبَتِهِ وَكَفَفْتُ شَرَّهُ بِيَأْسٍ

ٱلسُّلْطَانِ وَٱلْحَدِيدِ ٱلْمُنَزَّلِ مَعَ ٱلْمِيزَانِ. فَلَيْتَ شِعْرِى ٱلْآنَ - يَارَفِيقِى - بِمَ يُعَالِجُ إِمَامُكَ هَؤُلَاءِ ٱلْأَصْنَافَ ٱلثَّلَاثَةَ ؟ أَيُعَلِّمُ ٱلْعَوَامَّ فَيُكَلِّفُهُمْ مَالَا يَفْهَمُونَ، وَيُخَالِفُ رَسُولَ ٱللهِ - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَوْ يُخْرِجُ ٱلْجِدَالَ مِنْ أَدْمِغَةِ ٱلْمُجَادِلِينَ بِٱلْمُحَاجَّةِ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ رَسُولُ ٱللهِ - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ كَثْرَةِ مُحَاجَّةِ ٱللهِ تَعَالَى فِى ٱلْقُرْآنِ مَعَ ٱلْكُفَّارِ؟؟ فَمَا أَعْظَمَ قُدْرَةَ إِمَامِكَ إِذْ صَارَ أَقْدَرَ مِنَ ٱللهِ تَعَالَى وَمِنْ رَسُولِهِ أَوْ يَدْعُو أَهْلَ ٱلْبَصِيرَةِ إِلَى تَقْلِيدِهِ وَهُمْ لَا يَتْبَلُونَ قَوْلَ ٱلرَّسُولِ - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِٱلتَّقْلِيدِ، وَلَا يَقْنَعُونَ بِقَلْبِ ٱلْعَصَا ثُعْبَانًا، بَلْ يَقُولُونَ هُوَ فِعْلٌ غَرِيبٌ وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ يَلْزَمُ مِنْهُ صِدْقُ فَاعِلِهِ، وَفِى ٱلْعَالَمِ مِنْ غَرَائِبِ ٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمَاتِ مَا تَتَحَيَّرُ فِيهِ ٱلْعُقُولُ، وَلَا يَقْوَى عَلَى تَمْيِيزِ ٱلْمُعْجِزَةِ عَنِ ٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ جَمِيعَهَا وَجُمْلَةَ أَنْوَاعِهَا لِيَعْلَمَ أَنَّ ٱلْمُعْجِزَ خَارِجٌ عَنْهَا، كَمَا عَرَفَ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ مُعْجِزَةَ مُوسَى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - إِذْ كَانُوا

مِنْ أَئِمَّةِ السَّحَرَةِ . وَمَنْ الَّذِى يَقْوَى عَلَى ذَلِكَ بَلْ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ يُرِيدُونَ مَعَ الْمُعْجِزَةِ أَنْ يَعْلَمُوا صِدْقَهُ مِنْ قَوْلِهِ كَمَا يَعْلَمُ مُتَعَلِّمُ الْحِسَابِ مِنْ نَفْسِ الْحِسَابِ صِدْقَ أُسْتَاذِهِ فِى قَوْلِهِ إِنِّى حَاسِبٌ ، فَهَذِهِ هِىَ الْمَعْرِفَةُ الْيَقِينِيَّةُ الَّتِى بِهَا يَقْنَعُ أُولُو الْأَلْبَابِ وَأَهْلُ الْبَصَائِرِ وَلَا يَقْنَعُونَ بِغَيْرِهَا الْبَتَّةَ وَهُمْ إِذَا عَرَفُوا بِمِثْلِ هَذَا الْمِنْهَاجِ صِدْقَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَصِدْقَ الْقُرْآنِ وَفَهِمُوا مَوَازِينَ الْقُرْآنِ كَمَا ذَكَرْتُ لَكَ وَأَخَذُوا مِنْهُ مَفَاتِيحَ الْعُلُومِ كُلِّهَا مَعَ الْمَوَازِينِ ، كَمَا ذَكَرْتُهُ فِى كِتَابِ «جَوَاهِرِ الْقُرْآنِ» فَمِنْ أَيْنَ يَحْتَاجُونَ إِلَى إِمَامِكَ الْمَعْصُومِ وَمَا الَّذِى حَلَّ مِنْ إِشْكَالَاتِ الدِّينِ وَعَنْ مَاذَا كَشَفَ مِنْ غَوَامِضِهِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: «هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ» وَقَدْ سَمِعْتَ الْآنَ مِنْهَاجِى فِى مَوَازِينِ الْعُلُومِ فَأَرِنِى مَاذَا اقْتَبَسْتَهُ مِنْ غَوَامِضِ الْعُلُومِ مِنْ إِمَامِكَ إِلَى الْآنَ ، وَمَا الَّذِى يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ ، وَلَيْتَ شِعْرِى مَا الَّذِى تَعَلَّمْتَ مِنْ إِمَامِكَ الْمَعْصُومِ أَرِنِى مَا رَأَيْتَهَا :

ما يسدى بى - تسدى أوت

خرابن وقلب يارفوت [1]

فَلَيْسَ ٱلْغَرَضُ مِنَ ٱلدَّعْوَةِ إِلَى ٱلْمَائِدَةِ مُجَرَّدَ ٱلدَّعْوَةِ دُونَ ٱلْأَكْلِ وَٱلتَّنَاوُلِ مِنْهَا، وَإِنِّي أَرَاكُمْ تَدْعُونَ ٱلنَّاسَ إِلَى ٱلْإِمَامِ، ثُمَّ أَرَى ٱلْمُسْتَجِيبَ لِإِمَامِكَ بَعْدَ ٱلِاسْتِجَابَةِ عَلَى جَهْلِهِ ٱلَّذِي كَانَ قَبْلَهُ لَمْ يَحُلَّ لَهُ ٱلْإِمَامُ عَقْدًا، بَلْ رُبَّمَا عَقَدَ لَهُ حَلًّا وَلَمْ تُفِدْهُ ٱسْتِجَابَتُهُ لَهُ عِلْمًا، بَلْ رُبَّمَا زَادَ بِهِ طُغْيَانًا وَجَهْلًا. فَقَالَ: قَدْ طَالَتْ صُحْبَتِي مَعَ رُفَقَائِي وَلَكِنْ مَا تَعَلَّمْتُ مِنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ عَلَيْكَ بِمَذْهَبِ ٱلتَّعْلِيمِ، وَإِيَّاكَ وَٱلرَّأْيَ وَٱلْقِيَاسَ فَإِنَّهُ مُتَعَارِضٌ مُخْتَلِفٌ. قُلْتُ: فَمِنَ ٱلْغَرَائِبِ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى ٱلتَّعْلِيمِ فَاسْتَجَبْتُ فَعَلِّمُونِي مَا عِنْدَكُمْ فَقَالَ: مَا أَرَاهُمْ يَزِيدُونَنِي عَلَى هَذَا شَيْئًا. قُلْتُ: فَإِنِّي قَائِلٌ أَيْضًا بِالتَّعْلِيمِ وَبِالْإِمَامِ وَبِبُطْلَانِ ٱلرَّأْيِ وَٱلْقِيَاسِ وَأَنَا أَزِيدُكَ عَلَى هَذَا لَوْ أَطَقْتَ تَرْكَ ٱلتَّقْلِيدِ تَعْلِيمَ غَرَائِبِ

(١) وجد هذا البيت بالأصل هكذا

ٱلْعُلُومِ وَأَسْرَارِ ٱلْقُرْآنِ فَأَسْتَخْرِجُ لَكَ مِنْهُ مَفَاتِيحَ ٱلْعُلُومِ كُلِّهَا كَمَا ٱسْتَخْرَجْتُ مِنْهُ مَوَازِينَ ٱلْعُلُومِ كُلِّهَا عَلَى مَا أَشَرْتُ إِلَى كَيْفِيَّةِ ٱنْشِعَابِ ٱلْعُلُومِ كُلِّهَا مِنْهُ فِي كِتَابِ «جَوَاهِرِ ٱلْقُرْآنِ» لَكِنِّي لَسْتُ أَدْعُو إِلَى إِمَامٍ سِوَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَا إِلَى كِتَابٍ سِوَى ٱلْقُرْآنِ فَمِنْهُ أَسْتَخْرِجُ جَمِيعَ أَسْرَارِ ٱلْعُلُومِ: وَبُرْهَانِي عَلَى ذَلِكَ لِسَانِي وَبَيَانِي. وَعَلَيْكَ إِنْ شَكَكْتَ تَجْرِيبِي وَٱمْتِحَانِي أَفْتَرَانِي أَوْلَى بِأَنْ يُتَعَلَّمَ مِنِّي مِنْ رُفَقَائِكَ أَمْ لَا؟

***

تصاوير الرأى والقياس

« ٱلْقَوْلُ فِى تَصَاوِيرِ ٱلرَّأْىِ وَٱلْقِيَاسِ »
وَإِظْهَارِ بُطْلَانِهِمَا

فَقَالَ أَمَّا ٱلِانْقِطَاعُ عَنِ ٱلرُّفَقَاءِ وَٱلتَّعْلِيمِ مِنْكَ فَرُبَّمَا يَمْنَعُنِى مِنْهُ مَاحَكَيْتُهُ لَكَ مِنْ وَصِيَّةِ وَالِدَتِى حِينَ كَانَتْ تَمُوتُ، وَلَكِنِّى أَشْتَهِى أَنْ تَكْشِفَ عَنْ وَجْهِ فَسَادِ ٱلرَّأْىِ وَٱلْقِيَاسِ فَإِنِّى أَظُنُّكَ تَسْتَضْعِفُ عَقْلِى فَتُلَبِّسَ عَلَىَّ فَتُسَمِّىَ ٱلْقِيَاسَ، وَٱلرَّأْىَ مِيزَانًا وَتَتْلُوَ عَلَى وَفْقِ ذَلِكَ قُرْآنًا وَأَنَا أَظُنُّهُ أَنَّهُ بِعَيْنِهِ ٱلْقِيَاسُ ٱلَّذِى يَدَّعِيهِ أَصْحَابُكَ. قُلْتُ: هَيْهَاتَ فَهَا أَنَا أَشْرَحُ لَكَ مَا أُرِيدُهُ وَأَرَادُوهُ بِالرَّأْىِ وَٱلْقِيَاسِ، أَمَّا ٱلرَّأْىُ وَٱلْقِيَاسُ، فَمِثَالُهُ قَوْلُ ٱلْمُعْتَزِلَةِ: يَجِبُ عَلَى ٱللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - رِعَايَةُ ٱلْأَصْلَحِ لِعِبَادِهِ وَإِذَا طُولِبُوا بِتَحْقِيقِهِ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى شَىْءٍ إِلَّا أَنَّهُ رَأْىٌ ٱسْتَحْسَنُوهُ بِعُقُولِهِمْ مِنْ مُقَايَسَةِ ٱلْخَالِقِ عَلَى ٱلْخَلْقِ وَتَشْبِيهِ حِكْمَتِهِ بِحِكْمَتِهِمْ وَمُسْتَحْسَنَاتُ ٱلْعُقُولِ هُوَ ٱلرَّأْىُ ٱلَّذِى لَا أَرَى ٱلتَّعْوِيلَ

عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ يُنْتِجُ نَتَائِجَ تَشْهَدُ مَوَازِينُ ٱلْقُرْآنِ بِفَسَادِهَا كَهَذِهِ ٱلْمَقَالَةِ ، فَإِنِّي إِذَا وَزَنْتُهَا بِمِيزَانِ ٱلتَّلَازُمِ قُلْتُ : لَوْ كَانَ ٱلْأَصْلَحُ وَاجِبًا عَلَى ٱللهِ تَعَالَى لَفَعَلَهُ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْهُ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ وَاجِبٍ فَإِنَّهُ لَا يَتْرُكُ ٱلْوَاجِبَ ، فَإِنْ قِيلَ : سَلَّمْتُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ وَاجِبًا لَفَعَلَهُ وَلَكِنْ لَا أُسَلِّمُ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْهُ . فَأَقُولُ : لَوْ فَعَلَ ٱلْأَصْلَحَ لَخَلَقَهُمْ فِي ٱلْجَنَّةِ وَتَرَكَهُمْ فِيهَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَصْلَحُ لَهُمْ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ٱلْأَصْلَحَ وَهَذِهِ أَيْضًا نَتِيجَةٌ مِنْ مِيزَانِ ٱلتَّلَازُمِ . وَٱلْآنَ ٱلْخَصْمُ بَيْنَ أَنْ يُنْكِرَ وَيَقُولَ تَرَكَهُمْ فِي ٱلْجَنَّةِ فَيُشَاهَدَ كَذِبُهُ أَوْ يَقُولَ : كَانَ ٱلْأَصْلَحُ لَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى ٱلدُّنْيَا دَارِ ٱلْبَلَايَا وَيُعَرِّضَهُمْ لِلْخَطَايَا ، ثُمَّ يَقُولَ لِآدَمَ يَوْمَ يَكْشِفُ عَنِ ٱلْخَفَايَا : أَخْرِجْ يَا آدَمُ نَصِيبَ ٱلنَّارِ فَيَقُولُ كَمْ ؟ فَيَقُولُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ كَمَا وَرَدَ فِي ٱلْخَبَرِ ٱلصَّحِيحِ . وَيَزْعُمُ أَنَّ ذَلِكَ أَصْلَحُ لَهُمْ مِنْ خَلْقِهِمْ فِي ٱلْجَنَّةِ وَتَرْكِهِمْ

فِيهَا لِأَنَّ نَعِيمَهُمْ إِذْ ذَاكَ لَا يَكُونُ لِسَعْيِهِمْ وَاسْتِحْقَاقِهِمْ فَتَعْظُمُ الْمِنَّةُ عَلَيْهِمْ وَالْمِنَّةُ ثَقِيلَةٌ وَإِذَا سَمِعُوا وَأَطَاعُوا كَانَ مَا أَخَذُوهُ جَزَاءً وَأُجْرَةً لَا مِنَّةَ فِيهَا ، وَأَنَا أُنَزِّهُ سَمْعَكَ وَلِسَانِي عَنْ حِكَايَةِ مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ فَضْلًا عَنِ الْجَوَابِ عَنْهُ .

فَانْظُرْ فِيهِ لِتَرَى قَبَائِحَ نَتَائِجِ الرَّأْيِ كَيْفَ هِيَ؟ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُنْزِلُ الصِّبْيَانَ إِذَا مَاتُوا فِي مَنْزِلٍ مِنَ الْجَنَّةِ دُونَ مَنَازِلِ الْبَالِغِينَ الْمُطِيعِينَ . فَإِذَا قَالُوا : إِلٰهَنَا أَنْتَ لَا تَبْخَلُ بِالْأَصْلَحِ لَنَا ، وَالْأَصْلَحُ لَنَا أَنْ تُبَلِّغَنَا دَرَجَتَهُمْ ، فَيَقُولُ اللهُ عَلَى زَعْمِ الْمُعْتَزِلَةِ : كَيْفَ أُبَلِّغُكُمْ دَرَجَتَهُمْ وَقَدْ بَلَغُوا وَتَعِبُوا وَأَطَاعُوا وَأَنْتُمْ مُتُّمْ صِبْيَانًا ؟ فَيَقُولُونَ أَنْتَ أَمَتَّنَا فَحَرَمْتَنَا طُولَ الْمُقَامِ فِي الدُّنْيَا وَمَعَالِيَ الدَّرَجَاتِ فِي الْآخِرَةِ ، فَكَانَ الْأَصْلَحُ لَنَا وَالْأَصْلَحُ بِنَا أَنْ تُبَلِّغَنَا دَرَجَتَهُمْ أَوْ أَلَّا تُمِيتَنَا ، فَلِمَ أَمَتَّنَا ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى عَلَى رَأْيِ الْمُعْتَزِلَةِ : إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ لَوْ بَلَغْتُمْ لَكَفَرْتُمْ وَاسْتَحْقَقْتُمُ النَّارَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَعَلِمْتُ أَنَّ الْأَصْلَحَ لَكُمُ الْمَوْتُ فِي الصِّبَا ،

وَعِنْدَ هَذَا يُنَادِي ٱلْكُفَّارُ ٱلْبَالِغُونَ مِنْ دَرَكَاتِ ٱلنَّارِ يَصْطَرِخُونَ يَقُولُونَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا إِذَا بَلَغْنَا كَفَرْنَا فَهَلَّا أَمَتَّنَا فِي ٱلصِّبَا فَإِنَّا رَاضُونَ بِعُشْرِ عُشْرِ دَرَجَاتِ ٱلصِّبْيَانِ ، فَعِنْدَ هَذَا لَا يَبْقَى لِلْمُعْتَزِلِيِّ جَوَابٌ يُجِيبُ بِهِ عَنِ ٱللهِ تَعَالَى ، فَتَكُونُ ٱلْحُجَّةُ لِلْكُفَّارِ عَلَى ٱللهِ سُبْحَانَهُ ، تَعَالَى ٱللهُ عَنْ قَوْلِ ٱلظَّالِمِينَ عُلُوًّا كَبِيرًا . نَعَمْ لِفِعْلِ ٱلْأَصْلَحِ سِرٌّ يُسْتَمَدُّ مِنْ مَعْرِفَةِ سِرِّ ٱللهِ تَعَالَى فِي ٱلْقَدَرِ ، وَلَكِنَّ ٱلْمُعْتَزِلِيَّ لَا يَنْظُرُ مِنْ ذَلِكَ ٱلْأَصْلِ فَإِنَّهُ لَا يَطَّلِعُ بِبِضَاعَةِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ذَلِكَ ٱلسِّرِّ فَمِنْ هَذَا خَبَطَ خَبْطَ عَشْوَاءَ ، وَٱضْطَرَبَتْ عَلَيْهِ ٱلْآرَاءُ ، فَهَذَا مِثَالُ ٱلرَّأْيِ ٱلْبَاطِلِ عِنْدِي

وَأَمَّا مِثَالُ ٱلْقِيَاسِ فَهُوَ إِثْبَاتُ ٱلْحُكْمِ فِي شَيْءٍ بِٱلْقِيَاسِ عَلَى غَيْرِهِ ، كَقَوْلِ ٱلْمُجَسِّمَةِ : إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنْ قَوْلِهِمْ جِسْمٌ . قُلْنَا : لِمَ ؟ قَالُوا : لِأَنَّهُ فَاعِلٌ صَانِعٌ فَكَانَ جِسْمًا قِيَاسًا عَلَى سَائِرِ ٱلصُّنَّاعِ وَٱلْفَاعِلِينَ ، وَهَذَا هُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْبَاطِلُ كَمَا قُلْنَا ، لِمَ قُلْتُمْ إِنَّ ٱلْفَاعِلَ

كَانَ جِسْمًا لِأَنَّهُ فَاعِلٌ ؟ وَذَلِكَ لَا يُقْدَرُ عَلَى إِظْهَارِهِ مَهْمَا وُزِنَ بِمِيزَانِ ٱلْقُرْآنِ فَإِنَّ مِيزَانَهُ هُوَ ٱلْمِيزَانُ ٱلْأَكْبَرُ مِنْ مَوَازِينِ ٱلتَّعَادُلِ وَصُورَةُ وَزْنِهِ: كُلُّ فَاعِلٍ جِسْمٌ وَٱلْبَارِىءُ تَعَالَى فَاعِلٌ فَهُوَ أَيْضًا جِسْمٌ، فَنَقُولُ: نُسَلِّمُ أَنَّ ٱلْبَارِىءَ تَعَالَى فَاعِلٌ وَلَكِنْ لَا نُسَلِّمُ ٱلْأَصْلَ ٱلْأَوَّلَ وَهُوَ إِنَّ كُلَّ فَاعِلٍ جِسْمٌ فَمِنْ أَيْنَ عَرَفْتُمْ ذَلِكَ ؟ وَعِنْدَ هَذَا لَا يَبْقَى لَهُمْ إِلَّا ٱلِاعْتِصَامُ بِالِاسْتِقْرَاءِ وَٱلْقِسْمَةِ ٱلْمُنْتَشِرَةِ وَكِلَاهُمَا لَا حُجَّةَ فِيهِ . أَمَّا ٱلِاسْتِقْرَاءُ فَهُوَ أَنْ يَقُولَ تَصَفَّحْتُ ٱلْفَاعِلِينَ مِنْ حَائِكٍ وَحَجَّامٍ وَإِسْكَافٍ وَخَيَّاطٍ وَنَجَّارٍ وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ فَوَجَدْتُهُمْ أَجْسَامًا فَعَلِمْتُ أَنَّ كُلَّ فَاعِلٍ جِسْمٌ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَصَفَّحْتَ كُلَّ ٱلْفَاعِلِينَ أَوْ شَذَّ عَنْكَ فَاعِلٌ ؟ فَإِنْ قَالَ تَصَفَّحْتُ ٱلْبَعْضَ فَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ ٱلْحُكْمُ عَلَى ٱلْكُلِّ، وَإِنْ قَالَ تَصَفَّحْتُ ٱلْكُلَّ فَلَا نُسَلِّمُ لَهُ ذَلِكَ فَلَيْسَ كُلُّ ٱلْفَاعِلِينَ مَعْلُومًا عِنْدَهُ، كَيْفَ وَهَلْ تَصَفَّحَ فِي جُمْلَةِ ذَلِكَ فَاعِلَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَإِنْ لَمْ يَتَصَفَّحِ ٱلْكُلَّ بَلِ

ٱلْبَعْضَ لَمْ يَلْزَمْ ٱلْكُلُّ وَإِنْ تَصَفَّحَ فَهَلْ وَجَدَ جِسْمًا فَإِنْ قَالَ نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ فَإِذَا وَجَدْتَ ذَلِكَ فِي مُقَدِّمَةِ قِيَاسِكَ فَكَيْفَ جَعَلْتَهُ أَصْلًا تَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَيْهِ؟ فَجَعَلْتَ نَفْسَ وِجْدَانِكَ دَلِيلَ مَاوَجَدْتَهُ وَهَذَا خَطَأٌ. بَلْ مَا هُوَ فِي تَصَفُّحِهِ إِلَّا كَمَنْ يَتَصَفَّحُ ٱلْفَرَسَ وَٱلْإِبِلَ وَٱلْفِيلَ وَٱلْحَشَرَاتِ وَٱلطُّيُورَ فَيَرَاهَا تَمْشِي بِرِجْلٍ وَهُوَ لَمْ يَرَ ٱلْحَيَّةَ وَٱلدُّودَ فَيَحْكُمُ بِأَنَّ كُلَّ حَيَوَانٍ يَمْشِي بِرِجْلٍ. وَكَمَنْ يَتَصَفَّحُ ٱلْحَيَوَانَاتِ فَيَرَاهَا عِنْدَ ٱلْمَضْغِ جَمِيعَهَا تُحَرِّكُ ٱلْفَكَّ ٱلْأَسْفَلَ فَيَحْكُمُ بِأَنَّ كُلَّ حَيَوَانٍ يُحَرِّكُ عِنْدَ ٱلْمَضْغِ ٱلْفَكَّ ٱلْأَسْفَلَ وَهُوَ لَمْ يَرَ ٱلتِّمْسَاحَ فَإِنَّهُ يُحَرِّكُ ٱلْفَكَّ ٱلْأَعْلَى. وَهَذَا لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَلْفُ شَخْصٍ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ عَلَى حُكْمٍ وَيُخَالِفُ ٱلْأَلْفَ وَاحِدٌ وَهُوَ لَا يُفِيدُ بَرْدَ ٱلْيَقِينِ فَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْبَاطِلُ.

وَأَمَّا ٱعْتِصَامُهُ بِٱلْقِسْمَةِ ٱلْمُنْتَشِرَةِ فَكَقَوْلِهِ: سَبَرْتُ أَوْصَافَ ٱلْفَاعِلِينَ فَكَانُوا أَجْسَامًا لِكَوْنِهِمْ فَاعِلِينَ أَوْ

لِكَوْنِهِمْ مَوْجُودِينَ أَوْ كَيْتَ وَكَيْتَ ثُمَّ يُبْطِلُ جَمِيعَ الْأَجْسَامِ فَيَقُولُ فَيَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُمْ أَجْسَامٌ لِأَنَّهُمْ فَاعِلُونَ وَهَذِهِ هِيَ الْقِسْمَةُ الْمُنْتَشِرَةُ الَّتِي بِهَا يَزِنُ الشَّيْطَانُ مَقَايِيسَهُ وَقَدْ ذَكَرْنَا بُطْلَانَهَا، فَقَالَ: أَظُنُّ أَنَّهُ إِذَا بَطَلَ سَائِرُ الْأَقْسَامِ تَعَيَّنَ الْقِسْمُ الَّذِي أَرَادَهُ وَأَرَى هَذَا بُرْهَانًا قَوِيًّا عَلَيْهِ تَعْوِيلُ أَكْثَرِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي عَقَائِدِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي مَسْأَلَةِ رُؤْيَةِ الْبَارِئِ تَعَالَى مَرْئِيٌّ لِأَنَّ الْعَالَمَ مَرْئِيٌّ وَبَاطِلٌ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ مَرْئِيٌّ لِأَنَّهُ ذُو بَيَاضٍ لِأَنَّ السَّوَادَ يُرَى وَبَاطِلٌ أَنْ يُرَى لِكَوْنِهِ جَوْهَرًا لِأَنَّ الْعَرَضَ يُرَى وَبَاطِلٌ أَنْ يَكُونَ عَرَضًا لِأَنَّ الْجَوْهَرَ يُرَى وَإِذَا بَطَلَتِ الْأَقْسَامُ بَقِيَ أَنَّهُ يُرَى مَوْجُودًا فَأُرِيدُ أَنْ تَكْشِفَ لِي عَنْ فَسَادِ هَذَا الْمِيزَانِ كَشْفًا ظَاهِرًا لَا أَشُكُّ فِيهِ. فَقُلْتُ: فَأَنَا أُورِدُ فِي ذَلِكَ مِثَالًا حَقًّا لَمْ يَنْتُجْ مِنْ قِيَاسٍ بَاطِلٍ وَأَكْشِفُ الْغِطَاءَ عَنْهُ فَأَقُولُ: قَوْلُنَا الْعَالَمُ حَادِثٌ حَقٌّ وَلَكِنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ إِنَّهُ حَادِثٌ لِأَنَّهُ مُصَوَّرٌ قِيَاسًا عَلَى

ٱلْبَيْتِ وَسَائِرِ ٱلْأَبْنِيَةِ ٱلْمُصَوَّرَةِ قَوْلٌ بَاطِلٌ لَا يُفِيدُ ٱلْعِلْمَ بِحُدُوثِ ٱلْعَالَمِ ، إِذْ يُقَالُ مِيزَانُهُ ٱلْحَقُّ أَنْ يُقَالَ كُلُّ مُصَوَّرٍ حَادِثٌ وَٱلْعَالَمُ مُصَوَّرٌ فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ حَادِثٌ وَٱلْأَصْلُ ٱلْآخَرُ مُسَلَّمٌ لَكِنَّ قَوْلَكَ كُلُّ مُصَوَّرٍ حَادِثٌ لَا يُسَلِّمُهُ ٱلْخَصْمُ وَعِنْدَ هَذَا يَعْدِلُ إِلَى ٱلِاسْتِقْرَاءِ ، فَيَقُولُ : ٱسْتَقْرَيْتُ كُلَّ مُصَوَّرٍ فَوَجَدْتُهُ حَادِثًا كَٱلْبَيْتِ وَٱلْقَدَحِ وَٱلْقَمِيصِ وَكَيْتَ وَكَيْتَ وَقَدْ عَرَفْتَ فَسَادَ هَذَا وَقَدْ يَرْجِعُ إِلَى ٱلسَّبْرِ فَيَقُولُ ٱلْبَيْتُ حَادِثٌ فَنَسْبُرُ أَوْصَافَهُ وَهُوَ أَنَّهُ جِسْمٌ وَقَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَمَوْجُودٌ وَمُصَوَّرٌ وَهَذِهِ أَرْبَعُ صِفَاتٍ وَقَدْ بَطَلَ تَعْلِيلُهُ بِكَوْنِهِ جِسْمًا وَقَائِمًا بِنَفْسِهِ وَمَوْجُودًا فَثَبَتَ أَنَّهُ مُعَلَّلٌ بِكَوْنِهِ مُصَوَّرًا وَهُوَ ٱلرَّابِعُ فَيُقَالُ لَهُ هَذَا بَاطِلٌ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ وَأَذْكُرُ مِنْهَا أَرْبَعَةً :

ٱلْأَوَّلُ أَنَّهُ إِنْ سَلَّمَ لَكَ بُطْلَانَ ٱلثَّلَاثِ فَلَا تَثْبُتُ ٱلْعِلَّةُ ٱلَّتِي طَلَبْتَهَا فَلَعَلَّ ٱلْحُكْمَ مُعَلَّلٌ بِعِلَّةٍ قَاصِرَةٍ غَيْرِ عَامَّةٍ وَلَا مُتَعَدِّيَةٍ كَكَوْنِهِ مَثَلًا بَيْتًا ، فَإِنْ ثَبَتَ كَوْنُ

ٱلْبَيْتِ غَيْرَ مُحْدَثٍ أَيْضًا فَلَعَلَّ ٱلْحُكْمَ مُعَلَّلٌ بِٱلْمَعْنَى ٱلْقَاصِرِ عَلَى مَا يُظْهِرُ كَوْنَهُ حَادِثًا إِذْ يُمْكِنُ تَقْدِيرُ وَصْفٍ خَاصٍ يَجْمَعُ ٱلْجَمِيعَ وَلَا يَتَعَدَّى .

ٱلثَّانِي أَنَّهُ إِنَّمَا يَصِحُّ إِذَا تَمَّ ٱلسَّبْرُ عَلَى ٱلِاسْتِقْصَاءِ بِحَيْثُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَشِذَّ مِنْهُ قِسْمٌ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ حَاصِرًا بَيْنَ ٱلنَّفْيِ وَٱلْإِثْبَاتِ دَائِرًا تُصُوِّرَ أَنْ يَشِذَّ مِنْهُ قِسْمٌ وَلَيْسَ ٱلِاسْتِقْصَاءُ ٱلْحَاصِرُ أَمْرًا هَيِّنًا وَٱلْغَالِبُ أَنَّهُ لَا يَهْتَمُّ بِهِ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ وَٱلْفُقَهَاءُ بَلْ يَقُولُونَ : إِنْ كَانَ فِيهِ قِسْمٌ آخَرُ فَابْرِزْهُ وَرُبَّمَا قَالَ ٱلْآخَرُ لَا يَلْزَمُنِي إِبْرَازُهُ وَطَالَ ٱللَّجَاجُ فِيهِ وَرُبَّمَا ٱسْتَدَلَّ ٱلْقَايِسُ وَقَالَ : لَوْ كَانَ فِيهِ قِسْمٌ آخَرُ لَعَرَفْنَاهُ وَلَعَرَفْتُهُ فَعَدَمُ مَعْرِفَتِنَا تَدُلُّ عَلَى نَفْيِ قِسْمٍ آخَرَ إِذْ عَدَمُ رُؤْيَتِنَا ٱلْفِيلَ فِي مَجْلِسِنَا تَدُلُّ عَلَى نَفْيِ ٱلْفِيلِ وَلَا يَدْرِي قَطُّ هَذَا ٱلْمِسْكِينُ أَنَّهُ لَمْ نَعْهَدْ قَطُّ فِيلًا حَاضِرًا لَمْ نَرَهُ ثُمَّ رَأَيْنَاهُ وَكَمْ رَأَيْنَا مَعَانِيَ حَاضِرَةً عَجَزْنَا جَمِيعًا عَنْ إِدْرَاكِهَا ثُمَّ تَنَبَّهْنَا لَهَا بَعْدَ مُدَّةٍ فَلَعَلَّ فِيهِ قِسْمًا آخَرَ

شَذَّ عَنَّا لَسْنَا نَتَنَبَّهُ لَهُ الْآنَ وَرُبَّمَا لَمْ نَتَنَبَّهْ لَهُ طُولَ عُمُرِنَا .

الثَّالِثُ : أَنَّا وَإِنْ سَلَّمْنَا الْحَصْرَ فَلَا يَلْزَمُ مِنْ إِبْطَالِ ثَلَاثَةِ ثُبُوتُ رَابِعٍ بَلِ التَّرْكِيبُ الَّذِي يَحْصُلُ مِنْ أَرْبَعَةٍ يَزِيدُ عَلَى عَشَرَةٍ وَعِشْرِينَ إِذْ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْعِلَّةُ آحَادَ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ أَوْ اثْنَيْنِ مِنْهَا أَوْ ثَلَاثَةً مِنْهَا ثُمَّ لَا يَتَعَيَّنُ الِاثْنَانِ مِنْهَا وَلَا الثَّلَاثَةُ بَلْ يُتَصَوَّرُ أَنْ تَكُونَ الْعِلَّةُ كَوْنَهُ مَوْجُودًا أَوْ جِسْمًا أَوْ مَوْجُودًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ أَوْ جِسْمًا مَوْجُودًا وَقَائِمًا بِنَفْسِهِ وَمَوْجُودًا أَوْ مَوْجُودًا وَبَيْتًا أَوْ بَيْتًا وَمُصَوَّرًا أَوْ بَيْتًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ أَوْ بَيْتًا وَجِسْمًا أَوْ جِسْمًا وَمُصَوَّرًا أَوْ جِسْمًا وَقَائِمًا بِنَفْسِهِ أَوْ جِسْمًا وَمَوْجُودًا أَوْ قَائِمًا بِنَفْسِهِ وَمَوْجُودًا - فَهَذِهِ بَعْضُ تَرْكِيبَاتِ الْإِثْنَيْنِ فَقِسْ عَلَى هَذِهِ التَّرْكِيبَاتِ مِنَ الثَّلَاثِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَحْكَامَ تَتَوَقَّفُ عَلَى وُجُودِ أَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ مُجْتَمِعَةٍ فَلَيْسَ يُرَى الشَّيْءُ لِكَوْنِ الرَّائِي ذَا عَيْنٍ إِذْ لَا يَرَى

بِاللَّيْلِ وَلَا سْتِتَارِ ٱلْمَرْئِيِّ بِالشَّمْسِ إِذْ لَا يَرَى ٱلْأَعْمَى وَلَا لَهُمَا جَمِيعًا إِذْ لَا يُرَى ٱلْهَوَاءُ وَلٰكِنْ لِجُمْلَةِ ذٰلِكَ مَعَ كَوْنِ ٱلْمَرْئِيِّ مُتَلَوِّنًا وَأُمُورٌ أُخَرُ هٰذَا حُكْمُ ٱلْوُجُودِ.

أَمَّا حُكْمُ ٱلرُّؤْيَةِ فِي ٱلْآخِرَةِ فَحَدِيثٌ آخَرُ.

ٱلرَّابِعُ أَنَّهُ إِنْ سُلِّمَ ٱلِاسْتِقْصَاءُ وَسُلِّمَ ٱلْحَصْرُ فِي أَرْبَعَةٍ وَتَرَكْنَا ٱلتَّرَاكِيبَ فَإِبْطَالُ ثَلَاثَةٍ لَا يُوجِبُ تَعَلُّقَ ٱلْحُكْمِ بِالرَّابِعِ مُطْلَقًا بَلْ بِانْحِصَارِ ٱلْحُكْمِ فِي ٱلرَّابِعِ وَلَعَلَّ ٱلرَّابِعَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ وَٱلْحُكْمُ يَتَعَلَّقُ بِأَحَدِهِمَا أَرَأَيْتَ لَوْ قَسَّمَ أَوَّلًا وَقَالَ أَمَّا كَوْنُهُ جِسْمًا أَوْ مَوْجُودًا أَوْ قَائِمًا بِنَفْسِهِ أَوْ مُصَوَّرًا مَثَلًا بِصُورَةٍ مُرَبَّعَةٍ أَوْ مُصَوَّرًا بِصُورَةٍ مُدَوَّرَةٍ ثُمَّ أَبْطَلَ ٱلْأَقْسَامَ ٱلثَّلَاثَةَ لَمْ يَتَعَلَّقْ ٱلْحُكْمُ بِالصُّورَةِ مُطْلَقًا، بَلْ رُبَّمَا أَخْتَصُّ بِصُورَةٍ مَخْصُوصَةٍ فَبِسَبَبِ ٱلْغَفْلَةِ عَنْ مِثْلِ هٰذِهِ ٱلدَّقَائِقِ خَبَطَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ وَكَثُرَ نِزَاعُهُمْ، إِذْ تَمَسَّكُوا بِالرَّأْيِ وَٱلْقِيَاسِ، وَذٰلِكَ لَا يُفِيدُ بَرْدَ ٱلْيَقِينِ بَلْ يَصْلُحُ لِلْأَقْيِسَةِ ٱلْفِقْهِيَّةِ ٱلظَّنِّيَّةِ وَلِإِمَالَةِ قُلُوبِ

ٱلْعَامَّةِ إِلَى صَوْبِ ٱلصَّوَابِ وَٱلْحَقِّ فَإِنَّهُ لَا يَمْتَدُّ فِكْرُهُمْ إِلَى ٱلِاحْتِمَالَاتِ ٱلْبَعِيدَةِ بَلْ يَنْجَزِمُ ٱعْتِقَادُهُمْ بِأَسْبَابٍ ضَعِيفَةٍ ، أَمَا تَرَى ٱلْعَامِيَّ ٱلَّذِي بِهِ صُدَاعٌ يَقُولُ لَهُ غَيْرُهُ ٱسْتَعْمِلْ مَاءَ ٱلْوَرْدِ فَإِنِّي إِذَا كَانَ بِي صُدَاعٌ فَٱسْتَعْمَلْتُهُ ٱنْتَفَعْتُ بِهِ كَأَنَّهُ يَقُولُ هَذَا صُدَاعٌ فَيَنْفَعُهُ مَاءُ ٱلْوَرْدِ قِيَاسًا عَلَى صُدَاعِي فَيَمِيلُ قَلْبُ ٱلْمَرِيضِ إِلَيْهِ فَيَسْتَعْمِلُهُ ، وَلَا يَقُولُ لَهُ أَثْبِتْ أَوَّلًا أَنَّ مَاءَ ٱلْوَرْدِ يَصْلُحُ لِكُلِّ صُدَاعٍ كَانَ مِنَ ٱلْبُرُودَةِ أَوْ مِنَ ٱلْحَرَارَةِ أَوْ مِنْ أَبْخِرَةِ ٱلْمَعِدَةِ وَأَنْوَاعُ ٱلصُّدَاعِ كَثِيرَةٌ فَأَثْبِتْ أَنَّ صُدَاعِي كَصُدَاعِكَ وَمِزَاجِي كَمِزَاجِكَ وَسِنِّي كَسِنِّكَ وَصِنَاعَتِي كَصِنَاعَتِكَ وَأَحْوَالِي كَأَحْوَالِكَ فَإِنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِهِ ٱلْعِلَاجُ ، فَإِنَّ طَلَبَ تَحْقِيقِ هَذِهِ ٱلْأُمُورِ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ ٱلْعَوَامِّ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَشَوَّقُونَ إِلَيْهَا وَلَا مِنْ شَأْنِ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ لِأَنَّهُمْ وَإِنْ تَشَوَّقُوا إِلَيْهَا عَلَى خِلَافِ ٱلْعَوَامِّ فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى ٱلطُّرُقِ ٱلْمُفِيدَةِ بَرْدَ ٱلْيَقِينِ وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ شِنْشِنَةِ (١) قَوْمٍ عَرَفُوهَا مِنْ أَحْمَدَ - صَلَّى

(١) الشنشنة : العادة والطبيعة

اللهُ عليهِ وسلَّمَ - وهُمْ قومٌ اهتدَوْا بنُورِ اللهِ إلى ضياءِ القُرْآنِ وأخذُوا منهُ الميزانَ بالقِسْطِ والقِسْطاسِ المُسْتقيمِ وأصبحُوا قوَّامينَ للهِ بالقِسْطِ، فقالَ: الآنَ هاهُوذا يلُوحُ لي مخايلُ الحقِّ وتباشيرُهُ منْ كلامِكَ فهلْ تأذنُ لي في أنْ أتَّبعكَ على أنْ تُعلِّمَني ممَّا عُلِّمْتَ رُشْداً. قُلْتُ: هيْهاتَ إنَّكَ لا تستطيعُ معي صبْراً وكيفَ تصبرُ على ما لمْ تُحِطْ بهِ خُبْراً. قالَ: ستجدُني إنْ شاءَ اللهُ صابراً ولا أعصي لكَ أمْراً قُلْتُ: أتظنُّ أنِّي نسيتُ اتِّعاظَكَ بنصيحةِ رُفقائِكَ ووالِدتِكَ ومَنْ نبضَ عليهِ عِرْقٌ منْ عُروقِ التَّقليدِ فلا تصْلُحُ لصُحْبتي ولا أصْلُحُ لصُحْبتِكَ فاذْهبْ عنِّي فهذا فِراقُ بيْني وبيْنكَ فإنِّي مشْغُولٌ بتقْويمِ نفْسي عنْ تقْويمِكَ وبالتَّعْليمِ منَ القُرْآنِ عنْ تعْليمِكَ فلا ترانِي بعْدَ هذا ولا أراكَ فلا تسَعُ أوْقاتي أكْثرَ منْ هذا. لإصْلاحِ الفاسِدِ والضَّرْبِ في الحديدِ البارِدِ. قدْ نصحْتُ لكُمْ ولكنْ لا تُحِبُّونَ الناصِحينَ. والحمْدُ للهِ ربِّ العالمينَ والصَّلاةُ والسَّلامُ على محمَّدٍ نبيِّنا سيِّدِ المُرْسلينَ.

فهاكم إخواني قصتي مع رفيق تلوتها عليكم بعجرها وبجرها لتقضوا منها العجب وتنتفعوا في إثبات هذه المحادثات بالتفطن لأمور هي أجل من تقويم مذهب التعليم فلم يكن ذلك من غرضي ولكن إياك أعني واسمعي يا جارة والتماسي من المخلصين قبول معذرتي عند مطالعة هذه المحادثات فيما آثرته في المذاهب من العقد والتحليل وأبدعته في الأساسي من التغيير والتبديل، واخترعته في المعاني من التخييل والتمثيل، فلي تحت كل واحد من ذلك غرض صحيح. وسر عند ذوي البصائر صريح، وإياكم أن تغيروا هذا النظام وتنتزعوا هذه المعاني من هذه الكسوة فقد علمتم كيف يوزن المعقول بالإسناد إلى المنقول ليكون القول منهما أسرع إلى القبول، وإياكم أن تجعلوا المعقول أصلا والمنقول تابعا وردفا فإن ذلك شنيع منفر. وقد أمركم الله سبحانه بترك الشنيع والمجادلة بالأحسن، وإياكم أن تخالفوا الأمر فتهلكوا وتهلكوا

وَتَضِلُّوا وَتُضَلُّوا وَمَاذَا تَنْفَعُ وَصِيَّتِي وَقَدْ انْدَرَسَ الْحَقُّ وَانْكَسَرَ الْبَثَقُ[1]، وَانْتَشَرَتِ الشَّنَاعَةُ وَطَارَتْ فِي الْأَقْطَارِ وَصَارَتْ ضِحْكَةً فِي الْأَمْصَارِ. فَإِنْ قَوْمًا اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا، وَجَعَلُوا التَّعْلِيمَاتِ النَّبَوِيَّةَ هَبَاءً مَنْثُورًا، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ قُصُورِ الْجَاهِلِينَ وَدَعْوَاهُمْ فِي نُصْرَةِ الدِّينِ مَنْصِبَ الْعَارِفِينَ. «وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ».

إِلَى هُنَا تَمَّتْ مُخْتَارَاتُنَا مِنْ كَلَامِ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ الْغَزَالِيِّ وَنَرْجُو - إِنْ كَانَ فِي الْعُمُرِ بَقِيَّةٌ - أَنْ نُعْنَى بِإِصْدَارِ طَبْعَةٍ أَخِيرَةٍ لِذَخِيرَتِهِ الْخَالِدَةِ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْأَدَبِ وَالْإِسْلَامِيَّاتِ نَعْنِي بِهَا «كِتَابَ الْإِحْيَاءِ» فِي ضَبْطٍ وَشَرْحٍ وَتَعْلِيقٍ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ فِي الْأَوَائِلِ وَالْأَوَاخِرِ.

---

(١) البثق : منبعث من الماء

﴿ انتهى المجلد الثالث من كتاب الغزالى ﴾

الذى خصص بالمختارات

حقوق الطبع محفوظة لناشره

الدكتور أحمد فريد رفاعى بك

جميع النسخ ممهورة بتوقيع ناشره

فهرست

المجلد الثالث من كتاب الغزالى الذى خصص بالمختارات

الصفحة		الموضـــــوع
من	الى	
٣	٣	كلمة العماد الأصفهانى
٥	٦	رسالة أيها الولد « توطئة »
٧	٤٤	نص الرسالة
٤٥	٤٦	الأدب فى الدين
٤٦	٤٧	الآداب كما يراها الغزالى
٤٧	٤٨	آداب العالم
٤٨	٤٨	آداب المتعلم مع العالم
٤٨	٤٩	آداب المقرئ
٤٩	٤٩	آداب القارئ
٤٩	٥٠	آداب معلم الصبيان
٥٠	٥١	آداب المحدث
٥١	٥٢	آداب طالب الحديث
٥٢	٥٢	آداب الكاتب
٥٣	٥٣	آداب الواعظ
٥٣	٥٣	آداب المستمع
٥٣	٥٤	آداب الناسك
٥٤	٥٥	آداب اعتزال الناس

الموضـــــوع	الصفحة من	الى
آداب الصوفى	٥٥	٥٥
آداب الشريف	٥٦	٥٦
آداب النوم	٥٦	٥٦
آداب التهجد	٥٧	٥٧
آداب الخلاء	٥٧	٥٧
آداب الحمام	٥٧	٥٨
آداب الوضوء	٥٨	٥٨
آداب دخول المسجد	٥٨	٥٩
آداب الاعتكاف	٥٩	٥٩
آداب الأذان	٥٩	٦٠
آداب الامام	٦٠	٦١
آداب الصلاة	٦١	٦١
آداب القراءة	٦٢	٦٢
آداب الدعاء	٦٢	٦٢
آداب الجمعة	٦٢	٦٣
آداب الخطيب	٦٣	٦٤
آداب العيد	٦٤	٦٤
آداب الخسوف	٦٥	٦٥
آداب الاستسقاء	٦٥	٦٥
آداب المريض	٦٥	٦٦
آداب المعزّى	٦٦	٦٦
آداب المشى مع الجنازة	٦٦	٦٦

الصفحة من	الصفحة الى	الموضوع
٦٦	٦٧	آداب المتصدق
٦٧	٦٧	آداب السائل
٦٧	٦٨	آداب الغنى
٦٨	٦٨	آداب الفقير
٦٨	٦٩	آداب المهدى
٦٩	٦٩	آداب المهدى اليه
٦٩	٦٩	آداب اصطناع المعروف
٦٩	٧٠	آداب الصيام
٧٠	٧٠	الحج ـ آداب الطريق
٧٠	٧١	آداب الاحرام
٧١	٧١	آداب دخول مكة
٧١	٧٢	آداب دخول المدينة
٧٢	٧٣	آداب التاجر
٧٤	٧٤	آداب الصيرفى
٧٤	٧٤	آداب الصائغ
٧٤	٧٥	آداب الأكل
٧٥	٧٥	آداب الشرب
٧٥	٧٦	آداب الرجل اذا أراد النكاح
٧٦	٧٧	آداب المرأة اذا خطبها الرجل
٧٧	٧٧	آداب الجماع
٧٧	٧٨	آداب الرجل مع الزوجة
٧٨	٧٨	آداب المرأة مع زوجها

الموضـــــوع	الصفحة من	الصفحة الى
آداب الرجل فى نفسه	٧٨	٧٩
آداب المرأة فى نفسها	٧٩	٨٠
آداب الاستئذان	٨٠	٨٠
آداب الجلوس على الطريق	٨٠	٨١
آداب المعاشرة	٨١	٨٣
آداب الولد مع والديه	٨٣	٨٤
آداب الوالد مع أولاده	٨٤	٨٤
آداب الاخوان	٨٤	٨٤
آداب الجار	٨٥	٨٥
آداب السيد مع عبده	٨٥	٨٥
آداب العبد مع سيده	٨٥	٨٦
آداب السلطان مع الرعية	٨٦	٨٦
آداب الرعية مع السلطان	٨٦	٨٧
آداب القاضى	٨٧	٨٧
آداب الشاهد	٨٧	٨٧
آداب الجهاد	٨٧	٨٨
آداب الأسير	٨٨	٨٨
آداب جامعة	٨٨	٩٢
رسالة المنقذ من الضلال « توطئة »	٩٣	٩٩
مداخل السفسطة وجحد العلوم	١٠٠	١٠٥
أصناف الطالبين	١٠٦	١٠٧
علم الكلام ومقصوده وحاصله	١٠٨	١١٠

الموضوع	الصفحة من	الى
الفلسفة	١١١	١١٣
أصناف الفلاسفة وشمول وصمة الكفر كافتهم	١١٤	١١٤
الدهريون	١١٤	١١٤
الطبيعيون	١١٤	١١٦
الالهيون	١١٦	١١٧
اقسام علوم الالهيين	١١٨	١٣٢
آفة القبول	١٣٢	١٣٤
مذهب التعليم وغائلته	١٣٥	١٤٩
طرق الصوفية	١٥٠	١٥٧
انتقال الغزالى الى الشام	١٥٧	١٥٨
رحلة الغزالى الى بيت المقدس والحجاز	١٥٨	١٥٨
عودة الغزالى الى وطنه	١٥٨	١٦٣
حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق اليها	١٦٤	١٧١
سبب نشر العلم بعد الاعراض عنه	١٧٢	١٩٥
رسالة القسطاس المستقيم « توطئة »	١٩٦	٢٠٦
القول فى الميزان الأكبر من موازين التعادل	٢٠٦	٢٠٩
ميزان التلازم	٢٠٩	٢٢١
القول فى الميزان الأوسط	٢٢٣	٢٢٧
القول فى الميزان الأصغر	٢٢٨	٢٣٢
القول فى ميزان التلازم	٢٣٣	٢٣٦
القول فى ميزان التعاند	٢٣٧	٢٤٤

الصفحة		الموضـــــوع
من	الى	
٢٤٤	٢٤٥	ميزان التلازم
٢٤٥	٢٤٩	ميزان التعادل
٢٥٠	٢٦١	القول فى موازين الشيطان وكيفية أهل التعليم بها
٢٦٢	٢٧١	القول فى الاستغناء بمحمد صلى الله عليه وسلم وبعلماء أمته
٢٧٢	٢٧٣	القول فى طريق نجاة الخلق من ظلمات الاختلافات
٢٧٣	٢٧٤	معالجة الخواص
٢٧٤	٢٨٣	معالجة البله
٢٨٣	٢٩٠	الصنف الثالث « أهل الجدل »
٢٩١	٣٠٥	القول فى تصاوير الرأى والقياس واظهار بطلانهما

A.U.B. LIBRARY

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00465226